وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر - 1-

كلية العلوم الإسلامية

قسم العقائد والأديان

العقيدة عند سيد قطب "المناهج والمضامين"

-دراسة تحليلية نقدية-

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية

تخصص: عقيدة

إشراف الأستاذ الدكتور: عمار جيدل

إعداد الطالب: خليل قاضي

العام الدراسي: 1433هـ // 2012م

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ سورة البقرة: ١٧٧

(الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)

جزء من حديث جبريل المعروف.

أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه في سننهم.

(إن المعركةَ بين المؤمنين وخصومِهم هي في صميمِها معركةُ عقيدة وليست شيئا آخر على الإطلاق، وإن خصومَهم لا ينقمون منهم إلا الإيمانَ ولا يسخطونَ منهم إلا العقيدة، إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ولا معركة عنصرية، ولو كانت شيئا من هذا لسهُل وقفُها وسهُل حل إشكالِها، ولكنها في صميمِها معركة عقيدة)

سيد قطب، معالم في الطريق، ص 185.

الإهداء

إلى أرواح جدّيَّ محمد وأرزقي

وجدّتيَّ الجوهر وذهبية

إلى أبي وأمِّي أعزّ وأغلى

مخلوقين في الوجود إليَّ بعد رسول الله ﷺ

إلى إخوتي وأخواتي

إلى كل العائلة والأقارب

إلى كل معارِفي

أهدي لهم جميعا هذا العمل

عُربونَ محبَّة ووفاء

خليل

مقدمة:

بسم الله العلي الأعلى الواحد الأحد الفرد الصمد..

والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فلا تزالُ الحاجةُ قائمةً إلى عرض كامل للتصور الإسلامي للوجود وصياغة جديدة للعقيدة الإسلامية من حيث طريقةُ عرضها وتقديمها، لتُسعِف المسلِم في مواجهةِ التحديات الفكرية والعقدية الحديثة والمعاصِرة، وأن يُسلَكَ في عرْضِها أسلوبُ العصر الحديث من حيث التعبيرُ ومناهجُ البحث والاستدلال بدلا من الطريقةِ الكلامية التقليدية المَشُوبَة بالنظريات الفلسفية المعقَّدة الجافّة؛ التي أطفأتْ إشعاعَها وإيحاءَها بالتقعيرات التفصيلية التي ليس لها ما يُبرّرُها في أيامِنا الراهنة، فإنها وإن استُسيغَت في سالِف الأيام؛ فإنها اليومَ دون القيام بوظيفة الإبْلاغ عن الله.

ومثلُ هذا العرْض يتمّ دون الانغماس في الجوِّ الجدَلي والردِّ على الشُّبَه بحيث يُشغَل العارِض عن مهمَّتِه الأساسية في العرْض الإيجابي لأسُس العقيدة ومفاهيمِها وقضاياها ومَعالِمِها الكبرى.

والقرآنُ ذاتُه في عرْضه للعقيدة الإسلامية خاطبَ العقلَ وقدَّم له الحُجج والدلائل المُقنعة بوجودِ الله خالِق الكون والمهيمِن عليه، ثم ولَّدَ في القلب الشعورَ بتعظيمِه وخشيتِه ورجاءِ رحمتِه، والاعتماد عليه والالتجاء إليه، وهما أمران جمعهما القرآنُ في نسَق واحد ولكنهما تفرَّقا في حياة المسلمين في كثير من العصور، فأخذ المتكلمون – في كُتب الكلام والتوحيد – الجانبَ

العقليَّ وحدَه، وأخذ أهلُ التصوُّف الجانبَ الباطني القلبي، وأخذ غيرهما بالظاهِر على حسابِ الفكرِ والباطِن؛ فكانت النتائجُ المشوَّهة المَبتورَة بسببِ هذا الفصْل.

وبضمِّ هذه الجوانب – العقل، القلب، الظاهِر – إلى بعضِه ا يحصُل الكمالُ في المسلِم، وينتفعُ العامِل بها في دينِه في الدنيا قبل الآخِرة.

والمسلمون في زماننا يُرجعونَ أسباب ضعفهم إلى التقصيرِ في العمل ، مع أن تقصيرَهم في العقيدة – التي لا تقبلُ التقصيرَ أصْلا – أشدّ بكثير من تقصيرِهم في العمل، وهو داؤهم الذي عاقَهم وعاقَ حكوماتِهم عن العمل بقانون الإسلام مُستعيضينَ عنه بالقوانين الوضعية التي شرعها البشَرُ للبشرِ.

وقد كانت محاولة سيد قطب في عرض العقيدة الإسلامية متكاملةً جديرةً بالبحث، إذ إنه استهدف بيانَ مقتضياتِها في حياةِ البشر ، من حيث تغييرُ واقعِهم تغييرا جذريا، وتصحيح مفاهيمِهم وتصوُّراتِهم، وبالتالي أنظمتِهم وأوضاعِهم وعاداتِهم وتقاليدِهِم ، ويقيموا حيَاتَهم على هذا المنهج المُبارَك – الذي فصَّلنا حيثياتِه في عرض البحث – ليكفلوا تغييرَ موازين القوى الفاعِلة والفعَّالة لصالِح الإسلام.

وفي هذا الإطار حاولْنا رصْد منهجِه بدقة في أخطر القضايا الدينية وهي العقيدة الإسلامية، هادِفِين قبل كل شيء إلى إزالة الغَبَش الذي عَلِقَ بفكرِ كثيرٍ من الباحثين في منهج سيد، ليصبحوا على بيِّنة من أمرِهم وليختاروا بعد بَيان، فإن الاختيارَ الصحيح هو ما كان بعدَ وُضوح الرؤيةِ واستِنارة الطريق ورويَّة التفكير.

أهمية الموضـــوع:

1ـ استهدفنا من بحثِنا جمْع ما تناثرَ في كُتبه من التصورات والمفاهيم العَقَدية التي بسطها وأطال النفَس فيها أحيانا، وحاولنا رسْمَ صورة كلِّية جامعة لمذهبِه في العقيدة، وعرَضنا جملةً من الآراء حول فِكر الرجُل على تضارُبها، وأسَّسنا ما ذهبنا إليه على الأدلة والبراهين الشرعية المبنية على أصول الشرْع وقواعد الاستنباط لكثير من الجوانب التي يكثُر فيها الخلْط وتزلُّ فيها الأقْدام وتزيغ فيها الأفْهام.

2ـ نحن أحوج ما نكونُ إلى العِلم الذي يورث عملا ، وسيد نفسُه لم يكتُب ما كتبَ ليضيفَ فصْلا جديدا في المكتبة الإسلامية، فالهدفُ عندَه ليس مجرَّد المعرِفة البارِدة التي تتعامَل مع الأذهان وتُحسَب في رصيدِ الثقافة، فهذا الهدفُ في اعتبارِه لا يستحقُّ عناءَ الجُهد فيه، إنما يبغي الحَرَكة من وراءِ المعرفة، أن تَستحيلَ هذه المعرِفةُ قوةً دافِعةً لتحقيقِ مدلولِها في عالَم الواقع، أن يَستَجِيشَ ضميرَ الإنسانِ لتحقيقِ غايةِ وجودِه الإنساني، أن تَرجع البشريةُ إلى ربِّها، وإلى منهجِه الذي أرادَه لها.

3ـ عرْض ومناقَشة ما يُنسبُ زورًا لسيد قطب من أفكار ونظريات اتخذَها أصحابُ فِكر التكفير تُكَأَةً لهم لتبريرِ مواقفِهم من الحكَّام والمجتمعاتِ والأفراد.

4ـ بيان أصول العقيدةِ التي أثبتَها سيد قطب في كُتُبِه وما كُتِبَ عنها وعليها ، وإثبات بُعْدِها عن فِكرِ الخوارج الجدُد والأساليب الباطنية في التعامُل مع النصوص القرآنية والحديثية.

5ـ بيان حُكم الإسلام في الموضوع حتى تزولَ الشبهاتُ عند أصحابِ هذا الفِكر، وذلك ليكون حُكم الله واضِحا، حتى إذا ما تصدَّى أَحَدٌ لإصدارِ الأحْكام على الناس بالكُفر والإيمان يكون على بيِّنة من حُكم الله قبل أن يحكُم على غيرِه.

6ـ حاولْنا إلقاءَ الضوء على البُعد العَقَدي في الحياة كلِّها كنظام متكامِل يمسّ كل جوانبِها؛ وطريقة سيد في هذا العرْض المميَّز .

إشكالية البحث:

هناكَ عدةُ إشكالات تفرضُ نفسَها على الباحث في الموضوع؛ أقمتُ بحثي على أساسها وهي:

ـ ما هي أسُسُ ومَعالم المنهج الذي سلكَه سيد قطب في بيان أصول ومُرتكزات العقيدة الإسلامية؟

ـ وهل سلكَ مسلكًا كليا شاملا استوعبَ من خلاله مضامينَ العقيدة؟

ـ وهل هو صاحبُ منهج مُتميز؟ وفيمَ كان تميزُه؟

ـ وما هي القيمةُ العلميةُ التي تحظَى بها كتُبُه بين هذا التراث الضخْم المكتوب والمَرْئي والمسمُوع في العقيدة الإسلامية؟

ـ وهل عرَضَ لكل مَباحث العقيدة الإسلامية (الإلهيات والنبُوّات والسَّمْعيات والكوْنيات) وهو يؤلفُ في التفسيرِ والفِكر الإسلاميِ؟

ـ وكيف يمكنُنَا الاستفادةُ مِن منهجِه؟

ـ وهل كان لمنهجِه صدًى في الساحةِ الإسلامية؟ وإلى أيِّ مدًى كان ذلكَ؟

ـ ولماذا أُسِيءَ فهْمُ كتاباتِه العَقَديَّة عند بعضِ الأوْسَاط؟ أكانتْ زلاتٍ مِن سيّد أم لحاجاتٍ في نُفوس هؤلاءِ؟

هذا ما حاولْنا جاهدينَ الإجابةَ عنهُ من خلالِ أطروحتِنا، باذِلينَ الجُهد مُستفرِغينَ الوُسعَ في ألَّا نقعَ في إفْراط أو تفريطٍ كيْ لا نغمِطَ الرجُلَ حقَّه أو نكسُوَه بثوبِ القَداسة والعِصمة.

أسبابُ اختيارِ الموضوع:

من الأسبابِ التي حفَّزتْني لاختيارِ هذا الموضوع بالذات:

ـ أهميتُه التي أسلفْنا فيها.

ـ كوْني ممَّن نقَّب كثيرا في فِكر سيد قطب في رسالتِي للماجستير حولَ منهجِه في التفسيرِ، وكان أمَلي أن أُتابعَ البحثَ في جانبٍ آخرَ من جوانبِ فكرِ هذهِ الشخصيةِ التي تركتْ بصماتِها واضحةً في الفكرِ الإسلامي.

ـ جِدَّةُ الموضوع، بحيثُ لم تُقدَّم أيُّ أطروحة في هذا الموضوع بالذات – في حُدود عِلمي – بعد تفحُّصي لفهارس أطروحاتِ كلِّية الشريعة بالجزائر إلا ما كانَ من عناوينَ فرعيةٍ حولَ عقيدةِ سيد قطب باقتضابٍ شديد.

ـ مُحاولةُ التأسيسِ للقِراءة الموضوعيةِ البعيدةِ عن التحيُّز والتجْريح لإنتاج سيد قطب في ميدانِ العقيدة.

ـ الحاجةُ الشديدةُ اليومَ إلى توظيفِ المُحتوَى العَقَدي وتجسيدِه واقِعًا حيًّا في حياةِ المسلمينَ، والكَفِّ عن المُماحكاتِ الكلاميةِ واللغويةِ التي لا تُجدي نفْعا بل تزيدُ الهُوّة اتِّساعا.

ـ محاولةُ كسْرِ جدارِ الصمْت عن أحَدِ رِجال الحرَكة الإسلامية البارِزينَ في مِثل هذا الموضوع الحسَّاس؛ والذي تحرِصُ دوائرُ التغريبِ وبعضُ المُنتمِين إلى التيارِ الإسلامي على الانتقاصِ منهُ والتهجُّم عليه في وسائلِ الإعلام المُختلفة.

ـ مثلُ هذهِ الأطروحةِ فرصةٌ مُواتيةٌ للخُروج مِن الأحكام المُتناقِضة حولَ العقيدةِ عند سيد قطب ومسائلِها وأبحاثِها بالأدلَّة والبراهين.

خطّة البحث:

قسَّمتُ بحثي إلى أربعةِ فصول وخاتِمة ضمَّنتُها أهمّ النتائج التي توصّلتُ إليها:

الفصل الأول بعنوان: "مصادِر العقيدة عند سيد قطب" وقسّمتُه إلى ثلاثةِ مباحث، **الأوّل:** عرّفتُ فيه بشطرَيْ عنوان الأطروحة وهما "العقيدة" و"سيد قطب"، استقصيتُ تعاريفَ العقيدة عند القُدَماء والمُحدَثين وأرجعتُ هذه التسميةَ إلى مصادرِها، أمّا سيد قطب فاقتصرتُ على نبذة من نشأتِه وحياتِه، ثم ركزتُ على اتجاهِه الإسلامي بدايةً من انضمامِه للإخوان المسلمين.

وفي **المبحث الأول:** اعتنيتُ بالمصدَر الأوّل الذي اعتمدَه سيد في العقيدة وهو القرآن الكريم؛ وبيَّنت طريقتَه في استلهام النصِّ مباشرةً، وتسليمِه بمدلولِه، وتجاوُزِه للخلافِ المذهبي والكلامي، وناقشتُ ما قيلَ عنه بشأن خلْق القرآن.

أمّا **المبحث الثاني:** فخصّصتُه للمصدر الثاني وهو السُّنة النبوية الشريفة بقسميْها المتواتر والآحاد، وبينتُ موقفَه بجلاء من خبر الآحاد في العقيدة وناقشتُ ما قيل عنه في المسألة.

الفصل الثاني بعنوان: " أدلة العقيدة عند سيد قطب" وقسمتُه إلى أربعة مباحث:

الأول: تحدثتُ فيه عن دليل الفِطرة وعلاقتِها بالأوَّليات العقلية وطريقة القرآن في مخاطَبة الفِطرة، وكيف انطلقَ سيد من هذه القاعِدة الأساسية في تثبيتِ مفهوم الإيمان.

أما **المبحث الثاني**: فخصصتُه لدليل العقل وأسلوبِه في التوصُّل إلى المعرِفة، ووقوف سيد عند حدود الإدراكِ العقلي في القضايا العَقَدية.

وفي **المبحث الثالث**: ضمَّنتُه دلالة الأنبياء ومعجزاتهم بداية من معجزات الأنبياء الحِسِّية وانتهاءً بالمعجزة الكبرى ـ القرآن الكريم ـ وموقف سيد من الإعجاز الغيبي والإعجاز العِلمي.

وفي **المبحث الرابع**: دليل الأنفُس والآفاق الذي يُطيل فيه سيد النفَس ويحشُد له الشواهِد الكثيرة من القرآن والسُّنة وأقوال العلماء الغربيين.

الفصل الثالث بعنوان: "عرْضُه لمباحِث العقيدة" وقسمتُه إلى أربعة مباحث:

الأول: وخصَّصتُه للإلهيات؛ وُجود الله تعالى وصفاته ، والإرادة الإنسانية أمام إرادةِ الله تعالى، والقضاء والقدَر، و ناقشتُ ما قيل عنه في تعطيل الصفات مناقشةً علمية بالأدلة والشواهِد بعد بيان منهجِه في الباب.

أما **المبحث الثاني**: فخصَّصتُه للنبوَّات بدايةً من الوحي الذي كان له معه وقفات متفرِّدة، فالأنبياء والصفات الضرورية لهم ؛ فالمعجزات؛ فالنبوة؛ وناقشتُ ما قيل عنه في المعجزات من أنه ينفي الحِسيةَ منها وسُقتُ الأدلة من "الظلال" على بُطلان دعواهم.

والمبحث الثالث: في الكونيات وفيه الإنسان والملائكة والجانّ، وأدرجْتُ الملائكة والجان في هذا المبحث لا في الغيبيات وإن كنا لا نشاهدها فهي موجودةٌ معنا في هذا الكون، أما الغيبيات فتبدأ من الموت إلى أحداث اليوم الآخِر، وبينتُ طريقةَ سيد في عرض هذه المباحث.

والمبحث الرابع: فخصَّصتُه للغيبيات وهي الموت وأشراط الساعة واليوم الآخِر وأحداثه وناقشت ما قيل عنه في مسألة الروح وفي الميزان يوم القيامة.

الفصل الرابع بعنوان: "وظيفةُ الإنسان تنفيذ حاكِمية الله في الأرض " وقسَّمتُه إلى أربعة مباحث: **الأوّل**: خصصتُه لتحديد بعض المصطلَحات ذوات المفهومات العائمة عند الكثيرين ؛ والتي أكثرَ سيدٌ من استعمالِها كالحاكِمية والجاهِلية والتكفير والعُزلة الشعورية وحدَّدتُ مفهوماتِها عند سيد استنادا إلى كُتبِه وما كُتبَ عنه.

والمبحث الثاني: جعلتُه للعقيدة والسياسة وكيف فصَّل سيدٌ أصولَ الحُكم الإسلامي وسُلطات الحاكِم وحقوق الإنسان والعلاقات الدولية في براعة تشهَد له بالإحاطة والنضج الفكري السياسي.

أما **المبحث الثالث**: فلأفردتُه للحاكِمية والتزامات الحاكِم والمحكوم، وفيه يتوسع سيد ويفيض في البيان أكثرَ من كل ما سلف ؛ إذ يرى أن الحاكِمية من أخصِّ خصائص الألوهية فمن نازعَ الله فيها فقد نازعَه في الألوهية، بدأتُ فيه بالحُكم بغير ما أنزلَ الله بين الكُفر والظلم والفسوق، ثم التشريع مع الله والكُفر، وبينتُ موقفَه من تكفيرِ المجتمعات والأفراد.

وفي **المبحث الرابع والأخير**: العقيدة والشهود الحضاري، تحدثنا عن عالَمِية الدعوة والحاكِمية وافترضنا أن سيدا من أوّل الداعين إلى العوْلَمَة الإسلامية جاعِلا جنسيةَ المسلم عقيدته، ثم أتْبعناه بمواصفاتِ المجتمع المسلم عند سيد قطب، وأخيرا الأثَر الحضاري للعقيدة الإسلامية.

وفي **الخاتِمة** عرضتُ أهمَّ وأبرز النتا ئج التي اهتديتُ إليها في بحثي، ونصَصْتُ على الجوانب والقضايا البِكر في تراث سيد قطب عسى أن يستكملَها الباحثون في قابِل الأيام.

منهج البحث:

وأما المنهج الذي اعتمدتُه في دراستي هذه فهو **المنهج التحليلي النقدي** ، باستخدام خطة منظَّمة للوصول إلى كشف الحقائق والبرْهَنة عليها بتقسيم الكلِّ إلى أجزائِه، وردِّ الشيء إلى عناصرِه المكوِّنة له، والتمحيصُ كما هو معلومٌ يقومُ أساسا على تحليلِ المعارِف ومُحاكمتِها إلى ما جادَت به قرائحُ العلماء الأعْلام.

واقتضى إعمال هذا المسلَك في بحثي فحصَ وتقويم مؤلفات سيد قطب في العقيدة، لهذا أحلِّل ما وردَ عنه وأقوِّمه بأسلوب نقدي ، فيكون بهذا مستغرِقًا لجميع مضامين البحث في بيان المصادِر التي اعتمدَ عليها ومعالِم المنهج الذي سارَ عليه وكذا مميزات طرْحه العَقَدي.

ونجتهد ما أمكنَنا في أن نعودَ بالآراءِ المطروحة على بِساط البحث إلى أصولِ الفكر الإسلامي، من نصوصٍ قرآنية وأحاديثَ نبوية، وأفْهام العلماء العُدول الأثْبات، للحُكم على الرأيِ أو عليه لقبولِه أو ردِّه.

مصادِر ومراجِع البحث:

القسم الأول: مصادِر البحث:

أهم ما جمعت منه مادة البحث: في الصدارَة القرآنُ الكريم ؛ ثم كلّ كُتب سيد قطب الخمسة والعِشرين وفي مقدِّمتِها "في ظلال القرآن" و"معالِمِ في الطريق " و"خصائص التصوُّر الإسلامي ومقوِّماته" بجُزأَيْهِ، و "هذا الدين" و"المستقبلُ لهذا الدين " و"الإسلامُ ومشكِلات الحضارة" و "معرَكة الإسلام والرأسمالية " ومقالاته التي جُمِعت تحت عنوان "أيها العربُ استيقِظوا واحذَروا"، أما الباقي فأدبية صِرْفة.

القسم الثاني: مراجع البحث:

ثم استفدتُ من كتب السُّنة المطهَّرة وعلى رأسِها: الصِّحاحُ والسُّنَن والمَسَانيد ، وكتب العقيدة القديم منها والحديث على تنوُّعِها ، وكتب محمد قطب "أخِيهِ"، وكل الكتب التي استطعتُ جمعَها مما كُتِبَ عن سيد قطب وعن إنتاجِه الفكري والأدبي ، وكتب التاريخ المعاصِر ، وما كتب عن الإخوان المسلمين، وما كتبه مفكِّرو الإخوان، وكُتب الأدب، والمقالات في الدوريات والجرائد إلا أن هذه الأخيرة ليس فيها كبير فائدة.

وفي هذا الكمِّ الهائل من القسم الثاني بعد فحْصه وغربلتِه لا نظفر أحيانا من بعضِها حتى على فقرة تصلُح للاستشهاد أو الاستئناس بعد المُضيِّ فيها أشواطا في المُطالَعة، فكم من كتاب يوحي عنوانُه بالاتصالِ بالموضوع حتى إذا جئتَه وجدتَه كسرابٍ بقِيعةٍ يحسبُه الظمآنُ ماءً فإذا فرغتَ منه لم تجدْه شيئا.

الدراسات السابقة ومجالُ الإضافة:

إن سيد قطب ـ رحمه الله ـ رغم ما أحدَث في الفكر الإسلامي الحديث من آثارٍ بعيدة المدى، فإنه مغموطُ الحق، لم يُكتب فيه الشيءُ الكثير، ولم يزِد الناشرونَ على أنْ جعلُوه وسيلةً للربْح فنشَروا الكثيرَ مما كتبَ سرِقةً وقرصَنةً.

ففي فهرس الأطروحات بكُلِّيتنا لا توجد إلا رسالتي للماجستير ـ سيد قطب ومنهجه في الظلال ـ.

وفيما كُتبَ عنه من رسائل أكاديمية في الجانب العَقَدي لا نجد ما يُغني، ولم تتطرّق لهذا المسلَك الكُلي الشامل للعقيدة عند سيد قطب إلا ما كان من مبحث صغير لصلاح عبد الفتاح الخالدي في رسالته للدكتوراه (في ظلال القرآن دراسة وتقويم) في الجزء الثالث من رسالته (في ظلال القرآن في الميزان)، وإن كان الكتابُ قيّمافي محتواه مفيدا، يدل على مكانة كاتبِه وفهمِه العميق لفكر سيد قطب.

وفصلٌ مختصرٌ جدا لمحمد توفيق بركات في كتابه (سيد قطب، حياتُه، منهجُه في التغيير والنقدُ المُوَجَّه إليه)، وهذا الكتاب على دقته وعِظَم قيمته وما يوحي ب ه عنوانُه لم يتعرّض للمباحث العقَدية عند سيد قطب واكتفى ببيانِ تركيزِه على العقيدة في الدعوة والحركة.

وفي الكتب نجد:

1 ـ محمد علي قطب، سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي.

2 ـ إبراهيم بن محمد البليهي، سيد قطب وتراثه الأدبي والفكري.

3 ـ يوسف العظم، رائد الفكر الإسلامي المعاصِر الشهيد سيد قطب.

وغيرها مما لا يتسِع المجالُ لذكرِها هنا، والتي لا تمتُّ بصلة وثيقة لموضوعِنا، وإنما نستأنسُ بها في بحثِنا بإحالاتِها وتوثيقاتِها، أما **مجال الإضافة في أطروحتنا فهو:**

ـ رسْم صورة كاملة لعقيدة سيد قطب كما لاحَت للباحِث، وبيان منهجِه في أخذِها من مصادرِها، وعرضه لها في أَصالة وموضوعية تبعَث على الحركة والتفاعُل مع المضمون العَقَدي، إذ لم يُنجَز بحثٌ لحد الآن بهذا الحجم - في حدود عِلمي-؛ بحيث يتطرّق لكلّ المباحِث الأساسية للعقيدة عند سيد قطب، فيتوفر بمادة البحث مرجعٌ في القراءة العلمية والمنهجية لفكر سيد قطب، ويتضح مسلكُه في العقيدة فلا تُطلَق عليه الأحْكام المُبتسَرَة العَجْلى المؤسَّسة على جزئيةٍ من الجزئيات.

الصعوبات:

في هذه المرحلة الطويلة من هذا البحث واجهتنا صعوباتٌ جمَّة نحصُرها في هذه النقاط:

1 ـ نقصُ المراجع ـ إذ المصادر جمعتُها كلها بالشراء وأنا في مرحلة الماجستير ـ أمّا المراجع فشحيحةٌ فيما كُتب عن شخصية سيد قطب أو فيما كُتب عن إنتاجِه، فأضنيتُ نفسي في جمْع كثيرٍ

منها شراءً واستعارةً من الأصدقاء والمَعارِف، فالمكتباتُ للأسف الشديد تفتقرُ إلى كُتب سيد نفسِها بَلْهَ ما كُتبَ عنه.

2 ـ سَعة الموضوع وتشعُّبه وغزارةُ إنتاج سيد، فالبحثُ في مضامين العقيدة كلّها بفروعِها وجزئياتِها في كتبِه كلّها لا يُقدِّر مشقتَه إلا مَن عاناها، فمطالعة "الظلال" وحدَه يستغرِق أوقاتا طويلةً (أربعة آلاف وعشرين صفحة من القطع الكبير ب حروف صغيرة) فما بالُك بالقراءة المُتأنية الباحِثة عما هو لصيقٌ بصميمِ البحث.

3 ـ كون بعض العناوين الفرعية عن المسائل العَقَدية لا يفصِّلها سيد فكنت مُلزَما بتتبّع المواضيع المُشابِهة والقريبة في مضمونِها ولمّ شَعَث هذه النقاط المتناثِرة في وحدَة للخُروج برأيِه في المسألة.

4 ـ تراكُم المادة العلمية المتعلّقة بالموضوع بعد مرحلةِ الجمع ؛ وفرْز ما يصلُح منها ، فكان ما أهملتُه منها أضعاف ما أثبتُّه مراعاةً للمنهجيةِ العلمية التي تقتضيني التركيزَ والبُعْد عن الحشْو، وكان أن استغرَقَ ذلك مني وقتا طويلا.

5 ـ أن البحثَ في عقيدة سيد قطب بمضامينِها كلها وبالمسائل العَقَدية الأصلية والفرعية بهذا الشكل لم يطرُقه باحثٌ من قبلُ ـ في حدود علمي ـ وهذا ما كلّفني الكثيرَ في المقارنة والاستنباط والرجوع إلى أمَّهات كُتب العقيدة للتحقُّق والتثبُّت.

عملي في الهوامش والحواشي:

1ـ أعزو الآيات إلى سوَرِها بذكرِ أرقامِها.

2ـ أخرِّج الأحاديثَ الواردةَ في متن الرسالة معتمِدا على تصحيحِ أهل العلم القدماء والمعاصِرين.

3ـ أعرِّف بالأعلام الواردةِ أسماؤُهم في متن البحث، ـ إلا ما كان مذكورا داخل الاقتباس- واستبعدتُ كل مشهور.

4ـ أوثِّقُ النقول والاقتباسات وأحيلُ على مصادرِها، وأشيرُ بعلاماتِ الحذف إن حذفتُ بعضَ العبارات، وأضع كلمة "بتصرُّف" إن تصرَّفتُ فيها.

5ـ الْتزَمتُ بذكرِ معلوماتِ الطبْع كاملةً عند وُرودِ عنوان الكتاب لأوّل مرة ، فإذا ذُكِر مرةً أخرى اكتفيتُ بذكرِ المؤلِّف وعنوان الكِتاب.

6ـ وضعتُ فهارسَ للآيات والأحاديث، والمصطلَحات والأماكن والبُلدان، والأبيات الشِّعرية، والأعْلام، والمصادِر والمراجِع والموضوعات.

شُكرٌ وتقدير:

وفي الختام لا يسَعُني إلا أن أحمدَ اللهَ تعالى حمدًا كثيرا مبارَكا طيبا على أن أسبغَ عليَّ نِعَمَه ظاهرةً وباطرةً، وعلى ما وفَّقني فيه من هذا العمل الشاقِّ الطويل المُمتِع ، فلولا توفيقُه وعنايتُه ما جرى مدادٌ على ورَق ، ولولا رعايتُه ما ائتلفتْ مباحِثي على هذا النسَق ، فله الحمدُ في الأُولى والآخِرة.

وأرى لِزاما عليَّ أن أقدِّم خالصِ شكري وامتناني وعِرفاني لكل مَن مدَّ لي يدَ العون ولو بكلمة طيبة.

وعلى رأسِهم والديَّ الكريميْن اللذين صبرا وصابَرَا وبذلا من أوقاتِهما الكثير في تنشِئتي وتربيتي وتعلِيمي، وهل تَفِي ألْفُ رسالةٍ لقضاءِ دَيْنِهما ؛ أبي العالِمُ الجليلُ في القراءات ، والمُربِّي الفاضِلُ للأُسْرة والقَرَابات، والمُعلِّمُ الناجحُ للطلَبة والطالِبات، وأمِّي الصبورةُ المثابِرةُ المشجِّعةُ الطموحةُ التي لا تُزعزِعُها العواصِف والأنْواءُ.

ثم لفضيلة المشرِف الأستاذ الدكتور عمَّار جِيدل الذي تشرَّفتُ بالتلْمَذة عليه قبلَ أن يكونَ مُشرِفا عليَّ؛ فكان نِعْمَ الأستاذ ونِعْم المشرِف في مرحلتيْ الماجستير والدكتوراه بعلمِه الغزير وأدبِه الجمّ وخُلقِه العَالي.

ثم لأصحابِ الفضيلةِ الأساتذة المُناقِشين على ما سيُمضونَ من وقتٍ ويبذلونَ من جُهد في قراءة هذا البحثِ وإبداء ملاحظاتهم القيِّمة التي أرجو أن أتدارَك بها ما زلَّ فيه القلمُ وأقترِبَ من خلالِها برسالَتي إلى الكَمال، فلهم مني خالِص الامتنان.

وأخيرا فهذا جُهدُ المُقِلّ فإن كان ما توصّلتُ إليه من نتائج قد قارَبَ الغايةَ ولامسَ الهدفَ فذلك ما كُنا نبْغ، وإن كان غير ذلك فشفيعي أني بذلتُ الجهدَ واستفرغتُ الوُسعَ.

واللهَ تعالى أسألُ أن يتقبلَ عملي هذا خالِصا لوجهِه الكريم ويعلِّمَنا ما ينفعُنا وينفعَنا بما علَّمَنا إنه هو العَليم الحكِيم.

خليل قاضي.

الفصل الأول: مصادر العقيدة عند سيد قطب.

المبحث الأوّل: مدخل إلى العقيدة وسيد قطب:

المطلب الأوّل: العقيدة- تعريفٌ وبيان-:

العقيدةُ في الدينِ الإسلاميِّ هي القاعدةُ الإيمانيةُ الأساسُ ، التي تَنبثقُ عنها التصوراتُ والمفاهيمُ الصحيحةُ حول وجود الله تعالى ، وصفاتِ كماله وجلاله وجماله ، وحول وُجود الكون- بكل مُكوِّناته- وحقيقته ومصيره، ومُهِمَّة الإنسان فيه، وتنبثقُ عنها الأحكامُ والتكاليف لهذا الإنسان المستخلَف في الأرض مِن دُون الخلائِق.

لذلك أفاضَ القرآنُ الكريم في الحديث عن العقيدة الحقَّة وأركانها ، وما يتعلقُ بها من الإيمان بالله تعالى وصفاتِه، وبالأنبياء ومكانتِهم ونُعُوتِهم ومَهامِّهم، وباليوم الآخِر وأحوالِه وسائرِ الأمورِ الغيبيةِ، تأسيسا وبيانا في السُّوَر المكية، وتذكيرا وإجمالا في السوَر المدنية.

فهذه هي العناصرُ والمقوِّماتُ العامّةُ للعقيدةِ، فما حقيقتُها؟ وما هي الوحدةُ المعنويةُ التي تنتظِمُها؟ وما المعنى الكليُّ لها تفصيلا وإجمالا؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة لا بد لنا ولا مناص من الرجوع إلى بُطون معاجم اللغةِ العربية ولَمِّ شَعَثِ هذه المعاني المتناثِرة في استعمالات هذه الكلمة، والمحاولةِ جاهِدِينَ أن نرُدَّها إلى أصلٍ واحدٍ يجمعُها، فالمعاجمُ إنما وُضعتْ لضبط الألفاظ لا لتحديد المعاني.

1 -تعريفها لغة واصطلاحا:

أ-لغة:

العقيدة: مؤنث عَقِيد، على وزن فَعِيل، وفِعْلُه: عَقَدَ، بمعنى شَدَّ وأَحْكَم [1]، وعقدَ قلبَه على كذا: شد عليه قلبَه وضميرَه فلا يَنزَعُ عنهُ[2].

فالصورة اللغوية لهذين المعنييْن تعني الشدَّ والإحْكام، وهذا آتٍ من عقْد الحبْل أو شيءٍ آخرَ غيره، فنظريا يُمكنُنا أن نعرِّف العقيدةَ بأنها مجموعةُ قواعد أو تصورات مَعرِفية يَربطُ عليها الإنسانُ عزمَه ويبني عليها إرادتَه، فتصير جزءا أساسيا من كيانه تنعكسُ مِن خلالِها أفعالُه الظاهرية، فالإنسانُ وليدُ إرادتِهِ وإرادتهُ وليدةُ عقيدتِه، ولهذا التلازُم في الارتباط الذي يميزُ العقيدةَ الإسلامية ؛ كانت ظاهرة الانفصام بين الإيمانِ والعمل هي الغالبةُ على سلوك المنافقين ، لأنه لا عقيدةَ لهم تشدُّ تصورَهم وتُحْكِمُه.

ومن المعاني اللغوية للعقيدة: العهْدُ المؤكدُ، يقال: (عهِدتُ إلى فلانٍ في كذا وكذا) وتأويلُه: ألزمتُه ذلكَ، فإذا قلتَ (عاقدْتُه أو عقدتُ عليه) فتأويلُه: أنك ألزمتَه ذلك باشتياق[3].

والصورة اللغوية لهذا التعريف تعني العهدَ المؤكدَ بالتصميم والعزم بين العبدِ وربه ، وهذا يبعثُ على التنفيذ ، فتكون ذات فعالية وانعكاس إيجابي على واقع الحياة ، بحيث يترقى المسلمُ في السلوك والعمل الظاهري والباطني نتيجة لذلك التصور العقدي الراسخ والثابت في عقله وضميره.

وهكذا فالمعاني اللغويةُ لمادة "عقد" التي اشتُقت منها "العقيدة" متقاربة في المعاجم والقواميس ، وهي لا تعْدو الشدَّ والإحكام والعهْدَ . والصلةُ ظاهرة في جوهر المعنى ، فالشدُّ والإحكام يعني الثباتَ والرسوخَ واليقينَ الجازم، والعهدُ يعني العلاقةَ المتينة بين طرفيْن، فالعقيدة ليست مجردَ دراسة نظرية من

1- ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، "فصل العين، باب الدال"، (ط2، مصر: المطبعة الحسينية، د.ت)، ص 898.

2- أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة "عقد"، (ط2، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي،1389هـ)، ج48/3.

3- ينظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط، مادة "عقد"، (إعداد وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعشلي، بيروت: دار لسان العرب، 1390هـ)، ج159/6.

حيث إنها تصورٌ محْض يخصُّ الوجودَ الإلهي وتوحيدَه ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا، وإنما هو تفاعُلٌ مع هذا التصوّر يُثمِر معرفةً وتجربةً سُلوكية ، ومعايَشةٌ وِجدانية تخصُّ العقلَ والشعورَ من حيث التصورُ والاعتقادُ القلبيُّ.

ب-اصطلاحا:

لا نجد لمصطلح "العقيدة" ذِكْرا؛ لا في نصوص الكتاب ولا في السُّنة، فاللفظُ المستعمَلُ فيهما هو "الإيمان"، وإنما ورد جِذر الكلمة في القرآن "عقد" في أمور أخرى من نكاح ويمين وسِحْر وغيرها، ولم يرِد لفظ "العقيدة" ولا "اعتقد" أو "يعتقد" ونحو ذلك.

أمّا "العقيدة" فلفظٌ مُستحدَث في "العصرِ العباسي " لهذا المعنى الذي استُعملت فيه، وقد استعملَه أجيالٌ من أئمة المسلمينَ وعلمائهم بمعنى الأفكار الأساسية التي يجب على المؤمن بالدين أن يُصدِّقها ويقبلها أي يعتقدها، واستعمال السلف من العلماء والأئمة دليلٌ على الجواز، ومع ذلك فإن هذا الاستعمالَ يتضمنُ فصْلَ العُنصر العقلي الذي هو مضمونُ العقيدة عن العنصر النفسي ، مع أن كليْهِما مجموعٌ في لفظ "الإيمان" المستعمل في القرآن والحديث[1].

واستِحداثُ لفظ "العقيدة" أفادَ في حصْرِ قضايا الاعتقاد وتمييزِها عن غيرها، وأُطلق على الجانب العقلي منها علم الكلام، وأُطلق لفظُ علم الكلام على علم التوحيد في عصر المأمون [2]، وعلم التوحيد يشمل (جميع مَباحث العقيدة، سواء ما تعلق بالله عز وجل وصفاته ، أم بالرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حيث ما يجب لهم وما يجوز وما يمتنع عليهم، أم باليوم الآخر وتفصيل ما يقع فيه، وبجميع أخبار الغيب التي وردت في الكتاب والسنة)[3]

1- ينظر: محمد المبارك، ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ص28.

2- هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي القرشي الهاشمي أبو جعفر أمير المؤمنين، ولد سنة 170هـ، تعلّم الحديث والقرآن، تولى الخلافة سنة 198هـ، وكان يحب العلم، تأثر بمذهب الاعتزال من بِشر المريسي، توفي سنة 218هـ.
ينظر: البداية والنهاية: 10/ 287، 293.

3- محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، (ط01، مصر: القاهرة، دار الشريعة، 2004م)، ص12.

وقديما كان يطلق على العقيدة اسم "الفقه في الدين "، وقد سمّى أبو حنيفة [1] كتابه في العقيدة "الفقه الأكبر"،ثم أُطلق عليه اسم " علم التوحيد" تسمية له بأهمِّ أجزائه (وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان ، وأنه وحده هو مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ كما تشهد به آيات الكتاب العزيز)[2].

ثم لما أصبح علما يُعنى بالبحث في العقائد بالأدلة العقلية والرد على المخالفين سمي " بعلم الكلام" (لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في العصور الأولى ، مسألة كلام الله وخلْق القرآن، فسُمي العلم كلُّه بأهم مسألة فيه ، أو لأن مبناه كلامٌ صِرْف في المناظرات على العقائد، وليس يَرجِع إليه عملٌ، أو لأنهم تكلموا حيث كان السلفُ يسكتُ عما تكلموا فيه...)[3].

وقد تباينتْ آراءُ الباحثين في مسألة الترادف الاصطلاحي بين علم التوحيد وعلم الكلام، فكثير من المعاصرين يجنحون إلى أنه لهما نفس المعنى الشمولي والدلالي (فعلم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين، علم يتضمن الحِجَاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية،... وهو النِّتَاجُ الخالص للمسلمين)[4]، هكذا دون الإشارة إلى تميُّز أحد هذه المصطلحات عن الأخرى بوجه من الوجوه.

ويؤيد هذا القول محمد عبد الهادي أبو ريدة بقوله: (كان النظرُ في الدين بأحكامه وعقائده يسمى فقها، ثم خُصت الاعتقادات باسم الفقه الأكبر، وخُصت العمليات باسم الفقه ، وسميت مباحث الاعتقاديات باسم علم التوحيد أو الصفات ؛ تسميةً للبحث بأشْرَف أجزائِه، أو علم الكلام ؛ لأنّ أشهرَ مسألة قام حولها الخلافُ هي مسألةُ كلام الله، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرْعيات كالمنطق في

1- النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة.ولد بالكوفة سنة 80هـ وتوفي سنة 150هـ.

ينظر: تاريخ بغداد: 13/ 323، 423 ؛ ابن خلكان: 2/ 163 ؛ البداية والنهاية: 107/10 .

2- محمد عبده، رسالة التوحيد، تعليق: محمود أبو رية، (ط03، مصر: دار المعارف، د.ت)، ص20.

3- أحمد أمين، ضُحى الإسلام،(ط10، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، ج3/ص09.

4- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (ط1 لدار السلام، القاهرة، دار السلام 2008)، ج1/ص45، 46.

الفلسفيات)[1].

وفي الجهة الأخرى نجدُ مَن يُبالغ فيمنعُ الصلةَ بين علم التوحيد وعلم الكلام ، كما نجد عند ابن تيمية[2] الذي حَمَلَ حمْلةً شعواءَ على المتكلمين ، رافضا بشدّة اعتبار علم الكلام كمرادفٍ لأصول الدين[3]، ومعه سائرُ الحنابلة قبْله وبعده .

ويتوسط هذيْن الاتجاهيْن فريقٌ كبيرٌ من علماء المسلمين المتقدمين والمتأخرين على السواء، على رأسهم أبو حامد الغزالي [4] الذي يحدِّدُ وظيفةَ علم الكلام تحديدا دقيقا ، ويبينُ صلتَه بعلم التوحيد قائلا: (فإذن علم الكلام صارَ من جُملة الصناعات الواجبة على الكفاية ، حراسةً لقلوب العوامّ عن تخيُّلاتِ المبتدِعة، وإنما حدث ذلك بحُدُوث البدعة، فلْيعلم المتكلمُ حدَّه من الدين ، وأن موقعَه منه موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرَّدَ الحارسُ للحراسة لم يكن مِن جُملة الحاجِّ) [5]، وألّف فيما بعدُ كتابا قائما بذاته سماه " إلْجامُ العَوَامِّ عن عِلم الكَلام " فلو كان التوحيدُ أو العقيدةُ مرادفا لعلم الكلام ؛ لَمَاَ حَظَرَ علمَ الكلام على هذه الفئةِ العريضة من المسلمين، وإنما حَدَّد تخصصَ علم الكلام وهو حراسة العقيدة من التشويش والبدع، وهو فرع منها، وتوظيفه في مباحث علم العقيدة يبقى ضروريا ومطلوبا لترسيخ اليقين ، وتحصين الإيمان من الشبهات والإشكالات التي تُثار على مختلف المستويات وتبايُن الأزمنة.

1- دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام- ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، (الدار التونسية للنشر، د.ت)، ص104.

2- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضري النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، تقي الدين ابن تيمية، ولد في حران سنة 661هـ و توفي معتقلا بقلعة دمشق سنة 728هـ، له تآليف كثيرة منها "الفتاوى"،"الإيمان"، "منهاج السنة".
ينظر : فوات الوفيات: 1 /35-45 ، البداية والنهاية: 135/14.

3- ينظر: ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، (لجنة التراث العربي، د.ت)، ج 1/ص184 فما بعدها.

4- محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف، متصوف، له نحو مائتي مصنف، مولده ووفاته في الطابران "قصبة طوس بخراسان"، ولد سنة 450هـ وتوفي سنة 505هـ، من كتبه"إحياء علوم الدين" و "تهافت الفلاسفة" و "الاقتصاد في الاعتقاد".
ينظر : وفيات الأعيان: 463/1 ، طبقات الشافعية: 101/4 ، الوافي بالوفيات: 277/1 .

5- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت، لبنان: دار المعرفة، د.ت)، ج1/ص23.

ب – حاجة الإنسان إلى العقيدة:

في الطبْع الإنسانيِّ حاجةٌ إلى الاعتقادِ كحاجةِ المعِدَةِ إلى الطعامِ، فالإنسانُ قد وَجَدَ نفسَه في هذا العالَمِ وأسئلةٌ نظريةٌ ضروريةٌ تهجُم عليه وتسكُن أعماقَه، وتطلبُ منه أجوبةً حاسمةً واضحةً قاطعةً تُثمرُ اليقينَ الذي يقطعُ الشكَّ ويُزيلُ القلقَ.

ما ه ذا الوجودُ ؟ ما العالَمُ؟ ما الإنسانُ ؟ مَن الخالقُ ؟ ما الحياةُ ؟ ما الموتُ ؟ ماذا بعد الموتِ ؟ ما الهدفُ مِن حياةٍ بعدها موتٌ ؟ ما علاقتُنا بالخلودِ ؟ وسلسلةٌ لا آخِرَ لها من مِثْلِ هذهِ الأسئلةِ الجوهريةِ التي ألحَّتْ على الإنسانِ منذُ وُجِدَ وستظلُّ تُلِحُّ عليه إلى الأبد.

وقد أجهدَ الفلاسفةُ والحُكماءُ أنفسَهم في البحثِ عن الإجاباتِ الوافيةِ لهذا السيْلِ من الأسئلةِ فلم يصلوا إلى شيء ذِي بالٍ، لأن عُقدة الوُجودِ الأكبرِ لا يحُلُّها إلا خالقُ الوجودِ، ولا مناصَ من الرجوع إلى الوحْي فهو وحد ه الكفيلُ بإراحة الإنسانِ من هذا العناءِ غير المُجْدي وهو الوحيدُ الذي يُقدِّم الأجوبةَ الكافيةَ الشافيةَ، ويُثْلجُ الصدرَ باليقينِ، والنفسَ بالسكينةِ، والقلبَ بالإيمانِ.

فيعرف أن له ربًّا خالقا بارئا خلقه وكرّمه وفضله على كثير ممن خلقَ تفضيلا ، وجعله في الأرض خليفة وسخر له ما في السماوات والأرض، ويعرفَ أن هذه الحياة القصيرةَ التي يعيشُها وفيها شيءٌ من الظلم والباطل والشر والألم ليست هي الغاية، وإنما هي ممر إلى الحياة الحقيقية، وما الموت إلا بوابة لطيفة بين الحياتيْن، ويعرف أنه لم يُخلق عبثا ولم يُترك سُدى إذ بعث الله إليه الرسل هُداةً مُعلمين، مبشرين ومنذرين، ويعرف أنه بإيمانه هذا ليس معزولا عن باقي المكوَّنات ، فكلها تسبح خالقَها بطريقتها ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[1].

فمكاسب الإيمان عظيمة هائلة ، تقدم للمؤمن تصورا متوازنا منضبطا عن الله والكون والحياة والإنسان، وتنزع عنه الحيْرة والشك والقلق والاضطراب ؛ الذي يشقى فيه الجاحدون الملحدون

1- سورة الإسراء، الآية 44.

والمرتابون الشاكون، وهو ليس بالأمر الهيِّن بل هو العذاب الأليم، فالنفس إن لم تسكُن وتأنَس وتطمئن شقِيَت وفقدت طعم الراحة والسعادة ولو جُمعت لها لذائذُ الدنيا.

والتاريخ الإنساني حافلٌ بهذا البحث الدءوب في كل الديانات والفلسفات عن العقيدة ، التي يفسر على ضوئها نظام العالَمَ والحياة والإنسان (فكل من نظر في أشياء هذا العالم، ولاحظ ما يجري فيه من حُدوث وتغير و زوال، سواء كان الناظرُ إنسانا بدائيا يتبع ميلا فطريا للعقل البشري، أو مفكرا مثقفا يتبع طريقة التفكير العلمي الفلسفي، خطَر له أن يكون وراء ما يشاهده من حدوث وتغير وزوال قِوى فاعلة مدبرة، وكان ذلك بمقتضى مبدإ في العقل البشري، هو مبدأ العلة الكافية)[1] .

وحيرةُ العقل البشري وقُصورُه إزاء ما غمُض عليه وخفِيَ من الوجود والعلل والأسباب والظواهر، دفعته دفعا إلى البحث عن تفسير كلي شامل ، ينتظم هذا الحشدَ الهائل من الأفكار والتصورات، وأدى به البحثُ إلى ضرورة وجود إله كامل منزه عن النقْص يُسيِّر هذه الموجودات ويوجه هاته العلل - على اختلاف التصورات حوله - ولكنه مخالفٌ للعقل وللفطرة السليمة أن يُنكِرَ شخصٌ أو جماعة هذا الإله ، لأن (الاستدلال على وجود الإله الحق- سواء تفكر الإنسانُ في الكون أو رجع إلى التفكير في نفسه - أشبهُ بالاستدلال المباشر الذي لا يدفع أساسه أو نتيجته إلا مكابرٌ مُعاند لحُكم العقل، فإنه يمكنُ الشك في إخلاص المنكرين لوجود الله فيما يقولونه ، كأنهم يجحدون شيئا يؤمنون به في قرارة نفوسهم)[2].

والإنسانُ في حاجة مُلحّة إلى عقيدة يحتمي بها - بالحق أو بالباطل - فالأسئلة القديمة الجديدة:
مَن أنا ؟ ما الكون ؟ لمَ جئتُ ؟ وإلى أين سأنتهي ؟ ما مركزي في الوجود ؟ ما قيمتي في الحياة ؟ ...
وغيرها، تحوِّله باحثا عن قوة عظمى وركن ركين يحتمي به من هاته الشرور والمُنغِّصات التي تموجُ بها الحياة، وتصونُه من كل سوء، وتُعيد لقلبه وضميره الأمنَ والطمأنينة والسكينة والشعور بالدفء، ففي كل إنسان عنصرٌ إلهي مركب في طبيعته يشده دائما إلى التطلع نحو السماء، أو ما يسمى بنفخة الروح

1- ينظر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الإيمان بالله في عصر العلم، بحث نشر في "عالَم الفكر": المجلد الأول، العدد الأول، ص133.
2- المصدر نفسُه، ص135.

التي تحركه نحو مصدره الأول (فالميل إلى الله شهوةٌ حقيقية في طبيعتنا الإنسانية لا تقل عن شهوتنا إلى الطعام، وإن المتجهَ إلى الله كالعطشان في أرض وعْرة جافة خالية من الماء)[1].

عند ما يُجيلُ الإنسانُ نظره في هذا الكون الفسيح المليء بالمخلوقات، ثم يتأمل نفسَه ويقارنُها بما خلق الله، يرى أنه جِرْم صغير لا يكاد يُقاس إلى عظمة السماء والنجوم والكواكب، وحتى وهو على هذه الأرض لا يُذكر مع عظَمة البحار والجبال والروابي والأنهار، وهو على ظهر هذا الكوكب تَفجَؤُه الزلازلُ والبراكين والأعاصيرُ والفيضانات والبروق والرعودُ، فيلتفت يمينا وشمالا ويُصعِّد بصرَه إلى السماء ليجد القوةَ التي تحميه، فيشعر في قرارة قلبه أن هناك قوة عظمى وراء هذه القوى ، فلا ينزعج إذا ما ثارت هذه القوى الأرضيةُ فإن له قوةً تحميه، وهذه هي الفطرةُ التي فطر اللهُ الناسَ عليها (ففكرة الله خالقي وأنا عبدُه منقوشة في اللاشعور الإنساني، وهي ميثاق سِرِّي مأخوذٌ على الإنسان منذ يومه الأول، وهو يَسري في كل خلية من خلايا جسمه، وعندما يفتقد إنسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن إلهه الذي لم يرَه قط ، والذي لو وجده لخرَّ راكعا على ركبتيه ثم ينسى كل شيء)[2].

وستظل الفطرةُ الإنسانية باحثةً عن الله، لا يملأ فراغَها علمٌ ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمانُ بالله عز وجل، ولا شيءَ غير الإيمان بالله يسد هذه الثلْمَةَ ويُشبعُ هذه الجوْعةَ ويُروِي هذا الظمأَ ويُطمئن هذا القلق ويريح من هذا التعب.

إن الإنسانَ قبضةٌ من طين ونفخة من روح الله، فمن لَبَّى رغبات الطين ونسي أشواق الروح فقد جارَ وبخَس الفطرةَ الإنسانية حقها، وحَرَمها ما به حياتها وقوامُها.

يقول ابن القيم رحمه الله: (في القلب شَعَث لا يلُمُّه إلا الإقبالُ على الله.

وفيه وَحشة لا يزيلها إلا الأُنْسُ بالله.

وفيه حُزن لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته، وصدق معاملته.

1- محمد كمال إبراهيم جعفر، في الدين المقارن، (القاهرة: دار الكتب الجامعية، د.ت)، ص36، 37.

2- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، تعريب: ظفر الإسلام خان، (الكويت، دار البحوث العلمية، د.ت)، ص267.

وفيه قلقٌ لا يُسكنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرار إليه.

وفيه نيرانُ حسراتٍ لا يطفئُها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقةٌ لا يسُدها إلا محبتُه والإنابة إليه، ودوامُ ذِكره، وصدقُ الإخلاص له، ولو أُعطيَ الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا)[1].

فهذا الشعَث والوَحشة والحُزن والقلق والفاقة التي ذكرها ابن القيم أصيلة في فطرة الإنسان، ما لم يهتد إلى العقيدة الصحيحة ؛ التي تزيلها عنه وتبددها عن نفسه، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش من غير إيمان وأن يحيا من غير إلـه يُعظمه ويقدسه، ويخافه ويرجوه، ويعبده ويتوكل عليه، وإن لم يُسمِّ معبودَه إلـها ولم يسمِّ الخضوعَ له عبادة.

وهذه الفطرة (حقيقةٌ أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله، حتى قال أحد كبار المؤرخين: " لقد وُجدتْ في التاريخ مُدُن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد ")[2]، فالتدين أصيل في الإنسان، والفطرةُ على أصلها سليمة لم ينكرها مشركو العرب في جاهليتهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ ﴾[3].

فهذه الحقيقة المستكنة في الضمائر والقلوب قد ينالها الصدأ ويغشاها الغبَش ، فتضل وتتنكب الجادة وتنكر خالقها وتماري في ذلك، ولو تُرِكتْ لنفسها بلا مؤثر خارجي لانتهت إلى الإيمان والإسلام، لأن كل ما حولها يُعظم بلسان الحال الخالق الحكيم الذي لا بد أن يكون وراء تنظيم هذا الكون، وتكريم هذا الإنسان وإمداده بالنِّعم التي لا تُحصى فيشكر المُنعِم ويُفرده بالعبادة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

1- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، (ط1، بيروت: دار الجيل، 1991م) ، ج2/ص243.

2- يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، (ط09، بيروت: مؤسسة الرسالة،1983م)، ص99.

3- سورة العنكبوت، آية 61.

ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

فالعقيدة الصحيحة (ضرورية لأنه لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود؛ يتعامل على أساسه مع هذا الوجود.. لا بد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان) وما بينهما جميعا من تعامل وارتباط. .وضرورية لأنه لا بد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني، فمن هذه المعرفة يتبين دور الإنسان في الكون وحدود اختصاصاته كذلك، وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعا. وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني، يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل)[2].

فالتصور الاعتقادي أداة التوجيه الكبرى لتحقيق منهج الله على أرض الواقع ، وإنقاذ البشرية مما تعانيه من القلق والصراع الدائم مع الحياة والناس والأشياء، فلو لم يكن للعقيدةِ إلَّا أنْ تُنَهْنِهَ مِنْ هذا الصراعِ لكانتْ مهمَّةً نبيلةً، ولو لم يكن لها إلا هذا الأمنُ الذي يجدُه الإنسانُ في رِحاب الله لكفى، فما الإنسانُ بغير عقيدة ؟ وما هو بغير الإيمان بعالَم آخر خالدَ الحياة ؟ إنه يحاولُ أن يحقق في حياته القصيرة وفرصته التي لا تتكرر أكبر قدر من المتاع والنفع ، فيغدو كالوحش الضاري لا يهمه إلا إشباع نَهْمته وغرائزه ولسانُ حاله (فإذا مِتُّ ظَمْ ئانًا فلا نزَلَ القَطْرُ)، ولكن الإيمانَ بالعالَمَ الآخر وقبلَه بإلهٍ عادل رقيب سميع بصير، يجعل الإنسان يعرف غايته ولا يعتسف الطريق نحو أهدافه ، بل يستهين بالصعاب ويستعذِب العذابَ ويسترخص التضحية في سبيل الآخرين ولسان حاله يقول:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقتَلُ مُسْلِمًا   عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي

1- سورة البقرة، الآيات21، 22.

2- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، (بيروت: دار الشروق، د.ت)، ص05.

وذلكَ في ذاتِ الإلَهِ، وإنْ يَشَأْ   يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْـــوٍ مُمَزَّعِ[1]

العقيدة تبعثُ على الرِّضَى:

المرتاب الشاكُّ في الله والآخرة يعيش في سخط دائم وفي حزن مستمر، يسخط على الناس وعلى نفسه وعلى الأشياء وعلى الدهر.. ،(وقديما قالوا: من غضب على الدهر طال غضبه. . ولهذا هو في مأتم مستمر.. يبكي دائما حظه وينعى نفسه، وينوح على دنياه، ويولول على وجوده. . كما وصف بعض المرتابين نفسه فقال: إنه حزين بعاطفته وتفكيره وسلوكه.. حزين بأعصابه وأعصاب الكون والآلهة والناس والأشياء ! لا يعرف لماذا هو، لهذا هو حزين، لا يعرف لماذا هو حزين، كما لا يعرف لماذا هو !! إن شعور الإنسان بالرضا من أول أسباب السكينة النفسية التي هي سر السعادة)[2].

فالرضا واليقين يغمر المؤمن بشعور العناية الإلهية ، وأن له ربا يحميه ، وأنه لم يُخلق عبثا لم يُترك سُدى، وأنه- سبحانه- أرحم به من الوالدة بولدها، وأن المحن التي يمر بها مطويٌّ في جوفها المِنَحُ، وأن هذه الحياةَ القصيرة قنطرة إلى الآخرة، فلا يُغرَّ بطِيب العيش إنسانُ.

ومما حُكي عن المسيح ﷺ أنه كان يقول: (لباسي الصوفُ، وطعامي الشعير، وسراجي القمر، ودابتي رجلايَ، وَوِسادتي ذراعي.. أَبِيتُ وليس لي شيءٌ، وأُصبح وليس لي شيء، وليس على وجه الأرض أغنى مِني)[3]، هذا ما ينشئُه الرضى واليقين في نفس المؤمن ولو حُرمَ متاعَ الدنيا كلَّه.

والرضى واليقين يجعل المؤمنَ آمنا على رزقه ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ ﴾[4]، فرازق الطير في الوُكنات والسباع في الفَلَوات والأسماك في البحار لن يهلكه جوعا، وهذا يكوّن في نفس المؤمن قوةً وصلابة في الدفاع عن الدين

1- البيتان للصحابي الجليل خبيب بن عدي، من بحر الطويل، ذكرهما البخاري في صحيحه، رقم 4086 ، وابن كثير في البداية والنهاية ، ج4/ ص245.

2- يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص134.

3- المرجع السابق، ص151.

4- سورة الذاريات، الآيات:22، 23.

والمبادئ دون تهيُّب أو وَجَل ، لأنه موقن أن رِزقَه ورزق أولاده مكفولٌ سلفا، كما عبّرتْ عن هذا تلك الزوجة وقد سُئلت عن زوجها الذاهب في سبيل الله فقالتْ: إنني عرفته أكّالا، وما عرفته رزَّاقا، ولئن ذهبَ الأكّالُ لقد بقي الرزاقُ.

والرضى واليقين يجعلُ المؤمنَ آمنا على أجله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾[1]، ففيمَ التفكيرُ في الموت والخوف على الحياة وقد رفعت الأقلام وجفت الصحفُ ؟! فالمؤمنُ يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا، والطمأنينةُ على الأجل المقدر في الأزل تزيده قوة في معالجة صُروف الحياة.

والرضى واليقين يجعلُ المؤمن مُقدِما على معالي الأمور غير جزِعٍ من الموت لأنه يعلم أنه ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾[2]، وأن الخوف والجزع لا يرُدان الموتَ ولا يدفعانِه، وأن الموتَ ليس نهايةً بعدها عدم وفناء، وإنما هي مرحلة لا بد منها وطورٌ لا بد للنفس من اجتيازه إلى الخُلد والأبد، ففيمَ الجزع ؟!.

هذه المعاني وكثيرٌ غيرُها يُنشئها الرضى واليقين في نفس المؤمن، ويفتقدها الشاك المرتابُ فيعيش في ذُعر وخوف من المجهول وقلق على الرزق، وَوَجَلٍ من الأجل أن ينقضي ولمّا يُنْهِ مهامَّهُ ويشبع نَهَمه من هذه الدنيا، وهذا الفرقُ وحده يكفي فيْصلا بين الفريقين.

1- سورة فاطر، الآية 11.

2- سورة النساء، الآية 78.

جـ – موقعُ العقيدة من مجموع البِنية الإسلامية:

إن العلومَ وإن تنوعت فأفضلها علم دين الله تعالى وشرائعه، فإنَّ به حفظ الإيمان والإسلام اللذيْن هما من أجَلِّ ودائعه وأفضلها على الإطلاق ، ورئيسها باتفاقٍ علمُ العقائد الدينية الذي هو (أساس الشرائع والأحكام ومقياس قواعد عقائد الإسلام)[1]، وقد قرر العلماء رئاسة علم العقيدة لغيره من العلوم الشرعية ؛ بأن قواعد الشرع ومعالم الدين أصلها الكتاب والسنة، والاستدلال بهما يتوقف على إثبات أن الله متكلم مُرسِل للرسل مُوحٍ إليهم، وهذه الأمورُ إنما تُعلم من علم أصول الدين فيكون هذا العلم مَبْنى قواعدِ الشرع وأساسها، ورئيس معالم الدين ورأسها[2].

والبنية الإسلامية كما هو معلوم عقيدة وتشريع وأخلاق، وعماد هذيْن الأخيرين العقيدة الصحيحة، فإذا خلت البنية الإسلامية منها ، لا يقبل عملُ العامِل ولو أفنى عمره كله في العبادات والطاعات والسلوك الملتزمِ أحكامَ الشريعة، مِصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ﴾[3].

فالعقيدة الإسلامية هي أول وأهم أركان هذا الدين، لأن النظرة العامة إلى الوجود التي يأخذ بها الإنسان ويعتقد بحقائقها، ويتخذ منها عقيدة له وفلسفةً لحياته ، هي الأصل الذي تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته السلوكية ، وهي المحرك الخفي لأفكاره وسلوكه، وهي أساس اختلاف الحضارات والثقافات، فهي التي تُحيِي روحَ الأمة وتشكل عقلها ونسيجها الاجتماعي ، وتحقق وقايتها الحضارية والثقافية، فبمقدار ما تكون سليمة نقية ملائمة لفطرة الإنسان مستجيبة لحاجاته الأصلية، قادرة على تقديم الإجابات الشافية والمقنعة على الأسئلة الكبرى في الحياة عن النشوء والمصير ، تكون بالفعل مؤهلة للنهوض الحضاري ، قادرة على تجميع الطاقات وتحريك النفوس نحو الهدف الواحد والغاية

1- سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق: عبد الرحمن عميرة،(ط2، عالم الكتب، 1998م)، ج1، ص155.
2- ينظر: الأصفهاني، مطالع الأنظار على طوالع الأنوار، (ط1، المطبعة الخيرية، 1323هـ)، ص5.
3- سورة الكهف، الآية103-105.

العليا، وحتى على إعادة الفاعلية في فترات السقوط الحضاري للإقلاع من جديد (وقد أدرك المفكرون الإسلاميون في العصر الحديث منزلة هذا الأساس العقائدي وموقعه من بناء الإسلام، فقد قدم الأستاذ أبو الأعلى المودودي [1] أبحاثا أصيلة عميقة في الموضوع، وقد بنى سيد قطب- ر حمالله- كتابه الرائد القيم "العدالة الاجتماعية في الإسلام " على هذا الأساس، ووعد في الفصل الأول منه أن يعود إلى الموضوع فيفصله في كتاب خاص في التصور الإسلامي للوجود، ثم أخرج بعد ذلك بسنين كتابه "خصائص التصور الإسلامي" ولم تمهله الأيامُ ليُخرِج للناس كتابه الموعود إلا أن يكون بين مسودات كتبه التي لم تُطبَع)[2].

ومن يتدبر القرآن الكريم ، يتبين الأهمية العظمى التي يُوليها كتابُ الله لقضية العقيدة والموقع الذي يجعلها فيه من مجموع البِنية الإسلامية، فالحيزُ الذي تشغله منه يشملُ السورَ المكية والمدنية- وإن كان التركيزُ في السور المكية أشد- لأن ه يخاطب قوما مشركين ليُصححَ اعتقاداتِهم الباطلة وتصوراتِهم الفاسدة في قضية الألوهية (ولكن استمرارَ الحديثِ عن القضية في السور المدنية بعد استقرار العقيدة وقيام المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ، والتزام ذلك المجتمع بتكاليف الإسلام ومقتضياته وعلى رأسها الجهادُ في سبيل الله..

كل ذلك له دلالتُه الواضحة على الأهمية الذاتية لهذه القضية حتى بالنسبة للمؤمنين الذين تخاطبهم الآياتُ المدنية مَبدوءةً بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ وأن قضية التوحيد ليست حديثا يُذكر لفترة من الوقت ثم يُنتقل منه إلى غيره، إنما هي حديث يُذكر ثم يُنتقل معه إلى غيره)[3] أي أن العقيدة سنام الأمر كله ، وقطب الرحى الذي تدور حوله الشرائع والشعائر، بل يُدعى إليها غيرُ

1- الإمام، الداعية، العلامة، ولد في مدينة أورنج آباد في جنوبي الهند سنة 1903م وتوفي في مستشفى في نيويورك أثناء تلقيه العلاج سنة 1979، له مؤلفات كثيرة منها: (مبادئ الإسلام).

ينظر: علماء العرب في شبه القارة الهندية: ص704- 707، علماء ومفكرون عرفتهم: 2/ 5، 43، قادة الفكر الإسلامي: 906.

2- محمد المبارك، نظام الإسلام – العقيدة والعبادة-، (ط 4، بيروت: دار الفكر 1975م)، ص4 . وقد نشر هذا الكتاب أخوه "محمد قطب" تحت عنوان: "مقوّمات التصور الإسلامي" قدم له بمقدمة ضافية أزال فيها كل لَبس عن فكر أخيه "سيد"، وطُبع بدار الشروق.

3- محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تُصحح، (ط4، بيروت: دار الشروق،1988م)، ص17، 18.

المؤمنين ليصححوا اعتقادهم، ويُدعى إليها المؤمنون أنفسُهم أيضا للثبات والاستمرار عليها لأنها القضية الكبرى الدائمة في حياة البشرية، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾[1].

أما المساحة التي تشغلها العقيدة في البنية الإسلامية ، فيقرر سيد قطب أن (التوحيد خاصية لهذا التصور[أي الإسلامي]، وهو المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في العقيدة الإسلامية، والجوانب التي تمتد إليها في هذا التصور، وفيما يقوم على هذا التصور من مشاعر وأخلاق وسلوك وتنظيم لجوانب الحياة الواقعية.. فقد امتدت هذه الحقيقةُ إلى تصور المسلم للكون كله ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحذافيرها، كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها: خافِيها وظاهرِها، صغيرِها وكبيرِها، حقيرِها وجليلِها، شعائرِها وشرائعِها، اعتقاديِّها وعمليِّها، فرديِّها وجماعيِّها، دنيويِّها وأخرويِّها بحيث لا تُفلت ذرَّة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة)[2].

فهو يضع العقيدةَ الإسلامية محورا تدور عليه كل الحياة، وهي نفسُها تدور على محور التوحيد، إذ به وبه فقط يصحُّ التصورُ ويستقيم السلوكُ وتكون الفاعليةُ الإيجابيةُ للمسلم على هذه الأرض التي استُعمر فيها، ويقود هذه البشرية الحائرةَ ويُنقذَها مما تعاني منه اليوم.

1- سورة النساء، الآية 136.

2- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص215.

المطلب الثاني: نبذة عن سيد قطب

أ -نشأته وتعليمه:

1 -نبذة عن أسرته:

هو سيد بن الحاج قطب إبراهيم حسين شاذلي، يرجع نَسَبُه إلى أصل هندي [1]، ولد في 09 أكتوبر 1906م [2] بقرية "موشة" إحدى قرى محافظة أسيوط [3] وكان الابنَ الأول لأُمِّه، بعد أختٍ شقيقةٍ تكبُرُه بثلاثِ سنوات، وأخٍ من أبيه غير شقيق يكبُرُه بجيلٍ كامل [4]، مما جعلَه محلَّ تعهُّد ورعاية من الأسرة، خاصةً من أمه التي بثت في رُوعه وروحه معاني الطموح والتفرُّد.

نشأ سيد قطب في أسرة متواضعة (ليست عظيمة الثراء، ولكنها ظاهرة الامتياز، كانت في وقت من الأوقات عظيمةَ الثروة، ولكنها توزّعت وتضاءلت بالميراث، وبقي لوالده قدْر لا بأس به منها ولكنه كان يتناقص دائما) [5] فوالدُه مُسرف في الإنفاق على الضيوف وعلى ما تقتضيه الوجاهة الريفية ، مما جعل ثروتَه في تناقُص مستمر، وكانت والدتُه أيضا من أسرة عريقة ثرية، حدَث معها نفس ما حدث لأسرة والدِه حرْفا بحَرْف ؛ من التمادي في الإنفاق وتناقُص الثروة وانحِسارِها، وكان اثنان من أخوالِه أُوفِدا إلى الأزهر، فزاد هذا الأسرةَ رُقيا علميا ومكانةً اجتماعية [6].

ترعرع سيد قطب في هذا الجو الأسري الثري (وكل ما حوله يُشعِرُه أنه من وسط آخرَ غير وسط

1- ذكر هذا أبو الحسن الندْوي حين قابل سيد قطب، وأخبره هذا الأخير أن جدّه السادس هو الفقير عبد الله الهندي، ينظر: أبو الحسن الندوي، مذكرات سائح في الشرق العربي (ط1، دمشق- بيروت: دار ابن كثير،2001م)، ص168.

2- وهو العام الذي ولد فيه حسن البنا، وهو عام شنق زهران ورفاقه بدنشواي، والنزاع حول "طابا" بين تركيا وإنجلترا، وتسلّم دانلوب قيادة التعليم في مصر، وقيام الحركة الوطنية بجمع تبرعات لإنشاء جامعة أهلية... ينظر: محمد حافظ دياب، سيد قطب "الخطاب والإيديولوجيا"، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1991م)، ص71.

3- سيد قطب، الشاطئ المجهول، دون مكان وتاريخ النشر، ص15.

4- سيد قطب، طفل من القرية، (ط4، بدون دار نشر، 1967م)، ص 33، 80، 156 .

5- المصدر نفسه، ص21.

6- المصدر نفسه، ص192(بتصرف).

القرية)[1] يقوم على خدمة هذه الأسرة عددٌ من الخدَم الفقراء الذين كان والدُه يُحسن معامَلتهم ويبالغُ في إكرامِهم، حتى أضحتْ صِلتُهم بأهل البيتِ (صلةً عائلية ، لا صلةَ الخادِم بالمخدوم) [2] ، وكان والدُ سيدٍ "الحاج قطب إبراهيم " راشدا عاقلا مُتنورا على حظّ من المعرفة والثقافة، مشترِكا في صحيفة الحزب الوطني اليومية " اللواء"، وعضوا في لجنة الحزب ؛ عميدا لعائلته التي كانت ظاهرة الامتياز في القرية، والتي كان مُكلفا بحفظ اسمِها ومركزِها، ليّن الجانب وَقورا، بعيدا عن الصَّلَف والعنجهية التي كان يتسم بها عُمَداءُ الأُسر الثرية في الأرياف.

كما كان وثيقَ الصلة بالله ديِّنا في سلوكه وأخلاقه، وكل هذا عبر عنه سيد في إهدائه لكتاب"مشاهد القيامة في القرآن " وهو يخاطب أباه قائلا: (لقد طبعتَ في حِسّي- وأنا طفلٌ صغير- مخافةَ اليوم الآخر، لم تعِظْني أو تزجُرْني، ولكنك كنت َ تعيشُ أمامي، واليومُ الآخر في حسابكَ، وذكراه في ضميركَ وعلى لسانكَ...كنتَ تُعلل تشددكَ في الحق الذي عليكَ، وتسامُحكَ في الحق الذي لكَ بأنك تخشى اليومَ الآخرَ، وكنتَ تعفو عن الإساءةِ وأنتَ قادرٌ على ردّها، لتكون لكَ كفارةً في اليوم الآخر، وكنتَ تجودُ أحيانا بما هو ضرورةٌ لكَ لتجده ذُخرا في اليوم الآخر... وإن صورتكَ المطبوعةَ في مخيلتي، ونحن نفرُغ كلّ مساء من طعام العشاء فتقرأُ الفاتحةَ وتتوجهُ بها إلى روح أبويْكَ في الدار الآخرة، ونحنُ أطفالُكَ الصغار نتمتمُ مثلكَ بآياتٍ منها متفرقاتٍ، قبل أن نُجيدَ حفظها كاملاتٍ) [3].

وكانت والدتُه الزوجةَ الثانية لأبيه، فقد سبق وأن تزوجَ والدُه من امرأة أخرى أنجبتْ له ولدا، فكان سيدٌ أولَ مولود ذكر لها بعد أخته الشقيقة التي تكبُرُه بثلاث سنوات [4] فكان من الطبيعي أن تحرص عليه وتهتم به اهتماما كبيرا، حتى إنه (لم يكن يُتركُ ليلعبَ في الشوارع ويجوبَ طرقاتِها كالأطفال حفاظا لملابسه النظيفة من القذارة، وحمايةً له من التلوث بأخلاق أطفال القرية وألفاظهم البذيئة) [5] وأخذت الأم تُعِدّ ابنَها لأملٍ رجتْه فيه (هو أن يصبح متعلما كأخواله، له مكانتُه التي تُعلي شأن الأسرة

1- المصدر السابق، ص22.

2- المصدر نفسه، ص80.

3- سيد قطب، مشاهد القامة في القرآن، (ط8؛ بيروت، دار الشروق، 1986م)، ص05.

4- سيد قطب، طفل من القرية، ص33.

5- المصدر نفسه، ص28.

وتحفظ اسمَها ومجْدها من الضياع، له مُرتّبُهُ الذي يؤمّن به مستقبلَ الأسرة ، ويشتري الأطيان التي يـبيعُها أبوهُ بسببِ الإسراف في النفقات) [1]، وهكذا يكون الاهتمامُ بالطفلِ لغاية محسوبة وهدف نبيل ، لا تدليلا سلبيا غير مأمون النتائج، وقد قدم لنا سيدٌ صورةً عن تديُّن أمّه، وطريقتها الرشيدة في تربيته وإعداده في إهدائه لكتاب " التصوير الفني في القرآن" إليها قائلا: (لطالما تسمّعتِ من وراء " الشيش" في القرية للقراء يرتلون في دارنا القرآنَ، طوال شهر رمضان، وأنا معكِ- أحاولُ أن ألغُوَ كالأطفالِ- فتردّني منكِ إشارةٌ حازمة، وهمسة حاسمة، فأنصتُ معك إلى الترتيل، وتشربُ نفسي موسيقاهُ، وإن لم أفهم بعْدُ معناه.

وحينما نشأتُ بين يديكِ، بعثْتِ بي إلى المدرسة الأولية في القرية، وأُولى أمانيكِ أن يفتح الله عليَّ، فأحفظَ القرآن، وأن يرزقني الصوتَ الرخيم فلأوتله لكِ كل آن، ثم عدَلْتِ بي عن هذا الطريق في النهاية إلى الطريق الجديد الذي أسلكُه الآن، بعدما تحقق لكِ شطر من أمانيكِ فحفظتُ القرآن ... فإليك يا أماه، ثمرةَ توجيهك الطويل لطفلكِ الصغير، ولفتاكِ الكبير، ولئن كان قد فاتَه جمالُ الترتيل، فعسى أن لا يكون قد فاته جمالُ التأويل ..)[2].

هذه العباراتُ تنضح بالأثر العظيم الذي تركته الوالدة في سيد قطب، ومدى سعيِه في تلبية وتحقيق آمالِها التي غرستْها فيه وهو طفلٌ غرير، وهي آمال عِراضٌ لا يغرسُها إلا كبير، وقد عبّر عن هذا في رثائه لها سنة 1940م في الكتاب الذي اشترك فيه مع إخوته " الأطياف الأربعة" قائلا: (لقد كنتِ تصوّرينَني لنفسي كأنما نسيج فريد منذ ما كنتُ في المهد صبيا، وكنتِ تحدثينني عن آمالِك التي شهد مولدُها مولِدي، فيتسرّبُ في خاطري أنني عظيم، وأنني مُطالب بتكاليف هذه العَظَمة التي هي من نسْج خيالكِ ووَحْي جنانكِ) [3]، وهكذا أصبح نسج الخيال لُحْمة وسَدًى في الواقع، وأضحى وحي الجنان فكرا وعملا إسلاميا مشهودا أثّر في الأجيال أيّما تأثير.

إخوته: كانت له ثلاثُ أخوات شقيقات وأخ شقيق وأخ غير شقيق، الأخ غير الشقيق أكبَرُهُم،

1- المصدر السابق، ص21، 22.

2- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، (ط8؛ بيروت دار الشروق، 1983م)، ص05.

3- عبد الباقي محمد حسين، سيد قطب "حياتُه وأدبُه"، (ط2؛ المنصورة: دار الوفاء، 1993م)، ص19، 20.

وقد قال عنه سيدٌ أنه يكبُره بجيل كامل، بعد ه الأخت الشقيقة " نفيسة" وتكبره بثلاثة أعوام، بعدها شقيقته " أمينة" التي تصغُره بثلاثة أعوام، يصفُها سيد فيقول: (تلك الفتاةُ الهادئةُ، إنها سارِبةٌ في الماضي لا تكادُ منه تعود، إنها شاعرة، ثروتها في التصورات أجْزلُ من ثروتها في ال تعبير)[1]، لها اهتمامات بالأدب، أصدرتْ مجموعتيْن قصصيّتيْن هما " في تيار الحياة" و" في الطريق" أهدتْ الأولى إلى شقيقيْها سيد ومحمد، وأهدتْ الثانية إلى شقيقتها " حميدة" ونظَمَت في رثاء زوجِها وأخيها سيد الشهيديْن مجموعة من القصائد جمعتْها في ديوانٍ سمّتْه " رسائل إلى شهيد " ، وقد اختار شقيقُها "محمد" إحدى قصصِها وأدْرجها في كتابه " منهج الفن الإسلامي"[2] .

بعدها شقيقه " محمد" الذي يصغُره بثلاثةعشر عاما، بعد أن أكمل الدراسة الثانوية اتجه إلى قسم اللغة الإنجليزية بناءً على رغبة شقيقه سيد، وتخرّج منها حاملا شهادة "الليسانس" في التربية وعلم النفس، تعرّض للاعتقال عام 1954م لمجرّد أنه شقيق سيد قطب [3] ، وبعد الإفراج عنه تعاقدتْ معه "جامعةُ الملك عبد العزيز" بالسعودية فعمل مدرسا فيها بداية من عام 1972م، كان أقرب الناس إلى سيد فكرا وشعورا، وكان سيدٌ يُكِنُّ له مودَّةً بالغةً حتى أنه أهدَى له باكورةَ إنتاجِه الشِّعْري وهو ديوان " الشاطئ المجهول" يقول فيه:

... فَأَنْتَ عَزَائِي فِي حَيَاةٍ قَصِيرَةٍ وَأَنْتَ امْتِدَادِي فِي الحَيَاةِ وَخَالِـفِي
تَخِذْتُكَ لِيَ ابْناً ثُمَّ خِدْنًا فَيَا تُرَى أَعِيشُ لِأَلْقَى مِنْكَ إِحْسَاسَ عَاطِفِ
عَلَى أَيِّمَــا حَالٍ أَرَاكَ مُخَلِّدِي وَبَاعِثَ أَيَّام العِذَابِ السَّــوَالِفِ
فَدُونَكَ أَشْعَارِي التِي قَدْ نَظَمْتُهَا لِتَبْقَى عَلَى الأَيَّام رَمْزَ عَوَاطِــفِي [4]

بعده شقيقته " حميدة" صغرى الأطياف الأربعة؛ يصفُها سيد قطب فيقول: (تلك الصبيّة الناشئةُ " حميدة" إنها موْفوزَة الحِسّ أبدا، متفزِّعة من شبح المجهول ، إنها تعبُد الحياةَ وتخشاها، إنها تتلفت في

1- سيد قطب وإخوته، الأطياف الأربعة، (ط2؛ بيروت: دون اسم الناشر، 1967م)، ص5، 6.

2- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، (ط 6؛ بيروت: دار الشروق، 1983م) وقد أدرجَ فيه قصةً بعنوان "قصة ضِرس" من ص206 إلى211 لأخته "حميدة قطب".

3- عبد الله عوض الخباص، سيد قطب الأديب الناقد، "الجزائر: شركة الشهاب للنشر والتوزيع، د.ت"، ص85.

4- عبد الباقي محمد حسين، ديوان سيد قطب، (ط3؛ المنصورة: دار الوفاء، 1997م)، ص7.

ذُعر، كلما تفرَّستْ في المجهول)[1]

وقد ذاقَ آلُ قطب كلُّهم مرارة السّجون والمعتقلات [2] صابرين محتسبين، واثقينَ من نصر الله، باذِلين كل ما يملكونَ في سبيل إعلاءِ كلمة الله وخدمةِ دعوته، فمنهم من قضى نحبَه كسيّد وابنِ أختِه "رِفعَت" ومنهم مَن أُفرِج عنه بعد ذلك وواصلَ جهادَه المبارك.

2 نشأتُه وتعلُّمُه:

توافرَ لسيد قطب جوّ أُسري معتدل، ملؤه الحريةُ والحياة والثقافة، فنما نُموا سَوِيّا في أحضان أُمّ واعية وأبٍ حازِم رشيد، فقد غرست الأمّ فيه الأمل والثقةَ بالنفس، مما جعله يعملُ بدأب لتحقيق أُمْنيتها، فحفظ القرآن الكريم كاملا وهو لم يتجاوز العاشرة، وأخذ يقتني كُتبا، ويُكثر من المطالعة، وعزم على ألا يتميزَ عليه أحدٌ من أقْرانه[3].

نشأ وهو طفلٌ صغيرٌ حريصا على ارتياد المساجد وأداء الصلوات فيها، ويحضر دروس العلم كالكبار- وإن كان عقلُه الصغيرُ لا يفْقه كثيرا مما يُلقى فيها من دروس وخُطَب- إلا أن هذا أوْرثَه من حيث يشعر أو لا يشعر حُب العلم والدرس والتحصيل ، ولما ناهز السادسة من عمره سنة 1912م أُدخلَ المدرسةَ وانتظم فيها وحَظِيَ بمعاملةٍ خاصة من ناظِرها- لمكانة والد سيد في القرية- [4] مما شجّعه على مضاعفة الجهود ليكون عند حسن الظنّ، فكان يحفظُ القرآنَ الكريم بالموازاةِ مُرهِقا نفسَه ساهرا إلى منتصف الليل، مُعيدا كل ليلة ما سبق له حفظه من القرآن حتى أتمَّه وهو في السنة الرابعة الابتدائية.

أمضى في هذه المدرسة ستَّ سنوات، ثم انقطع عن الدراسة سنتيْن بسبب ثورة 1919م التي شارك فيها بنظْم الشِّعر وإعداد الخُطَب وإلقائِها على أهلِ القرية في المجامع والمساجد (ووقعت المعجزة التي كان يتشكك فيها تارةً ويؤمنُ بها تارةً: وقعت على يدِه هوَ، فانطلقَ في حماسة الثورة وفوْرَتِها يكتبُ

1- سيد قطب وإخوته، الأطياف الأربعة، ص07.

2- جابر رزق، مذابح الإخوان في سجون ناصر، (دون رقم الطبعة، دار اللواء ،1977م)، ص113 .

3- سيد قطب، طفل من القرية، ص41، 43.

4- المصدر نفسه، ص25، 26 بتصرف.

هو الخُطَبَ ويضمِّنُها أبياتًا من الشِّعر - يحسَبُها موزونةً وهي مُتهالكةٌ- ويُلقيها في المجامِع والمساجِدِ، حيث نفخت الثورةُ المقدسةُ في الجميع، فصاروا يستمعونَ لكل هاتف بالثورة، ولو كان طفلًا صغيرا مثله لم يكد يتجاوز العاشِرة)[1].

وحين هدأت الأمورُ واستقرت سافرَ عام 1920م إلى القاهرة لإكمال دراستِه فيها ، وأقام عند خالِه الأزهري – الذي كان منتمِيًا لحزب الوفد وصديقًا لعباس محمود العقاد [2]- والْتحقَ "بمدرسة عبد العزيز " لمدة ثلاث سنوات، حتى عام 1924م، ولما كان من المتفوِّقين في تخرُّجِه فقد أَلْحقوه "بالمدرسة التجهيزية " التي كانت تابعةً لـ " دار العلوم " وأمضَى فيها أربعَ سنوات من 1925م إلى 1929م.

1- المصدر السابق، ص151.

2- عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد: إمام في الأدب، مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفا مع الإبداع، ولد سنة 1889م، توفي بالقاهرة ودفن بأسوان سنة 1964م، من تصنيفه 83 كتابا، في أنواع مختلفة من الأدب الرفيع منها كتاب عن "الله" وسلسلة في العبقريات ك: "عبقرية محمد" و "عبقرية خالد" وغيرها.
ينظر: الأعلام: 3/ 266.

في كُلية "دارِ العلوم":

الْتحقَ بكُلِّيةِ "دار العلوم" مباشرةً بعد تخرُّجِه من " التجهيزية" عام 1929م، ومكثَ فيها أربع سنواتٍ إلى سنة 1933م، وكانت الموادُّ المقررةُ عليهم في الكُلِّية هي: (العلوم الشرعية، والعربية، والمنطق، وعلم الكلام، واللغة العِبْرِية، واللغة السُّرْيانية ومقارنتها باللغة العربية، والتاريخ والاقتصاد السياسي وغير ذلك)[1].

لم يكن سيد راضيًا عن المناهج المقرَّرة عليهم في الكُلِّية، فأعلنَ انتقادَه وتقدَّم به على شكل مُذكرة إلى إدارة الكُلِّية بكل ثقة وشجاعة ؛ مقترحًا البديلَ المناسب وهو (أن تكون المدرسةُ تجهيزيةً خاصة، تُدرَّسُ بها اللغةُ الإنجليزية منذ أوَّل سَنة، وتتوسع في دراسة العربية وعلوم الدين، فتهيئ بذلك للقسم العالي، على أن تستمر دراسة الإنجليزية في هذا القسم، ويتوسع في دراسة اللغة العِبرية وفي علوم التربية، ويُخلق درس النقد الفني بجانب تاريخ أدب اللغة الذي يُدرّس الآن، وتزاد سنوات الدراسة بالقسم العالي إلى ست سنوات تنتهي بتقديم رسالة، ويستقل مجلس إدارتها بتسيير نظامها)[2] فكان من نشاطه هذا أن أعجب به الأساتذة وأَوْلَوْهُ تقديرًا واحترامًا كبيرين، حتى قال عنه أستاذُه "مهدي علام"[3] بعد محاضرة ألقاها سيد في الكلية (إنني أعُدُّ سيد قطب مفخرةً من مفاخِر دارِ العلوم، وإذا قُلتُ دار العلوم فقد عنيتُ دارَ الحِكمة والأدَب)[4].

لم يكتفِ سيدٌ بما كان يتلقاهُ في الجامعة من علم وأدب ، وإنما وسَّع دائرةَ تحصيله لتشمل نتاج المفكرينَ والأدباء الذين كانت تزخر بهم مصرُ آنذاك ، فكانت الصحفُ دسِمةً بمقالاتهم ، والكتب المنشورة مليئة بالأبحاث والدراسات المترجمة وغير المترجمة، والندوات الأدبية والعلمية تُعقَد، فكانت

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ط3؛ دمشق: دار القلم، 1999م)، ص75.

2- سيد قطب، نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، (ط2؛ جدة: الدار السعودية، 1969م)، ص64.

3- محمد مهدي علام: الكاتب الموسوعي اللغوي وهو نفسُه الذي يصدِّر كتبَه باسم "مهدي علام"، له عدد كبير من المؤلفات بأكثر من لغة، وُلد سنة 1900م وتوفي سنة 1992م.

ينظر: الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة: ص 357، التراث المجمعي في خمسين عاما: ص 217.

4- سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر، (دار الشروق، بدون تاريخ)، ص09، 10.

فرصةً لسيد أن يغترفَ من كل هذا الإنتاج ويرتوي منه ما وَسِعهُ الرِّيُّ، وأنْ يتصلَ بأحَدِ أقطابِ هذه النَدَوات وهو الأستاذُ عباس محمود العقاد الذي كانتْ له ندوةٌ في منزلِه يؤُمُّها المثقفونَ و الأُدباءُ ورجالُ السياسةِ والمفكرون والشعراء والطلبة على اختلاف مشارِبهم واتجاهاتِهم، فكان سيدٌ مواظِبا على حُضورِها بدايةً من عام 1927م ، حيث وجد فيها طَلِبَتَه وانفتحتْ عليه نوافذُ في العِلم والمعرِفة والأدب، فتوثّقت صلتُه بالعقاد وأصبح من تلاميذه ومُريديه كما صرَّح به هو نفسُه قائلا: (لقد كنتُ مُريدا بكل معنى كلمة المُريد لرجلٍ من جيلكم، تعرفونه عن يقين)[1] ويقصد به "العقاد".

ثم بدأ سيد يستقلّ بتفكيره ومنهجه عن أستاذِه، مُخالِفا له في بعض ما ينشره من كُتب ومقالات، حتى أضحتْ المخالفةُ جَفاءً بين الأستاذ وتلميذِه، خاصة حين انضمَّ سيدٌ إلى الإخوان المسلمين وبدَّل مَساره كُلِّيةً إلى العمل الدعَوي الحَرَكي الذي لم يرُق للعقاد ولم يُعجبْه.

وفي خِضمِّ هذا الاتجاه الجديد لسيد، أنشأ يؤلِّف الكُتُبَ بعد طول فترة التحصيل، وتوقَّع تقريظا أو نقدا من أستاذِه كما كان يفعلُ هو بكُتُبِه من قبلُ، فلم يفعلْ، وكان تْ حسْرةً مُمِضَّةً أَسَرَّها في نفسِه ولم يُبْدِها حتى تمَّت له كُتبٌ عَشَرة، فطفحَ الكيْلُ ونفثَ ما في صدرِه المَكْظوم في مقالٍ وَجَّهَهُ لأحمد أمين[2] يقول فيه: (لقد كتبتُ عنكم جميعا بلا استثناء ، شرحتُ آراءكم، وعرضْتُ كُتبَكم، وحلَّلتُ أعمالَكم بقدْر ما كنتُ أستطيع، ثم جاء دوْري.. جاء دوري في أن أنشُر كُتبا، بعد أن كنتُ أنشر بحوثا ومقالات وقصائدَ... فماذا كان موقف أستاذي؟ – ويعني العقاد–، وماذا كان موقف جيلكم كلِّه ؟، ماذا كان موقف الشيوخ– لا مِن هذا الكتاب وحدِه " كتاب التصوير الفني "، ولكن من الكتب العشرة التي نشرتُها حتى الآن ؟... ولكنَّ كلمةً طيبة من جيل الأساتذة...– مع الأسف– لم تكُن...)[3].

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص155.

2- أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطباخ، عالم بالأدب، غزير الاطلاع على التاريخ، من كبار الكُتّاب، مولده ووفاته بالقاهرة، وُلد سنة1887م وتوفي سنة 1954م، من أعماله إشرافُه على (لجنة التأليف والترجمة والنشر) من تآليفه سلسلة بدأها بـ: "فجر الإسلام" و"النقد الأدبي" و"زعماء الإصلاح في العصر الحديث"...

ينظر: الأعلام: 101/1.

3- مجلة الثقافة، السنة الثالثة عشر، عدد 663، تاريخ: 10 سبتمبر1951م، ص08.

توجَّه سيد إلى التدريس، فقضى فيه حوالي سبع سنوات من 02 /12 /1933م إلى 01 /03 /1940م، ثم كمراقب للثقافة في "وزارة المعارف " بداية من هذا التاريخ إلى غاية 01 /07 /1944م، أي حوالي 4 سنوات، وفي التفتيش مثلها إلى غاية 03 /11 /1948م[1]، ثم أُوفِد في بعثة علمية إلى "أمريكا" في هذا التاريخ من وزارة المعارف للتخصص في "التربية وأصول المناهج"[2].

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص85، 87.

2- عبد الباقي محمد حسين، سيد قطب حياته وأدبه، ص40.

رحلتُه إلى أمريكا:

كان سيد قطب يُوَالي نشرَه للمقالات في الصحُف والمجلات بلا انقطاع، ومن جملتها مقالات حادَّة عنيفة يكشِف فيها عُوَار الظلم والظالمين، مُنتقدا الأوضاعَ السائدة من تحكُّم كبار المُلاَّك والإقطاعيين في رقاب البُسطاء العاملين، وتلاعبهم بالحقوق، وإهدارهم للكرامات، فلم يجد القائمون على الإدارة وشؤون الحكومة حُجة قانونية لاعتقاله ، فدبّروا له هذه السفْرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تحت غطاء بعثة علمية للتخلُّص منه أوَّلا ولا يهمّ تحديد مهمَّته هناك [1]، مع العِلم أنه في ذلك الوقت لم يكُنْ ينتمي إلى أي حزبٍ سياسي أو اتجاه معيَّن ، لكنه لا يَنِي يُشرِّح في مقالاته مكائد الاستعمار الإنجليزي وأدواته وأعوانه وصَنائعه من القصر والحكومة والإقطاع حتى ضاقوا به وأوْفدوه إلى أمريكا.

سافر سيد إلى أمريكا في 03/ 11/ 1948م[2] وكان سفرُه على ظهر باخرة من الإسكندرية إلى نيويورك، أثبت بعضا من خواطره وهو على متْنها يخاطبُ نفسَه قائلا: (أأذهبُ إلى أمريكا، وأسير فيها سيْر المُبْتَعَثين العاديِّين، الذين يكتفون بالأكل والنوم، أم لا بد من التميُّز بسمات معيَّنة ؟ وهل غيرَ الإسلام والتمسكِ بآدابه والالتزام بمناهجه في الحياة، وسط المعمعان المترف، المزوّد بكل وسائل الشهوة واللذة الحرام ؟ وأردتُ أن أكونَ الرجُل الثاني...) [3] وفِعلا كان الرجلَ الثاني المستعلي بإيمانِه، الملتزم بإسلامه، فلم تفتِنْه تلك الحضارة المترفة ، ولم ينجرِف وراء تلك الإغراءات التي لا يقف في وجْهِها إلا أُولُوا العزائم القوية والنفوس المحَصَّنة، فقد رَوى لنا في انطباعاتِه التي سجَّلَها [4] نماذجَ من هذه الاستدراجاتِ التي قصدُوه بها وحاولوا الزَّجَّ به مرّاتٍ عديدةً في مستنقع الشهوات الآثِم، فأَبانَ لهم عن عُنصُرِه الزكيِّ وإيمانِه النقي ونفسِه الأبِيَّة، فلما لم تُفلحْ هذه المحاولاتُ معه، غيَّروا وِجهتَهم لاحتوائِه فِكريًّا وسياسيا ، فتنافسَ رجالُ المخابرات الأمريكية والإنجليزية في ضَمِّه إليهم، فعرَضُوا

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، (الجزائر، باتنة: دار الشهاب، دون رقم الطبعة، 1987م)، ص19.

2- عبد الباقي محمد حسين، سيد قطب حياتُه وأدبُه، ص40.

3- صلاح عبد الفتاح الخالدي، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، ص21، 22.

4- المرجع نفسه، ص21، 22، 24، 27، 29، 31، 33...وغيرها.

عليه ترجمة كتابه " العدالة الاجتماعية في الإسلام " مقابلَ عَشَرَة آلاف دولار [1]، فرفضَ واستعْلَى على هذا الإغراءِ الماليِّ الكبير، كما عَرَضوا عليهِ الكفَّ عن مُعاداةِ بريطانيا ومهاجمتِها، لأنها إن خرجتْ من مصرَ، فستحُلُّ محلَّها أمريكا وهي أشدُّ عداءً منها[2]، إلى غير هذا مما هو مبثوثٌ في انطباعاتِ سيد قطب.

قضى سيدٌ عاميْن في أمريكا زارَ فيهما معظمَ مُدُنِها واطَّلَع عن كثب على هذا العالَمِ الجديد الذي فُتن به الجميعُ، وكشفَه على حقيقتِهِ في كتابِهِ " أمريكا التي رأيتُ " الذي أعلنَ عنهُ ولم يصدُرْ، كما كتب فقراتٍ في " الظلال" على مشاهداتِهِ وتجاربِهِ التي رآها مفيدةً في تعقيباتِهِ على تفسيرِ بعضِ الآيات.

وبما أن رحلةَ سيد لم تكنْ لإ كمالِ الدراسةِ ، وإنما هي ميدانيةٌ عملية فكان إنهاؤُها بيدِه، فقر ر العودةَ وخاطبَ مِصرَ قائلا:

... يَا أَرْضُ رُدِّي إِلَيْكِ   هَذَا الوَحِيدَ الغَرِيبْ
هَوَاهُ وقْفٌ عَـلَيْكِ   رُدِّي فَتَاكِ الحَبِيبْ [3]

ووصل سيد إلى القاهرة في 20/ 08/ 1950م واستُقبل بحفاوة وباشر عمله في وزارة المعارف[4].

وهكذا خابت ظنون الأمريكان وعملائه م الذين أرادوا احتواءه فراموا بعيدا، وعاد وهو أصلب عودا، وأقوى نفسا، وأنقى عنصرا، بعدما سبر هذه الحضارة الجديدة واكتوى بنارها، وأصبح وهو أقوى من ذي قبل على كشف مخازيها وفضح مخططاتها، وانقلب السّحر على الساحر.

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، ص28، 29.
2- أخبر بهذا أخوه "محمد قطب" صلاح عبد الفتاح الخالدي، وأثبتَ هذا الأخيرُ الروايةَ في كتابِهِ "سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد"، ص198.
3- صلاح عبد الفتاح الخالدي، "أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب"، ص147.
4- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص211.

ب- سيد والإخوان المسلمون:

لم يكن انضمامُ سيد قطب إلى الإخوان المسلمين مفاجأةً ودون مقدمات، ولم يكن اتجاهُه للفكر الإسلامي محضَ صُدفةٍ، وإنما سبقَ هذا الانضمامَ والاتجاهَ إرهاصاتٌ عِدَّةٌ ومقدماتٌ طبيعيةٌ.

احتلَّ سيد قطب الصدارةَ في الأدب والشعر والنقد حتى قارَبَ إنشاءَ مذهبٍ أدبي متميز يُعرَف به في كل ما يكتب ويسطر، ثم لما اتسعتْ آفاقُه ومطالعاتُه ومَدَاركُه ألف كتابا برأسِهِ في بيانِ أصول مذهبِه[1] وذاع صِيتُهُ بين الأدباء والمثقفين حتى أضْحَتْ مجلةُ "الرسالة" تنشرُ له مقالاتِه في الصفحات الأولى، وهِيَ مَن هيَ بين المجلات التي تصدُر آنذاك.

والمتتبعُ لمقالاته فيها يجد أنها تناولت معظمَ ما أنتجه جيلُ الشيوخ والشباب، من دواوين شعرية وقصص وروايات ومسرحيات وكتب ثقافية وفكرية نقدا وتعريفا، وكان ينوي أن يُصدرَ كتابا عن نتاج الأدباء المعاصرين يسميه " المذاهب الفنية المعاصرة" ولكنه عَدَل عنه[2].

استفاد سيد قطب كثيرا من مُلازمتِه للعقاد وارتيادِه لمكتبته الثرية ومواظبتِه على الندوةِ التي كان يعقِدُها في بيته مرة في الأسبوع - كل يوم جمعة -، فنهلَ من هذه المدرسة ما شاء الله له أن ينهلَ، يحدِّثُنا سيد عن صلتِه بها فيقول: (ولقد رقيتُ إلى محاولة استيعاب العقاد – وأفلحتُ إلى مدًى – على دَرَج من دراساتٍ شخصيةٍ جمّةٍ، ليست دراسةُ الأدب العربي و لا اللغة العربية إلا أولى خطواتها. دراسات تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية – على وجه التقريب – من الآداب الإفرنجية: قصةً ورواية وشعرا. ومن المباحث النفسية الحديثة: نظريات العقل الباطن، والتحليل النفسي والمَسْلَكية. ومن المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة، ومن مباحث علم الأحياء - بقدر ما استطعت -...)[3].

1- كتابه: "النقدُ الأدبي أصولُه ومناهجُه" طبعتْه دار الشروق طبعاتٍ كثيرةً.

2- سيد قطب، كتب وشخصيات، (ط3، بيروت: دار الشروق، 1983م)، ص104.

3- مجلة الرسالة – السنة السادسة– المجلد الأول، عدد257، تاريخ 6 يونيو1938م، صفحة: 937 .

ثم بدأ يستقلّ بنفسه ويحتفظ بشخصيته فيما يكتبُ خشيةَ الذوَبان في شخصية العقاد العملاقة ، ولم يمنعْهُ هذا الاعتراف له بالأستاذية والتوجيه وعبَّر عن هذا قائلا: (بدأتُ أشعرُ أن ني قد تخلصتُ، وأنني أنتفعُ بالعقاد ولكنني لا أقلدُه، وأن لي طريقا ألمح معالمه، وأستشرفُ آفاقَه، وأنني أتذوقُ بحِسي، وأنظرُ بعيْني، وأسمعُ بأذني، وإن كان للعقاد فضلُ التوجيهِ في الطريق العام...)[1].

وأخيرا حين خاضَ غِمارَ الفكر الإسلامي وتشبَّع بالروح الإسلامية الصافية النقية وتبلور منهجُه في الدراسات الإسلامية، وقفَ وقفاتٍ مطولةً يصوِّبُ فيها أفكارَ بعضِ الكُتَّاب المسلمين المعاصرين، ومن بينهم أستاذُه السابق " العقاد"، في كتابه "الله" الذي يقول فيه: (يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأممُ البدائيةُ في اعتقادها بالآلهة والأرباب، وهو دور التعدد Polytheism، ودور التمييز والترجيح Henotheism ، ودور الوحدانية Monotheism)[2]، فعقَّب سيدٌ عليه مفنِّدا دعواه بقوله: (والذي لا شك فيه أن اللهَ سبحانه يقرر في كتابه الكريم، تقريرا واضحا جازما، شيئا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب "الله" متأثرا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة.. وأن الذي يقرره الله- سبحانه- أن آدمَ وهو أبو البشر ية عرفَ حقيقةَ التوحيد كاملةً، وعرف نزاهة التوحيد غير مَشُوبة بشائبة من التعدد والتثْنية... وأنه لما طال الأمدُ على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد.. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد.. ودانتْ لشتَّى الأربابِ الزائفةِ.. حتى جاءها نوحٌ عليه السلام بالتوحيد مِن جديد...)[3].

هكذا تطورَ سيد قطب في فكره من تلميذٍ مُريدٍ إلى مستقلٍّ مُنشئ ، إلى ناقدٍ فاحصٍ ، إلى مُنظِّر للحركةِ الإسلامية كلِّها في مصر ، وفي ما بعدُ إلى كل من تبنَّى أفكارَه خارج مصر من فروع الإخوان المسلمين.

1- مجلة الرسالة- السنة الثانية عشرة- المجلد الثاني، عدد597، تاريخ 11ديسمبر 1944م.
2- عباس محمود العقاد، الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية-، (ط6، مصر: دار المعارف، 1969م)، ص28.
3- سيد قطب، في ظلال القرآن، (الطبعة الشرعية الثالثة، بيروت: دار الشروق،1977م)، ج4/ص1884، 1885.

فبداياتُه الأدبيةُ كانت مثمرةً في توسيع الاهتماماتِ والمدارِكِ والآفاق ، ولكنَّ أكبرَ المقدمات لاتجاهه الإسلامي هي دراساتُه الأدبيةُ للقرآن الكريم، وقد صدَرَ له كتابان يُعْنَيَانِ بجانب من الجوانب الأدبية للقرآن الكريم هما "التصوير الفني في القرآن "و"مشاهد القيامة في القرآن " سنتيْ 1945م و1947م، ومنهما كانت الانطلاقةُ إلى المواضيع الأساسية في القرآن، فكتب في الإصلاح والتغيير مقالاتٍ عديدةً وألقى محاضرات داعيا من خلالها إلى الإسلام الصحيح الذي يُغني عن كل المناهج المستوْرَدَة من الشرق والغرب على السواء، واتضح منهجُه ومَسارُه في كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" الذي صدر عام 1949م واستقبله الإخوانُ المسلمون بحفاوة ظانِّينَ أنه مُهدًى إليهم لقوله فيه: (إلى الفتيةِ الذين كنُتُ ألمحُهم بعين الخيال قادِمينَ؛ فوجدتُهم في واقع الحياةِ قائمينَ.. يجاهدونَ في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، مؤمنينَ في قرارةِ نفوسِهم: أن العزةَ لله ولرسوله و للمؤمنين...إلى هؤلاء الفِتْيةِ الذين يجاهدونَ باسم الله.. في سبيل الله.. على بركة الله ، أُهدِي هذا الكتابَ)[1]، ففهِمَ الإخوانُ أنه يَعنيهِم بهذا الإهداءِ، ولم يكن الأمرُ كذلكَ، ولكنهم مِن جانبِهم تبنّوْا الكتابَ واعتبروا صاحبَه صديقًا، وبدَأوا يهتمّونَ بأمرِه [2]، فصُودِرَ الكتابُ ولم توافق السلطاتُ على طبعِه إلا بعد حذْفِ الإهداءِ، فتم حذفُه[3]، ثم أُثبتَ في الطبعاتِ الأخرى فيما بعدُ.

كان سيد يلتقي في كتاباته وما ينشرُه في الصحف والمجلات مع فكر الإخوان في محاربة الظلم والاستبداد والإقطاع والشيوعية، ولكنه لم ينتظِم في حركتهم ولم يَرِدْ مجالسَهم واجتماعاتِهم، وشاء اللهُ له أن يتأثرَ بهم وهو في أمريكا، فقد وقعتْ له حادثتان هزّتاهُ هزًّا عنيفا وحثّتاهُ حثا على التقرُّب من هذا التنظيم الحَرَكي المسلم الذي أقضَّ مضاجعَ الغرْب، ففي فبراير سنة 1949م وهو في إحدى مستشفيات أمريكا راعَهُ ما شاهدَ من (مظاهر الفرَح والابتهاج بل والشماتة في كل شيءٍ من حولِه: في الصحافة، وفي جميع أجهزة الإعلام، وفي كافة المنتديات ! كلها تُهلِّلُ و يُهنِّئ بعضُها بعضا بالتخلص من أخطر رجُلٍ في الشرق)[4]، فاستفسرَ عن السبب، وأخبروه بهذا الاغتيال وارتياحهم له، فصمَّم في قرارة

1- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، (ط2، بيروت: دار الشروق،1974م)، ص01.
2- سيد قطب، لماذا أعدموني، (الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، دون تاريخ نشر ولا رقم الطبعة)، ص11.
3- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، (ط1، عمان، الأردن: مكتبة الأقصى، 1981م)، ص135.
4- مجلة المجتمع، عدد115، أغسطس 1972م.

نفسه أنْ إذا عاد إلى مصر ليتقربنَّ من هذه الحركة وليعرفنَّ الكثيرَ عنها وعن قائدها هذا الذي طارَ بموتِه فرَحًا ناسٌ في أقصى الدنيا.

أما الحادثُ الثاني فكان في زياراتٍ متكرِّرَةٍ لرجالِ المخابرات له في بيته ودعوتِهم له إلى بيوتهم ومحاولة احتوائِه بكل الطرق، وكان أبرزهم بريطاني يُدْعى "جون هيوورث دن " الذي كان يملكُ تقاريرَ مفصلةً عن تحركات حسن البنا [1] وجماعتِه منذ تكونتْ في الإسماعيلية عام 1928م إلى أن تم اغتيالُه عام 1949م، مصوِّرا له الخطرَ المُحدِقَ بالبلادِ لو تسنَّمَ هؤلاءِ سُدَّةَ الحُكم، ناصحا له بالكفِّ عن مُعاداةِ بريطانيا والهجوم عليها، وهكذا اتضحَ الأمرُ جَلِيا لسيد قطب وعقّب على الحادثةِ قائلا: (قلتُ في نفسي: الآن حصحصَ الحقُّ، وأيقنتُ أن هذه الجماعةَ على الحق المبينِ، ولم يبقَ لي عذرٌ عند الله إن لم أتبعها، فهذه أمريكا ترقُص على جُمجمة حسن البنا، وهذه بريطانيا تسخّرُ أجهزتَها وأقلامَ مخابراتِها –حتى داخل أمريكا– لمحاربة الإخوان، فصمّمتُ في قرارة نفسي أن أنضمَّ إلى الإخوانِ المسلمينَ، وأنا لم أخرُجْ بعدُ من منزلِ رجُلِ المخابراتِ البريطاني)[2].

ولم ينضمَّ رسميا إليهم إلا بعد ثورة عام 1952م، لمّا بدأت الخلافاتُ بينه وبينَ رجالِ الثورةِ، أخذَ يقتربُ من الإخوانِ أكثر، لِمَا لاحظَه من حرب عُمَلاء أمريكا للإخوان، واتفاقِهم مع الأعداء في الداخل والخارج على محاربة الجماعة والإيقاع بها.

اعتبر سيدٌ نفسَه قد وُلد من جديدٍ لانضمامِه إلى الإخوان وتبنِّيه رسالتَهم وهي العملُ بالإسلام وللإسلام، فاتجهَ بنيَّة صادقةٍ وعزم ماضٍ إلى العمل الدؤوب، وشرَعَ يكتبُ المقالاتِ الحادّةَ في نقد الأوضاع، حتى أشفقَ عليه الكثيرونَ من أصدقائه وزملائه من مغبَّة ما يحيقُ به إن هو واصلَ على هذا النهج في النقد العنيف، وقد صوَّرَ لنا سيدٌ نوعا من هذا الحديث المشفق الذي وجهه له بعضُ الإخوان

1- حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا: مؤسس جمعية (الإخوان المسلمين) بمصر، وصاحب دعوتهم، ومنظم جماعتهم، ولد في المحمودية (قرب الإسكندرية) سنة 1906م، واغتيل بالقاهرة سنة 1949م، له مذكرات نشرت بعد وفاته باسم (مذكرات الدعوة والداعية).

ينظر: الأعلام: ج2/ ص 182، 183.

2- مسودة البحث الذي يعوده الدكتور عبد الله عزام عن سيد قطب (عن المرجع نفسه، الصفحة نفسها).

بقوله: (أنتَ تجابهُ قوًى جارفةً ، قوى تملكُ أن تشتريَ دولا وأمما وشعوبا،قوى مدرَّبةً لها عُملاءُ في كل مكان ولها أجهزتُها التي مَرَنت على العمل.. هذه القوى تملك أن تُحيلَكَ متهَما في أعيُن مواطنيك.. تملك أن تجردكَ من سُمعتكَ ذا تها فتُظهركَ للناس خائنا، وتجد ألف شاهد وألف جهاز من أجهزة الدعاية تهتف بذلك ليلَ نهار، إنك لستَ غنيا، ولستَ فتِيًّا، فأنتَ رجلٌ تدلُفُ إلى الكهولة.. وأنت لا تستند إلى حزب أو هيئة تُنفقُ عليكَ إذا انقطعَ رزقُكَ...) [1]، وأجابه سيد إجابةَ مَن يعلمُ وِجهتَه ويؤدي رسالتَه، فكل ما ذكره الناصحُ حقٌّ لا مِراء فيه، ولكنَّ العملَ للإسلام يتطلبُ تضحياتٍ، ويسمو على مصالح الأهل والولد وعلى المنافع الضيقة غير الأهل والولد، فأجابه سيد قائلا- بعد كلام طويل- (وماذا يصنعُ أهلي إذا أنا مِتُّ على فِراشي اللحظةَ كما يموتُ البعيرُ؟ والحياةُ كلُّها أنْفاسٌ: نفَس يدخلُ فلا يخرج، ونفَس يخرُجُ فلا يدخل! هل يتخذون لهم نفقا في الأرض أم سُلّما في السماء؟ ﴿ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ ﴾[2]، وأنا يا صديقي لا أريد-كما قلتُ- أن أموتَ... ولكن الموتَ والحياةَ غيبٌ من غيبِ الله. فلا يجوز أن يكونا في حساب أحدٍ يريدُ أن يؤديَ واجبا، أو يغير منكرا، أو يذهَبَ أو يجئَ حتى في تجارةٍ أو مَعَاش...)[3].

شارك سيد قطب في التحضير لثورة 1952م التي أطاحت بالملك فاروق [4] بالمقالات والخطب والتنظيم، حتى أنه كان المدنيَّ الوحيدَ الذي يحضُر جلسات مجلس قيادة الثورة، وبعد نجاحها أقيم حفل لهذا النجاح شهدتْه شخصياتُ مصرَ المرموقة، وحاضر سيد قطب فيها، ومما قال في محاضرته: (ليس لنا أن نُثنيَ عليها [أي على الثورة] لأنها لم تعملْ- بعدُ- شيئا يستحق أن يُذكر، فخر وج الملك ليس غاية الثورة، بل الغاية منها العودةُ بالبلاد إلى الإسلام... لقد كنتُ في عهد الملَكية مُهيئا نفسي للسجن في كل

1- سيد قطب، دراسات إسلامية، (بيروت: دار الشروق، 1978م، دون رقم الطبعة)، ص141. يراجع بتوسع مقال: "إنما العقيدة في الله" من ص141 إلى146.

2- سورة آل عمران، جزء من آية 154.

3- المصدر نفسه، ص144.

4- فاروق "الملك" بن أحمد فؤاد "الملك" بن إسماعيل "الخديوي" بن إبراهيم بن محمد علي: آخر من حكم مصر من أسرة محمد علي، وآخر من لُقب بالملك فيها، ولد بالقاهرة سنة 1920م وتوفي بروما سنة 1965م.

ينظر: الأعلام: ج5/ ص 128، 129.

لحظة وما آمَنُ على نفسي في هذا العهد أيضا، فأنا في هذا العهد مُهيِّءٌ نفسي للسجن ولغير السجن أكثر من ذي قبل)[1].

وهنا وقف جمال عبد الناصر وقال : (أخي الكبير سيد، والله لن يصِلوا إليكَ إلا على أجسادِنا جثثا هامِدة، ونعاهِدُك باسمِ الله، بل نجدِّدُ عهدَنا لكَ أن نكونَ فداءَك حتى الموت...) [2].

يا لَلمفارقة العجيبة! هذا الذي زعم أنه سيفديه بمُهجتِه؛ هو نفسُه الذي أمرَ بإعدامِه بعد خمس عشرةَ سنةً من تاريخ هذا الحفل، فأين المبادئُ والقيمُ؟! أيبلُغُ حُبُّ المناصبِ وعِشْقُ الكراسي حدَّ التنكُّر للماضي كلِّه وقلْبِ ظهْرِ المِجَنِّ لرُفقاء الدرْب!، لو كُتب علينا الخلودُ في هذه الدنيا لما جازَ هذا الانتكاسُ عند العُقلاء، وكيف ونحنُ لا تزيدُ أعمارُنا –إن طالتْ– على قرنٍ واحدٍ من الزمان، ها هو الحاكِمُ والمحكومُ عليه قد أفْضَيَا إلى ربهما ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[3]، فبِمَ يجيبُ الحاكمُ وبمَ يجيبُ المحكومُ؟ شتانَ بين الإجابتيْن، ولا نعلِّقُ أكثرَ مِن هذا.

اصطدم الإخوانُ مع الحكومة عام 1954م وزُجَّ بكثير من الإخوان في السجون وفي مقدمتهم سيد قطب، وبدأت محنتُه الحقيقيةُ التي صاحبتْهُ حتى استشهاده، وصُبَّت عليهم صُنُوف من الاضطهاد والتعذيب والأذى لا توصَف، وواجهوا كل هذا بإيمان وصبر وثبات وعزة واحتساب، وكان نصيب سيد من هذا كثيرا حتى أصيبَ بأمراض مستعصيةٍ على العلاج كالذبْحةِ الصدرية والنزيفِ الرئوي.

عُقدتْ للإخوانِ محاكماتٌ صوريةٌ حُكِمَ عليهم فيها بالأشغال الشاقة على تفاوُت في المُدَد، وفي جلسة المحكمة (نزع سيد قطب رداءَه عن جسمِه أمام الحُضُور، فظهرت لهم على جسمِه آثارُ التعذيب

1و2- انظر الوصف الكامل لهذا الحفل، والتلخيص للكلمات التي أُلقيت في مقال الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ، صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص142.

3- سورة مريم، الآية 95.

الشديد، فاضطر جمال سالم [رئيس المحكمة] إلى رفع الجلسة فورا)[1]، وحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة مدة خمسة عشر عاما.

دخل السجنَ ومعه فِتْيانٌ آمنوا بربهم، فكانَ لهم المرشدَ الموجِّهَ الآسيَ لأحزانِهم وخَلَواتهم، فاستعلى بإيمانِه وصبر على البلاء صبرا قلَّ نظيرُه، فلم ينْطَوِ على نفسِه ويجترَّ همومَه ويقلقَ على مصيرِه ومستقبلِه، بل واصلَ جهادَه واجتهادَه من داخل السجن فألف : "الظلال" و"هذا الدين" و"المستقبل لهذا الدين" و"الإسلام ومُشكلات الحضارة " و"خصائص التصور الإسلامي " و"مقومات التصور الإسلامي" و"معالم في الطريق"[2]، مَن يصدّقُ أن كلَّ هذه الكتب الدسِمة العميقة التي تناولتْ مختلف جوانب الفكر الإسلامي أُلفتْ في السجن!، ألاَ إنه لا يستطيع أن يفعلَ هذا إلا ذوو النفوسِ الكبيرة التي تتصلُ بالنبْع الإلهي ؛ والتي تحلّقُ في أجواء عالية من الأُنس والطمأنينة التي يُنشئها الإيمانُ الحق والعقيدةُ القوية.

هيأ اللهُ تعالى ويسَّرَ الوسائلَ لسيد وهو في السجن أن يُكملَ تأليف موسوعته "في ظلال القرآن"، فقد تعاقدتْ معه "دار إحياء الكتب العربية " على نشر "الظلال"، وأصدرَ معها ثمانية عشر جزءا، ثم دخل السجنَ، فرفعتِ الدارُ دعوى قضائية على الحكومة تطالبُها بتعويض ما قيمتُه عشرةُ آلاف جُنَيْه، فآثرت الحكومة على الدفع أن تتركَ سيدا يكمل تفسيره، وعيّنت الشيخَ محمد الغزالي[3] رقيبا على النشر، (ولم يحذِف إلا فقرات من تفسير سورة البروج، أشار فيها سيد قطب إلى التعذيب الذي لاقاه هو والمجاهدون في السجون)[4]، وهكذا كُتبَ لـ"الظلال" أن يرى النورَ من ظُلمة السجن، وطُبع في حياة سيد ثلاث طبعات، وبعد وفاته عشراتٍ أخرى بعضُها مسروقة وأخرى شرعية، لتهافُت الناس على

1- جابر رزق، مذابح الإخوان في سجون ناصر، (دون رقم الطبعة ولا مكان النشر، دار اللواء للطباعة والنشر، 1977م)، ص113.

2- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص367.

3- محمد الغزالي السقا، المفكر والداعية المعروف، ولد سنة 1917 في قرية "تكلا العنب" من أعمال "البحيرة" في مصر، له عشرات المؤلفات منها "فقه السيرة" و "قذائف الحق".

ينظر: علماء ومفكرون عرفتُهم: ج2/ ص 265.

4- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص244.

اقتنائه والاستفادة منه.

مكث سيد في السجون المصرية عشر سنوات كاملة، تدهورت فيه صحته ونحُل جسمُه، وترامت هذه الأخبار عن صحة سيد إلى الرئيس العراقي عبد السلام عارف [1]، فتوسط له لدى عبد الناصر وأفرج عنه، يقول سيد: (زارني عقب خروجي سيادةُ سفير العراق في الجمهورية المتحدة وأبْلغَنِي تحيات سيادة الرئيس عبد السلام عارف، كما أخبرني السفيرُ أن الرئيسَ سعيدٌ بنجاح وَسَاطته لدى سيادة الرئيس جمال عبد الناصر، وهو يسألُ عن صحتي وعمّا إذا كانت لي أيَّة طلبات يملكُ إجابتَها، وذكر لي كذلك أن كتاب "في ظلال القرآن" كان أنيسَه في فترة اعتقاله أيام "عبد الكريم قاسم")[2].

خرج سيد قطب من السجن وأُفرِج عنه بعفوٍ صحيٍّ بواسطة الرئيس العراقي عبد السلام عارف، وأحاط به الإخوانُ محتَفِين بنجاته، وعَرَضوا عليه قيادة التنظيم من جديد، فاعتذر بحُجَّة أنّ مَن مكثَ في السجنِ (عشر سنوات يكون كالأعمى من ناحية الرؤية الاجتماعية، ولا بد أن تُترك له فرصةٌ للتعرُّف على المجتمع، و لمعالجة أحواله وأوضاعه الاجتماعية... وأن الجوَّ في الخارج غيره في السجن، ففي السجن تكون الطاقةُ حَبِيسةً ومتجمِّعةً ومندفعةً في الاتجاهِ الذي دخل صاحبُ العقيدةِ من أجله السجنَ، أمَا وهو في الخارِجِ فستستغرقُه مشاغلُ ومشكلاتٌ واهتماماتٌ متنوعة)[3].

ولكنَّ إلحاحَ الإخوان عليه بقيادة التنظيم - إذ لم يرَوْا أكْفأَ منهُ في الساحة علما وعملا - جعله يستجيب لمطلبهم ويباشرُ قيادة التنظيم من جديد، ولكن كيف تغفُل السلطاتُ عن تحركات هذا القائد الخطير، فتحركاتُه كلُّها تحت المراقبة، فلم تزِدْ فترةُ الإفراج عنه على ستة أشهر ، وأُعِيدَ اعتقالُه مرَّةً أخرى وكل إخوان التنظيم عام 1965م، وسيق إلى "السجن الحربي " حيث بقيَ في التعذيبِ والتحقيقِ

1- "أو محمد عبد السلام" بن محمد عارف، ثاني رئيس للجمهورية العراقية، ولد في بغداد سنة 1921م واحترقت به الطائرة سنة 1966م، له مذكرات نُشرت بعد وفاته.
ينظر: معجم المؤلفين العراقيين: 279/2.

2- سيد قطب، لماذا أعدموني، ص73.

3- المصدر نفسه، ص38، 39.

والمحاكمةِ، إلى أن تمَّ إعدامُه بعد سنةٍ من هذا الاعتقال[1].

وهكذا تنقلب المحنةُ منحةً، فالفترة التي قضاها سيد في السجن هي أخصب فتْرة في حياتِه كلِّها علما وعملا، فكتُبُه الإسلاميةُ العميقةُ وبحوثُه الشيقةُ في الفكر الإسلامي ألَّفها إبَّان هذا الاعتقال، فقد اعتقلوا جسْمَه وعجزوا عن اعتقال فكره، ووفقه الله للعمل للإسلام والتضحية بنفسه الطاهرة في سبيل ما اعتقده وعمل له، ونال الشهادة راضيةً بها نفسُه.

إعدامُه:

اعتُقل سيد قطب في 09 أغسطس (أوت) 1965م، إثر عريضة احتجاج قدمها للمخابرات على اعتقال أخيه محمد قطب [2] في 29 يوليو من نفس السنة، وكانت فرصة سانحة للزجّ به هو الآخر في غيابة السجن بعد أن كِيلَتْ له الاتهامات العريضة، إذ وصل بهم الأمر إلى أن نسبوا له ادِّعاء النبوة والتخطيط لانقلاب يُطيح بالحكومة[3].

وفي هذه المرة ولضخامة هذه الاتهامات والافتراءات رأى سيد أن الإعدام واردٌ لا محالة، فكتب تقريرا مطولا للمحكمة فصّل فيه نشاطه مع الإخوان بكل جرأة وشفافية، من البداية مبينا الغاية التي من أجلها يَسْعوْن والهدف السامي النبيل الذي إليه يشرئبّون ، وأنه لا تهِمُّهم الكراسي ولا المناصب ولا إطاحة الحكومات ولا العنف ولا كل ما يتصوره هؤلاء المرضى المُروَّعون، فكتب في المقدمة يقول: (إنه آن أن يُقدم إنسانٌ مسلم رأسَه ثمنا لإعلان وجود حركة إسلامية وتنظيم غير مصرح به قام أصلا على أساس أنه قاعدة لإقامة النظام الإسلامي) [4] إلى أن يقول: (بقيتْ حركة الإخوان هي وحدها القائمة بهذا الواجب. إن الإسلام لا يقوم ولا يوجد في بلد ليس فيه حركة تربي ة ثم قيام نظام إسلامي يحكم

1- ينظر: سامي جوهر، الموتى يتكلمون، (ط02، القاهرة: المكتب المصري الحديث، 1977م)، ص120، 121.

2- محمد قطب إبراهيم، ولد سنة 1919م في بلدة "موشة" من محافظة "أسيوط" بمصر، وهو أخو سيد قطب، الذي أثر كثيرا في توجيهه وتفكيره، له كثير من المؤلفات القيمة منها "الإنسان بين المادية والإسلام" وهو نقد للداروينية.

ينظر: علماء ومفكرون عرفتهم: ج2، ص 277- 286

3- ينظر: المرجع السابق، ص93.

4- سيد قطب، لماذا أعدموني، ص7- 94 .

بشريعة الله في النهاية. هذه في النهاية كلماتُ رجلٍ يستقبلُ وجه الله يخلص بها ضميره ويبلّغ بها دعوته إلى آخر لحظة، والسلام على من اتبع الهُدى. السجن الحربي في 22 أكتوبر 1965م)[1].

هذا التقرير المفصل من أربع وتسعين صفحة من القطع الصغير هو الذي سُمي فيما بعد ب "لماذا أعدموني"، فقد نشرته مجلة "المسلمون" الدولية على شكل حلقات، ثم نشروه في كتاب خاص وأطلقوا عليه هذه التسمية المعبّرة، وقد نصّوا في تقديمهم للوثيقة أنها وصلتهم (بخط يد الشهيد، ونؤكد في نفس الوقت أنها ناقصة غير كاملة، فقد حرص أذناب نظام الطاغية على الاحتفاظ في مكان غير معروف وعند شخص معروف بالجزء الخاص بالتعذيب الذي تعرّض له الشهيدُ سيد قطب ورفاقه، ظنا منهم أن خُلُوَّ الوثيقةِ أو الشهادة من تلك الصفحات السوداء سيبيّضُ وجوهَ الطغاة وأذنابهم)[2].

زُجَّ بسيد قطب في زنزانة انفرادية في "السجن الحربي" لمدة مائة وثلاثين يوما، وحقق معه صلاح نصار- رئيس نيابة أمن دولة- لمدة ثلاثة أيام متواليات [3]، وشرعوا في محاكمة الإخوان بداية من 09 أفريل1966م، وبعد أربعة أشهر أصدرت المحكمة حكما بالإعدام على سبعة منهم وعلى رأسهم سيد قطب، وبالمؤبد على خمسة وعشرين، وبخمسة عشر عاما على أحد عشر منهم.

ضجَّ العالَمُ الإسلاميُّ لهذه الأحكام الجائرة، وتحركتْ عدةُ شخصيات مرموقة للحُؤُولِ دون تنفيذِها محاوِلةً التوسُّطَ لدى عبد الناصر، فقد (رأَسَ الشيخُ عبد العزيز البدري وَفْدا من أهل السُّنة وذهب إلى كربلاء والنجف، وطلب من علمائها التدخلَ لإيقافِ تنفيذ حُكم الإعدام في سيد قطب ، وعندما اتصلَ بالسيد محسن الحكيم-المرجع الأعلى للشيعة- أبلغه السيدُ الحكيم بأنه أبرقَ إلى جمال عبد الناصر ألا يُقدِم على إعدام العلماء؛ وسيد قطب من أكبر علماء ومفكري العصر)[4].

ومن الجزائر بعث الشيخُ "الهاشمي التيجاني " تلغرافا باسم "جمعية القِيَم " لجمال عبد الناصر

1- المصدر نفسه، ص7- 94 .

2- سيد قطب، لماذا أعدموني، ص03، 04.

3- ينظر التحقيق مفصلا في كتاب سامي جوهر، "الموتى يتكلمون" من ص112 إلى146.

4- عبد الله العقيل، من أعلام الحركة الإسلامية، (طبعة 2000م، دار التوزيع والنشر الإسلامية)، ص322.

يرجوه فيها أن يرفُق بسيد لأنه من علماء المسلمين [1]، ومن السعودية بعث الملِكُ نفسُه "الملك فيصل"[2] ببرقية لعبد الناصر يرجوه فيها ألا يُقْدِم على إعدام الرجُل، وأنّ ى أن يُستجابَ له مِن هؤلاءِ المحْمُومين المسْعُورين!!، ولما وصلهُ نبأُ الإعدام بكى بكاءً مُرًّا وقال: (أرسلتُ إليه، وتوسلتُ أن يطلقَه حيًّا، ويطلُبَ فيه ما يشاءُ! ولكنَّها إرادةُ الله، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ، ولا بُدّ لهذه الأمَّةِ مِن شهداء) [3].

لم تنجح كل هذه المحاولات -وغيرها كثير- في صدِّ عبد الناصر عن جُرمه، وشاء اللهُ تعالى أن يختم حياة سيد العلمية والجهادية بتاج الشهادة، ويخلِّد التاريخُ اسمَه بحروف من ذهب.

يعلق الأستاذُ "أحمد شلبي " على الإعدام فيقول: (وأُعدِم المفكرُ الإسلاميُّ س يِّ قطب شنقا كالقَتَلة وقُطَّاع الطرق، وهو الذي أغنى المكتبةَ العربيةَ والإسلاميةَ بثروةٍ هائلة من إنتاجه ومؤلفاتِه وفي قمَّتها "في ظلال القرآن "-الذي أخرجه في ثلاثين جزءا جمع فيه أرْوعَ ما دوَّنه مَن سبقوهُ، وأضاف لذلك فيضا هائلا من فكرِه-... إن سيد قطب قمة فكرية، وإن الخسارة فيه كبيرة، وقد ترك لنا الكثيرَ من نتاج عقله وجهده، ولكنه غاب قبل أن يُفرِغ كل ما عندَه، فمن المسؤولُ عن هذه الخسارة؟
والعجيبُ أن شخصياتٍ عالميةً وهيئاتٍ كبيرةً تقدمت بالرجاء أن يُحقن دمه، ولكن روح الغِلِّ عجَّلت بتنفيذ الإعدام، يا ألله)[4].

1- كتاب الأصالة، الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي (ملتقى القرآن الكريم)، ج02، ص123، في مقال للشيخ سليمان داود بن يوسف، يعلق الكاتب فيقول: "أن هذه الجمعية كانت ضحية هذا التلغراف فقد انتزعت منها الرخصة".

2- فيصل بن عبد العزيز آل سعود، ولد في مدينة "الرياض" سنة 1906م، وتوفي سنة 1975م متأثرا بجراحه التي خلَّفها حادثُ الاعتداء عليه من قِبَل الأمير فيصل بن مساعد ، المعروف باختلال عقله. ينظر: الأعلام: ج5، ص 166- 168.

3- أحمد رائف، سراديب الشيطان: صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين، (ط 1، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1989م)، ص149.

4- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، (ط4، مكتبة النهضة المصرية، 1989م)، ج09، ص691.

سبق تنفيذَ الإعدام مساوماتٌ عديدة وإغراءاتٌ بأعلى المناصب لسيد، ولكنْ هيهات! فما يجوز للكبار أن ينحطُّوا، وينخدِعوا بهذه السفاسِف، وتنطلي عليهم مثلُ هذه الحِيل والاستدراجات، فقد جابهَهَم بالرفض القاطع في شجاعة وإباء قائلا: (إن أصبع السبَّابة الذي يشهدُ لله بالوحدانية في الصلاة، لَيَرْفُضُ أن يكتب حَرْفا يُقِرُّ به حُكمَ طاغية)[1]، وفي موضع آخر: (لماذا أسترحِمُ؟ إن كنتُ سُجنتُ بحق فأنا أقبلُ حُكمَ الحق، وإن كنتُ سُجنتُ بباطل فأنا أكبرُ مِنْ أنْ أسترحِمَ الباطلَ)[2]، وفي مناسبة أخرى: (إن التوْرِيَةَ لا تجوزُ في العقيدة، وليس للقائدِ أن يأخذَ بالرُّخَص)[3].

ولما يئس عبد الناصر وأذنابُه من الظَفَر بأدنى تنازل من سيد عن مواقفه وآرائه ومنهجه، نفَّذوا فيه حكم الإعدام في فجر يوم الإثنين 13 جمادى الأولى 1386هـ الموافق لـ 29 أغسطس "أوت" 1966م مع أخويْه عبد الفتاح إسماعيل ومحمد يوسف هواش، وأسْلموا أرواحَهم لبارئها (وأثبتَ أنه آمن بفكرتِه قبل أن يؤمنَ بها غيرُه، ودفعَ ثمنَها من دَمِه وحُشاشة نفْسِه وروحِه الزكية، وأنه قد باعَ نفسَه وتمَّتْ الصفقةُ بينه وبين الله، وكُتبَ الصكُّ وشَهد الشهودُ)[4].

تسامع العالَمُ الإسلامي بهذا الخطْب الجَلَل، فأقاموا عليه صلاة الغائب في المشرق والمغرب، وأصدَرت الصحفُ والمجلات أعدادا خاصةً عن الشهيد سيد قطب، وتوقَّع الكثيرون من العلماء والدعاة أن تحُلَّ بالمجرمين قارِعةٌ وأن ينالهم غضبُ الله تعالى، فلم تمْض سوى شهور حتى نُكبت مصرُ بهزيمة 1967م وأُذِلَّ عبد الناصر أيّما إذلال، وعلَّق الزعيم المغربي "علال الفاسي"[5] على النكبة قائلا:

1- لماذا أعدم سيد قطب وإخوانه؟، ص02، بدون ناشر ولا تاريخ نشر، وقارن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص473، 474 .

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- أبو الحسن الندوي، شخصيات وكتب أثرت في حياتي، (ط01، القاهرة: دار الصحوة، 1985م)، ص63، 64.

5- علال " أو محمد علال " بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علال بن عبد الله بن المجذوب الفاسي الفهري، زعيم وطني من كبار الخطباء العلماء في المغرب، ولد سنة 1908م بفاس وتوفي سنة 1974م في "بُخارِسْت" وهو يزور رومانيا ونُقل إلى الرباط، من كتبه "النقد الذاتي" و "دفاع عن الشريعة" و "مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها".

ينظر: الأعلام: 246/4، 247.

(ما كان اللهُ لينصرَ حربا يقودُها قاتلُ سيد قطب)[1].

وباستشهادِه عاشتْ أفكارُه، وانْهالَ الناسُ وانْثَالُوا على كُتُبه يقتنُونَها ويَغرِفون منها، أراد النظامُ له الموتَ وأراد اللهُ له الحياةَ؛ الحياةَ الحقيقيةَ، (فلا يجوز أن يُعتبر الشهداءُ أمواتا في الحِس ولا في الشعور ، ولا أن يُقال عنهم أمواتٌ بالشفة واللسان، إنهم أحياءٌ بشهادة الله سبحانه، فهم لا بد أحياءٌ... ما يزالون عنصرا فعَّالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها)[2].

فرحم الله سيِّدا وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يُجازي به عبادَه الصالحين، وجعلَ نُزُلَه في الفردوس الأعلى مع الأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا.

جـ- سيد والتنظير للحركة الإسلامية:

للفترة التي يعيشُ فيها العالِم أو المصلِح أو المنظِّر أو المفكر ظلالٌ على منهجه وأسلوبه والميدان الذي يتجه إليه، وسيدٌ لم يكن بِدْعا في هذا، فعلى طول التاريخ الإسلامي والأئمةُ المصلحونَ والعلماءُ المنظِّرون بالمرصاد لتلك الشبهات التي تُثار والبدع التي تُستحدث، والدعوات الهدَّامة التي تنشأ في أوقاتهم..

فهذا الإمامُ أحمد بن حنبل [3] ظهرت في زمانه فتنةُ القول بخَلْق القرآن فتصدى لها وكانت محنته المشهورة مع القائلين بخلْق القرآن، وبعد الإمام أحمد بقرونٍ نجد الإمامَ ابن تيمية يُكثر من الردود على ما أُثير حول الأسماء والصفات وبدَع التصوف لا سيما والهجوم التَّتَري قد أفسد الحرْث والنسل، ثم بعده بقرون أيضا يأتي الإمام محمد بن عبد الوهاب في زمان كثُرت فيه الأضرحةُ والبدعُ فصبَّ جهودَه وطاقاتِه في محاربة هذا الغلوّ –حتى وإن غالى هو نفسُه في هذا التصدي-.

1- عبد الله العقيل، من أعلام الحركة الإسلامية، ص343.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، (ط3، بيروت: دار الشروق، 1977م)، مج01، ص143.

3- أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، ولد ببغداد سنة164هـ وتوفي سنة 241هـ، اشتهر بمحنة خلق القرآن في زمن "المأمون". صنَّف "المسند" ويحتوي على ثلاثين ألف حديث. كما له كتب أخرى ك: "الناسخ والمنسوخ" و "فضائل الصحابة" و "الزهد".

ينظر: ابن عساكر: 28/2 ، صفة الصفوة: 190/2 ، تاريخ بغداد: 412/4 ، البداية والنهاية: 10/ 325 ،343 .

هذا كله والخلافةُ الإسلامية قائمةٌ والدولةُ لها جامعٌ يجمعُها- بغض النظر عن قُربِها أو بُعدِها من تطبيق الشريعة-، أما سيدٌ فقد جاء وكلُّ شيء قد ذهبَ؛ الخلافةُ الإسلامية أُلغيتْ، والقوانين الأجنبية مفروضةٌ على المسلمين، وأحكامُ الشريعة مَقصية، والبدع والجهل والتغريب ضاربةٌ أطنابها، وكثير غيرُها من العقابيل التي تكبح إصلاح المصلح وتنظير المنظِّر، فكانت كتاباتُه شموليةً للعودة بالأمة إلى إسلامها في شتى مجالات الحياة، وكان تركيزُه على الحاكمية ناشئا عما أسلفنا من الحيثيات والملابسات وجعلها أصلا في الاعتقاد.

من الأدب إلى الفكر الإسلامي:

برعَ سيد في كتاباته الأدبية حتى غَدَا يُشارُ إليه بالبنان في مختلف حقول الأدب؛ في المقالات والبحوث والنقد والشعر والقصة، وفي المحاضرات التي كان يلقيها في الأنْدية والمنابر المختلفة، وفي المعارك الأدبية التي يخوض غمارَها مع صفوة الأدباء والمفكرين على صفحات المجلات والصحف، وبلغ أوج تميُّزه في النظرية الأدبية التي خرجَ بها على الناس- نظرية التصوير الفني- والتي طبّقها على بعض السوَر القرآنية في كتابه المعروف، فكان على وشك إنشاء مدرسة مستقلة في الأدب يكون له فيها أتْباعٌ وأنصار.

وبهذه الدراسة الفذة التي كان مجالُها القرآنُ، انفتحت له مغاليقُ ما كانت تخطُر له على بال، وأومضتْ في نفسه إشراقاتُ الهداية، وأخذ يتجه الاتجاه الإسلامي، ويُقبِل على الثقافة الإسلامية (ينهلُ منها ويعُبُّ ولا يرتوي.. حتى بلغ مجموعُ ساعاتِ مطالعاتِه في اليوم عشرَ ساعات كحد أدنى للبحث والاطلاع)[1]، فكوَّن لنفسه قاعدةً صلبة واستقرت حقيقةُ الإيمان في قلبه وسيطرت على وِجدانه وحِسه وفكره، وشرع يصوغُ على هدْي هذا القرآن قيَمه ومبادئه وموازينَه، ويكيّف حياته وسلوكَه على منهجِه.

يصف سيدٌ نُقلتَه البعيدة هذه إلى عالم الإيمان في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل

1- الشهيد سيد قطب، بقلم طائفة من الكُتاب، نشْر جماعة أصدقاء الشهيد سيد قطب، بدون تاريخ، مقالة يوسف العظم، ص27.

﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[1]، يقولُ مُعلقا عليها (إن الإيمانَ هو كبرى المِنن التي يُنعِم بها اللهُ على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر مِن مِنّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع. إنها المِنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقةً مميزة، وتجعل له في نظام الكون دوْرا أصيلا عظيما... وهذا كسْب ضخمٌ في عالم الشعور وعالم التفكير، كما أنه كسْب ضخمٌ في عالم الجسد والأعصاب؛ فوق ما هو كسْب ضخم في مجال العمل والنشاط والتأثر والتأثير)[2].

وهكذا أصبح لوجوده الإنساني حقيقةٌ مميزة، وأصبح له في نظام الكون دورٌ أصيل عظيم، فتغيرت نغمة كتاباتِه بعدما تعمق الإيمانُ في قلبه، وترك نظْم الشعر، وانصرف عن الاهتمامات الأدبية الأخرى من نقد ومقالة وبحث، واتجه كلِّيةً إلى تجْلية محاسِن الإسلام وشرْح مبادئه والغوْص على مقاصده وكلّياته واستخراج معالم الطريق وخطوات المنهج منه.

وتسَامع الشباب المؤمنُ باتجاهه الجديد إلى الكتابات الإسلامية ، فأقبلوا عليه ووجدوا في مقالاتِه وبحوثه ومحاضراته ضالَّتَهم من وُضوح في الفكرة وعُمقٍ في الطرح وتفصيلٍ في المنهج، فاتخذوه قدوةً لهم ورائدا يستكشفُ لهم الطريقَ.

والسرُّ في هذا الإقبال عليه و على كتاباتِه في حياته وبعد مماته هو الإخلاصُ في القول ، والبذل والتضحية في العمل- نحسَبُه كذلك ولا نزكي على الله أحدا- ففي القول: ما خرج من القلب وصل إلى القلب وما خرج من الفم لم يتجاوز الآذان، وفي العمل: تضحيتُه بمُهْج بقفي سبيل ما يعتقدُ أنه الحقُّ وبذلُه نفسه في إعلاء كلمة الله ، وتعاليه عن المساومات والإغراءات وصبره على التعذيب الذي تقشعرّ منه الأبدان لسنوات طِوال.

يكشف هو نفسُه-رحمه الله- عن هذا السرّ قائلا: (إن السرَّ العجيب ليس في بريقِ الكلمات وموسيقى العبارات، إنما هو كامنٌ في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات! إنه في ذلك

1- سورة الحُجُرات، الآية 17.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 3351- 3353.

التصميم الحاسم على تحويل الكلمةِ المكتوبة إلى حركةٍ حية والمعنى المفهوم إلى واقعٍ ملموس)[1] ثم يتوجَّهُ بالنصيحة إلى أولئك الذين يكتبون من أجل الكتابة ؛ لا حرارةَ تدفعُهم ولا عقيدة تحركُهم قائلا: (فإلى الذين يجلسونَ إلى مكاتبهم يُكِدّون قرائحَهم لينتقوا اللفظ الأنيق ويُنمّقوا العبارة الرّنّانة، ويلفّقوا الأخْيِلة البرَّاقة. إلى هؤلاء أتوجهُ بالنصيحة: وفِّروا عليكم كل هذا العناء فإن ومضةَ الروح، وإشراق القلب بالنار المقدسة؛ نار الإيمان بالفكرة... هو وحدَه سببُ الحياة؛ حياة الكلمات وحياة العبارات)[2].

بهذه الروح المحلِّقة وبهذا العمل الدؤوب استحوذَ على قلوب الشباب، واستحق الرِّيادة في الحركة الإسلامية ، وحمل الشُّعلةَ المقدسة مستكشفا في ضوئها طريق الرّحلة، مُغِذًّا السيرَ نحو الهدف البعيد، مدرِكا ببصيرتِه تلك الوحدة الشاملة المتعددة المظاهر في العلم والعقيدة والعمل.

سيد الموجِّه للحركة والمُنظِّر لها:

أُنشئت حركة الإخوان المسلمين-كُبرى الحركات الإسلامية [3]- بقيادة الشهيد حسن البنا في شهر ذي القعدة عام 1347 هـ الموافق لـ مارس 1928 م [4] بعد سقوط الخلافة الإسلامية بأربع سنوات، ووقوع العالَم الإسلامي كلِّه - فيما عدا الحجاز ونجْد واليمن- في قبضة الاستعمار، وفَرضَ هذا الأخيرُ قوانينَه الوضعية على المسلمين رغم أُنوفهم بدلا من الشريعة الإسلامية.

فكان مولدُ الحركة دمًا جديدا سَرَى في الأمة، ومحرِّكا دافعا للعودة إلى الأصول والكشف عن مخططات المستعمِر وأذنابه، وكان لشخصية البنا أكبرُ الأثر في تجميع القوى ورصِّ الصفوف وتوحيد الوِجهة وعبقرية البناء - كما وصفه سيد قطب [5]- وسار بالحركة في طريق واضحِ المعالم بيِّن القسَمات،

1- سيد قطب، دراسات إسلامية، ص138.

2- المصدر نفسه، ص139.

3- وهو عنوانٌ لكتاب ألفه الأستاذ الدكتور "إسحاق موسى الحسيني" سنة 1947م، وصفه الشيخ "يوسف القرضاوي" بقوله: (وهو دراسة علمية موضوعية محايدة إلى حد كبير عن حركة الإخوان). ينظر: د.يوسف القرضاوي، الإخوان المسلمون : 70 عاما في الدعوة والتربية والجهاد، (ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، 1999م)، ص29.

4- المصدر نفسه، ص47.

5- سيد قطب، دراسات إسلامية، ص225.

وتكتّل حوله الشعبُ بمختلف أطيافه ومشاربه بمئات الألوف، وكانت ظاهرةً فريدةً في التاريخ المعاصر - تنظيما والْتزاما وقوةَ عقيدة- فكان لا بد أن يُوقَفَ هذا المدُّ الكاسح ممن أصبحت مصالحُهُم مهددةً وعروشُهم مستهدفةً فدبَّروا له المكائدَ تلو أخرى إلى أن اغتالوه جَهْرةً عام 1949م- ﷺ-.

واستلم المِشعلَ بعده خليفتُه حسن الهضيبي [1] فكان نِعْم الخليفة قولا وعملا ، وسيد لم ينضم إلى الإخوان في فترة البنا ، وإنما عايش فترة الهضيبي ؛ فكان يُجلُّه ويحترمُه كثيرا ويشاورُه في كل كبيرة وصغيرة، حتى إنه في آخر لقاء مع أخته "حميدة" في السجن بعد أن صدر عليه حكمُ الإعدام، حمَّلها أمانةً للمرشد الهضيبي قائلا: (إذا رأيتِ الوالدَ المرشد فبلِّغيه عني السلام وقولي له لقد تحمَّل سيدٌ أقصى ما يحتملُه بَشَر حتى لا تُمَسَّ بأدنى سوء)[2].

وبحُكْم ثقافة سيد الواسعة وكتاباته العميقة ونظْرته الشمولية للأحداث ورؤيته الواضحة ، التمست منه جماعةُ الإخوان أن يضع لهم منهجا يَسِيرون وِفقه -وهو لا يزال في السجن-، تقول زينب الغزالي[3]: (طلبتُ من حميدة قطب أن تُبلِّغ الأخ سيد قطب رغبة الجماعة المجتمعة لدراسة منهج إسلامي في الاسترشاد بآرائه... وبعد فترة رجعتْ إليَّ حميدة وأوصتْ بدراسةِ مقدِّمةِ سورة الأنعام، الطبعة الثانية، وأعطتْني مَلْزَمة من كتابٍ قالتْ: إن سيدا يُعِدُّه للطبع، واسمُه "معالم في الطريق". قرَّرْنا فيما قررنا بتعليمات من الإمام سيد قطب، وبإذن من الهضيبي أن تستغرق مدةُ التربية والإعداد... ثلاثة عشر عاما مُدةَ الدعوة في مكة)[4].

وقد ركز سيدٌ في كتاباته على قضايا مركزية تهدي الحركة في سيرها بادئا بإيضاح وشرح بعض المفاهيم والتصورات العَقَدية ، وأَخَصُّها بإطلاق مفهوم لا إله إلا الله ومعنى الألوهية والعبودية، وفي

1- حسن الهضيبي المصري: المرشد العام للإخوان المسلمين بمصر، ولد سنة 1891م وتوفي سنة 1973م.
ينظر: الأعلام: ج2، ص 225.

2- مسودة بحث الدكتور عبد الله عزام، وقارن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص155.

3- زينب الغزالي الجبيلي، الداعية الإسلامية المعروفة، ولدت سنة 1917م بمديرية "الدقهلية" من أعمال مصر، لها عدة مؤلفات منها سيرتها الذاتية (أيام من حياتي).
ينظر: علماء ومفكرون عرفتُهم: ج2، ص 124

4- زينب الغزالي، أيام من حياتي، (بيروت، دار الشروق، 1980م)، ص37.

ثنايا هذا العنوان العريض مفهوم الحاكمية ووظيفة الإنسان في التلقي والتطبيق، ثم حماية الجماعة المسلمة وتوعيتها بخطر المخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية.

أ - لا إله إلا الله ومفهومُ الأُلوهية والعُبُودية:

تدور العقيدةُ الإسلامية برُمَّتِها حول هذا المصطلح ؛ إذا صحَّ في الأذهان صلحت العقيدة وإذا فسدَ فسدت العقيدةُ، لذلك ركز عليه سيد في كل كتاباتِه الإسلامية وأفاض في شرحِه وبيانِه خاصةً في "الظلال" لأدنى مناسبة، حتى أن مقدّمةَ سورة الأنعام يمكن أن يُستلَّ منها كتابٌ قائم بذاته .

فهذا المفهوم شامل وواسع ولا يكفي النطقُ به باللسان لاستكمال معناه ؛ إلا إذا أدى (مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولُها هو ألا يُتخذَ إلا اللهُ إلها، ومن ثَم لا يتلقى الشريعةَ إلا من الله، فأخَصّ خصائص الألوهية التشريعُ للعباد، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله، ومدلولها كذلك ألا يتلوى من الله إلا عن محمد ﷺ بما أنه رسولُ الله، ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر، ومقتضى هذه الشهادة أن يُجاهد إذن لتصبح الألوهيةُ لله وحده في الأرض كما بلَّغها محمد ﷺ ، فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلَّغه عنه محمد ﷺ هو المنهج السائد والغالب والمُطاع، وهو النظام الذي يُصرِّف حياةَ الناس كلها بلا استثناء)[1].

ويُوسِّع سيد قطب من شرح مقتضيات الألوهية والعبودية ولا يحصرُها في الشهادة اللفظية وحسْب، فكل ما يتفرّع عن الإيمان والإسلام مقتضياتٌ لهذه الشهادة التي ينطق بها المسلم وينتسب بها إلى هذا الدين، فكل ما بعْد الشهادتيْن (من مُقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضًى لها، فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدَر خيره وشرِّه، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الحدود والتعازير، والحِل والحُرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية... إنما تقوم كلُّها على قاعدة العبودية لله وحده، كما أن المرجع فيها كلَّها هو ما بلَّغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه)[2] والمجتمعُ المسلم هو الذي يتمثَّل هذه المقتضيات في حياته وحركته وشؤونه، ومن ثُم تصبح شهادة أن

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج01، ص482.

2- سيد قطب، معالم في الطريق، (ط6، بيروت: دار الشروق، 1979م)، ص83.

لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليها حياةُ الأمة المسلمة؛ لا مجتمعا يلوك هذه العبارات مجرَّدةً من مقتضياتها، جاهلا مَضامينها، بعيدا عن مدلولاتها فيما يأخذُ ويَدَعُ من أموره، فسيدٌ يرى أن هذا (يفيدُنا أولا: في تحديد "طبيعة المجتمع المسلم"، ويفيدنا ثانيا: في تحديد "منهج نشأة المجتمع المسلم"، ويفيدنا ثالثا: في تحديد "منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية"، ويفيدنا رابعا: في تحديد "منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية" وهي قضايا أساسية بالِغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديما وحديثا)[1].

والتفصيل في هذه المراحل من تنظير سيد قطب يقتضي منا فصْلا خاصا وهذا لا يتناسب وَهذه الصفحات المعدودات[2]، وتركيز سيد قطب على بيان المعنى الحقيقي لِلَا إله إلا الله يُعلِّله أخوه محمد قطب في رسالةٍ نشَرَها بمجلة "المجتمع" يقول فيها عنه: (كتابات سيد قطب قد تركزت حول موضوع مُعيَّن، هو بيانُ المعنى الحقيقي لِلَا إله إلا الله، شعورا منه بأن كثيرا من الناس لا يُدرِكون هذا المعنى على حقيقته، وبيان المواصفات الحقيقية للإيمان كما وَرَدت في الكتاب والسنة، شعورا منهُ بأن كثيرا من هذه المواصفات قد أُهمل أو غفل الناس عنه... ولقد سمعتُه بنفسي أكثر من مرة يقول: "نحنُ دُعاة ولسنا قُضاةً، إن مهمتَنا ليست إصدار الأحكام على الناس ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله")[3].

ب- الحاكمية ووظيفةُ الإنسان في التلقي والتطبيق:

ركز الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتاباته كثيرا على فكرة الحاكِمية، وأسس عليها نظرية الإسلام السياسية التي جعَل بِنْيتها عَقَدية خالصة، وكل التفصيلات بعدها ما هي إلا تجلِّيات لتلك الحاكمية القائمة على فكرة التوحيد، فأساس الدولة الإسلامية (هو تصوُّر مفهوم حاكمية الله الواحد الأحد، وأن نظريتها الأساسية؛ أن الأرض كلَّها لله وهو ربُّها والمتصرِّف في شؤونها، فالأمرُ والتشريع كلها

1- المصدر نفسُه، ص84.

2- التفصيل فيها موجود في الفصل الرابع من هذا البحث، ومن أراد الاستزادة فعليه بمقدمة سورة الأنعام من "الظلال" وكتاب "معالم في الطريق" لسيد قطب.

3- مجلة المجتمع، عدد 271، بتاريخ 17 شوال 1395هـ//21 أكتوبر1975م.

مختصة بالله وحده، وليس لفرْد أو أسرة أو طبقة أو شعب ، بل ولا للنوع البشري كافة شيءٌ من سلطة الأمر والتشريع، فلا مجالَ في حظيرة الإسلام ودائرة نُفوذه إلا لدولة يقومُ فيها المرءُ بوظيفته خليفةً لله تباركتْ أسماؤه)[1]، فحاكمية الله تعالى هي دِعامة النظرية السياسية في الإسلام عند المودودي ؛ بحيث تُردُّ سلطاتُ الأمْر والتشريع لله الخالِق استنادا إلى نصوص قرآنية صريحة ، كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ ﴿١٥٤﴾ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ ﴿١١٦﴾ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[5] وغيرها من الآيات التي تُعلن صراحةً أن الحاكمية والتشريع ليسا لأحدٍ من البشر - وإن كان نبيًّا- من غير أن يكون له سلطانٌ من الله[6].

وقد تأثَّر سيد قطب بأبي الأعلى المودودي وأُعجِب بفكرِه وكتاباته الدعَوية الحَرَكية وسماه "بالمسلم العظيم أمير الجماعة الإسلامية بباكستان"[7]، خاصة في نظرية "الحاكمية" التي فصّلها وشرّحها في "الظلال" و"المعالم" حتى نسبَها بعضُهم إليه ونَسُوا المودودي، فسيد يُكثِر من الحديث عنها وهو يتناول الألوهيةَ والعبودية، وهو يتحدثُ عن الحُكم والتشريع، وهو يُفصِّل في النُّظُم والمناهج وغيرها من الموضوعات التي يتصل بها هذا المعنى.

ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[8] يقول: (إن الحُكمَ لا يكونُ إلا لله، فهو مقصورٌ عليه سبحانه بحُكْم

1- أبو الأعلى المودودي، منهاج الانقلاب الإسلامي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت), ص77.
2- سورة يوسف، آية 40.
3- سورة آل عمران، آية 154.
4- سورة النحل، آية 116.
5- سورة المائدة، آية 45.
6- أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت)، ص32.
7- الظلال، مج04، ص1902.
8- سورة يوسف، الآية 40.

أُلوهيته، سواء ادَّعى هذا الحقَّ فردٌ أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أُمة، أو الناسُ جميعا في صورةِ منظَّمة عالَمِية، ومن نازعَ اللهَ سبحانه أُولى خصائص ألوهيته وادَّعاها فقد كفر بالله كُفرا بَوَاحا، يصبحُ بها كفرُه من المعلوم من الدين بالضرورة حتى بحُكم هذا النص وحده) [1]، وقد فصَّل سيد كثيرا في تفسير هذه الآية وركز على مصدرية الأحكام لا مزاولتِها؛ وهذا فرْقٌ دقيقٌ قلَّما انتبه له الباحثون فأصْدروا أحكامهم الجُزافية على سيد بتكفير المجتمعات والأنْظِمة والأفراد – وهو مِن كل هذا بريءٌ ، وهو ما فصَّلنا فيه في الفصل الأخير من هذا البحث، ففي النظام الإسلامي يزاولُ الحاكِمُ الحُكمَ بشريعة الله ولا يكون هو مُصدِر هذه الشرائع والقوانين ؛ إنما مُصدِرها هو الله سبحانه وما على الحاكم إلا التطبيق والتنفيذ، (والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختارُ الحاكمَ فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله، ولكنها ليست هي مَصدر الحاكمية التي تُعطي القانونَ شرعيتَه، إنما مصدرُ الحاكمية هو اللهُ، وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يَخْلطون بين مُزاولة السلطة وبين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكُه اللهُ وحده، والناس إنما يُزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه، أما ما لم يُشرِّعْه اللهُ فلا سلطان له ولا شرعية وما أنزل الله به من سلطانٍ) [2].

وقد يسألُ سائلٌ: وكيف لله تعالى أن يُشرِّع في كل صغيرة وكبيرة وفي كل التفاصيل التي تموجُ بها الحياةُ البشرية؟ والجواب أن لهذه الشريعة الإلهية كلِّياتٍ وأركانا وأصولا ومبادِئَ ليس للبشر أن يتجاوزوها في استنباطاتهم فلا يُحِلُّون ما حرّم اللهُ ولا يُحرِّمون ما أحلَّ اللهُ، (نَعَم ؛ قد تختلفُ الآراءُ في الجزئيات والتطبيقات، ولكنَّ كل نظرية تشريعية في العالم تختلف حولها الشروحُ ويتجادل فيها الفقهاءُ القانونيون، ثم لا يَدْعو أحدٌ إلى نبْذ تلك النظريات التشريعية لأن الشُّرَّاح لم يُجمِعوا فيها على تفسيرٍ. فأما سَعَة المبادئ وعمومها، فذلك في غير الحدود ؛ أي في الشؤون العامة المتجددة مع الحياة، كتقرير مبدأ الشورى في الحكم، وترك الطريقة التي تتِمّ بها الشورى دون تحديد...) [3] أما أن يُستفتى الإسلامُ في في كل مشكلة وفي كل جزئية مما تموجُ به حَيَوَاتُ الناس والإسلامُ مَقْصِيٌّ عن الحُكم، مُبعَدٌ عن التشريع، مطرود عن النظام الاجتماعي فهذا ظلمٌ له وأي ظلمٍ ! والجواب عن هذا أن يُقال: (حكِّموا الإسلامَ

1- الظلال، مج04، ص1990.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، (بيروت: دار الشروق، د.ت)، ص85، 86.

أولا في الحياة كلِّها، ثم اطلُبوا بعد ذلك رأيَه في مشكلات الحياة التي يُنشئُها هُوَ، لا التي أنشأها نظامٌ آخرُ مناقض للإسلام...طبِّقوا الإسلام جملةً: في نظام الحكم، وفي أسُس التشريع، وفي قواعد التربية، ثم انظُروا هل تَبقى هذه المشكلاتُ التي تسألونَ عنها، أم تزولُ من نفسِها، أمّا قبلَ هذا فما للإسلامِ وما لهذه القضايا التي لا يعرفُها المجتمعُ الإسلامي الصحيح ؟)[1].

فالقضيةُ الأساسيةُ عند سيد هي مصدريَّةُ الأحكام ولا تكون إلا لله الخالق البارئ اللطيف الخبير بعبادِه، فهو وحدَه الأعلمُ بما يُصلحُهم في حياتهم الدنيا، أما البَشَرُ الضِّعاف المَهَازيلُ فمهما شرّعوا لأنفسِهم وتفنَّنوا في سنِّ القوانين فهي ناقصةٌ ضعيفة موْقوتة ؛ لأنها من إنشاء العقل البشري المحدود القاصِر، أما استنباط الأحكام ومزاولة الحُكم فتلك مهمَّتهم وشأنُهم وفيها تتَّسع دائرةُ نشاطِهم وحركتِهم في الحياة، والهدف الأسمى من كل هذا هو إسلامُ العباد لربِّ العباد وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحدَه ، ومن سلطان العباد في حاكِميَّتهم وشرائعهم وقِيَمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة،[2] ليعيشوا كُرماءَ أحرارا أعِزَّاء مُسْتَعْلِين بإيمانِهم.

د – مصنفاته في المعارِف الإسلامية:

دَرَجَ سيد قطب في مراحل تعليمِه – وهو من الأوائل في الترتيب – ، وقبلَ هذا فقد تلقّى تربيةً من والديْه خيَّلتْ لنفسِه الصغيرة أنها نسيجُ وحدِها [3]، وهذا ما سيظهر في شخصيتِه فيما بعدُ ظهورا بيِّنا، وكان أنْ حفِظ القرآنَ كاملا ولم يتجاوز العاشرةَ من عمره، فاستفاد بهذا تقويما للِّسان وطلاقةً في الحديث وطلاوة في الأسلوب، وازدادت حصيلتُه الثقافية بمطالعة الكُتب في مختلف الفنون، خاصةً حين التحق بكُلِّية "دار العلوم" وتتلمذ على كبار أساتذتِها ، مجتهدا في التحصيل حتى عُدَّ مفخرةً لدار العلوم[4] فعَبَّ منها ما شاء اللهُ في علوم العربية بمختلف فنونها وفي علوم الدين الإسلامي (متمثلةً في

1- سيد قطب، دراسات إسلامية، ص88، 89.

2- ينظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ص52، 53.

3- سيد قطب وإخوته، الأطياف الأربعة، ص167.

4- سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة، ص10. وهي المقدمة التي قدَّم بها الأستاذ "مهدي علَّام" كتاب سيد قطب وشهد له فيها بهذه الشهادة.

الفقه وأصولِه والحديث ومراحله، والتفسير وأبْرزِ كتبه ، ومناهج المفسرين، وعلوم القرآن ، والبلاغة القرآنية مثل بديع القرآن ومعاني القرآن وتشبيهات القرآن وكناياتِه، وإعجاز القرآن ومراحله ومدارسه)[1]، كما أضاف إلى رصيدِه دراساتٍ أخرى في التاريخ والجغرافيا ، وعلم الاجتماع ، والرياضيات، والفلسفة، والعلوم من فيزياء وأحْياء، ومناهج التربية ورجالها وأساليبِها[2].

والرافِدُ الآخر الذي أعانه على بلْورة فكره وشمولية نظرته ؛ اطِّلاعُه على الفكر الغربي والثقافة الغربية؛ بمُلازمته للأستاذ العقاد ومكتبته الضخمة التي تعُجُّ بمختلف فروع المعرفة والثقافة الإسلامية والغربية، وإنْ كان في بداياتِه قد تعرَّض لمرحلة من الشك والقلق والحيْرة ، شأنُه شأنَ كل مطَّلع على فكر جديد لا عهد له به، وقد بدا هذا واضحا في بواكير أشعاره التي نَظَمها وأشار إلى شيءٍ منها في "الظلال"، ولكنَّ اللهَ تعالى لم يشأ أن يترُك هذا الجوْفَ الذي حوَى القرآنَ كاملا عُرْضة للوساوس والأوهام والشكوك، فانتشلَه منها في لحظة وفي ومْضة أشرقتْ فيها نفسُه، يعبِّرُ عنها سيد فيقول: (هل خدعتْني الأوهام وكذَّبتْني الأحلامُ ؟ كلا ! فإني أُكذِّب ما تلمسُه يدي، وما تراه عيني وما تسمعه أذني ولا أكذِّب مسَّ هذه اللحظة الخاطِفة لروحي وإشراقها في ضميري)[3].

فتذوقتْ روحُه حلاوة الإيمان، وأحس لذةَ الراحة وبَرْدَ اليقين، وأقبل على القرآن يقرؤه من جديد ويتذوقُ معانيه، وأقْبَلَ على الثقافة الإسلامية (يَنْهلُ منها ويَعُبُّ ولا يرتوي...حتى بلغ مجموعُ ساعات مطالعاتِه في اليوم عَشْر ساعات كحدٍّ أدنى للبحث والاطلاع) [4]، وبدأ شيئا فشيئا يتخلَّص من رواسِب الثقافة الغربية التي بعثتْ في نفسِه الوساوسَ والشكوك ؛ خاصة بعد عوْدتِه من أمريكا ، حيث عاينَ عن كَثَب تلك الحضارة المادية الهائلة المُتْرَفة والتي تفتقرُ إلى القِيَم الدينية والإنسانية حتى، فعاد وهو أصلبَ عُودًا وأقوى شَكِيمةً وأنضجَ فِكرا – وما راءٍ كمَنْ سمِعا-.

تغيرتْ نغْمةُ كتاباتِه الأدبية وانصرف عن الفنون التي كان يكتبُ فيها من شِعر وقصة ونقد أدبي ، واتجه كُلِّيَّةً إلى الإسلام في مقالاتِه وبحوثِه ، داعيا إلى تَحْكيمه في واقع الحياة ، فلا خَلاَصَ للبشرية ولا

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص161.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه ، ص170 .

4- جماعة أصدقاء الشهيد سيد قطب، الشهيد سيد قطب، بدون تاريخ، ص27.

طُمأنينةَ ولا سعادةَ لها إلا إذا عادتْ إلى كِتابِ ربِّها تَستهْدِيه وتستَرْشِدُه وتتخذه منهجا لها .

أُعجب الشبابُ المؤمنُ بكتاباته وبشخصه الذي لا يَعرِفُ النِّفاقَ والمُدَاهنةَ والرياءَ في فضْح المتسلطين والانتهازيين والإقطاعيين وعَبَدَة المناصب ، فكانت كلماتُه محرِّكة دافعةً قوية ، ساهمت في قيام الثورة المصرية "ثورة الضباط الأحرار على الملِك فاروق عام 1952م"، وكانت فيما بعدُ معالمَ في الطريق للإخوان المسلمين حتى لقيَ اللهَ تعالى وهو على ذلك، وصدَقَتْ فيه فِراسةُ أُمِّه أنه نسيجُ وَحْدِه، فكم من علماءَ وأُدباءَ ومفكرينَ كِبارًا عاصروه إلا أنَّ أثَرَ سيد قطب فيمَن حولَه لا يُدانيه فيه أحَدٌ – عدا الإمامَ الشهيد حسن البنا–، وهذا السرّ في قوة الكلمة (كامنٌ في قوة الإيمان بمدْلول الكلمات وما وراء الكلمات، إنه في ذلك التصميمِ الحاسِمِ على تحويلِ الكلمةِ المكتوبَةِ إلى حركةٍ حيَّةٍ ، والمعنى المفهوم إلى واقعٍ مَلموس)[1].

كُتُبه الإسلامية:

قبل أن يُصدِر سيدٌ الكتبَ والدراساتِ الإسلاميةَ كان أديبا ناقِدا غزيرَ الإنتاج، فالفترة التي أمضاها مع الأدب تعْدِل التي أمضاها مع المعارف الإسلامية، فمن سَنة 1925م إلى سنة 1945م كان معظمُ إنتاجه أدبا صِرْفا، ومن سنة 1945م إلى 1965م كان إنتاجه معرفة إسلامية خالِصة، أي عشرون سنة في الأدب وعشرون في الفكر الإسلامي، وهذا لم يأتِ من فراغ ، فالرجُلُ (عاش يقرأ أربعين سنة كاملة، كان عملُه الأوّلُ فيها هو القراءةُ والاطلاع في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادرِ عقيدته وتصوُّرِه، فإذا هو يجِدُ كلَّ ما قرأه ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم.. وما هو بنادمٍ على ما قضى فيه أربعينَ سنة من عمره.. فإنما عرَفَ الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قَزامتها، وعلى جَعْجَعَتِها وانتفاشِها وعلى غرورها وادِّعائها كذلك..)[2].

والآن فالمنهجُ يقتضينا التفصيلَ في كُتبه الإسلامية أما الأدبية فليُرجَع إلى مظانِّها [3]، فقد ألف في

1- سيد قطب، دراسات إسلامية، ص138.

2- سيد قطب، معالم في الطريق، ص131.

3- للاطلاع على إنتاجه الأدبي بالتفصيل يكفي الرجوع إلى رسالتين أكاديميتيْن جَمَعَتا فأوْعَتا هما: 1- عبد الباقي محمد حسين، سيد

الإسلاميات أربعة عشر كتابا ، عدا المقالات الكثيرة المنثورة في الصحف والمجلات على طول أربعين سنة، بدأ بعضُهم في جمْعِها على شكل كُتُب[1] وما زال الكثيرُ منها في بُطون الصحف.

أما كُتبه فعلى الترتيب الزمني هي:

1 التصوير الفني في القرآن:

أول كتبه الإسلامية، أصدره في شهر أبريل 1945م عن "دار المعارف" بمصر[2]، كان قد نشرَ مقالتين في مجلة "المقتطف" في موضوعِه، ثم قام بعملية مسْحٍ للقرآن الكريم وانتهى إلى أن ثلاثةَ أرْباع آيات القرآن الكريم فيها تصويرٌ فنيٌّ، وطبَّق نظريتَه هذه على بعض المَقَاطع في كتابِه هذا، ثم على القرآن كاملا في تفسيره "الظلال" فيما بعدُ، وقد نال كتابُه في "التصوير" ترحيبا كبيرا من النقاد والأدباء[3] وأشَادُوا به على صفحات مجلة "الرسالة"، واعتبره الأستاذ "علي الطنطاوي" كشْفا لا تأليفا إذ يقول: (تفضلَ [سيد قطب] فأهدى إليَّ كتابَه "التصوير الفني في القرآن"...وذهبتُ فقرأتُ الكتابَ فوجدتُ فتْحًا واللهِ جديدًا، وجدتُهُ قد وقع على كنزٍ كأنَّ اللهَ ادخرَه لَهُ، فلم يُعْطِ مفتاحَهُ لأحدٍ من قبلِه حتى جاء هو فَفَتَحَهُ)[4]، وقد اعتبرَ سيدٌ كتابَه هذا اللبِنةَ الأولى لمشروع "مكتبة القرآن الجديدة" التي أعلنَ عنها ولم يُكمِلْها وأضاف لها فقط لبِنَة "مشاهد القيامة في القرآن"، وسنأتي على ذِكر الكُتب التي أعلنَ عنها ولم يُصدِرها.

2 مشاهد القيامة في القرآن الكريم:

أصدره في أبريل 1947م وهو تتِمة "للتصوير الفني"، عرضَ فيه مائة وخمسين مشهدا من ثمانين

قطب حياتُه وأدبه، 2- عبد الله عوض الخباص، سيد قطب الأديب الناقد. ففيهما الغَناء.

1- استقصى عبد الباقي محمد حسين قصائد سيد قطب وجمعَها في ديوان نشرتْه "دار الوفاء"، وجمع المحامي "جمال مدغمش" مقالات سيد السياسية تحت عنوان (أيها العربُ استيقظوا واحْذَروا) نشرتْه "دار الإسراء"، وجمع "ألان روسيون" مقالات سيد الاجتماعية تحت عنوان (المجتمع المصري، جذوره وآفاقه)، نشرته "دار سينا".

2- عبد الله عوض الخباص، سيد قطب الأديب الناقد، ص361.

3- وهم نجيب محفوظ، وعلي أحمد باكثير، وعبد اللطيف السبكي، وعبد العزيز فهمي، وعبد المنعم خلاف، وعلي الطنطاوي، (عن صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،"باتنة: دار الشهاب، 1988م"، ص114).

4- علي الطنطاوي، فِكَر ومباحث،(ط1، بيروت، لبنان: دار ابن حزم ، 2005م)، ص31.

سورة[1]، واقتصرَ فيه على المواضِع التي (تتوافر فيها الصورة والحَرَكة والإيقاع، أما المواضِع التي ورد فيها ذِكر اليوم الآخر مجرَّدا، أو ذِكر الجنة تجري من تحتها الأنهار ، أو ذكر العذاب الأليم أو المهين أو العظيم، دون أن يرتسِم منها مشهد شاخص أو متحرك، فلم أتعرَّضْ لها، وهي كثيرة جدا، فلا تكاد سورة واحدةٌ من سور القرآن تخلو من ذِكر أو إشارة أو تلميح، وكذلك أغفلتُ القليل من المشاهد القصيرة)[2].

3 -القصص الديني للأطفال:

وهي سلسلة قصص دينية للأطفال أصدرها عام 1947م، (تناولَ فيها أنبياء الله نبيا نبيا، وأكْثَر من الحديث عن الرسول الأعظم ﷺ بأسلوب قصَصِي جذاب، يستميل به عقلَ الطفل ونفسه، وينمِّي في فكره الخلُق والفضيلة والمَثل من خلال حكاية تُحكى أو قصة تُروى في يُسْر وسُهولة وإشراق)[3].

4 -العدالة الاجتماعية في الإسلام:

وهو أوَّل مؤلفاته في الفكر الإسلامي، أصدَره في أبريل 1949م، فتأليفُه "للتصوير"و"المشاهد" وهما في الأدب أوْقَفاه على قواعد ومناهج في القرآن الكريم ؛ تصلُح أساسا لإنشاء مجتمعات تسودها العدالة وتتحقق فيها المساواة ، خاصة والظرف الذي ألَّف فيه كانت مصرُ محطمةً اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا إثر الحرب العالمية الثانية، فقد استحوذ الإقطاعيون والباشَوَات وكبار المُلاَّك على غالبية الثروة في البلاد وبقي الشعبُ في فقرٍ مُدقع، ونشط الشيوعيون في الدِّعاية لمذهبهم، فكان الكِتابُ فضْحا للأوائل وسدًّا للطريق أمام الشيوعيين، وزاد من انزعاجهم جميعا أن أهدى الكتاب إلى طليعة الشباب المؤمِن المجاهد الذين يلمَحُهم- بعين الخيال- قادِمين[4] ليرفعوا الظلمَ ويُقيموا أسُس العدالة، واستقبله الإخوانُ المسلمون بحفاوة، وكان هذا إرهاصا بانضمام سيد إليهم فيما بعدُ.

5 -معركة الإسلام والرأسمالية:

1- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، ص08.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- جماعة أصدقاء الشهيد سيد قطب، الشهيد سيد قطب، مقالة يوسف العظم فيه، ص36 .

4- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص1 (الإهداء).

انقطع سيدٌ عن التأليف عاميْن كامليْن - وهي الفترة التي قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية -، وعاد إلى مصر نهايةَ عام 1950م فوجدَ الأوضاع ساءتْ أكثر مما تركَها، وفي هذه الفترة تعرَّفَ على الإخوان المسلمين وانضمَّ إليهم ، وفي فبراير 1951م أصدرَ كتابَه "معركة الإسلام والرأسمالية "[1] في أسلوب قويٍّ ثائر حادٍّ بعدما عايَن هذا النظامَ في أمريكا وخَبَرَ مخاطرَه وآفاته في إهدار الكرامة الإنسانية، وأظهر فيه خبايا وخفايا عداوات الصليبيين والمستعمِرين والمستغلين لنظام الإسلام وحُكمه، فكان أول كتاب يؤلفه وهو عضوٌ في الإخوان المسلمين ؛ منخرط في صفوفهم ولَمَّاَ يُزاوِلْ نشاطه الرسمي معهم بعدُ.

6 السلام العالمي والإسلام:

أصدر كتابَه هذا في أكتوبر 1951م[2]، تساءل فيه عن (مشكلة السلام العالمي هل للإسلام فيها رأي ؟ ولها عنده حل ؟ هذا الكتاب كلّه هو الإجابة التفصيلية عن هذا السؤال) [3]، فالسلام لم يعمّ العالم بعد الحربيْن العالميتيْن، بل استمرت الحرب الباردة بين الدول العُظمى، وتوزعتْ الكتلتان الشرقية الروسية والغربية الأمريكية النفوذَ في باقي دول العالم ولم يتحقق السلام، (وقد ضاقت المخابرات الأمريكية بتحليلات سيد قطب السياسية الموفَّقة في الكتاب، فأوْحَتْ إلى الحكومة المصرية بحذف هذه التحليلات من طبعاته اللاحقة)[4].

7 في ظلال القرآن:

نشر سيد قطب على صفحات مجلة "المسلمون" مقالاتٍ تناول فيها تفسير آيات للقرآن الكريم بداية من فبراير 1952م مُطبِّقًا نظريتَه في التصوير على سورة الفاتحة والبقرة، ثم أعلن عن إيقاف نشْر هذه الحلقات في المجلة عند الحلقة السابعة وقال: (بهذا الدرس ينتهي ما قُدِّر له أن يُنشر من هذه

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص238.

2- المرجع نفسه، ص239.

3- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، (ط07، بيروت: دار الشروق، 1983م)، ص12.

4- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص 240 (وقد كشف يوسف العظم النقاب عن ما قامت به المخابرات الأمريكية من حذف تحليل سياسي رائع كتبَه سيد قطب في الفصل الأخير من الطبعة الأولى من الكتاب بعنوان(الآن) حيث صدرت طبعته الثانية خاليةً منه !!!) عن المرجع نفسه، ص213.

السلسلة في "المسلمون"... وذلك أن (في ظلال القرآن) ستنشر مستقلة في ثلاثين جزءاً على التتابُع، تظهر كل حلقة على رأس كل شهريْن، ابتداء من شهر سبتمبر القادم بإذن الله، تنشرُها دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي وشركاه، أما "المسلمون" فتأخذُ في نشْر بحثٍ آخرَ تحت عنوان (نحو مجتمع إسلامي))[1].

ومع بداية عام 1954م كان قد أكملَ إصدار ستةَ عشر جزءاً – أي نصف القرآن الكريم-، وبعد الحُكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما توقف عن التأليف ، وكان أنْ تعاقدَ مع "دار إحياء الكتب العربية" على إصدار التفسير كاملا كما ذكر هو نفسُه قبل قليل، فرفعَتْ هذه الأخيرةُ دعْوى على الحكومة تطالبُها بالتعويض أو ترْك سيد يُكمل ما بدأه في السجن، وكان أن فضَّلت الحكومة ترْكه يؤلف على التعويض، وبهذا كُتِب للظلال أن يرى النورَ من ظُلمة السجن وأن يُطبعَ كاملا.

وفي فترة الخلوة التي قضاها في السجون ازداد تعايُشه مع القرآن وانفتحت له مغاليق في فهم بعض الآيات ما كانتْ لتنفتحَ له وهو في مُضطَرَب أمورِه خارج السجن، وأعاد تفسير الأجزاء الثلاثة الأخيرة- التي كان فسَّرها من قبلُ- على منهج جديد ، وباستفاضة تجاوزتْ تسجيل الخواطر إلى الوقوف المُتأني المُتَمَلِّي للآيات طويلا، مُسترسِلا في قضايا العقيدة والحركة والدعوة والتشريع والسياسة والاقتصاد والاجتماع... وغير ذلك مما نجِدُه مبثوثا في تعليقاته التي تَطُولُ وتقْصُر على حسب الدواعي والمناسبات في الظلال، وكانت أطوَل هذه الوقفات تلك التي تتعلقُ بالعقيدة والحركة والألوهية والعبودية والحاكمية والتشريع ؛ في الجزء السابع خاصة في مقدمته لسورة الأنعام التي يمكن أن يُستلَّ منها كتابٌ قائمٌ بذاته[2].

وأعاد تنقيح الأجزاء العشَرة الأولى وفق منهجه الجديد، ثم الثلاثة التي بعْدَها –ولم يقفْ فيها طويلا كما فعلَ مع العَشَرة الأولى-، وكان يريدُ أن يعيد كتابةَ أجزاء الظلال من الرابع عشر حتى السابع والعشرين، وأن يفسِّرها على أساس منهجه الحَرَكي الجديد، أما الأجزاء الثلاثة الأخيرة فسيترُكها على ما هي عليه، لأنه ألَّفَها على أساس ذلك المنهج، ولكن الطغاة عجَّلوا بالقضاء عليه قبل أن يُتِمَّ ما بدأ به،

1- مجلة المسلمون، السنة الأولى، المجلد الأول، العدد 9 ، يوليو 1952م، ص15.

2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص1004 – 1029، مقدمة سورة الأنعام، خمس وعشرون صفحة من القطع الكبير بالخط الصغير، إذا ما أُضيفتْ وقفاتُه المطولة في تفسير الآيات فلنا منها كتابٌ من238 صفحة من طبعة دار الشروق.

وقبْل أن يقدِّم الظلالَ كلَّه في الصورة التي اختارَها للطبعة المنقَّحة [1].

وبعد استشهادِه عام 1966م تسابقتْ دُورُ النشْر على طبْع "الظلال" وتداعى القراءُ عليه فنفِدَت طبعاتُه في أزمِنة قياسية ، مما أثارَ شهية الناشرين التجَّار أن يطبعوا منه طبعاتٍ غير شرعية إلى أن وضع لهم الحدَّ أخوه "محمد قطب" بالتعاقُد مع "دار الشروق"، ففي رسالةٍ وجَّهَها إلى "محمد المعلم" –مدير هذه الدار– يقولُ فيها: (ولو أن هذا البعضَ كان يبْغي نشرَ الدعوة وحده فما كان الأمر ليسوءنا عَلِمَ اللهُ، أمَا وَهُم يتَّجِرون بها، ويجْعلونها مجالا للمضاربات والمنافسات، فقد كان الأمر في حاجة إلى مراجعة تَرُدُّ الأمورَ إلى نِصابها، وتحفَظ للكُتب مكانتَها وللمؤلفين حقوقَهم لذلك رأيتُ –بالأصالةِ عن نفسي، ونيابةً عن ورَثة شقيقي الشهيد سيد قطب– أن أَعْهَدَ إلى دار الشروق ببيروت في إعادة طبْع جميع كتبنا، على أن تكون مطبوعاتُكم منها هي وحدَها المعتمَدَةُ للتوزيع والتداوُل) [2].

حظِيَ هذا التفسيرُ الجليل باهتمام بالغ من مختلف الفئات والطوائف والتيارات في العالم الإسلامي، وتُرجِم إلى عدّة لغات [3]، وكُتِبتْ عنه عشراتُ الكتُب والدراسات والبحوث الأكاديمية ومئات المقالات مُشِيدَةً به منوِّهة بمميِّزاته، كما عُنِيَ بعضُهُم بتخريج أحاديثه وفهْرسَة موادِّه كلِّها، واستلَّ بعضُهم منه كتبا قائمةً بذاتها في مختلف الموضوعات الدينية، فكان لهذه الموسوعةِ الفذَّة الأثرُ الطيب في الدراسات الإسلامية وفي الصحوة الإسلامية المعاصرة بشكل عام.

8- دراسات إسلامية:

أصدرتْ مكتبة "لجنة الشباب المسلم" طبعته الأولى عام 1953م، وهو مجموعةُ مقالات إسلامية مختلفة نشرَها من قبلُ في مجلَّات "الرسالة" و"الكتاب" و"الدعوة" بلغت ستا وثلاثين مقالةً جمعها في هذا الكتاب، وقدّم لها "محب الدين الخطيب" مُثْنِيا على قوَّة الكلمة عند سيد قطب، متمنيا عليه أن

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، مَدخل إلى ظلال القرآن، (الجزائر، باتنة: دار الشهاب، د.ت)، ص49، 50.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص05.

3- آخرها ترجمة "عادل صلاحي" للظلال إلى اللغة الإنجليزية في ثمانية عشر "18" مجلدا أتمَّها هذا العام 2010م وعلق على عمله العظيم هذا قائلا: (لم أجد من بين التفاسير في القديم والحديث تفسيرا يُقرِّب مفاهيم الإسلام للغرب كالظلال)،(عن قناة الحوار الفضائية، حصة "مراجعات"، بتاريخ جانفي2010م).

يُتحِف القراء كل عام بكتاب مثله[1].

9 هذا الدين:

ألَّف هذا الكتاب في السجن مُبيِّنا طبيعةَ هذا الدين مُطَمْئنا إخوانه الذين معه بالنصر مع الثبات، وكان فاتحةً لمنهجه الجديد في التفسير الحَرَكي الذي نقَّحَ على أساسه أجزاء من "الظلال"، طبعتْه "دار القلم" بالقاهرة عام 1960م[2].

10 - المستقبل لهذا الدين:

وهو مُكمِّلٌ للكتاب السابق (هذا الدين)، بيَّن فيه استنفاد الحضارة الغربية لأغراضِها وأن طريق الخلاص لا يكون إلا بالإسلام مُستشهدا بأقوال كبار الغربيين في حضارتهم، فالمستقبل لهذا الدين وله وحدَه[3].

11 - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته:

يمثل هذا الكتاب عُصارة فكر الشهيد سيد قطب في العقيدة الإسلامية، اهتم فيه بأسلوب عرْض القرآن الكريم للعقيدة مبينا خصائصها بوضوح عجيب تحت عناوين: الربانية، الثبات، الشمول، التوازن، الإيجابية، الواقعية، التوحيد، وقد استغرق في تأليفه حوالي عشر سنوات من 1951م إلى 1960م فكان بحق أنضجَ كُتُبِهِ وأعمقِها فكرا، صدرَ عن "دار إحياء الكتب العربية" عام 1962م وهو في السجن، وكان قد أعدَّ له عنوانا غير هذا وهو (فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان) ثم عَدَل عنه[4].

12 - الإسلام ومشكلات الحضارة:

صدرَ هذا الكتابُ عن "دار إحياء الكتب العربية " عام 1962م وهو في السجن، قدَّم فيه حلول

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص245، و"مدخل إلى ظلال القرآن" للمؤلِّف نفسِه، ص49.

2- المرجع نفسه، ص 245، 246 .

3- المرجع نفسه، ص246 ،247.

4- صلاح دحبور، سيد قطب والتصوير الفني، ص271.

الإسلام الناجعة لما تُعانيه الحضارة من مشاكل، وأكثر فيه من إيراد تجاربه ومشاهداته الخاصة في أمريكا، مدلِّلا على فساد المجتمع الأمريكي الذي يدَّعي الحضارةَ والرقي، ومستشهدا بأقوال كبار مفكريهم مُكْثرا النقل من كتاب "الإنسان ذلك المجهول" لِـ "ألكسيس كاريل" الأمريكي[1]. في الإِنْحَاءِ على هذه الحضارة المادية المُتْرفة.

13 - معالم في الطريق:

كتبه في السجن، وكان آخر ما صدرَ في حياته -رحمه الله- [2]، صدرت الطبعة الأولى منه في يناير 1964م مُتضمنا اثنيْ عشر فصلا عدا المقدمة كانت بعنوان (معالم في الطريق) والتي استوحى منها عنوانَ الكتاب، واستلَّ أربعة فصول منها من "الظلال" مع بعض التعديلات المناسِبة، فكان الكتاب المقرّر على الإخوان بإذْنٍ من المرشد العام حسن الهضيبي، أعلن فيه سيد قطب صراحةً جاهليةَ المجتمعات التي تعتدي على سُلطان الله في الأرض وتُشرِّع لنفسِها وتُسند الحاكميةَ إلى البشر [3]، وقد أثارت هذه الآراء ضجة في الأوساط الحكومية والدينية، وكانت السببَ في إعدامِه في نظر الكثيرين، فمُحرِّر جريدة "المنار" الأردنية قال وقتَها: (الكتاب الذي حَكَمَ على صاحبِه بالإعدام) [4]، والداعية زينب الغزالي قالت: (اقْرَأوا "المعالم" لتعرِفوا لماذا حُكِمَ عليه بالإعدام)[5].

وقد غالى بعضُهم في فهم المصطلحات الواردة في "المعالم" وبَنَوْا عليها أحكاما في تكفير المجتمعات وقضية دار الحرب ودار الإسلام ، وموقف سيد من الفقه الإسلامي وعلم التوحيد وعلم الكلام والنسْخ ومرحلية الأحكام ، وموقفه من خبر الآحاد وغيرها، وسيدٌ منها بَرَاء بشهادة المُنصفين، وسنقف عند كل منها في عرض البحث وقفات متأنية لنُزيل الغَبَش عن فكر الرجل ونعيد الأمر إلى نِصابه ونرُدَّ هذه التقوُّلات التي لا تقف على قدميْن على بساط البحث العلمي النزيه والموضوعي، وقد سبقَنا إلى بعضِها كبار المتخصصين حيث أفْرَدوا كُتبا قائمةً بذاتها في بيان فكر سيد قطب وبُعْدِه عن هذه

1- سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، (ط13، بيروت: دار الشروق، 2005م)، ص7-30 و73-75 و80-84.

2- سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، (ط4، بيروت: دار الشروق، 1988م)، هامش الصفحة 05 لمحمد قطب.

3- سيد قطب، معالم في الطريق، ص08.

4- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص557.

5- زينب الغزالي، أيام من حياتي، ص215.

التأويلات الباطلة التي تَرومُ الانتقاصَ من هذه الشخصية الفذَّة التي تميَّزتْ كتاباتُها بالدقة والوضوح والقوة والجمال، أما "المعالم" الذي نحنُ بصدده فقد أفْرد له سالم البهنساوي كتابا خاصا سمَّاه (أضواء على معالم الطريق) [1] جمعَ فأوْعَى ردَّ فيه على كل صغيرة وكبيرة أُثيرتْ حول ما جاء في الكتاب. صدرَ "المعالم" عن "مكتبة وهبة" 1964م وأعادتْ طبعَه "دار الشروق" مراتٍ عديدةً.

14 - مقومات التصور الإسلامي:

وهو القِسمُ الثاني لِ "خصائص التصور الإسلامي "، قدّم له شقيقُه "محمد قطب" وقد ضاع منه الفصْلان الأخيران، وألحّ عليه بعضُهم أن يكمله مافأجابهم بقوله: (رحم اللهُ امرءًا عرفَ قدْرَ نفسِه، وإن مِن معرِفتي بقدرِ نفسي ألا أتعرَّضَ لهذا العمل الذي لا أُحسنُه، فلستُ أحسنُ إلا ما أكتبُ لنفسي، وعلى المستوى الذي أكتبُ به، ولستُ أبلُغ مستوى الشقيق وخاصةً في هذا الكتاب بالذات، الذي أوْدَعَه عُصارةَ تجربته الإيمانية كما بلَغ فيه قِمَّتَهُ التعبيرية؛ التي تعبّر عن قضايا غاية في العُمق، في سُيولةٍ متدفّقة، كأنما هي نشيدٌ يُنشَد لا فكرةً تُصاغ) [2]، وكان هذا الكتابُ آخرَ ما خطّت أناملُه-رحمه الله- فالفصولُ الأخيرة منه كتبها على أوراق الادِّعاء التي قُدِّمت له من طرف المحكمة التي أصدرت حكم الإعدامَ في حقه، فكيف يستطيع أحدٌ مهما أوتيَ من قوة الكلمة أن يتقمَّص هذه الشخصية في هذه الأجواء والمواقف ويُعبّر كما يعبر عنها صاحبُها !؟.

صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن دار الشروق عام 1986م وقدّم له شقيقُه محمد قطب بمقدمة ضافية أزال فيها كثيرا من الغَبَش عن فكر الرجل وسجّل شهادته بشأن آراء وأفكار أخيه وردّ كثيرا من الاتهامات المُغْرِضة التي وُجّهت لأخيه بدون وجْه حق.

هذا مُجمَل ما تركَ لنا سيد قطب من الكتابات الفكرية الإسلامية عدا المقالات الكثيرة المُوزّعة في بطون المجلات والدوريات [3] بعد اتجاهه الإسلامي، كما أعلنَ عن كُتب وبُحوث لم ينشُرْها منها 13

1- سالم البهنساوي، أضواء على معالم في الطريق، (ط01، مصر: المنصورة، دار الوفاء، 1999م).

2- سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص07 (من مقدمة محمد قطب).

3- خلّف سيد قطب 487 مقالة موزعة على 20 دورية، وضع لها الباحثون قائمة بيبليوغرافية مفصلة كما فعل "عوض الخباص" في كتابه "سيد قطب الأديب الناقد" من ص 367 إلى398، و"عبد الباقي محمد حسين" في كتابه "سيد قطب حياته وأدبه" من ص403 إلى444 و"محمد حافظ دياب" في كتابه "سيد قطب الخطاب والإيديولوجيا" من ص220 إلى250 .

ثلاثة عشر بحثا إسلاميا بعناوين:

1- القصة بين التوراة والقرآن .

2- النماذج الإنسانية في القرآن .

3- المنطق الوِجداني في القرآن .

4- أساليب العرض الفني في القرآن .

5- لحظات مع الخالدين .

6- أمريكا التي رأيتُ.

7- معالم في الطريق (المجموعة الثانية).

8- في ظلال السيرة .

9- في موكب الإيمان.

10- أوَّليات في هذا الدين .

11- تصويبات في الفكر الإسلامي المعاصر.

12- نحو مجتمع إسلامي .

13- هذا القرآن [1].

وقد لاقتْ كُتبُه القبولَ من مختلف الأوساط وانتفعتْ بها الصحوةُ الإسلامية كثيرا ، فرحِمَ الله المؤلفَ الشهيد وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الثاني: القرآن الكريم

المطلب الأول: استلهام النص مباشرة:

العقيدةُ الإسلامية النقية الخالصة غير المَشُوبة بتأويلات المتأوِّلين تُلتمسُ في القرآن الكريم الذي يخاطبُ العقلَ والقلبَ معًا والكينونة البشرية في مَسَارِها كلِّها، ونصوصُ القرآن غنية غِنىً مُعجِزا

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب الشهيد الحي، ص260، 261.

تُمِدُّ مَن يُقبل عليها بمدد عظيم لا يَنفد، كيف لا وهي كلام الله عز وجل القائل: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وسيدٌ في دراستِه لمسائل العقيدة ومباحِثِها، وفي صُحبَتِه الطويلة للقرآن الكريم يجد نفسه أمام (وفْرة من النصوص والتوجيهات يَحار في كثرتها ووَفْرتها ! فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعُمق وإحاطة ونفاسة)[2]، ويُلفي نصوصَ البَشَر ضئيلة هزيلة أمام هذا البيان الزاخر المُعجِز فيذكرها على سبيل الاستشهاد والاستئناس لا غير، ويجعل وُكْدَه كله في استلهام هذه النصوص والبحث عن معانيها ودلالاتها في حدود اللغة التي أُنزلت بها والقواعد الكُلِّية لهذا الدين، فلم يجد نفسَه (مرة واحدة – في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية- في حاجة إلى نص واحد من خارج القرآن- فيما عدا قولَ رسول الله (ص)- وهو من آثار هذا القرآن، بل إن أي قول آخر لَيَبْدو هزيلا- حتى ولو كان صحيحا- إلى جانب ما يجدُه الباحثُ في هذا الكتاب العجيب...)[3].

وهكذا سلك طريقا خاصا به غير متأثر بأقوال السابقين والشروح الكثيرة للمفسرين إلا ما كان منها ضروريا كمعرفة أسباب النزول أو الاستشهاد بحديث أو رواية صحيحة وردت في تفسير بعض الآيات[4]، وهذا لم يأت من فراغ فحياته كلها درْس ومطالعة وبحث واطلاع كوَّن له حصيلة علمية وفكرية ضخمة في شتى الموضوعات، فلما وَلج عالم القرآن بغرض الدراسة والتفسير ألقى على عتبته كل مقرراته السابقة وخلفياته الفكرية والثقافية وعزَم على التلقي مباشرة من النصوص وإثارة دفائنها وكنوزها المذخورة فيها، لأن ما معه رصيدُ بشرٍ قاصِر عاجز ضعيف وما في القرآن كلام خالق البشر (فلا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة.. لا مقررات عامة، ولا مقررات في الموضوع الذي تُعالجه النصوص، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا، فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نُكوِّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا، فإذا قررَتْ لنا أمرا فهو المقرر كما قررَتْه ! ذلك أن ما نسميه العقل ونريد أن نُحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية

1- سورة لقمان، الآية 27.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1422 – وانظر: المصدر نفسه، مج3، ص1787-1790.

3- المصدر نفسه، مج3، ص1423.

4- ينظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، (ط1، بيروت: المكتب الإسلامي، 1981م)، ص433.

والإنسانية والغيبية هو إفرازُ واقعنا البشري المحدود وتجاربنا البشرية المحدودة)[1].

هذا هو المنطلق الرئيسي لسيد قطب في استلهامه من القرآن مباشرة، ثم سار على هذا الهدْي في تفسيره للنصوص القرآنية، واتخذ لنفسه منهجا خاصا في التعامُل معها انتهى به إلى أن الطريقة المُثلى لتكوين التصور الإسلامي الصافي هو أن (ينفُضَ الإنسانُ من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفي شيئا يثبته القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئا ينفيه القرآن أو يُبطله وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته...)[2].

وقد التزم بما قرره هنا في كل ما ساقه من شروح على آيات العقيدة، فلم يُقحم نفسه في التأويلات البعيدة وفي لَيِّ أعناق النصوص وإكراهها على موافقة مذهبٍ بعينه، بل أزرى بأولئك الذين فعلوا ذلك في مواضع عديدة من "الظلال" وكتبه الأخرى.

ففي تناوله لقضية "القضاء والقدَر" استقى مباشرةً من نصوص القرآن ونصوص السنة النبوية [3] وحَمَل على فِرق المتكلمين الذين عقَّدوا المسألةَ وجعلوها مستعصيةً على الأفهام والعقول وبيَّن منشأ خطئهم وانحرافِهم فيقول: (وقضية الجبر والاختيار كثُر فيها الجدلُ في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنَّة والمعتزلة والمجْبِرة والمرجئة.. وتدخلت الفلسفةُ الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هذا الجدل، فتعقَّد تعقيدا لا تعرفُه العقليةُ الإسلامية الواضحة الواقعية.. ولو أُخذَ الأمرُ بمنهج القرآن الميسَّر المباشر الجادّ، ما اشتدَّ هذا الجدلُ وما سارَ في ذلك الطريق الذي سارَ فيه)[4].

ثم يفصِّل في المسألة تفصيلا وافيا مُعتمِدا على ما تُوحيه العبارةُ من النص القرآني مُعرِضا عن كل ما دبَّجه الفلاسفةُ والمتكلمونَ في المسألة؛ مُنتهيا إلى أن القضيةَ (واضحة، مَصوغة في أيسر صُورة يدركُها

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص3978، 3979.

2- المصدر نفسه، مج6، ص3730.

3- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 1، ص514 ومج2، ص1065، 1066 ومج3، ص1204، 1205 و مج6، ص3763، 3764 و3917، 3918.

4- المصدر السابق، مج3، ص1226.

الإدراكُ البشري، فأما المُعاظَلَة فيها والمجادلة فهي غريبةٌ على الحِس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي.. ولم ينْتهِ الجدلُ فيها في أي فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مُريحة. لأنه جدلٌ يتناول القضيةَ بأسلوب لا يُناسب طبيعتَها... وبعدُ فلقد جاء هذا الدينُ ليحققَ واقعا عمليا؛ تُحددُه أوامرٌ ونواهٍ واضحة. فالإحالةُ على المشيئة الغيبية دُخولٌ في متاهة يرتادُها العقلُ بغير دليل، ومَضْيَعة للجُهد الذي ينبغي أن يُنفَق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود)[1].

ولما فسَّر قولَه تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [2] لفتَ نظرَهُ تكرارُ وحدة الألوهية في بداية الآية وآخِرها مع صِفتيْ العِزة والحِكمة (والقدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط. فالقسطُ يقوم على وضع الأمور في مواضعها مع القدرة على إنْفاذِها.. وصفات الله-سبحانه- تصوّر وتوحي بالفاعلية الإيجابية. فلا سلبية في التصور الإسلامي لله. وهو أكمل تصوّر وأصدقه، لأنه وصْف الله لنفسه -سبحانه- وقيمة هذه الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله وإرادته وفعله. فتصبح العقيدة مؤثرا حيا دافعا لا مجرد تصور فكري بارد !)[3].

وهذه الفاعلية الإيجابية لصفات الله تعالى في الكون والحياة والإنسان ركز عليها سيد كثيرا في "الظلال"[4] وفي "خصائص التصور الإسلامي "[5] لأن العقيدة في الله ليست منعزلة عن واقع الحياة ، وبهذا يمتاز التوحيد الإسلامي ويُباين النظريات التجريدية السلبية المبثوثة في الديانات الوثنية وفي السماوية المحرّفة، فلا أثر عندهم للعلاقة الوطيدة بين العقيدة والتشريع ، ولا للوحدة التي تنتظِم العلاقات الاجتماعية والقواعد التشريعية والشرائع التعبُّدية المنبثقة من العقيدة والتصور الكلي الذي تُنشئُه في نفوس المؤمنين ، على عكس ما في الدين الإسلامي من هذا كله (فالتصور الإسلامي للألوهية

1- المصدر نفسه، مج3، ص1227.

2- سورة آل عمران، آية 18.

3- المصدر نفسه، مج1، ص379.

4- ينظر: المصدر نفسه: مج 1، ص340-344 ومج2، ص1048-1052 ومج3، ص1338، 1339 ومج6، ص3351-3353 و3583، 3584 وغيرها كثير.

5- ينظر: خصائص التصور الإسلامي، ص172-184.

وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان تصوُّرٌ شاملٌ كامل، ولكنه كذلك تصورٌ واقعي إيجابي. وهو يكره -بطبيعته- أن يتمثل في مجرد تصور ذهني مَعرِفي. لأن هذا يخالفُ طبيعتَه وغايتَه. ويجب أن يتمثلَ في أَنَاسِيَّ، وفي تنظيم حيٍّ، وفي حركة واقعية.. وطريقته في التكون أن ينموَ من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية؛ حتى يكتمل نظريا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعيا ولا ينفصل في صورة نظرية؛ بل يظل ممثلا في الصورة الواقعية)[1].

وفي استلهامه المباشر من النص القرآني ركزَ على الموضوعات التي تهُمّ المسلم المعاصر وتُبصِّره طريقَه، ونأى بنفسِه عن الخوض في البحوث الموغِلة في التدقيق والتشقيق اللفظي والتي تحجُب نورَ القرآن وهدايتَه عن القارئ وتُدخله في الترف الفكري والتسلية العقلية.

ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ...﴿١٢﴾﴾[2] يقتصر على الإيحاءات الاعتقادية من النص ولا يخوض في الكيفية والعدد التي لا ينبني من ورائها عملٌ ولا فائدةٌ لأن (البحثَ التفصيلي في كيفية الأفعال كلها، ليس من الجِدِّ الذي هو طابع العقيدة، وطابع الحَرَكة الواقعية بهذه العقيدة ، ولكن هذه المباحثَ صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام في العُصور المتأخرة، عندما فرغ الناسُ من الاهتمامات الإيجابية في هذا الدين، وتسلط التَّرف العقلي على النفوس والعقول.. وإن وقفةً أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العُصبة المسلمة، لَهِي أنفع وأجْدى)[3]، فكان وقَّافًا عند النصوص ملتزما في تفسيره ببيان ما يعود نفعُه وجَدواهُ على المسلم في حياته الإيمانية مسجِّلا إيحاءاته وظلاله التربوية والدعوية، رابطا الحقائق العِلمية برباط الإيمان، واصلا بين العقيدة والحياة بحبْل متين.

ولم يكن سيد بِدْعا في هذا التفسير الذي يستلهم النص مباشرة، فعلى شاكِلَتِه نجد عبد الكريم الخطيب ينْحُو هذا النحْو في تفسيره "التفسير القرآني للقرآن" إذ يقولُ في مقدمته: (إننا لا نفسرُ القرآنَ

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص1013.

2- سورة الأنفال، الآية 12.

3- المصدر نفسه، مج3، ص1486.

بالمعنى المعروف للتفسير في هذه الصُّحبة التي نصحَب فيها كتابَ الله.. وإنما نحنُ نرتل آيات الله ترتيلا.. ثم نقف لحظات نلتقط فيها أنْفاسَنا المبهورة لِما تُطالِعُنا به الآيةُ أو الآياتُ من عجب ودَهَش ورَوْعة، ثم نُمسكُ القلمَ لنمسكَ به على الورقِ بعضَ ما وقع في مشاعرِنا من صُوَر العجب والدَّهش والروْعة)[1].

وعلى شاكلته أيضا من الغربيين "إكليمانس" في استلهامِه من النص الديني المسيحي مباشرة، إذ يقول عن نفسِه: (إذا ظهر أن بعضا مما نقولُ به لبعض الناس يختلف عن الكتب الإلهية فدَعُوهم يعرفون أننا نستلهم الروحَ والحياة منها فقط دون أن نُعطي المعنى الحرفي)[2].

هذان وغيرهم كبنت الشاطئ في "التفسير البياني" وعبد الله دراز في "النبأ العظيم" في نماذج تفسيره في آخر الكتاب؛ وافقهم سيدٌ في الاستلهام من النص مباشرة، وخالفَهم في إسقاط النص القرآني على الواقع الحركي والتربوي الدعوي للمسلم المعاصر، فنحنُ لا نبخس قيمةَ تلك الدراسات القيِّمة لغيره، ولكن نثمِّن هذا الجُهد الجبار لسيد في تتبع النصوص من الفاتحة إلى الناس بهذه الوتيرة التي لا تعرف الوَنَى، وبذاك العُمق الذي يُخرج الخَبِيءَ وبتلك المُسْحَة الجمالية التي تُضفي سِحْرا على جو النص القرآني.

المطلب الثاني: التعامُل مع محتوى النص القرآني

أ -التسليمُ بمدْلول النص القرآني:

ركز سيد قطب في تعامُله مع النص القرآني على البُعْد الشامل المؤثر الحَرَكي للعقيدة، فهي أهم

1- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1967م)، ج1، ص11.

2- سيد أحمد خليل، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن، (القاهرة: مطبعة الإسكندرية، 1954م)، ص17.

شيء في حياة المسلمين لتستقيم وتزكو وترْقى وخاصة قضية الألوهية والعبودية إذ هما جَوْهر ولُبَاب العقيدة وما بعدَهُما لهما تَبَع (فتعريف الألوهية الحقَّة وبيان خصائصها من الربوبية والقِوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها، والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلهِهم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده.. هذا هو الموضوعُ الرئيسيُّ للقرآن كله.. وما وراءه إنْ هو إلا بيانٌ لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البَشَر بكل جوانبها...) [1]، ثم في عرْضه للنصوص التي تعرِض هاتيْن القضيتيْن وغيرهما من الأمور الغيبية؛ نجدُه لا يخوضُ في التأويل ولا يُناقشُ أقوالَ الخائضين فيها، بل يكتفي بما توحي به العبارةُ ويسلِّم بمدْلول النص ويُسجل ما يَعِنُّ له فيه من ظلال ومعاني.

وسنذكُر بالتفصيل مجموعةً من المواضع التي سجَّل فيها ظلالَه بتهيُّب لهذا النص القدسي الذي يَجِلُّ عن أن تحويَه العبارةُ البشريّةُ القاصِرة في بعض المواضِع (فالأداءُ القرآني يمتازُ بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخْمة في حيِّز يستحيلُ على البَشر أن يُعبِّروا فيه عن مِثْل هذه الأغراض وذلك بأوْسع مدلول، وأرقِّ تعبير، وأجْمله وأحْياه أيضا، مع التناسُق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو...) [2]

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [3] لا يذكُر تفاصيلَ القصة التي أفاضتْ فيها الإسرائيلياتُ ويتساءل: (أين كان هذا الذي كان ؟ وما الجَنَّةُ التي عاش فيها آدمُ وزوجُهُ حينا من الزم ان ؟ ومَن هم الملائكةُ ؟ ومَن هو إبليسُ ؟.كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟...

هذه وأمثاله في القرآن الكريم غيْبٌ من الغيب الذي استأثر اللهُ بعِلمه؛ وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كُنْهِه وطبيعته، فلم يَهَبْ لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إياها

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1735.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1787.

3- سورة البقرة، الآية 38، 39.

لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطَّلع على هذا الغيب، وبقدْر ما سخَّر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرّفه بأسْرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدْوى له في معرفته) [1]، فهو يأخذ من القصة ما تُشير إليه من حقائقَ إيمانية وما تبعثُه هذه الحقائقُ في النفوس من معانٍ وما يعود بالنفْع والجدْوى على المسلم فحسْب، أما استِكْناه هذه المجاهيل فجُهدٌ ضائع وتَرَفٌ فِكري ليس من ورائه عائدةٌ.

ويخلُصُ من تفسيره لهذه القصة إلى تقرير قضايا كبرى يوحي بها مغزاها وهي (القيمة الكبرى التي يعطيها التصورُ الإسلامي للإنسان ولدورِه في الأرض ولمكانه في نظام الوجود، وللقِيَم التي يوزن بها، ثم لحقيقة ارتباطِه بعهْد الله ، وحقيقة هذا العهد الذي قامتْ خلافتُه على أساسِه) [2]، فهذه هي الخطوطُ العريضةُ والكلِّيات التي يجدُرُ بالمسلم أنْ يَعِيَها من القصة، والإيحاءات العميقة التي تنفُذُ إلى عقلِه وقلبه، لا التفاصيل التي لا تزيدُه إلا إغراقا في الطلَب وبُعْدا عن جو النص.

وظيفة العقل البشري عند سيد:

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [3]، يقفُ سيد منها (أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في أخطر قضايا "الإنسان"؛ قضية الإيمان بالله التي تقومُ عليها حياتُه في الأرض من جذورها؛ بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها، كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي أكبر وأبقى) [4]. فلو كان اللهُ سبحانه – وهو أعلمُ بالإنسان– يعلمُ أن العقلَ الذي وَهَبَه للبشَر هو حسْبُهم في بلوغ الهُدَى والمصلحة الدنيوية والأُخْروية لَوَكَلَهُم إليه ولَمَا أرسل لهم الرسل تَتْرَى، ولكنْ عَلِم أن العقلَ البشري قاصِرٌ بغير سنَدٍ من الوحْي فبعث إليهم الرسُلَ يُبلِّغونهم أمْرَ ربِّهم.

فدوْرُ العقل إذن لا يكونُ (حاكِما على الدين ومقرراتِه من حيثُ الصحةُ والبُطلانُ، والقبول أو الرفض – بعد أن يتأكدَ من صحة صُدورها عن الله؛ وبعد أن يفهم المقصود بها: أي المدلولات

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص59.

2- المصدر نفسه، مج1، ص60.

3- سورة النساء، الآية 165.

4- المصدر نفسه، مج2، ص806.

اللغوية والاصطلاحية للنص ـ ولو كان له أن يَقبلها أو يرفضَها ـ بعد إدراك مدلولها، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول ! أو لا يريد أن يستجيب له- ما استحق العقابَ من الله على الكُفر بعد البيان.. فهو إذن مُلزمٌ بقبول مقررات الدين متى بلغتْ إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عقلُه ما المقصودُ بها وما المُرادُ منها)[1]، فالنص هو الحَكَم وما على العقل البشري إلا التسليمُ والطاعة والتنفيذ، فلا يجعل من مقرراته الذاتية ومَقُولاته المنطقية نِدًّا لما قرَّره اللهُ تعالى ونَصَّ عليه في كتابه الكريم.

وقوفه أمام النصوص بتهيُّب:

في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[2]، يُقدِّمُ سيد لهذه الآية بتَوْطِئة يتهيَّبُ فيها الخوضَ في الكيْف والتأويل ويتملَّاه من بعيد، لأنه مَشهدٌ (تتصل فيه الذَّرة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الأبدي بلا وَسَاطة؛ ويُطيقُ الكائنُ البشري أن يتلقى عن الخالق الأبدي، وهو بعْدُ على هذه الأرض.. ولا ندري نحن كيف.. لا ندري كيف كان كلامُ الله -سبحانه- لعبْدِه موسى. ولا ندري بأي حاسَّة أو جارِحة أو أداة تلقى موسى كلماتِ الله. فتصويرُ هذا على وَجْه الحقيقة متعذِّرٌ علينا نحنُ البشر المحكومين في تصوراتِنا بنصيبِنا المحدود من الطاقة المدرِكة؛ وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة. ولكننا نملكُ بالسِّرِّ اللطيف المستمَدّ من روح الله الذي في كياننا أن نسترْوِحَ وأن نستشرِفَ هذا الأفق السامق الوضيء.

ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نُفسدَه بسؤالنا عن الكيفيةِ، نريدُ أن نتصورها بإدراكنا القريب المحدود)[3]، فالعقلُ البشري له حدودٌ لا يتجاوزُها، وسيد في تفسيره لكل ما يتعلق بالغيبيات يحترمُ حدودَ هذا العقل ولا يجازفُ به، إلا ما كان منها متبوعا ومسنودا بنصوص صحيحة من السنة النبوية تفسر ما عَمِيَ منها.

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص806.

2- سورة الأعراف، الآية 143.

3- المصدر السابق، مج3، ص1368.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾[1] يركزُ على المعنى العقيدي وراء هذه الآية وينأى بظلاله عن البحث في التفاصيل فيقول: (إنها مَعيَّة الله سبحانه للملائكة في المعركة؛ واشتراك الملائكة فيها مع العُصْبة المسلمة.. هذا هو الأمر الذي لا يجوز أن يَشغَلَنا عنه أنْ نبحثَ: كيف اشتركت الملائكة ؟ ولا كم قتيلا قتلتْ ؟ ولا كيف قتلتْ ؟... إن الحقيقة الكبيرة الهائلة في الموقف هي تلك الحقيقة.. إن حركة العصبة المسلمة في الأرض بهذا الدين أمرٌ هائلٌ عظيم.. أمرٌ يستحق معيَّة الله لملائكتِه في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة...)[2]، وبعد أن يفيض في بيان المعاني الكبرى والحقائق التي توحي بها هذه الآية ؛ ينتهي إلى أن البحثَ التفصيلي في كيفيات هذه الأفعال ليس من الجِدِّ الذي هو طابع هذه العقيدة وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة، وأن الترف العقلي الذي وقع فيه المتأخرون في مباحث علم الكلام والفِرَق الإسلامية إنما نشأ عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية لهذا الدين[3].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[4] يذكُر ما ورد في تفسير الآية من آثارٍ مَنسوبة إلى ابن عباس وحديثا مُرسَلا في مالك فيه عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون وهو ضعيف الحديث، فليس هناك إذن ما يستند إليه من السنة النبوية في تفاصيل القصة فيقول: (ونحن –على منهجِنا في هذه الظلال– لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يَرِدْ به نصٌّ قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر. فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنصٍّ هذه درجتُهُ. ولكننا في الوقت ذاتِه لا نقف موْقفَ الإنكار والرفض... الكيفية فقط هي التي لا نَجزِم بها.

1- سورة الأنفال، الآية 12.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1485.

3- ينظر: المصدر نفسه، مج3، ص1486.

4- سورة الأنفال، الآية 48.

ذلك أن أمر الشيطان كله غيْب؛ ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمْره إلا في حدود النص المسلم. والنص هنا لا يذكرُ الكيفيةَ إنما يُثْبتُ الحادثَ.. فإلى هنا ينتهي اجتهادُنا، ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسةُ الشيخ محمد عبده في التفسير ؛ من محاولة تأويل كل أمرٍ غيبي من هذا القبيل تأويلا معينا ينفي الحَرَكة الحِسية عن هذه العوالم) [1]، فالظلال لسيد فيه منهجٌ مرسوم مُتبع وليس تفسيرا أدبيا أو انطباعات جَمَالية كما يحْلُو لبعض المغْرِضين أن يَسِمُوه، وعبارة (على منهجنا في الظلال) تُغني عن البيان، ومخالفتُه للمدرسة العريقة لمحمد عبده التي كانت مِلْءَ السمع والبصر دليلٌ آخرُ على أن سيدًا لم يُدبِّج ما دبَّجَه من فراغٍ وإنما كان عُصارةَ حصيلتِه المعرِفيَّة والبحْثية لعُقود من الزمن، واطلاعه الواسع العميق على التفاسير القديمة والحديثة على السواء.

فهو قد التزم منهجًا لَاحِباً لا يَحِيدُ عنه في تفسيره للغيبيات؛ يعرف للعقل حدودَه ويسلِّم بما جاء به الوحيُ الصحيح –القرآن المتواتر والسُّنة الصحيحة–، لا يُجامِل فيه أحدًا ولو كان "محمد عبده" الذي تأثر به كثيرٌ من المفسرين في العصر الحديث، وبعد أنْ ذكرَ تفسير محمد عبده للآية وكيف أوَّل أفعال الملائكة بأنها مجرد مُلابَسَة لأرواح المؤمنين، وكيف جزَم في موضع آخرَ بأن الملائكة لم تُقاتِلْ يومَ بدر، وأن أفعالَ الشيطان مجرد ملابسة لأرواح المشركين، وأن الطيرَ الأبابيل ميكروبات الجُدَري في تفسيره لجزء عمَّ، يعلِّق قائلا: (هذا كلُّه مبالغةٌ في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية؛ حيث لا ضرورةَ لهذا التأويل، لأنه ليس هناك ما يمنعُ من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها.. وكل ما ينبغي هو الوقوفُ وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدُل عليها دلالة صريحة.. وهو المنهجُ الذي اتخذه فعلا) [2]، كما علق عليه أيضا في تفسيره لسورة الفيل بشكل وافٍ حين تأوَّل الطير الأبابيل.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [3] يفسر كلمة "يَفۡسُقُونَ" بالكُفر بعد إمعانِهم في المعصية، والتعبير القرآني يصف الكفر والشرك في

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1531.

2- المصدر نفسه، مج3، ص1532.

3- سورة الأعراف، الآيات 165-166.

مواضع عدة بالظلم والفِسق على عكس ما شاع في التعبير الفقهي المتأخر، (أما كيف صاروا قِرَدة ؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قِرَدة ؟ هل انقرضوا كما ينقرضُ كل مَمْسُوخ يخرُج عن جنسِه ؟ أم تناسَلوا وهُم قردة ؟.. إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها رواياتُ التفسير.. فهذا كله مسكوتٌ عنه في القرآن الكريم؛ وليس وراءه عن رسول الله ﷺ شيء.. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه.

لقد جَرَت كلمةُ الله التي يجري بها الخَلْقُ والتكوينُ ابتداءً؛ كما يجري بها التحوير والتغيير، كلمة "كن" ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فكانوا قردة مَهِينين)[1].

هكذا يتوقف سيد عند المبهَمات التي لم يرِدْ فيها نصٌّ مُفسِّرٌ من السنة النبوية الصحيحة ، وينأى بظلاله عن البحث وراء التفصيلات والكيفيات التي لا تعودُ بالفائدة على المسلِم في دينِه ودنياه، فما الفائدةُ في تتبُّع أولئك الممسوخينَ قردةً في استمرار حَيَوَاتهم أو انقراضها ؟ وما النفعُ الذي يَجْنيه المسلم في معرفة تلك التفاصيل؟ فكان منهجُ سيد أن يضربَ صفْحا عن الروايات الإسرائيلية وعن اجتهادات المفسرين القُدَامى الذين ذكروا نُتَفا من تلك الأقاويل والقصص التي لا تستندُ على الوَثَاقة والصحة، واكتفى بالتسليم بما وردتْ به الآياتُ، وهكذا دَيْدَنُه في كل الآيات الخاصة بالعقائد والغيبيات، فما فسَّرتْه السنةُ الصحيحة منها ذكَرَه في ظلاله ودعَّمَه بالأحاديث والآثار التي تفسِّر مُبهَمَه وتحلُّ غامضَه، أما ما لم يُفسَّر فيُبقيهِ كما هُوَ ويكتفي باستخلاص المغزى والعِبرة منه.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥﴾[2] يتساءلُ سيدٌ عن الجنة التي أُهبطوا منها ولا يحاولُ الإجابةَ سَيْرًا على منهجِه الذي اتخذَه لنفسِه في "الظلال" ولو شاءَ لذكَرَ عشرات الأقوال المبثوثة في كتب التفسير والتي يضربُ بعضُها بعضًا، ولكنهُ اكتفى بقولِه: (وهبطوا جميعا، هبطوا إلى هذه الأرض، ولكن أين كانوا ؟ أين هي الجنَّة ؟ هذا من الغيْب الذي ليس عندنا من نبأٍ عنه إلا ما أخبرَنا به مَن عنده مفاتِحُ الغيب وحدَه، وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولةٌ فاشلة، وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم "وعِلْمِهم" الظني هو تبجُّحٌ، فهذا "العِلم" يتجاوز

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1585.

2- سورة الأعراف، الآية 24، 25.

مجالَه حين يحاولُ الخوضَ في هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة، ويتبجَّحُ حين ينفي الغيبَ كلَّه، والغيبُ محيطٌ به مِن كل جانب)[1] هكذا سيد يحترمُ العقلَ ويعرِف له حدودَه وإمكانياتِه وطاقاته، ويضع عبارة "العلم" بين مزدوجتين حين يكون الأمر مع المسائل الغيبية التي يفتقر فيها إلى الوسيلة والأداة ؛ التي هي العقل البشري القاصر الذي ينشئ علما ظنيا لا يُعتمَد على نتائجه في الغيبيات، فأين كان آدمُ وزوْجُه وإبليسُ قبل الهبوط ؟ وكيف هبطوا ؟ وإلى أي مكان هبطوا ؟ هذه كلُّها لم تردْ فيها نصوصٌ مفسِّرة، فليتركها تؤدي معناها على هذا النحو المبهم المقصود، لا يفسدها بالتخمينات الظنية التي لا تؤدي إلى شيء مفيد.

نكتفي بهذه المواضِع التي ذكرنا من تفسير سيد قطب للآيات المتضمِّنة أمورا عَقَدية وغيبية فهذا ما يسمح به المجالُ هنا في بحثِنا، وإلا فالظلالُ مليءٌ بمثل هذه الوقَفَات التسليميَّة وهو يعالجُ المسائل الغيبيةَ والمباحث العقدية [2]، وهو في تسليمه لم يكن بِدْعًا، ففي تفسيره لمطْلَع سورة النازعات يقول: (وأيا ما كانت مدلولاتُها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادَها على هذا النحْو، ينشئُ أوَّلا وقبل كل شيء هزة في الحس، وتوجُّسا في الشعور، وتوفُّزا وتوقُّعا لشيء يَهُول ويَرُوع... فهزة القلب وإيقاظه هدفٌ في ذاتِه، يتحرَّاه الخطابُ القرآني بوسائل شتى.

ثم إن لنا في عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- أسوة، وقد قرأ سورة "عبس وتولى" حتى جاء إلى قوله تعالى (وفاكهة وأَبًّا) فقال: (قد عرفْنا الفاكهةَ فما الأبُّ ؟ ثم استدركَ قائلا: لعمرك يا بن الخطاب إن هذا لهو التكلُّفُ ! وما عليكَ ألَّا تعرفَ لفظا في كتاب الله تعالى)... فهذه كلماتٌ تبعثُ ع لى الأدب أمام كلمات الله العظيمة، أدب العبد أمام كلمات الرب؛ التي قد يكون بقاؤها مغلَّفةً هدفًا في ذاتِه، يؤدي غرضًا بذاته)[3]، فها هو سيد يتأسَّى بعُمَرَ بن الخطاب في الأدب مع الله تعالى، ولا يتكلفُ في ظلالِه للبحث عما لا يصلُ إليه عقلُه ولا يستند إلى نص صحيح يفسِّر الغامضَ والمبهَمَ من الآيات.

1- المصدر السابق، مج3، ص1270.

2- ينظر: الظلال: مج1، ص59، 60، 236 ومج2، ص1001، 1016 ومج3، ص1270، 1296، 1331، 1358، 1359، 1368، 1370، 1385، 1402، 1485، 1532،... وينظر: خصائص التصور الإسلامي: ص9، 10، 16 فما بعدها.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص3812.

أ -تجاوُز الخِلاف المذهبي والكلامي:

اهتمَّ سيد قطب في ظلاله بالمسائل العَقَدية كثيرا وفصَّل فيها تفصيلا وافيا خاصة بفاعليتها الإيجابية في حياة المسلم وحَرَكته بها، وهو في تعامُله مع النصوص العقدية كان حريصا على بقاء القارئ في جو النص ومقتضياته ، وعدم الذهاب به بعيدا والزَّجِّ به في الخلافات الكلامية والمذهبية التي تُنسيه الموضوعَ الرئيسي، وتشوشُ عليه فِكرَه بالتقعيرات اللفظية والجدل المُثار حول تلك القضايا على طول التاريخ الإسلامي.

هذا فيما يخص العقيدةَ وتفريعاتها؛ وحتى فيما يخص اللغة والفقه والقصص كان ملتزِما بمنهجه في النأي بظلالِه عن الخوض في خلافياتِها التي حَفَلت بها كُتب التفسير[1].

فهو في تناولِه مسائلَ العقيدة يدْعُو إلى تجاوُز الجدل والكلام الذي أثارتْه الفِرَقُ الإسلامية حولها والاستقاء المباشِر من القرآن الكريم دون مقرَّرات سابقة نحاكم القرآن إليها – مهما كانت هذه المقررات-، لأن النصَّ القرآني جاء (ابتداءً لينشئَ المقرراتِ الصحيحةَ التي يريدُ اللهُ أن تقومَ عليها تصوراتُ البشر، وأن تقوم عليها حياتُهم، وأقلّ ما يستحقّه هذا التفضُّلُ من العليِّ الكبير، وهذه الرعاية من ذي الجلال-وهو الغنيُّ عن العالَمين- أن يتلقَّوْها وقد فرَّغوا لها قلوبَهم وعقولَهم من كل غَبَش دخيل؛ ليقوم تصوُّرُهم الجديد نظيفًا من كل رواسب الجاهليات - قديمِها وحديثِها على السواء- مستمدا من تعليم الله وحدَه، لا من ظُنون البَشَر، التي لا تُغني من الحق شيئا، ليستْ هناكَ إذن مقرراتٌ سابقة نحاكِمُ إليها كتاب الله تعالى، إنما نحنُ نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداءً، ونقيمُ على هذه المقررات تصوراتِنا ومقرراتنا)[2] .

ويَنْعَى على الفِرَق الإسلامية التي لَوَتْ أعناقَ الآيات لتوافقَ مقرراتِها وأوَّلَت النصوصَ القرآنيةَ وأكرهتْهَا على إفرازِ معاني تخدُم مذاهبَها، وهذا انحرافٌ شديدٌ عما تنزلتْ النصوصُ له، وهذا منذُ مَقتل

1- كتفسير الرازي وأبي حيان والقرطبي والخازن والسيوطي والآلوسي التي حفلت بالاستطرادات التي لا آخِرَ لها في الكلام واللغة والفقه والتي تنسي القارئَ بتطويلها المعنى الأساسي والمقصَد الرئيسي للآية، اللهمَّ إلا المتخصصين والمتمرِّسين بالمطوَّلات وبالكتب الصفراء كما يطلقون عليها.

2- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص17.

عثمان-رضي الله عنه- حيثُ (انحرفتْ بتأويلاتِ النصوص القرآنية؛ وبالأفهام والمفهومات انحرافا شديدا.

فلما بدأت المباحثُ لتأييد وجهات النظر المختلفة، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية، بحثا مغرضا في الغالب ! ومن ثم لم تعُدْ تلك المصادرُ-في ظل تلك الخلافات- تصلح أساسا للتفكير الإسلامي الخالص؛ الذي ينبغي أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت، في جو خالص من عَقَابِيلِ تلك الخلافات التاريخية)[1].

ويُنْحِي سيد باللائِمة على أولئك الذين اشتغلوا بالفلسفة والجدل من المسلمين، وحاولوا جاهِدين أن يوفِّقوا باعتسافٍ بين الفلسفة الإغريقية -التي لا تخلو من أساطيرَ وثنيةٍ- وبين العقيدة الإسلامية الصافية المبثوثة في القرآن المنزَّل من السماء، فكان ما يسمَّى "الفلسفة الإسلامية" التي تنتهي بالتعقيد والتخليط والجفاف كلما حاولت أن تتناولَ مسائلَ العقيدة، فللعقيدة أسلوبٌ خاصٌّ يمتازُ بالحيوية والإيقاع واللمْسَة المباشرة والإيحاء، يخاطب الكينونة الإنسانيةَ بكل جوانبِها وطاقاتِها ومَنافِذِ المعرفةِ فيها ولا يخاطبُ "الفكرَ" وحدَهُ في الكائن البشري[2].

بل أكبر من هذا؛ فهي تصورٌ شامل لحقيقة الوجود، ولحقيقة الإنسان، ولمركز الإنسان في هذا الوجود، ولغاية الوجود الإنساني[3] فإذا كان تفسير هذا كله من صنع الإنسان نفسِه، فهو تفسير قاصر، لأن الوجود أكبر من الإنسان، فهناك استحالة في أن يصنع له الإنسان تفسيرا شاملا (والذي يراجع سِجِلَّ الفلسفة التي حاولتْ تفسيرَ الوجود، وتفسير مكان الإنسان فيه، وتفسير غاية الوجود الإنساني، يقع على رُكام عجيب ؛ فيه من المضحكات الساذَجَة بقدر ما فيه من السُّخف والافتعال ، حتى لَيَعجبُ الإنسانُ: كيف تصدُرُ هذه التصوراتُ عن "فيلسوف" !! لولا أن يتذكَّرَ أن هذا الفيلسوفَ إنسانٌ؛ لا يملكُ إلا أداةَ العقل البشري. وأن هذا ليس مجالَ العقل البشري)[4].

فسيدٌ في عرْضِه لقضايا العقيدة ومباحثِها يحاولُ جاهدا أن يلتزمَ بالنص القرآني والسنَّة النبوية في

1- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص14.

2- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص18.

3- ينظر: سيد قطب، المستقبل لهذا الدين،(بيروت، دار الشروق1974م)، ص2

4- سيد قطب، هذا الدين، (بيروت، دار الشروق، 1974م)، ص22 ،23.

تفسيرها، وينأى بها عن الخلافات الفلسفية والكلامية والجدل القائم حول بعض مباحثها عند الفِرَق والمذاهب، ففي ظلاله يقفُ وقفاتٍ كثيرةً يَنْعَى فيها هذا الجدلَ العقيم وهذا الترفَ العقلي والتشقيق اللفظي عند الفِرق الكلامية، نورِدُ بعضًا منها على سبيل المثال لا الحصر ونحيلُ إلى كثير منها لمن أراد الاستقصاء.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1] يعلِّقُ عليها قائلا: (ولا نريد أن ندخُلَ بهذه المناسبة في الجدل الذي أثاره المعتزلة حول الحُكم بأن الخمر رجس: هل هو ناشئٌ عن أمْرِ الشارِع –سبحانه– بتحريمِها، أم إنه ناشئٌ عن صفة ملازِمة للخمر في ذاتِها. وهل المحرماتُ محرماتٌ لصفةٍ ملازمةٍ لها، أم إن هذه الصفةَ تَلزمُها من التحريم: فهو جدل عقيمٌ في نظرِنا وغريبٌ عن الحِس الإسلامي !... فإذا أَمَرَ اللهُ أو نهى فقد انتهى الجدلُ ولزِمَ الأمرُ أو النهيُ، فأمَّا إذا تُركَ الحكمُ للعقلِ البشري فمعنى ذلكَ أن الناسَ هم المرجعُ الأخير في شرْع الله، فأينَ مكانُ الألوهية إذن وأين مكانُ العبودية ؟)[2]، فالمسلِم عند سيد لا يخوض في استكْنَاهِ عِلَلِ الأوامرِ والنواهي، فالله سبحانه هو الذي يعلمُ الأمرَ كلَّه، والطاعة له واجبة، علمتَ العلَّةَ أم خفيتْ عنكَ، فأنت عليك التلقي بالقبول والتنفيذ.

وفي مقدمته لسورة الأنعام–تلك المقدمة الطويلة المقصودة لسورة عالجت القضية الكبرى والأولى والأساسية لهذا الدين ؛ ألا وهي العقيدة– نلفيه يعيب ذلك المنهج المتَّبع في العصور المتأخرة في عرْض العقيدة الإسلامية، وأنه لا يناسب الزخم القرآني الحافل بالموحيات والمؤثرات التي تفتح منافذ الفطرة وآفاق التصور؛ والبعث على الحركة والفاعلية الإيجابية بهذا الدين (و إن لم يكن شكل "النظرية" هو في الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر. إنما هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية، ولم يكن الجدل الذهني الذي أنتهجه–في

1– سورة المائدة، الآية 90.

2– سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص978.

العصور المتأخرة- علم التوحيد هو الشكل المناسب كذلك... وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب. فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة، إلا أنها عقيدة تمثل منهجَ حياة واقعية للتطبيق العملي، ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها البحوث اللاهوتية النظرية) [1]، فالعقيدة عند سيد أوسع وأعمق من التصور الذهني المعرفي، وهذا ما لا نجدُه إلا في النصوص القرآنية التي أنزلها خالق هذا الإنسان المكلَّف بالحركة بهذا الدين.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾ [2] يقف أمام الدلالة العظيمة لمعيَّة الله سبحانه للملائكة في المعركة ؛ واشتراك الملائكة مع المسلمين في غزوة بدر الكبرى، وينأى بنفسه عن الخوض في التفصيلات التي لا طائلَ من ورائها من قبيل: كيف اشتركت الملائكة ؟ وكم قتيلا قتلت ؟ وكيف قَتَلَتْ ؟ (والبحث التفصيلي في كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجِد الذي هو طابع هذه العقيدة وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة، .

ولكن هذه المباحث صارت من مباحِث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام في العصور المتأخرة، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية في هذا الدين، وتسلط الترفُ العقلي على النفوس والعقول، وإن وقفةً أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العُصبة المسلِمة لَهِيَ أنفعُ وأجْدى) [3]، فالأمرُ أكبرُ من البحث في الكيفيات والتفاصيل، وحركة العصبة المسلمة في الأرض بهذا الدين أمرٌ هائل عظيم، أمرٌ يستحق معيةَ الله لملائكته في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع هذه العصبة المؤمنة، ويخلُصُ سيدٌ إلى أن التثبيتَ والنصرَ قاعدةٌ وسنَّة حيثما انطلقت

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص1012. وينظر: خصائص التصور الإسلامي، ص10.

2- سورة الأنفال، الآية 12.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1486.

العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده وإقامة منهجه، فلتطمئنَّ إلى ربها وتتوكل عليه وهي تقطع الطريق[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾[2] لم يدخل سيد في التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم، بل تتبع الأصل الإيماني في السياق التاريخي الحركي والمنهج القرآني التربوي، حين يعلقُ السياقُ القرآني الاعترافَ لأهل بدر–وهم أهل بدر– بالإيمان على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم، فيجعله شرطا لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله وبما أنزله على عبده من القرآن .

يعلق سيد قائلا: (وهكذا نجد مدلول الإيمان –في القرآن– واضحا جازما لا تميع فيه ولا تفصيص ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد، عندما وجدت الفرق والمذاهب والتأويلات، ودخل الناس في الجدل والفروض المنطقية الذهنية، كما دخل الناس –بسبب الفرق المذهبية والسياسية– في الاتهامات ودفع الاتهامات، وصار النبز بالكفر ودفع النبز لا يقومان على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين، إنما يقومان على الغرض والهوى ومكايدة المنافسين والمخالفين) [3]، فنزع ملكية الغنائم ممن يجمعونها في المعركة وردها إلى الله ورسوله هدفه أن يتجرد المجاهدون من ملابسات الأرض ويسلموا أمرهم كله لله ورسوله بلا تعقيب ولا اعتراض، ويخوضوا المعركة متجردين من هوى المطامع تحدوهم طاعة الله فقط وابتغاء ما عند الله من جزيل الثواب، وهذه حقيقة الإيمان.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

1– سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1486.

2– سورة الأنفال، الآية 41.

3– سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1520.

[1] يتجاوز سيد الخلاف الكلامي الفلسفي الذي ثار حول مشيئة الله سبحانه وإرادة العبد والتعارض الموهوم بينهما؛ تلك المسألة التي أسالت كثيرا من الحبر على طول التاريخ الإسلامي بين الفرق الإسلامية الكلامية، يطّرح سيد كل هذا جانبا ويخلُص إلى أن (هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم من النصوص التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله-سبحانه- واتجاهات البشر؛ وما يصيبهم من الهدى والضلال، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب، إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني ! وكل ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء في تاريخ الفكر الإسلامي، وبخاصة المعتزلة وأهل السنة والمرجئة -أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة- وكل القضايا والتعبيرات عنها، موسومة بطابع المنطق الذهني)[2].

فمنهج المنطق الذهني والقضايا الجدلية لا تصلح ولا تكفي للتصور الكامل والصحيح لهذه الحقيقة، فسيد يرى أن التعامل مع هذه القضايا يكون باستصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة والتجربة الواقعية في التعامل معها، فالانشراح وضيق الصدر الواردين في الآية من قَدَر الله وخلقه وصنعه وإرادته في العبد ولكن لا إرادة القهر، والثواب والعقاب يكونان على ما يترتب من استخدام العبد لهذا القدْر من الإرادة في الاتجاه للهدى أو للضلال[3] .

فإنزال سيد مثل هذه القضايا من التجريد والمنطق الذهني إلى الواقع الحي الفعلي في حي اة الناس هي الإضافة المهمة - في نظرنا - إلى ما خاض فيه المتكلمون وأصحاب الفِرَق الذين قصَروها على الجانب العقلي المنطقي الذهني، ومن الباحثين مَن عدّ هذا نجاحا كبيرا لسيد معتبرا به (ظلاله نُقلة بعيدة في التفسير-لأنه تعامل معها [أي القضايا الذهنية] تعاملا واقعيا حيا، ونظر إليها كحقيقة فعلية لها واقع فعلي في حياة الناس، كذلك تذوق تلك الحقيقة تذوقا كاملا مباشرا، وعاش معها تجربة روحية وعقلية،

1- سورة الأنعام، الآية 125.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1204.

3- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1204، 1205.

عندما نقلته نقلة بعيدة من الضياع إلى الإيمان والرضى واليقين)[1].

ولسيد وقفات كثيرة في "الظلال"[2] عند مثل هذه القضايا التي شغلت المتكلمين والفلاسفة، عالجها بمثل ما ذكرنا في هذا المثال السالف بأن ربطها بحياة الإنسان المسلم وجعلها واقعا معيشا؛ لا منطقا وخيالا وموضوعا للجدل والأخذ والرد؛ الذي لا يخرج المسلم منها في دينه بطَائِل، لذا تجاوز سيد عصور المذهبية الفكرية والخلافات الجدلية في مثل هذه القضايا العقدية الخطيرة كالقضاء والقدر والكسب والاختيار وكيفيات أفعال الله تعالى وفي الآيات المتشابهة وغيرها من المسائل التي لا يزال بعض الخلاف حولَها ما دام هناك عقلٌ يفكر ونفسٌ تتوقُ للمعرفة، أما سيد- رحمه الله - وهو يعرِض هذه القضايا في ظلالِه، فقد كان يستشعِر معاني القرآن كما عاشتْ في نفوس ذلك الجيل القرآني الفريد الذي تلقّى للعمل وتورّع عن السؤال في مثل هذه القضايا تهيُّبا واستشعارا للعظَمة والجلال واستغراقا في الجهاديْن الأصغر والأكبر وعظائم الأعمال.

لهذا فمَن يحاكِم سيدا إلى آراء الفِرَق الكلامية واصطلاحاتِهم يظلمُه ظُلما شنيعا، فهو-رحمه الله- قد تجاوزَ تلك الخلافات في تفسيرِه وسائر كتبه محاوِلا ربطَ المسلِم بدينِه بعيدا عما يمكن أن يشوش عليه عقيدته فاكتفى بما ورد في النصوص القرآنية وما عضدها وفسرها من الأحاديث النبوية الشريفة، فآراء رجال المذاهب الكلامية ومقرراتهم الفكرية المسبقة ليست أصلا تفسر في ضوئه نصوص القرآن، بل تبقى فهوما بشرية، أَفَإِن عزف سيد عن تأويل بعض النصوص القرآنية وفق مقولات بعض هذه الفرق عدوه موافقا لأخرى ؟! .

فسيد-رحمه الله- كما أثبت أحد الباحثين المتخصِّصين في التفسير: (لم يذهب مذهبَ الخوارج في مسألة، ولا رأيَ المعتزلة في مسألة أخرى، ولا رأي المرجئة في مسألة ثالثة... ولكنه كان يستلهِم النص القرآني الكريم بتلك الثقافة العالية، وذلك الإحساس المرهَف، تلك التجربة العملية الناضجة في حقل إقامة أمة القرآن وإعادة صياغة المسلم وفقا لمنهج الله مرة أخرى، كان يستلهم النص القرآني الكريم

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، ص249، وللمؤلف نفسه، سيد قطب الشهيد الحي، ص164-174.

2- ينظر: في ظلال القرآن، مج 1: ص106 و283 و287، مج2: ص718-719 و817-818 و978 و1066، مج3: ص1204-1205 و1393 و1705 و1772 و1821، مج4: ص2388، مج5: 2967، مج6: ص3479-3480 و3759 و3763-3764 و3917-3918 و4002، وخصائص التصور الإسلامي: ص11-12.

لينطق بها يدل عليه-لا بها يريد المفسر أن يُنطِقَهُ به هو بناء على مقدماته السابقة- فإن صادف أن هذا المدلول المباشر ذهب إلى مثله خارجي أو معتزلي-مثلا- فهذا تفسير للقرآن أو مدلول من مدلولاته، وليس اعتزالا أو خروجا أو هرطقة، أو غير ذلك مما يظنه بعض القراء والدارسين !!)[1].

وفعلا ذهب هذا المذهب بعض القراء والدارسين [2] وحملوا على سيد حملاتٍ شعواءَ انطلاقا من خلفياتِهم الفكرية ومقرراتِهم المسبّقة التي خُيل إليهم أنها الدينُ كلُّه وأن ما عداها اعتزالٌ وخروجٌ وإرجاءٌ وحتى ضلالٌ وإضلال، فسبحانَ الله المُتعال.

المطلب الثالث: ما قيل عنه بشأن خلْق القرآن:

قد يستغرب البعضُ أن نخصِّصَ مطلبا لمسألة خلْق القرآن عند سيد قطب !!؛ وهل فعلا يقول

1- عدنان زرزور، علوم القرآن- مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه- (ط1، بيروت: المكتب الإسلامي، 1981م)، ص431،430.

2- كربيع بن هادي المدخلي في عدة كتب له خصصها كلها لسيد قطب وهي: "أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره"، و"العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم"، و"مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ"، وعبد الله الدويش في كتابه "المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال"- وإن كان أقل تحامُلا وأكثر أدبا مع سيد من ربيع المدخلي-، إلا أن القارئ لكُتبهم لا يُعدم ملاحظة انطلاقهم من خلفية فكرية معينة تحتكر فهْم هذا الدين، وقد دافع عن سيدٍ كثيرٌ من الباحثين كصلاح عبد الفتاح الخالدي وعدنان زرزور وغيرهما.

سيد بخلْق القرآن ؟! وهل ناقضَ ما ألْزمَ به نفسَه في ظلالِه من عدم الخوض في المسائل الخلافية إنْ في العقيدة أو في الفقه أو في اللغة ؟، بل جعل وُكْدَه ربطَ المسلم بهذا القرآن وجوِّه الذي تنـزَّلَ فيه،.. ولكن أَبَى بعضُ المتحامِلين [1] إلا أن يُسَوِّد صفحات ويُثيرَها شبهةً ويلصِقَها بسيد من أمشاج كلام له في "الظلال" بعيدة كل البعد عن نتائج هذه المحاكمة المسبقة الأحكام.

وقبل أن نخوض في حيثيات هذه المسألة التي أثارها المدخلي على سيد لا بد أن نعرِّف ولو بإيجاز بهذه القضية التي شغلت حيزا مهما في العقيدة والفكر الإسلامي وأُلفت فيها الأسفار والكتب الكاملة.

قضية "خلق القرآن" يعود تاريخها إلى أواخر العهد الأُموي، ابتدعها الجعد بن درهم (وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق؛ ثم طُلب فهرب، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي نسب إليه الجهمية. وقيل إن الجعد أخذ ذلك من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ ، وكان يقول بخلق القرآن، وكان طالوت زنديقا، وهو أول من صنف لهم في ذلك، ثم أظهره الجعد بن درهم، فقتله خالد بن عبد الله القسري... يوم الأضحى بالكوفة، وكان واليا عليها، أتي به في الوثاق فصلى وخطب، ثم قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا بضحاياكم، تقبل الله منا ومنكم؛ فإني أريد اليوم أن أضحيَ بالجعد بن درهم؛ فإنه يقول: ما كلّم الله موسى تكليما، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا، تعالى الله عما يقول علوا كبيرا) [2]، ثم تلقف مقالته الجهم بن صفوان؛ فقد كان ينفي الصفات، واستتبع ذلك نفي الكلام، والقول بخلق القرآن، وبعده بقرن كامل أحْيى المقالة بشر المريسي أيام الرشيد، وورثت المعتزلة هذا القول عن الجعد والجهم، وزادوا المسألة تفصيلا، ووسّعوا فيها الجدل، حتى استقرت كدين رسمي للدولة في عهد المأمون؛ حيث قرّب المعتزلة منه وأصبحوا ذوي نفوذ عنده، فحمل الناس على القول بخلق القرآن سنة 218هـ.

واستمرت هذه الفتنة من بعد المأمون إلى عهد المعتصم، ثم إلى عهد الواثق، ثم إلى أول عهد

1- ربيع بن هادي المدخلي؛ هو الذي نسب القول بخَلْق القرآن إلى سيد قطب في كتابه "أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره"(ط1، مكتبة الغرباء الأثرية، د.ت) وقد ردَّ هذه التهمة ردًّا شافيا الشيخ بكر أبو زيد في كتابه "الخطاب الذهبي" (مكتبة السنة، د.ت)، وكذا منير المزدغي العزابي في كتابه"الكشف الجلي عن ظلمات ربيع المدخلي"(ط 1، مصر: مكتبة التراث الإسلامي، 2003م) وهو ردٌّ وافٍ على كتاب المدخلي السالف الذكر، فليرجع إليهما من أراد الاستيفاء.

2- جمال الدين بن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1998م)، ص293، 294.

المتوكل سنة 232هـ، ولم يتحمس هذا الأخير للقول بخلق القرآن، بل قد نهى عن القول بخلق القرآن في سنة 234هـ وكتب بذلك إلى الآفاق، فانطفأت الفتنة التي رجَّت الدولة والرعية.

ولقي العلماء والمحدثون صنوف العنت طول هذه المدة (218هـ- 234هـ) فحُبس وعُذب وقُتل منهم الكثير؛ وعلى رأسهم الإمام أحمد-رحمه الله تعالى- في زمن المعتصم، إذ حُبس ثمانية وعشرين شهرا، وخُلعت يداه، وضُرب بالسياط، وأوذي أشد الإيذاء، كما أوذي وعُذب الإمام البُويطي صاحب الشافعي وغيرهما[1].

وبعد، فما هذه المسألة ؟ وكيف أثيرت ؟ ولماذا ؟ وما الداعي إليها ؟

والجواب: أن المعتزلة رأوا أن عقائد الناس قد فسدت ويجب تصحيحها، وفي نظرهم أن التصحيح يجب أن يتركز على أصل التوحيد بكل معانيه وفروعه، ورأوا أن القول بقدم القرآن تعديد للقديم، كما أنكروا الصفات لأن فيها تعديدا، وأنكروا رؤية الله لأن فيها تجسيما، فأرادوا أن يلزموا الناس بعقيدتهم هذه-بعدما آل الأمر إليهم- ويحملوهم على التنزيه الذي لا تجسيم فيه، ولا تشبيه، ولا تعدد.

ولكن لماذا أثيرت مسألة خلق القرآن ولم تُثَر مسألة رؤية الله تعالى أو مسألة خلق الأفعال ونحو ذلك من مسائل الاعتزال ؟ والجواب أن (مسألة خلق القرآن كانت أوضح، وعُذر المُنكِر فيها أضعف، فإن رؤية الله يستطيع أن يهرب المجيب بأنا سنكون يوم القيامة خلقا آخر، ليست عيوننا كعيوننا في الدنيا، ولأن مسألة خلق الأفعال ليست جلية ففي القرآن آيات تدل على هذا وذاك، أما خلق القرآن فعليه الأدلة العقلية والنقلية جلية)[2] في نظر المعتزلة.

وكان موقف الفقهاء والمحدثين في المسألة ذابا عن العقيدة وحافظا لدين العامة الذين هم السواد الأعظم في الأمة من أن يُشوش عليهم بمثل هذه المسائل التي لا عهد لهم بها، فكانوا إذا سُئلوا لم يُجيبوا ولم يقولوا إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق، ولا يزيدون عن قولهم: إنه كلام الله، وأن المسألة لم تظهر في زمن الصحابة والتابعين، وكان إيمانهم مَوْفُورا بدونها فما الداعي إلى إثارتها ؟

1- ينظر: عبد الفتاح أبو غدة، مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواية والمحدثين وكتب الجرح والتعديل،(بيروت: مكتب المطبوعات الإسلامية، د.ت)، ص7، 8.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، (ط10، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، ج3، ص187.

فالمسألة إذن يكمل إيمان المؤمن بدون معرفتها والخوض في تفاصيلها وعلى ذلك لقي الصحابة والتابعون ربهم، فهي (وإن طالت ذيولها، وتفرق الناس فيها فرقا، وامتُحن بها من امتحن من أهل العلم، وظن مَن ظن أنها من أعظم مسائل الدين: ليس لها كبير فائدة، بل هي من فضول العلم ولهذا صان الله سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين عن التكلم فيها)[1].

والآن بعد هذا العرْض الموجز لمسألة خلق القرآن والجدل الذي ثار حولها؛ نعود إلى سيد قطب وهل وقع فعلا في القول بخلق القرآن ؟ أم أن المدخلي نسب إليه هذا القول اعتسافا ولَوَى أعناق نصوص الظلال لـيًّا لتخدم منهجه الذي آلى فيه نفسه أن ينسف تراث سيد نسفا ويتتبع كتبه واحدا واحدا ويستخرج أحكاما في النهاية لو وُزعت على مجموعة من المتربصين لهذا الدين لوسِعَتْهم !!!

وما لنا نتجنَّى على المدخلي ولم نعرض بعدُ محاكمتَه لسيد التي خصصَ لها سبعَ صفحاتٍ كاملات من كتابه "الأضواء"، فلنبدأ بالموضِع الأوّل من تفسير "الظلال" عند قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾[2] يقول سيد في تفسيرها: (هنا نصل إلى فكر الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخَلْقِه، وعن طريق صُدُور الخلْق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصوُّر عن هذه الحقائق جميعا.. لقد صَدَر الكونُ عن خالقه، عن طريق توجُّه الإرادة المطلقة القادرة: (كن فيكون)[3].. فتوجُّه الإرادة إلى خلْقِ كائنٍ ما كفيلٌ وحدَه بوجود هذا الكائن على [هذه] [4] الصورة المقدَّرة له، بدون وسيط من قوة أو مادة.. أمَّا كيف تتصل هذه الإرادةُ التي لا نعرف كُنْهَهَا بذلك الكائن المراد صدورُه عنها، فذلك هو السِّرُّ الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه)[5].

لا يُعلِّق المدخلي بكلمة على هذا النص ! وإنما يُضيفُ إليه نصوصا أخرى وفي آخر الحشْد يُصدِر أحكامَه التعميمية أن سيدا ينحاز (إلى صفوف خصوم أهل الحق والسنة ؛ إلى أهل البدع الكبرى من

1- محمد الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، (ط1417هـ، مكة المكرمة: مكتبة الباز)، ص11.

2- سورة البقرة، الآية 117.

3- كلمة (فيكون) حذفها المدخلي في نقله للنص ! .

4- كلمة (هذه) زادها المدخلي من عنده وغير موجودة في النص ! .

5- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص106.

الجهْمية والخوراج والمعتزلة، الذين يقولون تلك المقولة الضالة: "إن القرآن مخلوق")[1].

هل يُستشَفُّ من هذه الفقرة التي نقَلَها المدخلي أية عبارة تشي بخلق القرآن ؟ أيعني قول سيد: (لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة (كن فيكون)) ؟، إن كان ذلك (فالمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خَلْقية، وإرادة دينية أمرية شرعية)[2].

ثم نقل نصا آخر لسيد في نفس الموضوع وهو قولُه: (عن إرادة هذا الإله الواحد يصدُر الكونُ بطريق واحد ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ ﴾[3] فلا واسطةَ بين الإرادة الموجِدة والكون المخلوق، ولا تعدُّد في الطريقة التي يصدُر بها هذا الكونُ كلُّه عن الخالق الواحد، إنها مجرد الإرادة التي يعبِّر عنها القرآن بكلمة (كُنْ)، وتوجُّه هذه الإرادة كافٍ وحدَه لصُدُور الكون عنها)[4]، فأين هي العباراتُ الموهِمة لسيد قطب بالقول بخلْق القرآن ؟ اللهم إلا إنْ كان المدخلي استنبطَ من قول سيد في تفسير قوله تعالى: (كن) هو توجُّه الإرادة (والإرادة قبل خلق الكون لم تكن متجهة، فقول (كن) لم يكن موجودا، ثم أوجده الله، إذن فكلمة (كن) مخلوقة، وبالتالي فكلام الله مخلوق، إذن فالقرآن مخلوق ! "وربح البيع أبا يحيى"[5] إن سيد قطب يقول بخلق القرآن !!

معذرة يا دكتور ! لا تظنن بنا السوء، ولكنك جنيتَ على نفسك وعلى عقلك !!)[6].

ثم ينقل نصا آخر لسيد من "الظلال" وهو قوله: (وكما أن الروح من الأسرار التي اختص الله بها، فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته، ولا يملك الإنس والجن-وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي- أن يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ

1- ربيع بن هادي المدخلي، أضواء إسلامية عل عقيدة سيد قطب وفكره، ص140.

2- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص60.

3- سورة يس، الآية 82.

4- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص؟؟؟ .

5- رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (228/3) مرسلا، والحاكم(400/3)، والطبراني في "الكبير" (7296/8)، وابن عساكر في"تاريخ دمشق"(228،229/24) من طرق عن سعيد بن المسيب، عن صهيب مرفوعا.

6- منير المزدغي العزابي، الكشف الجلي عن ظلمات ربيع المدخلي، ص189.

أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1]؛ فهذا القرآن ليس ألفاظا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها؛ إنما هو كسائر ما يُبدعه الله يعجز المخلوقين أن يصنعوه، فهو كالروح من أمر الله، لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره)[2].

يضع المدخلي هامشا على قول سيد (فهذا القرآن ليس ألفاظا وعبارات) ويحيل قائلا: (قوله عن القرآن: "ليس ألفاظا وعبارات" هو كقول الأشعرية: "إن القرآن ليس بحرف ولا صوت" والأشعرية تعترف بالكلام النفسي لله، وسيد لا يقول بذلك، بل يقول: "إن كلام الله هو الإرادة")[3].

هل نجد هذا الاستنتاج الذي طلع علينا به المدخلي -في الفقرة كلها-؟، هل قال سيد أن (كلام الله هو الإرادة)؟ وهل إذا قال بما قالت به الأشعرية -جدلا- يحمل عليه بهذه الحمْلة ؟ أليس الأشعريةُ من جملة أهل السنة والجماعة ؟ مَنْ ذَا الذي يتهم الأمَّةَ كلَّها في دينِها وعقيدتِها على مدى قرون وهي في معظمها أشاعرةٌ أو ماتريدية ، فالمالكية والشافعية أشاعرة، والحنفية ماتريدية، والجامعات الدينية في العالم الإسلامي أشعرية أو ماتريدية: الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، وديوبند في الهند، وغيرها من المدارس والجامعات الدينية.

(فلو قلنا: إن الأشاعرة ليسوا من أهل السنة، لحكمنا بالضلال على الأمة كلها أو جلها، ووقعنا فيما تقع فيه الفرق التي نتهمها بالانحراف.

ومَن ذا الذي حمل لواء الدفاع عن السنة ومقاومة خصومها طوال العصور الماضية غير الأشاعرة والماتريدية ؟ وكل علمائنا الكبار كانوا من هؤلاء: الباقلاني، الإسفراييني، إمام الحرمين الجويني، أبو حامد الغزالي، الفخر الرازي، البيضاوي، الآمدي، الشهرستاني، البغدادي، ابن عبد السلام، ابن دقيق العيد، ابن سيد الناس، البلقيني، العراقي، النووي، الرافعي، ابن حجر العسقلاني، السيوطي.

ومن المغرب: الطرطوشي، المازري، الباجي، ابن رشد (الجدّ)، ابن العربي، القاضي عياض، القرطبي، القرافي، الشاطبي، وغيرهم.

1- سورة الإسراء، الآية 88.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص2249 ،2250.

3- ربيع بن هادي المدخلي، أضواء على عقيدة سيد قطب وفكره، ص137، هامش3.

ومن الحنفية: الكرخي، الجصاص، الدبوسي، السرخسي، السمرقندي، الكاساني، ابن الهمام، ابن نُجيْم، التفتازاني، البزدوي، وغيرهم)[1]

نعود إلى عبارة سيد قطب، ففي تفسيره للآية الآنفة الذكر يشبِّه القرآن بالروح في قوله: (فهو كالروح من أمر الله، لا يدركُ الخلْق سِره الشامل الكامل) ولم يقُل كلام الله هو الإرادة كما استنتج المدخلي، ويعلِّق أحد الباحثين على نفس الموضع من كلام سيد قائلا: (وأما الروح فليست من صفات الله وإنما تُضاف إليه إضافة خلْق، لكونه خلَقَها وأوْجَدها، إلا إنْ قصد [سيد قطب] بتشبيهه بها عجْز الخلق عن يأتوا بمثل القرآن كما يعجزون عن معرفة الروح فهذا حق، والله أعلم)[2].

ثم ينقل المدخلي نصا آخر عن سيد، وفي هذه المرة يعلق عليه ويستدل بآيات في سياقها مُلفتا نظر سيد إليها وكيف غفل عنها ! ونسي أن سيدا فسر القرآن كاملا وفصَّل فيها القول تفصيلا.

نفصِّل الآن ما أجْملناه؛ ينقل المدخلي تفسير سيد لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴿١٢﴾ ﴾[3] وهو: (نُودي بهذا البِناء للمجهول، فما يمكن تحديد مصدر النداء، ولا اتجاهه، ولا تعيين صورته ولا كيفيته، ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه، نودي بطريقة ما، فتلقى بطريقة ما، فذلك من أمر الله الذي[4] يؤمن بوقوعه، ولا نسأل عن كيفيته لأن كيفيته وراء مدارك البشر)[5]، هنا يطلق المدخلي العنان لقلمه ويعلق قائلا: (هذا قول من لا يؤمن ولا يتصور أن الله كلم موسى تكليما، لأنه لا يؤمن بأن هذا النداء من الله، وهل هو يجهل تصريح الله تعالى بقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ

1- يوسف القرضاوي، الإخوان المسلمون، ص344.

2- عبد الله الدويش، المورِد الزُّلال في التنبيه على أخطاء الظلال، (ط1، مصر: مكتبة المحجة البيضاء، 2004م)، ص121، والدويش في كتابه هذا متأدب في التعامل مع سيد، وهكذا تكون أخلاق العلماء.

3- سورة طه، الآية 11، 12.

4- حذف المدخلي كلمة (الذي) وأبدلها بفاصلة ! .

5- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص2330، 2331.

6- سورة النساء، الآية 164.

7- سورة النازعات، الآية 16.

رَبُّهُۥ ﴿١٤٣﴾ [1]... وهذا تشكّك وتشكيك بالغ النهاية، وفيه تأييد لمذاهب أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والخوارج، وخذلان لمذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة، ثم ما فائدة تمويهه بقوله: (فذلك من أمر الله الذي نؤمن بوقوعه) وهو لا يؤمن بأن مصدره هو الله، ولا يؤمن بسماع موسى كلام الله) [2]

أَلَا إن سيدا في واد والمدخلي في واد آخر، فكيف نحكُم على نيات الناس ونشطب على صريح أقوالهم ونبحث عن العبارات الموهمة بحَدَقات واسعة !!، فسيد يقول بملء فيه: (فذلك من أمر الله الذي نؤمن بوقوعه) والمدخلي يقول: (ثم ما فائدة تمويهه بقوله هذا)، أليس هذا تجنِّيا ؟! فإنْ لم يكُنْ فما هو التجني ؟!

ثم لنرجع إلى تفسير سيد للآيات التي دلَّلَ بها المدخلي ليستقيم الحكم ولا نُتهَمَ نحنُ في بحثنا بالغلو أو الدفاع من أجل الدفاع أو بالتحامُل على المدخلي.

هل نفى سيدٌ تكليمَ الله لموسى؟ في قوله تعالى: (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا) يقول في تفسيرها: (وإذا كان اللهُ قد كلَّمَ موسى تكليما فهو لونٌ من الوحي، لا يعرف أحدٌ كيف كان يتم، لأن القرآن-وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى الشك إلى صحته- لم يُفصل لنا في ذلك شيئا، فلا نعلم أنه كان كلاما، ولكن ما طبيعتُه ؟ كيف تمَّ ؟ بأية حاسَّة أو قوة كان موسى يتلقاه ؟ كل ذلك غيبٌ من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن) [3]، فها هو سيد يقول بصريح العبارة (فلا نعلم إلا أنه كان كلاما) فإذن هو لا يُنكر الكلام، بل يربأ بنفسه عن أن يخوض في كيفية الكلام التي هي غيبٌ من الغيب الذي لم يفصِّل فيه القرآنُ، وأيُّ مفسِّر يجرؤُ على الخوض في الكيفية ؟!

وفي الآية الثانية: (إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى) يقول: (ولحظة النداء لحظةٌ رهيبة جليلة، وهي لحظةٌ كذلك عجيبة، ونداء الله بذاته-سبحانه- لعبد من عباده أمرٌ هائل، أهْوَل مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر، وهي سر من أسرار الألوهية العظيمة، كما هي سر من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها اللهُ هذا الكائنَ، وهيأه بها لتلقي ذلك النداء، وهذا أقْصى ما نملك أنْ نقولَه في هذا المقام، الذي لا يملك

1- سورة الأعراف، الآية 143.

2- ربيع بن هادي المدخلي، أضواء إسلامية، ص139.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص805.

الإدراكُ البشري أنْ يحيطَ منه بشيء فيقف على إطاره) [1]، وها هو أيضا يقولُها صريحةً: (ونداء الله- سبحانه- لعبْد من عبادِه أمرٌ هائل)، فهو لا يُنكر النداءَ، وإنما يُحْجِم عن الخوض في تفاصيل النداء وكيفيته وهيأة التلقي من موسى عليه السلام لنداء الله تعالى في الدنيا.

وفي الآية الثالثة: (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ) يقول: (المشهد الفذُّ الذي اختص الله به نبيَّه موسى-عليه السلام- مشهد الخطاب المباشر بين الجليل-سبحانه- وعبد من عباده؛ المشهد الذي تتصل فيه الذَّرَّة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الأبدي بلا وَسَاطة، ويطيق الكائن البشري أن يتلقى عن الخالق الأبدي، وهو بعْدُ على هذه الأرض، ولا ندري نحن كيف، لا ندري كيف كان كلام الله- سبحانه- لعبده موسى، ولا ندري بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله، فتصوير هذا على وجه الحقيقة مُتعذرٌ علينا نحنُ البشر المحكومين في تصوراتنا بنصيبنا المحدود من الطاقة المدرِكة وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعية)([2])، وها هو سيدٌ مرةً أخرى ينصُّ صراحة على الخطاب المباشر بين الجليل-سبحانه- وموسى -عليه السلام- بدون وساطة، ولكن في الكيفية دائما يكف قلمه عن الخوض في التفاصيل ويقف عند حدود طاقته الإنسانية المدرِكة التي لا تُحيط بها وراء حدودها من عوالم الغيب التي اختص بها خالقُها، أليس هذا هو المنهجُ الذي ارتضاه المفسرون عن بَكْرة أبيهِم إلا من شذَّ منهم من غُلَاة التفسير الإشاري والمذْهبي !

ها قد عرضْنا المواضع كلها من "الظلال" فهل على أيٍّ منها أَمارة في تأييد سيد لمذاهب أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والخوارج وخذلانا لمذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة كما يدَّعي المدخلي ؟!

وهل أَنْكَرَ سيدٌ كلامَ الله تعالى لموسى ؟ وهل قال بأن القرآن مخلوقٌ ؟ اللهم لا، ويشهد لهذا كل مُنصف موضوعي بعد قراءته لكلام سيد.

ونختم كلامنا بشهادة للشيخ بكر أبي زيد في "خطابه الذهبي" مخاطبا المدخلي: (ومن عناوين الفهرس: "قول سيد بخلق القرآن وأن كلام الله عبارة عن الإرادة "، لما رجعتُ إلى الصفحات المذكورة

1- المصدر السابق، مج6، ص3814.

2- المصدر نفسه ، مج3، ص1368.

لم أجد حرفا واحدا يصرح فيه سيد-رحمه الله تعالى- بهذا اللفظ "القرآن مخلوق"، كيف يكون هذا الاستسهال للرمي بهذه المكفرات ؟ إن نهاية ما رأيت له تمدد في الأسلوب كقوله: (ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها-أي الحروف المقطعة- مثل هذا الكتاب لأنه من صنع الله لا من صنع الناس))[1].

فالحق أَبْلج والباطل لجْلَج، وهذه التهمة-ويحق لنا أن نسميها تهمة بعد هذا العرْض المفصل لأقوال سيد- لا نعلم أحَدًا أثارَها قبل المدخلي، و "الظلال" ذائع الصِّيت لا تكاد تخلو مكتبة عالمٍ منه، ولو كانت فيه مِثلُ هذه الطامَّات التي تخيَّلها المدخلي بخياله الواسع لما سكتوا عنها ولَتَقرَّبوا إلى الله تعالى بالتنبيه عليها والتحذير منها.

المبحث الثالث: السُّنَّة النبوية الشريفة

المطلب الأول: السُّنة الصحيحة:

1- بكر أبو زيد، الخطاب الذهبي، ص8 ،9.

السنة النبوية الشريفة هي المصدرُ الثاني لهذا الدين بعد القرآن الكريم، فالقرآن حَوَى القواعد والأصول الأساسية للإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وسلوك وآداب، والسُّنَّة بيَّنتْ ذلك وفصَّلتْه؛ فهي بمثابة التطبيق العملي للقرآن كلِّه بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]، فالامتثال لما جاءت به من أحكام وتوجيهات واجبٌ على المسلِم، وطاعة الرسول ﷺ فيما بيَّنه للناس كطاعته فيما بلَّغه من آيات القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2]، وطاعته طاعة لله عز وجل ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴿٨٠﴾ ﴾[3]، والاحتكامُ إليه محكٌّ للإيمان ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[4].

وأما الأحاديث فهي كثيرةٌ في وجوب طاعته والاقتداء به ﷺ، ومن ذلك ما رواه العِرباض بن سارِية قال: (صلى بنا رسولُ الله ﷺ الصبْحَ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعَظَنا موعظةً بليغة، ذرفَتْ منها العيونُ وَوَجِلتْ منها القلوبُ، فقال قائلٌ: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تعهَد إلينا ؟ قال: "أُوصِيكم بتقوى الله والسمْع والطاعة–وإن عبْدا حبشيا مُجدَّعا– فإنه مَن يَعِشْ منكم، فسيرى اختلافا كبيرا، فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين فتمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنَّواجِذ، وإياكم ومُحدَثات الأمور فإن كلَّ مُحدَثة بِدعة، وكلَّ بِدعة ضَلالة")[5].

كما تجب طاعته ﷺ على مَن بلَغَه أمرُه ونهْيُه لحديثه ﷺ : (ليبلِّغ منكم الشاهدُ الغائبَ فرُبَّ مُبلَّغ

1- سورة النحل، الآية 44.

2- سورة النساء، الآية 59.

3- سورة النساء، الآية 80.

4- سورة النور، الآيات 47-51.

5- حديث صحيح: أخرجه أبو داود (4607) والسياق له، وأحمد (4/126، 127)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (43، 44)، والدارمي (1/44، 45)، والحاكم(1/95- 97).

أَوْعى مِن سامِع) [1]، وكثيرٌ من الأحاديث التي لا يتَّسع المجالُ لذكرِها في حُجِّية السنة النبوية الشريفة ومنزِلتِها العظيمة من هذا الدين.

وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على الرجوع إلى السنة في الأحكام الشرعية بعد القرآن الكريم، ومضى على ذلكَ الخلفاءُ الراشدون ومَ ن بعدهم ولا حاجة لنا أن نستقصي مواقفَهم منها فهي معروفةٌ ومظانُّها مشهورة[2]

ومَن يتتبَّعْ كتابات سيد قطب ويستقرئْها - وعلى رأسها الظلال- يجده من الشغوفين بالسنة والسيرة النبويتيْن، فلا تمرُّ عليكَ صفحةٌ إلا وقد وُشِّـيَتْ بحديث نبوي شريف أو أثر لصحابي جليل أو قُطوف من سيرة المصطفى ﷺ .

وقد اتخذ سيدٌ منهجا لنفسِه في تفسير آيات العقيدة والأمور الغيبية إجمالا؛ وهو ألاَّ يخوضَ فيها بتفصيل إلا إذا رَكَنَ إلى آيات قرآنية أخرى تُفسِّر غامضَها أو إلى أحاديثَ صحيحة وردتْ في شأنها، فإنْ لم يجِدْ منها ما يُزيلُ تردُّدَه توقفَ عن الخوض فيها بعقلِه واحترم حدودَه البشرية التي لا تَطالُ مداركُها الأمورَ الغيبيةَ، وسنعرِضُ هذه المواضع التي توقَّفَ فيها وأحْجمَ عن التفصيل فيها ولم يكن بِدْعا في ذلكَ وإنما سبَقَه إلى موقفه هذا كوكبةٌ من المفسرين والعُلماء.

أما كُتُب الحديث فقد اعتمد جُلَّها في الاستشهاد بها؛ فنجدُه ينقُلُ من صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وموطأ مالك ، وسُنن الترمذي ؛ والنَّسَائي ، وأبي داود ، وابن ماجه، ومسانيد أحمد ، والدارمي، والبزار ، والديلمي، ومعجم الطبراني، ودلائل النبوة للبيهقي، والمستدرك للحاكم، وغيرها[3] في إثبات ما يذهب إليه من تفسيره "الظلال" وفي كتبه الأخرى خاصة في مواضيع العقيدة.

طريقتُه في إيراد الأحاديث:

1- حديث صحيح: أخرجه البخاري(1741) من حديث أبي بكرة مرفوعا.

2- من أراد الاستقصاء فعليه بـ"أعلام الموقعين عن رب العالمين" لابن القيم، و"الدُّرّ المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي، و"مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنة" للسيوطي وغيرها.

3- ينظر على سبيل المثال: الظلال: مج 1، ص128 و144-145 و169-170 و188-189 و197-198 و439 و504-505، مج2، ص672 و899 و987، مج3، ص1740-1741 و1474 و1727، مج5، ص3020، مج6، ص3338 و3348 و3426 و3614-3615. وغيرها فلا مجال لمن يتهم الظلال بأنه لا يعتمد الأحاديث وإنما هو تفسير أدبي!!!

أما طريقتُه في إيراد الأحاديث فهي على ثلاثة أَضْرُب:

1- يذكُر الأحاديثَ بألفاظها وأسانيدها، 2- يذكر المتن دون الإسناد، 3- قد لا يذكر شيئا في معرض تفسيره لآيات العقيدة والغيبيات إذا لم يجد ما يطمئن إليه من الأحاديث الصحيحة، ونأى بنفسه عن النقْل من الإسرائيليات التي حُشِيَتْ بها بعضُ التفاسير، ونقْلِ ما لا أصل له من القصص والمرْويَّات.

وهكذا ألْزمَ نفسَه الاستشهادَ بالصحيح والحَسَن لا يَعْدُوهُمَا، وقد أحصى أحَدُ الباحثين [1] أحاديثَ "الظلال" في تخريجِه لها فبلغتْ أكثر من تسعمائة حديث وأثر، خرَّجها كلَّها ووضع لها فهارِسَ في آخِر كتابه، وهي لا شك خدمةٌ جليلةٌ للظلال جَزَى اللهُ صاحبَها خيرا، عَدَا كتبه الأخرى التي تبلغ أربعة وعشرين كتابا؛ جُلُّها في الإسلاميات وفيها كمٌّ هائل من الأحاديث الصحيحة.

نعرض الآن بعض المواضع التي يسمح بها المجالُ في استشهاد سيد بالسنَّة الصحيحة فيما يعرض من أمور العقيدة والغيبيات وكيف التزم منهجَه الذي أسلفنا فيه في النَّأْيِ بنفسِه عن غير الصحيح من الروايات.

1- ذكره الأحاديثَ بألفاظها وأسانيدها:

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [2]، يعلق سيدٌ على القصة قائلا: (وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن قابيل وهابيل وأنهما هما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أختيْن لهما، فإننا نؤثر أن نستبقي القصة-كما وردت- مجملةً بدون تحديد، لأن هذه الروايات كلها موضع شك في أنها مأخوذة

1- هو الباحث علوي السقاف في كتابه: تخريج أحاديث وآثار كتاب"الظلال"ليسد قطب،(ط1، السعودية: دار الهجرة،1991م).

2- سورة المائدة، الآيات 27-30.

عن أهل الكتاب- والقصة واردةٌ في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذي تذكره هذه الروايات- والحديث الوحيد الصحيح عن هذا النبأ لم يرِدْ فيه تفصيلٌ وهو من رواية ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تُقتل نفْسٌ ظُلْما إلا كانَ على ابن آدم الأوَّل كِفْلٌ من دَمِها، لأنه كان أوَّلَ مَن سَنَّ القتلَ) [1] رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود، وأخرجه الجماعة-سوى أبي داود- من طريق الأعمش) [2]، فالقصةُ مذكورةٌ بتفصيلاتِها، محددةٌ فيها الأسماءُ والزمانُ والمكانُ في العهد القديم، ولكن سيدًا يُعرِض عن كلِّ هذا ويُوَلِّي وجهَهُ نحوَ السنَّة الصحيحة ولا يجد فيما ورد في القصة إلا هذا الحديث الصحيح فيورده مُسنَدًا.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [3] يقول سيد: (وتختلف الرواياتُ والمفسرونَ في شأن هذه الألواح، ويصفُها بعضُهُم أوصافا مفصَّلةً-نحسَب أنها منقولة من الإسرائيليات التي تسرَّبت إلى التفسير- ولا نجدُ في هذا كلِّه شيئا عن رسول الله ﷺ، فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعدَّاه ، وما تزيدُ تلك الأوصافُ شيئا أو تنقص من حقيقة هذه الألواح، أمَّا مَا هيَ وكيف كُتبتْ فلا يعْنينا هذا في شيءٍ بما أنَّه لم يرِدْ عنها من النصوص الصحيحة شيءٌ) [4]، هكذا يستغني سيد عن هذه الإسرائيليات التي لا تزيدُنا تفاصيلُها شيئا عن المعاني العامَّة التي وردَ ذِكرُها في القرآن الكريم، ولا يتعدَّى النص القرآني إذا لم يجدْ ما يفصِّلُه من السنَّة الصحيحة.

1- حديث صحيح على شرط الشيخين: رواه البخاري(3335)،(7321) ومسلم(1677) والترمذي(2673) والنسائي(81،82/7) وابن ماجه(2616) من طرق عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود مرفوعا.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص875.

3- سورة الأعراف، الآية 145.

4- المصدر نفسه، مج3، ص1370.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [1]. يقول سيد: (إنها قضيةُ الفِطرة والعقيدة يعرضها السياقُ القرآنيُّ في صُورةِ مَشهد-على طريقة القرآن الغالبة- وإنه لمشهدٌ فريدٌ؛ مشهد الذُّرِّية المكْنونة في عالَم الغيب السحيق، المستكنَّة في ظُهُور بني آدم قبل أن تظهَرَ إلى العالَم المشهود؛ تؤخذ في قبضة الخالِق المربي، فيسألُها: ألستُ بربِّكم ؟ فتعترفُ له -سبحانه- بالربوبية، وتُقِرُّ له -سبحانه- بالعُبودية، وتَشهد له -سبحانه- بالوحدانية، وهي منثورة كالذَّرِّ، مجموعةٌ في قبضة الخالق العظيم)[2] .

وهنا يأتي سيد بحشْد كبير من الاستشهادات بالسنة الصحيحة فيذكر روايةَ ابن جرير وينقلُ ما ذكره ابن كثير في تفسيره للآية -على طوله- ويعرض الأحاديث التي ذكرَها بأسانيدِها، ثم يتلُوهُ بحديث أبي هريرة في الصحيحين: (كل مولودٍ يولَدُ على الفِطرة فأبَوَاه يُهوِّدانِه وينصِّرانِه ويمجِّسانِه كما تولد بهيمة جمعاء هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاء) [3]، ثم بحديث عياض بن حمار في صحيح مسلم: (يقولُ اللهُ إني خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ، فجاءتهم الشياطينُ فاجْتَالَتْهُم عن دينِهِم، وحرَّمتْ عليهِم ما أحلَلْتُ لهم)[4] ثم ينقل حديثا طويلا بإسناده عن أبي جعفر بن جرير، وهكذا يستغرقُ استشهادُه بالسنة الصحيحةِ في هذه الآية العَقَدية حواليْ صفحتيْن من "الظلال"، ثم يختِمُ هذه النقولَ والاستشهاداتِ ببيان ما يم يلُ إليه هوَ في تفسيرِه من معنى الإشْهاد فيقول: (ونحنُ لا نستبعدُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ... ﴾ الآيات، على وجْهِه لا على سبيل الحال ، لأنه في تصورِنا يقع

1- سورة الأعراف، الآيات 182-184.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1392.

3- حديث صحيح: أخرجه البخاري(6599) ومسلم(24، 2568) والبغوي في"شرح السُّنَّة"(84) من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

4- حديث صحيح: أخرجه مسلم(63، 2865) عن عياض بن حمار المجاشعي مرفوعا.

كما أخبرَ عنه اللهُ سبحانه، وليس هناك ما يمنعُ أن يقع حين يشاؤُه، ولكنا كذلك لا نستبعدُ هذا التأويلَ الذي اختارَه ابن كثير، وذكره الحسن البصري واستشهدَ له بالآية، واللهُ أعلمُ أيَّ ذلكَ كانَ)[1]، وهنا نلاحظُ سيدًا نأى بنفسه عن التأويل بلْ مالَ إلى أن الأمرَ من أخْذ وإشْهاد هو على وجهِهِ الذي ذُكر في الآية؛ لا على سبيل الحال لأنه ليس هناك ما يمنعُ وقوعَه حين يشاء الله تعالى ، كما أنه لا يستبعدُ تأويلَ ابن كثير للآية الذي استقاه من الحسن البصري، وهذا هو منهجُ سيدٍ في الآيات التي تتناولُ المسائلَ الغيبية، فهو دائما يميل إلى إمرارِها كما جاءتْ إلا فيما لا مناصَ لتأويلِه منها، وسنعرض المواضِعَ التي أوَّلَ فيها في مباحثِها.

وفي تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2] يقول سيد: (ولقد وردتْ في هذه الآيةِ والحادث الذي تشيرُ إليه عدةُ آثارٍ ليس من بينِها حديثٌ عن رسول الله ﷺ إلا ما رواه مالك في الموطأ: حدثنا أحمد بن الفرج، قال: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، قال: حدثنا مالك، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز: أن رسول الله ﷺ قال: (ما رُئِيَ إبليسُ يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدْحر ولا أغيظ من يوم عَرَفة، وذلك مما يَرَى من تنـزيل الرحمة والعفو عن الذنوب، إلا ما رأى يوم بَدْر) قالوا: يا رسول الله وما رَأَى يوم بدر ؟ قال: (أَمَا إنه رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكةَ) وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، وهو ضعيف الحديث، والخبر مُرسَل)[3].

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1394.

2- سورة الأنفال، الآية 48.

3- المصدر نفسه، مج3، ص1530.

وبعد نقْل هذا الأثر بإسناده وذكر ضعف الحديث وأنه مرسل، يسرُدُ الآثارَ التي رُويتْ عن ابن عباس-رضي الله عنهما- بأسانيدها-على طولِها- وهي ثلاثةٌ، ثم يؤكدُ على المنهجِ الذي ألْزمَ به نفسَه في الظلال-في آخر نُقُوله- وهو أنه لا يفصِّلُ في الأمورِ الغيبيةِ ومسائلِ الاعتقادِ ما لم يردْ نصٌّ قرآنيٌّ آخرُ مفسِّر لها أو حديث صحيح يُحتجُّ به لمثل هذه المسائل، يقول سيد: (ونحن-على منهجِنا في هذه الظلال-لا نتعرضُ لهذه الأمورِ الغيبية بتفصيلٍ لم يَرِدْ به نصٌّ قرآني أو حديث نبوي صحيحٌ متواتر، فهيَ من أمور الاعتقاد التي لا يُلتزَمُ فيها إلا بنصٍّ هذه درجتُه، ولكننا في الوقت ذاته لا نقفُ موقفَ الإنكار والرفض)[1] وإنما يقف عند الكيفية ولا يجزمُ بها لأن النصَّ لا يذكرُ الكيفيةَ إنما يُثبِتُ الحادثَ، ولا يميل إلى المنهج الذي تتخذُه مدرسةُ الشيخ محمد عبده في التفسير ؛ من محاولة تأويل كلِّ أمرٍ غيبي تأويلا يَنفي الحركةَ الحِسية عن هذه العوالِمِ[2] .

ثم يذكر تفسير الشيخ رشيد رضا لهذه الآية ؛ وكيف أوَّلَ قوْل الشيطان بالوسوسة ، وكيف فسَّر أفعالَ الملائكة بأنها مجرد مُلابسة لأرواح المؤمنين، وجزَم في موضع آخَرَ بأنها لم تقاتِل يوم بدْر على الرغم من قوله تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾[3]، ومثلُه تفسير (الطير الأبابيل) بأنها ميكروبات الجُدَري-في تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عمَّ، يرى سيدٌ أن هذا كلَّه (مبالغةٌ في تأويل هذه النصوص المتعلِّقة بأمور غيبية، حيث لا ضرورةَ لهذا التأويل، لأنه ليس هناكَ ما يمنعُ من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها ، وكل ما ينبغي هو الوقوفُ وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة؛ وهو المنهج الذي اتخذناه فعلا)[4].

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1531.

2- المصدر نفسه، مج3، ص1531.

3- سورة الأنفال، جزء من آية 12.

4- المصدر نفسه، مج3، ص1532.

أليس هذا هو منهجُ السلف في التعامُل مع النصوص ؟، أليس هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة ؟ وسنعرض لجُملة من المواضِع التي طبَّق فيها سيدٌ منهجَه هذا فيها في حينها.

2 ـ ذكره المتن دون الإسناد:

وفي موضعٍ آخرَ يوفِّق سيد بيْن الآيةِ والحديث اللذين يبدو ظاهرهُما متعارِضا كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) ﴾[1] مع قوله ﷺ : (لنْ يدخلَ أحدٌ منكمُ الجنَّةَ بعملِه، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله ؟ قال: ولا أَنَا، إلَّا أنْ يتغمَّدَني اللهُ برحمةٍ منهُ وفضْلٍ)[2]، فكيف نوفِّقُ بين قول الله تعالى: ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وبين قول النبي ﷺ (لن يدخلَ أحدٌ منكم الجنةَ بعملِه ؟ أليسَ هذا تعارُضًا ؟، يقول سيد: (وليس هناكَ تناقضٌ ولا اختلافٌ بين قولِ الله سبحانه في هذا الشأنِ، وقولِ رسولِه ﷺ وهوَ لا ينطقُ عن الهَوَى، وكلّ ما ثار من الجدل حول هذه القضيةِ بين الفِرَق الإسلامية لم يقُم على الفهْم الصحيح لهذا الدِّين، إنما ثارَ عن الهوى ! فلقد علِمَ اللهُ من بني آدمَ ضُعفَهم وعَجزَهم وقُصورَهم عن أنْ تفي أعمالُهم بحقِّ الجنَّة، ولا بنعمة واحدةٍ من نِعَمِه عليهم في الدنيا، فكتبَ على

1- سورة الأعراف، الآيات 42، 43.

2- حديث صحيح: ورد من حديث أبي هريرة وعائشة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة، أما حديث أبي هريرة فأخرجه: البخاري (5673، 6463) ومسلم (72، 73، 74، 75، 76، 2816) وابن ماجه (4201) ابن حِبان (350، 660) وغيرهم.

نفسِه الرحمةَ، وقَبِلَ منهم جُهدَ المُقِلِّ القاصِر الضعيف، وكتبَ لهم به الجنةَ فضْلا منهُ ورحمةً، فاستحقُّوها بعملِهم ولكنْ بهذه الرحمةِ)[1].

فالعملُ وحدَه ليس سببًا في دُخول الجنةِ ، لأنه لا تَقابُلَ بين العمل الضعيفِ الفاني المحدودِ والجنةِ الأبديةِ التي عرضُها السماواتُ والأرضُ، كما أن الرحمةَ أيضا من أرْحمِ الراحمينَ الذي يعلمُ السرَّ وأخْفى، فدخولُ الجنةِ لا يكونُ استحقاقًا بالعملِ ولكن تفضُّلا من الله تعالى برحمتِه.

3 – **لا يذكر شيئا إذا لم يجد ما يطمئن إليه من الأحاديث :**

ونختم مواضعَ استشهادِنا بتفسير سيد لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[2] فلا يذكرُ أحاديثَ صحيحةً في شأن الكرسي والعرْش فيقول: (وقد جاء التعبيرُ في هذه الصورةِ الحِسيةِ في موضع التجريد المطلَق؛ على طريقةِ القرآنِ في التعبيرِ التصويري، لأن الصورةَ هنا تمنحُ الحقيقةَ المراد تمثيلها للقلب قوةً وعُمقا وثَبَاتا، فالكرسي يستخدمُ عادةً في معنى المُلْك، فإذا وسعَ كرسيُّه السماواتِ والأرضَ فقد وسِعَهُما سُلطانُه، وهذه هي الحقيقةُ من الناحية الذهنية، ولكن الصورةَ التي ترتسمُ في الحِسِّ من التعبيرِ بالمحسوسِ أثْبتُ وأمْكَن... ويحسُنُ أن أضيفَ هنا أنني لم أعثُر على أحاديثَ صحيحةٍ في شأن الكرسي والعرش تفسِّر وتحدِّد المرادَ مما وردَ منها في القرآنِ، ومن ثم أُوثِرُ أن لا أخوضَ في شأنِها بأكثرَ مِن هذا البيانِ)[3] .

وهكذا يلتزمُ سيدٌ منهجَه في عدم الخوضِ في آياتِ الاعتقادِ التي لا تفسرُها آياتٌ أخرى أو أحاديثُ صحيحةٌ؛ خاصةً فيما يتعلق بالله –سبحانه وتعالى– والعرش والكرسي وكل الغيبيات التي أُجمِلَ ذِكرُها في القرآن الكريم.

1– سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1291.

2– سورة البقرة، الآية 255.

3– سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص290.

ويتضحُ منهجُه هذا جليًّا في تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿٥٤﴾﴾[1] إذ يقولُ: (فإذا كان اللهُ -سبحانه- ليس كمثلِه شيءٌ، توقفَ التصورُ البشري إطلاقا عن إنشاءِ صورة معيَّنة لذاتِه تعالى، ومتىَ توقفَ عن إنشاء صورة معيَّنة لذاته العلِيَّة فإنه يتوقفُ تَبَعا لذلكَ عن تصور كيفيات أفعالِه جميعًا... ومن ثم تصبح أسئلةٌ كهذه: كيف خلَقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ ؟ كيف استوَى على العرشِ ؟ كيف هذا العرشُ الذي استوى عليه اللهُ سبحانه وتعالى ؟! تصبحُ هذه الأسئلةُ وأمثالُها لغْوًا يخالفُ توجيهُها قاعدةَ الاعتقادِ الإسلامي)[2] وإذا تقرَّر هذا؛ فسيدٌ في تفسيره على اعتقاد السَّلَف من التنْـزيه وتفويض الحقيقة إلى الله تعالى في مثل هذه الآيات، فلا يجوزُ إثباتُ الكيفية لأن الشرْعَ لم يرِدْ بذلك، ولا أخبرَ النبيُّ ﷺ فيه بشيءٍ، ولا سألتْهُ الصحابةُ عنهُ ، ولأن ذلك يرجع إلى التنقُّل والتحوُّل وإشغال الحيِّز والافتقار إلى الأماكن، وذلك يَؤُولُ إلى التجسيم وإلى قِدم الأجسام وهذا كُفرٌ عند كافة أهل الإسلام[3].

من هذه الأمثلة[4] التي أوْرَدْناها يتبينُ لنا كيف كان يرجع سيدٌ إلى أحاديثِ رسول الله ﷺ ليفسِّرَ بها النصوصَ القرآنيةَ العَقَدية؛ أو التي تناولت المسائلَ العقدية والتي لا مجال لمعرفتِها إلا بالسنَّة الصحيحة المبيِّنة للقرآن الكريم، فإنْ لم يجدْ فيها الصحيحَ أعْرَضَ عن الضعيف ولم يُدْرجْه في تفسيرِه لأن الأمرَ خطيرٌ وهو الاعتقادُ الذي تَنْبَنِي عليه كل تصوراتِ المسلِم ومفاهيمِه وقِيَمه، أما الإسرائيلياتُ الكثيرةُ الواردةُ في مِثلِ هذه المسائل فلا يَلتفتُ إليها أبدا، بل ينصُّ عليها أحيانا مُحذِّرا منها في معرض تفسيره.

وقد اقتصرْنا على الظلال في إيرادِ شواهدِنا لأنه العُمدةُ في كتاباتِه العَقَدية أمَّا كُتبُه الأخرى ك"الخصائص" و"المعالم" فالتركيز فيها على المنهج لا على الأمثلة، لذلك فالاستشهادُ بالسنة الصحيحة

1- سورة الأعراف، جزء من آية 54.

2- المصدر السابق، مج3، ص1296.

3- ينظر: القاضي عبد الوهاب البغدادي، شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، دراسة وتحقيق: أحمد محمد نور سيف، (ط1، دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 2004م)، ص178.

4- وغيرها كثير، ينظر: الظلال: مج1، ص54، 59، 290، مج2، ص729 و802 و822 و864 و875، مج3، ص1189 و1209 و1267 و1268 و1296 و1358 و1359 و1868 و1412 و1513 وغيرها.

فيها قليلٌ لا يكاد يُذكَر، فاكتفينا ب"الظلال" وفيه الغَنَاء.

المطلب الثاني: سيد قطب وخَبر الآحاد في العقيدة:

قبل أن نعرِضَ لموقف سيد قطب من خبر الآحاد في العقيدة، لا بد أن نعرِّفَ بخبر الآحاد ونتلوه بمذاهب العلماء في الأخْذ به في العقيدة.

فالحديث النبويُّ الشريف ينقسم باعتبار عدد نَقَلَتِه إلى ثلاثة أقسام: متواتر ومشهور وآحاد.

1 - **الحديث المتواتِر**: وهو ما رواهُ جَمْعٌ تُحيلُ العادَةُ تواطُؤهم على الكذِب عن مِثلِهم من أوَّل السَّنَد إلى منتهاه، على أنْ لا يختلَّ هذا الجمْعُ في أيِّ طبقةٍ من طبقاتِ السنَد، وهذا النوعُ قطعيُّ الثُّبُوت، وهو بمنـزلةِ العَيَان، يجب العملُ به، ويكفر جاحدُه، وهو أعلى مَراتِب النقْل[1].

2 - **الحديث المشهور**: وهو ما رواهُ من الصحابة عددٌ لا يبلغُ حدَّ التواتُر، ثم تواتر بعد الصحابة ومَن بعدهم، وهو دونَ المتواتِر يُوجب علم طمأنينة – عند الحنفية – أي ظنا قريبا من اليقين فيجب العمل به، ولكنه لا يكفر جاحدُه[2].

3 - **خبر الآحاد**: وهو ما رواهُ الواحدُ أو الاثنان فأكثر، مما لم تتوفرْ فيه شروطُ المشهور أو المتواتِر، ولا عِبرةَ للعدد فيه بعد ذلكَ، وهو دونَ المتواتِر والمشهور، وحُكمُه وجوبُ العملِ به متى توفرتْ فيه شروطُ القبول[3].

واختلف العلماءُ في إفادةِ خبر الآحادِ العلم اليقين أو عدم إفادته، وهل يوجب العمل —لأنه لا

1- ينظر: ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر، (مصر: مطبعة الإمام، د.ت)، ج1، ص93، وينظر: أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، (ط 1، مصر، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1322هـ)، تحقيق جماعة من العلماء، (لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ)، ج2، ص20.

2- ينظر: علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، (ط3، مصر: دار المعارف،1964م)، ص39 ،40، وينظر: د.معروف الدواليبي، المدخل إلى السنة وعلومها، (دمشق، مطبعة جامعة دمشق، 1375هـ)، ص50.

3- ينظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص97 فما بعدها.

عملَ من غير علمٍ-؟ وانقسموا فريقيْن، فريقٌ يرى أنه يفيدُ العلمَ ويوجب العملَ ويتزعمُه الإمامُ أحمد بن حنبل وبعضُ أهل الحديث وداود الظاهري وابن حزم، وفريقٌ يرى أنه يفيدُ الظنَّ ويوجب العملَ -لأنه لا تلازُمَ بين وجوب العمل وإفادة علم اليقين بل يكفي الظنُّ الراجحُ لوجوب العمل- وهم الحنفية والشافعية وجمهور المالكية وغيرهم[1].

ثم هل يُحتجُّ بخبر الآحاد في إثبات العقائد أم أنه يُحتجُّ به فيما دونَها ؟ يذهبُ الشيخُ محمود شلتوت إلى أن العقيدةَ لا تثبُتُ إلا بنص قطعي في وُرُوده ودلالته، ويجب التنبُّهُ إلى أن "الظنيةَ" تلحق السنةَ من جهتَيْ الوُرود والدلالة (فقد يكونُ في اتصال الحديثِ برسول الله ﷺ شبهةٌ فيكون ظنيَّ الوُرود، وقد يُلابسُ دلالتَه احتمالٌ، فيكون ظنيَّ الدلالة، وقد يجتمعُ فيه الأمران: الشبهةُ في اتصالِه، والاحتمالُ في دلالتِه، فيكون ظنيا في وُروده ودلالته، ومتى لحقت (الظنيةُ) الحديثَ على أي نحْوٍ من هذه الثلاثة فلا يمكنُ أن تثبتَ به عقيدةٌ يكفر منكرُها ، وإنما يثبتُ الحديثُ العقيدةَ وينهض حجةً عليها إذا كان قطعيا في وُروده وفي دلالته)[2] ثم يسوقُ الشواهدَ على ما ذهبَ إليه من أقوال الأصوليين كقول أبي حامد الغزالي: (خبرُ الواحد لا يفيدُ العلمَ وهو-أيْ عدمُ إفادتِه العلمَ- معلومٌ بالضرورة، وما نُقل عن المحدِّثين من أنه يوجبُ العلمَ فلعلَّهم أرادوا أنه يفيدُ العلمَ بوجوب العمل إذ يُسمَّى الظنُّ عِلما)[3]، وقوْل البزدوي: (خبرُ الواحد لما لم يُفد اليقين لا يكونُ حجةً فيما يرجعُ إلى الاعتقاد ، لأنه مَبنيٌّ على اليقين، وإنما كان حجةً فيما قصدَ فيه العملُ)[4]، وقول الإسنوي: (إن روايةَ الآحاد إن أفادتْ فإنما تفيدُ الظنَّ والشارِعُ إنما أجازَ الظنَّ في المسائل العملية وهي الفروعُ دون العِلمية كقواعد أصول الدين)[5] ونصَّ على أنه مذهبُ الأئمة الأربعة: مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد في إحدى الروايتيْن عنه[6].

وإلى هذا يذهبُ أحدُ المحققينَ المُحْدَثين بعدما خصصَ كتابا بأكملِه للسنَّة ومكانتِها في التشريع الإسلامي؛ حيثُ ساقَ فيه أقوالَ كبارِ العلماءِ في حُجِّيَّةِ السنَّة عامَّةً وأخبار الآحاد بخاصة في القديم

1- ينظر: المرجع السابق، ج1، ص 107 فما بعدها.

2- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، (ط8، بيروت: دار الشروق، 1975م)، ص58.

3- أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج1، ص93، وينظر المصدر السابق، ص60.

4- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص60.

5- المرجع نفسه، ص60.

6- المرجع نفسه، ص59.

والحديث، ونقلَ نصوصا طويلةً من كُتب القُدامى والمحْدَثين ؛ ناقشَ الشُّبَهَ التي ثارتْ حولَ المسألةِ باستفاضة، وخَلُصَ إلى القول: (فنحنُ لا نقولُ: إن أحاديثَ الآحاد التي هي أكثرُ أحاديث السنة أحاديثُ مقطوعٌ بها لا تفيدُ العلمَ - مع أن بعضَ العلماءِ قد قالَه - بل نقولُ: إنها تفيدُ الظنَّ، ولا ينازع أحدٌ في إفادتِها الظن إلا مُكابِر، وحسْبُنا هذا لتكونَ حجةً يعتمد عليها.

وأما الدعْوى بأن الظنَّ في أحكام الدين غيرُ جائزٍ، فذلكَ فيما يتعلقُ بأصول الدين التي يكفر مَن جحدَها أو شكَّ فيها، كوحدانية الله وصِدْق رسولِه ونسبة القرآن إلى رب العالمين، وكذلك في أركان الإسلام كالصلاة والزكاة وغيرِهما مما عُلِم من الدين بالضرورة، وليس كذلك بالنسبة للفروع، إذ لا مانعَ أن تثبتَ عن طريق الظن)[1].

وفي المقابل فريقٌ آخرُ يذهبُ إلى أن خبرَ الآحاد يُحتجُّ به في إثبات العقائد ؛ وعلى رأسهم ابن حزم الذي دافعَ بقوةٍ عن رأيِه هذا وأطالَ في الاحتجاج له والردِّ على مخالفيه في بحثٍ طويل [2]، وهو مذهب داود الظاهري والحسين بن علي الكرابيسي والحارث المحاسبي، وحكاه ابن خويز مندا د عن مالك [3] ومن الباحثينَ المعاصرينَ الذين انتصروا لهذا الفريق ود افعوا عن حُجِّيَّة خبر الآحاد في إثبات العقيدة نجد عمر سليمان الأشقر الذي أفاضَ في المسألة كثيرًا وخصَّصَ فصلًا كاملا من كتابه "العقيدة في الله" لبيان حُجَج هؤلاء والردِّ على المخالفين، ومن جُملة أدلتِه باختصار:

1 -قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[4]... والطائفةُ في لغة العرب تُطلق على الواحد فما فوق، والتفقُّه في الدين يشمَل العقائدَ والأحكامَ ، بل التفقُّه في العقائد أهمّ من التفقّه في الأحكام.

1- مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، (ط4، بيروت: المكتب الإسلامي، 1985م)، ص160 ،161.

2- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص119-137.

3- ابن كثير، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، تعليق: أحمد شاكر، (ط 3، القاهرة: مكتبة دار التراث، 1979م)، هامش صفحة 30 من تعليق أحمد شاكر.

4- سورة التوبة، الآية 122.

2 -قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴿٦﴾ ﴾[1] وفي القراءة الأخرى (فتثبَّتُوا) فإنها تدلُّ على أن مَن لم يكن فاسقا بأنْ كان عَدْلا إذا جاء بخبرٍ مَا ؛ فالحجةُ قائمةٌ به، وأنه لا يجب التثبت بل يُؤخذُ حالًا.

3 -قوله ﷺ للشباب الذين أقاموا عنده عشرين ليلةً: (ارجِعُوا إلى أَهْلِيكُم فأَقِيمُوا فيهِم وعلِّمُوهُم ومُرُوهُم، وَصَلُّوا كما رأيتُمُوني أُصَلِّي)[2]. فقد أمرَ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ الشبابِ أن يُعلِّمَ كلَّ واحد من أهلِه، والتعليم يعُمُّ العقيدةَ، بل هي أوَّلُ ما يدخلُ في العموم، فلو لم يكن خبرُ الآحاد مما تقومُ به العقيدةُ لم يكن لهذا الأمرِ معنًى.

4 -وفي صحيحيْ البخاري ومسلم أيضا أن أهلَ اليمن قَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ فقالوا: ابعثْ مَعَنا رَجُلًا يُعلِّمُنا السنَّةَ والإسلامَ، فأخذَ بِيَد أبي عُبيدةَ فقالَ: (هذا أمينُ هذهِ الأُمَّةِ)[3]، فلو لم تقُم الحُجَّةُ بخبرِ الواحدِ لم يبعث الرسولُ ﷺ إليهم أبا عبيدةَ وحدَه، وكذلك يُقالُ في بعْثِه ﷺ في نوبات مختلفة أو إلى بلاد متفرقة غيرَه من الصحابة: كعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري[4].

بعد هذه الأدلة النقْلية ينتقلُ الباحثُ إلى الأدلة العقلية ويذكُر منها تِسعًا -لا يتسعُ المجال لذِكرِها هنا- ويُنهِي بحثَه بذِكر ثلاثٍ وعشرينَ عقيدةً تثبتُ بطريق الآحاد فكيف نرُدُّها !؟[5]

بعدَ أنْ عرَضْنا موقفَ الفريقيْن من علماء المسلمين-القدامى والمُحْدَثين- من خبر الآحاد والاحتجاج به في العقيدة ؛ نعود إلى سيد قطب وموقفِه من هذه المسألةِ ومع أيِّ الفريقيْن كانَ ؟ وهل

1- سورة الحُجُرات، الآية 06.

2- أخرجه البخاري (631) ومسلم (674).

3- أخرجه ابن ماجه (155) والترمذي (3791) والنَّسَائي (8287) وابن حِبان (7131) وأحمد (12904) وإسنادُه صحيح على شرط الشيخين.

4- عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، (الجزائر، البليدة: قصر الكتاب، 1989م)، ص51-56.

5- المرجع نفسُه ، ص52-56.

يَضيرُه أن يكونَ من جُملة أحدِ الفريقيْن الذيْن كلٌّ منهُما يتزعمُه كوكبةٌ من كبار علماء الإسلام ؟ ولماذا هذه الحمْلةُ الموجَّهةُ على سيد قطب في هذه المسائل العَقَدية والسكوتُ على آراء القُدَامى- بل والْتِماس الأعْذار لهم- وقد قالوا بأكثر مما قال به سيد !! هذا ما سنفصِّل فيه بسَوْق الشواهد من أقوال أولئكَ ومن أقوالِ سيد في "الظلال" وكيفَ تعامَلَ مع خبر الآحاد في مسائل العقيدة، ونقف وقفةً مع حديث سِحْر النبي ﷺ وموقفِ سيدٍ منها.

عرْض ومناقشة ما قيل عن سيد في هذه المسألة:

بعد أن بيَّنَّا مذاهبَ علماء المسلمين في مسألةِ الأخْذ بخبر الآحاد أو عدَمِه في العقيدة وكيف انقسموا إلى فريقيْن؛ لكلٍّ أدلتُه وشواهدُه والتي عرَضْناها باختصار فيما يسمحُ به المقامُ، نعودُ إلى سيد ونجْتلي موقفَه من المسألة ومع أيِّ الفريقيْن كانَ ؟

صرَّح سيدٌ في موضعيْن من "الظلال" بأن التواتُرَ شرطٌ للأخْذ بالأحاديث في أُصول الاعتقاد، عند تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] يستشهد بعِدَّة آثار ليس من بينِها حديثٌ عن رسول الله ﷺ إلا حديثا واحدًا مُرسَلا رواه مالكٌ في الموطأ والباقي كلُّه آثارٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما من تفسيرِ ابن جرير الطبري، ثم يقولُ: (ونحنُ- على منهجِنا في هذه الظلالِ - لا نتعرضُ لهذه الأمورِ الغيبيةِ بتفصيلٍ لم يَرِدْ به نصٌّ قرآني أو حديث نبوي صحيحٌ متواتر، فهيَ من أُمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنصٍّ هذه درجتُه، ولكننا في الوقت ذاتِه لا نقفُ موقفَ الإنكار أو الرفض)[2].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾[3] ينصُّ على أنه وردَتْ رواياتٌ- بعضُها صحيحٌ ولكنه غيرُ متواترٍ- أن لبيدَ بن الأعْصم سَحَرَ النبيَّ ﷺ في المدينة، وأن سُورَتيْ

1- سورة الأنفال، الآية 48.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1531.

3- سورة الفلق، الآية 04.

الفلق والناس نزلَتَا رُقيةً له ﷺ، فذهب سيدٌ إلى أنَّ (هذه الروايات تخالفُ أصلَ العِصمة النبوية في الفِعل والتبليغ، ولا تستقيمُ مع الاعتقاد بأن كل فِعلٍ من أفعالِه ﷺ وكلَّ قولٍ من أقوالِه سُنَّة وشريعة، كما أنها تصطدِمُ بنفْيِ القرآن عن الرسول ﷺ أنه مسحورٌ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدَّعونه من هذا الإفك، ومن ثم تستبعد هذه الروايات ، وأحاديث الآحاد لا يؤخَذُ بها في أمر العقيدة والمَرْجع هو القرآن، والتواتُر شرطٌ للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد، وهذه الرواياتُ ليست من المتواتِر فضلًا على أن نزولَ هاتيْن السُّورَتيْن في مكةَ هو الراجحُ مما يوَهِّنُ أساسَ الرواياتِ الأخرى)[1].

فسيدٌ إذن مع الفريق الأوَّل الذي يذهبُ إلى أن خبرَ الآحاد لا يُؤخذُ به في أمرِ الاعتقاد وأصول الدين، ومَن يكونُ هذا الفريقُ ؟ إنه مالكٌ وأبو حنيفةَ والشافعي وأحمد- في إحدى الروايتين عنه - وأبو حامد الغزالي والبزدوي والأسنوي، ومن المُحْدَثِين محمود شلتوت ومصطفى السباعي وغيرهم، فلا يَضيرُ سيدًا إذنْ أن يقفَ هذا الموقفَ من خبرِ الآحاد في المسائل العَقَدية وقد سبَقَهُ هؤلاء العَمالقة، بل يكفينا منهم زعماءُ المذاهبِ الأربعة.

بقيتْ مسألةٌ أثيرَتْ حولَ سيد في إنكاره سحرَ النبي ﷺ، واستبعادِه أحاديثَ صحيح ةً فيها؛ نعْرِضُها لنُبينَ موقفَه ونُزيلَ اللبْسَ عما عَلِقَ به ، ولِمَ أنكر سِحْرَ النبي ﷺ ؟ وهل هي من مسائلِ العقيدةِ في الأصول أم في الفروع ؟

رَوَى البخاريُّ عن عائشةَ - رضي الله عنها - قالتْ: كان رسولُ الله ﷺ سُحِرَ، حتى كانَ يرى أنه يأتي النساءَ ولا يأتيهنَّ، فقال: يا عائشة أعَلِمْتِ أن اللهَ أفتاني فيما استفتَيْتُهُ فيه ؟، أتاني رجُلَان، فقعد أحدُهُما عند رأسي والآخر عند رِجْلي، فقال الذي عندَ رأسي للآخر: ما بالُ الرجُل ؟ فقال: مَطْبُوبٌ، قال: ومَن طَبَّهُ ؟، قال: لبيدُ بن الأعصم (رجل من بني زُرَيق حليف اليهود ؛ كان منافقا) قال: وفيمَ ؟ قال: في مُشط ومُشَاطَةٍ، قال: وأينَ ؟ قال: في جُفِّ طَلعة ذَكَر تحت راعوفةٍ في بئر ذَرْوَان، قالت عائشة، فأتى البئرَ حتى استخرجَه فقال: هذه البئرُ التي أُرِيتُها وكأنَّ ماءَها نُقَاعةُ الحِنَّاء وكأنَّ نخْلَها رؤوسُ الشياطينِ، قال: فاستخرج، فقلتُ(عائشة): أفلا تنشَّرتَ ؟ فقال: أما الله فقد شَفَاني، وأكرهُ أن أُثيرَ على

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص4008.

أحدٍ من الناس شرًّا)[1] وفي روايةٍ أُخرى للبخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالتْ: (حتى كان يُخَيَّلُ إليه أنه فعَلَ شيئًا ولم يفعلْه)، وروى مسلمٌ مثلها [2]، ورواه الإمام أحمد، وفي روايته: (لبثَ النبيُّ ﷺ ستةَ أشهُرٍ يرَى أنهُ يَأتي ولا يَأتي)[3].

فسياقُ هذه الروايات يدلُّ على أن السحرَ كان على النبي ﷺ في الجانب المُعامَلاتي مع أزْواجِه لا في الجانب الاعتقادي أو ناحية الوحْي والتبليغ، فهو لا يَمَسُّ العِصمةَ النبويةَ في شيءٍ، أمَّا ردُّ سيدٍ لمثل هذه الأحاديث وعدم الأخْذ بها؛ فاعتقادا منْهُ أنها تخالِفُ أصْل العِصمةِ النبَويَّة في الفِعل والتبليغ، والعصمة تتحقق في أربعة أمور[4]:

1 في الاعتقاد وأنهم معصومون عن الكُفر والبدعة.

2 ما يتعلق بتبليغ الشرائع والأحكام من الله تعالى فلا يجوزُ عليهم التحريف والخِيانة لا بالعمْد ولا السهو.

3 ما يتعلقُ بالفتوى وأنه لا يجوزُ تعمُّدُ الخطأ.

4 ما يتعلق بأفعالِهم وأحوالِهم فهم معصُومُون في زمان النبُوَّة عن الكبائر والصغائر بالعمْد، أما على سبيل السهو فجائزٌ.

إذن فثبوت سِحْر النبي ﷺ لا يَمَسُّ هذه الأمور الأربعةَ التي هي أركانُ العصمة النبوية، والسِّحْرُ جائزٌ عقْلًا كالكرامة والمُعجزة ، وثابتٌ سمْعًا بقوله تعالى: ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ...﴿١٠٢﴾ ﴾[5] ولِمَا ثبتَ من هذه الأحاديث الصحيحةِ في سَحْرِ النبي ﷺ ، أما (الطعنُ الكاذِبُ من الكَفَرَة في النبي ﷺ بأنه مسحورٌ أُريدَ به زوال العقل بالسِّحر، والعصمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ

1- أخرجه البخاري (5765) ومسلم (2189) وأحمد (19267).

2- أخرجه مسلم (2189).

3- أخرجه أحمد (19267).

4- ينظر: فخر الدين الرازي، الأربعين في أصول الدين، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، (ط1، بيروت: دار الجيل،2004م)، ص321، 322.

5- سورة البقرة، الآية 102.

﴿ٱلنَّاسِۗ ٦٧﴾[1] هي العصمة أن يُهلكوهُ، أو يُوقِعُوا خلَلًا في نُبُوَّتِه، وليس للساحِرِ أنْ يفعلَ ما يشاء من الإضرار بالأنبياء، وإزالة مُلْك الخلفاء وغير ذلك)[2]

إذن فكيف نوفقُ بين هذه الروايات التي صحَّتْ في سَحْر النبي ﷺ من لبيد بن الأعصم اليهودي مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾[3] ومع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ٦٧﴾[4] والجواب أن السِّحر ثابتٌ سمْعا وعقلًا-كما أسلفنا- ولكنْ ليس له تحكُّمٌ في كل شأن، فالنبي ﷺ معصومٌ في هذه الأركان الأربعة ؛ فلا يمكن أن يوقِعَ السِّحرُ خللًا في نبوتِه ، ولكن يمكن أن يوصِل ضررًا وألَمًا إلى بدنِه، فهو ﷺ بشرٌ يَسرِي عليه ما يسري على البَشَر، فقد أُوذِيَ، وجُرِحَ في الطائف وأُحُد، ولقيَ في سبيل الله ما لَقِي، فثُبوتُ السحْرِ عليه وإيذاؤُه له من هذا الباب .

وكذا ما جاءَ في الإصابة بالعيْن (وهو أن يكونَ لبعض النفُوس خاصيَّةٌ أنها إذا استحسنتْ شيئًا لِحقَتْه الآفةُ، فثبوتُها يكادُ يجري مجْرى المشاهدات التي لا تفتقرُ إلى حُجَّة ، وقد قال النبيُّ ﷺ "العينُ حقٌّ"[5] ، وذهبَ كثيرٌ من المفسِّرين إلى أن قولَه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ ... ٥١﴾[6] نزلَ في ذلك)[7]. فالكفارُ كانوا يستحسنونَ كثيرا من الصفاتِ في النبي ﷺ وإن كانوا يُبغِضونَه من جِهةِ الدِّينِ، وحاوَلُوا أن يُؤذوهُ ويُزلِقوهُ بأبصارِهم ولكنَّ اللهَ عَصَمَهُ منهم.

ويُرجعُ أحدُ الباحثينَ ما ذهبَ إليه سيد قطب من ردِّه لهذه الروايات الصحيحة الثابتة في سَحْر النبي ﷺ إلى (أنه كان في الماضي واقعًا تحت تأثير أفكارِ الشيخ محمد عبده، وكان يتحرَّرُ منها قليلًا قليلًا، بحيثُ إن تحرُّرَه لم يكن كامِلًا حينَ كِتابةِ ما كتبَهُ في "الظلال" من الطبعة القديمة ، ونعتقدُ أنه لوْ وصَلَ

1- سورة المائدة، الآية 67.

2- سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصِد، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، (ط2، بيروت: عالم الكتب، 1998م)، ج5، ص79.

3- سورة طه، الآية 69.

4- سورة المائدة، الآية 67.

5- أخرجه البخاري (5740) و (5944)، ومسلم (2187) و(41)، والبغوي (3190)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

6- سورة القلم، الآية 51.

7- سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، ج5، ص81.

إلى هذا المكانِ في الطبعةِ الجديدةِ لبدَّل من موقفِه، ويساعدُنا على هذا الاعتقادِ ما وجدْنَاه من تغيُّر كبير في موقفِه المبْدئي في كثيرٍ من القضايا المتصلةِ بالسُّنَّة والآثار، وهذا أثرٌ مُشاهَد لدى كلِّ مَن يقرأُ الطبعتيْن.

وإذا افترضْنا أنه لم يكن لِيُغيِّرَ موقفَه من هذهِ المسألة، فإننا يجبُ أن نحكُمَ بخطئِه من الناحيةِ العِلمية، ولا يَضيرُهُ - رحمه الله - أنهُ أَخْطأَ)[1]، ونحنُ مع هذا الباحِثِ في رأيِه، إذ لو لم يُعجِّلوا بالقضاءِ عليه- ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ- لكانَ عَدَلَ عن موقفِه هذا، لِمَا عُرِفَ عنهُ أنه أَوَّابٌ إلى الحقِّ رَجَّاعٌ إلى الصوابِ إذا ظَهَرَ له، وعلى غِرارِ هذا أمثلةٌ كثيرةٌ في طبعة "الظلال" المنقَّحة كان يرى غيرَها في الطبعة الأولى، وعَدَلَ عنها بعدما استبانَ له خطؤُهُ، وكثيرًا ما كان يتراجَعُ- رحمه الله - عن آراءَ تبيَّنَ له خطؤُها فيما بعدُ[2].

1- محمد توفيق بركات، سيد قطب "حياتُه، منهجُه في التغيير والنقدُ الموجَّه إليه"، (ط1، الأردن: دار البيارق، 1998م)، ص239.

2- ففي تفسيره للآية 228 من سورة البقرة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أحالَ في الهامشِ وقال: (وما أبرئُ نفْسِي فقدْ وقعتُ في هذا التأويلِ الذي أُرجِّحُ عدمَ صِحَّتِهِ في بعضِ ما كتبْتُ) ينظر: الظلال، مج1، ص247، ومواضع أخرى ك: مج3، ص1268 ومج3، ص1279 وغيرها.

الفصل الثاني: أدلة العقيدة عند سيد قطب

العقيدةُ الإسلاميةُ بمكوِّناتها الأربعة " الإلهيات، النُّبوَّات، الكوْنيات، السَّمْعيات " أمورٌ يُصدِّقُها العقلُ وتطمئنُّ إليها النفْسُ وتكونُ يقينا لا يُمازِجُهُ شكٌّ عند المعتقِد حقيقةً، لكن الناسَ متفاوتونَ في هذا الاعتقاد، فمنهم من تلقَّاها واعتقدَها عادةً وَوِرَاثةً فهؤلاء لا يُؤمَنُ عليهم أن يتشكَّكوا إذا عرضَتْ لهم الشبُهاتُ، ومنهم من ينظرُ ويتفكَّرُ فيزدادُ إيمانُه ويقينُه لزيادة عِلمِه ومعرفتِه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[1]، ومنهم من يُعمِل فكرَه ويستعينُ بطاعة الله تعالى ويجتهدُ في العبادة فيزدادُ نورُ بصيرتِه ويتِمُّ يقينُه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[2].

وأساسُ العقيدة الإسلامية ومصدرُها الوحْيُ " كتابُ الله تعالى والسنَّةُ الصحيحةُ عن رسولِ الله ﷺ " والعقل الذي شرَّفَه اللهُ تعالى بالخِطاب وجعلَه مَناطَ التكليفِ وحثَّهُ على البحْثِ والنظَرِ والتفكُّر وساقَ له الأدلةَ والشواهِدَ الكثيرةَ ليتبيَّنَها ، يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3] ويقول تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾[4] ويقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن

---

1 - سورة فاطر، الآية: 28.

2 - سورة محمد، الآية: 17.

3 - سورة النمل، الآيات، 60- 64.

4 - سورة الأنبياء، الآية: 22.

﴿قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾[1] ويقول تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦ ﴾[2] وذمَّ الذين لا يلتفتونَ إلى هذه الآياتِ ولا يُعمِلونَ عقولَهم فيها بالنظَر والتدبُّر فقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ ﴾[3] والقرآنُ مليءٌ بالأدلَّة التي تُثبتُ العقيدةَ في نفْس المؤمِن وحتى غير المؤمِن إن تجرَّدَ وأنصفَ الفكرَ والنظَر.

وسيدٌ في سَوْقِه للأدلةِ كان مُسهِبا في الأمثلة والشواهِد إسهابًا مَقصودا في "الظلال" عند آياتِ العقيدة وفي "الخصائص" و "المقومات" خاصَّةً؛ إذ هما عُصارةُ بحثِه في العقيدةِ، ويخلُصُ إلى أن القرآنَ الكريمَ وهو يتناولُ حقائقَ العقيدةِ ومقَوِّماتِها، وهو يقيمُ على أساسِها التصورَ الإسلامي للوجود ويُقدِّم على أساسِها التفسيرَ الصحيح لهذا الوجود (لم يدع جانبا منها يراود الفكر البشري عنه سؤالٌ إلا وقد أجابَ على هذا السؤال، ولم يدع انحرافا في تصورِها يخالطُ الفكرَ البشري إلا وصححَ هذا الانحراف، بحيث يستقيم في القلب والعقل، وفي الكينونة البشرية بجُملتها، تصور كامل من وراء هذا البيان الشامل وتفسير صحيح للوجود كله وللتاريخ الإنساني)(4).

فالنظرُ في العقائد ووجوه أدِلتها مشروعٌ بل هو مطلوبٌ، فالإسلامُ لم يحْجُر على الفِكر ولم يأمُر بالانقياد السِّلبي دون معرفة ونَظر، بل دلَّ الناسَ وهَدَاهم إلى هذه الأدلة والبراهين التي بها يعلمون إثبات وحدانيةِ الله وصفاته وصدق رسولِه فيما جاءَ به.

وبعد استقرائِنا وتتبُّعِنا المُضْني لمنهجِ سيد قطب في تقرير العقيدة - وقد كُنَّا تعامَلْنا مع كُتُبِه كثيرًا في رسالة الماجستير - خَلَصْنا إلى أنه اعتمدَ أدلةً أربعةً وركَّز عليها تركيزًا بالِغا في تقرير العقيدة ؛ خاصةً في كُتُبه "الظلال" و "الخصائص" و "المقومات"، وهي دليل الفطرة ، ودليل العقل ، ودليل الأنبياء

---

1 - سورة يونس، الآية: 101.
2 - سورة الزمر، الآية: 6.
3 - يوسف: الآية: 105. 4- سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 79.

ومعجزاتهم، ودليل الأنفُس والآفاق، فكانت مستغرقةً لكل مَجالات العقيدة من إلهيات ونُبُوَّات وكوْنيات وغيبيات ؛ وهذه الأدلةُ هي نفسُها أدلةُ القران الكريم في إثبات العقيدة، ولكَوْن سيد من المفسِّرين فقد حاولَ ما وَسِعَه جُهدُه في أنْ يلتزمَ بالخط القرآني في كافَّةِ ما يوردُه من مسائل، وينأَى عن الخوض فيما أثارَه الفلاسفةُ والمتكلمونَ من جدَل واعتراضات واجتهادات لا تنقضي ومصطلحات جديدة طارئة على مسالِك الأوائل؛ تشوشُ عقائدَ العوامِّ والبُسَطاء وتمثل لهم هذه العقيدة في ثوب لا يفهمه إلا الخواص، بل يبلغ الأمرُ عند بعضِهِم في الإيغال إلى حيثُ تَخْفَى حتى على الخواصّ، و الأمرُ في الحقيقةِ لا يحتاجُ إلى كلِّ هذا التهويم والتهويل، فلم يَخُضْ فيه سيدٌ و عَرَضَ العقيدةَ بعبارات مفهومةٍ بسيطةٍ في قالَب جماليٍّ أخَّاذ، فكانتْ كُتُبُه زادًا لشباب الصحْوة الإسلامية في المشارق والمغارب ينْهَلون منها ويزدادون إيمانًا وتسليمًا.

المبحث الأول: دليل الفِطرة .

المطلب الأول: الفِطرة وعلاقتُها بالأَوَّلِيَّات العقلية.

يقول سبحانه وتعالى :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1] .

ومعنى الفِطْرَة – في اللغة – الشَّقُّ طُولًا، وتُطلَق على الاختراع والإيجاد على غيرِ مِثَال ، و أصل الفِطْرة الخِلْقَة المُبتَدَأَة، ومنه ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[2] أي المبتدِئُ خلْقَهُنَّ.

فالفطرةُ في الإنسان مَغْرُوزةٌ في أعماقِه كما غُرِزت المبادئُ العقليةُ الأُولى؛ وهي أمورٌ أَوْدَعَها اللهُ تعالى فيه ليعرِفَ الإنسانُ ربَّه ويعبُدَه ويتقرَّبَ إليه (ولو لم تكن المعرفةُ ثابتةً في الفِطرة لكان الرسولُ إذا قالَ لقومِه أَدعوكُم إلى الله، لَقالوا مثل ما قال فرعونُ: وما ربُّ العالمينَ؟ إنكارًا له وجَحْدا...وفرعون لم يقُل هذا لِعدَم معرفتِه في الباطِن بالخالِق لكن أظهر خِلافَ ما في نفسِه) [3]، وهذه المعرفةُ عامةٌ في الخَلْق، يُقِرُّ بها حتى غيرُ المسلمين لأنها مغروزةٌ في أعماقِهِم، فالنصارى يُسمُّونَها (**الناموس**) الذي به يُتَعرَّفُ على الخالِق بلا دليلٍ خارجِي.

فما هذه الفطرةُ؟ و ما هو الشيءُ الذي يُفطَرُ عليه الإنسانُ؟ و ما علاقتُها بالمبادئِ العقليةِ الأَوَّلِيَّة ، كالكلّ أكبر من الجُزْء والواحد نصفُ الاثنيْن...؟ والجوابُ: إن الفطرةَ هي الإلهامُ للإيمانِ والكُفر ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾[4] وهي الأفكارُ الأَوَّلية والمبادئُ القبْلية المستكِنَّة في أعماقِ الإنسانِ وهيَ (من العلوم الضروريَّة اللازِمة للخلْق التي لم يخلُ منها بشَرٌ قطُّ، بخلافِ كثيرٍ من العُلوم التي قد تكونُ ضروريةً، ولكن قد يغفَل عنها كثيرٌ من بني ءادم، فإذا تُصُورَت كانتْ علومًا ضرورية) [5]، وليس

---

1 – سورة الروم، الآية: 30.

2 – سورة الشورى، الآية: 11.

3 – ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، (مكتبة ابن تيمية، د.ت)، مج8، ص 440.

4– سورة الشمس، الآية: 8. 5– المرجع نفسه، مج 8، ص 489.

معنى هذا أن صاحبَ الفِطرة السليمة يستوي في تمثُّل الإسلام ونصوصِه مع الدارِس لها المنقِّب عن معانِيها، ولكن أصولَ الفطرة تبقَى مكنونةً فيه حتى إذا اطَّلعَ على هذه النصوصِ السماويةِ شعَرَ شُعورا فِعليا بأن هذا هو ما يبحثُ عنهُ وتتطلَّع إليه نفسُه ويفتقدُه وِجْدانُه، كما صرَّح بذلكَ كثيرٌ ممن اهتدَوْا إلى الإسلام بعدما غشيَت نفوسَهم لَوْثاتُ الجاهلية فبَهَتَ نورُ الفِطرةِ فيهِم، فلما تعرَّفُوا على هذا الدِّينِ تجدَّدَ ما انطمسَ واضطرمَ ما خَبَا مِن هذه الأَوَّلِيَّات الفِطرية التي فطرَ اللهُ الخلقَ عليها، والتي يجدُ فيها العقلُ البشريُّ الحلَّ الصحيحَ المقنِع لكلِّ تساؤلاتِه عن الخالِق والحياة والكوْن والإنسان.

أمَّا في الاصطلاح : فاختُلفَ فيها على عِدة أقوال: (فقال قومٌ: الفطرةُ الخِلقة من الفاطِر الخالِق، وأنكَروا أن يكونَ المولودُ يُفطَر على كُفر أو إيمان أو معرِفة أو إنكار، وإنما يُولد المولودُ على السلامة على الأغلب خَلْقا وطَبْعا وهيئةً ليس فيها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفة، يعتقدون الإيمانَ أو غيرَه إذا ميَّزوا، واحتجُّوا بقولِه ﷺ في الحديث: (كما تنتجُ البهيمةُ)...قال ابن عمر: هذا القولُ أصحُّ ما قيلَ في معنى الفِطرة هَاهُنا واللهُ أعلم)(1).

وقال قومٌ: بأن كلَّ مولودٍ يولدُ على الفِطرة قبل إنزالِ الفرائضِ لأنه لو وُلد على الفطرةِ ثم ماتَ أبوَاهُ قبل تهويدِه أو تنصيرِه ما كان لِيَرِثَهُما، وقال قومٌ: الفطرةُ بمعنى الإسلام.

وقال آخرونَ: الفطرةُ هي البَدْأَة التي أبدأَ اللهُ تعالى عليها الخَلْقَ.

وقال قومٌ: إن اللهَ تعالى قد فطرَ الخلْقَ على الإنكارِ والمعرِفة وعلى الكُفر والإيمان.

وقال قومٌ: هي ما أخذَ اللهُ تعالى من الميثاق على الذُّرِّية وهُم في أصْلاب آبائهم(2).

أما علاقةُ هذه الفطرة بالأَوَّليات العقلية فليس معناه أن يُولدَ المولودُ وهو عارفٌ بالله مُوَحِّدٌ له بحيث يعقِل ذلكَ لأن اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (1)

1- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: أحمد حسن بسج ، (ط 2، لبنان: دار الكتب العلمية، 2006م) ، مج 3، ص 426، 427.

2- المرجع نفسه، الصفحات نفسُها، بتصرّف، ونلاحظ أن التهانوي لم ينسب هذه الأقوال لقائليها وأشارَ في آخِر حديثِه إلى أنه نقلها عن العلامة العيني شارحِ البخاري، ورجعنا إليه فوجدناه مبهِما نسبتَها أيضا. 3- سورة النحل، الآية: 78.

ونحنُ نعلمُ بالاضطرارِ أن الطفلَ يولدُ صفحةً بيضاءَ ليس عندهُ معرفةٌ ولا عِلمٌ سابقٌ ، وكلما حصَلَ في الطفلِ قوة العلم والإرادة حصلَ من معرفتِها بربِّها ومحبتِها له ما يناسبُ ذلكَ، كما أنه وُلدَ على أنهُ يُحبُّ جلْب المنافعِ ودفعَ المضارِّ بحسبِه، وحينئذٍ فحصولُ موجب الفطرة سواء توقفَ على سببٍ أو لم يتوقفْ يحصل المقصود.

والعلم وإنْ كانَ صفةً للإنسان إلا أنه ليس عنصرًا ذاتيا فيه، ولكنهُ معنًى قائمٌ بالعالِمِ، وهو بهذا يخالفُ ما ذهبَ إليه أفلاطون[1] إذ جعلَ النفسَ عالِمةً في أصلِ الفِطرة لأنها من قَبيل عالَمِ المُثُل ونسيَتْ بحُلُولها في الجِسم معارِفَها وإن العلم صفةٌ أصليةٌ ذاتيةٌ في الإنسان.

فنحنُ نعلمُ من أنفُسِنا صفةَ الجهل وطُرُوءَ العِلم علينا، فالإنسانُ ليس لديْهِ استعدادٌ ذاتيٌّ للمعرفةِ إلا بما وضعَ اللهُ فيه من القابِليةِ للتعلُّم ، وإلا بما خلقَ اللهُ له من المَعَارِف بعْدَ وِلادتِه، فيشعر بهذا الاستعداد والقابِلية حينما يَعِي إدراكَه الحِسي والعقلي وهو يتصل بهذا الواقِع ؛ فيبدأُ باكتسابِ المعلومات متدرِّجًا بتدريج نمُوِّ أبعادِه المعرفية من عقل وحِس وأبعادِه الجِسمية والنفسية، ومِن هذه العلوم ما يبقَى مصدرُه غير الحِس والعقل ؛ وهو ما يُسمَّى بالعلوم البديهية أو الأوَّلية أو الضرورية - فهي من غير استدلالٍ منهُ ولا قدرة له عليه -، أما ما يقابلُ هذه فهي العلومُ المكتسَبَة أو الاستدلالية أو النظرية.

فهذه العلومُ البديهيةُ حادِثةٌ على الفطرة الإنسانيةِ بعد الوِلادة، وهي لِشدَّةِ وُضُوحِها غدَتْ أساسًا وركيزةً للمعرفةِ بحيثُ تعودُ إليها سائرُ العلومِ النظريةِ بالعقل والمكتسبَة من الشرْع من أجْلِ فهْمِها.

وكمثالٍ على هذا نأتي بالدليلِ الذي استخدمه "كانط"[1] للبرْهَنة على وُجُودِ الله وهو ما أَسْماه بالعقل العَمَلي (la raison pratique) ويَعْني به الضمير.

يقولُ كانط : (إننا نجِدُ في قَرارةِ نُفوسِنا شُعورًا قويًّا لا سبيلَ إلى إنكارِه، يأمُرُنا بالخيرِ وينْهانا عن

---

1 إيمانويل كانط وُلد عام 1724م وتوفي عام 1804، فيلسوف ألماني، من أهم أعماله"نقد العقل المحض".
ينظر: الموسوعة العربية العالَمية، 19/ 97.

الشرِّ ويُؤنبنا ويُعذبنا عند ارتكاب الذنوب والآثام، فمِن أينَ أتانا هذا الشعورُ؟ إنه...ليسَ آتِيا من الإحساس والتجربة ، لأن الحواس لا تنقُلُ لنا صُوَر الأشياء، وليس في الأشياء شيءٌ يُسمَّى تأنيبا وتعذيبا للضمير، وليس آتيا من العقل النظري؛ لأن العقلَ إنما ينحصرُ عملُه في الإدراكِ الحِسي وتحويلِه إلى إدراكٍ عقلي، فمن أينَ إذنْ يأتينا هذا الشعورُ القويُّ الواضِحُ الذي لا سبيلَ إلى إنكارِه؟) .

يُجيبُ "كانط" على سؤالِه هذا بأنه قانونُنا الأخلاقي الذي فُطِرت عليه نفوسُنا كما فُطِرت عقولُنا على قوانينِها المنظمة، ثم ترقَّى في الاستدلال فاستدلَّ بهذا القانونِ على حُرِّية الإرادة، وبحرِّية الإرادة على خُلود النفوس لتنالَ جزاءَها في حياةٍ أُخرى وعلى يوم الدِّين الذي يأخُذ كلٌّ فيه جزاءَه، وبهذا على وُجود حَكَمٍ عَدْل قادِر خالِد يتولَّى إقرارَ هذه العدالةِ في اليومِ الآخِر، ولا بدَّ أنَّ مَن أنشأَ الخُلودَ خالدٌ، ومَن يَقضي بالعَدْل عادِل ، ومَن يُجازي على الخيرِ والشرِّ قادِرٌ، وهذا الخالِد القادِر الحَكَم العَدْل هوَ اللهُ تعالى.

فالفِطرة هي الأساسُ الذي تنْبنِي عليه مُدرَكاتُ العقولِ وصُوَرُ الحِس جميعا، ولو استقصيْنا ما قالَه فيها بحقٍّ علماؤُنا ومُفسِّرُونا وعلماء الغرب المنصفونَ لَغَدَا مطلَبُنا فصْلًا قائما بذاتِه، فنكتفي بهذا العَرْض الوجيز الذي لا بدَّ منهُ كمقدمةٍ لما وَرَدَ عن الفطرةِ في القر آنِ الكريم وكيفَ خاطبَ هذه الفطرةَ ونخصص بيانَ سيد قطب لها في كُتبه وتفسيره.

المطلب الثاني: القرآنُ ومُخاطبةُ الفِطرة.

للفطرةِ أصولٌ وإشاراتٌ واضحةٌ في القر آنِ الكريم نجدُها في آيات متعدِّدَة، منها قولُه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [1] فصريحُ الآيةِ هو أن الدِّينَ أمرٌ فطريٌّ تميلُ إليه النفْسُ الإنسانيةُ كما تميلُ إلى الحقِّ والخيرِ والجمال إن لم يَعُقْها عائقٌ خارجِي، ففي أعماقِ كلِّ إنسانٍ - مؤمن أو كافر - هذا الأصلُ الفطري، ولكنْ تتفاوتُ درجاتُ اليقظةِ والاستعدادِ عندَهم في البحث والتطلُّع للاهتداء والرجوع إلى مَنبع النورِ والهُدَى.

ولْنَضربْ مِثالا حيًّا على أَحَد هؤلاءِ الذينَ اهتدَوْا إلى الإسلامِ وعَثروا على الحقيقةِ المتس قة مع الفطرة، وهو الفنانُ الانجليزيُّ الشهير "كات ستيفنز" أو "يوسف إسلام" كما سمَّى نفسَه بعد إسلامِه، ففطرتُه لم تنسجِم مع ما كانَ عليهِ في الدِّيانةِ المسيحيةِ فأَخَذَ يبحثُ عن أيِّ دينٍ يوافقُ ما فُطِرَ عليهِ، يقولُ عن نفسِه: (و بدأْتُ أفكرُ بطريقي لحياةٍ جديدةٍ، أبحثُ فيها عن السلامِ والحقيقةِ، وانْتابَني شعورٌ أنْ أتجِهَ إلى غايةٍ مَا؟، ولكنْ لا أدركُ كُنْهَهَا ولا مَفهومَها، بدأتُ أفكرُ وأبحثُ عن السعادةِ التي لم أجِدْها في الشُّهْرة ولا في القِمَّة، ولا في المسيحية، فطرقْتُ بابَ البوذيةِ والفلسفة الصينية، وصِرتُ قَدَرِيا وآمنتُ بالنجوم...ولكني وجدْتُ كل ذلك هُراءً، ثم انتقلتُ إلى الشيوعيةِ، ولكني شعرتُ أن الشيوعيةَ لا تتفقُ مع الفِطرة) [2].

وبعدَ أن هَدَاهُ اللهُ للإسلامِ عن طريقِ قراءتِه ترجمةَ معاني القرآن الكريم، وجدَ الإجابةَ التي يطلبُها والحَقَّ الذي ينشُدُه (لقد أجابَ القرآنُ على كل تساؤلاتي وبذلكَ شعرتُ بالسعادة، سعادة العثور على الحقيقة، وَوَجدتُ في القر آنِ كيفَ أن هذه السعادةَ هي الخالِدة) [3]، وهكذا الفِطَر السليمةُ تُطَوِّفُ في المذاهبِ والأديان والنِّحَل ولا يَقِرُّ لها قرارٌ حتى تهتديَ إلى ما يوافقُ الفطرةَ التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها، وما حديثُ سلمانَ الفارسي عنَّا ببعيدٍ.

1- سورة الروم، الآية: 30.

2- د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، ط 2،الرياض: مكتبة المؤيد،1992م)، ص350، 351.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بل نجدُ النزوعَ إلى معرفةِ الغيبِ والمستورِ عندَ الأطفالِ ذوي الفِطَر السليمةِ فلا يقْنَعونَ بالأمرِ الواقعِ المشاهَد، ولا يقِفونَ في تعليلِه عند الأسبابِ القريبةِ بل يسألونَ عن الأسبابِ الأُولى وراءَها، وغريزةُ التطلُّع هي مبدأُ العالِم والإيمان معا، أمَّا العقولُ الواعيةُ المتبصِّرة فلا تقفُ عند التفسيراتِ الجُزئيةِ ولا ترضَى بآحادِ القوانينِ بل تستشرفُ إلى سَانٍّ هذه القوانين وجامِعِها في أُلْفَة وتناسُق عجيبيْن، فهذا الشوقُ الأبديُّ الأزليُّ الغريزيُّ وهذا الطلَبُ للكُلِّي واللَّانهائي (له دلالتان عميقتان: إحداهُما دلالتُه على مَطلوبِه لا كدلالة الحَرَكة القَسْرية على مصدَر جاذِبيتِها كما يقولُ أرسطو، بل كدلالةِ الأثرِ على صانِعه، أو الخاتَم على طابعِه (حسب تعبير ديكارت)، و ثانيتُهما دلالتُه على أن في الإنسان عُنصُرا نبيلا سَماويا خُلِقَ للبقاءِ والخُلود، و إن تناساهُ الإنسانُ وتلَهَّى عنهُ حينًا، قانِعا بالدُّونِ من الحياةِ الجُثمانيةِ المحطَّمَة)[1].

وفطرةُ الإنسانِ تكْمُن فيها الحاجةُ إلى معرفةِ بارئِها والالتجاء إليه وتوحيده، فإذا غشيَتْها الشهواتُ، وغطَّى عليها الرُّكامُ، وأفسدَها الترفُ وطولُ العهْدِ والنسيانُ، فإنها تنتفضُ مِن هذا كلِّه، وتتجلَّى على حقيقتِها عند مُواجَهة الخطَر الذي لا حيلةَ للإنسانِ فيه، فهي بذاتِها دليلٌ على حاجتِها الطبيعيةِ إلى معرفةِ الله وتوحيدِه[2].

وفي القرآنِ مواقفُ من هذا القبيلِ يهتزُّ فيها الكيانُ الإنسانيُّ أمامَ هَوْلِ الموقِفِ ويرتدُّ إلى فطرتِه التي فطرَه اللهُ عليها من مِثل قولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

1- عبد الله دراز، الدِّين، بحوثٌ ممهِّدةٌ لدراسة تاريخ الأديان، (الكويت: دار القلم، 1980م)، ص97.

2- ينظر: سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص364.

3- سورة يونس، الآيات 22 ،23.

وقولِه تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1] .

وقولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

و قولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3] .

وقولِه تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾[4] وغيرِها من الآياتِ التي تُبيِّنُ أن الالتجاءَ إلى الله تعالى ذاتيٌّ في النفْسِ الإنسانيةِ في مواقفِ الشِّدَّةِ والحاجةِ، وهنا تتبدَّى لنا الفِطرةُ على خِلْقتِها وطبيعتِها معترِفةً بألَّا ملجأَ ولا مَنْجَى مِن اللهِ إلَّا إليهِ.

وسيدٌ في ظلالِه لم يُغفِل هذا الركنَ الركينَ في النفسِ الإنسانيةِ عند كل مناسبةٍ تشيرُ فيها الآياتُ إلى الفطرةِ؛ إنْ في العقيدةِ أو التشريعِ على طريقةِ القر آنِ في عَرْض العقيدةِ وهو يخاطبُ فطرةَ الإنسانِ بما هو مغروزٌ فيه منها ، وبما في الوُجود حولَه من دلائلَ وإيحاءاتٍ، فالمنهجُ الإلهيُّ يأخذُ في الاعتبارِ (فطرةَ هذا الإنسانِ وطاقاتِه واستعداداتِه وقوتَه وضعفَه وحالاتِه المتغيِّرة التي تعْترِيه، إن ظنَّه لا يسوءُ بهذا الكائن فيحتقرَ دوْرَه في الأرض أو يُهدِرَ قيمتَه في صورةٍ من صُوَر حياتِه ، سواء وهو فردٌ أو هو عضوٌ في جماعةٍ، كذلك هو لا يَهيمُ مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوقَ قدْرِه وفوقَ طاقتِه وفوقَ مهمَّتِه التي أنشأَه اللهُ لها يومَ أنشأَه، ولا يفترِضُ في كِلتا الحالتيْن أن مقومات فطرتِه سطحية تنشأ بقانونٍ أو تُكشَط بجَرَّةِ

1- سورة الأنعام، الآيات 40، 41.

2- سورة يونس، الآية 12.

3- سورة الروم، الآية 33.

4- سورة الأعراف، الآية 4، 5.

قلم؟) [1]، ويَجدُرُ بنا الإلْماعُ إلى بعض اللفتَات التي ربطَ فيها سيدٌ بيْن معاني الآيةِ والفطرةِ الإنسانية بطريقةٍ نحسَبُه لم يُسبَق إليها فيما نعلَمُ، فعلى سبيلِ المثالِ لا الحصْر ؛ في قولِه تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ ﴾ [2]، ينطلقُ سيدٌ بعيدًا عن المعنَى التفسيريِّ الحَرْفي للآية ويؤكدُ على أن الإسلامَ لا يتجاهلُ حدودَ الطبيعةِ والفطرةِ الإنسانية ، بل يتعاملُ مع النفسِ البشريةِ بواقعِها كلِّه ولا يَقسُرُها على ما لا طاقةَ لها به (إنه الوسطُ، إنه الفطرةُ، إنه المثاليةُ الواقعية، إنه يتعاملُ مع الإنسانِ بما هو إنسانٌ، والإنسانُ مخلوقٌ عجيبٌ، وهو وحدَه الذي يضعُ قدَميْه على الأرض، وينطلقُ برُوحه إلى السماء، في لحْظة واحدةٍ لا تفارقُ فيها روحُه جسدَه، ولا ينفصلُ إلى جسدٍ على الأرض وروحٍ في السماء) [3] فهذا التشريعُ الإلهيُّ يُراعِي المشاعرَ الإنسانيةَ المتقلبةَ بتنظيمِ كلِّ جُزئياتِها وتفاصيلِها حالَ وُقُوعِها تمَشِّيا مع الفطرةِ التي خُلقَ الإنسانُ عليها.

وفي تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ [4] يُفيضُ سيدٌ في بيانِ حقيقةِ التقوى التي تجعلُ في القلب فُرقانا يَكشفُ له مُنعرجاتِ الطريق، وهي كَكُل حقائقِ العقيدةِ لا يعرفُها إلا مَن ذاقَها فِعلا، ووصفُها لا ينقُل مذاقَها لمن لم يذوقُوها، فعَمَارُ القلب بها ينيرُ الطريقَ ويُطمْئنُ القلبَ ويُريحُ الضميرَ لأنَّ (الحقَّ في ذاتِه لا يَخفى على الفِطرة، إن هناكَ اصطلاحًا من الفِطرة على الحقِّ الذي فُطِرت عليه والذي خُلِقتْ به السمواتُ والأرضُ، ولكنهُ الهوَى هو الذي يحولُ بين الحقِّ والفطرةِ ؛ الهوَى هو الذي ينشُرُ الغبَش ويَحجُبُ الرؤيةَ ويُعمِّي المسالكَ ويُخفِي الدُّروبَ، والهوَى لا تدفعُه الحُجَّة إنما تدفعُه التقوى، تدفعُه مخافةُ الله ومراقبتُه في السِّرِّ والعَلَن، ومن ثم هذا الفرقانُ الذي يُنيرُ البَصيرةَ ويَرفعُ اللَّبْسَ ويَكشفُ الطريقَ) [5]، وهكذا الفطرةُ الإنسانيةُ تتسقُ مع فطرةِ الوُجود الكبير ما دامتْ سائرةً وفق منهج

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص13 (من المقدمة).

2- سورة النساء، الآية: 128.

3- المصدر نفسه، مج2، ص 769.

4- سورة الأنفال، الآية: 29.

5- المصدر نفسه، مج3، ص 1498.

الله، ففيها فراغٌ لا يملؤُه إلا الإيمانُ بالله وتقواهُ، إذ كيف يَطمئنُّ ويَأمَنُ ويستقرُّ من حَادَ عن التقوى وشُغِلَ بالشهواتِ وأخْلدَ إلى الأرضِ وغرِقَ في لَذائذِ الحِس؟ إن مِثلَ هذا قد بَخَس الفطرةَ الإنسانيةَ حقَّها وجَهِلَ قدْرَها وحرَمَها ما به قوامُها وحياتُها.

وعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[1] ينصُّ سيدٌ على هذه الحقيقةَ الهائلةَ، حقيقةَ هذه العوالم من الحيوان والطير والحشرات التي يُحيط بها علمُ الله اللَّدُني وتدبيرُه لها ومنحها سماتِها وخصائصَها وتنظيماتها، وبهذا يربطُ الفطرةَ بالوجود ويتركُ بهذا الربْط أثرًا عميقا في الكيان الإنساني، فهو (لا يقدِّم للفطرةِ جدلا لاهوتيا ذِهنيا نظريا ، ولا يقدِّمُ لها جدَلا كلاميًّا "كعلم التوحيد" [2] الغريبِ على المنهج الإسلامي، ولا يُقدِّم لها فلسفةً عقلية أو حِسية، إنما يُقدِّم لها هذا الوجود الواقعي ـ بعالمَيْهِ عالَمَ الغيب وعالَمَ الشهادة ـ ويدَعُها تتفاعلُ معه وتتجاوَب، وتتلقَّى عنه وتستجيب، ولكنْ في ظِل منهج ضابِط لا يدَعُها ـ وهي تتلقى من الوجود ـ تضِلُّ في المتاهات والدُّروب) [3] فالإنسانُ مشترِكٌ مع هذه العوالم والأُمَم في الكوْن المادي والحياة الحيوانية، ويمتازُ على الكلِّ بالحياة العقلية والرُّوحية مما يجعلُه كائنا مفوِّدا متطلِّعا مفكِّرا في مستقبلٍ أفضلَ وفي حياةٍ أسْعدَ دُنيًا وآخِرة.

ويومَ جاء الإسلامُ وجَدَ مِن حولِه واقعًا بائسا تُوجِّهُه المصالحُ والعصبياتُ ، وتَسودُه عقائدُ وتصوراتٌ وقِيَمٌ وموازينُ وأنْظِمةٌ وأوضاع ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان، فكيفَ استطاعَ أن يُعيدَ الأمورَ إلى نِصابِها والقطارَ إلى سِكَّتِه لولا هذا الرصيدُ المذخورُ من الفِطرة، إنه لم يتملَّق ولم يُداهِن تلك العقائدَ ولم يُهادن تلكَ الآلهةَ المزعومةَ، (إنما وقَعَ الذي وقَعَ وفقَ سُنة دائمةٍ تتكررُ كلما أخذَ الناسُ بها واستجابوا لها، لقد وقعَ الذي وقعَ من غلبة هذا المنهج، لأنه تعامَلَ - من وراء الواقع الظاهري - مع

1- سورة الأنعام، الآية: 38.

2- قد يتبادرُ إلى الأذهان أن سيدا يرى علم التوحيد غريبا على المنهج الإسلامي!، ولْيتذكر القارئُ أنه مهَّدَ له بأن خصَّ علمَ التوحيدَ المَشُوب بالجدَل الكلامي والنظر الذهني الصِّرْف، كما نجدُه عند بعض المتكلمين المغرِقين في التفاريع الجدلية والمطارحات الكلامية التي تُنسيكَ لُبَّ هذا العِلم، وفي كُتب سيد موقفٌ واضحٌ من المسألةِ كمُقدِّمة "الخصائص"، و"المقومات"، و"المعالم"، ومواطنَ كثيرة من "الظلال".

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1085.

رصيدِ الفطرةِ المَكْنون، وهو رصيدٌ ضخمٌ هائل، لا يغلِبُه هذا الرُّكامُ الظاهريُّ حين يُستنقَذُ ويُجمَعُ ويُوجَّه ويُطلَق في اتجاهٍ مَرسوم) [1] وما حدثَ وفقَ هذه الملابسات يمكنُ أن يحدُثَ مرةً أخرى وفقا لسُنَن الله الجاريةِ التي لن تتبدلَ ، وإنما يحتاجُ الأمرُ فقط إلى استثارة كَوامِن هذه الفِطرة التي تصنعُ الأعاجيبَ متى صدقت النياتُ وصحَّ العزمُ، وإلا فهيَ عُقوبةُ الفِطرة [2] كما سمَّاها سيد؛ يؤديها الإنسانُ من نفسِه وأعصابِه ومن بدنِه وعافيتِه ومن سعادتِه وطُمأنينتِه ، ومن مواهبِه وخصائصِه ومن دنياهُ وآخرتِه؛ يؤديها ضريبةً لمخالفتِه لنداءِ الفطرةِ العميقِ، يؤديها فادحةً قاصمةً مدمِّرةً لما رفضَ تكريمَ ربِّه له، فاعتبرَ نفسَه حيوانا - وقد أرادهُ اللهُ إنسانا، وجعلَ نفسَه آلةً - وقد أرادهُ اللهُ مهندِسا للآلَةِ، واتخذَ له آلهةً من دون الله، فاتخذَ من المالِ إلهًا، و من الجِنس إلهًا، ومن المادة إلهًا، ومن الإنتاج إلهًا، ومن المُشرِّعين له آلهةً يغتصبونَ بذلك حقَّ الله في التشريع لعبادِه [3] ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [4] ، وهذا مآل كل مَن خالفَ سُنن الله وتنكَّب الجادَّة؛ فهي العقوبةُ التي تدمِّره وتجعلُه ذليلا تابِعا يخدُم الآلةَ عوض أن تخدُمَه الآلةُ، ويصير عبدا وهو سيّدُ الأرض!.

1- سيد قطب، هذا الدين، ص51 ، وقد خصصَ سيد فصْلا خاصًّا في كُتيِّبِه هذا لرصيد الفطرة استغرقَ حواليْ خمسَ عشرة صفحة من 96 -.

2- عنوانُ فصلٍ من كتاب "الإسلام ومشكلات الحضارة" لسيد قطب ، أفاضَ فيه الحديثَ عن النتائج والانعكاسات السِّلبية التي تواجه مُتنكِّبي طريق الفطرة اللاحِب، من ص123-165.

3- ينظر: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ص123 ،124، بتصرُّف.

4- سورة البقرة، الآية 108.

المبحث الثاني: دليلُ العقل.

المطلب الأول: أسلوبُ العقلِ في التوصُّل إلى المعرِفة.

يقول عز وجل في مُحكم الذِّكْر : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1] ولـمَّا كان العقلُ ركيزةَ البحث في المعرِفة ؛ فـإن بعضَ المدارِس الفلسفية - بما فيها الإسلامية - بالَغَت في تقدير إمكاناتِه وقُدراتِه، بل منها ما تجاوزَ الحدودَ وحاولَ استكشافَ الغيبِ ، وبحثَ في ما وراءَ المادةِ اعتمادًا على هذه المَلَكَة وثِقةً بها حتى انتهى بعضُهم إلى تأليهِ العقل.

وقد تأثرَ بعضُ الفلاسفةِ المسلمينَ بتلكَ المدارِس الفلسفيةِ كالفارابي [2] الذي قال بالعُقول العَشَرة، وابن سينا [3] بنظرية الفَيْض والإشْراق، ولكنَّ القر آنَ يقدمُ لنا العقلَ بصورةٍ بسيطةٍ لا تعقيدَ فيها، إنه نعمةٌ مِن نِعَم الله تعالى على الإنسانِ، به استحقَّ الخلافةَ على الأرضِ ، وهو مَناطُ التكليفِ، به يتأملُ الإنسانُ مخلوقاتِ الله ويدرُسُ ظواهرَ الكون ، ويفكر في الأنفُس والآفاق ، ويصِلُ إلى اليقين الجازِم بوجود الخالِق المبدِع الذي أحسنَ كل شيءٍ خلقَه.

وقبلَ أن نُفيضَ في أسلوبِ العقلِ للتوصُّل إلى المعرِفة يجدُرُ بِنا أن نُعرِّف به لغةً واصطلاحًا :

1- سورة الحج، الآية 46.

2- أبو نصر الفارابي، تركي العنصر والبيئة، ثاني فيلسوف ذي شأن في الفلسفة الإسلامية، يلقب "بالمعلم الثاني" مقابل أرسطو "المعلم الأول"، ولد في "وسيج" إحدى مدن "فاراب" سنة 225هـ، ارتحل إلى "بغداد"، وكان واسع الاطلاع على فلسفة أرسطو، ثم انتقل إلى بلاط سيف الدولة في حلب سنة 330هـ، وارتحل من بغداد نهاية سنة 330هـ، وتوفي في دمشق سنة 339هـ. وقد ألَّف عددا ضخما من الرسائل والكتب والشروح في المنطق، وفي الأخلاق، وفي ا لمُثُل العقلية الأفلاطونية، وفي العِلم الإلهي مثل "عيون المسائل" وغيرها، ومن كُتبه المشهورة "المدينة الفاضلة".

ينظر: د.بدوي: موسوعة الفلسفة، 2/ 93 - 118 .

3- هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ، الشيخ الرئيس في الفلسفة والمنطق، ولد سنة 370هـ في قرية "أفشنة"، ترحَّل وطلب العلم وكُتب الأوائل ودرَس الطب، توفي عام 428هـ، له مؤلفاتٌ كثيرة منها "الشفاء"، "الإشارات والتنبيهات" ، "رسالة في الحدود"، "رسالة في إثبات النبوات"... وغيرها كثير.

ينظر: د.بدوي: موسوعة الفلسفة 40 – 67، وينظر: وفيات الأعيان 1/ 419، وينظر: رضا كحالة: معجم المؤلفين: 4/ 20.

العقلُ في اللغة:

قال **ابن فارس** [1]: (العَيْن والقافُ واللامُ أصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ، يدلُّ على حُبْسَةٍ في الشيءِ أو ما يُقارِبُ الحُبسةَ) [2] فالعقلُ حَبسٌ أو مَنعٌ ومِنْهُ: عِقالُ البَعيرِ الذي يَمنعُهُ من الانفِلاتِ، هذا حِسًّا أمَّا عقلُ الإنسانِ فإنهُ غيرُ حِسِّي ولِذا عبّر عنه بأنه: مَلَكة أو نُور.

وفي شِعر الأعْشَى قوله:

تهَالَكُ حتى تُبطِرَ المرءَ عقلَهُ وتَصْبِي الحَلِيمَ ذا الحِجَى بالتَّقَتُّلِ [3]

أي أصابتْه الدهشَةُ والحيْرَة التي تَذهبُ بالعقلِ الذي يزِنُ الأمورَ أمامَ دَلالِ وجَمال المرْأة.

وقد أفاضَ صاحبُ "لسان العرب" في تَعداد مَعاني (عقل) نجتزئُ بعضَها وفقَ ما يقتضيهِ المقام، فيقول : (العَقْلُ: الحِجَى والنُّهى ضِدُّ الحُمْق... عَقَلَ يَعْقِل عَقْلاً ومَعْقُولاً ، وهو مصدرٌ سماعي، وقال سيبويه[4]: هو صفة، قال ابن الأَنباري: رَجُل عاقِلٌ هو الجامِع لأَمرِه ورَأْيِه ... وعَقَلَ الشيءَ يَعْقِلُهُ عَقْلاً: فَهِمَه... وعَقِيلَةُ القومِ سَيِّدُهم ... وقال الأَزهري: العَقيلة الكَريمة من النساء والإِبل وغيرِهما) [5].

وجاء في القاموس المُحيط: (العَقْلُ : العِلْمُ بِصفاتِ الأَشْياءِ من حُسْنِها وقُبْحِها وكَمالِها

1- هو العلاّمة اللغوي أحمد بن فارس بن زكريا القزويني أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب أصلُه من "قزوين" وأقام في "همذان"، وانتقل إلى "الرّيّ" فتُوفي بها، له تصانيفُ نافعةٌ منها (معجم مقاييس اللغة).

يُنظر: سير أعلام النبلاء ج17/ 103 ؛ الأعلام ج1/ 193.

2- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (عقل) .

3- ديوان الأعشى (ميمون بن قيس)، ص251، (بيروت: دار النهضة العربية 1972م).

4- عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو البشر، الملقب سيبويه، إمام النُّحاة وأوَّل من بسَّط علم النَّحْو، وُلد في إحدى قرى "شيراز" سنة 148هـ، وقَدِم "البصرةَ" فلزِمَ الخليلَ بن أحمد ففاقَهُ، وصنَّف كتابَه المسمَّى (كتاب سيبويه) في النَّحو، توفي بالأهواز سنة 180هـ.

ينظر: وفيات الأعيان: 1/ 3389 ؛ البداية والنهاية: 10/ 176 ؛ تاريخ بغداد: 12/ 195.

5- ابن منظور، لسان العرب، ج10/232 ، 233.

ونُقْصانِها... والحَقُّ أنه نورٌ روحانِيٌّ به تُدْرِكُ النفسُ العلومَ الضَّرورِيَّةَ والنَّظَرِيَّةَ . وابْتِداءُ وجودِه عند اجْتِنانِ الوَلَدِ ثم لا يَزالُ يَنْمو إلى أن يَكْمُلَ عند البُلوغِ ... والعَقْلُ : الدِّيَةُ والحِصْنُ والمَلْجَأُ والقَلْبُ)[1] وخُلاصةُ هذه التعاريف الدلالةُ على الحَبْس والمَنع والتقييد لصاحبِ العقلِ من المَهالِك كالنورِ يَهدِي السارِي، وبه تتميزُ الأشياءُ ويُعرَفُ الحَسَنُ من القبيحِ والخيرُ من الشرِّ.

1- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (عقل) ، ص 902.

العقلُ في الاصطلاح:

عرَّفَ الكثيرُ من علماء المسلمينَ العقلَ بأنهُ جوهرٌ ولم يَقصِدوا بجوهرِيَّتِه مفارَقتَهُ للمادة وقيامَه بنفسِه مستقِلًّا كالعقل الفعَّال في الفلسفة اليونانية، وإنما أرادوا بيانَ اختلافِ فعلِه عن فِعلِ الحواس المادية كالسمْع والبصَر والحِس، وقَصَدوا من تجرُّدِه عن المادة سبْقَ مبادئِه المُدرَكات الحِسية، ولهذا فإنهم يجعلون فعله مقترنا بالمادة [1]، ويقول الجرجاني[2] : (إنه جوهرٌ مجرَّدٌ عن المادة في ذاتِه مُقارِن لها في فِعلِه، فهو: جوهرٌ روحانيٌّ خلقَه اللهُ متعلقا بالبدَن) [3].

ويقول التهانوي : (وفي خُلاصة السلوك قالَ أهلُ العِلم: العقلُ جوهرٌ مضيءٌ خلقَه اللهُ في الدماغ، وجعلَ نورَه في القلبِ، وقال أهلُ اللسانِ: العقلُ ما يُنجِي صاحبَه من مَلامَةِ الدنيا ونَدامةِ العُقبَى، وقال حكيمٌ: العقلُ حياةُ الروح والروحُ حياةُ الجسد، وقال حكيمٌ: ركَّب اللهُ العقلَ في الملائكةِ بلا شهوةٍ، وركَّبَ في البهائم الشهوةَ بلا عقلٍ، وفي ابنِ آدمَ كِليْهما، فمن غلبَ عقلُه شهوتَه فهو خيرٌ من الملائكةِ، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو شرٌّ من البهائِم) [4].

فالعقلُ شرطٌ في معرِفةِ العلوم وركيزةٌ في كمالِ العِلم والعمل، كرَّمه الإسلامُ وشرَّفَه وحثَّه على التفكُّر والنظر وبيَّنَ له حدودَه فإذا تعدَّاها بانَ قصورُه وضعفُه، فهو محدودُ الطاقاتِ، لا يدخلُ في دائرة إمكانِه إدراكُ كلِّ شيءٍ، إنه مهما أوتيَ من مقدرة على الإدراكِ والاستيعابِ والإحاطةِ فسيظلُّ بعيدًا عن مُتَناول كثير من الحقائق والأسْرار، بل كانَ خوضُه فيها على مدار التاريخ الإنساني مَدْعاةً لوُقوعه في كثيرٍ من الأخطاء وركوبِه مَتْنَ العديدِ من الأخْطار.

1- ينظر: عبد الرحمن الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، (ط 1، الرياض: مكتبة المؤيد - منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992م)، ص302.

2- هو أبو الحسن علي بن محمد علي الحنفي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف ومن كبار العلماء في العربية، وُلد بجرجان سنة 740هـ ومات بشيراز سنة 816هـ.

ينظر: بُغية الوُعَاة: 2/ 196، 197 ؛ مفتاح السعادة: 1/ 192، 193 ؛ البَدْر الطالع: 1/ 488، 490.

3- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية) ص151.

4- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مج3، ص314.

أسلوبُ العقل في التوصُّل إلى المعرِفة:

ذُكرَ العقلُ بالصيغة الفِعلية في القرآن الكريم تسعًا وأربعينَ مرةً، ولم يُذكرْ بصيغتِه الاسمِية ولا مرةً واحدة، والصيَغ الفِعلية جلُّها في المضارع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾... والفعلُ في اللغة يعني الحَرَكة والاستمرارَ، فالعقلُ أداةُ المعرِفةِ والفهْم وفعلِ الإدراكِ واستنباطِ الحقائقِ الكونية، والقرآن يحثُّ الإنسانَ الذي وُهبَ العقلَ أن يُمارسَ دورَهُ الحقيقي عن طريق الفِعل (**يعقل**)، فيسلط ضوء هذا المصباح الكاشف على نفسِه أوَّلًا فيتعرَّفَ على باطنِها وخباياها وأسْرارِها، وعلى الآفاقِ فيكشفَ عن أسرار الطبيعة ويتعرَّف على نواميسِ الكون، وعلى الحياة فيبحث في المنشأ والمصير، وعلى الآخرة فيعرفَ ماذا بعدَ الموت. هذه هي كُبرى المَحاوِر التي يَرُوزُهَا العقلُ البشريُّ ويُدَندِنُ حولَها، فإذا وصلَ بطاقاتِه إلى حيثُ لا يُمكِنُه الاستيعابُ والإحاطةُ أعانَه الوحيُ الإلهيُّ بالأخْبار التي جاءَ بها الأنبياءُ في الكُتب المنزَّلة من خالِق الإنسانِ والأكْوان.

أما في حدودِ طاقاتِه فهو أساسُ المعرِفة في كلِّ الميادينِ، بحيث تُرَدُّ جميعُ الأشياءِ المطلوب معرفتُها إلى المبادئِ الفطريةِ التي ينطوي عليها عقلُ الإنسانِ، والتي تَتَّسِم بالأوَّلية والضرورة والكُلِّية والعمومية والوضوح والتميُّز، وقد أثبتَ الوحْيُ هذه المبادئَ متمثلةً بالفطرةِ التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها، والتي هي في تمام نُضجِها مَناط التكليف. وهذه المبادئُ مُستكِنَّةٌ في العقلِ الإنساني منذُ وِلادتِه دون أن تكونَ إذْ ذاكَ عِلْما كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[1] فإذا تفاعلَ الإنسانُ بعد ذلكَ مع الوجودِ المُحيط به عن طريق الإدراكاتِ الحِسية المتفرِّقة برزَتْ هذه المبادئُ لتؤديَ دورَها في الارتفاعِ بهذه الإدراكات إلى مستوَى المعرفةِ الإنسانية ولِتَهدِيَ الإنسانَ إلى ما وراءَها من حقائِق[2].

والقرآنُ الكريم في كثير من الآيات يُندِّد بأولئكَ الذين يُعطِّلونَ عملَ العقلِ ويَنْساقونَ بتقليدٍ أعمى وراءَ ما وَرِثوهُ عن الآباء والأسْلاف ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

1- سورة النحل، الآية 78.

2- ينظر: عبد الرحمن الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، ص360.

ءَابَآءَنَآ ﴾[1] ثم يُتبعُ هذا بالاستفهام الذي يَحمِل معنى التعجُّب والاستنكار ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ ﴾[2] فالتبَعيةُ والتقليدُ تعطيلٌ لوظيفة العقل وإلغاءٌ للاختيار الشخصي؛ الذي هو مَنَاطُ الثواب والعِقاب.

وفي آياتٍ أخرى يُسقِطُ صفةَ الإنسانية عن هؤلاءِ الذينَ عطَّلوا حواسَّهم وعقولَهم ويُشبِّهُهُم بالحيوان، بل يَنزِل بهم إلى أحَطَّ من الحيوان ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤ ﴾[4] فما قيمةُ السمع والبصر والحواس كلِّها وهي لا تُستخدَم في المعرفة العقلية، كذلك الإنسانُ الذي لا يَستخدمُ حواسَّه في الوصول إلى المعرفة كالحيوان بل أَضلّ ؛ لأن الحيوان لا عقلَ لهُ (وفي التعبير تحرُّزٌ وإنصافٌ، إذ يذكُر ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ ولا يُعمِّم؛ لأن قلةً منهم كانت تَجنحُ إلى الهُدَى، أو تقف عند الحقيقة تتدبرها، فأما الكثرة التي تَتخذُ من الهوى إلهاً مُطاعا، والتي تتجاهلُ الدلائلَ وهي تطرُقُ الأسماعَ والعقولَ فهي كالأنعام، وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعدادُ للتدبُّر والإدراك، والتكليف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع وَوُقوف عند الحُجة والإقناع، بل إن الإنسان حين يتجرَّد من خصائصِه هذه ليكونَنَّ أحطَّ من البهيمة، لأن البهيمةَ تهتدي بما أَوْدعها اللهُ من استعدادٍ فتؤدي وظائفَها أداءً كاملا صحيحا، بينما يُهمِلُ الإنسانُ ما أَوْدَعه اللهُ فيه من خصائص ولا يَنتفعُ بها)[5].

أَمَّا أسلوبُ العقل في التوصُّل إلى المعرِفة، فطلبُ المعرفة مركوزٌ في فطرة الإنسان منذُ أن وُجِد على هذه البسيطة، بدليلِ امتلاكِه لوسائل المعرفة وَوُجودِها فيه ؛ وهي الحواسُّ الخمسُ التي زُوِّدَها والتي هي بمثابة نوافذَ أساسيةٍ للنظر العقلي والتقدير الوِجْداني للجمال والجلال والحق والخير، وقد نشأَ من

1- سورة البقرة، الآية 170.

2- سورة البقرة، الآية نفسُها.

3- سورة الأنفال، الآية 22.

4- سورة الفرقان، الآية 44.

5- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 2566.

ذلكَ كلِّه الرغبةُ في المعرفة، وهذه الرغبةُ هي البحثُ عن الحق وعن الإجابات الماثِلة أمامَ الفطرة البشرية: مَن أنا؟ ومِن أينَ جئتُ؟ وما ضرورةُ وُجُودي في هذه الدنيا؟ وإلى أينَ بعْدَ الموت؟ ومتى؟ وكيفَ؟... إلى غيرِها من الأسئلةِ التي تَنْثَالُ على الفِكر البشريِّ وتضطرُّه للبحث والنظر والاستقصاء ، وهنا تتعدَّد مذاهبُ الفِكر والنظر عند الفلاسفة والعلماء ، فتتأسَّسُ المدارسُ والاتجاهات وتتضارب الأدلة، وتنشأُ المناهجُ التي لا آخِرَ لأسمائِها من واقعيةٍ وتجريبيةٍ وحِسيةٍ ومِثاليةٍ وغيرِها ؛ وكلُّهم يُدَنْدِنُ حولَ الأسلوبِ والطريقةِ المُثْلى التي يَتوصلُ بها العقلُ إلى المعارِف.

أمَّا طريقةُ القرآنِ الكريم في بَيان سبيل الوُصول إلى المعارِف فهو حثُّ الإنسان على استخدام ما يَملِكُه من أدوات الكشْف بحِسِّه وبَصرِه وسمعِه ؛ بل ببصيرتِه وأن يُمارسَ دورَه الحقيقي عن طريق الفِعل "يَعقِل" فيسلِّط ضوءَ هذا المِصباح الكاشِف الذي وَهبهُ اللهُ تعالى إياهُ ليدرِكَ أسرارَ الكون والقوانين العُلْوية التي تقفُ وراءَ هذا النظام المُحْكَم المدهِش، وأنْ يَسبِر أغْوارَ هذهِ النواميسِ التي تطَّرِد في الوُجود من الذَّرَّة إلى المجرَّة، ووراءَ كلِّ هذا؛ التعرُّفُ على مُكوِّن الأكْوان وخالِق المخلوقات وبارئِها والإيمانِ به إيمانًا لا تَشوبُهُ شائِبةُ شكٍّ، وخلال عرْضِه هذا يسوقُ لنا الأمثلةَ والشواهِدَ مِن قصص الأنبياءِ السابقينَ؛ وكيفَ كانوا يهدمون صُرُوحَ الوَثنياتِ التي سفَّهت العقولَ فعبدتْ ما لا يسمعُ ولا يعقِلُ، بهذا وغيرِه سَمَا القرآنُ بالعقلِ إلى ذُرًى ما كانَ لِيبْلُغَها بِغير هدْيِ الوَحْي وإرشادِه.

ويوضحُ سيدٌ هذه الطريقةَ بِجَلاء عند تفسيرِه لقولِه تعالى : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [1] أنهُ لو علِمَ اللهُ تعالى ـ وهو أعْلَم بالإنسانِ وطاقاتِه ـ أن العقلَ البشريَّ كافٍ لبلوغ الهُدَى والمصلحة في حياة الإنسان وآخِرتِه لَوَكَلَه إليه ولَمَا أرسلَ إليه الرُّسُل تَتْرَى على مدى التاريخ، ولما جعل حجتَه على عبادِه هي رسالةُ الرسل إليهم، ولما جعلَ حجةَ الناس عندَه ـ سبحانه ـ هي عدَمُ مجيءِ الرسُل إليهم بمقتضى صريح الآية السالِفة، ولكنهُ ـ سبحانه ـ علِمَ أن العقلَ أداةٌ قاصِرةٌ بذاتِها عن الوُصول إلى الهُدى بغير مَعونة الوحي؛ وقاصِرة عن رسْم منهج للحياةِ يُحققُ المصالحَ كلَّها في هذه الحياةِ

1- سورة النساء، جزء من آية 165.

ويُنجي صاحبَها في المآل [1] ، إذن فما هي وظيفةُ العقل البشري؟ يُلخصُ سيدٌ وظيفةَ هذا العقل في التلَقِّي عن الرسالةِ وكرَّرَها في مواضعَ عِدةٍ من "الظلال" وفي كُتبِه الأُخرى كـ "الخصائص" و"المقومات" و"المعالم"، وليس معنى هذا أن الإسلامَ يُلغي وظيفةَ العقل فيجعله مُتلقيا فقط، مُؤتمِرًا لا يناقِش، تابِعًا لا يَسأَل، لا .. فالإسلامُ دينُ العقل (بمعنى أنه يخاطبُ العقلَ بقضاياهُ ومُقرراتِه، ولا يقهرُه بخارِقة ماديةٍ لا مجالَ له فيها إلا الإذعان ، ويخاطبُ العقلَ بمعنى أنه يصححُ له منهجَ النظر ويدْعوهُ إلى تدبُّر دلائل الهُدى ومُوحِيات الإيمان في الأنفُس والآفاق، ليرفعَ عن الفطرة رُكام الإلْف والعادَة والبلادَة، ورُكام الشهوات المُضِلة للعقلِ والفِطرة، ويخاطبُ العقلَ بمعنى أنه يَكِلُ إليه فهْمَ مَدلولاتِ النصوص التي تحملُ مقرراتِه، ولا يفرضُ عليه أن يؤمنَ بما لا يفهَمُ مدلولَه ولا يُدركُه) [2] .

فسيدٌ في تقريرِه هذا لم يُسايِرْ ما كانَ سائدا في عصرِه من تقديس العقل وجَعْلِه نِدًّا للوحي، واعتبرَ في موضع آخَرَ محاولةَ محمد عبده من بين المحاولات التي كُتبتْ للردِّ على انحراف مُعين فأنشأتْ هي بدورِها انحرافًا آخَر، فمحمد عبده واجهَ بِيئةً فكريةً جامدةً أغلقتْ بابَ الاجتهادِ وأنكرتْ على العقل دورَه في فهْم شريعةِ الله، وكانَ بالمُوازاة تأليهٌ للعقلِ، فلما حاولَ أن يُثبتَ قيمةَ العقل مُقابِلَ النصِّ ويُحييَ فكرةَ الاجتهادِ ويفتحَ بابَه ويحارِبَ الجهلَ والخُرافةَ، جعلَ العقلَ البشري نِدا للوحي وصرَّح في "رسالة التوحيد" قائلا: (فالوحيُ بالرسالة الإلهية أثرٌ من آثارِ الله، والعقلُ الإنساني أثرٌ أيضا من آثار الله في الوُجود، وآثارُ الله يجبُ أن ينسجمَ بعضُها مع بعض ولا يعارِضَ بعضُها بعضًا) [3] فأنكرَ سيدٌ عليه هذه النِّدِّيةَ بين الوحي والعقلِ ، فالوحيُ أشملُ من العقل وأصلٌ لهُ وميزانٌ يختبرُ العقلُ عندَه مقرراتِه ومفهوماتِه وتصوراتِه ، ويصححُ به اختلالاتِه وانحرافاتِه ، فبينَهُما توافقٌ وانسجامٌ ولكنْ لا نِدِّيَّةَ، فضلا على أن العقلَ المُبرَّأَ من النقص والهوى لا وُجودَ له في دُنيا الواقِع وإنما هو مِثالٌ [4] فالعقلُ له مجالُه الواسعُ الرحِيب الذي ينطلقُ فيه وليس مَنفيا مَطرودا مُزدرًى كما يُروِّجُ له بعضُ الشانِئينَ، ولكنْ مع التسليم بما هو خارجٌ عن مجالِه وطاقاتِه، فلا يكونُ حَكَما على النصِّ ولا يخوضُ فيما لا يعودُ

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 806 بتصرف.

2- المصدر نفسه، مج2، ص 807.

3- محمد عبده، رسالة التوحيد، ص138.

4- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص22.

عليه بطائلٍ من الأمور الغيبيةِ إلا إذا كانَ رائده النص المُوحَى به ، فيتلقَّى مقرراتِه على ضوءِ ومدلولِ هذا النص، وهذا ما سنبيِّنُه بالتفصيل في المطلب المُوالي إن شاء الله.

المطلب الثاني: حُدودُ الإدراكِ العقلي في القضايا العَقَدية:

لم يُغفِل سيدٌ هذه القضيةَ الكبرى في كُتبه وعلى رأسِها "الظلال" [1]، فقد أفاضَ فيها القوْلَ لأدْنى مناسبة؛ خاصةً في تقديماتِه للسوَر مُبيِّنا موقفَه من العقل ومُوضحا الصلةَ بينَه وبينَ الوَحي، مُركِّزا على دوْر العقل في فهْم العقيدة، راسِمًا المجالَ الفسيحَ الذي يتحركُ فيه ؛ ومن ثَم المَعالم التي يقفُ عندَها لا يتعدَّاها تمشِّيا مع خِلقتِه وتكوينِه ووضعِه وطبيعتِه (طبيعة أنهُ مخلوقٌ حادِثٌ، ليس كُلِّيا ولا مُطلقا ، ليس أزلِيا ولا أبدِيا، ومن ثم ف إن إدراكَه لا بُد أن يكونَ مَحدودا بما تحدُّه به طبيعتُه، ثم هو محدودٌ بوظيفتِه، وظيفة الخِلافة في الأرض لتحقيقِ معنى العِبادَة لله فيها) [2] فللإدراكُ العقليُّ للإنسان له حدودُه ومجالاتُه، ولكنَّ المذاهبَ الإنسانيةَ جنحتْ به إلى إفراط وتفريط، فمَنْ أفرطَ قدَّسَ العقلَ وادَّعى له العِصمةَ والضرورةَ المطلقةَ في أحْكامِه على الأمورِ تحسينًا وتقبيحا، والإ حاطةَ بعالميْ الغيب والشهادةِ في الأُصول والتفاصيل؛ ويُمثِّلُ هؤلاءِ أصحابُ الفلسفة المِثالية.

وفريقٌ بالمقابِل جعلَ العقلَ مادةً ، وقَصَر مجالاتِه على عالَمِ الحِس والتجرِبة ومن ثَمَّ أنكرَ عالَمَ الغيب ثُبوتا وتفصيلا، ويُمثلُ هؤلاءِ أصحابُ الفلسفة التجريبية والواقعية [3].

أمَّا النظرةُ القرآنيةُ الإسلاميةُ لحدودِ الإدراك العقلي فوَسَطٌ بين ذيْنِكَ الاتجاهيْن، فالإنسانُ في الإسلام مُكوَّنٌ في طبيعتِه من عالَمِ الغيب والشهادة لأنه من رُوح ومادَّة، وكلاهُما مخلوقٌ لله تعالى، فإدراكُه العقلي يَعمل في مجالٍ فَسيح مِن عالَمِ الشهادَة مع التسليم بعالَمِ الغيب ، وبثُبُوت طريقٍ للمعرفةِ فوقَ طريقِ العقل هو طريقُ الوحي إلى الأنبياء الذين خَصَّهم اللهُ تعالى بمواهبَ وطاقاتٍ روحيةٍ عظيمة، فوظيفتُهم بالنسبة إلى هذا العالَمِ كوظيفةِ العقلِ بالنسبةِ إلى العالَمِ المَحسوس، (لكنَّ العقلَ يبقى دائما طريقَ التصديق والاقتناع وأداةَ التحقيق والمُراقبة ، وعن طريقِه يتحققُ الإنسانُ صِدْقَ ادِّعاء النبوة ،

1- ينظر: الظلال، مج 1، ص 40 ، 100، 525، ومج 2، ص 690، 722، 723، 806، 807، 808، 990، 1098،1097، 1120، ومج3، ص1296 وغيرها.

2- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص55.

3- ينظر: راجح عبد الحميد الكُردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، (ط 1، الرياض: مكتبة المؤيد، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992)، ص653 بتصرف.

ولذلكَ كان خِطابُ الأنبياءِ للناس ودعوتِهم إلى الإيمان بنُبُوَّتهم عن طريق العقل وقناعتِه) [1].

فالعقلُ أهمُّ ما يُميزُ الكَيْنونةَ الإنسانيةَ المُدرِكة، ومجالُه المعرِفةُ الحِسيةُ بالأشياء والمعرفةُ العقليةُ بها، والتي تعتمدُ في الطَّرَف الأدْنى منها على الأشياءِ المَحسُوسة، وتعتمدُ في الطرَف الأعْلى على ما يقفُ وراءَ المحسُوسات من معنوياتٍ وقوانينَ عقلية، والتسليم مِن خلال النظر في قوانينِ العقل في عالَم الشهادة بأنَّ هنا لكَ عالَمًا غيرَ مُشاهَد ولا مَنظور لا يستطيعُ العقلُ إنكارَه، بل إذا أعْمَلْنا العقل إعْمالا سليما فسيُثبتُ وُجودَه [2].

أمَّا ميدانُ مَعرفةِ العقلِ الإنساني فواسعٌ عريضٌ في عالَم الشهادة، عَرَض له القرآنُ في كثير من الآيات منها قولُه تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ [3] وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [4] وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾ [5] وقوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ ﴾ [6] إلى غيرِها من الآياتِ التي تستحِثُّ العقلَ على النظر في الكوْن والوُصول إلى أسرارِه التي أوْدَعها اللهُ فيه ، ومِن ثَمَّ الاهتداء إلى مُوجِد الأكْوان ومُسخِّرها وخالِقها ومُبدِعها سبحانه.

وهُنا نصلُ إلى حُدود الإدراك العقلي في القضايا العَقَدية المتصلة بعالَم الغيب، فهلْ للعقل ـ مُستقِلًّا ـ قدرةٌ على اكْتِناهِ الأمورِ الغيبية؟ وهل لهُ أن ينظُرَ ويبحثَ فيها كما يبحثُ في عالَم الشهادة؟ الجوابُ أنَّ هذه القضيةَ ؛ علاقةُ العقل بعالَم الغيب، هي أهمُّ قضيةٍ في مجال المعرِفة العقلية والتي عُرفتْ باسم "العقل والنقل" وألف فيها الكثيرُ كُتبا وموسوعاتٍ ربما أَبْرزها موسوعةُ ابن تيمية (دَرْءُ تَعارُض

1- محمد المبارك، نظام الإسلام "العقيدة والعبادة"، (ط4، بيروت: دار الفكر، 1975م)، ص96.

2- ينظر: راجح عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص647.

3- سورة الجاثية، الآية 13.

4- سورة لقمان، الآية 20.

5- سورة الأعراف، الآية 54.

6- سورة إبراهيم، الآيات 32، 33.

العقل والنقل، أو مُوافَقة صحِيح المَنقول لصرِيح المعقول).

فالعقلُ بما أُوتيَ من طاقاتٍ ومَلَكات ونَظَر وقوانينَ تُمكِّنُه مِن البحث ، إنما يعملُ في عالَم الشهادة، ومهْمَا بلغت الثقةُ به فسيظلُّ بعيدًا عن اكْتِنَاهِ كثيرٍ من الحقائقِ وعن سَبْرِ أغْوارِها، فعالَمَ الغيب لا يُنفَذ إليه بالحواس ولا بالعقل، ولا يُمكن للعقل القطع برأيٍ في ذاتِ الله العَلِيَّة ولا في صفاتِه ؛ ولا في السمعيات؛ ولا في المُطلق ؛ ولا في اللَّانِهائي ؛ ولا في الأَزَل والأَبَد ؛ ولا في الجَبْر والاختيار ؛ ولا في القَضاء والقَدَر؛ وغيرِها من المسائل التي تتجاوزُ حدودَ العقل وإمكانياتِه ، إلا بمعرِفة الوحي والنص الإلهي، ولكنَّ الرغبةَ في المعرفةِ واللَّجَاجَ في الوُصول إلى الكَمال المُطلق ـ وهو مُحال ـ جَنَى على بعضِ العُقول فأوْرَدَها المَهَالِك والمَعَاطِب ، نَعَمْ خُلِقَ الإنسانُ توَّاقًا إلى المعرِفة ؛ دائمَ الشوْقِ في الوُصول إلى الحقيقة، ولكنَّ احترامَ حُدود العقل واجبٌ وإلا فهُوَ التِّيهُ والضلَالُ.

يولَدُ الإنسانُ من بطنِ أُمِّهِ جاهِلا لا عِلْمَ لهُ ، ثُم يُكوِّنُ له رصيدًا من المعارِف والعُلوم يَكسِبُها من مُحيطِهِ الخارجي ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] فكيفَ لمخلوقٍ هذا شأنُهُ أنْ يقطعَ برأيٍ في عالَمٍ لا يخضعُ لقوانينِ العقل ولا يَقعُ في دائرةِ الحواسِّ؟ (ومحاولةُ إدراكِ ما وراءَ الواقع بالعقل المَحدودِ الطاقةِ بحُدود هذه الأرضِ والحياةِ عليها، دونَ سَنَدٍ من الرُّوح المُلهَم والبصيرة المفتوحة وتركِ حِصةٍ للغيبِ لا ترتادُها العقولُ، فأمَّا هذه المحاولةُ فهي محاولةٌ فاشلةٌ أوَّلا ومحاولةٌ عابِثةٌ أخِيرًا، فاشلةٌ لأنها تستخدِمُ أداةً لم تُخلَق لرصْد هذا المجال ، وعابثةٌ لأنها تُبدِّدُ طاقةَ العقل التي لم تُخلَق لمثل هذا المجال... وأن عدمَ إدراكِه للمجهول لا يَنفي وُجودَه في ضمير الغيب المَكنون، وأن عليه أن يَكِلَ الغيبَ إلى طاقةٍ أُخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقَّى العلمَ في شأنِه من العليمِ الخبيرِ الذي يُحيطُ بالظاهرِ والباطنِ والغيبِ والشهادة)[2] فإدراكاتُنا مخلوقةٌ مُحدَثةٌ وخَلْقُ الله أكبر من خَلْق الناس وهُوَ بكُل شيءٍ محيطٌ، وليس هذا بقادِحٍ في العقلِ ومَدارِكِه، فالعقلُ ميزانٌ صحيحٌ وأحكامُه يقينيةٌ لا كذِبَ فيها إلا أنهُ لا يصلُحُ أن توزَنَ به أمورُ التوحيد

1- سورة النحل، الآية 78.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص40.

والآخِرة وحقيقة النُّبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طورِه فذلكَ طمعٌ في مُحال [1].

وقد مثَّل ابن خلدون [2] لهذا برجُل رأى الميزانَ الذي يُوزنُ به الذهَبُ فطمعَ أن يزِنَ به الجِبالَ وهذا لا يُدرَك (لكنْ للعقل حدٌّ يقفُ عندَه ولا يتعدَّى طورَه، حتى يكونَ له أن يُحيطَ بالله وصفاتِه، فإنه ذَرَّة من ذَرَّات الوُجود الحاصل منه، وتفطَّنْ مِن هذا الغلط مَن يُقدِّم العقلَ على السمع في أمثال هذه القضايا وقُصُور فهمِه واضمحلال رأيِه... فإذا: التوحيد هو العجزُ عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيراتِها، وتفويض ذلك إلى خالِقِها المحيطِ بها، إذ لا فاعِلَ غيره، وكلُّها ترتقي إليه وترجِع إلى قدرتِه، وعلْمُنا به إنما هو من حيث صُدُورُنا عنهُ لا غير) [3].

بل نجدُ علماءَ الغرب أنفسهم يُصرِّحونَ في كتبهم بمَحدُودِية طاقاتِ العقل البشري وأنَّ وراءَه آفاقا لا يمكنُه الإحاطةُ بها وما عليهِ إلا التسليمُ والإذعانُ والإيمانُ بالله، فهذا "هربرت سبنسر" [4] يقول: (الإيمانُ بقوة لا يُمكِنُ تصوُّرُ نهايتِها الزمانية ولا المكانية هو العنصرُ الرئيسيُّ في الدِّين) ، وهذا "ماكس ميلر" يصرِّحُ أن (الدينَ هو محاولةُ تصوُّرِ ما لا يمكنُ تصوُّرُه، والتعبيرُ عما لا يمكنُ التعبيرُ عنهُ، هو التطلُّعُ إلى اللانهائي، هو حُبُّ الله) وأقوالٌ كثيرةٌ غيرُها تعترفُ وتُقِر بمجالات العقل

1- ينظر: ابن خلدون، المقدِّمة (لكتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعَجم والبَربر ومن عاصَرَهُم من ذوي السلطان الأكبر)، (ط3، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1967م)، ص 824، 825.

2- هو عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، المؤرخ والعالِم البحَّاثة، وُلد بتونس عام 732هـ ونشأ بها ثم رحل إلى فاس وغرناطة والأندلس، وتولَّى أعمالا كثيرةً ثم توجَّه إلى مصر فأكرمه سلطانُها، توفي في القاهرة عام 808 هـ، ألَّف كتبا أشهرُها (العبر وديوان المبتدأ والخبر) اشتهرت منه "المقدمة".

ينظر: البدر الطالع : 1/ 337 ؛ الأعلام: 3/ 320.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص 825.

4- فيلسوف بريطاني ولد عام 1820م وتوفي عام 1903م، حاول تكوين فلسفة شاملة على أساس الاكتشافات العلمية في عصره، تأثر بعالم الطبيعة الانجليزي تشارلز داروين.

ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 12/ 140.

المحدودَة كقول "باسكال"[1] (فلْنعلَم إذًا قدْرَنَا فإننا بعضُ الشيءِ ولَسنا كلَّ شيءٍ، ومَقامُ عقلِنا في المعقولات كمَقامِ جِسمِنا في الامتِدَاد) [2].

فالعقلُ يستطيعُ بما لديْه من الأفكار الفِطرية الأُولى أن يُدركَ الحقَّ فيما يتعلقُ بالمبادئِ الأُولى ، ويدركَ منها وُجودَ الله، وأمَّا مَا وراءَ ذلكَ من أسرارِ الوُجود والخَلْق والخالِق المحجُوبَة عنَّا بحُجُب الغيب فنحنُ أعجَزُ مِن أنْ ندرِكَ كُنْهَها وحقيقتَها،لأن حواسَّنا لا تُدركُ غاياتِ الأشياء: فالصوتُ إذا أفرطَ في الشِّدَّة يصمُّ أسْماعَنا، والنورُ إذا أفرطَ يُعْشِي أبْصارَنا ، والقُرْبُ يمنعُنا من الرُّؤية إذا أفرطَ، كما يمنعُنا البُعْد، فتكادُ غاياتُ الأشياء تكونُ غير موجودةٍ بالنسبة إلينا، والعقلُ يعْتريهِ الكَلَالُ عند التفكيرِ في غاياتِ المكانِ والزمان[3].

ومِن هذه الجوانبِ التي لم يُزوَّد العقلُ الإنساني الإحاطةَ بها بماهيتِها وكيفيتِها: مسألةُ كُنْه الذات الإلهية، فليس مما يدركُه العقلُ شيءٌ يُماثِلُها يُمكنُ أن تُقاسَ عليه: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ [4]، وقوله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [5] ، وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [6] وآيات غيرها من هذا القبيل .

ومنها مسألةُ المشيئة الإلهية وكيفية تعلُّقِها بالخَلْق:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ ﴾ [7]،

1- بليز باسكال، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات، واستطاع باسكال أن يُسهِم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته "الرسائل الريفية"، وُلد عام 1623م وتوفي عام 1662م.

ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 4/ 99.

2- نقلا عن: عبد الله دراز، الدين، ص 34، 35.

3- ينظر نديم الجسر، قصة الإيمان، ص131.

4- سورة الأنعام، الآية 103.

5- سورة الشورى، الآية 11.

6- سورة النحل، الآية 74.

[1]، ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾[2].

ومنها مسألة الرُّوح:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾[3].

ومنها مسألة الغيب - إلا بالقدْر الذي يَأذَن به اللهُ لمن يشاء - :

﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[4]،﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[5]،﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾[6]،﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾[7].

ومنها مسألةُ الساعة ومَوعِدها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[8]،﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾[9]،﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾[10].

1- سور ة آل عمران، الآية 40.
2- سورة آل عمران، الآية 47.
3- سورة الإسراء، الآية 85.
4- سورة الأنعام، الآية 59.
5- سورة الجن، الآيات 26، 27.
6- سورة الأنعام، الآية 50.
7- سورة لقمان، الآية 34.
8- سورة لقمان، الآية 34.
9- سورة النازعات، الآيات 42، 46.
10- سورة الأنبياء، الآية 40.

وفيما عَدَا هذه الجوانب فللعقلِ البشري أن يتدبَّر ويتفكَّر وينظُر ويَعتبِر [1] وليس هذا تقييدًا للعقل للعقل عن رِيادَة عوالِمِ غير عالَمِه وإنما هو رِعاية ولُطف من خالِق هذا العقل، صمَّمَه على أساسِ ألَّا يستقبلَ هذا الغيبَ إلا بمِقدار (وهو مُصمَّمٌ هكذا بحِكمة، مُصمَّم لأداءِ وظيفة الخِلافة في الأرض وهي لا تحتاجُ للاطِّلاع على الغيب ولو فُتحَ الجهازُ الإنساني على الغيب لتحطَّمَ لأنه ليس مُعَدًّا لاستقبالِه إلا بالمِقدار الذي يصل روحَه بخالِقه، ويصلَ كيانَه بكيانِ هذا الكون ، وأبسطُ ما يقعُ له حين يعلمُ مصائرَه كلَّها، ألَّا يُحرِّكَ يَدًا ولا رِجْلًا في عِمارةِ الأرض. . من أجل ذلكَ لم يكُن من ش أنِ الله سبحانَه، ولا من مُقتضَى حِكمتِه، ولا مِن مجرى سُنتِه أن يُطْلِع الناسَ على الغيب) [2].

إذن فالمصلحةُ في ستْر عوالِم الغيب عنَّا لتعمُرَ الأرضُ وتستقرَّ أمورُ الحياة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [3]، لطيفٌ بعبادِه فلا يُكلِّفُهم ما لا يُطيقونَ ولا يُطْلِعُهم على ما لا يَحتمِلون، خبيرٌ بحالهم وإمكاناتِهم فكان خطابُه للعقل بمُستوى قضاياهُ ومقرراتِه لا يقهَرُه بخارِقة مادِّية لا مجالَ له فيها إلا الإذعانُ والتسليم، بل يدْعُوهُ إلى تدبُّر دلائل الهُدَى ومُوحِياتِ الإيمانِ في الأنفُس والآفاق.

وعندَ تفسيرِ سيد لقولِه تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [4] يُفصِّلُ في بيان حدودِ هذا العقل البشري في قضايا العقيدة، فحين يستقلُّ هذا العقلُ بنفسِه بعيدًا عن الوحي فإنه يتعرضُ للضَّلال والانحراف وسُوء الرُّؤية والتقدير بسبب تركيبتِه التي يتعذَّرُ عليها الإحاطةُ والشمولُ وكذا لوُقوعِه تحت ضغط الأهواء والشهوات والنَّزَعات (والذين يروْنَ أن هذا العقلَ يُغني عن الوحي - حتى عند فرْدٍ واحِد من البشر مهما بلغَ عقلُه من الكِبَر - إنما يقولونَ في هذه القضيةِ غير ما يقولُ الله، فاللهُ قد جعلَ حُجتَه على الناسِ هي الوحيُ والرِّسالة، ولم يجعلْ هذه الحُجةَ هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتَهم التي فَطَرَهم اللهُ عليها من معرفةِ ربِّها الواحد والإيمانِ به ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه يعلَمُ أن العقلَ

1- ينظر سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص56، 58.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص525.

3- سورة الملك، الآية 14.

4- سورة الأنعام، الآية 50.

وحدَه يَضِل، وأن الفِطرةَ وحدَها تنحرِف وأنهُ لا عاصِمَ لعقلٍ ولا فِطرةٍ إلا أنْ يكونَ الوحيُ هو الرائدُ الهادي وهو النورُ والبصيرة) [1]، فالإسلامُ يضعُ للعقل البشري ضماناتٍ تكفيه غَائِلةَ ضغطِ الشهوات والأهواء ويكفلُ له الاستقامةَ فلا يزيغُ، ويُوسِّعُ من أُفقِه فيتحرَّكُ في مجال هو هذا الوجودُ كلُّه الذي يحتوي عالَمَ الشهادة وعالَمَ الغيب ـ بسَنَد من الوحي ـ كما يحتوي أغْوارَ النفس ومَجالي الأحْداث ومجالات الحياة جميعا[2].

ويقفُ سيدٌ وقفةً متأنيةً طويلةً أمامَ آية ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ [3]، حيث استغرقَ عَشْرَ "10" صفحاتٍ من الحجْم الكبير بالحروف الصغيرة ـ طبعة دار الشروق ـ إذ يُمكنُ أن يُستلَّ منها كُتيِّبٌ قائمٌ بنفسِه) ذلكَ أن حقيقةَ الغيب من مُقوِّمات العقيدة الإسلامية الأساسية ومن قواعدِ الإيمان الرئيسية، فاللهُ سبحانه وتعالى يصفُ المؤمنينَ في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن بأنهم الذين يؤمنونَ بالغيب، وهوَ سبحانه بذاتِه غيبٌ والإيمانُ بالآخِرة غيبٌ والإيمانُ بالملائكة والكُتب والرسُل السابقين غيبٌ، والعقلُ البشري مُحاطٌ بالغيب من كل جانِب (غيبٌ في الماضي وغيبٌ في الحاضر وغيبٌ في المستقبل، غيبٌ في نفسِه وكيانِه وغيبٌ في الكون كلِّه من حولِه، غيبٌ في نشأةِ هذا الكون وخطِّ سيْرِه وغيبٌ في طبيعتِه وحَرَكتِه، غيبٌ في نشأةِ الحياة وخطِّ سيْرِها، وغيبٌ في طبيعتِها وحركتِها، غيبٌ في ما يجهلُه الإنسانُ وغيبٌ في ما يعرفُه كذلكَ ويسْبَحُ الإنسانُ في بحرٍ من المَجهول، حتى ليجهلُ اللحظةَ ما يجري في كيانِه هو ذاتِه فضلًا على ما يجري حولَه في كيان الكون كلِّه، وفضلًا عما يجري بعْدَ اللحظةِ الحاضِرةِ له وللكون كلِّه من حولِه) [4].

ثم ينقلُ سيدٌ أقوالا عديدةً لعلماءَ غربيينَ متخصصينَ انتهتْ بهم البحوثُ والتجاربُ الطويلةُ المضنيةُ إلى تساؤلاتٍ عديدةٍ يقفُ العلمُ على حافاتِها ولا يكادُ يقتحمُها حتى على سبيل الظنِّ والترجيح مِن قَبِيل: ما الإنسانُ؟ ما الذي يميزُهُ عن المادَّة؟ وما الذي يميزُه عن بقيةِ الأحْياء؟ وكيف جاءَ إلى هذه

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص 1098.
2- ينظر: المصدر نفسه، مج 2، ص 1098، 1099.
3- سورة الأنعام، جزء من آية 59.
4- المصدر نفسه، مج 2، ص 1114، 1115.

الأرض وكيفَ يتصرَّف؟ وما العقلُ الذي يتميزُ به ويتصرَّفُ؟ وما مصيرُه بعدَ الموت والانحِلال؟ إلى غيرِها من الأسئلةِ التي يقفُ أمامَها العقلُ البشري مَبْهُوتًا مشْدُوهًا، دَعْكَ مِن حقيقةِ الأُلوهية وحقيقة العوالِمِ الأخرى من ملائكة وجِن، ومن حقيقة الموت، وحقيقة الآخِرة [1].

ويخلُصُ سيدٌ إلى أن العقليةَ الإسلاميةَ عقليةٌ (غيبيةٌ عِلميةٌ) تجمَعُ بين الاعتقاد بالغيب المَكْنون الذي لا يعلَم مفاتِحَهُ إلا اللهُ، وبين الاعتقادِ بالسُّنَن التي لا تتبدَّل والتي تمكن معرفةُ الجوانب اللازمةِ منها لحياةِ الإنسان في الأرض والتعامُل معها على قواعدَ ثابتة [2] أما المجالُ الذي حثَّ الإسلامُ فيه العقلَ على النظرِ فيه والبحْثِ والتدبُّر فهو سُنَنُ اللهِ في الأنفُس والآفاق وطبيعةُ هذا الكون وطبيعةُ الإنسان وسُنَنُ الله في الحياةِ وهو مجالٌ واسعٌ فسيحٌ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [3] ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ [4] ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [5] وفي النظر إلى سنن الله في الحياة البشرية والنشوء والمصير والتاريخ قوله تعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾ [6] وقوله عزوجل: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾ [7] وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١ ﴾ [8].

فاللهُ تعالى فاطِرُ هذا الإنسان وواهِبُه هذا العقلَ الذي به يدرِكُ هو العالِمَ بحقيقة طاقاتِه وهو الذي

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص1116.

2- ينظر: المصدر نفسه، مج 2، ص 1120.

3- سورة يونس، الآية 101.

4- سورة الذاريات، الآيات 20، 21.

5- سورة فصلت، الآية 53.

6- سورة العنكبوت، الآية 20.

7- سورة الروم، الآية 09.

8- سورة الرعد، الآية 41.

يدلُّه على سُبُل تصريفِها ومجالاتِ حركتِها، أما أسرارُ الحياة - كُنْهُها وكيفيةُ وُجودِها وتصرفِها - وأسرار تكوينِه الرُّوحي والعقلي فهو مما زُوِيَ عنهُ لِحكمة تقتضيها طبيعةُ خِلقته وتكوينِه) [1].

فالإسلامُ هو الذي أطلقَ العنانَ - من دون الأدْيان جميعًا - لحُرية العقل البشري تجاهَ الكون المادي وقوانينِه وقواه ومُدخراتِه، ليعملَ ويُبدِعَ في ذلكَ المُلكِ العريضِ الذي استخلفَه فيه ربُّه، فكانَ أنْ (أنشأَ - بطبيعةِ واقعيةِ منهجِه - المنهجَ التجريبيَّ الذي انتقلَ إلى أوروبا من جامِعات الأندلُس، والذي أقامَ عليه "روجر بيكون"[2] و "فرنسيس بيكون"[3] - الذي يُسمُّونَه افتراءً " أَبَا المنهجِ التجريبي " - منهجَهُما كما قرَّرَ ذلك "بريفولت" و"دوهرنج" من الكُتَّاب الغربيين) [4].

بعدَ كلِّ ما تقدَّمَ في بيان إِيلَاءِ سيد قطب الأهميةَ البالغةَ لعمل العقلِ البشري وبيان حُدودِه ومجالاتِه وطاقاتِه ، وصلتِه بالوحي وعجزِه عن الاستقلال بنفسِه في رِيادَة عوالِمِ الغيبِ إلا بسَنَدٍ من الوحيِ لقُصُورِ مَلَكَاتِه وطبيعتِه التي رُكبَ عليها، نجدُ مَن كَالَ الاتهاماتِ لسيدٍ جُزافًا بأنه يُلغي دوْرَ العقل ويُعطِّلُه عن العمل ويَدْعو المسلمينَ إلى ألَّا يُفكِّروا ويُلْغوا عقولَهم، ولا ندري أَقَرَأَ هذا [5] لسيدٍ كُتُبَه؟ أم أنهُ التعصبُ الذي يُعمِي ويُصِمّ؟ يقولُ الكاتب: (إن سيد قطب - آخِر صيحات الاجتهاد الإسلامي - يرفُضُ أن نجتهدَ فيما نريدُه بعد أنْ نَثُورَ، وعلينا أن ننقلِبَ على الحكوماتِ ثم بعدَ ذلكَ نفكرُ لمَ انقلبْنا؟ ونحنُ نعيشُ في جاهلية، لأننا فكَّرْنا لأنفُسِنا وشرَّعنا لأنفسِنا، بينما الإسلامُ - كما يفهمُه

1- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 59، 60.

2- فيلسوف وعالِم انجليزي وُلد عام 1214م وتوفي عام 1292م ويُعَد واحدًا من الشخصيات الرائدة في تطوُّر العلوم في القرون الوسطى.

ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 5/ 454.

3- فيلسوف ورجُل دولة انجليزي وُلد عام 1561م وتوفي عام 1626م. كان من المؤيدين الأوائل الأساسيين والأكثر نفوذا للمذهب التجريبي، ومن المؤيدين لاستعمال الطرُق العِلمية لحل المشكِلات.

ينظر: الموسوعة العربية العالمية 455/5.

4 - سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص104.

5- هو "صلاح عيسى" في تقديمِه لكتاب "ريتشارد ميتشل" (الإخوان المسلمون)، (ترجمة عبد السلام رضوان، مصر: مكتبة مدبولي، 1977م).

سيد قطب - هو ألا نُفكِّرَ ولا نجتهدَ...) [1]، أيُّ تَجَنٍّ هذا؟ بل أيُّ افتِراء؟ ! بعدما سُقْنا الشواهِدَ والنصوصَ بحرْفيتِها من كُتب سيد قطب، والتي ليس بعدَها بيانٌ في التأكيدِ على أهميةِ هذا الجهازِ العجيبِ المُركَّب في الإنسانِ والذي به يدرِكُ ويُميزُ وهو مَنَاط التكليف ، وكيفَ بيَّن بالشواهِد القرآنيةِ حثَّ الإسلامِ على النظَر والتفكُّر والتدبُّر في الأنفُس والآفاق، ثم فوقَ هذا أَلَيسَ هو القائلُ في مُذكرتِه التي سطَّرَها قبل تنفيذ حُكم الإعدام عليهِ: (لقد اتفقْنا على مبدأ عدَم استخدامِ القوةِ لقلْب نِظام الحُكم وفرْض النظام الإسلامي مِن أعْلى، لأن المطالبةَ بإقامةِ النظام الإسلامي وتحْكيم شريعةِ الإسلام ليستْ هي نقطة البدْء، فنقطةُ البدء هي نَقْل المجتمعات ذاتِها إلى المفهومات الإسلامية الصحيحة، وتكوين قاعدةٍ صحيحة إنْ لم تشمَلْ المجتمعَ كلَّه فعَلَى الأقلّ تشمَل عناصرَ وقطاعاتٍ تملِكُ التوجيهَ والتأثيرَ في اتجاه المجتمع كلِّه إلى الرغبة والعمل في إقامةِ النظام الإسلامي) [2].

أليسَ هذا كافيًا في دحْض افتراءِ هذا الكاتِب؟ أمَّا احتفالُ سيد بالعقل ودوْرِه وعملِه ومهمتِه وتحديدِ صلتِه بالوحي والوُقوف به عند حدودِه عصمةً له عن الضلال والزيغ والتخبُّط ف أظنُّنَا قد استوفيْنَا فيه الحديثَ فلا حاجةَ لتكرير ما سبق.

1- سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص 12.

2- مجلة " المسلمون" السرة الأولى، العدد 4، في 1985/3/2م.

المبحث الثالث: دَلالة الأنبياء ومعجزاتهم:

المطلب الأول: معجزاتُ الأنبياء:

مِن آلاءِ الله تعالى وأفْضَالِه على خَلْقِه أنهُ لم يدَعْهم وشؤونَهم ولم يكِلْهم إلى أنفُسِهم في كل أمورِهم بل تكفَّلَ لهم – سبحانه – بما يُصلِح أحوالَهم دنيًا وآخِرة، فكانَ من رحمتِه بهم أنْ أرسَل الرسُلَ مبشرين ومُنذرينَ هادِينَ الناسَ إلى الإيمانِ والصلاح، حاجِزينَهُم عن الكُفر والفساد.

ولَمَّا كان من طبيعة الناسِ الحِرصُ على ما أَلِفوهُ والتعلُّق بما عَرَفوهُ كان أكثرُهُم لا يستجيبُ لدَعَوات الرسُل بحُكم الإلْف والعادَة ، فكان لا بد أن يُؤَيَّدَ هؤلاء المبعوثونَ عليهم السلام بالمعجزاتِ تُصدِّقُهم في دَعْوى النبوَّة ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ ﴾[1]، فما هي المعجزةُ؟ وما الفرْقُ بينها وبين الخوارِق الأُخرَى؟ ولمَ سُميتْ بهذا الاسم؟ وكيفَ وَظفَ سيدٌ هذا المبحثَ في التدليلِ على العقيدةِ؟ أسئلةٌ نختصرُ الجوابَ عنها وإلا فهي تصلُح - إذا تُوُسِّعَ فيها - أن تكونَ كتابًا قائمًا بنفسِه.

المعجزةُ لغةً:

أصلُ المعجزةِ من مادَّة **"عجز"**، ومن مَعانيه: عَجُزُ الإنسان مُؤخَّرُه، وبه شُبِّهَ مُؤخَّرُ غيرِه، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾[2]، والعَجْزُ أصلُه التأخُر عن الشيء وحصولُه عند عَجُز الأمر، أي مُؤخِره...وهو ضد القدرَة قال تعالى: ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ﴾[3] وأعجزْتُ فلانًا وعجَزْتُه وعاجَزْتُه جعلتُه عاجِزًا،... والعَجُوزُ سُميتْ لعجْزِها عن كثيرٍ من الأمورِ، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١﴾[4].

1- سورة الأنفال، الآية 42.

2- سورة القمر، الآية 20.

3- سورة المائدة، الآية 31.

4- سورة الشعراء، الآية 171.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ [1] وذكرَ آخرونَ أن العيْنَ والجيمَ والزايَ تدلُّ على أصليْن أحدُهما الضعف والآخرُ مؤخَّرُ الشيءِ [2]، ولأَحَدِ الباحثينَ استخراجٌ لطيفٌ لمعنى "العجز" فهو يحمِل معنييْن متضاديْن، العجْز والقُدرة (فأعجازُ النخل: أواخِرُها، وهي أقوى جُزءٍ فيها لأنها تحمِل كل ما فوقَها، وأعجازُ الليل أواخرُه، وهي اللحظاتُ التي تسبقُ الفجرَ، وهي أشدُّ أجزاءِ الليل ظلامًا وحُلُوكَةً وسَوَادًا، وأعجازُ الإبل أقوى ما فيها لأنها تُحمَلُ عليها الأثقالُ والأحْمالُ، وعجُزُ البيْتِ أقوى من صدْرِه لأن فيه القافيةَ التي تربطُه مع باقي أبياتِ القصيدة، وعندما يتحدَّى المُتحدِّي الآخرينَ، فإنه لا يتحدَّى إلا الأقوياءَ ومَن يظنُّونَ أن بإمكانِهم غلبتَه وتعجيزَه، إذ إنه لو تحدَّى الضعفاءَ فلا فضْلَ له ولا فخْرَ في غلبتِه لهم) [3].

المعجزةُ اصطلاحًا:

أمرٌ خارقٌ للعادَة مَقرونٌ بالتحدِّي وعدَمِ المُعارَضة، وقيل: أمرٌ قُصِدَ به إظهارُ صِدْقِ مَن ادَّعَى النبوةَ والرسالةَ، وزادَ بعضُهُم قيْدَ موافقةِ الدَّعْوَى، وبعضُهُم مُقارنةَ زمن التكليفِ إذ عندَ انقراضِه تظهرُ الخوارقُ لا لقصْد التصديقِ [4]، وعرَّفها بعضُهُم بأنها: أمرٌ خارقٌ للعادَة داعيةٌ إلى الخير والسعادة مقرونةٌ بدعْوَى النبوَّة، قُصِدَ به إظهارُ صِدق دعوَى مَن ادَّعى أنهُ رسولٌ مِن الله [5] ويقولُ آخرُ بأنها: (اسمُ فاعلٍ من الإعجاز، وهي في الشرْ ع أمرٌ خارقٌ للعادَة من ترْكٍ أو فِعْلٍ مقرونٌ بالتحدِّي مع عدم المعارَضة، وإنما أحدُ الأمريْن لأن المعجزةَ كما تكونُ إتيانًا بغير المُعتاد، كذلكَ قد تكونُ منْعًا عن المُعتاد، مثلَ أن يُمسَكَ عن القوت مدَّةً غيرَ مُعتادة مع حِفظ الصِّحة والحياة، والتحدِّي هو طلبُ المُعارَضة في شاهِد دعْوَاه من النبوَّة، فلا بد أن يكونَ الخارقُ موافِقا للدعْوَى، إذْ لا شهادةَ بدون المُوافقة) [6].

1- سورة هود، الآية 72.

2- ابن فارس، مُعجم مقاييس اللغة، مادة (عجز)، ج3/ ص12.

3- صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القران، (دار عمار، د.ت) ص20، 21.

4- ينظر: سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، مج5، ص 11.

5- ينظر:علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ص306.

6- التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون، مج3، ص236.

وجُلُّ التعاريف الأُخرى وجدْنَاها تدورُ حول هذه الأركانِ فاكتفيْنَا بهذه الثلاثةِ وهي لأقْطاب عُلماء الاصطِلاح.

والمعجزةُ تخالفُ الكرامةَ والسحْرَ وما يراهُ الناسُ غريبًا مخالِفا للإلْف والعادَة، وقد وضع لها العلماءُ شروطًا لتحقُّقِها، جمعَها أحدُهُم في سبعةٍ نذكُرُها على طُولِها:

الأوَّل: أن تكونَ المعجزةُ فِعلًا لله تبارك وتعالى، ذلكم لأن المعجزةَ تصديقٌ للرسول الذي أرسلَه اللهُ، فلا بد أن تكونَ المعجزةُ آيةً من الله، وهذه الآيةُ قد تكونُ قولًا كالقرآن الكريم، وقد تكونُ فِعلًا كفَلْق البحْر لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، وقد تكونُ ترْكًا كعدَم إحراقِ النارِ لسيدِنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أن يكونَ هذا الأمرُ خارقًا للعادَة، بيانُ ذلكَ: أن الحياةَ كما نعلمُ ارتبطتْ فيها الحوادِثُ بأسبابِها، وهذا ما اعتادَه الناسُ وألِفُوهُ، والمعجزةُ لابد أن تكونَ خارجةً عن هذا المألوفِ، وهذا شأنُ معجزاتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلم يأْلَف الناسُ أن تتحولَ العَصَا إلى حيَّةٍ، أو أن النارَ لا تحرِقُ، أو أن البُلَغاءَ يعجَزُون عن أن يأْتوا بمِثل كلامٍ بَلِيغ.

الثالث: أن تكونَ معارضتُها غيرُ مُمكِنة، بمعنى أن الناسَ لا يقدِرونَ أن يأْتوا بمِثلِها لمْ تصلُح أن تكونَ معجزةً.

الرابع: أن تكونَ هذه المعجزةُ ظهرتْ على يدِ من ادَّعى النبوةَ، فلو أتَى غيرُ من ادَّعى النبوةَ بما هو خارِقٌ للعادةِ، فإنَّ ما أتى به لا يُسمَّى معجزةً...

الخامس: أن يكونَ موافِقا لما ادَّعاهُ النبيُّ، فلو قال مَثلًا معجِزَتِي إحياءُ الموتى، ولكنَّ الذي حصلَ على يديْهِ نُطْقُ الحَجَرِ مَثلًا لمْ تكُنْ هذه معجزة.

السادس: أن لا يكونَ هذا الأمرُ مكذِّبا لصاحبِه، فلو قال مثلًا مُعجزَتِي نطقُ الجَبَل، ونطقَ الجبلُ فقالَ: أنتَ كاذبٌ، لا تكونُ هذه معجزةً.

السابع: أن تكونَ المعجزةُ بعد ادِّعاءِ النبوةِ، أما إذا كانتْ قبل دعوَى النبوة فلا تكونُ معجزةً وإنما يُسمَّى ذلك إرهاصًا، ومثالُ ذلكَ كلامُ سيدِنا عيسى عليه الصلاة والسلام في المَهْد [1].

فإذا توفرتْ هذه الشروطُ كانت المعجزة، وإذا كان العقلُ الإنساني لا يَنفي بالدليلِ المُقنع وُجودَ الله فليسَ له أن يجزِمَ باستحالةِ شيءٍ مما يُجريه اللهُ ﷻ على يدِ أنبيائِه من خوارقِ | العاداتِ؛ لأن الخوارقَ بالنسبة إليه كالعاداتِ ولأن التغييرَ عندَه كالإنشاءِ والإبْداع [2] مِن لا شيءٍ بل هوَ أهْوَنُ عليهِ عند العُقولِ السليمة، فالمعجزاتُ بأصنافِها ممكنةٌ لا استحالةَ فيها على الخالِق المبدِع لكل شيءٍ وواضعِ هذا النظامِ المُحكَم الذي نُطلقُ عليه "سنَّةَ الكون" فهل يكونُ القادِرُ المُختارُ عاجِزًا عن تغييرِ ما وَضَعَهُ متى شاءَ ذلكَ؟ أما بالنسبةِ إلينا فلا نستطيعُ خرْقَ سُنَنِ الكون، نَعَمْ، وفيه مصلحتُنا لأن استمرارَ النظامِ على قواعدَ مضبوطةٍ يفيدُنا في الاعتمادِ على قوانينِه مطلقًا لقضاءِ أمورِنا وشؤونِنا ولكنَّ واضعَ النظامِ له متى شاءَ أن يخرِقَه ويغيرَ منهُ لِحكمةٍ يريدُها فالنارُ التي تحرِقُ وفقَ سُننِ الكون جعلَها برْدًا وسلامًا على نبيِّه وخليلِه إبراهيم عليه السلام تأييدًا لرسالتِه من عندِه [3].

وهكذا قضتْ حكمةُ الله تعالى أن يخُصَّ كل رسولٍ بما يُثبتُ صِدقَ دعواهُ فيما يبلِّغ عن الله ﷻ، ويُقنعَ قومَه بأنَّ ما جاءَ به ليس من حِذْقِه ومَهارتِه وتفوُّقِه على قومِه وإنما هو من عندِ الله، لهذا كانت المعجزةُ تأييدًا لما جاءتْ به الرسُل وإظهارًا لصدقِهم فيما يُبلِّغونَه عن ربِّهم بعجز خصومِهم المكذِّبينَ لرسالاتِهم وقد طلبوا ذلك بأنفسِهم بشهادَة القرآنِ الكريم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ

1- ينظر: محمود أبو دقيقة، القول السديد في علم التوحيد، (د.ت)، ج3، ص3.

2- ينظر: عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، (ط8، مصر، دار نهضة مصر، 2007م)، ص77.

3- ينظر: مصطفى صبري، موقف العقل والعِلم والعالَم من رب العالمين وعبادِه المرسَلين، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د،ت)، ج1، ص49 بتصرف.

مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ ﴾[1]، فكان من حِكمتِه تعالى أن أَيَّدَ أنبياءَه بمعجزاتٍ حِسِّيةٍ ظهرتْ على أيْديهِم من النوع الذي تفوَّقَ فيه أهلُ زمانِهم وبَرَعوا فيه ، فهذا موسى ﷺ تفوَّقَ قومُه في السِّحْر ونَبَغوا في فنونِه وضُرُوبِه، فأيدَه الله بمعجزةٍ من جنسِ ما نبغُوا فيه وقلَبَ له العصا حيَّةً وزادَ عليها أن تَلَقَّفُ ما يأفِكونَ، ولما عُرِفَ قومُ عيسى ﷺ بالبراعة في الطب وحِذْقِ فنونِه[2]، جاءت معجزتُه من جنسِ ما برَعُوا فيه فكان يبرئُ الأكْمَهَ والأبرصَ ويُحيي الموتَى بإذنِ الله، ومن نفسِ القَبيلِ كانت معجزةُ سيدِنا محمد ﷺ، إذ برعَ قومُه في الفصاحة والبلاغة وأقاموا لَهُم أسواقًا تُنشَدُ فيها القصائدُ العَصْماءُ وتُتلَى فيها الخُطَبُ السَّيْرَاءُ، فجاءتْ معجزتُه ﷺ من جنس ما تفوَّقوا فيه فقطعتْ لسانَ كُلِّ بليغ وأفحمَتْ لسانَ كل خَطيب، هذا فضلًا عنْ أنَّ القرآنَ الكريمَ حُجَّة الله البالِغة وآيته القاطِعة بما تضمَّنَه من عقائدَ وشرائعَ ونُظُم تَنتظِمُ حياةَ الناسِ كلَّها وتُحكِمُ العلاقةَ بين الناس وخالِقِهم وبينَهم بعضِهم ببعض.

أما المعجزاتُ الحِسِّيةُ فلم يكن نصيبُه ﷺ منها بأقلَّ من غيرِه من الأنبياءِ السابقينَ، ولله دَرُّ أحَدِهم:

ومعجزاتُه كثيرَةٌ غُرَر   منها كلامُ الله مُعجِزُ البَشَر [3].

كانشقاقِ القمر، ونبْعِ الماء المنهمِر من بينِ أصابِعِه، وحَنينِ الجِذع الذي كان يخطُبُ عندَه لفراقِه حين جُعِلَ له المنبرُ، وتسبيح الحَصى في كَفِّه، ورَدِّ عيْن قَتادةَ لَمَّا أنْ سَالَتْ على خَدِّهِ فكانتْ أحسَنَ عيْنَيْهِ

1- سورة الإسراء، الآيات 90 . 96.

2- من المعترضينَ على هذا القول الشيخ "محمد أبو زهرة" في كتابه (المعجزة الكبرى "القرآن"، دار الفكر العربي، د، ت) إذ يقولُ في ص11: (وكذلك معجزةُ عيسى عليه السلام كانت مناسِبةً لعصرِه، لا لأنَّ عصرَه شاعَ فيه علمُ الطب كما يقولُ بعضُ علماء الكلام، لأن علمَ الطب لم يكنْ رائجًا بين بني إسرائيل، فلم يكن بينَهم عِلمُ "أبُقراط" كما قرَّرَ "رينان" في كتابِه (حياة يسوع) بل إن معجزاتِه كانت من ذلك النوع لسبب آخَرَ... ذلكَ أن العصرَ كان عصرًا ماديا يؤمنُ بالمادة ولا يؤمنُ بالغيب).

3- بيت من قصيدة "جوهرة التوحيد" للإمام إبراهيم اللقاني (توفي 1041هـ) ينظر: علي بن محمد الصفاقسي، تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد، تحقيق: الحبيب بن الطاهر، (ط1، بيروت: مؤسسة المعارف، 2008م)، ص118.

وأحَدَّ نظرًا من الأُخرى، وبُرء عينَيْ علي ﷺ لَّما أنْ تَفَلَ في عينيْه يومَ خيبر [1]،... إلى غيرِها كثير لا يتسِعُ المقامُ لِذِكرِها وقد أُلِّفتْ فيها مؤلفاتٌ قائمةٌ بعينِها.

وقد أفاضَ سيد قطب في بسْط الأدلة والشواهد عند الآيات التي تتكلمُ عن معجزات الأنبياء للتدليل على العقيدة وأصولها في بيان قدرة الله المطلقة وطَلَاقة المشيئة الإلهية من التقيُّد بالقوانين والنواميس التي نحسَبُها بحسابنا البشري كُلِّية مُطَّرِدة لازِمة لازِبة لا يعتريها تغيرٌ ولا تبديل، مُركِّزا على الرصيد الإيماني الذي ينشأ من ردِّ الحقيقة المطلقة إلى مُنشِئ الأسباب والظواهر والمقدِّمات، وتقرير هذا كله في ضمائر المؤمنين يزيدُهم إيمانا ويربطُهم بربهم خالِق كل شيء الفعَّال لما يريد ربْطا لا يلتفتون معه إلى غيرِه، وهذا هو المعنى الدقيق البعيد الذي ترمي إليه العقيدةُ بمُجملِها حين تتمثلُ حيةً في قلب المؤمِن المعتقِد اعتقادا جازِما.

ففي قولِه تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [2] يقدِّمُ سيدٌ لهذه الآيات والتي قبلَها بمقدمة يبينُ فيها قواعدَ القرآن الكريم التي تُنشئُ التصورَ الصحيح لحقائق هذا الوُجود في ضمير المسلِم ليُقبِل على الحياة بإدراك بَصِير ورُؤية واضحة لا غبش فيها (فنظامُ الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب ليست بمَعزِل عن التصور الاعتقادي، بل هي قائمةٌ عليه مستمدةٌ منه، وما يمكن أن تثبُتَ وتستقيمَ ويكونَ لها ميزانٌ مستقِرّ إلا أن ترتبطَ بالعقيدة، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاتِه بخالِقه الذي وَهبَهُ الوجودَ ؛ ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي الذي استغرقَ القرآنَ المكيَّ كلَّه، و ما يزال يُطالِعُ الناسَ في القرآن المدني بمناسبة كل تشريع وكل توجيه في شؤون الحياة جميعا) [3]، ثم يشْرَع سيدٌ في التعليق

1- ينظر: علي بن محمد الصفاقسي، تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد، ص 118.

2- سورة البقرة، الآية 259.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص297.

المفصَّل على الآيات مُركزا على الجانب الاعتقادي لهذه الخوارق التي حكاها القرآنُ ومنها هذه القصةُ التي تُفصح بوضوح عن هذه المشيئة الإلهية الطليقة التي تُنشئ القانونَ ولكنها ليست مقيدةً به، وإلا فكيف يكونُ هذا التبايُن في المصائر والجميعُ في مكان واحد، مُعرَّضون لنفس المؤثرات البيئية، أليس هذا آيةً على القدرة التي لا يُعجِزُها شيءٌ؟ والتي تتصرفُ مطلقةً من كل قيد؟ ولكن ما بالُ البعض يشككُ في أمر هذه الخوارق ويحاكمُها إلى ما يحسبُه قوانينَ علميةً لا تحيدُ؟ يجيبُ سيدٌ على هؤلاء بأن مَأتى خطئِهم من قياس مُقرراتِنا المحدودة إلى المشيئة المطلقة وهو خطأٌ يتمثلُ في أخطاءَ كثيرةٍ (فأوَّلا: ما لنا نحنُ نحاكِم القدرةَ المطلقة إلى قانونٍ نحنُ قائِلوهُ ؟ قانونٍ مستمد من تجاربِنا المحدودةِ الوسائل، ومن تفسيرِنا لهذه التجارب ونحن محْدُودُو الإدراك؟

وثانيا: فهَبْهُ قانونا من قوانين الكون أدرَكْناه. فمن ذا الذي قال لنا: إنه قانونٌ كليٌّ مطلق، وأن ليس وراءَه قانون سواه؟

وثالثا: هَبْهُ كان قانونا نهائيا مطلقا. فالمشيئة الطليقة تنشئ القانون ولكنها ليست مقيدةً به، إنما هو الاختيارُ في كل حال)[1]، وعلى هذا النسَق يمضي سيد في التدليل على العقيدة عند تفسيرِه للآيات الوارِدة في معجزات الأنبياء نائيًا بنفسِه عن الخوض في تفاصيل القصة على عادتِه في الظلال، ففي هذه القصة نفسِها يقول : (فلنقفْ ـ على طريقتِنا في هذه الظلال - عند تلكَ الظلال)[2] مُكتفِيا بإيحاءات المَشاهِد العَقَدية والإيمانية وعلى هذا يُدندِنُ القرآنُ كلُّه.

وبعدَ هذه القصة مباشرةً تأتي قصةُ سيدِنا إبراهيم الخليل عليه السلام وسؤالِه ربَّه إذ آتاه كيف يُحيي الموتى، ولسيد فيها كلامٌ جليلٌ لا أظنُّ أحدًا من المفسرينَ سبقَه فيه وهو في معرِض بيان سبب سؤال الخليل لربِّه، فالخليلُ مؤمنٌ بأن اللهَ على كل شيء قديرٌ ، بل هو جبَلُ إيمانٍ ؛ بل هو أُمَّةٌ كما وصفَه ربُّه عز وجل وأوَّاهٌ حليم مُنيب في أوصافِ تشريفٍ أُخرى، إذن فلِمَ السؤالُ عن كيفيةِ إحياءِ الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 1، ص 301.

2- المصدرُ نفسُه، مج1، ص 299.

إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾[1]

(أنه تشوُّف لا يتعلق بوُجود الإيمان وثباتِه وكمالِه واستقرارِه، وليس طلبًا للبرهان أو تقويةً للإيمان، إنما هو أمرٌ آخر، له مذاقٌ آخر، إنه أمر الشوْق الروحي إلى مُلابَسَ ة السِّر الإلهي في أثناء وُقوعه العملي، ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاقٌ آخر غير الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقولُ لربِّه ويقولُ له ربُّه، و ليس وراء هذا إيمانٌ ولا برهان للإيمان، ولكنه أرادَ أنْ يرى يَدَ القدرة وهي تعملُ، ليحصلَ على مَذاق هذه المُلابَسَة فيسترْوِح بها، ويتنفسَ في جوِّها ويعيشَ معها وهي أمرٌ آخر غير الإيمان الذي ليسَ بعْدَه إيمان) [2] وهذه من اللطائف التي بَرَع فيها سيد قطب ؛ لأنه اهتمَّ بمُوحِيات المَشهَد لا المشهد نفسه ؛ وهو صاحب نظرية التصوير الفني التي عدَّها بعضُهُم فتْحًا جديدا في تحليل النصوص، ولو شِئنا لاستعرَضْنا أقوالَ المفسرين في هذه الآية - القُدَامى منهم والمُحْدَثين - فما واقَعَ حافِرُهُ حافِرَهُم فيها، مع حِفظ الأقْدار والمَراتِب لكل منهم، ولكنْ لسيد في خلال تفسيرِه وثناياه غوْصا على المعاني، واجتلاءً لدُرَر لا يتفطنُ لها إلا دارِسُوه، ولستُ أشيرُ لنفسِي من طَرْف خَفيّ - عَلِم اللهُ - ولكنها الحقيقة التي نعرِضُها للدارِسين كي لا نغمِطَ الجُهدَ الكبيرَ الذي بذلَه سيد وهوَ يتصيَّدُ المعاني ويَرُودُ الآفاقَ في بيان معاني ومقاصِد وغاياتِ كتابِ الله ﷻ، وهذه الفقرةُ التي نقلْناها من كلامِه يُفسِدُها الشرْحُ لذا تركناها كما هي تُجلِّي نفسَها بنفسِها - وهل يخْفَى القمر؟ -

وعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[3] وهنا نجدُ سيدًا يُبعد النَّجْعَةَ في التحليل ولم يقفْ عند ظاهر الآية، بل قسَّم قصةَ موسى المعروضَة في هذه السورة إلى خمسةِ مواقف [4]

1- سورة البقرة، الآية 260.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 302.

3- سورة يونس، الآيات 75- 78.

4- لمن أراد الاستزادة واستيفاءَ هذه المواقف بتفصيلاتِها ينظر: الظلال، مج3، ص 1814.

ويركز على الجانب العَقَدي منها، فالآيات المذكورة في الآية هي الآياتُ التسعُ التي بُعِث بها موسى إلى فرعون والمذكورة في سورة الأعراف وكلُّها معجزات، ثم يفصل في التعليق على جواب قوم فرعون ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[1] ذاك الجواب القديم الجديد؛ الذي يدفعُ الطغاة والظلَمَة والمستبدين إلى استِبقاء العقائد الباطلة والتصورات المنحرِفة والأوهام والخرافات في عقول وقلوب الجماهير؛ لتكون لهم الكبرياء في الأرض (ودعوة الإسلام ـ على أيدي الرسُل جميعا ـ إنما تستهدفُ تقريرَ ربوبية الله وحدَه للعالمين، وتنْحِية الأرباب الزائفة التي تغتصبُ حقوقَ الأُلوهية وخصائصَها وتزاوِلُها في حياة الناس، وما كانت هذه الأربابُ المستخفة للجماهير لِتَدَع كلمةَ الحق والهُدى تصلُ إلى الجماهير. ما كانت لِتدَع الإعلانَ العام الذي يحملُه الإسلامُ بربوبية الله وحدَه للعالمين وتحرير رِقاب البَشَر من العُبودية للعباد، ما كانت لِتدَع هذا الإعلانَ العام يصل إلى الجماهير وهيَ تعلَمُ أنه إعلانٌ بالثورة على رُبوبيتهم والانقلاب على سلطانِهم والانقضاض على مُلكِهم والانطلاق إلى فضاء الحُرية الكريمة اللائقة بالإنسان)[2].

وكذلكَ كان الأمرُ مع دعوة سيدِنا محمد ﷺ إذ خشي قومُه على مَكانتِهم المْوروثَة وعلى كِبريائِهم في الأرض أن يُسوَّى بالأرض على ما في عقيدةِ الشرْك من تناقُض وتهافُت وفساد، وعلى ما في عقيدة التوحيد من وُضوح وقُوة وسَداد.

ننتقلُ إلى مَشهد آخرَ من مشاهِد المعجزات وكيف وظَّفَه سيدٌ للتدْليل على الجانب العَقَدي منها، إنها قصةُ إبراهيم الخليل عليه السلام مع الأصنام ومحاولة قومه تحريقَه ، وإنْجَاء الله إياه بأنْ جعلَ النارَ برْدًا وسلاما عليه، يقول تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ

1- سورة يونس، الآية 78.
2- سيد قطب، في ظلال القرآن ، مج3، ص1814.

ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [1]، وقد أنكرَ سيدٌ على المفسرينَ اختلافَهم في نِسبة الكذِب إلى الأنبياء وعدَّ الأمرَ أيْسرَ مِن هذا بكثير ، فجوابُ إبراهيم التهكُّمي الساخِر بأنْ يَسألوا كبيرَهم إن كانوا ينطِقون ؛ معناهُ أنه إن كانت هذه التماثيلُ نفسُها لا تدري مَن حطَّمَها أهو كبيرُها أم إبراهيم فهم مثلها مَسلُوبُو الإرادة قُدُّوا مِن جَماد، فكانَ أنْ هزَّهُم هذا التهكُّمُ هزا عنيفا ورجعوا إلى أنفُسِهم ولو لِلَحظات يُبكِّتونَها [2].

أما قولُه تعالى: ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ فلا نسألُ كيف كفَّت النارُ عن الإحراق لأن كلمة ﴿ كُونِي ﴾ وحدَها هي التي تُكَوَّنُ بها أكوانٌ وتَنشأُ بها عوالِمُ وتُخلَقُ بها نواميس، فالذي قال للنارِ كوني حارِقةً، هو الذي قالَ لها : كوني برْد ا وسلاما، أما الذين يَقيسونَ أعمالَ الله تعالى بأعمال البَشر فهم الذين يَسألون (كيف كانَ هذا؟ وكيف أمكنَ أن يكونَ؟ فأما الذين يُدركون اختلافَ الطبيعتيْن واختلاف الأَداتيْن فإنهم لا يَسألون أصْلا، ولا يُحاولون أن يخلُقوا تعليلا عِلْميا أو غير علمي. فالمسألةُ ليست في هذا الميدان أصْلا. ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البَشر ومقاييس البَشر. وكل منهج في تصوّر مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهجٌ فاسِدٌ من أساسِه. لأن أعمالَ الله غير خاضعةٍ لمقاييس البَشر وعِلمِهم القليل المَحدود) [3].

ثم يُسقطُ سيد معاني هذا النص القرآني ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ على حياة الأشخاص والجماعات والأُمَم وعلى حياة الأفكار والعقائد والدعوات إسقاطا لطيفا ؛ فكم من كربات وضيقات يظن صاحبُها أنها القاصِمة القاضِية وما هي إلا لَفتة إلهية صغيرة فإذا هي تُحيي ولا تُميت، وتُنعِش ولا تُخمِد، وتعود بالخير وهي الشرّ المستطير [4]، وإذا بالمحنة منحة وبالقاصِمة عاصِمة، ومثلُ هذه الإسقاطات لا نجدُها عند كثير من المفسرين وهي عند سيد كثيرة يمكن أن يَستلَّ الدارِسُ لها المتتبع لمظانِّها كتابًا قائما بنفسِه.

1- سورة الأنبياء، الآيات 62 – 70 .

2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2387 بتصرف.

3- المصدر نفسه، مج4، ص 2388.

4- ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2388.

المطلب الثاني: المُعجِزة الكُبرى – القرآن - :

معجزاتُ الأنبياء التي أسلفْنا فيها كانت كلُّها حِسيةً مادية، تُدرَك بالحِس وتُشاهَد بالعيْن كبرْد النار وسلامِها على إبراهيم وناقة صالح وعصا موسى وفهم سليمان لِلُغة النمل والطير وإبْراء عيسى للأكْمَه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله، وكلها انتهت بانتهاء وُقوعها، كما كانت مثيلاتٌ لها لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام ذكرْنا بعضَها فيما سبق [1] انتهت بانتهاء وُقوعها، ولكن معجزتَه الكبرى من نوع آخر باقيةٌ قائمةٌ تخاطبُ الأجيالَ لأنها خالدةٌ ولأنه ﷺ خاتم النبيينَ ولا نبيَّ بعدَه، فيجبُ أن تكونَ معجزتُه مناسِبةً لهذه الرسالة الخالِدة الباقية تشهدُها الأجيالُ من بعدِه ، والتحدي قائمٌ فيها إلى قيام الساعة بأبْلغ صُوَره مع وُجود مُقتضيات المُعارَضة من الخصوم وانتِفاء المَوانع، فتحداهُم أوَّلا أن يأتوا بقرآن مثلِه ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[2]، ثم تحداهم بعَشْر سُوَر مُفترَيات ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[3]، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثلِه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[4]، هذا في القرآن المكي، وتجدَّدَ التحدي في القرآن المدني وبصيغة نفي الاستطاعة في المستقبل وهذا أكبرُ حافِز على المعارَضة ولكن لم يَنبَرِ أحدٌ لذلكَ ولن ينبريَ إلى قيام الساعة، يقولُ تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾[5] فلو استطاعَ العربُ مع هذا التقريع بالنقْص وعدم الاستطاعة أن يُعارِضوه ولو بآيات يسيرات لما توَانَوْا لحظةً (وهم أشدّ الخَلْق أَنَفةً وأكثرهم مُفاخَرة، والكلامُ سيِّدُ عمَلِهم وقد احتاجوا إليه، والحاجةُ تبعثُ على

1- ومن أرادَ الاستيفاء في معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام الحِسية فعليه بكتاب ابن تيمية (الجوابُ الصحيحُ لمن بدَّلَ دينَ المسيح، أشرف على طبْعه: علي الصبح المدني، القاهرة: مطبعة المدني، د.ت) تحدث بإسهاب عنها في أكثر من مائة صفحة من ص133 إلى ص250.

2- سورة الطور، الآية 34.

3- سورة هود، الآية 13.

4- سورة يونس، الآية 38.

5- سورة البقرة، الآيات 23، 24.

الحيلةِ في الأمر الغامِض فكيف بالظاهِر الجليلِ المنفعَة؟ وكما أنه محالٌ أن يطيقوه ثلاثا وعشرين سنةً على الغلط في الأمرِ الجليل المنفعة، فكذلك محالٌ أن يتركوه وهُم يعرفونَه ويجِدون السبيلَ إليه وهم يبذُلونَ أكثر منه) [1] على كثرة شُعرائهم وخُطَبائهم وراجِزِيهم وما لهم من فصاحة وبلاغة وأسْجاع وفنون من النثرِ عجيبةٍ. .. فدلَّ هذا على عجْز القوْم مع وُجود الآلات والوسائل ووَفْرة المعارِضين وحِدَّة الخُصومة.

فكيف استحوذَ القرآنُ على العرب هذا الاستحواذَ؟ وكيف اجتمعَ على الإقرارِ به المؤمنونَ والكافرونَ سواء؟ أَلِلتشريع الدقيقِ الذي فيه؛ الصالحِ لكل زمان ومكان؟ أَلِإخْبارِه عن الغيب بصيغة الجزْم المتحقق؟ أَلِكَلامِه عن العلوم الكوْنية في خلْق الكون والإنسان؟ ولكن ما القولُ في السوَر القلائل التي لا تشريعَ فيها ولا غيبَ ولا علوم؟ لا بد أن تلكَ السوَر أيضا تحتوي على العنصُر الذي يسحَر المستمعينَ ويستحوِذ على المؤمنينَ والكافرين [2] فقصةُ إيمان عمر بن الخطاب وقصة تَوَلِّي الوليد بن المغيرة تكشِفان عن هذا السحْر القرآني الذي أخذَ العربَ منذُ اللحظة الأولى وتبايُنا - في اتجاهين مختلفين - عن مدى هذا السحْر القاهِر الذي يستوي في الإقرار به المؤمنونَ والكافرون [3]، إذ انجذبَ الكافرون مع شِركِهم لسماع آياتِه واستطابوا بلاغتَه وهم الذين يذوقون بأسْماعهم كما يذوقُ الناسُ الطعامَ بأفواهِهم، (وسببوا عجزَهم بأنه يَعلُو ولا يُعْ لا عليه، وأن له حلاوةً، وعليه طَلَاوة، وأن أعلاه مُثمِر وأسفلَه مُغدِق، وقد قال ذلك المغيرةُ في جمعِهم، فما أنكروا عليه حُكمَه على القرآن الذي سمِعَه، ولكن أنكروا عليه أنه تحت تأثير هذا تَرَك جماعتَهم، وكأنهم أقرّوه على الوصف الذي وصفَ به القرآن ولكن أنكروا عليه الإيمانَ) [4].

هذا فضلا عما جاءَ في القرآن من العلوم التي لا عهْدَ لهم بها من الشرائع المُحْكمة وعلم الميراث وقصة الخلْق وآيات الكون وقَصَص الأوَّلين المفصَّلة وغيرِها مما هو مبثوثٌ في القرآن الكريم، كلّ هذا

1- كلام بليغ للجاحظ نقله عدنان زرزور في كتابه (علوم القرآن - مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه)، ص221.

2- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 17.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص11.

4- محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى - القرآن - ، ص 76.

أثبت عجزَهم بما لا يدَعُ مجالا لمحاولَة ولا شبهِها.

وبعد أن اتصلَ المسلمونَ بالثقافاتِ الأخرى من هندية ويونانية وفارسية واطّلعوا على فلسفاتِها، تلقَّف بعضُ مَن يركَنُون إلى الاستِغراب في أقوالِهم قولا جديدا مأثورا عن الأفكار الهندية وأرادوا تطبيقَه على القرآن وإن كان لا ينطبق (فقال قائلُهم: إن العربَ إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظِه ومعانِيه ونسْجِه ونظْمِه، بل كان لأن اللهَ تعالى صَرَفَهم عن أن يأتوا بمثلِه).[1]، بمعنى أن العجْزَ ليس من صفات القرآن الذاتية وإنما صَرَفَ اللهُ تعالى الناسَ عن مُحاكاتِه والإتيانِ بمثلِه مع قُدرَتِهم عليها.

الصِّرْفة:

من أشهَر القائلين بالصِّرْفة أبو إسحق إبراهيم النَّظَّام [2] (220هـ) وهو أستاذُ الجاحظ [3] في الاعتزال، كان يرى أن اللهَ تعالى صَرَفَ العربَ عن مُعارضة القرآن مع قدرَتهم عليها، فكان هذا الصرْفُ خارقا للعادة ، وبهذا يكون الصرفُ هو المعجِز لا القرآنُ نفسُه، ويُروَى عنه قولٌ آخر أن الإعجازَ إنما كان من حيث الإخبارُ عن الأمور الماضية والآتِية [4]، ومنهم الشريف المرتضى من الشيعة إذ يقولُ: (بل معنى الصرْفة أن اللهَ سلَبَهم العلومَ التي يُحتاجُ إليها في المعارَضة ليجيئوا بمثل هذا

1- محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى - القرآن - ، ص 79.

2- إبراهيم بن سيار ابن هانئ البصري، أبو إسحق النَّظَّام: من أئمة المعتزلة، وانفرد بآراء خاصة تابعتْه فيها فرقةُ المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه، توفي سنة 231 هـ.

ينظر: تاريخ بغداد: 6/ 97 ؛ خطط المقريزي: 1/ 346 ؛ النجوم الزاهرة: 2/ 234.

3- عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان الشهير بالجاحظ :كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحِظية المعتزلية مولدُه بالبصرة سنة 163هـ، ووفاتُه بالبصرة أيضا سنة 255هـ.له مصنفات كثيرة منها "البيان والتبيين" "الحيوان" " البخلاء" ....وغيرها.

ينظر: إرشاد الأريب: 6/ 56 ؛ الوفيات: 1/ 388 ؛ تاريخ بغداد: 12/ 212.

4- ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (لبنان، دار الكتاب العربي، د.ت)، ص144.

القرآن)[1] وممّن قال بالصرْفة ابن حزم الظاهري إذ يتحدثُ عن إعجاز القرآن فيقول: (إن كنتم تريدونَ هل هو في أعلى دَرَج بلاغة المخلوقين فلا، لأنه ليس مِن نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه، وبرهانُ هذا أن إنسانا لو أدخلَ في رسالة أو خطة أو تأليف أو موعظة حروفَ الهجاء المُقطّعة لكان خارِجًا عن البلاغة المعهودة جُملةً بلا شك، فصحّ أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصْلا، وأن اللهَ تعالى تولّى منعَ الخلْق من مثلِه وكسَاه الإعجازَ وسلبَه جميعَ كلام الخلْق)[2] وساق ابن حزم خمسةَ أقوال ردَّ عليها واحدًا واحدًا وانتهى إلى القول بالصرْفة حاشِدا ما تيسّرَ له من الأدِلة والشواهِد في صفحات عدّة[3] وقد رأى أبو زهرة أن ذاك الكلامَ قد يبدُو غريبا من ابن حزم ولكن المتأملَ فيه يجده سائرًا على مذهبِه في نفيِ الرأي والحُكم بظاهر القول من غير تعليل[4].

هذا، وقد انبرَى العلماءُ لردّ هذه الفِرية التي تُناقضُ صريحَ الآيات القرآنية وتَنفي عن القرآن الكريم خواصّ الإعجاز، فإذا كانت معجزاتُ الأنبياء السابقينَ الحِسية أعجزَتْ أقوامَهم عن الإتيان بمثلِها، فمعجزةُ العصا وتسعَ الآيات التي لموسى عليه السلام ما كان العجزُ عنها بالصرْف وإنما فيها ذاتها فكيف بقرآنٍ قال اللهُ تعالى فيه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾[5].

وقال عز وجل فيه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ

1- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، يعلق عليه الرافعي قائلا: (فكأنه يقول إنهم بُلَغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم وهذا رأيٌ بيِّن الخلْط كما ترى). ص 144.

2- ابن حزم الظاهري، الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، تحقيق: د.يوسف البقاعي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 1، 2002م)، ج2، ص45.

3- ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص 42 - 47.

4- ينظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى – القرآن - ، ص82.

5- سورة الرعد، الآية 31.

مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، فالقولُ بالصرْفة كالقول بأن القرآنَ سِحرٌ يُؤثَر (وهذا زعمٌ ردَّه اللهُ تعالى على أهلِه وأكْذَبهم فيه، وجعلَ القولَ فيه ضربا من العَمَى ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[2][3]، وعلى أنه لو كان العربُ صُرِفوا على ما ادّعاه النبي ﷺ لم يكن مَن قبْلَهم مِن أهل الجاهلية مصروفينَ عما كان يَعدِل به في الفصاحة والبلاغة وحُ سنِ النظْم وعجيب الرصْف لأنهم لم يُتَحدَّوْا به ولم تلْزَمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام مَن قبلَه مثله بطُلَ القولُ بالصرْفة [4].

وقد لخصَ الإمام السيوطي [5] الردودَ على الصرْفة بقوله عنها: (وهذا قولٌ فاسدٌ بدليل ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ... ﴾ الآية، فإنه يدل على عجزِهم مع بقاء قدرَتهم، ولو سُلبوا القدرةَ لم يبق لهم فائدةٌ لاجتماعِهم لمنزلتِه منزلةَ اجتماع الموْتى، وليس عجزُ الموتى مما يُحتفل بذِكرِه، هذا مع أن الإجماعَ منعقدٌ على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكونُ معجِزا وليس فيه صفةُ إعجاز ! بل المعجِز هو الله تعالى حيث سلّ مرهم القدرَة على الإتيان بمثلِه) [6]، وساقَ أقوالا كثيرةً كلها تفنّد بدْعة النّظَّام المعتزلي ولا تدَع مجالا للشك في إعجاز القرآن بنظْمه وتركيبِه وأسلوبِه ومعانيه وإخبارِه وسائر فنونِه التي يعجَز عنها البشرُ لأن التحدي قائمٌ إلى قيام الساعة ومَن أراد الاستزادةَ فعليه بالإتقان فقد جمع فأوْعى.

أما سيد قطب - رحمه الله - فلم يُؤلف كتابا خاصا بالإعجاز، ولكن ما كتبَه عن القرآن الكريم في "مشاهد القيامة في القرآن " و"التصوير الفني في القرآن " والذي طبّقه في تفسيرِه "الظلال" بشكل عملي تطبيقي تُستلّ منها كُتُب لا كِتاب في الإعجاز، بل هو يرى أن إعجازَ القرآن (أبعد مَدى من

1- سورة الزمَر، الآية 23.

2- سورة الطور، الآية:15.

3- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص146.

4- ينظر: أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد احمد صقر (مصر: دار المعارف،1963م)، ص 30.

5- هو عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد السيوطي، جلال الدين: إمام حافِظ مؤرخٌ أديب، موسوعي مُكثر من التأليف له نحوُ ألف كتاب منها الصغير والكبير، نشأ في القاهرة يتيما وتعلّم بها، ولما بلغ أربعين سنةً اعتزل الناس وألّف معظم كُتبه توفي سنة 911هـ.

ينظر: شذرات الذهب: 8/ 51 ؛ الضوء اللامع: 4/ 65.

6- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: أحمد بن علي، (القاهرة: دار الحديث، 2004م)، ج2، ص 306.

إعجاز نظْمه ومعانيه، وعجز الإنس والجِن عن الإتيانِ بمثلِه هو عجزٌ كذلك عن إبداع منهج كمنهجِه يُحيطُ بها يُحيط به) [1]، والقرآن كلّه كسائر ما يُبدعه اللهُ يَعجز المخلوق ون عن الإتيان بمثلِه، يُشبّهه سيد بالروح من أمر الله لا يدرك الخلْق سرّه الشامل الكامل وإن أدركوا بعضَ أوصافِه وخصائصِه وآثارِه [2].

وفي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ ﴾ [3] يعلّق سيدٌ على الآية تعليقا طويلا يستغرقُ صفحتيْن مُعدّدا إعجازات القرآن الكريم في كل ناحية من نواحيه، إذ لم يشأ اللهُ سبحانه أن يجعلَ مع هذه الرسالة الأخيرة آيةً قاهِرةً تَخضعُ لها الأعناقُ ، وإنما جعلَ آيتَها القر آن الكريم المعجِز في بنائِه التعبيري ونَسَقه الفني، والمعجِز في بنائِه الفكري وتناسُق أجزائه وتكامُلها، والمعجز في يُسر مَداخِله إلى القلوب والنفوس، ذلك أن الرسالةَ الأخيرةَ رسالةٌ مفتوحة للأُمَم كلّها وللأجيال كلّها، فناسبَ أن تكونَ معجزتُها مفتوحةً يستمدّ منها كلّ جيل ما يناسبُ ح الَهم بقدْر حاجتِهم ويبقى رصيدُه لا ينفَد بل يتجدّد [4] وفي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ ﴾ [5] ينعَى سيدٌ على أولئك الذين يطلبونَ الخوارِقَ الماديةَ التي لا تقومُ حُجّةً إلا على الجيل الذي يشاهِدُها، بينما هذا القر آنُ تبقى حجّتُه إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها (ومن ثم جاءت آياتُها الخوارِق آيات متلوّةً من القر آن الكريم المعجِز الذي لا تنفدُ عجائبُه، والذي تنفتح كنوزُه لجميع الأجيال، والذي هو آياتٌ بيّناتٌ في صُدور الذين أُوتوا العِلم، يُحِسّونها خوارقَ معجزةً كلّما تدبّروها، وأحسّوا مصدرَها الذي تستمدّ منه سلطانَها العجيب) [6] ثم ينصّ على أهمية تجريد العقيدة من من كل وهْم وكل شبْهة بالتفريق بين حُدود الرسول وهو بَشَر مُختار وبين صِفات الله الواحد القهّار، بحيث أدّى الخلْط بينَها في الرسالات السابقة إلى أن اختلطت في حِس الناس والْتبسَت بالأوهام

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2250.
2- ينظر: المصدر نفسُه، مج4، ص2249، 2250.
3- سورة الشعراء، الآيات 3، 4.
4- ينظر: المصدر نفسه، مج5، ص 2584 ،2585 بتصرف.
5- سورة العنكبوت، الآية 50.
6- المصدر نفسه، مج5، ص 2746.

والخُرافات ونَشأتْ عنها الانحرافات) [1].

وعند تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2] يقف سيدٌ وقفةً مطوّلةً مع الإعجاز القرآني بمختلف جوانبِه، ويبدأ بالإعجاز اللفظي والتعبيري والأسلوبي والأَدَائي، ويفيضُ في ميزات الأداء القرآني وسلطانِه على القلوب و لو لم تعِ منهُ حرفا، ثم يذكُر الحادِثةَ التي حدثتْ له وهو على ظهْر السفينة في رِحلتِه إلى أمريكا ؛ إذْ صلى بمُسْلِمِيها الجُمُعة على مَرأًى من الرُّكاب الأجانِب وكيف هنئوهم على "القُدَّاس" ثم كيف تأثّرتْ تلك المرأةُ اليوغسلافية بالآيات القرآنية التي تخلَّلَت الخُطبة وسالت لها دموعُها ووصفتْها بأنها فقرات من نوع آخر غير بقية كلام الخُطبة وأنها أكثر موسيقيةً وأعمقَ إيقاعًا، إنها شيءٌ آخر كما لو كان الإمامُ مملوءًا بالروح القُدُس – حسب تعبيرِها المستمَدّ من مسيحيتِها –[3].

هذا، ولا يجعلُ سيدٌ من هذه الحادِثة قاعدةً في الحُكم على سُلطان القر آن الخفيّ العجيب على النفوس ولكن يُردِفُها بقولِه: (ولكن ما بالُنا نعْجَب وعشراتُ الألوف ممن يستمعونَ إلى القر آن من عوامِّنا لا يطرُقُ عقولَهم منهُ شيءٌ ولكن يطرُق قلوبَهم إيقاعُه – وسرّه هذا – وهم لا يفترقونَ كثيرا من ناحيةِ فهْم لُغة القرآن عن هذه السيّدة اليوغسلافية) [4].

ثم ينتقلُ سيدٌ إلى وصف مزايا الأداء القرآني وكيف يعبّر عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيّز يستحيل على البَشر أن يعبّروا فيه عن مثل هذه الأغراض، ويؤكدُ على أن مَن يُدرِكون ذلك هُم مَن يُزاوِلون فنّ التعبير، لأنّ هؤلاء هُم من خَبَروا حُدودَ الطاقة البشريّة ومن ثم يتبيّنون بوُضوح هذا المستوى الذي هو فوق طاقتِهم)[5] .

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ، مج5، ص 2746.
2- سورة يونس، الآية 38.
3- ينظر: المصدر نفسه ، مج2، ص 1786 بتصرف.
4- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وبعدَ هذا يورِد ميزةً أخرى وهي أن النصّ الواحِد يحوي مدلولاتٍ متنوعةً متناسقةً في النص، إذ كلّ قضية وكلّ حقيقة تَنالُ نصيبَها المناسب لها، ثم إلى أخرى وهي القُدرة على استحضار المَشاهد ويحشد لها سيدٌ جملةً من النصوص القرآنية للتدليل على ذلك، وهذه الجوانبُ كلّها والتي اختصرْناها اختصارا شديدا تتعلق بالأداء القرآني.

ثم يُولِّي سيدٌ وجهَه شطْر الإعجاز الموضوعي مستغرِقا صفحاتٍ عديدةً في الشرْح والشواهد والتدليل، نذكُر باختصار أبرزَ عناصره [1]، والتي يمتازُ فيها عن كل المناهِج التي وضعَها البَشر لأن طابَعَها ربّاني وضعَها خالِق البَشر، حدّدَها سيد في أربع نِقاط مركزية:

1 – يخاطبُ الكينونةَ البشريةَ بكل مستوياتها فلا يتوقفُ تصوّرهم و إدراكهم لمقوّمات العقيدة على سابق علم لهم رحمةً بهم، ولكي تكون حقائقُ العقيدة قاعدةَ علم البَشر اليقينية التي تقومُ معرفتُهم على أساسِها.

2 – يعرِض الحقائقَ الكبرى في سياق موصول، يرتبط فيه عالَم الشهادة بعالَم الغيب، وتتصل فيه حقائقُ الكون والحياة والإنسان بحقيقة الأُلوهية في أسلوب تتعذّر مجاراتُه أو تقليدُه.

3 – يعطي كلّ جانب من جوانب الحقيقة مساحتَها التي تساوي وزنَها الحقيقي، ومن ثم تبدُو حقيقة الأُلوهية وخصائصها وقضية الأُلوهية والعُبودية بارزةً مسيطرةً محيطةً شاملةً حتى لَيبدُو أنها موضوع القرآن الأساسي.

4 – يعرِضُ الحقائقَ في دِقّة عجيبة وتحديدٍ حاسِم ومع ذلك لا تجورُ الدقةُ على الحيويّة والجَمال والإيقاع والروْعة، وهي خاصية قرآنية لا يملكُها الأداءُ البشري [2].

فانظُرْ إلى هذه الدّقّة والوُضوح والإحاطة والشمول التي بلَغَها سيدٌ في استقرائِه للقرآن الكريم

1 – أشار سيد إلى أنه استعار فقراتٍ طويلةً من القسْم الثاني لكتاب "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" عن الإعجاز الموضوعي للقرآن الكريم، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على أن القسْم الثاني من هذا الكتاب ليس آخِرَ ما كتبه سيد كما نصّ صلاح عبد الفتاح الخالدي وغيره.

2 – ينظر: سيد قطب، في ظلال القران، مج، 3، ص 1788-1790 بتصرف.

وكيف ركّز على الجانب العَقَدي في خُلاصته هذه ؛ إذ جعلَ قضيةَ الألوهية والعبودية موضوعا القرآن الأساسي، وما حقائقُ الكون والحياة إلا تَبَع لهما، أما العنصر الأخير فقد أوْلاه من الدراسة والبحث ما لم يُولِه أحدٌ قبلَه ؛ وأنشأ فيه ما يُسمّى بنظرية التصوير الفني في القرآن والتي طبّقَها متكاملةً في تفسيره "الظلال"، إذ عدَّها بعضُ الباحثين [1] فتحًا جديدا في الدراسات القرآنية ومفتاحا ادَّخرَه اللهُ تعالى لسيد قطب.

---

1 – علي الطنطاوي، فِكَر ومباحث، ص31، فبعد أن أهْدى له سيد قطب كتابَه "التصوير الفني في القرآن " قال: (وذهبتُ فقرأتُ الكتابَ فوجدتُ فتْحًا واللهِ جديدًا، ووجدتُه قد وقعَ على كنزٍ كأنَّ اللهَ ادَّخرهُ لهُ، فلم يُعطِ مفتاحَه لأحَدٍ مِن قبلِه حتى جاءَ هوَ ففتحَه)

التصويرُ الفنيُّ في القرآن:

عُنِيَ كثيرٌ من علماء الإسلام من قديم ببيان طريقة الأَداء القرآني المعجِز ولعلّ أوَّلَهم الجاحظ في كتابه " نَظْم القرآن " الذي لم يصلْنا، وتلاه محمد بن زيد الواسطي [1] بكتابه " إعجاز القرآن " الذي يكون قد استفاد من كتاب الجاحظ وبَنَى عليه، وإنما وصل إلينا ما يُنبئُ عنه في " دلائل الإعجاز " لعبد القاهر الجرجاني[2]، إذ كان - رحمه الله - ذوّاقةً للأسلوب القرآني مُدركا للجَمال الفني في كتاب الله في فقرات وأمثلة رائعة [3] وكثير غيرهم من القُدامى أحصاهم أحدُ الباحثين إحصاءً في رسالة ضخمة [4]

وفي العصر الأخير أو ما يسمّى بعصر النهضة برز علماءُ كبار ووجَّهوا أنظارَ الأُدباء والنُّقاد إلى الجمال الفني في القرآن كالسيد رشيد رضا[5] في تفسير " المنار " ومصطفى صادق الرافعي[6] في كتابه " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " وغيرهما في فصول ومباحث من كُتبهم [7] وتفرَّد سيد قطب عن هؤلاء باكتشافه لهذا المفتاح - الذي شهد له به كِبار النقاد - وتطبيقه هذه النظرية على القرآن كلّه مستقرئا آياتِه

1- محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي، أبو عبد الله: من كبار علماء الكلام، معتزلي أصله من "واسط"، سكنَ "بغداد" وتوفي بها سنة 307هـ، من كُتبه "إعجاز القرآن".

ينظر: الوافي بالوفيات: 3/ 82 ، الوفيات: 1/ 11 ، لسان الميزان: 5/ 172.

2- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضعُ أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل "جرجان" توفي سنة 471هـ، من كتبه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز".

ينظر: فوات الوفيات: 1/ 298 ، مفتاح السعادة: 1/ 143، بغية الوعاة: 310، إنباه الرواة: 2/ 188.

3 - ينظر: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (ط13، بيروت: دار العلم للملايين، 1981م)، ص 313 ،314 .

4 - نُعيم الحِمصي، فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، (ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م).

5- محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن مُلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة "المنار" وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكُتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير.

ينظر: معجم المطبوعات: 934

6- مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي: عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب، أصله من "طرابلس الشام"، ومولده ووفاته في "طنطا" بمصر، ولد سنة 1881م وتوفي سنة 1937م، من كتبه "تاريخ آداب العرب" و "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية".

ينظر: معجم المطبوعات: 926.

7 - المرجع نفسه.

كلّها إذ يقول : (هذه القضية لديَّ كلّ ما يؤكدُها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن، فالقصة ومَشاهد القيامة والنماذج الإنسانية والمنطق الوِجْداني في القرآن ؛ مضافا إليها تصوير الحالات النفسية وتشخيص المعاني الذهنية؛ وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمّدية... تؤلّف على التقريب أكثر من ثلاثة أرْباع القرآن من ناحية الكمّ، وكلّها تستخدِم طريقةَ التصوير في التعبير، فلا يُستثنَى منها إلا مواضعُ التشريع وبعض مواضع الجدَل وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقةَ التقرير الذّهني المجرّد، وهي على كلّ حال محصورة فيما يوازي رُبع القرآن. . فليس هناك من شَطَط حين أقول: (إن التصوير هي الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن) [1].

فسِمة سيد قطب أنه لم يقفْ عند المفردات والتراكيب كما فعل سابِقوه بل تجاوزَ هذا - وإنْ كان لم يُغفلْه - إلى التركيز على الأداة المفضّلة للتعبير في كتاب الله بنماذج عرضَها في كتابه " التصوير الفني في القرآن " وباستقراء شامل للآيات في تفسيره "الظلال "، إذ قدَّرَها بنحو ثلاثة أرباع القرآن كلّها يعبّر عنها بصورة محسّة متخيّلة وبمشهد منظور يُنسي المستمعَ بـأن هذا كلامٌ يُتلى ، ويتخيل أنه مَنظر يُعرَض وحادِث يقع، إلا ما كان من مواضع التشريع وبعض مواضع الجدَل وبعض المواطِن الأخرى التي تتعلق بالتقريرات الذهنية المجرّدة والتي لا تحتاج إلى تصوير، وقدَّرَها بنحو رُبع القرآن الكريم، أفليسَ هذا بحْثا كاشِفا يحتاج لمجموعةِ متخصصينَ وصبْر وأَنَاة ورَوِيّة في إصدار مثل هذه الأحكام التي يمكن أن يراجعَها النقادُ والأدباءُ والمشتغلونَ بالتفسير والباحثون فيردُّوا عليه نتائجَه واستنتاجاتِه؟ ! ولكنهم لم يفعلوا لأنَّها الحقيقةُ متبرِّجةً بزينتِها تستهْوي الناظرينَ، إلا ما كان من بعض مَن لم يتذوّقوا أسْرار القرآن وإعجازه ولم يتمرّسوا بأساليب البُلَغاء والفصحاء والأدباء والبيانيّين، فعَابوا على سيد استعمالَه كلمة " التصوير الفني " أصلا وكلّ مصطلح تابع له في إيضاح قاعدتِه وجعلوا منها قضيةً كبرى يحاكَم عليها سيد ويُتهَم في دينِه ويُنسب فيها إلى اليهود والنصارى والمَلَاحِدة والزنادِقة !![2] أيُّ افتراءٍ هذا !! وأيُّ بُهتان !! ونظرية التصوير لا تعْدُو بيانَ خصائص ومَزايا وجَمالية الأسلوب القرآني

---

1 - سيد قطب، مَشاهد القيامة في القرآن، ص8.

2 - ينظر: ربيع بن هادي المدخلي، نظرات في كتاب "التصوير الفني في القرآن الكريم" لسيد قطب، (ط 1، القاهرة: دار المنهاج، 2003م)، ص 41، وهو كتاب من 64 صفحة يتهجّم فيه المؤلِّف تهجُّما سافِرا على سيد قطب، يشتمُّ منه القارئ روح الحِقد والضغينة والخَلْفية الفكرية الصارخة للمؤلِّف.

الأخَّاذ والتي عبّر عنها سيد ببيان رائقٍ را قٍ وصفَه أحدُ الباحثينَ بقوله: (ولعلّ الغايةَ التي انتهى إليها سيد قطب من فهْم الأسلوب القرآني أن تكونَ أصدقَ ترجمة لمفهومِنا الحديث لإعجاز القرآن، لأنها تساعدُ جيلَنا الجديد على استخراج الجَمال الفني الخالِص في كتاب الله، وتُمكّن الدارسينَ من استخلاص ذلك بأنفسِهم، والاستمتاع به بِوجدانهم وشُعورهم) [1].

وقد أحسنَ الردَّ و أبلغ المقال الشيخ "بكر أبو زيد " على هذا المدخلي في معرِض بيان الأسلوب الراقي والسموّ في التعبير عند سيد إذ يقولُ له مستنكِرا هجومَه (من حيث الصياغةُ إن قارنَّا بينه وبين أسلوب سيد - رحمه الله تعالى - فهو في نزول وسيدٌ قد سَمَا، وإن اعتبرناه من جنابكم الكريم فهو أسلوب (إعدادي) لا يناسب إبرازه من طالبِ عِلم حازَ العالِية العالية، لا بد من تكافؤ القدرات في الذوق الأدبي والقدرة على البلاغة والبيان وحُسن العَرض، وإلا فلْيُكسَر القَلَم) [2] إِي نَعَمْ ؛ فليُكسَر القلم، هذه شهادةُ عالِمٍ مُنصِف متذوِّق للأساليب عارِف للفروق بين المُسِفّة الضحْلة والراقية المُنِيفَة، إذ اشترط على من يتصدّى لمثل هذه البحوث التكافؤَ في قدرات الذوق الأدبي والقدرة على البلاغة والبيان وحُسن العَرض ؛ فإن لم تتوفرْ فلا ينبرِيَنَّ لما لا يحسنُه فيظلمَ نفسَه ويظلمَ أقْدارَ الرجال، فكسرُ القلم خيرٌ له من التمادي في اللَّجَاج والخُصومة والباطل.

أمّا جوهرُ النظرية فقد لخّصه سيدٌ بقوله: (التصوير هو الأداةُ المفضّلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر بالصورَة المحسَّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادِث المحسوس والمشهد المَنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسُمها فيمنحُها الحياةَ الشاخِصة أو الحركة المتجدِّدَة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مَشهد، وإذا النموذجُ الإنساني شاخصٌ حيٌّ، وإذا الطبيعةُ البشرية مجسّمة مَرئية... إنها الحياةُ هنا وليست حكايةَ الحياة، فإذا ما ذكرْنا أن الأداةَ التي تصوّر المعنى الذهني والحالةَ النفسيةَ وتشخّص النموذج الإنساني أو الحادِث المَروي إنما هي ألفاظٌ جامدةٌ لا ألوانٌ تصوِّر ولا شخوصٌ تعبِّر أدركْنا بعضَ أسْرار الإعجاز في

---

1 - صبحي الصالح، مَبَاحث في علوم القرآن، ص 320.

2 - قول للشيخ "بكر أبي زيد" نقلَه المدخلي في كتابه (الحدّ الفاصل بين الحق والباطل - حوار مع بكر أبي زيد-)، (ط 1، الجزائر - باب الوادي - مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع، 2002م)، ص 101.

هذا اللوْن من تعبير القرآن)[1].

ثم أنشأَ سيدٌ يعرِض أدلتَه متواترةً على اطِّراد هذه النظرية التي اهتدَى إليها، فعقدَ فصْلا للتخييل الحِسي والتجسيم، وفصْلا للتناسُق الفني وآخر للقصّة في القرآن ، ثم عرَض بعض النماذج الإنسانية وأجادَ في شرْحِها ، ويستطردُ وهو في معرِض التصوير الفني والجمال التعبيري لخصائص ومزايا القرآن الموضوعية؛ إذ يخاطبُ في الإنسان عقلَه وقلبَه وحِسَّه وروحَه في آنٍ واحد ومن أقصر طريق، وقد قام أحدُ الباحثين بدراسة ضخمة عن هذه النظرية وأفْرَدَها بكتابٍ جمعَ فيه كلّ ما يتصل بها في القديم والحديث؛ وأبان عن جديد سيد قطب فيها وكيف تأثر به مَن أتى بعدَه في استلهامِها[2].

فالقرآنُ الكريم بإعجازِه وأسْرارِه وبيانِه وعلومِه حقلٌ خصبٌ لدراسات سيد قطب في إثبات أُصول العقيدة وفُروعها، ولا يسعُنا في هذا المطلب المحدُود أن نمثِّل لكل ما وردَ في "الظلال" ولو فعلْنا ففي مجلّدات بدون مُبالغة أو تهويل، وأظنُّنَا مثَّلْنا لأبرز المواضيع وخُلاصة النتائج التي نصَّ عليها سيد.

---

1 - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 36، 37

2 - هي رسالة من 415 صفحة تقدَّم بها "صلاح عبد الفتاح الخالدي" لنيل درجة "الماجستير" تحت عنوان: (نظرية التصوير الفني عند سيد قطب).

المطلب الثالث: الإعجازُ الغيْبي:

الغيبُ المذكورُ في القرآن نوعان : **أحدُهما**: غيبٌ مضى وهو قَصَص الأوَّلين وأخبار الماضِين، **والثاني**: عن أمور تقعُ في المستقبل أخبرَ عنها قبلَ وُقوعها فوقعت كما أخبرَ، وهذا من دلائل الإعجاز القرآني.

فالإخبارُ عن قَصص الماضين معجزٌ كونَ النبي ﷺ نشأَ في بِيئة أُمّية لا تقرأُ ولا تكتُب فلا مدرسةَ يتلقّى فيها العلمَ ولا عُلماءَ يتلقّى على أيْديهم، فبعد أن ذكرَ قصة مريم وكفالةَ النبي زكريا لها يقولُ القرآنُ مخاطِبا النبيَّ محمدا ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]، وبعد سرْد قصة نوح عليه السلام يقولُ تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2] وبعد سرْد قصة يوسف عليه السلام يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[3] فهذه الإخباريات التي وافقت الصحيحَ من أخبار النبيين لا يمكنُ أن تكونَ مُفتراةً و أنْ يكونَ اكْتَتَبها أو أُمليت عليه فهو لا يقر أُ ولا يكتُب ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[4] إذن فماذا يقولُ القائلونَ في تلك الأنباء التي فصّلها لنا القرآنُ على وجهِها الصحيح كما وقعتْ في القرون الخالية؟ (أيقولونَ إن التاريخَ يمكن وضعُه أيضا بإعمال الفِكر ودقة الفِراسة؟ أم يخرجونَ إلى المُكابَرة العُظمى فيقولون إن محمدا قد عاصَرَ تلك الأُمم الخالية، وتنقّل فيها قرْنا فشهِد هذه الوقائع مع أهلِها شهادةَ عَيان، أو أنه ورِث كُتب الأوَّلين وعكفَ على دراستِها حتى أصبحَ من الراسخينَ في علم دقائقِها؟ إنهم لا يسَعُهُم أن

---

1 - سورة آل عمران، الآية 44.

2 - سورة هود، الآية 49.

3 - سورة يوسف، الآية 102.

4 - سورة العنكبوت، الآية 48.

يقولوا هذا ولا ذاك) [1]، أيمكنُ إذن أن يكونَ استوحى ضميرَه واستلهم عقلَه كما يدّعي مَلَاحدة هذا العصر؟ ألا إن أجْلاف الأعْراب في البادية كانوا أصدقَ تعليلا لهذه الظاهرة و أقربَ فهْما إذ قالوا أُمليت عليه و درَسَها واكتتبها (ولقد صَدَقوا فلِفه درسَها، ولكنْ على أستاذِه الروح الأمين، واكْتَتَبها ولكنْ مِن صُحُف مُكرَّمة مَرفوعة مُطهَّرة بأيدي سَفَرة كِرام برَرَة ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [2] ذلك شرأنُ ما في القرآن من الأنباء التاريخية لا جِدالَ في أنّ سبيلَها النقل لا العقل، وأنها تجيءُ من خارج النفْس لا من داخلِها) [3]، وإلا فأينَ لمحمدٍ ﷺ تلكَ المعارفُ الغيبية الواسعة المفصّلة الدقيقة والتي فنّدَ بها المغالَطات التاريخية وأخطاءَ الكُتب السابقة المُحرّفة، أوْردَها وكأنه يعيشُ في عصرِها ويُصاحبُ أصحابَها ! ألم يمكُثْ بين ظهرانِيهم أربعينَ عامًا بأيامِها ولياليِها ؟ ألم يُطلقوا عليه لقبَ الصادِق الأَمين بعدما خَبَروا صفاتِه وشمائلَه؟ إذن كيف بدّلَ مسارَه؟ وكيف ضلّ عن سيرةِ بني قومِه؟ ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [4] ؟

أمّا إخبارُه بالغيب المستقبلي وبالأمور التي لم تقع بعدُ فحدِّث ولا حَرَج، إذ حدَثَ ما أخبرَ به على ما أخبرَ متحقّقا في حياة المشركين شاهدين له بأمّ أعْيُنهم، ولكنه الاستكبارُ والعتوُّ والجحودُ يغطي على الأبصار والبصائر فلا يستطيعون لها دفْعًا !! ألم يخبرْهُم بانتصار الرّوم على الفُرس في بضع سِنين ووقع ذلك تحت سمْع المشركينَ وبصَرِهم ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [5]، ألم ينهزم المشركونَ في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة وقد نزلت الآية المُبشِّرة بالانتصار وهو ﷺ في مكةَ ولا نُذُرَ حرْب في الأُفق ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [6]، ألم يتحققْ ما وعدَ اللهُ به المؤمنينَ عام الحديبية من دُخول المسجدِ الحرام آمنين

---

1 – عبد الله دراز، النبأ العظيم، (ط2، الكويت: دار القلم، 1970م)، ص 36، 37.

2 – سورة يونس، الآية 16.

3 – المرجع السابق، ص 39.

4 – سورة المؤمنون، الآية 69.

5 – سور ة الروم، الآيات 1 ـ 3.

6 – سورة القمر، الآية 45.

مُحلّقين رؤوسَهم ومُقصِّرين؟ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾[1]، ألم ينزلْ قولُه تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[2] فأمر ﷺ أصحابَه المُوكَّلين بحراستِه أن ينصرِفوا، مَن ذا الذي يجازفُ بحياتِه في وسَطٍ مَوْبوء بالأعداء والمُتربِّصين ويأمرُ حُرَّاسَه بتركِه وحيدا؛ إلا واثقٌ مطمئنٌّ موقِنٌ بتأييد السماء ! وكثيرٌ غيرُها من النُّبوءات التي تحقّقت والتي لا يتّسع المقامُ لسردِها.

ويستثمرُ سيدٌ هذا كلَّه للتدليل على العقيدة في كُتبه وعلى رأسِها **"الظلال"**، فعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[3] يقول: (ذلك أن حقيقةَ الغيب من مُقومات التصوّر الإسلامي الأساسية لأنها من مُقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، ومن قواعد الإيمان الرئيسية... والقرآنُ الكريم يقرّر أن هناكَ غيبًا لا يعلم مفتاحَه إلا اللهُ ويقرّر أن ما أُوتِيَه الإنسانُ من العلم قليلٌ ... وأنه سيُكشَف له من هذه السُّنن في الأنفُس والآفاق ما يزيدُه يقينا و تأكُّدا أن الذي جاءَه من عند ربِّه هو الحقُّ)[4]، فيجعل من حقيقةِ الغيب مَقصدا أساسيا من مقاصِد القرآن الكريم وركيزةً من ركائز العقيدة الإسلامية ، والإيمان بها سِمة من سِمات المؤمنين، والتي تجعلُ الإنسانَ يدركُ أن الوجودَ أكبرُ وأشملُ من ذلك الحيّز الصغير المحدود الذي تدركُه الحواسّ، والإيمان بها يرفعُ الإنسانَ إلى آفاق عُليا يُحسّ من خلالِها بالطاقات والقوى المُنطلِقة في هذا الوجود ؛ وأن وراءَ هذه القوى حقيقة أكبر من الكون هي التي صدَرَ عنها واستمدَّ من وجودِها وجودَه، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدرِكُها الأبصارُ ولا تحيطُ بها العقولُ[5].

أمّا قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ

---

1 – سورة الفتح، الآية 27.

2 – سورة المائدة، الآية 67.

3 – سورة الأنعام، جزء من آية 59.

4 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص 1113، 1114.

5 – المصدر نفسه، مج1، ص40.

إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1] عقِبَ قصة نوح عليه السلام، فيقفُ سيدٌ عندَها وقفةً مطوّلةً تصلُ إلى خمسَ عشْرةَ صفحةً [2] يدلِّلُ فيها بهذه الآية على حقيقةِ الوحي التي ينكرُها المشركونَ وعلى وحدة العقيدة من لَدُن نوح عليه السلام وعلى تحقّق البُشرى والوعيد كما يبشِّر النبي وينذر، وعلى السُّنن التي لا تتخلّف ولا تُحابي ولا تَحيد [3]، ففيها إعجازٌ في الإخبار بالماضي السحيق الذي هو غيبٌ بالنسبة لنا، لم نشهدْ أحداثَه ومُلابساتِه، وقصَّه النبيُّ ﷺ علينا بتفاصيلِه وهو أُمّي لا يقرأُ ولا يكتُب ولم ينشَأ بين أهل الكِتاب حتى يتلقّى عنهُم، فهذا التفصيل الصادِق لأخبار الأنبياء الماضي وأحوال أُممهم معهم إن هو إلا وحيٌ يُوحَى إلى النبي ﷺ لم يكن يعلَمُه من قبلُ لا هو ولا قومُه، وفي الآية إشارةٌ واضحةٌ إلى أن هذا النوعَ من العلم ما كان مَعروفا عندهم وما كانوا يتذاكَرونَ به [4].

وعند قصّة موسى عليه السلام يتلو علينا القرآنُ تفصيلاتِ الأحْداث على لسان رسول الله ﷺ كما يقصُّها شاهدُ العَيان وهو لم يحضُر أحداثَها وإنَّ بينَه وبينَها لقُرونا متطاولِةً، يقولُ تعالى مخاطِبا نبيَّه ﷺ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[5]، يُعلّق سيدٌ على بعض المفردات الواردة في الآيات كالغربي ؛ وهو الجانب الغربي الغربي للطور الذي جعلَه اللهُ ميقاتا مع موسى عليه السلام، وفي هذا الميقات قُضي الأمرُ لموسى في الألواح لتكونَ شريعتَه في بني إسرائيل، ثم يشْرَع في بيان الإعجاز الغيبي للآيات للتدليل على صِدق هذا القر آنِ وأنه من عند العليم الخبير الذي يُوحي إلى نبيِّه بهذا القرآن، فالرسولُ ﷺ (ما كان شاهِدًا لهذا الميقات حتى يعلَم نبأَهُ المفصّل كما وردَ في القرآن الكريم، و إن بينَه وبين هذا الحادِث لقُرونا من الناس - أي أجيالا متطاولة... وما كان مُقيما في أهل مَدْين يتلقّى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذي

---

1 - سورة هود، الآية 49.

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن: مج4، ص1880- 1894.

3 - المصدر نفسه، مج4، ص1880.

4 - ينظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى – القرآن –، ص364.

5 - سورة القَصَص، الآيات: 44، 46.

جاءت فيه... وما سمعَ رسولُ الله ﷺ النداءَ، وما سجّل في وقتِها تفصيلاتِه، ولكنّها رحمةُ الله بقومِه هؤلاء أنْ قصّ عليه تلك الأنباءَ الدالّة على صدْقِه ﷺ فيما يدْعوهم إليه) [1] ويركّز سيدٌ دائما على عادتِه في استخلاص المَغزى من هذه القصص على مسألة العقيدة والإيمان.

فهذا الإخبار بالغيب الماضي وحكاية تفاصيلِه في القرآن وتلاوتِه على مُشرِكي العرَب إنْ هو إلا رحمة لله بالقوم وحجة عليهم كي لا يعتذِروا بأنهم أُخِذوا على غِرّة قبل الإنذار بالعذاب - وكل ما هم عليه يستوجبُ العذابَ من شِرك وكُفر ومعصية وجاهلية - فهذا إعذارٌ لهم وإيقافٌ لهم أمام أنفُسِهم مجرَّدةً من كل عائق يعوقُها عن الإيمان) [2].

وفي نهاية قصة يوسف عليه السلام يعقّب اللهُ تعالى عليها بقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ ﴾ [3] وهي قصّة طويلةٌ مفصّلةٌ في القرآن حيّة المَشاهِد أفاض سيدٌ في تفسيرِها واستخلاص العِبَر منها واستلهام المعاني الحَرَكية للإيمان والصبر والتوكّل على الله والتسليم بقضائِه والنجاح والاستعلاء والظَّفَر للموقِنين بأمر الله السالكينَ طريقَه ؛ وغيرِها من المعاني الجليلة التي لا يمكنُنا في هذا الحيّز أن نعدّدَها، أما هذه الآيةُ فهي عطفٌ للختِام على المَطلَع وهو قولُه تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ ﴾ [4]، وقصّة يوسف لم تكن مُتداولَة بين القوم الذين نشأَ فيهم محمدٌ ﷺ ثم بُعث إليهم، فهي من الغيب الذي لا يعلمُه لا النبي ﷺ ولا قومُه ولكنه وحيٌ أوحِيَ إليه، ولسيّد استخراجٌ لطيفٌ من قولِه تعالى ﴿ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾ إذ لم يجعل المكرَ خاصًّا بإخوتِه كما عليه جُلّ المفسّرين، وإنما نسبَ المكرَ إلى الإخوة وهم يمكُرون بيوسف وهم يمكُرون ب أبيهِم، وهم يدبِّرون أمرَهم بعد أخْذ أخيه وقد خَلَصوا نَجِيًّا وهو من المكْر، وإلى النِّسوَة ورجال الحاشية وهم يُودِعُونَه السجنَ، كلّ هذا المكر ما كان حاضرَه ليحكيَ عنه (إنما هو الوحيُ الذي سِيقت السورةُ لتُثبته من بين ما تُثبت مِن قضايا هذه العقيدة

---

1 - سيد قطب، في ظلال القران، مج5، ص 2698.

2 - ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

3 - سورة يوسف، الآية 102.

4 - سورة يوسف، الآية 3.

وهذا الدين... ولقد كان من مُقتضى ثُبوت الوحي وإيحاء القَصص و اللفَتات واللمَسات التي تُحرّك القلوب، أن يؤمنَ الناسُ بهذا القرآن، وهم يشهَدُون الرسولَ ﷺ ويعرفونَ أحوالَه، ثم يسمعونَ منه ما يسمعونَ ولكن أكثرَ الناس لا يؤمنون) [1]، فسيّدٌ يجعل من هذه الأخبار والقَصص المَسُوقة في السورة أدلةً وبراهينَ وحُجَجا على إثبات هذه العقيدة وهذا الدين ؛ ولا يكتفي بالتعليق والشرْح والبيان اللغوي والمعنوي البارد؛ وإنما يرتاد آفاقا عُليا في إسقاط المعاني عل حياة المسلِم ليتمثَّلَها حيّةً في العقيدة والتشريع والآداب، وهذا ديْدَنُه في الظلال من الدّفة إلى الدّفة، وهو ربْط المسلِم بالقرآن وجعْله يعيش في الجوّ الذي نزلَ فيه بعد أن تطاولَ أمدُ النزُول وقسَت القلوب وفسَدت الألْسِنة، وكان له مما تغيَّا ه نصيبٌ وافِرٌ لمن قرأ الظلال وأمعنَ فيه.

أما النّبوءات الغيبية التي تحدّثَ بها القرآنُ وتحققت في حياة المشركينَ فكثيرةٌ مبثوثةٌ في القرآن الكريم، تَلَاها النبي ﷺ على مسامِع المشركين بصيغة القطْع والجزْم حتى فيما لا تدلّ عليه أي مقدمات لحدوثِها، أفيفعلُ هذا إلا رجُلٌ مجازفٌ لا يُبالي أن يقولَ الناسُ فيه صدق أو كذب، أو رجلٌ اتخذَ عندَ الله عهدًا فلن يخلفَ اللهُ عهدَه، ولا ثالثَ لهما [2] أنبأهُم النبي ﷺ بغلبة الروم على الفُرس بعد أن غُلبوا وحدّدَ لهم الأجَل في بِضع سِنين وكلّ المقدّمات لا تُوحي بغلبة الروم بعد أن غُزُوا في عُقر دارِهم وغُلبوا، وأشارَ إلى أن اليومَ الذي يكونُ فيه النصرُ هناك للروم على الفُرس سيقعُ فيه ها هنا نصرٌ للمسلمينَ على المشركين، يقولُ تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[3]، يستخلصُ سيدٌ من الآياتِ جملةً من المعاني ينفرِدُ بها عن المفسّرين، فبعدَ أن ذكرَ أنها نُبوءة من نُبوءات النبي ﷺ والتي أُوحيَ بها إليه ينفرِجُ بالزاوية إلى الدّلالات العميقة التي تتضمّنُها هذه الآياتُ في بُعدِها العَقَدي ، فالمسلمونَ كانوا يُحسّون أن هناكَ رابِطا يربِطُهم بأهلِ الكِتاب على تَنائي الدِّيار، وكان يَسوؤُهم أن ينتصرَ المشركونَ في أيِّ مكان ، وأنّ

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2031.

2 – ينظر محمد عبد الله درّاز، النبأ العظيم، ص 41.

3 – سورة الروم، الآيات 1، 5.

قضيتَهم ليست في عُزلة عما يَجري في أنْحاء العالَمَ من حولِهم و يُؤثر في قضية الإيمان والكُفر، وقد غفل عن هذا أهل زماننا (ومن ثَم ينحصرون داخل حُدود جغرافية أو جِنسية، ولا يُدركون أن القضيةَ في حقيقتِها هي قضيةُ الكُفر والإيمان، وأن المعركةَ في صميمِها هي المعركة بين حِزب الله وحِزب الشيطان، وما أحوجَ المسلمينَ اليومَ في جميع بِقاع الأرض أن يُدركوا طبيعةَ المعركة وحقيقةَ القضية، فلا تُلهيهم عنها تلك الأعْلامُ الزائفةُ التي تتستّر بها أحزابُ الشرك والكفر، فإنهم لا يُحاربون المسلمينَ إلا على العقيدة مهما تنوّعت العِلل والأسباب) [1] ، أفليس هذا تفسيرًا حَرَكيا للآيات الكريمات تَهدي المسلمَ إلى جوانبَ أصيلةٍ في عقيدتِه وتُلفِته إلى قضايا كبرى مُنطوية في مضامين الآيات، يكشف لنا سيدٌ عنها النقابَ فإذا هي سافِرةٌ واضحةٌ لا يُماري فيها إلا مَطموسُ البصيرة !!.

وعند تفسير سيد لقولِه تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [2] وهذا ضمانٌ من الله تعالى لنبيِّه حمايةَ شخصِه وعصمته من أذى الناس، والمتربصونَ به الدوائرَ كثيرونَ يحيطونَ به إحاطةَ السِّوارِ بالمِعصَم والعِقْدِ بالجِيدِ، ولكن هذا الضمان العُلوي الجليل يجعلُ الرسولَ ﷺ على يقين بأنّ اللهَ حامِيه، ومن كان اللهُ حامِيه فماذا يملكُ له العبادُ المَهازِيل، فهذا وأيْمُ اللهِ ضمانٌ لا يملكُه بشرٌ لنفسِه إلا وهو مالئٌ يديْه من خَبَرَ السماء .

وسيدٌ في تعليقِه على الآية يتجاوزُ التفصيلَ في هذه القضية ويركّز كعادتِه على الإسقاط العَقَدي لها، فهذا الأمرُ الجازمُ الحاسمُ للرسول ﷺ بتبليغ ما أُنزلَ إليه من ربِّه كاملا يجب ألا يضع فيه لأيِّ اعتبار حسابًا وهو يصدَعُ بكلمة الحق لأن (اللهَ يتولّى حمايتَه وعصمتَه من الناس، ومن كان اللهُ له عاصِما فماذا يملكُ له العبادُ المَهازيلُ) [3]، ثم ينتقلُ إلى المعاني الكلّية للآية في حياة المسلِم وهو ألا يُجمجِمَ في تبليغ كلمةِ الحق وأن يطلِقَها كاملةً فاصلةً (وليقُلْ مَن شاء من المعارِضينَ لها كيف شاءَ، وليفعلْ مَن شاءَ مِن أعدائِها ما يفعل، فإن كلمةَ الحق في العقيدة لا تملق الأهواءَ، ولا تُراعي مواقعَ الرغبات إنما تُراعي أن

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 2757.

2 – سورة المائدة، جزء من الآية 67.

3 – المصدر نفسه، مج 2، ص 938.

تصدعَ حتى تصلَ إلى القلوب في قوة وفي نَفَاذ) [1]، فلا مُداهنةَ ولا أنصافَ حُلول في التبليغ ولا محاولةَ لإرضاء مَوروثات المدعُوّ على حِساب العقيدة الكامِلة الفاصِلة، هذه كلُّها مَعانٍ يسترسلُ معها سيد لأدْنى مُناسبة على مَدار الظلال كلِّه.

المطلب الرابع: الإعجاز العلمي:

القرآنُ الكريمُ كتابُ الإنسانية الخالِد، أنزلَه اللهُ تعالى لهداية البشر وإرشادِهم في العقيدة والتشريع والمعاملات والأخلاق وكلِّ شؤون الحياة لينالوا سعادةَ الدارين، ومِن وُجوه الهداية فيه دعوتُه الصريحة للعِلم والنظَر والتفكُّر في الأنفُس والآفاق – العلوم الإنسانية والكونية – فالمتتبّع لآيات القرآن الكريم يُلفيها حافلةً بإشارات بيّنات إلى علم الكون وإلى خفايا النفْس الإنسانية التي لم يصِل إليها العلمُ إلا في العُصور المتأخّرة إنْ في السوَر المكّية أو المَدنية.

وقد انقسم مفسِّرُو القرآن في إدْخال العلوم الكونية مجالَ التفسير إلى قسميْن: رافض رفضا مُطلقا بحُجّة أن القرآنَ كتابُ هِداية لا كتابَ علوم ، نائِينَ به عن أن يكونَ عُرضةً للشك والنظَر باختلاف النظريات العِلمية ونقض بعضِها بعضًا، ومِن هذا الفريقِ سيد قطب.

و**الثاني**: مُغالٍ في استخدام هذه العُلوم متكلّف في إظهار القرآن بمظهر كتاب علميّ شامل لكل العلوم سابق في الحقائق والنظريات المتوصّل إليها حديثا، وأبرزُ مِثال لهذا الفريق الشيخ طنطاوي جوهري الذي ذكرَ أن في القرآن من آيات العلوم ما يرْبُو على خمسينَ وسبعمائةِ آية، على حين لا تزيدُ آياتُ علم الفِقه الصريحةِ عن خمسينَ ومائةِ آية [2]، وهو يدلّ بذلكَ على مدى اهتمام القرآنِ بتنميةِ التفكير العلميّ لدى المسلمينَ ، وقد أثبتَ فيه عجائبَ الخلْق وغرائبَ العلوم بشكل مفصّل على طولِ القرآن الكريم مستعينًا بالصوَر والأشْكال والإحصاءات بحيث يظنُّ المتصفِّحُ له أنه كتابُ علوم لا تفسير قرآن.

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن ، مج 2، ص 938.

2 – طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، (طبع الحلبي، 1350 هـ)، ج1، ص42.

ونحنُ في بحثِنا يهمُّنا ما وردَ عن سيد قطب في هذا المجال، فهو يرى أن للقرآن الكريم رسالة هي أعظم من هذه الكُشوف العِلمية التي هي حلقات متتابعة في سلسلة التجارب الإنسانية، نعَمْ، فيه إشاراتٌ عابِرةٌ إلى بعض العلوم ولكنه لا يوجِّه إليها عنايتَه توجيهًا مباشرا، وإنما يشجّع المؤمنينَ على اكتساب العلوم والمعارِف، وعلى الاستفادة من الكون باكتشاف أسْراره، وينبّه سيدٌ إلى مسألة بالغة الخطورة يستثمرُها أعداءُ الإسلام للتضليل والخِداع (يضعونَ لها [للأمة الإسلامية] المنهجَ الإلهي في كفّة والإبداع الإنساني في عالَم المادّة في الكفّة الأخرى، ثم يقولونَ لها: اخْتارِي !!! اختارِي إمّا المنهجَ الإلهي في الحياة والتخلّي عن كل ما أبدعتْه يدُ الإنسان في عالَم المادة، وإما الأخْذ بثمار المعرِفة الإنسانية والتخلّي عن منهج الله !!! وهذا خِداعٌ لئيمٌ خبيثٌ، فوضْعُ المسألةِ ليس هكذا أبدًا، إن المنهجَ الإلهي ليس عدُوّا للإبداع الإنساني إنما هو مُنشئٌ لهذا الإبداع ومُوجّه له الوِجهةَ الصحيحةَ، ذلك كي ينهضَ الإنسانُ بمَقام الخِلافة في الأرض) [1].

ويشيرُ سيدٌ إلى آخرينَ لا ينقصُهم حُسن النّية ولكن ينقُصهم الوعيُ الشاملُ والإدراكُ العميقُ فينبهرونَ بهذه الانتصارات في عالَم المادّة وبهذه الاكتشافات العلمية العجيبة فيجعلونَ للقوانينِ الطبيعيةِ مجالًا وللقيَم الإيمانيةِ مجالًا آخرَ ناسِينَ أن القيَمَ الإيمانيةَ هي بعضُ سُنن الله في الكون كالقوانين الطبيعيةِ سواءً بسواء، فنتائجُهُما مرتبطةٌ متداخِلة، وهذا هو التصوّرُ الصحيحُ الذي يُنشئُه القرآنُ في النفْس وهو يتحدّثُ عن وعْد نوح لقومِه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[2] .

أمّا المظاهرُ الخادِعةُ التي تُوحي بافتراق هذه السُّنن الكونية عن الإيمانية حينَ نرى اتِّباع القوانين الطبيعية بمعزِل عن القيم الإيمانية يُؤدي إلى النجاح فنتائجُ ذلك لا تظهرُ في أوّل الطريق ولكن تظهرُ في نهايتِه حتمًا (وهذا ما وقعَ للمجتمع الإسلاميّ نفسِه، لقد بدأ خطُّ صعودِه من نقطة الْتقاء القوانين الطبيعية في حياتِه مع القيَم الإيمانية، وبدأ خطّ هبوطِه من نقطة افتراقِهما، وظلّ يهبطُ ويهبطُ كلّما

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 1، ص16 – من المقدمة –.

2 - سورة نوح، الآيات 10- 12.

انفرجت زاويةُ الافتراقِ حتى وصلَ إلى الحضيضِ عندما أهملَ السُّننَ الطبيعيةَ والقيَمَ الإيمانيةَ جميعًا)[1].

والسؤالُ الذي نطرحُه بل يطرَح نفسَه: إذا كانت الحقائقُ العلميةُ متفقةً مع الحقائقِ الدينية - أو كما يُسمّيها سيد "القيَم الإيمانية" - فهل يجوزُ تفسيرُ الحقائق العلميّة بالنصّ القرآني؟ وإذا كان الجوابُ بالإيجاب فما العملُ مع التغييراتِ الكثيرةِ للنظريات العِلمية بل التحوّلات الجِذرية التي تقْلِب الحقائقَ رأسًا على عَقِب إزاءَ الحقائقِ القرآنيةِ الثابتةِ التي لا يعْتريها التحوّلُ والتبديل؟ أم أننا نطرَحُ هذه النظرياتِ كلّها جانِبًا ونجمُدَ على فهْم النصّ القرآني في إطار فهْم السّلف الأوّلين؟ وكيف نصنعُ بالآياتِ التي تُعدُّ بالمئات في الدعوة إلى النظَر والتدبُّر والتأمُّل والتفكُّر والاستكشاف؟

في الجوابِ على هذه الأسئلةِ التي لا نهايةَ لها، يجب أن نفرِّقَ بين النظرياتِ العلمية التي من صُنع البشَر والتي ينسخُ اللاحِقُ منها السابقَ وبين الإعجازِ الذي هو إتيانٌ بشيءٍ خارقٍ للعادَة يعجَزُ البشرُ عن أن يأتوا بمثلِه، يسبقُه تحدٍّ واضحٌ ودعوةٌ إلى المعارَضة بمثل ما يتحدَّى به ، وأن تتوافَر الدواعي إلى قبولِ التحدِّي وتنتفي الموانعُ عن المعارَضة ثم يعجَزُ المعارِضون، وفيما يُسمى بالإعجاز العلمي لم يحدُث هذا التحدِّي إلا ما كانَ من إخبارٍ بالغُيوب! [2].

ففي تفسير قولِه تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[3] يُفيض سيدٌ في بيان رأيِه فيما يُسمى "الإعجاز العلمي"، ففي الآيةِ سؤالٌ واضحٌ عن القمر وتشكُّلاتِه ومَدَارجِه والغايةِ من خلْقِه، فلو شاء القرآنُ لمنحَهم الإجابةَ العلميةَ النظريةَ الفلكيةَ وإنْ لم يستوعبوها ولكنه عَدَلَ عن الإجابةِ التي لم تتهيأ لها البشريةُ وليس مجالها القرآنُ الذي أُنزلَ لمهمّةٍ أكبر (من تلكَ المعلوماتِ الجزئية، ولم يجئْ ليكونَ كتابَ علم فلكي أو كيماوي أو طبّي كما يحاولُ بعضُ المتحمِّسين له أن يلتمسوا

---

1 - المصدر السابق، مج1 ، ص 17 – من المقدمة –.

2 - يذهب الشيخ يوسُف القرضاوي إلى أن "الإعجاز العلمي" لونٌ من "الإعجاز البياني" للقرآن، فالعبارة القرآنية جعلَ اللهُ فيها من المُرونة والسَّعَة بحيثُ تتّسع لمختلف الأزمان وتطوّرات الإنسان، مُشبعة للفكر والوِجدان معًا بالفهم الفطري السهل المُيسّر لكلّ قارئ للقرآن.
ينظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، (ط2، بيروت: دار الشروق، 2000م)، ص 397.

3 - سورة البقرة، الآية 189.

فيه هذه العلومَ، أو كما يحاولُ بعضُ الطَّاعنينَ فيه أن يلتمسوا مخالفاتِه لهذه العلوم... إن مادَّة القرآن التي يعملُ فيها هي الإنسانُ ذاتُهُ: تصوُّرُه واعتقادُه، ومشاعرُه ومفهوماتُه، وسلوكُه وأعمالُه، وروابطُه وعلاقاتُه، أما العلومُ المادّيةُ والإبداعُ في عالَمِ المادّة بشتى وسائلِه وصُنوفِه فهي موْكولةٌ إلى عقْل الإنسانِ وتجاربِه وكُشوفِه ونظرياتِه بما أنها أساسُ خلافتِه في الأرض) [1]، ويعتبرُ سيدٌ كلَّ محاولة لربْط النظريات العلمية بالإشاراتِ القرآنية تحتوي على خطأ منهجي أساسي ؛ وعلى معانٍ لا تليقُ بجلال القرآن الكريم، حصرَها في ثلاثة:

1ـ الهزيمة الداخلية لأولئك الذين يحاوِلونَ جعْل القرآن تابعا لهذه النظريات العلمية غير المُطلقة ولا النِّهائية.

2ـ سوءُ فهْم طبيعة القرآن ووظيفتِه؛ وهي أنه حقيقةٌ نهائيةٌ مطلقَةٌ تُعالجُ بناءَ الإنسانِ بناءً يتفقُ مع طبيعةِ هذا الوُجودِ وناموسِه الإلهي.

3ـ تأويلُ نصوص القرآن بتمحُّل وتكلُّف ، واللُّهاث وراء الفروض والنظريات العلمية غير المستقرَّة ولا الثابتة [2]، ثم يمثّل سيد ببعض النظريات التي كانت كالمسلَّمات والْتمسَ لها في القرآن ما يسندُها ثم تكشَّف فيما بعدُ زيفُها وتَدَاعيها، وهذا ما لا يليقُ بجلال القرآن وكمالِه، فَفُهومُ البشَر مهما دقَّت وعَظُمت لا ترقى إلى مستوى المُطلق واللانهائي والمعصوم، إذ هي عُرضة للخطأ والتغيُّر والنسبية والاحتمال، فلا حاجةَ بالقرآن إلى مثل هذا الادِّعاء لأنه كتابُ عقيدة يخاطبُ الضميرَ ، وخيرُ ما يُطلب منه في مجال العلم أن يحثَّ على التفكير ولا يتضمن حُكما يشلّ حركة العقل أو يَحول بينه وبين الاستزادة من العلوم [3]، وهي فضيلةُ الإسلام الكبرى أنه يفتحُ للمسلمينَ أبوابَ المعرفة ويحثُّهم على التقدّم فيها وطلب المزيد منها بالمعنى الذي تستقيمُ به العقيدةُ ولا تكون عرضةً للنقائض كلّما تبدلت القواعدُ العلمية أو تتابعت الكشوفُ بجديد ينقضُ القديمَ أو يقينٍ يُبطلُ الاحتمالَ والشكَّ.

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص181.

2 – ينظر: المصدر نفسه، مج1، ص182 بتصرف.

3 – ينظر: عباس محمود العقاد، الفلسفة القرآنية، (ط4، مصر: دار نهضة مصر، 2007م)، ص 10.

وفي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[1] لا يستبعدُ سيدٌ أن يكون قول الله تعالى على وجهِه لا على سبيل الحال ؛ إذ ليس هناك ما يمنعُ أن يقع حين يشاؤُه، فالتوحيدُ مَركوزٌ في الفِطرة البشرية إلا أن تُفسدَه العواملُ الخارجية، بل يذهبُ بعيدا إلى أنه مَركوزٌ في فطرة هذا الوُجودِ كلِّه ـ وما الفطرةُ البشريةُ إلا قطاعٌ من فطرة الوُجود كلِّه ـ (ويومًا بعد يوم يكشفُ البشَرُ أطرافا من ناموس الوحدة في طبيعةِ هذا الكون، وطبيعةِ قوانينِه التي تحكُم تصرّفاتِه ـ في غير آليّة حتمية ولكن بقدَر من الله مطّرد متجدّد وفقَ مشيئةِ الله الطّليقة ـ ولكننا نحنُ لا نعتمدُ على هذا الذي يكشفُه علم البشَر الظنّي ـ الذي لا يمكنُ أن يكونَ يقينيًّا بحُكم وسائلِه البشرية ـ في تقرير هذا الناموس، إنما نحنُ نستأنسُ به مجرّد استئناس، واعتمادُنا الأوّل في تقرير أيّةِ حقيقةٍ كونية مُطلقة على ما قرّره لنا الخالِقُ العليم بما خَلَق)[2].

هكذا يقفُ سيدٌ أمام النظريات العلمية والحقائق التي يكتشفُها البشرُ بمنطقِ المُستعلي بإيمانِه وقرآنِه، فليسَ له إلا أن يستأنسَ بها في فهْم الحقائقِ المطلقةِ التي يسوقُها القرآنُ بعيدا عن الانهزامية والانبهار الذي وقعَ فيه الكثير فتمحَّلوا في صرْف الآيات وليِّ أعناقِها لتُوافِقَ ما توصّلَت إليه البحوثُ والكشوفاتُ العلميةُ التي لا تنتهي ولا يقينَ مطلقًا فيها.

ثم هو يستثمرُ مثل هذه الآيات للتدليلِ على العقيدةِ وتثبيتِها في النّفوس، فالكونُ كلّه يسبِّحُ بحمْد الله تعالى ، يَسري فيه ناموسٌ واحدٌ وقوانينُ ثابتةٌ وسُنن لا تَحيد ـ بقدَر الله المطّرد المتجدِّد وفقَ مشيئةِ الله الطليقة ـ وهي مِيزة من مِيزات **"الظلال"** الكثيرة بل مِيزة سيد في كُتبه كلِّها، وهي النظرةُ الشُّمولية التي لا تقفُ عند الجزئيات بل تتجاوزُها إلى الكُلِّيات والمقاصد الكبرى العَقَدية إنْ في الله تعالى أم في الكون والحياة والإنسان.

وسيدٌ ينطلقُ في موقفِه هذا من مبادئَ مقرّرةٍ وأمورٍ مُسلَّمة يَبني عليها ؛ ذلك أن النصوصَ

---

1 - سورة الأعراف، الآية 172.

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1395.

القرآنيةَ قطعيةُ الدّلالة كذلك ونهائيةٌ في تقرير الحقائق، والحقائقُ القطعيةُ المُطلقةُ لا يملكُها إلا اللهُ ـ سبحانه ـ بحُكم أُلُوهيتِه المهيمِنة على الكونِ كلِّه، وبحُكم علمه المحيط غير المُقيد بالزمان والمكان، وبحُكم أنه سبحانه هو الأوّل والآخِر والظاهِر والباطِن وهي الصفاتُ اللازمةُ لعلم الحقيقة القطعية المُطلقة [1]، أما ما تعارَفَ عليه البشرُ على أنه "نظريات علمية" وما تعارَفوا كذلك على أنه "حقائق علمية" فهي ليست قطعيةَ الدّلالة ولا مطلقةَ الدّلالة، إنْ هي إلا احتمالاتٌ راجحةٌ، فالإنسانُ هو الذي يقومُ بالتجربة، ومن ثم فنتائجُه قياسيةٌ لا إحصائية، يقيسُ ما لم تتناوَلْه تجاربُه على ما تناولَتْه هذه التجارب، فليس في مُكنتِه الإحاطةُ بكل أجزاء المادّة فيُخضِعَها للتجربة ؛ بل ليس في مُكنة النوع الإنساني مجتمِعًا هذه الإحاطةُ فيضطرّ إلى القياس، هذا إلى جانب النّسبية في النتائج المُتوصل إليها فلا شيءَ مُطلقًا عندَه.

وإذا كان هذا هكذا فإن تلمُّس الموافقات بين النصوص القرآنية التي تشيرُ إلى بعض الحقائق الكونية وبين النظرياتِ والكشوفِ العلمية الحديثة اتجاهٌ خاطئٌ من أساسِه ؛ إنْ من الناحية المنهجية العلمية أو من الناحية الاعتقادية، لأن (قولَ البشَر ـ ومنه كل ما يقرّرونَه سواء من الحقائق العلمية أو النظريات العلمية ـ ليس من جنسِ تلكَ النصوص ولا هي في مستواها حتى يُستشهد به على صدقِها، وفي هذا يتجلّى الخطأُ الاعتقاديُّ والخطأُ المنهجيُّ معًا في الاستشهاد بتقريرات البشَر (العِلمية) على صحّة أو صِدْق النصوص القرآنية، فالنصوصُ القرآنيةُ صحيحةٌ وصادقةٌ بذاتِها لا بشهادةٍ من خارجِها عليها، والمؤمنُ بها لا يجوزُ أن تُدركه الهزيمةُ أمام علم البشَر فيستشهدَ به على صدْقها وصحّتِها) [2].

وعند قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [3]

---

1 – ينظر: سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 323.

2 – سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي ، ص 322، ويخصّص سيدٌ فصْلا كاملا لهذه القضية تحت عنوان "حقيقة الكون" يستغرقُ ستًّا وثلاثينَ صفحةً من ص 319 إلى 355 يسوقُ فيه الأدلة والشواهدَ القرآنية ويعقبُها بتلك النظريات التي نسختْها أخرى ويخرُج بنتيجة ألّا مقارنةَ بين فُهُوم البشَر القاصِرة ومُقرَّرات النصوص القاطِعة.

3 – سورة الأنعام، الآيات: 1، 2.

يقفُ سيدٌ عند دليل الخلْق ودليل الحياة وكيف حارَ المادّيون والمُلحدون في تفسيرهِما فلا مفرَّ لهم من افتراض شيءٍ فوق الطاقة البشرية يَكِلونَ إليه تفسيرَ هذا الوُجود وما يجري فيه، وكلّ محاولاتِهم لتعليل نشأة الحياة باءتْ بالفشل (ذلك أنه إن كانت الحياةُ صفةً كامنةً في المادّة ولم يكُن وراءَ هذه المادّة قوة أخرى ذاتُ إرادة، فما الذي يجعلُ الحياةَ التي في المادّة الكونية تتبدَّى في درجاتٍ بعضُها أرْقى وأعْقد من بعض؟ فتتبدَّى في الذَّرَّة مجرّد حركة آليَّة غير واعية، ثم تتبدَّى في النبات في صفة عُضوية، ثم تتبدَّى في الأحياء المعروفة في صورة عُضوية أكثر تركيبا وتعقيدا...إننا نفهمُ هذا التفاوتَ يوم نُقدِّر أن هناك إرادةً مدبِّرةً هي التي تصنعُ ذلك مختارَةً مُريدةً)[1]، فلا بدّ من الالتجاء إلى تصوّر إرادة مدبِّرة تحكُم هذه النواميسَ التي لا تتخلّف، إذ قُصارى العقول البشرية أن تُدركَ أطرافًا منها بعد التدبُّر الطويل أمّا كُنْهها وسرّها فلا يعلمُه إلا خالِقُ هذه العقول، وهكذا يحلِّلُ سيد ويعلِّلُ في مثل هذه الآيات الكونية ولا يجمُد على النصوص مكتفيًا بما قالَه الأوائل، رابِطًا دائما تفسيراتِها إلى التصوّر العَقَدي في توحيد الله وتقرير سُلطانِه في حياة العبْد.

وتتجلّى نظرةُ سيد العِلمية ـ وإنْ كان لا يقولُ بالإعجاز العلمي كما أسلَفْنا ـ في تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] إذ صرَّحَ بأنه يتقبّلُ النظرياتِ الفلكيةَ التي لا تُخالفُ هذه الحقيقةَ المُجملةَ التي قرّرَها القرآن، ولكن لا نجْري بالنصّ القرآني وراءَ أيَّة نظرية فَلَكية، ولا نطلبُ تصديقًا للقرآن في نظريات البشَر وهو حقيقةٌ مُستيَقَنَة[3] مُعلِّلا ذلك أن هذه الأمورَ المتعلقة بالكون الفسيح والأجْرام العِملاقة تبقى الدراساتُ عليها مهما دقَّتْ نظرياتٍ، مجردَ نظريات فلكية، تقومُ اليومَ وقد تُنقضُ غدًا بنظريةٍ أخرى تصلُحُ لتفسير الظواهر الكونية بفرْض آخرَ يتحولُ إلى نظريةٍ.

أمّا الحقائقُ العلميةُ فشيءٌ آخر ؛ فهي تتعلقُ بأشياءَ في متناوَل التجربة ؛ ثابتةٌ ؛ كتمدّد المعادن بالحرارة وتحوّل الماء بُخارا وتجمّده بالبرودة إلى آخر تلك التجارب، ويخلُص إلى أن (القرآنَ ليس كتاب

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1035.

2 – سورة الأنبياء، الآية 30.

3 – ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2376.

نظريات علمية ولم يجِئْ ليكونَ علمًا تجريبيا كذلك، إنما هو منهجٌ للحياة كلِّها، منهجٌ لتقويم العقل ليعملَ وينطلقَ في حُدودِهِ، ولتقويم المجتمع ليسمحَ للعقل بالعمل والانطلاق، دون أن يدخُلَ في جزئيات وتفصيليات علمية بَحتة، فهذا متروكٌ للعقل بعد تقويمِه وإطلاقِ سَراحِه)[1]، أما وُرودُ الحقائق العلمية موافقةً لما في القرآن الكريم، فيعتبرُها سيدٌ شيئا عاديا لا يثيرُ العَجَب في نفس المؤمِن ولا يزيدُه صدْقا ويقينًا بهذا القرآن لأنه يستمدُّ الاعتقادَ بصدْقِهِ المطلَق في كلّ ما يقرّرُه من إيمانِه بأنه مِن عندِ الله، لا مِن موافقةِ النظريات أو الكشوفِ العلمية له [2].

نكتفي بهذه الأمثلة التي جلَّت موقفَ سيد قطب من الإعجاز العلمي في القرآن معلِّلا رفضَه لهذه النظريات العلمية التي أرادَ بعضُهم أن يجعلوا من القرآن اليقيني الثابت المُطلَق تابِعًا لها، فإذا تغيرتْ وأُبدلَت بغيرِها وقَعُوا في مأزق هم في حِلٍّ منهُ، مُركّزا دائما على عرْضه الحيّ العملي للعقيدة الإسلامية وتثبيتِها في نفْس المؤمِن، مُكثِرا من الدّلائل والإيحاءات التي تُصاحِبُ النصَّ وتخاطِب الفطرةَ والعقلَ والوِجدانَ، مُحذِّرا من الاتجاهات الانهزامية التي تجعلُ من المسلِم العزيز القويِّ بإيمانِه وقرآنِه ؛ ذليلًا تابِعا ملتمِسًا موافقاتِ الكُشوف البشرية الهزيلة للقرآن الذي لا يأتيه الباطلُ من يديْه ولا من خلفِه.

1 - المصدر السابق ، مج4، ص 2376.

2 - ينظر: المصدر نفسه، المجلدُ والصفحةُ نفسُهما.

المبحث الرابع: دلالة الأنفُس والآفاق:

المطلب الأول: دلالة الأنفُس:

من الدّلالات الكبرى على وُجود الخالِق سبحانه وتعالى دلالة الأنفُس، فالإنسانُ مخلوقٌ خاصٌّ ذو كيانٍ متميّز يمرُّ بأطْوار في حياتِه لا يعلمُ عنها شيئًا ؛ من نُطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة إلى لحم وعِظام وأعصاب وآلات وحواسّ موافقة لمصالحه، ثم ينفصلُ عن أُمِّه وتعرِضُ له أطوارٌ من ضُعف إلى قوّة ، ومن جهل إلى عقل، ومن صِغَر إلى كِبَر، ومن مرض إلى صحّة، بحيث يمتنعُ في عقل كل عاقِل أن تكونَ كل هذه الأطوارُ بغير صانِع حكيم قادِر مُخالِف لها، إذ لو جازَ أن يكونَ مثلُ هذا بغير صانِع لجازَ (أن تصحّ لنا دُورٌ معمورةٌ أو مَصاحفُ مكتوبةٌ أو ثيابٌ مَحُوكةٌ بغير بانٍ ولا كاتبٍ ولا حائِك) [1]، وهذا ما لا يصحّ في عقل عاقِل ونحنُ نعلمُ بالضرورة وُجودَنا أحياءَ قادرينَ عالِمينَ سامعينَ مُبصرينَ مُدرِكين بعدَ أن لم نكنْ شيئًا مَذكورا، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩)﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ (٢١)﴾ [3]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [4] وقال عزّوجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [5]، إلى آياتٍ كثيرةٍ مبثوثةٍ في الكتاب الكريم يَضيقُ بنا المقامُ لو استقْصيْناها.

واستعمالُ سيد لهذا الدّليل في إثبات العقيدة مُتميّز، حيثُ لم ينكفِئْ على هذه الدّلالات القريبة التي استعملَها السابقونَ من اختلاف الأطْوار ودلالة الصَّنعة على الصانِع وإنما تجاوزَ ذلك مُوظِّفا إيّاه

---

1 - ابن الوزير اليماني، إيثارُ الحقّ على الخَلْق، (ط2، بيروت: دار الكتب العلمية 1987)، ص48.

2 - سورة عبس، الآيات: 17 - 19.

3 - سورة الذاريات، الآية 21.

4 - سورة الانفطار، الآيات 6 - 8.

5 - سورة الحج، الآية 5.

في بيان دَوْر الإنسان ـ سيّد هذه الأرض ـ في الخِلافة وهو أمرٌ عظيمٌ هائلٌ كما عبَّر عنه [1].

ففي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [2] يُرسلُ لقلمِه العَنان في رِيادة آفاق هذه النفْس الإنسانية العجيبة وأسْرارِها الكامِنة فيها متمثِّلا قولَ الشاعِر:

وَتَزْعُمُ أَنَّكُ جِرْمٌ صَغِيرٌ *** وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

فيبدأُ من أسْرارِ التكوين الجِسماني ؛ الأعضاءُ وتوزيعُها، أداؤُها لوظائفِها ؛ عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفّس والاحتراق، دوْرة الدّم في القلب والعُروق، الجهازُ العصبي وتركيبُه وإدارتُه للجسم، الغُدد وإفرازاتُها، التناسُق بين هذه الأجهزة جميعا (وكلّ عجيبة من هذه تنطوي تحتَها عجائبُ وفي كلّ عُضو وكلّ جُزء من عُضو خارِقةٌ تُحيِّر الألباب) [3]، ثم ينتقلُ إلى أسْرار الروح والطاقات المعلومة والمجهولة وكيف ندرك هذه المُدرَكات؟ وما طريقةُ الإدراك؟ كيف نخزِّن هذه المعلومات التي لانهايةَ لها؟ كيف تنطبعُ الصوَر والمشاهِد في المخيّلة والذاكرة فإذا استُدعيت لبَّتْ طائعةً؟ أمّا ما نجهلُه منها (فهو أكبرُ وأكثرُ تظهرُ آثارُه بين الحين والحين في لَمَسات وإشراقات تدلّ على ما وراءَ الظاهِر من الغيب المجهول) [4].

وهكذا إلى أسْرار الجِنس والتوالُد والتوارُث، وخصائص الخليّة، ويقفُ وقفةً مع حركة اللّسان الأولى عند الوَليد ناطقا بالحُروف والمقاطِع والكلمات ثم العبارات وهي (خارقةٌ مذهلةٌ تنبئُ عن القُدرة التي لا تكونُ إلا لله) [5].

---

1 – ينظر: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ص26.

2 – سورة الذاريات، الآية 21.

3 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص3380.

4 – المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

5 – المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

ثم يخلُص إلى أن هذه العجائبَ لا تنقضي ولا يمكنُ أن يحصُرَها كتابٌ ؛ والمجهولُ منها أكبرُ بكثير من المعلوم، والقرآن الكريمُ لا يُحصيها ولا يَحصُرُها وإنما يلمسُ القلبَ هذه اللمسةَ ليدعُوَه إلى التأمّل والتفكّر في هذا الخلْق العجيب الذي يدلّ على الخالِق الرحيم.

والمنهجُ القرآني ـ كما يقرّر سيد ـ في خطاب الكينونة البشرية بحقيقة الأُلوهية، وفي بيانه لموقف العُبودية منها ؛ يجعلُ حقيقةَ الخلْق برهانا قويّا على ضرورة ما يدعو إليه البشَر: من العُبودية لله وحدَه وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحدَه.

ويستفيضُ سيد في آية أخرى ببيان دلالة الأنفُس على عقيدة البعْث وهي قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [1] ويتساءلُ ما هؤلاء الناس؟ ما هم؟ من أين جاءُوا؟ وكيف كانوا؟ وفي أي الأطْوار مَرُّوا؟ فالنُّقلة ضخمةٌ بعيدةُ الأغْوار والآماد، والمسافةُ هائلةٌ بين عناصر التراب الأوَّلية الساذَجة والنّطفة المؤلّفة من الخلايا المَنَويّة الحيّة، إنه سرُّ الحياة الذي لا يعرفُ البشرُ شيئًا عنهُ مهما حاوَلوا وطمحوا، فلن يرجِعوا إلا بملاحظاتٍ وتسجيلات ظاهريّة، ثم ما تلكَ النطفةُ التي تكمُن فيها جميعُ خصائص الإنسان المُقبل: صفاتُه الجسدية والعصبية والعقلية والنفسية على تعدُّدِها؟ ثم ما سرّ تحوّل النطفة إلى عَلَقة إلى مضغة؟ [2].

وهنا يلتفتُ سيدٌ الْتفاتةً رائعةً في بيان قولِه تعالى: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ ﴾ ويقفُ قائلا: (فهنا مَحطّة بين المُضغة والطِّفل، يقفُ السياقُ عندَها بهذه الجُملة المعترِضة ـ لِنُبَيِّنَ لَكُم ـ لنبينَ لكم دلائلَ القُدرة بمناسبة تبينُ الملامحَ في المُضغة، وذلكَ على طريقةِ التناسُق الفنِّي في القرآن) [3]،وحينَ يستوفي كلّ

1 – سورة الحج، الآية 5.

2 – ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص2409، 2410.

3 – المصدر نفسه، مج4، ص2410.

المراحل التي أشارت إليها الآيةُ الكريمةُ يخلُصُ إلى أن هذه الأطوار ذات دلالة مزدوجة على البعْث:

1ـ فهي تدلّ على البعث من ناحية أن القادِر على الإنشاء قادِرٌ على الإعادة.

2ـ وهي تدلّ على البعث؛ لأن الإرادةَ المدبّرة تكملُ تطويرَ الإنسان في الدار الآخرة.

ويختمُ بقولِه: (وهكذا تلتقي نواميسُ الخلْق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلُّها بوجود الخالِق المدبّر القادِر الذي ليس في وُجوده جِدال) [1].

أمّا أسْرارُ الحياة ـ كُنْهُها وكيفيةُ وجودِها وتصرّفها ـ وأسرار تكوين الإنسان الروحي والعقلي وحتى تكوينه الجسمي المتصل بنشاطِه الروحي والعقلي فلا يزالُ خافِيًا عن الإدراك البشري، زَوَاها عنهُ فاطرُه سبحانه وتعالى العالِمِ بحقيقة طاقاتِه التي وَهبَها إياه لتسخيرِها في خِلافة الأرض [2]، ويعترفُ بهذا أحدُ أكبر العُلماء المتخصّصين قائلا: (لقد بذلَ الجنسُ البشريُّ مجهودا جبّارا لكي يعرِف نفسَه، ولكن بالرغم من أننا نملكُ كنزا من الملاحظة التي كدَّسها العلماءُ والفلاسفةُ والشعراءُ وكبارُ العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهمَ جوانبَ معينةً فقط من أنفسِنا، إننا لا نفهمُ الإنسانَ ككلّ، إننا نعرفُه على أنه مُكوّن من أجزاءَ مختلفةٍ، وحتى هذه الأجزاءُ ابتدعتْها وسائلُنا، فكل واحد منا مُكوّن من موكب من الأشباح تسيرُ في وسطِها حقيقةٌ مجهولة) [3].

فكيف بإنسانٍ هذا حالُه أن ينشئَ تصوراتٍ اعتقاديةً لنفسِه عن الله والكون والحياة وهو يجهلُ نفسَه التي بين جَنبيْه؟ وكيف به لا يشكرُ اللهَ تعالى الذي أعفاهُ من مثل هذا التخبّط والاضطراب ؛ ووَهَبه تصوّرا كاملا في حدود طاقاتِه كي لا يُهدرَها عبثا في ما لا طائلَ من ورائِه، وقد شبّه هذا أحدُ الباحثين برائدٍ لم يقتنعْ بما أدّى إليه العلمُ الإنساني في الجغرافية، وما حدّدَ وضبط في الخرائط على تعاقُب الأجيال، فحاولَ أن يقيسَ ارتفاعَ الجبال وعُمق البحار من جديد، ويختبرَ الصحارى والمسافات والحدود ـ على قِصَر عُمره وضُعف قوّتِه وفقدان آلتِه فلم يلبث أن انقطعتْ به مطيّتُه وخانتْه عزيمتُه

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن ، مج4، ص 2411.

2 – ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 60.

3 – ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، (ط3، بيروت، مكتبة المعارف، 1980)، ص 17.

فرجع بمذكّرات وإشارات مختلّة [1].

ونعودُ إلى "الظلال" ـ إذ هو عُصارةُ فِكر سيد قطب ـ وإلى تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [2]، نجدُ سيدا يعالجُ النصّ بلمسة أخرى غير مُعيدٍ ما قاله في آيات الخلْق السابقة، إذ يفنّد في شرحِه لهذه الآيات نظرية داروين في النشوء والارتقاء، فأطوارُ النشأة وتتابُعُها بهذا النظام والاطّراد يشهدُ بوجود المُنشِئ، وبالقصْد والتدبير في تلك النشأة، فهذا التسلسلُ من الطين إلى الإنسان دالٌّ على أن الطينَ هو المصدرُ الأوّل والإنسانَ هو الطورُ الأخير، أمّا كيفيةُ التسلسل فلم يُفصّل فيها القرآن الكريم لأنه لا يَعنيه في أهدافِه الكبيرة، والمحاولاتُ العلميةُ أو النظرياتُ العلمية التي تُخطئُ وتُصيبُ فليست مِعيارًا عند سيد؛ إذ تُثبتُ اليومَ ما تنقُضُه غدًا أمّا القرآنُ فحقيقةٌ ثابتة [3].

وجانبٌ آخر وهو مَفرَقُ الطريق بين نظْرة القرآن إلى الإنسان باعتباره كائنا مُكرّما فيه نفخةٌ من روح الله هي التي جعلت من سلالة الطين إنسانا ، ومنحتْهُ خصائصَ يفترقُ بها عن الحيوان، وبين النظريات التي تفترضُ أن الإنسانَ ليس إلا طورا من أطوار الترقّي الحيوانية [4]، ثم يقف سيدٌ معترفا بما توصّلَ إليه العلمُ الحديثُ عند قولِه تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ معلّقا: (وهنا يقفُ الإنسان مدهوشا أمام ما كشفَ عنه القرآنُ من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا بعد تقدُّم علم الأجنة التشريحي ؛ ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبتَ أن خلايا العِظام هي التي تتكونُ أوّلا في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظُهور خلايا العظام وتمام الهيكل العظمي للجنين؛ وهي الحقيقة التي يسجّلها النصُّ القرآني) [5].

---

1 - ينظر: أبو الحسن الندْوي، ماذا خسرَ العالَمُ بانحطاط المسلمين، (ط13، الكويت: دار القلم، 1982م) ص 108.

2 - سورة المؤمنون، الآيات: 12 - 14.

3 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص2457، 2458.

4 - ينظر: المصدر نفسُه، هامش صفحة 2459.

5 - المصدر نفسه، مج4، 2459.

وهكذا فسيدٌ يُقرّ بما كان تحت التجربة وغَدَا حقيقةً علميةً يُرجعُ إليها ويُعوَّل عليها، فالعلمُ فيه حقائقُ ثابتةٌ، أما الفرَضيات والنظريات التي تتناولُ ما هو خارج عن الطوْق التجريبي الإنساني كنشأة الكون والبحوث الميتافيزيقية ومحاولات التعرُّف على كُنْه الأشياء فهي تبقى دائما عُرْضة للنسخ والتبديل والتغيير؛ ولا يليقُ بجلال القرآن الكريم حَمْل معانيه عليها، أمّا ما ثبتَ من الحقائق العلمية الداخِلة في التجربة فلا مانعَ من إضافة فهْم جديد للآية منها، والقرآنُ الكريم لا تنقضي عجائبُه ولا تنفدُ كنوزُه وأسرارُه، واللهُ تعالى يفتحُ على عبادِه في فهْمِه ما يشاءُ لمن يشاءُ.

وفي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾[1] يستثيرُ سيدٌ معاني الآيات بطريقةٍ أدبية علمية مُلفتة، فيتجاوزُ الإعجازَ الواضح الذي في أجهزة الإنسان التي يُشارك بها الحيوانَ إلى الخصائص العقلية والروحية الفريدة التي هي موضعُ الامتنان في هذه السورة، فهذا الإدراكُ الذي لا ندري كُنهَه، وهذا العقلُ الذي لا يدري كيف يُدركُ بل لا يُدركُ ذاتَه، وهذه المعلوماتُ التي لا يُحصيها العدُّ في هذا المدى المتطاوِل لعُمْر الإنسان كيف تُسجَّل كلُّها وتُخزَّن وتُستدعَى بعد عشرات السنين فتستجيبُ؟ ثم كيف تتجمَّع هذه الكلماتُ والمعاني والصّوَر والحوادِث المفرَدَة فترتقي إلى عِلم ومعرفة؟ ثم إن هذا كلَّه ليس بأكبر خصائص الإنسان ولا بأعلى مميّزاته بل هناك الروح الإنساني الخاصّ الذي يصِلُ الإنسانَ بجمال الوُجود وجمال خالِق الوُجود ويمنحُه تلك الصلةَ الراقيةَ الوَضِيئةَ بالمطلَق.

فما هو هذا الروحُ الذي يستمتعُ بلحظات من الفرَح والسعادَة العُلْوية حتى وهوَ على هذه الأرض ويتصل بالملأ الأعلى؟ إنه هِبَةُ الله الكبرى لهذا الإنسانِ (وهو الذي به صارَ إنسانًا، وهو الذي يخاطبُه باسْمِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ويعاتبُه ذلك العتابَ المُخجِل؟ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ هذا العتابُ المباشرُ من الله للإنسان حيث يُناديهِ ـ سبحانَه ـ فيقف أمامَه مُقصّرا مُذنِبا مُغترًّا غير مُقدِّر لجَلالِ الله... إنه عتابٌ مُذِيبٌ حين يَتصورُ الإنسانُ حقيقةَ مصدرِه وحقيقةَ مَخبَرِه وحقيقةَ الموقف الذي يقفُهُ بين يديْ

1 - سورة الانفطار، الآيات: 6 – 8.

ربِّه وهو يناديهِ ذلك النداءَ ثم يعاتبُه هذا العِتاب) [1].

وهكذا يستجيشُ سيدٌ القلوبَ والضمائرَ في معرِض الاستدلال بآيات الأنفُس على العقيدة إنْ في وُجود الله أو اليوم الآخِر بعد تذكيره بنِعَم الله عليه وآلائه التي يراها في نفسِه قبل أن يراها في الكون من حولِه، محاوِلا جُهدَه في تَعْدَاد هذه النِّعَم والمَواهب، فتراهُ ينقلُ أحيانا صفحاتٍ كاملةً من البحوث الجديدة والنتائج العلمية الباهِرة التي توصَّل إليها علماءُ الغرب [2]، وأحيانا يستعينُ بالبحوث الإسلامية القيِّمة لعلماء المسلمين، لتأكيد وبيان ما هو بصددِه إنْ في "الظلال" أو في كُتبه الأخرى [3].

---

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 3850.

2 - ففي هذه الآية يستأنسُ بقول "كريسي موريسون" في كتابِه (العلمُ يَدعو إلى الإيمان)، الصفحة نفسها من "الظلال".

3 - يُكثِرُ سيد من النقل عن هؤلاء العلماء الغربيين في الآيات التي تتصلُ بالكشوف العلمية في "الظلال"، وفي كتابه "الإسلام ومُشكلات الحضارة" فتحتلُّ هذه النقولُ حوالي ثُلث الكتاب، وكذا في "خصائص التصور الإسلامي" لاقتضاء بحوثِه فيها لذلك.

المطلب الثاني: دلالة الآفاق:

هذه الدّلالة تقومُ على التفكُّر في آيات الله في الكون من نُجوم ساطعة وكواكب دائرة وأقمار نيِّرة وسماء مَرفوعة و أرض مَبسوطة وجبال مَنصوبة ، ثم في تعاقُب الفصول وتغيُّر أحوال الهواء بالغُيوم والبُروق والرّعود وإنزال الأمطار منها بالحكمة البالغة ؛ لا تختلطُ قطرةٌ بأخرى ولو اشتدّت الرياحُ العواصِف حتى تقعَ متفرقةً غير ضارَّة ولو اجتمعت لعَظُم ضررُها، فتحْيَا بها الأرضُ بعد موتِها وينبُتُ العشبُ للأنعام والهوامّ، والزرعُ والثمارُ للأناسي، وتُمدُّ البحارَ والأنهارَ والآبارَ، إلى غيرِها من الآيات الباهرات التي تقودُ العقلَ إلى الإقرار بالفاعِل الحكيم والخالِق المدبِّر، وهذا لا يحتاجُ إلى المقدِّمات المنطقيات والأساليب النظريات (وكيف يُنكَرُ هذا أو يُستبعَد وقد حَكى اللهُ عن الهدهد وهو من العالَم البهيمي انه وحَّدَ اللهَ واحتجّ على صحّة توحيدِه بهذا الدليل المذكور في الآفاق، قال اللهُ سبحانه حاكيًا عنه: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [1]، يعني المطرَ والنباتَ فاحتجّ بحُدوث هذين الأمريْن العجيبيْن المعلومِ حدوثُهُما مع تكرُّرهما بحسب حاجة الجميع إليهما) [2].

فهذه الدلالة واضحةٌ لكل ذي عقل بل حتى لعديمِه للتوصّل إلى معرفة الخالِق الذي أبدعَ كل هذه الآيات، وهي ناسفةٌ لمزاعِم الطبيعيين الذين يُرجعون هذه المشاهدَ والآيات الكونية إلى الطبيعة، لأن الطبيعةَ لو كانت مؤثرةً لكان أثرُها واحدا كونها غير عاقِلة، والقرآنُ يشيرُ في غيرِ مَا أيةٍ إلى التنوّع في الخلْق الذي لا يكونُ إلا من عاقِل مدبّر حكيم كقولِه تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [3]، فكيف تكونُ السقايةُ بماء واحدٍ وتكون الطعومُ حُلوةً ومُرّةً ومَزَّةً -بينَ بينَ- وحامضةً؟ أليست آيةً لأُولي الألْباب؟

---

1 - سورة النمل، الآية 25.

2 - ابن الوزير اليماني، إيثارُ الحقّ على الخلْق، ص 52.

3 - سورة الرعد، الآية 4.

لقد أمرَنا اللهُ تعالى بالتبصُّر والتفكُّر وإعمال العقل في الآيات البيّنات التي خلقَها وهي كلّها دلائلُ بيّنةٌ على الخالِق سبحانه إذ امتدحَ المتفكرينَ في قولِه عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾[1]

وحثّنا على النظَر والتبصّر بقولِه عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ ﴾[2]، ووعدَنا بآيات مستقبلية لم تكن معروفةً في زمن التنزيل قائلا: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ ﴾[3].

ففي النظر إلى الآفاق اتجاهٌ للإنسان نحو خارج ذاتِه وانفتاحٌ على الكون المحيطِ به ، وفي النظَر إلى نفسِه اتجاهٌ نحو الداخِل للتعرُّف على الخفايا والأسرار التي أوْدَعها اللهُ فيها، وهو نفسُه موضعَ الحُجّة والبرهان لأنه مخلوقٌ، وهو نفسُه آيةٌ بل من أبلغ الآيات – وقد أسلفْنَا القولَ في هذا في المطلب السابق –

أمّا استدلالُ سيد بآيات الآفاق على العقيدة وبالذات على وُجود الله تعالى فلا يحصُرُه مبحثٌ كهذا، [4]، نجتزئ ببعض المواضع من الظلال فهي كثيرةٌ، نختارُ أهمَّها التي أطالَ فيها النفَس وخصَّها بمزيد عناية؛ ففي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ ﴾[5] يركّزُ سيد على الإشعاع العَقَدي لهذه الآيات وما تبعثُه

---

1 – سورة آل عمران، الآية 191.

2 – سورة الغاشية، الآيات 17– 20.

3 – سورة فصلت، الآية 53.

4 – خصّ له حسان عبد المنان محمود كتابًا كاملا أحصى فيه كل ما وردَ عن سيد في هذا الصدد أسماه: "إثبات وجود الله في كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب" (ط1، بيروت: دار الجيل، 1995م) وهو كتابٌ قيّم يقعُ في 374 صفحة جمع فيه مؤلفهُكل ما وردَ في " الظلال" عن الآفاق والأنفُس من أدلة على وجود الله تعالى، وعيْبُ الكتاب أنه لا يُحيل على مواضع الظلال بالجزء والصفحة

5 – سورة البقرة، الآيات، 163، 164.

في النفْس من تصوّر إيماني قائم على وحدة الألوهية، ويستغربُ نشوءَ هذه النابِتَة في الأيام الأخيرة التي تُنكرُ وُجودَ الله تعالى وكيف انتكست الفطرةُ فيهِم !! فالأقوامُ الأُولى الجاهِلة الساذَجة لم يُؤْثَر عنها هذا الجدلُ حول الاعتقاد بوُجود إله – وإن اختلفت تصوّراتُهم لصفاتِه وعلاقاتِه بالخَلْق - لكنّ وجودَه لم يُمارِ فيه أحد؛ إلا ما ظهرَ من هؤلاء النابِتة التي لا جُذور لها ؛ والتي مصيرُها حتما إلى الفناء والاندثار من هذا الوُجود – على حدِّ تعبير سيد – لأنهم مَقطوعو الجذور.

ثم ينثني السياقُ القرآني إلى هذا الكون الشاهد بالوحدانية والرحمة في كل مَجاليه، وهي طريقةٌ تُنبّهُ الحواسَّ وتفتحُ العينَ والقلبَ على هذه العجائب التي أفقدتْها الأُلفةُ والعادَةُ هزّةَ المفاجئة ودهشةَ المباغتة وروْعةَ النظرة الأُولى، وهي دعوةٌ للإنسان أن يرتادَ هذا الكونَ كالذي يراهُ أوّل مرّة مفتوح العين مُتوفِّزَ الحِسّ حيَّ القلب، أن يرى هذه الأبعادَ الهائلة والأجرامَ الضخمة والآفاقَ المسحورة والعوالِمِ المجهولة، أن يرى اختلافَ الليل والنهار وتعاقُبَ النور والظلام، ويذكُرَ دائما يَدَ الله فيها فيتلقّاها بروْعة الخَلْق الجديد، أن يرى الفُلكَ التي تجري في البحر بما ينفعُ الناسَ.

وهنا يستشهدُ سيد بتجربةٍ له قائلا: (و أشهدُ ما أحسستُ في هذه اللفتة من عُمق قدْرَ ما أحسستُ ونقطةٌ صغيرةٌ في خِضرمّ المحيط تحمِلُنا وتجري بنا، والموجُ المتلاطِمُ والزُّرْقةُ المطلقة من حولِنا، والفُلكُ سابحةٌ متناثرةٌ هنا وهناك، ولاشيءَ إلا قدرة الله، وإلا رعاية الله، وإلا قانون الكون الذي جعله الله، يحملُ تلك النقطةَ الصغيرة على ثَبَج الأمواج وخِضمّها الرعيب)[1]، أن يرى إحياءَ الله الأرضَ بعد موتِها بالماء المنزل من السماء وتصريف الرياح والسحاب المُسخّر بين السماء والأرض.

ثم كيف هي هذي الحياة التي تنبعثُ من الأرض حينما يَجودُها الماءُ، من أين جاءت؟ ما أصلُها؟ ما مصدرُها الأوّل؟ أسئلةٌ لا بد للملحدين من مواجهتِها ولا جوابَ عليها إلا وجود خالِق قادر على إعطاء الحياة للمَوَات [2]، وهكذا يُضفي سيدٌ مسحةً جديدةً رفيقةً على التوحيد الذي يُوحي به تصميمُ الوُجود؛ ويُلقي عن عقل القارئ بَلادةَ الأُلفة والغفلة ؛ ويهزّ كيانَه بدلالته على هذه الآيات الكونية

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 152.

2 – ينظر: المصدر نفسُه، مج1، ص 153.

ليقدّر جمالَها وتناسُقَها ويراها برُؤية إيمانية جديدة.

وفي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [1]، يقِفُنا سيدٌ في تعليقِه على هذه الآيات أمام مشاهدات في صفحة الكون تُلجِئُ المنكرينَ والجاحدينَ إلى الإقرار بوُجود الخالِق الواحد، فالسمواتُ والأرضُ والماءُ النازِلُ من السماء وإنباتُ الشجر وتسويةُ الأرض لتصلُح للاستقرار وتوتيد الجبال والفصل بين مياه البحار بعضِها ببعض وبينَها ومياه الأنهار ، كلُّها حقائقُ ثابتةٌ قائمةٌ لا يمكنُ لأحد أن ينكرَ وجودَها ولا أن يدّعي أن الآلهةَ المزعومةَ خلقتْها أو أنها خلقت نفسَها، ويُعيدُ سيد الإنحاءَ على أولئك الملحدينَ الذين ظَهروا في القرون الأخيرة وادّعاءاتهم المتهافتة، فكيف لهم بمجابهة مثل هذه النصوص؟

أليس مجرد التذكير بوجود السموات والأرض والتوجيه إلى التفكير فيمن خلَقَها كفيلا بإلزام الحُجّة ودحض الشرْك وإفحام المشركين، والسؤالُ لا يزالُ قائما متكرّرا في كثير من آيات الخلْق والتناسُق في المخلوقات الذي لا يمكنُ أن يكون فلتةً ولا مصادفةً، أسئلةٌ تضطرُّ المُكابِر اضطرارا إلى الإقرار بوُجود الخالِق ووحدانيته الواضحة في آثارِه، وفي التصميم والقصْد اللذان لا يصدُرَان إلا عن إرادة واحِدة [2].

وعند تفسيره لقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [3] يبينُ سيدٌ موقفَه من النظريات العلمية في هذه

1 - سورة النمل، الآيات 60، 61.

2 - ينظر: المصدر السابق، مج5، ص 2656.

3 - سورة الأنبياء، الآيات: 30- 33.

المسألة فلا يردُّها جملةً ولا يقبلُها جملةً لأنها ليست سوى نظرياتٍ فلكيةً تقومُ اليومَ وقد تُنقضُ غدًا وتقوم نظريةٌ أخرى تصلُح لتفسير الظواهر الكونية بفرْض آخرَ يتحوّل إلى نظرية [1].

والعقيدةُ الإسلامية الثابتة القطعية لا يمكنُ أن تُحاكَم مدلولاتُها إلى مثل هذه النظريات التي تبقى بعيدةً عن التجربة لأنها ليست في مُتناولها، أمّا الحقائقُ العلميةُ – لا النظريات – القابلة للتجربة كتمدُّد المعادِن بالحرارة وغيرِها فهي شيءٌ آخرُ يمكنُنا الاعتمادُ عليه فيما تقرِّرُه النصوصُ القرآنية، والقرآن –عند سيد– ليس كتابَ نظريات علمية ولم يجئْ ليكونَ علما تجريبيا وإنما هو منهجٌ للحياة كلِّها، فلا يدخلُ في جزئيات وتفصيليات علمية بَحْتة، أمّا النظرياتُ الفلكية جملةً والتي لا تُخالِف الحقائقَ المجملةَ التي قرَّرها القرآنُ فنتقبّلها ولكننا لا نجري بالنصوص القرآنية وراءَها ؛ ولا نطلب تصديقَها لنظريات البشَر، وخلاصةُ رأيِه أن النظريةَ الفلكيةَ القائمةَ اليوم في مسألة فتق السموات بعد أن كانتا رتْقا هو أنها لا تُعارضُ المفهومَ الإجمالي لهذا النصّ القرآني السابِق عليها بأجيال [2].

ونفسُ الأمر لنظرية دارون في النشوء والارتقاء واهتدائِه إلى أن الماء هو مَهْد الحياة الأوَّل ؛ والتي سبق إليها القرآنُ الكريم بقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فهذا عند سيد لا يزيدُنا يقينا بمدلول الآية الكريمة ؛ وإنما نُقرّ بأن نظريةَ دارْوِن وجماعته في هذه النقطة بالذات لا تُعارضُ مفهومَ النص القرآني، ويستمرّ سيد في بيان مُراد الآيات من الجبال التي تحفظ توازُن الأرض فلا تضطرب ويتتبع يدَ القُدرة المُبدِعة المدبِّرة لهذا الكون، ثم يلتفتُ لفتة خاصة في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ فالفِجاج التي في الجبال هي الفَجَوات بين حواجزِها العالية تُتّخَذ سُبلا وطُرُقا يهتدي بها السائرون ؛ ويردِف قائلا: (ذكْر هذه الفِجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يُصوّر الحقيقةَ الواقعة أوَّلا، ثم يشيرُ من طرْف خفيّ إلى ش أن آخرَ في عالَم العقيدة فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودُهم إلى الإيمان كما يهتدون في فجاج الجبال) [3].

---

1 – ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص2375.

2 – ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2376.

3 – المصدر نفسه ، مج4، ص 2376، 2377.

ولاحِظْ كيف يستثمرُ سيدٌ مثل هذه المناسبات لأدْنى داعٍ لربطها بالعقيدة وبالتصور الإسلامي الإيماني، والظلالُ مليءٌ بمثل هذه اللفَتات والّلطائف التي لم أجِدْها عند غيرِه من المفسّرين بحيث لو استُلّت منه لكانَ منها كتابٌ قائمٌ بنفسِه يَشِي برفاهة حِس هذا المفسّر وسعة علمِه وثاقِب بصَرِه في آيات القرآن الكريم لأنه (عاشَهُ لحظةً لحظةً وفكرةً فكرةً ولفظةً لفظةً بروحِه وفكرِه وشعورِه وكيانِه كلِّه وأوْدَعه خلاصةَ تجربتِه الحيّة في عالَمِ الإيمان)[1]، ولا غَرْوَ ممّن يعيشُ هذه التجربةَ مع القرآن الكريم أن تصدُرَ منهُ مثلُ هذه اللفَتات.

وفي معرِض حديثِه عن المراحل التي مرّت بها السمواتُ والأرضُ في نشأتها وخلْقِها في قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[2] .

يعقِدُ سيد مقارنةً لطيفةً بين أولئك الأناسي الكافرين وبين السموات والأرض ؛ فهاتان تُسْلِمان قيادَهما طائعتيْن على ضخامة خَلْقِهما و تكوينِهما، أمّا بعضُ سكّان هذه الأرض – على ضَعفهم وهُزالهم وعجْزِهم – فيتأبَّوْن ويستكبِرون !! فأيُّ تبجُّح وأيُّ استهتار وأيُّ فِعل قبيح هذا والأرضُ التي هُم عليها خلَقَها في يوميْن وأرْساها بالجبال وزوّدَها بالأقْوات ثم هُم يجعلونَ له أنْدادا !! أَلَا ما أكبرَ غُرورَ هؤلاء المَساكين.

أمّا اليومان فما هما وكم مقدارُهما ؛ فلا يخوضُ سيد في ذلك بشيء ويذكرُ على سبيل الاستئناس - كعادتِه - ما توصّلَ إليه العلمُ إذ قدّروها بنحو ألفيْ مليون سنة على أنها تبقى مجرّدَ تقديرات علمية مستنِدة إلى دراسة الصخور وتقدير عُمْر الأرض بوساطتها [3]، ويُعيد ويؤكد قاعدتَه أنه لا نحمِل القرآنَ

1 - المصدر السابق، مج1، ص 9، من مقدمة أخيه "محمد قطب".

2 - سورة فُصّلت، الآيات: 9، 12

3 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص3110

على مثل هذه النظريات وإذا وجدْنا أنها تصلُح تفسيرا للنص القرآني بغير تمحُّل نأخذُ بها لا على أنها أمرٌ نهائي؛ أي على سبيل الاستئناس؛ وهذا ما فعلَه في كثير من الآيات التي تتحدّث عن أمور علمية .

ثم ينقل نُقُولا كثيرةً من كتاب علميٍّ [1] عن نشأة الأرض بأدلة علمية مفصّلة ويرى أنها تساعدُنا على فهْم الأيام في خلْق الأرض، أما قولُه تعالى: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ ففهْمُنا للآية اليوم يتضاعفُ في أذهاننا بعدما كشف اللهُ للإنسان أشياءَ كثيرةً من بركتِه في الأرض ومن أقواتِها التي خزّنها فيها على أزمان طويلة، وأظنّه يقصد الغاز والبترول وهذه المعادِن التي لا يعرفُها الأسْلاف، فهم كانوا يستخرجون الذهبَ والفضةَ والحديدَ وما إليها.

أمّا أمْرُ الله تعالى السماءَ والأرضَ بالإتيان طوْعا أو كرْها وإجابتهما طائعتيْن ؛ فيفيض سيد في الدرس العَقَدي من إجابتهما، فهي إيماءةٌ عجيبةٌ إلى اتصال حقيقة هذا الكون اتصالَ طاعةٍ مع خالِقه إلا هذا الإنسان الذي لا ينقادُ طائعًا طاعةَ الأرض والسماء، محاوِلا التفلُّتَ فيصطدم بالنواميس الثابتة ثم يستسلمُ خاضِعًا غيرَ طائع، ويختمُ سيد قائلا: (إننا نخضعُ كرْها فليتنا نخضع طوْعا، ليتنا نُلبّي تلبيةَ الأرض والسماء في رضًى وفي فرَح باللقاء مع روح الوُجود الخاضِعة المُطيعة المُلبية المستسلِمة لله ربّ العالَمين) [2]؛ لأننا بطاعتِنا نتناغمُ مع طاعة الوُجود كلِّه ونتصلُ بخالِق هذا الوُجود فيمدّنا بقوة نصنعُ بها الأعاجيب في هذه الرحلة القصيرة من العُمر ؛ والتي تُفضي بنا إلى الرّحلة الطويلة بعدَها في السعادة الأبدية يوم تُبدّل الأرضُ غير الأرض والسمواتُ.

ثم إننا نسمعُ بين الحين والآخر تساؤلات من هؤلاء الذين يُقدِّسون العلمَ وما توصّلت إليه البحوثُ والكشوفُ البشريةُ لأسرار هذا الكون الذي وصفه القرآنُ بالطائع، - يتساءلُ بعضُهم: أليس هناك تعارُضٌ بين هذه الظواهر الكونية الناشئة من طبيعة الكون والتي تسيرُ وفق نواميس وقوانينَ ثابتة وبين نشوئها وتوجُّهها بمشيئة الله وقدرته ؟! والجوابُ عند سيد ألّا زمانَ ولا مكانَ بالقياس إلي ـه - سبحانه - ومن ثم فلا حِجابَ ولا حِجازَ بين الأشياء والوقائع ولا فواصلَ بين خلْق الشيء وأدائِه

---

1 - ينقل حوالي أربع صفحات تتخلّلها تعقيباتٌ يسيرةٌ منه من كتاب أحمد زكي "مع الله في السماء" عن نشأة الأرض والسماء.
2 - سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 3114.

لوظيفتِه، وهنا تتلاشى هذه الأسئلةُ والاعتراضات، ومثالُ ذلك أن الريحَ إنما تهُبّ وفق عواملَ فلكيةٍ وطبيعية في تكوين الأرض وطبيعة جوّها وطبيعة دوْرتها، وهبوبُها أيضا في الآنِ نفسِه بقَدَر من الله خاصّ (لقد قدّرَ اللهُ أن ريحًا عقيما تهبّ فتصيبُ قومَ هود عندما قدّرَ خلْق السموات والأرض بهذه الطبيعة وهذا التركيب، وعندما قدّر أن لا تعارض هذه الطبيعة وهذا التركيب هبوبَ تلك الريح وهبوبَ غيرِها من أنواع الرياح المُحمّلة بالماء المُحيي الذي يُساقُ إلى بلد ميّت، وهكذا فلا تعارُض ولا تناقُض ولا تصادُم في التصوّر الإسلامي الصحيح الواضح المُريح)[1]، وفِعلا فإن الإنسانَ يستريحُ إلى هذا التقدير الإلهي الشامل ويعلم أنه محُوط بعنايتِه في كلّ شأن من شؤونِه ، وما الطبيعة وتقلّباتها إلا خلْق طائعٌ من مخلوقات الله، محُاوِلا جهدَه في التعرُّف على أسرارِها المودَعَة فيها والتي حثّه القرآنُ على اكتشاف مجَاهيلِها لتسخيرِها في خدمتِه.

---

1 – سيد قطب، مقوّمات التصوّر الإسلامي، ص 335.

الفصل الثالث: عَرْضُهُ لمَبَاحث العقيدة:

المبحث الأول: الإلهيّات:

المطلب الأول: وُجودُ الله تعالى " الصفة النفسية ":

الإيمانُ بوُجود الله تعالى هو أساسُ العقيدة الإسلامية وجَوهرها وعليه تقومُ عقائدُ هذا الدين كلّها من إيمانٍ بالملائكة والكُتب والرسُل واليوم الآخِر والقَدَر خيرِه وشرِّه، ومسألة وُجوده هي المس ألة الرئيسَة التي يلتقي فيها الشعورُ الوجداني والحُكم العقلي بحسب مستوى الإدراك والوعي لدى الإنسان (فالإنسانُ له وعيٌ يقينيٌّ بوجودِه الخاصّ وحقيقتِه الذاتية ؛ ولا يخلو من وعي يقيني بالوُجود الأعظم والحقيقة الكونية لأنه متصلٌ بهذا الوُجود، بل قائمٌ عليه، والوعيُ والعقلُ لا يتناقضان، وإن كان الوعيُ أعمّ من العقل في إدراكِه لأنه مستمدّ من كيان الإنسان كلّه ومن ظاهره وباطنِه وما يَعيهِ هو وما لا يعيهِ، ولكنه يقومُ به قياما مُجملا مُحتاجا إلى التفصيل والتفسير) [1]، لأن الوعي أقرب في استنتاجاتِه إلى الصواب من مُقدّمات العقل وحُدوده وتصوّراته.

أمّا الملحدونَ الذين يتبجَّحون بعدم إدراكِهم لوُجود الله تعالى بوِجْداناتِهم وعُقولهم فقد وظَّفوا أدوات إدراكِهم في غير محلِّها فأصبحوا كما قال الشاعِر:

ومَن يكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ *** يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلاَلاَ

أو كالخفافيش التي لا تُدركُ أبصارُها ضوءَ الشمس ولكنها تحسّ آثارَها بغير أداة الإبصار، فلو سألناها عن وُجود الشمس لما أنكرَتْه، فهي أسْلم حُكْما وعقلًا من هؤلاء الملحِدين.

والوُجود (صفةٌ ثُبوتيةٌ يدلّ الوصفُ بها على وُجود الذات دون معنًى زائد عليها) [2]، فوُجودُه تعالى من ذاتِه لا من غيرِه، لا يجوزُ عليه العدَم، وهو مستغْنٍ عن كلّ ما سواهُ ومفتقرٌ إليه كلُّ ما عداهُ.

---

1 - عباس محمود العقاد، "الله" كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، (ط6، مصر: دار المعارف، 1969م)، ص 204.

2 - إبراهيم اللقاني، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1403هـ) ص 54، وينظر: محمد بخيت، القول المفيد على الرسالة المسماة وسيلة العبيد في علم التوحيد، (ط1، مصر: المطبعة الخيرية، 1326هـ)، ص 16.

والأدلةُ الشرعيةُ على وُجودِه سبحانَه كثيرةٌ منها قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[2] فهو سبحانه متفرِّد بهذه الصفة الأزلية التي لا يشاركُه فيها غيرُه، أمّا المخلوقاتُ كلُّها فمفتقرةٌ إليه، وقد فصّلنا في الفصل السابق في هذه الأدلة ونزيد المسألةَ إيضاحا بما وردَ عند سيد قطب في مسألة الوُجود.

عاش سيدٌ طويلا مع القرآن مُتفيِّئًا ظلالَه مُتأمّلا نصوصَه متفاعِلا مع حقائق العقيدة بمشاعرِه وكيانِه كلِّه، فكان عرْضُه لها عمليا حيًّا هادِفا موجِّها، بعدما أصبحت في القرون المتأخّرة قضايا نظريةً عقليةً فلسفيةً معقدةً في كُتب الكلام وتلخّصت في جدل تجريدي لا ينتهي، فأراد سيد بتفاعُلِه هذا مع قضايا العقيدة أن يُعيد تلك النضارةَ وتلك الفاعليةَ التي كانت لها في الصدْر الأوّل حيث تمثَّلها أصحابُها منهجا حيًّا واقعيا مطبَّقا على الأرض وترجمةً حيّةً للقرآن الكريم.

فالقرآن لم يعرِض العقيدةَ (في صُورَة نظرية ولم يعرِضْها في صورة "لاهوت" ولم يعرضْها في صورة جدَل كلامي كالذي زاوَلَه فيما بعدُ ما سُمّيَ بعلم التوحيد أو علم الكلام، كلّا لقد كان القرآنُ الكريمُ يخاطبُ فطرةَ الإنسان بما في وُجوده هوَ ؛ وبما في الوُجود من حولِه من دلائلَ وإيحاءاتٍ، كان يستنقِذُ فطرتَه من الرُّكام ويُخلِّص أجهزةَ الاستقبال الفِطرية ممّا رانَ عليها وعطّل وظائفَها ؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقّى المُوحِيات المؤثّرة وتستجيب لها)[3]، فسيد لا يهدِف بكتاباتِه إلى مجرّد المعرِفة البارِدة التي تتعامَل مع الأذهان وتُحسَب في رصيد الثقافة ؛ إنما يَرومُ أن تستحيلَ هذه المعرفةُ قوةً دافِعةً لتحقيق

---

1 - سورة الأنعام، الآية 102.

2 - سورة البقرة، الآية 164.

3 - سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1011، 1012.

مدلولِها في عالَمِ الواقع ويَتَغَيَّا استِجاشةَ ضمير الإنسان لتحقيق غايةِ وُجوده [1].

يرى سيدٌ أن مس ألةَ "وجود الله" لم تكن قضيةً جِدِّيَّةً من قضايا الاعتقاد في تاريخ البشرية، فالقضيةُ الجدّية دائما كانت هي تصوّر حقيقة الألوهية خاصّة ما يتعلقُ منها بصفة التوحيد، فالمعركةُ إذن بين الاعتقاد الحقّ والاعتقادات الباطلة، لا بين الإيمان على إطلاقِه والإلحاد على إطلاقِه، ولوْثة الإلحاد التي تُنكر وجودَ الله أصْلا وتنبذُ الاعتقادَ والتديُّنَ إطلاقا حديثةٌ عارِضةٌ شاذّةٌ لا جذورَ لها ، يُرجِعُها سيد إلى تحريف النصرانية في أوربا ثم ما وقع بعدها من صِدام بين عقائد الكنيسة المُحرَّفة وبين النهضة العلمية التي امتدَّت من فلسفات عصر التنوير ؛ ثم في المذاهب الوضْعية المادّية وفي الداروينية القديمة والحديثة؛ وكذا في الجانب السياسي بالنزَعات القومية للاستقلال عن سُلطان روم ا الديني ؛ هذه العواملُ مجتمعةً هي التي أفرزت لوْثة الإلحاد [2].

ويضربُ سيدٌ المثلَ بروسيا التي أعلنت الإلحادَ رسميا وسخّرت كل أجهزتِها لحمايتِه وفشلت في وجه هُجوم الفطرة في كيان الملايين من الشعب الروسي ، ثم ما وقع له أمام الهجوم الهتلري فاستدارَ إلى الكنيسة وإلى الآباء الروحيين والتجأَ إلى الدِّين [3].

ويخلُص سيد إلى أن الدينَ حاجةٌ فطريةٌ في النفس البشرية كحَاجة الطعام والشراب والنسْل لحفظ الذات والنوع، فالإنسانُ ذَرَّة تائهةٌ في الكون ما لم يتصلْ ببارئ الوُجود، وقد خرجَ إلى الحياة وهو مزوَّدٌ بأجهزة الاتصال بهذا الوُجود والاتصال ببارئِه عن طريق الاستعدادات الفطرية المُودَعة فيه [4].

أمّا الموضعُ الذي فصّل فيه في هذه القضية فهو عند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ

1 - ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 10.

2 - ينظر: سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 100، 101.

3 - ينظر: المصدر نفسُه، ص 102.

4 - ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

﴿ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [1] مقرّرًا أن العربَ في جاهليتِهم لم يكونوا ينكرونَ أن اللهَ هو خالِق هذا الكون وخالِق الناس ورازِقهم، وحتى الجاهليات الأخرى باستثناء قِلّة من الفلاسفة المادّيين الإغريق، فلمّا جاء الإسلامُ أنكرَ على الجاهليةِ العربيةِ الانحرافَ في التوجُّه بالشعائر التعبُّدية لآلهة مع الله على سبيل الزُّلفى والقُربى من الله؛ فلم يكونوا مُنكرينَ لوُجود الله ولا مُلحدين به.

والذينَ يحاولونَ اليومَ الجدالَ في مسألة وُجود الله لا تُسعِفُهم الأدلةُ لا من العلم ولا من طبيعة الكون [2].

والقرآنُ الكريم حين يتحدَّثُ عن حقيقة الخلْق والتقدير والحياة لم يكن يسوقُها (لإثبات وُجود الله - إذ كان الجدالُ في وُجوده تعالى سُخفا لا يستحقُّ من جِدِّية القرآن العناية به - إنما كانت تُساقُ لردِّ الناس إلى الرشاد كي يُنفّذوا في حياتهم ما تقتضيه تلك الحقيقةُ من ضرورةِ إفْراد الله سبحانه بالألوهية والرّبوبية والقِوامة والحاكِمية في حياتهم كلّها، وعبادته وحده بلا شريك) [3]، ثم يسوق سيدٌ الأدلةَ ويستشهدُ بنُقُول كثيرة عن كبار علماء الفلسفة والطبيعة والكيمياء والرياضيات كـ"جوليان هكسلي"[4] و"ول ديورانت" و"جون كليفلاند كوتران" و"فرانك أللن" و"جيمس جينز"[5] منتهيا بتقريراتِهم إلى أنه لا بدّ لأصل الكون من خالِق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكلّ شيء، قويّ ليس لقدرتِه حدودٌ، ولا بد أن يكونَ هذا الكون من صُنع يديْه [6].

ويختمُ سيدٌ كلامَه بالحديث عمّن يطلبُ رؤيةَ الله بالأبْصار ويشبّهُهم بالذين يطلبونَ دليلا ماديّا

---

1 - سورة الأنعام، الآية 102، 103.

2 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1163، 1164.

3 - المصدر نفسُه، مج2، ص 1164.

4- هو السير جوليان سوريل هكسلي وُلد عام 1887 وتوفي عام 1975م حفيد توماس هكسلي، أصبح عالِم أحياء مشهورا. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 19/ 109.

5- هو السير جيمس هوبوود ولد عام 1877م وتوفي عام 1946م.عالِم انجليزي ساهم في فهم سلوك الجزئيات و خصوصا النظرية الحركية للغازات، له كُتب كثيرة منها "مشاكل نشأة الكون وديناميكية النجم".

ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 8/ 683.

6 - ينظر: المصدر نفسُه، مج2/ 1166.

على الله، فكيف للحادِث الفاني أن يرَى الأزليَّ الأبَدي [1]، فضْلا على أن هذه الرؤيةَ لا تلزَم لهم في خِلافة الأرض، ثم إن هؤلاء الذين يؤمنونَ بالعلم ويتحدّثون عن الذَّرَّة والكَهْرب والبروتون والنيوترون يؤمنون بآثارِها التي أحدثَتْها ولم يرَوْها (ولكنهم حين يُقال لهم عن وُجود الله ـ سبحانه ـ عن طريق آثار هذا الوُجود التي تفرض نفسَها فرْضا على العُقول؟ يجادِلون في الله بغير علم ولا هُدًى ولا كتاب منير، ويطلبون دليلا مادّيا تراهُ الأعيُن، كأن هذا الوجودَ بجُملته، وكأن هذه الحياة بأعاجيبِها لا تكفي لتكونَ هذا الدليل) [2]، فهؤلاء الذين استشهدَ سيد بأقوالِهم وآرائِهم من علماء الغرب لم يُثبتوا وجودَ الله ليُقنعوا به الملحدينَ ؛ ولكن تفسيرَهم لظواهر الكون اقتضى ذلك كحقيقةٍ علمية أو هندسية تتمّ بها الحقائقُ الأخرى، وسيد يسوقُها من باب ﴿ وشَهِدَ شَاهِدٌ مِن أَهْلِهَا ﴾ على مُلحِدي الشرْق المقلّدين في إلحادِهم لِناعِقِي الغرْب.

أمّا تركيزُه الكبيرُ فمنصَبٌّ على أدلة القرآن الكريم التي جمعت أنواعَ الخطابات من تقريرية وبرهانية ودعوة إلى النظَر في النفوس والآفاق وملامستها للوِجدان والعقل والحواس في آن؛ ليشمل كل الاستعدادات والفِطَر في العالِم وغير العالِم بيقينيَّتِها وبساطتِها بعيدا عن الحدود والأقْيِسة المفتعَلَة المعقّدة التي أنشأتْها فُهُوم البشَر، لذا حاولَ سيد جهدَه أن يبقى في جوّ النصّ القرآني ويستلهِمَ النصوصَ مباشرةً ويستمدّ منها مقرراتِه ليقيمَ عليها تصورات المسلِم الصحيحة عن الله تعالى.

فالقرآن الكريمُ له أسلوبٌ خاصٌّ في عرْضه لهذه القضية الكبرى ؛ فلم يلجأْ إلى الأسلوب الجدَلي الذي جدَّ فيها بعدُ عند الفلاسفة والمتكلمين؛ لأنه ـ حسب سيد ـ لا يصلُ إلى القلوب ولا يتجاوزُ منطقة الذهن البارِدة التي لا تدفعُ إلى حرَكة ولا إلى بناءِ حياة، ولكن الأدلةَ التي يقدّمُها هي أقوى الأدلة الُمقنِعة للعقل والقلب جميعًا ـ وهذه ميزتُها ـ فوُجود الكون أوّلا ثم حركته المنتظمة وما يجري فيه من تحوّلات تضبطُها قوانينُ واضحةُ الأثر، لا يمكنُ تفسير ذلك كلِّه بغير تصوّر قوّة مدبّرة [3] .

1- مسألة رؤية الله تعالى اتُّهِم فيها سيد قطب اتهاماتٍ جزافيةً، فهو لا يُنكر رؤيةَ الله في الآخِرة وإنما ينكرُه في الدنيا . وهو قولُ كلّ المذاهب الإسلامية . وسنعرِض له بالتفصيل في المطلب القادم.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1167.

3- ينظر: المصدر نفسه، مج3، ص 1766.

وهذا البرهانُ القرآني كان كافيا لإقناع مُشركي الجاهليات القديمة إذ كان معظمُهم (يعترفُ بوُجود الله ثم يُماري في ربوبيته على نحوِ مَا رأينا في الجاهلية العربية التي واجهَها القرآنُ أوّل مرّة، فلقد كان البرهانُ القرآني يحاصرُهم بمنطقِهم هُم وعقيدتِهم في وجود الله سبحانه وصفاته ؛ ويطالبُهم بمقتضى هذا المنطق ذاتِه أن يجعلوا الله وحدَه ربّهم، فيدينوا له وحدَه بالاتّباع والطاعة في الشعائر والشرائع، أمّا جاهليةُ القرن العشرين فتريدُ أن تخلصَ من ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها ابتداءً) [1] ولكن إلى أينَ؟ والاعتقادُ حاجةٌ فطريةٌ في النفس البشرية كحاجة الطعام والشراب والتناسُل؟ فالإلحاد تقاومهُ الفطرةُ والفطرةُ أغلَب، فهي لا تحتاجُ فقط إلى مجرّد التديّن ولا إلى مجرّد الاعتقاد في ألوهيته؛ بل إنها تحتاج إلى إله واحد تتجهُ إليه بالعبادة، فالعقيدةُ التوحيدية في فِطَرنا نحنُ البشَر [2]﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [3]، فهذا عهدُ الفطرة المأخوذ على بني آدم بالاعتراف له بالربوبية وحدَه قبل أن تظهرَ النفوسُ إلى العالَم المشهود حين كانت في عالَم الذَّرّ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن لم يكِلْهم إلى فِطَرهم وحدَها فقد تنحرفُ وتضلّ فبعث إليهم رسُلا مبشّرين ومنذرين ليذكّروهم ولئلا يكون للناس على الله حُجّة بعد الرسُل.

1- المصدر السابق، مج3، ص 1766.

2- ينظر: سيد قطب، مقوّمات التصور الإسلامي، ص104.

3- سورة الأعراف، الآيات: 172، 173.

*** ـ مناقشةُ ما قيل عن سيد قطب في القول بوحدة الوُجود:**

عقيدة وحدة الوجود مذهبٌ فلسفيٌّ لا ديني ؛ تبنَّاه جماعةٌ من المتصوفة المتأخّرين الذين صيَّروا المداركَ الوجدانية عِلميةً نظريةً؛ مَفادُه أن اللهَ تعالى متحدٌ بمخلوقاتِه في هُويَّته ووُجودِه وصفاتِه [1]، فالله والطبيعةُ حقيقةٌ واحدة، فهو تعالى وحدَه هو الوُجودُ الحقُّ، أما المخلوقاتُ كلُّها فليس لها وجودٌ قائمٌ بذاتِه بل هي مظاهرُ له سبحانه (تصدُرُ عنه بالتجلِّي أو تفيضُ عنه مثل فيوض النور عن الشمس) [2].

فالموجوداتُ والكائنات إنما هي صوَرٌ زائفة ومجرّدُ أوْهام، وليست ذاتًا منفصلةً قائمةً بنفسِها، فمثلها لا يستحقّ أن يُطلقَ عليه الوجود الحقيقي، فهي عدمٌ في الحقيقة وما وجودُها إلا في المعارك البشرية فقط؛ ولا وجودَ بالحقيقة إلا للقديم لا في الظاهِر ولا في الباطِن [3]، وهكذا انتهَوْا إلى القول بأن كل كائنٍ هو اللهُ واللهُ هو كل كائن، فاتحدَ بذلك الوُجودُ مع الخالِق المعبود [4] ـ تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرا.

هؤلاء إذن ينفونَ وجودَ ما سوى الله حتى إنهم يعتبرون قولَ "لا إله إلا الله " توحيدَ العوامّ، وتوحيد الخواص عندهم "لا موجود إلا الله " [5] وهو مذهبٌ فلسفيٌّ غاية في التعقيد والغموض ؛ حتى قال فيه أحدُ الباحثين: (ولا نُبالغُ إذا قلنا: إن إبطالَ هذا المذهب أسهلُ من فهْمِه) [6] إذ اعتبرُوا التوحيدَ المأمور به في الشرْع والذي هو تمييزُ الله عن سائر الموجودات وحصر الألوهية من بينها في الله ؛ اعتبروه توحيدَ العوامّ، ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾، واللهُ تعالى يقولُ لخيرِ خلْقِه وأخصّ خاصَّتِهم: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [7] ويقول: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

1- ينظر: ابن خلدون، المقدّمة، ص 870.

2- عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، (ط1، مصر: الدار الشرقية، 1990) ص 380.

3- ينظر: المقدّمة، ص 871.

4- ينظر: صالح حسين الرقب ومحمود الشوبكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية (ط 2، فلسطين: مكتبة بيت المقدس، 2009م) ص 50.

5- مصطفى صبري، موقف العقل والعِلم والعالَم من ربّ العالمين وعبادِه المرسَلين، ج3، ص87.

6- المرجع نفسُه، الصفحة نفسُها.

7- سورة محمد، الآية 19.

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ [1] فهل اللهُ تعالى والملائكةُ ومحمدٌ ﷺ وأولو العلم كلُّهم من العوامّ؟ [2] اللهمَّ لا، سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيم، وقد تطوّرَ مفهومُ وحدة الوجود وأُضيفت له أشياء كإلزاماتٍ للمذهب، يتضحُ ذلك بجَلاء عند ابن عربي [3] في تأويلاتِه البعيدة لكثير من النصوص القرآنية للتوفيق بينها وبين هذه النظرية التي تعتبر الخالِقَ والمخلوقَ شيئا واحِدا، وهنا تنشأُ أسئلةٌ لا إجابةَ لها من قبيل : إذا كان الخالِقُ والمخلوقُ وحدةً والمؤمنون والكفارُ جزءًا من هذه الوحدة، والكفار يُعذبون في النار، فمن الذي يُعذبُهم؟ هنا يتمحَّل ابن عربي في الجواب ويُؤوِّل العذابَ بالعُذُوبة وأن القرآن لم ينصّ على خلود الكفار في العذاب وإنْ نصَّ على خلودِهم في النار !!! [4]، مُتناسيا قولَه تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [5]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [6] وآراء كثيرة صرَّح بها في كُتبه جمعها أحدُهم [7] وردَّ عليه في كتاب كامل نذكُر بعضَها على سبيل المثال: فالريحُ التي دمَّرت عادًا هي من الراحة لأنها أراحتْهُم من أجسامِهم المظلمة وفي هذه الريح عُذُوبة وليس عذاب [8] ومعاقبة موسى لهارون لأن هارون أنكرَ على بني إسرائيل عبادةَ العِجل وهم ما عبدوا فيه إلا اللهَ [9] وفرعونُ مؤمنٌ بدليل قولِه تعالى : ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ﴾ [1] فكان قرّةَ عيْن لفرعون بالإيمان

1- سورة آل عمران، الآية 17.

2- ينظر: مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالَم، ج3، ص 95، 96.

3- أبو بكر محمد بن علي، وتنعتُه الصوفية بأنه الشيخ الأكبر، وُلد بالأندلس سنة 560هـ، وتوفي بدمشق سنة 638هـ، لابن عربي نحو الأربعمائة كتاب، أشهرُها موسوعتُه الكبرى في التصوف والتي أطلق عليها اسم "الفتوحات المكية".
ينظر: فوات الوفيات: 2/ 241 ؛ مفتاح السعادة: 1/ 187 ؛ لسان الميزان: 5/ 311 ؛ جامع كرامات الأولياء: 1/ 198؛ عنوان الدراية: 158.

4- ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص 90 – هامش الصفحة -.

5- سورة المائدة، الآية 80.

6- سورة الزخرف، الآية 74، 75.

7- برهان الدين البقاعي، تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي – أو مصرع التصوف -، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1980م).

8- ينظر: المرجع نفسه، ص 95.

9- ينظر: المرجع نقسه، ص 120.

بالإيمان الذي أعطاهُ اللهُ له عند الغرَق [2] وغيرِها من الشطَحَات التي أثبتَها ابن عربي في كُتبه.

ويتضح من هذا العرْض الموجَز لهذه العقيدة أنها باطلةٌ موغِلةٌ في تأويل النصوص ؛ منحرفةٌ بها إلى غير وِجْهتها، والمذهبُ الحق في هذا ما عليه عامّة المسلمين وجمهورُهم في أن اللهَ تعالى مبايِنٌ لمخلوقاتِه مغايِرٌ لها في ذاتِه وهُويتِه وَوُجودِه وصفاتِه وهي (مذهبُ أهل الحق كلِّهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدَمين ك أهل الرسالة ومَن نحا منحاهم) [3]، ونكتفي بهذا في بيان عقيدةِ وحدة الوجود، ونعود إلى سيد قطب، فهل قال بهذا حقيقةً أو قريبٍ من هذا؟ وهل الاتهاماتُ الموجّهةُ له ممن نصبوا أنفسَهم وارِثينَ للسلفيةِ صحيحةٌ؟ وهل استندُوا على أدلة قوية مِن كلام سيد؟ وهل تدلُّ القرائنُ مما كتبَ في شرحِه للتوحيد والعقيدة أنه يميلُ إلى هذا المذهب الفاسد؟ وأسئلةٌ كثيرةٌ غيرُها نعرِضها في حينِها ونعرض أقوالَ سيد في المسألة ولْيحْكُم القارئُ بنفسِه دون أن نؤثرَ عليه وعلى عواطفِه بالبراهين الخَطابية التي لا تخدُم الحقيقة.

نورِد بدايةً عبارات الاتهام ثم نُردِفها بما قالَه سيد قطب في تلك المواضِع وهل عنى حقيقةً إثبات هذه العقيدة الفاسدة !؟ ونقارن تلك إلى مواضعَ أخرى ينفي فيها صراحةً هذا الاتحاد بين الخالِق والمخلوق بل يحملُ على تلك العقيدة الباطلة وينقضُها بكل وضوح.

ينقلُ أحد الباحثين عن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني [4] قولَه: (إن قول سيد قطب في تفسير سورة الإخلاص وأوَّل سورة الحديد هو عينُ القائلين بوحدة الوجود، كلّ ما تراه بعينِك فهو اللهُ، وهذه المخلوقاتُ التي يُسميها أهل الظاهِر مخلوقات ليست شيئا غيرَ الله، وعلى هذا تأتي بعضُ الروايات التي تفصّل هذه الضلالات الكبرى بما يرى من بعض الصوفيين القدماء من كان يقول : "سُبحاني ما أعظمَ

1- سورة القصص، الآية 9.

2- ينظر: المرجع السابق، ص 128.

3- ابن خلدون، المقدّمة، ص 870.

4- محمد ناصر الدين أبو عبد الرحمن ويلقب بالألباني المحدِّث المعروف، ولد بأشقودرة عاصمة ألبانيا أيامئذ، له كثير من التحقيقات والمصنفات، منها "سلسلة الأحاديث الصحيحة" و "سلسلة الأحاديث الضعيفة" و "صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم" وغيرها. ينظر: علماء ومفكرون عرفتهم: ج2، ص 287.

شأني" والآخر الذي يقول "ما في الجُبَّةِ إلّا اللهُ" هذا الكلام كلُّه في هذيْن الموطنيْن من التفسير) [1].

وعلى نفس الموضعين – سورة الحديد والإخلاص – يُسوِّد ربيع المدخلي صفحاتٍ عديدةً وينتهي إلى قولِه: (نرفض وحدة الوجود التي قرَّرَها سيد قطب في سورتيْ الحديد والإخلاص لأنها الباطل والضلالُ البعيد ويُدانُ سيد قطب بهذا الباطل ويتحمَّل مسؤوليتَه هوَ ومَن يطبعُه وينشرُه ومن يُدافع عنه بالباطل، وهو في غاية الوُضوح والصراحة في تقرير وحدة الو جود، وليس بإشارة ولا تلميح، بل هو واضحٌ صريح) [2]، هكذا اتفقَ الكاتبان على هذيْن الموضعيْن من سورتيْ الحديد والإخلاص في تفسير سيد قطب، وأظنُّ أن المدخلي [3] ناقلٌ عن الألباني فلم يتجاوزْ هذيْن الموضعيْن.

والآن نوردُ عبارةَ سيد في سورة الحديد وسورة الإخلاص التي اتهمَه فيها الكاتبان ونحاول أن نهتديَ إلى ما اهتدَيَا إليه، أم أن الأمرَ التبس عليهِما في بعض العبارات المُوهِمة !.

يقول سيد قطب في تفسير قولِه تعالى : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾[4]: (وما يكادُ يفيق من تصوّر هذه الحقيقة الضخمة التي تملأُ الكيانَ البشري وتَفيضُ، حتى تطالِعَه حقيقةٌ أخرى، لعلّها أضخم وأقوى، حقيقة أنْ لا كينونةَ في هذا الوُجود على الحقيقة فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحدَه سبحانه، ومن ثم فهي محيطةٌ بكل شيء عليمةٌ بكل شيء ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾ الأوَّل فليس قبلَه شيءٌ والآخِر فليس بعدَه شيء والظاهِر فليس فوقَه شيء والباطِن فليس دونَه شيء. الأوَّل والآخِر مستغرقًا كل حقيقة الزمان، والظاهِر والباطن مستغرقًا كل حقيقة المكان، وهما مطلقَتان ويتلفّتُ القلبُ البشري فلا يجدُ كينونةً

1- مجلة المجتمع، عدد520، 11جمادى الأولى 1401هـ ، ص 35.

2- ربيع بن هادي المدخلي، أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، ص162.

3- هذا الرجلُ تتبعَ كتابات سيد قطب بمنظار أسوَدَ وبعيون واسعةٍ لتصيّد الزّلات والنفْخ في العبارات، وكأنه مُكلَّف بنسْف تُراث سيد قطب!!!ومن يقرأْ ما كتبَه عن سيد ولم يكُن بعدُ مطّلِعا على كتابات سيد ظنَّهُ من الملاحِدة الزنادقة أعداء الدين !!! فلمَ هذا التحامُل والعُدوان على رجُلٍ أفْضى إلى ربِّه وحمَى كلماتِه بدمِه و مضى كريمًا عزيزا بدينِه، ولكنْ قديما قالوا: حيٌّ يغلِب ألفَ ميّت!

4- سورة الحديد، الآية 3.

لشيء إلا لله، وهذه كلّها مقومات الكينونة ثابتةٌ له دون سواه. حتى وُجود هذا القلب ذاته لا يتحقّق إلا مستمدا من وُجود الله. فهذا الوجودُ الإلهي هو الوجودُ الحقيقي الذي يستمدُّ منه كلُّ شيء وجودَه. وهذه الحقيقة هي الحقيقةُ الأولى التي يستمدّ منها كل شيء حقيقتَه، وليس وراءها حقيقةٌ ذاتية ولا وجودٌ ذاتي لشيء في هذا الوجود.

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ علمَ الحقيقةَ الكاملة، فحقيقةُ كلِّ شيء مستمدةٌ من الحقيقة الإلهية وصادرةٌ عنها، فهي مستغرقةٌ إذن بعلم الله اللدُني بها، العلم الذي لا يشاركُه أحدٌ في نوعِه وصفتِه وطريقتِه، مهما علِمَ المخلوقونَ عن ظواهر الأشياء؟

فإذا استقرت هذه الحقيقةُ الكبرى في قلبٍ، فما احتفالُه بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه؟ وكل شيء لا حقيقةَ له ولا وُجود ـ حتى ذلك القلب ذاته ـ إلا ما يستمدُّه من تلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيء وَهْمٌ ذاهبٌ، حيث لا يكونُ ولا يبقى إلا اللهُ، المتفرِّدُ بكل مقوّمات الكينونة والبقاء؟.

وإن استقرارَ هذه الحقيقة في قلبٍ لَيُحيلُه قطعةً من هذه الحقيقة، فأمّا قبلَ أن يصلَ إلى هذا الاستقرار فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش في تدبُّرها وتصوُّر مدلولِها، ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى !، ولقد أخذَ المتصوفةُ بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى وهاموا بها وفيها، وسلكوا إليها مسالكَ شتى، بعضُهم قال: إنه يرى اللهَ في كل شيء في الوجود. وبعضُهم قال إنه رأى اللهَ فلم يَرَ شيئا غيرَه في الوجود، وكلُّها أقوال تشيرُ إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصِرة في هذا المجال، إلا أن ما يُؤخذ عليهم ـ على وجْه الإجمال ـ هو أنهم أهملوا الحياةَ بهذا التصوّر ، والإسلامُ في توازنِه المطلق يريدُ من القلب البشري أن يدركَ هذه الحقيقة ويعيشَ بها ولها، بينما هو يقومُ بالخِلافة في الأرض بكل مُقتضيات الخِلافة من احتفالٍ وعناية وجِهاد وجُهد لتحقيق منهج الله في الأرض، باعتبار هذا كلّه ثمرة لتصوّر تلك الحقيقة تصوّرا متّزنا متناسِقا مع فِطرة الإنسان وفِطرة الكون كما خلقَها اللهُ) [1].

نقلْنا النصَّ على طولِه لأن المقامَ يقتضينا ذلك فالتُّهمة خطيرة؟ وأيُّ شيء أخطرُ من العقيدة إذا

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 3479، 3480.

انحرفتْ وزاغتْ!؟ فليس لنا حق التصرّف في النصّ أو أن نجتزئَ بعضَه، وقد فعلَ هذا من قبلُ أحد الباحثين [1] فنقلَ النصيْن ذاتيْهما في رسالتِه للدكتوراه فلسنا بِدْعا في ذلك.

وفي تفسيره لسورة الإخلاص يعلّق سيد على قوله تعالى :(﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ وهو لفظٌ أدقّ من لفظ "واحد" لأنه يضيفُ إلى معنى "واحد" أن لا شيءَ غيره معه، وأن ليس كمثلِه شيء، إنها أَحَدية الوُجود، فليس هناك حقيقةٌ إلا حقيقته، وليس هناك وُجودٌ حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمدُّ وجودَه من ذلك الوُجود الحقيقي ويستمدُّ حقيقتَه من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي ـ من ثم ـ أَحَدية الفاعِلية فليس سواه فاعِلًا لشيء أو فاعِلا في شيء في هذا الوجود أصْلا، وهذه عقيدةٌ في الضمير وتفسيرٌ للوُجود أيضا.

فإذا استقرّ هذا التفسيرُ ووضح هذا التصوّر خلص القلبُ من كل غاشِية ومن كل شائبة ومن كل تعلُّق بغير هذه الذات الواحدة المتفرِّدة بحقيقة الوُجود وحقيقة الفاعِلية ؛ خلص من التعلّق بشيء من أشياء هذا الوجود ـ إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصْلا ! ـ فلا حقيقةَ لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي، ولا حقيقةَ لفاعِلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية، فعَلَامَ يتعلقُ القلبُ بما لا حقيقةَ لوجودِه ولا لفاعليتِه؟!.

وحين يخلص القلبُ من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ومن التعلّق بغير هذه الحقيقة، فعندئذ يتحرّر من جميع القيود وينطلقُ من كل الأوْهَاق ؛ يتحرّر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرّر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة، وفِيمَ يرغبُ وهو لا يفقِدُ شيئا متى وجدَ اللهَ؟ ومَن ذا يرهب ولا وُجود لفاعليةٍ إلا لله؟.

ومتى استقرَّ هذا التصوُّر الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقةَ الله، فستصحَبُه رؤيةُ هذه الحقيقة في كل وُجود آخرَ انبثقَ عنها ـ وهذه درجةٌ يرى فيها القلبُ يَدَ الله في كل شيء يراهُ، ووراءَها الدرجةُ التي

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه "في ظلال القرآن في الميزان" من ص 78 إلى ص 81 وهي جزءٌ من رسالتِه للدكتوراه، ولا نكتفي نحنُ بما أوردَه من أدلة بل نضيفُ أشياءَ مهمَّةً إن شاء اللهُ في تفنيد هذه التُّهَم.

لا يرى فيها شيئا في الكون إلا الله لأنه لا حقيقةَ هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبُه نفيُ فاعليةِ الأسباب، وردّ كل شيء وكلّ حدَث وكلّ حرَكة إلى السبب الأوَّل الذي منه صدَرَت وبه تأثَرت، وهذه هي الحقيقة التي عُنِيَ القرآنُ عنايةً كبيرةً بتقريرِها في التصوّر الإيماني، ومن ثم كان ينحّي الأسبابَ الظاهرةَ دائما ويَصل الأمورَ مباشرةً بمشيئة الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ .. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وغيرها كثير.

وبتنحِيةِ الأسباب الظاهِرة كلِّها وردّ الأمر إلى مشيئةِ الله وحدها تنسكِبُ في القلبِ الطمأنينةُ ويعرف المتجَه الوحيد الذي يطلبُ عندَه ما يرغبُ ويتّقي عندَه ما يرهب، ويسكُنُ تجاه الفواعِل والمؤثرات والأسباب الظاهِرة التي لا حقيقةَ لها ولا وُجود؟

وهذه هي مدارجُ الطريق التي حاوَلها المتصوفةُ فجذبتْهُم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلامَ يريدُ من الناس أن يسلُكوا الطريقَ إلى هذه الحقيقة وهم يُكابدونَ الحياةَ الواقعيةَ بكل خصائصِها ويزاولونَ الحياةَ البشريةَ والخلافةَ الأرضيةَ بكل مقوماتِها؛ شاعِرينَ مع هذا أن لا حقيقةَ إلا الله وأن لا وجودَ إلا وجوده وأن لا فاعليةَ إلا فاعليته ولا يريد طريقا غير هذا الطريق !)[1].

ها هما النصّان – على طولِهما – أمامَنا، تعمَّدنا نقلَهما بحرفيتِهما حتى لا نُبقي شبهةَ التجاوُز عن بعض العبارات، فهل صرَّح سيد بالقول بوحدة الوجود؟ وأن الخالقَ والمخلوقَ شيء واحِد؟ أو أن كل كائن هو اللهُ أو اللهُ هو كلُّ كائن؟ أو أن الوجودَ فاضَ عن الله كفيْض النور عن الشمس؟، لا شيءَ من هذا كلِّه على طول النصيْن، إلا ما كانَ من عبارات مُوهِمة أثناءَهما إذا اقتُطعَت من سياقِها وجُرِّدَت عما قبلَها وبعدَها فتأتي مبتورةً مشوّهةً يمكنُ للمرْء أن يحمِّلَها ما يشاءُ من المعاني والدلالات التي تفيد هدفَه وغرضَه، لهذا آثرْنا أن نُثبت النصين كاملين وننصّ على تلك العبارات ونضعَها في سياقِها الذي جاءت فيه، فيرى القارئُ بوضوح مقصدَ سيد من إعمالِها والغرض من إيرادِها – وهو قبل هذا أديبٌ متمرِّس

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 4002 ، 4003 .

بأساليب البُلَغاء والأدباء والبيانيِّين – فلا يُلقي الكلمات على عواهنِها، وبعدَ هذا فهو ممَّن عاشَ ما يكتبُ بقلبِه ومشاعرِه كلها، فقد استرْوَح نَسَمات القرآن وذاق حلاوةَ المعيشة مع القرآن عمليا وهو يؤلفُ "الظلالَ" في تلك اللحظات العصيبة التي مرَّ بها، ورأى يَدَ الله في كل شيء وأن لا فاعليةَ ولا تأثيرَ في الوجود حقيقةً لغير الله تعالى، فما شاء كانَ وما لم يشأْ لم يكُنْ، فهو وحدَه المتفرِّدُ بالوُجود الحق الذي لا يَفنى وبالكينونة الحقيقية الثابتة التي لا تزول والبقاء السَّرْمَدي.

واستقر هذا كلّه في نفس سيد فما احتفلَ بشيء غير الله تعالى ولم يرهبْ أحدًا غيرَه ولم يقبلْ مُساومةً في دينِه – على كثرة ما سُووِم فيه – فعاشَ مطمئنا في كنَفِ الله متّجِها إلى مُسبِّب الأسباب غير مُلتفت إلى الأسباب الظاهِرة القريبة التي يرهبُها الناسُ ويُفتَتَنُون بها، ثم لخّص لنا تجربتَه الإيمانية هذه بعبارات أدبية راقية، فظنَها الواقفون عند ظواهِر الألفاظ أنه يقولُ بوحدة الوجود ؛ بهذه العقيدةِ الباطلةِ التي تخرجُ صاحبَها من حظيرةِ الإيمان إلى الكُفر – والعِياذُ بالله – فهل يُعقَل أن يصدُرَ هذا المعنى الكُفري من رجُلٍ هذا شأنُه؟! وهل يُتصوَّر أن يبذُلَ أحدٌ حُشاشةَ نفسِه ويُضحِّي بمُهجَتِه في سبيل العقيدةِ ثم يقول بهذه المُنكَرات؟! إن الرجلَ أفنى حياتَه في الدعوة إلى "لا إله إلا الله" واستشهدَ في سبيلِها راضيًا مُطمئنا.

وما أروعَ قولَ أحد الباحثين في تفنيد هذه التُّهمة التي ألصقوها بسيد واستخرَجُوها من "ظلاله" بالمنقاش ظُلما، يقول: (إن وحدة الوجود تعني أن الحَجَر هو اللهُ، وأن الصحْن هو اللهُ، وأن الحيوانات هي اللهُ، فلم يَعُد هناك فرقٌ بين من عَبدَ الحجرَ والصنمَ والشمسَ وبين من يعبدُ اللهَ لأنها كلها صورٌ لشيء واحد هو الذاتُ الإلهية تعالى الله عمّا يقولون عُلوًّا كبيرا. هل يصدّقُ عاقِلٌ أن سيد قطب كان يعتقدُ أن عبد الناصر هو الله، وأن "حمزة البسيوني" وشرطتَه هم صوَر الله، وأن "صفوة الروبي" الجلّاد هو الله، ولا فرْقَ بين من يعبدُ "بن غوريون" و"دايان" وبين من يعبدُ الرحمن، هل يصدِّقُ ذو لُبّ أن سيد قطب كان يعتقدُ أن السجن الحربي هو الله أو يدخل في عقْل عاقِل أن سيد قطب كان يظنّ أن الشجرَ والحجرَ والقِرد والخنزير والكلبَ صورٌ لله عز وجل – سبحانك يا ربّ! إنها لإحْدى الكُبَر)[1].

1- عبد الله عزام، عملاق الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، ص 40.

نعودُ إلى ذيْنِك النصيْن، ففي تفسيرِه لسورة الحديد يركّز سيد على الوجود الحقيقي والكينونة الحقيقية لله تعالى، تلك الكينونة التي تستغرقُ الزمانَ والمكانَ، الثابتة التي لا يعتريها زوالٌ أو فناء، والتي يستمدّ كل شيء وجودَه من وجودِها وحقيقتَه من حقيقتِها، إذن فهناك وُجودان مُتمايِزان، وجودٌ ذاتي لله تعالى ووجودٌ تعلُّقي للأشياء إذ تستمدّ وجودَها من وجودِه، ولاحِظْ عبارتَه: (فهذا الوجودُ الإلهي هو الوجودُ الحقيقي الذي يستمدُّ منه كل شيء وجودَه، وهذه الحقيقةُ هي الحقيقةُ الأولى التي يستمدُّ كل شيء منها حقيقتَه) إنما نفَى الوجودَ الذاتي للأشياء ومَن ذا الذي يثبتُ وجودًا ذاتيا للأشياء دون الاستمداد من الوُجود الحقيقي لله تعالى؟ ! بعدها يُفيض في بيان الفاعلية والتأثير الحقيقيْن لمسبّب الأسباب فيطمئنّ المؤمِن بالرُّكون إلى الله تعالى فلا يحتفِل بشيء وراءَ ذلك، فإذا كان اللهُ معكَ فمنْ عليكَ وإذا كان عليكَ فمنْ معكَ؟ !

ويختمُ بالنعْيِ على أولئكَ المتصوّفة الذين لم يُفعِّلوا تلك المعاني في حيَوَاتِهم واكتفوْا بالإشارة النظرية فقط دون تطبيقِها واقعًا فِعليًّا على الأرض للقيام بالخِلافة التي تقتضي الجهادَ والجُهد لتحقيق منهج الله، وأخيرًا يصرّح في عبارة أخرى بالتمايُز في الوُجود بين الله تعالى وبين الإنسان والكون في قولِه: (باعتبار هذا كلّه ثمرةً لتصوّر تلك الحقيقة تصوّرا متّزنا متناسِقا مع فِطرة الإنسان وفِطرة الكون كما خلقَهُما الله) إذن فالإنسانُ والكونُ مخلوقان واللهُ خالقٌ ؛ فكيف يكونُ الخالِقُ مخلوقًا أو المخلوق خالِقا؟ هذا ما لا يستقيمُ مع المنطق والفِطرة!.

أمّا تفسيرُه لسورة الإخلاص فالتركيزُ فيها على فاعِلية الله وحدَه ولا فاعليةَ لشيء سواهُ في هذا الوُجود، داعيًا المؤمنَ إلى التعلُّق فيما يأتي وما يدَع بالله، بخالِق الأسباب ليتحرَّر من القيود التي تكبِّل إرادتَه إذا رغِب أو رهِب، فالرغبةُ لا تكون إلا في الله والرهبة لا تكون إلا منهُ لأنه المُعطي المانِع الضارُّ النافع؛ وما الأسبابُ الظاهرةُ إلا خيالاتٍ وراء الحقيقة الكبرى، فإذا سَلِمَ هذا للمسلِم سلكَ الطريق إلى هذه الحقيقة وكابدَ الحياة الواقعية وزاوَلَ الحياةَ وأقامَ الخلافةَ على الأرض مُرتاحا مستنِدا إلى رُكن ركين لا يخشى ما وراءَه.

فأين هي التصريحاتُ بوحدة الوجود – على طُول النصّيْن –؟ ! أَلَا إنهُ لَتجَنٍّ على الرجُل بعدما

أفضى إلى ربِّه، فلِمَ لمْ يكتبْ هؤلاء في حياتِه وقد كان يمكنُهم ذلك فيردّ عليهم بنفسِه ويوضِّح لهم فهْمَه للمسألة إن كان غمُضَ عليهم، أمّا أن يهاجَم الرجلُ في قبرِه فحيٌّ يغلِب ألفَ ميّت، ولكن من خدَمَ دينَه وأخلصَ في توحيدِه لا يُعدَم من يُنافحُ عنه ويردّ عنه الحمَلات والتُّهم.

ثم لنسلِّم جدَلا أن النصيْن فيهما بعضُ الغموض والخفاء في فقرات منه ما،فما رأيُ المتَّهِمين في نصوص أخرى من "الظلال" ومن كُتبه الأخرى "كالخصائص" و "المقوّمات" وهما من آخِر ما كَتَبَ، تحدّثَ فيها صراحةً عن نفيِه لوحدة الوجود واعتبرَها عقيدةً فاسدةً باطلةً لا يقولُ بها مسلِم !، فإذا كان المثلُ يقولُ: "مِن فمِكَ أدِينُك" فخُلْفُه " مِن فمِكَ أُنصِفُك"، وها هي النصوصُ بقلم سيد تنطقُ بنفسِها في غير حاجةٍ إلى من يستنطقُها ففي تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [1]، يستنكرُ سيد مسألةَ البُنوّة والتثليث في عقيدة النصارى ثم يُردِف بوضوح: (وإن كانوا ما يزالونَ غير قادرينَ على إدخال هذه التصوّرات المتناقضة إلى الإدراك البشري ؛ فهُم يُحيلونَها إلى مُعمَّيات غيبية لا تنكشفُ إلا بانكشافِ حجاب السموات والأرض ، واللهُ سبحانه تعالى عن الشركة وتعالى عن المشابَهة ومقتضى كونه خالِقا يستتبعُ بذاته أن يكون غيرَ الخلْق، وما يملكُ إدراكٌ أن يتصوّرَ إلا هذا التغايُر بين الخالِق والخلْق والمالِك والمِلْك) [2].

وفي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [3]، يرفعُ اللَّبْس عن مَقام الأُلوهية ومقام العُبودية فلا يختلطان كما في العقائد النصرانية المُحرَّفة فيقول: (وتذكر صفة العبودية ﴿أَسۡرَىٰ

1- سورة النساء، الآية 171.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 816.

3- سورة الإسراء، الآية 1.

بِعَبْدِهِۦ ﴾ لتقريرِها وتوكيدِها في مقام الإسراء والعُروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشَر، وذلك كي لا تنسى هذه الصفة، ولا يلتبسَ مقامُ العُبودية بمقام الألوهية، كما الْتبسَا في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام، بسبب ما لابَسَ مولدَه ووفاتَه، وبسبب الآيات التي أُعطيت له فاتخذَها بعضُهم سببا للخلْط بين مقام العُبودية ومقام الألوهية، وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتُها ونصاعتُها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شُبهة من شِرك أو مُشابهة من قريب أو بعيد) [1].

ونختمُ بمقطَع صريح لسيد نصَّ فيه صراحةً على نفيِ وحدة الوجود وسمَّاها باسمِها –أخَّرناه في الإيراد وإن كان صدُورُه في أوَّل تفسير "الظلال" عن قصْد ليضعَ حدًّا لهذه التُّهم الجُزافية التي لا أساسَ لها ولا تستند إلى أيِّ دليل !

يقول سيد في تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [2] بعد الإفاضة في شرْح فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه وتعالى (والنظرية الإسلامية: أن الخلْقَ غير الخالِق، وأن الخالِقَ ليس كمثلِه شيءٌ، ومن هنا تنتفي من التصوّر الإسلامي فكرة "وحدة الوجود" على ما يفهمُه غيرُ المسلِم من هذا الاصطلاح –أي بمعنى أن الوُجود وخالِقَه وحدةٌ واحِدةٌ – أو أن الوجودَ إشعاعٌ ذاتيٌّ للخالِق، أو أن الوجودَ هو الصورةُ المَرئيةُ لموجِدِه، أو على أي نحْو من أنْحاء التصوّر على هذا الأساس، والوُجود وحدةٌ في نظر المسلِم على معنًى آخر: وحدة صُدُورِه عن الإرادة الواحِدة الخالِقة، ووحدة ناموسِه الذي يسيرُ به، ووحدة تكوينِه وتناسُقِه واتجاهِه إلى ربِّه في عبادةٍ وخُشوع) [3].

فماذا يقولُ هؤلاء بعدَ هذه النصوص الواضحة الصريحة التي لا تدعُ مجالا لتأويل ولا لتحميلِ معانٍ عليها، فالحقُّ أبلَج والباطل لجْلَج، فلو تورَّعوا قبل أن يتَّهموا لجمعوا النصوصَ التي تناولَ فيها

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2211.

2– سورة البقرة، الآيات 116، 117.

3– المصدر نفسه، مج1، ص 106.

سيدٌ مسألةَ الألوهية - وهي كثيرةٌ - ثمّ بعد ذلك (نقدّم المنطوقَ الصريح له على المنطوق غير الصريح ونقدّم المفسّر من قولِه على القول المُبهم له، ونقدّم بالترجيح المنطوقَ على المفهوم، ونقدّم عبارةَ النصّ على إشارة النصّ، هذه من القواعد الأساسية في عِلم الأُصول للخروج بأحْكام، فإذا تعارضَت النصوصُ فلا بدّ من الجمْع أوَّلًا ثم النسْخ ثم الترجيح)[1]، فهلَّا فعلَ هذا هؤلاء قبل الإقْدام على اتّهام الرجُل في عقيدتِه ودينِه أن يتحرَّوْا ويتثبّتوا؟ ! فالمسألةُ خطيرة !! ولكَ أن تقيسَ عليها المسائلَ الأخرى التي حاكَموا بها سيدًا فيما كتبَ.

ولسيدٍ حتى في غيرِ "الظلال"[2] كلامٌ صريحٌ في نفْي وحدة الوجود، في "خصائص التصور الإسلامي"[3] وفي "مقومات التصور الإسلامي"[4] وأكتفي بهذا فالمقام لا يكفي لإيراد جميع ما جمعتُه منها، وكذا إيراد الأقوال المُشابهة لأقوال سيد في هذا المجال من علماءَ كبار وكيف الْتُمِستْ لهم الأعذارُ والمخارجُ إلى غيرِها مما سنفردُه ببحث خاصّ إن شاء الله.

1- عبد الله عزام، عملاق الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، ص 57، وقد تصدَّى لبيان بُطلان هذه الشبهة في كُتب سيد قطب كثيرون، أبرزُهم عبد الله عزام في كتابه "عملاق الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب" وصلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه "في ظلال القرآن في الميزان"، وقد حاولتُ أن أزيدَ في الإيضاح والبيان على ما تفضّل به صلاح عبد الفتاح الخالدي فأوردتُ ما لم يُوردْه وجمعتُ جُلّ ما وردَ من أقوال سيد في هذا الصدد.

2- وفي الظلال مواضع كثيرة يمكن مراجعتها في: ج 1/ 106، 283، 287 و ج2/ 816، 817 و ج3/ 1704، 1772 وج4/ 2388، 2211 و ج5/ 2967 و ج6/ 3479، 3480.

3- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 155، 215.

4- سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 81 ، 84، 112.

المطلب الثاني: صفاتُ الله تعالى:

يتصفُ اللهُ تعالى بكل صفات الكمال ويُنزَّه عن جميع صفات النقص، إذ إن ألوهيتَه تستلزمُ ذلك لُزوما بينا بالمعنى الأخصّ، وقد وصفَ اللهُ تعالى نفسَه في كتابه الكريم بصفات عديدة مختلفة، عدّدَها العلماءُ في عشرين صفةً وقسّموها إلى أربعة أقسام هي:

(1ـ الصفة النفسية : الوُجود ـ وقد أسلفنا فيها القول ـ 2ـ الصفات السلبية : القِدَم، البقاء، المُخالفة للحوادِث، الوحدانية، القيام بالنفْس، 3ـ صفات المعاني : العِلم، الإرادة، القُدرة، الحياة، الكلام، السمْع، البصَر، 4ـ الصفات المعنوية: وهي نتائج صفات المعاني وهي كونُه تعالى: عليمًا، مُريدًا، قادِرًا، حيًّا، متكلِّمًا، سميعًا، بصيرًا) [1].

والإيمان بالله تعالى يقتضي الاعتقادَ بذاتِه وبصفاتِه التي لا يشبهُ فيها شيئا من خلْقِه ولا يشبهُهُ شيءٌ من خلْقِه (لم يزَل ولا يزالُ بأسمائِه وصفاتِه ، لم يحدث له اسمٌ ولا صفةٌ، لم يزَل عالِما بعلمِه والعلمُ صفةٌ في الأزَل، وقادِرًا بقدرتِه والقدرةُ صفةٌ في الأزَل، ومتكلِّما بكلامِه والكلامُ صفةٌ في الأزَل، وخالِق ا بتخليقِه والتخليقُ صفةٌ في الأزَل، وفاعِلا بفعلِه والفعلُ صفةٌ في الأزَل، والفاعِلُ هو اللهُ تعالى، والفِعل صفةٌ في الأزَل، والمفع ولُ مخلوقٌ وفعلُ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ، وصفاتُه في الأزَل غيرُ مُحدَثة ولا مَخلوقة فمن قالَ إنها مخلوقةٌ أو مُحدَثة، أو وقفَ أو شكَّ فيها فهو كافرٌ بالله تعالى) [2].

فاللهُ تعالى موصوفٌ بصفات الكَمال وهي صفاتٌ واجبةٌ لذات واجِبِ الوُجود تعالى وتقدّس، وهي أزلية أبدية قديمةٌ لا تُشبهُ صفات الخلْق بوجْه من الوُجوه وإن اشتركَت أحيانًا في الأسماء.

ومعاني هذه الصفات أرشدَنا إليها القرآنُ الكريم حين لفَتَنا إلى ظواهر هذا الكون المُتقَن العجيب المُحكَم البديع والذي لم يُوجِد نفسَه بنفسِه ولا يتحكَّمُ في ذاتِه بعد وجودِه، فدلَّنا بداهةً إلى أن مُتقنَه ومُحكمَه ومُبدعَه وصَانعَه قديرٌ عليمٌ حكيمٌ حيٌّ خالِقٌ مالكٌ يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ سميعٌ بصيرٌ رحيمٌ،

1- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، (ط 8، دمشق: دار الفكر، 1402هـ)، ص108.

2- أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ضمن مجموعة "العقيدة وعلم الكلام من أعمال زاهد الكوثري" (ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م)، ص 619.

وهكذا إلى سائرِ صفاتِ الكَمال لله تعالى [1].

فإن سأَلَ سائلٌ قائلًا: لِمَ لا يُشبه الباري تعالى المَخلوقات؟

يجيب أبو الحسن الأشعري قائلًا: (لأنهُ لو أشبهَهَا لكان حُكمه في الحِدَث حكمَها ولو أشبهها لم يَخْلُ من أن يشبِهَها من كلّ الجهات أو من بعضِها، فإن أشبَهَها من جميع الجهات كان مُحدَثا مثلَها من جميع الجهات، وإن أشبَهَها من بعضِها كان مُحدَثا من حيث أشبَهَها، ويستحيلُ أن يكون المُحدَث لم يزَل قديما، وقد قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[3]) [4].

أ- الصفات السّلبية:

هي عدم أمر لا يليقُ بالله سبحانه [5]، تُنفَى أضدادُها عن ذات الله تعالى ؛ سُمّيت بالسلبية لأنها تسلبُ من أذهانِنا ما لا يليقُ بذاتِه تعالى، كما تسلبُ الضدَّ عن موصوفِها، وقد اقتصرَ العلماءُ على خمسة منها تجمعُ كلّ ما عَدَاها من الصفات الجزئية، فصفة المخالَفة للحوادِث مثلا تحوي نفْيَ الجِسمية والمكان والجِهة، وصفة الوحْدانية تحوي نفيَ الصاحِبة والوَلَد والمُعين، وهكذا.

1- القِدَم:

اللهُ تعالى موجودٌ لا يحتاجُ في وجودِه إلى غيرِه، ووُجودُه سبحانه لا أوّل له أي لم يُسبَق بعدَم [6]، فذاتُه سبحانه تعالى قديمةٌ قِدَما ذاتيًّا لا زمانيا كمثل قولِه تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

1- ينظر: عبد الرحمن حبنّكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسُسُها، (ط13، دمشق: دار القلم، 2007م)، ص 138.

2- سورة الشورى، الآية 11.

3- سورة الإخلاص، الآية 4.

4- أبو الحسن الأشعري، اللُّمَع في الردّ على أهل الزيغ والبدَع، (ط 1، لبنان: دار لبنان للطباعة والنشر، 1987م)، ص83، 84.

5- فخر الدين الرازي، الأربعين في أصول الدين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، (بيروت: دار الكاتب العربي،1984)، ص 92.

6- ينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 18.

﴿ ٱلۡقَدِيرِ ٣٩ ﴾[1] فالعرجونُ قِدَمُه زماني، أمّا اللهُ تعالى فقِدمُه ذاتي لا أوَّل له بدليل قولِه تعالى : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾[2]، وبدليل أنه تعالى لو كان مَسبوقا بالعدَم لَلَزِم وجود موجِد له سبحانه، وذلك يُفضي إلى القول بالتسلسُل [3] [4] وهو باطلٌ عقْلا، وإذا ثبتَ أن صانعَ الموجودات ومُحدِثها لا يجوز أن يكون يشبهها فيجب أن تعلمَ أن مُحدِث العالَم قديمٌ أزلي لا أوَّل لوُجودِه، بدليل أنه لو لم يكن قديما لكان مُحدَثا ولو كان مُحدَثا لاحتاجَ إلى مُحدِث أحدَثَه، لأن غيره من الحوادِث إنما احتاجت إلى مُحدِث لأنها مُحدَثَة، ولو كان ذلك كذلك لاحتاج كل مُحدَث إلى مُحدَث آخر إلى ما لا نهاية له ولا غاية، ولمّا بطل ذلك صحّ كونه قدِيما أزليّا [5].

وقد تحدث سيد عن هذه الصفة باختصار مُركّزا دائما على البُعْد الإيماني والأثر العملي لصفات الله تعالى في حِسّ المسلِم، وهذا هو منهجُه في "الظلال" فلا يخوضُ في التفاصيل التي يُورِدُها علماءُ الكلام والفلسفة الإسلامية، وإنما يكتفي باستلهام النصّ القرآني مباشرة، ففي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾[6] يقول: (الأوَّل فليس قبلَه شيء، والآخِر فليس بَعدَه شيءٌ، والظاهِر فليس فوقَه شيءٌ والباطِن فليس دونَه شيءٌ، الأوَّل والآخِر مستغرقًا كل حقيقة الزمان؛ والظاهِر والباطِن مستغرقًا كل حقيقة المكان، وهُما مُطلقتان، ويتلفّت القلبُ البشري فلا

1- سورة الحديد، الآية 39.

2- سورة الحديد، الآية 3.

3- التسلسُل: عرَّفه الجرجاني بقوله: (هو ترتيبُ أمور غير متناهية، اعلم أن أقسام التسلسُل أربعة: لأنه لائح إمّا أن يكونَ في الآحاد والمجتمعة في الوجود أو لم يكن، الثاني: كالنسق في الحوادِث، والأوّل : إما أن يكون فيها ترتيبٌ أوْ لا، الثاني: كالنسق في النفوس الناطِقة، والأوَّل إمّا أن يكون ذلك الترتيبُ طبيعيا كالنسق في العِلل والمعلولات والصفة والموصوفات، أو وضعِيًا كالنسق في الأجسام، والمستحيل عند الحكيم الأخيران دون الأوَّلان) التعريفات، تحقيق: المرعشلي، (ط 1، بيروت، دار النفائس، 2003م)، ص 120.

4- ينظر: سعد الدين التفتازاني، شرح العقيدة النسَفية، تحقيق: مصطفى مرزوقي، (الجزائر: دار الهدى عين مليلة، د.ت)، ص 32.

5- ينظر: أبو بكر الباقلاني، الإنصافُ فيما يجب اعتقادُه ولا يجوزُ الجهلُ به، ضمن "العقيدة وعِلم الكلام لزاهد الكوثري"، ص106.

6- سورة الحديد، الآية 3.

يجدُ كينونةً لشيء إلا لله، وهذه كلّ مقوّمات الكينونة ثابتةٌ له دونَ سواه)[1]، فاللهُ تعالى أوّل أوّليةً مطلقةً تستغرقُ حقيقةَ الزمان بإطلاق، وكينونتُه هي الكينونةُ الثابتةُ دون سواها، فكل شيءٍ غيره له بدايةٌ زمانية وكينونةٌ فانِية.

2 ـ البَقَاءُ:

هو عدم آخِرية الوُجود، أو عدم لُحُوق الفناء بذاتِه تعالى، فوُجودُه تعالى يستمرُّ إلى ما لا نهاية[2]، **ودليله النقْلي**: قولُه تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[3]، وقولُه عز وجل: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[4]، أمّا **الدليل العقْلي**: فالحقّ تبارك وتعالى لو جازَ عليه العدَم لاستحالَ عليه القِدَم، لكنه سبحانه ثبتَ له القِدم، فلا يجوزُ عليه العدَم، فثبتَ وجوبُ البقاء له[5]، إذ لو لَحِقه العدَم لكان وُجودُه جائزًا لا واجِبا، يصلُح فيه الوجودُ والعدَمُ، والجائزُ يحتاج ويفتقر إلى مُحدِث، وهذا مُحالٌ في حقّ واجبِ الوُجود، فلا بدّ أن يكون القديمُ واجبَ البقاء.

وسيدٌ في تفسيره لآية الرحمن يعرِضُ هذه الصفةَ بأسلوبِه الخاص قائلا: (وتُطوى صفحةُ الخلْق الفاني، وتتوارى أشباحُ الخلائِق جميعا، ويفرُغ المجالُ من كل حيّ، ويتجلّى وجْهُ الكريم الباقي، متفرِّدا بالبقاء، متفرِّدا بالجَلال، وتستقرّ في الحسّ حقيقةُ البقاء، وهو يشهدُ ظِلّ الفناء... و يِسم في الوقت ذاتِه حقيقةَ البقاء الدائم، ويطبعُها في الحسّ البشري الذي لا يعرفُ في تجاربِه صورةً للبقاء الدائِم)[6]، ويعدّ سيد هذه الصفةَ الجليلةَ أساس النِّعَم كلّها جميعا، فهو سبحانه وتعالى (الذي يُشرفُ من أفق البقاء على

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 3479.
2- ينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 18.
3- سورة الرحمن، الآية 27.
4- سورة القصص، الآية 88.
5- إبراهيم اللقاني، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، تحقيق: إبراهيم بن محمد البيجوري، (ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م)، ص61.
6- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 3454.

ساحَة الفناء، فمن حقيقةِ البقاء إذن تنبثقُ جميعُ الآلاء، وما يبزغُ هذا العالَم وما يستقيمُ أمرُه إلا ووراءَه هذه الحقيقة، حقيقةَ البقاء وراءَ الفناء) [1]، هكذا يجلّي سيدٌ معاني هذه الصفة ويُلقي بظلالِها على الحسّ البشري الذي لا يُمكنُه تصوّرُ اللانِهاية بطاقاتِه المحدودة التي أوْدَعَها اللهُ فيه، فهو إذن ما عليه إلا أن يؤمنَ ويعتقدَ اعتقادًا جازِما بها ؛ لأن تجاربَه كلّها لا يمكنُ أن يقيس إليها ليتصوّرَ هذه الصفات الجليلة لله تعالى.

3 ـ المُخالَفة للحوادِث:

هي عدمُ مماثلتِه لمخلوقاتِه، لا يشبهُ الخلْقَ في شيء، لأن مثل الشيء ما يكون مشاركا له في جميع أوصافِه الجائزة والواجِبة والمُستحيلة، فهو سبحانه ليس بجسم يتألّف من أبْعاض، ولا تعرِضُ له سبحانَه عوارِض النقص كالنوم والغفلة والحاجة والتعب والعجز وسائر العوارِض النفسية والجِسمية[2] **والدليل النقلي** على ذلك قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[4].

أما الدليل العقلي : فلو كان اللهُ تعالى مماثِلا للخلْق مشبِها لهم لكان مُحدَثا لأن المشتبهيْن يسدّ أحدُهما مَسدّ الآخَر، وواجبُ الوجود القديم لا يكون إلا مُخالِفا للحوادِث مُوجِدا لكلّ ما سواه [5]، فالمخالَفة للحوادِث تُبطلُ مزاعمَ المُشبّهة والمُجسّمة، إذ الأجسامُ مُركّبة من جواهر وذرّاتٍ لها حيّزٌ، والله تعالى يستحيل عليه أن يُماثِلَ الجواهرَ وغيرَها من المخلوقات، فبطُلَ قولُ أولئك.

وعند تفسير سيد لآية الشورى لم يقفْ طويلا عند هذه الصّفة، فالأمرُ بديهي تؤمنُ به الفطرةُ

1- المصدر السابق، مج6، ص 3455.

2- ينظر: أبو المظفر الإسفراييني، التبصير في الدّين وتمييز الفرقة الناجِية عن فِرَق الهالِكين، تحقيق: مجيد الخليفة، (ط 1، بيروت: دار ابن حزم، 2008م)، ص382.

3- سورة الشورى، الآية 11.

4- سورة الإخلاص، الآية 4.

5- ينظر: أبو بكر الباقلاني، تمهيدُ الأوائل وتلخيصُ الدّلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، (ط 3، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1993م)، ص 44، وينظر: القول المفيد، ص 20.

دون تدليل؛ فالخالِقُ لا يماثِلُ الخلْق في شيء، فالله تعالى : (متفرّدٌ دون خلْقِه جميعا، فليس هنالك من شيء يُماثِلُه ـ سبحانَه وتعالى ـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ والفطرةُ تؤمنُ بهذا بداهةً فخالِقُ الأشياء لا تُماثِلُه هذه الأشياءُ التي من خلْقِه) [1]، ويضيفُ سيد بعدَها أن الصلةَ بين الله تعالى وخلقِه ليست منقطعةً لهذا الاختلاف الكامل، فهو يسمعُ ويبصرُ ويحكُم حُكمَ السميع البصير [2] فيهم، فحتى أننا لا نتصور هذا التفرّد الإلهي وأنه لا يماثله شيءٌ من مخلوقاتِه، ونحن بعقولِنا نقيسُ ما لا نعرف إلى ما نعرف، فإننا نبقى على صلة بالله تعالى الذي يسمعُ ما نقولُ ويبصرُ ما نفعل، فسيدٌ على منهجِه في الظلال لا يخوضُ في التفاصيل الكلامية للصفات ويكتفي ببيان أثرِها في حِسّ المسلِم وشعورِه.

4 ـ الوحدانيّة:

وهي أن اللهَ تعالى واحدٌ في ذاتِه، واحدٌ في صفاتِه، واحدٌ في أفعالِه [3].

والأدلة النقلية على ذلك قولُه تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [4]، وقوله عز وجل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [5] وقوله عز شأنه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [6]، **والدليل العقلي** أن صانعَ العالَم جلّت قدرتُه واحدٌ أحدٌ، فإنا نرى الأمورَ تجري على نمط واحِد في السموات والأرض وما فيهما من شمس وقمر وغيرِ ذلك، ولو كانا اثنيْن أو أكثر فلا بدّ أن يجري خلافٌ أو تغيّر من أحدِهما على الآخَر، أو أن يريدَ أحدُهما شيئا ويريدَ الآخَرُ ضدّه فلا يخلو أن يتمّ مرادُهما أو يتمّ مرادُ أحَدِهما دون الآخَر، ولا يجوزُ أن يتمّ مرادُهما، وإذا تمّ مراد أحَدِهما دلّ على عجْز الآخَر، ومن

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 3146.

2- ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

3- ينظر: القول المفيد، ص 18، وينظر: التفتازاني، شرح العقائد النسفية، ص 29.

4- سورة الإخلاص "كاملةً".

5- سورة الأنبياء، الآية 22.

6- سورة المؤمنون، الآية 91.

يكون عاجِزا لا يكونُ إلهًا، فدلّ على وُجود إله واحِد [1].

ويستدلّ سيد لهذه الصفة الجليلة بوحدة الناموس الكوني الذي لا يُمكن أن يصدُرَ عن ذوات متعدّدَة (فالكونُ قائمٌ على الناموس الواحد الذي يربطُ بين أجزائِه جميعا وينسّق بين أجزائه جميعا، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المُنظّم، هذا الناموس الواحد من صُنع إرادة واحِدة لإله واحد، فلو تعدّدَت الذواتُ لتعدّدَت الإرادات، ولتعدّدَت النواميس تَبَعا لها - فالإرادةُ مظهرُ الذات المُريدَة والناموسُ مظهرُ الإرادة النافِذة - ولانعدمت الوحدة التي تنسّق الجهاز الكوني كلّه، وتوحّد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولَوقعَ الاضطرابُ والفسادُ تبعًا لفقدان التناسُق) [2]، والفطرةُ السليمة تشهدُ بهذه الوحدة في الإرادة ووحدة الخالِق المدبّر المنظّم، وهكذا نجدُ سيدا في هذه الصفة على نفس الخطّ مع السابقين في تقرير الوحدانية.

5 - القِيامُ بالنفْس:

وهي أن اللهَ تعالى غنيٌّ عن كلّ شيء، غنيٌّ عن موجِد يوجِدُه، غنيٌّ عن الاحتياج للمكان والزمان، فهو ربُّ كل شيء وخالِقُه ومَليكُه [3].

والدليل النقلي على ذلك قولُه عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾[5] أي الذي لا يَحتاجُ إلى شيء ويَحتاج إليه كلُّ شيء.

أمّا الدليل العقلي : فإنه تعالى لو احتاجَ إلى غيرِه لَكان ناقِصا في صفاتِه ولَكان حادِثا والحادِث لا يقومُ بنفسِه، وهذا يُناقضُ ما ثبتَ من قِدَمه سبحانَه وبقائِه، فهو تعالى أزليٌّ قديم باقٍ وقائمٌ بنفسِه [6]، لا

1- ينظر: أبو بكر الباقلاني، الإنصاف، ص 107، ويُنظر له أيضا: تمهيدُ الأوائل، ص 45.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2373.

3- ينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص18.

4- سورة فاطر، الآية 15.

5- سورة الإخلاص، الآية 2.

6- ينظر: صبري خدمتلي، العقيدة والفِرَق الإسلامية، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،1994م)، ص 167.

تحدُّه الأفكارُ ولا تَحويه الأنظارُ، ولا تكتنفُه الأقْدارُ، ويجلُّ عن قبول الحدِّ والمِقدار [1] والحيرةُ التي تنشأُ أمامَ العجْز عن تصوّر ألّا مكانَ لله يَحويه وألّا زمانَ يحدُّه، فالجوابُ أن علمَنا نستقيهِ من استقراء الأجسام والحوادِث، والصفات المتلبِّسة بالأشياء الممكِنة والحادِثة لا يجب تلبّسها بالواجِب أيضا، وإن رُحنا نقيسُ فذلك قياسٌ لا برهانَ عليه، إذ لا علَّةَ جامعةً بين الأصْل والفرْع، بل العقلُ يُوجبُ اختلافَ واجِب الوجود عن الممكنات في كلّ ذلك [2].

وسيدٌ في عرضِه لهذه الصفة الجليلة يرسُم إسقاطاتِها الإيمانية على المسلِم ويبينُ مِنَّة الله وفضلَه على العباد، فهو سبحانَه في غنًى عنَّا وفي غنًى عن عبادتِنا (إن اللهَ سبحانَه إنما يعامِل عبادَه هكذا رحمةً منه وفضْلا وكرَمًا ومَنًّا، لأن هذه صفاته المتعلّقة بذاتِه، لا لأن هؤلاء العباد يَزيدون في مُلكه شيئا بهُداهم، أو ينقصون من مُلكه شيئا بعَماهم، ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أ و الاستبدال... وإن الإنسانَ لَيدهشُ ويَحارُ في فضل الله ومَنِّه وكرَمه حين يرى هذا الإنسانَ الصغير الضئيلَ الجاهِلَ القاصِرَ الضعيفَ العاجزَ ينالُ من عناية الله ورعايتِه كلّ هذا القدْر الهائل) [3].

فاللهُ تعالى لا يحتاجُ إلى أيِّ مخلوق، فهو فاطِر السموات والأرض، وخالِق هذا الوُجود بما فيه ومَن فيه بكلمة، بمجرّد توجُّه الإرادة، وهو المقصودُ وحدَه بالحاجات، المُجيب وحدَه لأصحاب الحاجات، وهو الذي يقضي في كل أمرٍ بإذنِه ولا يقضي أحدٌ معه، وهذه الصفة متحقّقةٌ ابتداءً من كونِه الفرْد الأحَد[4].

هكذا إذن منهجُ سيد مع صفات الله تعالى ومع العقيدة الإسلامية عامّة حين يعرِضها، فهو يوردُها في قالَب ذاتيّ مستقلّ بعيدا عن الاصطلاحات الكلامية التي أوردْنَاها عن قصْد ليتبيَّنَ الفرْق بين المنهجيْن، فسيد يرى أن العقيدةَ الإسلامية بطبيعتِها كما جاءت في القرآن الكريم تخاطبُ الكينونةَ

1- ينظر: شرف الدين التلمساني، شرح لُمَع الأدلة للجويني، تحقيق: السيد محمد سيد عبد الوهاب، (القاهرة: دار الحديث، 2009م)، ص131.
2- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، كُبرى اليقينيات الكونية، ص115، 116.
3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص2937.
4- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 4004.

البشريةَ جملةً بكل مقوّماتها وطاقاتِها، ولا تخاطبُ الفكرَ البشري وحدَه خطابا بارِدا مصبُوبا في قالَب المنطق الذهني، فالتصوّر الإسلامي تصوّر إيجابيٌّ واقعيٌّ ؛ يدفعُ بالطاقة كلّها إلى مجال الحياة للبناء والتعمير والارتفاع والتطهير ويصونُها أن تُنفَقَ في الثرثرة ؛ كما يصونُ الإدراكَ البشري أن يُطَوَّحَ به في التِّيهِ بلا دليل، فمسائلُ العقيدة أمورٌ غيبيةٌ لا تُجدي فيها المحاولاتُ الصغيرةُ المضطربةُ المفتَعَلة التي تتضمّنها الفلسفاتُ والمباحث اللاهوتية البشرية، شبّهها سيد بالنشَاز في لَحْن العقيدة المتناسِق الذي شابَ صفاءَ التصوّر الإسلامي وصغَّر مساحتَه وأصابَه بالسطحية زيادةً على التعقيد والجفاف وهو طابع الترَف العقلي حين خلَت حياةُ المسلمين من هُموم الجِهاد واستسْلَموا لمَوْجات الرّخاء.

إضافةً إلى الأحداث السياسية التي أنشأت مشكلاتٍ للتفكير والرأي والمَذهبية [1] وكذا الاحتكاك بالثقافات السائدة في البلاد المَفتوحة أيام الفتوحات (ووجَدَ جماعةٌ من علماء المسلمين أن لا بدّ مِن مواجهة آثارِ هذا الاحتكاك وهذا الانحراف برُدود وإيضاحات وجدَل حولَ ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاتِه وحول القضاء والقدَر، وحولَ عمَل الإنسان وجزائِه، وحول المعصية والتوبة إلى آخِر هذه المباحِث التي ثارَ حولَها الجدلُ في تاريخ الفِكر الإسلامي) [2].

ب ـ صفاتُ المَعاني:

هي كلّ صفة أزلية قائمة بذاتِه تعالى، تستلزمُ حُكما معيّنا له سبحانَه، كصفة العِلم مثلا فهي تستلزمُ أن يكونَ المتصِفُ بها عليمًا، وصفاتُ الكَمال لله تعالى كثيرةٌ كالعدْل والرّحمة والحِكمة والخلْق والرِّزق والهِداية وغيرِها، ولكنها تجتمعُ في سبع صفات رئيسية معيّنة قامَ عليها الدليلُ التفصيليُّ من الكتاب [3] وهي:

1- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 11- 13.

2- المصدر نفسُه، ص11.

3- ينظر: وهبي سليمان غاوجي، أركانُ الإيمان، (ط 2، بيروت: مؤسسة الرسالة 1999م)، ص63، وينظر: كبرى اليقينيات الكونية، ص 119.

1 ـ العلم، 2 ـ الإرادة، 3 ـ القدرة، 4 ـ الحياة، 5 ـ الكلام، 6 ـ السمع، 7 ـ البصر [1] [2].

1 ـ **صفة العلم:**

هي صفة أزليةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى يتأتّى بها كشفُ الأمور والإحاطة بها على ماهيَ عليهِ في الواقع أو على ما ستكونُ عليه في المستقبل من غير سَبْقِ خَفاء أو جهْل عليه سبحانَه [3].

والدليل النقلي على ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [4]، وقوله عز وجل: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾ [5]، وقوله عز شأنه: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [6].

أما الدليل العقلي: فاللهُ تعالى فاعلٌ فعلا مُتقَنا مُحكَما بالقصْد والاختيار وكلّ من ثبتَ له ذلك كان عالِما بما يفعل، فاللهُ تعالى يجبُ له العلمُ.

وسيدٌ في عرضِه لهذه الصفة الجليلة في تفسيرِه لآية الأنعام يقفُ مشدوها أمامَها ويجلّي أنحاء مما تصفُه الآيةُ من علْم الله المُحيط الشامل الذي لا يندُّ عنه شيءٌ في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء (إن الخيالَ البشريَّ لَينطلقُ وراءَ النصّ القصير يرتادُ آفاقَ المعلوم والمجهول، وعالَمَ الغيب وعالَمَ الشهود وهو يتبعُ ظلالَ علم الله في أرجاء الكون الفسيح ووراءَ حُدود هذا الكون المشهود ، وإن

1- أضاف الماتُريدية صفةً ثامنةً هي صفة "التكوين"، ينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 20.

2- خالفَ المعتزلةُ جمهورَ المسلمين ونفَوْا هذه الصفات فِرارا من تعدُّد القُدَماء بتعدّد هذه الصفات، وقالوا: هو عالِم بذاتِه، قادِر بذاتِه... فلا يجوزُ إضافة هذه الصفات، وردَّ عليهم أهلُ السّنة بأن الصفةَ تتبع الموصوفَ من حيث الرتبةُ والاعتبارُ فالمحالُ هو تعدُّدُ الذَّوَات لا تعدّد الصفات في الذات الواحِدة، وللتفصيل. ينظر: شرح الشريف الجرجاني على كتاب "المواقف" للإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، (ط1، بيروت، دار الجيل، 1997)، ج3، ص 66 فما بعدها.

3- ينظر: إبراهيم اللقاني، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ص 68.

4- سورة التوبة، الآية 115.

5- سورة الأنعام، الآية 59.

6- سورة الرعد، الآية 9.

الوِجدانَ لَيرتعشُ وهو يستقبلُ الصوَرَ والمشاهِدَ من كل فجّ ووادٍ، وهو يرتادُ ـ أو يُحاولُ أن يرتادَ ـ أستارَ الغيوب المَختومة في الماضي والحاضِر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغْوار، مفاتحُها كلُّها عند الله، لا يعلمُها إلا هو، ويجول في مجاهِل البَرِّ وفي غَيَابات البحر المَكشوفة كلّها لعِلم الله) [1].

فسيدٌ تهمُّه المعاني والدلالات والإيحاءات التي يَرْشَحُ بها النصُّ القرآني وآثارها على وِجدان وحِسّ المُتلقي، أما الأدلة العقلية الصِّرْفة التي تُخاطبُ الأذهانَ وحدَها فيتركُها لأصحابِها المشتغلينَ بها، فالآثارُ التي تنشئُها هذه التأمُّلات في إيمانِ المسلِم بعيدةُ الأغْوار متعدّدَة المَسارِب في علمِه و سلوكِه واستقامتِه.

2 ـ صفة الإرادة:

هي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِه تعالى من شأنِها تخصيصُ الممكِن ـ دونَ الواجِب والمستحيل ـ ببعض ما يجوزُ عليه من وُجود وعدَم وتكيُّف بقطع النظَر عن أيّ مؤثّر خارجيّ [2]، ومعنى تخصيص المُمكِن ببعض ما يجوزُ عليه، أي أن إرادةَ الله تعالى تحدّدُ أحوالَ الممكِن من وُجود وعدَم وزمان ومكان وجِهة ـ ومِقْدار وفقَ علمِه تعالى الأزلي [3].

والدليل النقلي على ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[4]، فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[5]، وقوله عز شأنه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[6]، وقوله تعالى:

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 1112.

2- ينظر: غاوجي، أركان الإيمان، ص 67، وينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 21.

3- تنقسم الإرادة إلى صُلوحية وتنجيزية، فالصُّلوحية معنًى قائمٌ بذات الله تعالى صالحٌ لأن تخصّص به الممكنات، والتنجيزية تعلّق الإرادة الواقعي بمُراد من المرادات، و كلاهما إرادةٌ واحدةٌ قديمة، ولكن الذي يختلف فيها اعتبارُ التعلُّق وعدمُه ينظر: كبرى اليقينيات الكونية، ص 121.

4- سورة يس، الآية 82.

5- سورة المائدة، الآية 41.

6- سورة الرعد، الآية 11.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾[1].

والدليل العقلي أن اللهَ تعالى خالِق المخلوقات بالاختيار ومن كان كذلك وجبتْ له الإرادةُ، فلو لم يكن مُريدا لكان مُضطرا والاضطرارُ أَمارة العجْز؛ تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرا.

أمّا سيد فقد أفاضَ في معاني هذه الصفة الجليلة في تفسيره لآية الإسراء ؛ فإرادةُ الله تعالى لإهلاك القُرى الظالِمة ليست توجيها قهريا يُنشىءُ السببَ ولكنها ترتبُ النتيجةَ على السبب، فإرادة الله تعالى مُطلقة ولكنه تعالى رحمةً بعبادِه وضعَ نواميسَ لا تختلفُ وسُننا لا تتبدّل، فحين تُوجدُ الأسبابُ تتبعُها النتائجُ فتنفُذ إرادةُ الله وتحقّ كلمتُه، واللهُ لا يأمرُ بالفِسق لأن اللهَ لا يأمرُ بالفحشاء، ولكن وجودَ المُترفين وفُسوقَهم وسُكوت الناس ورضوخَهم لهذا المُنكر يرتِّب النتيجةَ الطبيعية التي وضعَها اللهُ تعالى في السّنن التي لا تتغيّر ولا تتبدّل (والأمرُ ليس أمرًا توجيهيا إلى الفِسق ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترّتبة على وجود المُترَفين وهي الفِسق... هذه السّنة قد مضتْ في الأوَّلين من بعْد نوح قرْنا بعد قرْن، لمّا فشت الذنوبُ في أُمَّة انتهت بها إلى ذلك المصير)[2] ولاحِظْ كيف يُسقط سيد آثارَ هذه الصفات الجليلة على الواقع البشري ؛ فالإرادةُ المُطلقة لله تعالى والتي تتعلّق بالمُمكنات من وُجود وعدَم ومكان وزمان وجِهة ومِقْدار تخصّص هذه النواميس والقوانين التي تحكُم هذا الوجودَ بما فيه ومَن فيه، وعلى الناس أن يتحمّلوا تبعاتِهم ومسؤولياتِهم إذا خالَفوا تلك السُّنن.

3 – صفة القُدرَة:

هي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِه تعالى، يتأتّى بها إيجادُ كلّ ممكِن وإعدامه وتكييفه، فهي تتعلقُ بالمُمكِنات دون الواجبات والمستحيلات، أي تتعلّق بالعالَم المخلوق، فهو الدالّ على قُدرته تعالى[3].

والدليل النقلي على ذلك قولُه تعالى: ﴿ **أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾** ﴾[4]، وقوله عز

1- سورة الإسراء، الآية 16.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2218.

3- ينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 20، وينظر: البوطي، كبرى اليقينيات، ص 122.

4- سورة البقرة، الآية 106.

وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [1]، وقوله عز شرأنه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [2].

والدليل العقلي أنه تعالى لو لم يكن قادِرا لكان عاجِزا والعجْزُ نقصٌ والله تعالى موصوفٌ بكل صفات الكَمال فالعجزُ عليه مُحالٌ فثبتَ وصفُه بالقُدرة.

يعرِض سيدٌ هذه الصفةَ الجليلةَ في تفسيره لآية الفُرقان ويتحدّث عن تركيب هذا الكون والتناسُق العجيب فيه الذي لا يُمكن أن يصدُرَ إلا عن قُدرة مُطلقة لا يمكن أن يتصوّرها بشَر، ويستشهدُ لما يقولُ بأبحاث العلماء الغربيين وينقل فقرات من كُتبهم الدالّة على عجبهم من هذا التقدير الدقيق في الخلْق والذي لا يمكنُ أن يصدُرَ إلا عن خالِق قادِر مدبِّر، ويستغربُ بعد كلّ هذا أمرَ هؤلاء المُدّعين للشرْك (ألَا إنه الانحرافُ المُطلَق، الذي لا يستغربُ معه أن يدَّعُوا على الرسول بعد ذلك ما يدَّعون فدعْوَاهم على الله أضخمُ وأقبحُ من كل ما يدَّعون على رسولِه، وهل أقبح من ادّعاء إنسان على الله وهو خالِقه وخالِق كل شيء، ومدبِّر أمره ومُقدّر كل شيء، هل أقبح من ادّعاء إنسان أنّ لله شريكا؟) [3] أفبعْدَما رأَوْا كلّ هذه الآيات في الكون وهذا التقدير الدقيق الذي لا يُمكنُ للبشَر الإحاطة به فضلا عن إنشائِه، وكلّ ما في السموات والأرض شاهدٌ على القُدرة الواحدة الخالِقة المبدِعة المصمِّمة، أبعد كل هذا يشركون؟ يفيض سيد في الشرح والتعليق على هذه الآية وغيرها ولا مجالَ لحصْر ما قالَه في هذه الصفحات.

4- صفةُ الحَياة:

هي صفةٌ ثُبوتيةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِه تعالى تقتضي الاتصافَ بالصفات السابقة "العلم والقدرة والإرادة" إذ لا يُتصَوّر قيامُها إلا بمَن ثبتتْ له صفةُ الحياة، وحياتُه تعالى قديمةٌ لا تُشابِه حياةَ المخلوقين

1- سورة فصلت، الآية 15.

2- سورة الفرقان، الآية 2.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 2548، وينظر: سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 190.

ولا تقومُ على رُوح ونفْس[1].

والدليل النقلي على ذلك قولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾[2] و قال عز وجل: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾[3]، و قال عز شأنه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ ﴾[4]، و قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾[5].

والدليل العقلي أنه تعالى لو لم يتّصف بالحياة لاتصفَ بضدِّه وهو الموت، والموت نقصٌ والنقصُ مُحالٌ على مَن يتصفُ بصِفات الكَمال، فهو تعالى الحيُّ الذي لا يموتُ.

وسيدٌ في تفسيره لآية الكرسي يقفُ وقفةً مطوّلةً معها ويفيض في بيان هذه الصفة الجليلة، فالحياة التي يوصَفُ بها اللهُ تعالى الواحِد الأحد هي الحياةُ الذاتية التي لم تأتِ من مصدرٍ آخرَ كحياة الخلائِق المَوْهوبة من الخالِق؛ فحياةُ الله تعالى (هي الحياةُ الأزلية الأبدية التي لا تبدأُ من مبدأ ولا تنتهي إلى نِهاية، فهي متجرّدةٌ عن معنى الزمان المصاحِب لحياة الخلائق المُكتسَبة المحدّدَة البدْء والنهاية، ومن ثم يتفرَّد اللهُ - سبحانه - كذلك بالحياةِ على هذا المعنى، ثم إنها هي الحياةُ المطلقةُ من الخصائص التي اعتادَ الناسُ أن يَعرفوا بها الحياةَ ؛ فالله - سبحانه - ليس كمثلِه شيءٌ، ومن ثم يرتفعُ كلّ شبَه من الخصائص التي تتميّز بها حياةُ الأشياء، وتثبتُ لله صفةُ الحياة مطلقةً من كل خصيصة تحدّدُ معنى الحياة في مفهـــوم البشَر)[6] فتركيزُ سيد دائما على التصوّر الإيماني لهذه المعاني الجليلة التي يتفرَّدُ بها اللهُ سبحانَه وتعالى وتجِلُّ عن مدارِك البشَر، فيكفينا السياقُ القرآني فيما يورِدُه منها، ولا نخوضُ وراءَها بمقاييسِنا البشرية الهزيلة فلا نعود إلا بالتخبُّط والاضطراب.

1- ينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 23، و ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات، ص 130.
2- سورة البقرة، الآية 255.
3- سورة الفرقان، الآية 58.
4- سورة طه، الآية 111.
5- سورة غافر، الآية 65.
6- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 287.

5- صفةُ الكَلَام:

هي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِه تعالى، ليست بحرْف ولا صوْت، مُنزّهة عن التقدّم والتأخّر والإعراب والبناء، هو بها آمِرٌ ونَاهٍ ومُخبِر[1].

يقول أبو حنيفةَ: (كان اللهُ تعالى متكلِّما ولم يكنْ كلَّمَ موسى عليه السلام، وقد كان اللهُ تعالى خالِقا في الأزَل ولم يخلُق الخلْق ليس كمثلِه شيءٌ وهو السميعُ البصير، فلما كلَّم اللهُ موسى كلَّمه بكلامِه الذي هو له صفةٌ في الأزَل...ونحنُ نتكلَّم بالآلات والحُروف، واللهُ تعالى يتكلَّم بلا آلة ولا حُروف، والحروفُ مخلوقةٌ وكلامُ الله تعالى غيرُ مَخلوق)[2].

و**الدليل النقلي** على ذلك قولُه تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾[4]، (وثبتَ بالإجْماع وتواتُر النقل عن الأنبياء صلوات الله عليهم أنهُ تعالى مُتكلِّم، ولا معنى له سوى أنه متّصفٌ بالكلام، ويمتنعُ قيام الكلام اللفظي الحادِث بذاتِه تعالى فتعيَّن الكلامُ النفسيُّ القديم)[5][6].

وسيدٌ في عرضِه لهذه الصفة الجليلة يثبتُها على أنها لونٌ من الوحي لا يعرفُ أحدٌ كيف كان يتمّ لأن ذلك غيبٌ من الغيبِ لم يُحدّثنا عنه القرآنُ وليس وراءَ القرآنِ شيءٌ يمكن أن نتخذَه كبرهان، (لأن القرآنَ - وهو المصدرُ الوحيدُ الصحيحُ الذي لا يرْقَى الشكُّ إلى صحتِه - لم يفصّل لنا في ذلك شيئا، فلا

1- ينظر: إبراهيم اللقاني، تحفة المريد، ص71، وينظر: كبرى اليقينيات الكونية، ص124.
2- أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص620 – من مجموعة العقيدة وعلم الكلام لزاهد الكوثري –.
3- سورة البقرة، الآية 253 .
4- سورة النساء، الآية 164.
5- ينظر: سعد الدين التفتازاني، شرح العقيدة النسَفية، ص 51.
6- ذهب المعتزلةُ إلى أن كلامَ الله حادِث وليس أزليا قديما، وردّ عليهم أهل السّنة بأن كلامَ الله صفةٌ من صفات ذاتِه، ولا يجوزُ أن يكونَ شيءٌ من صفاتِه تعالى حادِثا، وأنه لو كان القرآنُ مخلوقًا لكان اللهُ سبحانه قائلا له (كن) والقرآنُ مِن قولِه، ويستحيلُ أن يكونَ قولُه مَقُولًا لهُ، لأن هذا يوجِب قوْلا ثانيا فثالثا فما لا نهايةَ له، وهذا فاسِد . ينظر: أحمد بن حسين البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرَّشاد، (ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1986)، ص44، ينظر: التفتازاني، شرح العقائد النسَفية، ص 50 ،51.

نعلمُ إلا أنه كان كلامًا، ولكن ما طبيعتُه؟ كيف تمَّ؟ بأية حاسّة أو قوّة كان موسى يتلقّاهُ؟ كلُّ ذلك غيبٌ من الغيبِ لم يحدّثْنا عنه القرآنُ، وليس وراءَ القرآنِ - في هذا الباب - إلا أساطير لا تستندُ إلى برهان)[1]، والذينَ يقيسونَ أعمالَ الله سبحانه إلى أعمالِ البشَر هم الذين يسألونَ كيف كان هذا؟ وكيف أمكنَ أن يكونَ؟ فأمّا الذين يُدركونَ اختلاف الطبيعتيْن واختلاف الأداتيْن، فإنهم لا يسألونَ أصْلا، ولا يحاوِلون أن يخلُقوا تعليلا[2]، فاللهُ تعالى ليس كمثلِه شيءٌ فلا سبيلَ إلى إدراكِ ذاتِه ولا إلى إدراكِ كيفياتِ أفعالِه أو حقيقةِ صفاتِه وإنما حسبُنا ما جاء عنها جميعًا في كتابِه الكريم، وهذا هو منهجُ السلَف الأوائل الذين كانوا يُحجِمون عن الخوضِ في هذه الغيبيات، فيُثبتونَها ويُمِرُّونها كما جاءتْ.

6- صفةُ السَّمْع:

هي صفةٌ أزليةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى، فهو سبحانه سميعٌ، لا يعزُبُ عن سمعِه مسموعٌ وإن خفِيَ، ولا يحجُبُ سمعَه بُعْدٌ، يسمعُ من غير أَصْمِخَةٍ[3] ولا آذان، إذ لا تُشبهُ صفاتُه صفاتِ الخلْق كما لا تُشبه ذاتُه ذواتِ الخلْق[4].

والدليل النقلي على ذلك : قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[5]، وقوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[6] وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾[7].

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 805.

2- ينظر: المصدر نفسُه، مج4، ص 2388.

3- أصمِخة: جمع صِمخ، وهو باطِن الأذُن المُفضي إلى الرأس.

4- ينظر: أبو حامد الغزالي، الأربعين في أصول الدين،، (الجزائر - باب الوادي - : دار الشهاب، 1989)، ص 16 ،17، وينظر: محمد بخيت، القول المفيد، ص 23.

5- سورة الشورى، الآية 11.

6- سورة المجادلة، الآية 1.

7- سورة الحجرات، الآية 1.

والدليل العقلي: أنه تعالى لو كان لم يزَل حيًّا غير سميع ولا بصير لكان لم يزَل موصوفا بضدِّ السمع من الصَّمَم والآفات، وبضدِّ البصَر من العَمَى والآفات، ومحالٌ جوازُ الآفات على الباري لأنها من سِمات الحَدَث فدلّ على أن اللهَ تعالى لم يزَل عالِمًا قادِرا سميعًا بصيرًا[1].

7- صفةُ البَصَر:

هي صفةٌ أزليةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى، فهو سبحانه بصيرٌ، لا يغيبُ عن رؤيتِه مَرئيٌّ وإن دقَّ، ولا يدفعُ رؤيتَه ظلامٌ، يرى مِن غيرِ حَدَقة ولا أجْفان، إذ لا تُشبهُ صفاتُه صفاتِ الخلْق، كما لا تُشبِهُ ذاتُه ذواتِ الخلْق[2].

والدليل النقلي على ذلك قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[3] وقوله وقوله عز وجل: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[4].

والدليل العقلي أنه تعالى لو لم يكن بصيرًا لَلَزِم النقصُ في حقِّه تعالى، والنقصُ عليه محالٌ، فثبتَ نقيضُه وهو أنه تعالى مُتصفٌ بالبصَر[5].

أما عرْض سيد لصفتيْ السمْع والبصَر الجليلتين فباقتضاب شديد، يُثبتُهما ولا يزيدُ شيئا عمّا وردَ في القرآن.

ففي قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[6] يعلِّق قائلا: (إنني معكما، إنه القويُّ الجبارُ الكبيرُ المُتعال، إنه اللهُ القاهِرُ فوق عبادِه، إنه مُوجِد الأكوان والحيوانات و الأفراد والأشياء بقولِه: كُنْ ولا زيادةَ، إنهُ معهُما، وكان هذا الإجمالُ يكفي، ولكنهُ يزيدُهما طمأنينةً، ولمسًا بالحسّ للمعونة

1- ينظر: أبو الحسن الأشعري، اللُّمَع، ص 88.

2- ينظر: أبو حامد الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 16، 17 ، و ينظر: إبراهيم اللقاني، تحفة المريد، ص 73، 74.

3- سورة الشورى، الآية 11.

4- سورة طه، الآية 46.

5- ينظر: محمود صالح البغدادي، إرشادُ الأنام في عقائد الإسلام، (ط1، دار البراء، الأردن، 1985)، ص 90.

6- سورة طه، الآية 46.

﴿ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ فما يكونُ فرعونُ وما يملكُ وما يصنعُ حين يفرُطُ أو يطغَى؟ واللهُ معهما يسمعُ ويرَى؟) [1]، هذا هو منهجُ سيد في التعامُل مع الصفات الإلهية، يعرِضها متقيِّدا بالنصّ القرآني المجمَل ويُسايرُه في إجمالِه، وقد استنتجَ بتعامُله الطويل مع القرآن ونصوصِه مستقرئا طرُقَه وأساليبَه، أنَّ القرآنَ يستخدمُ طريقةَ التصوير في التعبير عن أخصّ الشؤون التي يجبُ فيها التجريدُ المطلقُ والتنزيهُ الكامل، وذلك بهدف توضيح هذه الصفات ومعانيها وتثبيتِها في الذهن البشري.

وهو إذ يستخدمُ التخييلَ الحِسِّي والتجسيم الفنّي في عرْض هذه الصفات لا يجرّدُها من مدلولاتِها اللائقةِ بالله سبحانه، فيُثبتها ولا يعطِّلها ولا يكيِّفها لأن الكيفَ فوق الإدراكِ البشري، وهو في هذا ليس بِدْعا بين المفسِّرين ، فقد سبقهُ القدَماء بهذا التفسير وعلى رأسِهم شيخُ المفسِّرين ابن جرير الطبري[2]، ففي تفسيره لقولِه تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ﴾ [3]، ينقلُ لنا قولَ ابن عباس رضي الله عنهما: (لا يشبهُ شيءٌ ممَّا في الجنَّة ما في الدنيا إلا الأسماءُ) [4]، هذا في المخلوقات ـ فالجنّة مَخلوقة ـ فكيف بصفات الله الخالِق البارِئ المصوِّر الذي ليس كمثلِه شيءٌ؟ ! فهذا تهجُّم من الإنسان الضعيف المِسكين على مَقام لا يرْقَى إليه وهْمُ متوهِّم ولا خيالُ متخيِّل فكل ما خطرَ ببالِكَ فاللهُ بخلاف ذلك، فليقدِّر هؤلاء الخائضون في تفاصيلِ الصفات الإلهية، فليقدروا الله حقَّ قدْرِه ولْيعرِفوا حدودَهم ولْيحترِموا طاقاتِهم.

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2337.

2- محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر، المؤرّخ المفسّر الإمام، وُلد في آمل بطبرستان، واستوطنَ "بغداد" وتوفي بها، وُلد سنة 224م وتوفي سنة 310م.

ينظر: إرشاد الأريب: 6/ 423، الوفيات: 1/ 456، طبقات السبكي: 2/ 135، 140، مفتاح السعادة: 1/ 205 و415 ثم: 2/ 187، البداية والنهاية: 11/ 145.

3- سورة البقرة، الآية 25.

4- ابن جرير الطبري، جامعُ البيان عن تأويل آيِ القرآن، (بيروت: دار الفكر، 2009م)، ج1، ص230.

جـ ـ مناقشةُ ما قيلَ عنه بتعطِيل الصِّفات:

تبينَ مما سبقَ أن سيدًا يُثبت صفات الباري عز وجلّ ولا يُعطِّل شيئا منها، رائِماً تنزيهَه تعالى عن مُشابهةِ الحوادِث، وسلب كل صفات النَّقص عنه سبحانه، فاللهُ عز وجل بموجب ثُبوت تلك الصفات ترتفِع عنهُ كلُّ أضدادِها، وقد تعمَّدْنا نقلَ النصوص بحذافيرِها من "الظلال" ومن كُتبِه الأخرى لنقضِيَ على كلّ شُبهة تُثارُ حولَ عقيدتِه، هذا، وقد عدَّهُ بعضُهم من نُفاةِ الصفات ومن المعطِّلة ومن الجهْمية [1] ولا يسنَدُهم في ذلك أيُّ دليلٍ واضحٍ صريحٍ من نُصوص "الظلال" وحتى من كُتبه الأخرى، بل العكسُ هو الصحيحُ فهو ـ رحمه الله ـ يُثبت صفات الله كما وردَتْ ويفوِّض كيفياتِها إلى الله تعالى ولا يخوضُ في التأويلات البعيدة مُنزِّها اللهَ تعالى عن كلِّ ما يخطُرُ في الذهن من مُشابهة المخلوقات وإنْ تشابهت الأسماء.

فلا يوافقُ المجسِّمةَ "الحشوية" الذين يشبِّهونَ اللهَ بخلْقِه ويُثبتونَ له صفات كصفات الخلْق، كما لا يتفق مع "المعطِّلة" الذين يسلُبون معاني هذه الصفات ويجرِّدونها من دلالاتها، والفريقان إنما أُتُوا من تعاطي ما لا يعلمونَ بعقولهم الكَلِيلة التي لم تُكلَّف البحثَ في هذه المجالات التي تعجَزُ فيها العقولُ، فكما أنها تعجزُ عن معرفة ذاتِ الله تعالى على جهة التصوُّر والتفصيل أو على جهة الإحاطة، فإنها تعجزُ كذلك عن معرفةِ حقائق صفاته وكيفياتِ تعلُّقها بذاتِه، مِصداقا لقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [2]، وقوله عز وجل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [3].

وُجِّهت إلى سيد تُهمة تعطيل صفة الاستواء [4] في تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [5] إذ قال فيها: (والاستواءُ على العرْش كنايةٌ عن مَقام السيطرة العُلوية الثابتة الراسِخة، باللغة

1- أفرد ربيع المدخلي في كتابه "أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفِكرِه" مبحثا بعنوان "غُلوّ سيد في تعطيل صفات الله كما هو شأنُ الجهْمية"!!! ص 167 - 172.

2- سورة طه، الآية 110.

3- سورة الشورى، الآية 11.

4- المرجع نفسُه، ص 167.

5- سورة الأعراف، الآية 54.

التي يفهمُها البشرُ ويتمثَّلونَ بها المعاني، على طريقة القرآن في التصوير (كما فصَّلنا هذا في فصل التخييل الحِسِّي والتجسيم من كتاب التصوير الفني)، و(ثمّ) هنا ليست للتراخي الزماني، إنما هي للبُعد المعنوي، فالزمانُ في هذا المَقام لا ظلَّ له، وليست هناك حالةٌ ولا هيئةٌ لم تكنْ لله ـ سبحانه ـ ثم كانتْ، فهو ـ سبحانه ـ منزّهٌ عن الحُدوث وما يتعلّق به من الزمان والمكان، لذلك نجزِم بأن (ثم) هنا للبُعد المعنوي، ونحن آمِنون مِن أننا لم نتجاوزْ المنطقةَ المأمونةَ التي يحقُّ فيها للعقلِ البشريِّ أن يحكُم ويجزِم، لأننا نستندُ إلى قاعدة كلِّية في تنزيهِ الله سبحانه عن تعاقُب الهيئات والحالات وعن مُقتضيات الزمان والمكان) [1]، فسيدٌ في هذا النصّ رامَ تنزيهَ الله تعالى عن مُقتضيات المَخلوقات من تعاقُب الهيئات والحالات والمكان والزمان وهذا هو منهجُه في الظلال، لأن ما يتعلَّق بالله وصفاتِه شيءٌ وراء العقل لا يمكنُ أن يصلَ إليه الإنسانُ إلا بأن يقيسَ اللهَ على نفسِه، وذلك خطأٌ كبيرٌ [2].

وقد اختلفت مسالِكُ العلماء في الظواهر التي وردتْ في الكتاب والسُّنة وامتنعَ على أهل الحق اعتقادُ فحْواها وإجراؤُها على موجب ما تبتدِرُه أفهامُ أرباب اللسان منها، فرأى بعضُهم تأويلَها والتزام هذا المنهج في آي الكتاب وما يصحُّ من سنن الرسول ﷺ ، وذهب أئمةُ السَّلف إلى الانكفافِ عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردِها وتفويضِ معانيها إلى الربِّ تعالى [3]، وحتى من السلف نجدُ مَن يُؤوِّل هذه الظواهرَ بمعنًى يليقُ بجلال الله تعالى كقول جعفر الصادِق: (من زعمَ أن اللهَ في شيءٍ أو على شيءٍ فقد أشرَكَ إذ لو كان على شيءٍ لكان محَمولا، ولو كان في شيءٍ لكان محَصورا، ولو كان مِن شيءٍ لكان مُحدَثا) [4].

فتنزيهُ الله تعالى عند سيد بهذه الطريقة ليس بِدْعا ولا أُنُفا، فالتأويلُ في الصفات مذهبُ جمهور

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1762، 1763.

2- ينظر: أحمد أمين، ضُحى الإسلام، (ط 10، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، ج3، ص15.

3- ينظر: أبو المعالي الجويني، العقيدة النِّظامية في الأركان الإسلامية، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، (مصر: المكتبة الأزهرية للتراث، 1992م)، ص 32.

4- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: د.عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة: مطبعة حسان، 1972)، ص 45.

الأُمَّة من السلَف والخلَف [1] ولِياذُهم بالتأويل في مثل هذه الآيات لا بد أن يكون لسدّ حاجة حقيقية لدى العقل المسلِم، ولم يكونوا بقليلي الدِّين ولا قليلي الفهْم وفيهم أئمةٌ وعمالقةٌ مبرّزون في العلوم الإسلامية، كان أكثرُهم من الأشاعِرة ـ شأنَ المالكية والشافعية، وبعضُهم ماتُريدية ـ شأنَ الحنفية [2][3] بل إن المفسرين المحسوبين على أهل الأثر مثل شيخ المفسرين ابن جرير الطبري [4] والحافظ ابن كثير لجأُوا إلى التأويل في آيات الصفات فإذا كان هؤلاء كلّهم ـ على جلالة أقدارِهم ـ وغيرهم كثيرٌ ذهبوا إلى التأويل في مثل هذه الآيات فكيف نضلّلُ الأمّةَ ونحكم عليها بالخطأ في العقيدة؟ !!.

ولسيد قواعدُ منهجيةٌ في التعامُل مع العقيدة في الله وصفاتِه سارَ عليها في كل كُتبه يحسُن بنا أن نذكُرَها قبل أن نُوردَ ما يقولُه فيها:

1 ـ عدم الخوض في ذات الله لأنه ليس كمثلِه شيء.

2 ـ عدمُ الخوض في كيفيات أفعالِه سبحانه لأنها لا تُشابهُ أفعالَ المخلوقين ولا تشابهُها أفعالُ المخلوقين.

3 ـ تنزيهُه تعالى عن التشبيه والتعطيل وإثبات ما أثبتَه لنفسِه [5] وصفةُ الاستواء صفةُ فِعل [6] نطقَ

1- يوسف القرضاوي، فصول في العقيدة بين السلف والخَلَف، (ط2، القاهرة: مكتبة وهبة، 2006م)، ص151.

2- ينظر: المرجع السابق، ص 152.

3- وقد عدّد أحدُ الباحثين هؤلاء المؤوِّلين في الصفات في القديم والحديث فذكرَ منهم: (القرطُبي، الثعْلَبي، ابن الجوْزي، الرّازي، البيضاوي، النسَفي، الخازِن، أبو حيّان، الثعالبي، الخطيب الشرْبيني، أبو السعود، الشوْكاني، الآلُوسي، إسماعيل حقّي، سيد قطب، المراغي، فريد وجدي، محمود حِجازي، الصابوني، وهذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصْر والاستقراء) ينظر: المفسِّرون بين التأويل والإثبات، ج1، ص 13. وهل يضيرُ سيِّدا أن يكون ضمن هؤلاء وهم مَن هم!.

4- ينظر: محمد خير محمد سالم، آيات الصفات عند السلف بين التأويل والتفويض من خلال تفسير الإمام الطبري، (ط1، الأردن: دار البيارق، 1999م)، أصلُها رسالة ماجستير في التفسير تقدَّم بها صاحبُها إلى كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية.

5- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 147، وينظر: الظلال، مج1، ص 54، مج3، ص 1296، 1393.

6- اختلف أهلُ السّنة هل الاستواء صفةُ ذات أو صفةُ فِعل، فمن قال: معناهُ عَلَا قال هي صفةُ ذات ومن قال غير ذلك قال صفة فعل.

بها الكتابُ الكريم في غيرِ آية ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [1] وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ﴾ [2]، ولفظة (ثمّ) عند سيد لا يُمكن أن تكون للتراخي الزماني لأن اللهَ سبحانه لا تتغيَّرُ عليه الأحوالُ فلا يكونُ في حالة عدم استواء ثم تتلوها حالةُ استواء، فهو تعالى منزَّهٌ عن مقتضيات الزمان والمكان، وهذا هو الذي أفضى بسيد إلى جعْلِه كنايةً عن السيطرة والهيمَنة، فهل هو معطِّلٌ لهذه الصفة بقولِه هذا؟ والتعطيلُ هو نفيُ الصفات !! وسيدٌ أثبتَها مُؤوِّلا لها بمقام السيطرة العُلوية وفي مقام آخر بالاستعلاء والسيطرة [3]، وفي مقام آخر بالهيمنة [4] وكلُّها تدورُ على معنًى واحد (والتأويلُ هنا لا يخرجُ عن المنهج الذي أشرنا إليه آنفا، لأنه لا ينبع من مقررات وتصوّرات من عند أنفسِنا، إنما يستندُ إلى مقرّرات القرآن ذاتِه، وإلى التصوّر الذي يُوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاتِه) [5].

ولكن سيدا لم يقتنع بهذا التأويل الذي ذهبَ إليه وخالَفَ فيه قواعدَه التي الْتزمَها في عدم الخوض في ذات الله تعالى وكيفيات أفعالِه، فرجعَ عن رأيِه هذا في الطبعة المنقَّحة من "الظلال" وتابع مذهب السلف الذين يتلقّوْن أمثالَ هذه الآيات بلا بحْث ولا سُؤال ويُمِرّونها كما جاءت كما قال مالك: (الاستواء معلومٌ والكيفُ معقول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بِدعة) [6]، فعزم أن يرُدَّ الأمر إلى نِصابه والفكر إلى صوابِه وأعلنَ صراحةً أنه أخطأ في هذا التأويل (وما أبرئُ نفسي أنني فيما سبقَ من مؤلفاتي والأجزاء الأُولى من هذه الظلال قد انسَقْتُ إلى شيءٍ مِن هذا، وأرجُو أن أتدارَكَه في الطبعة التالية إذا وفقَ اللهُ وما أقرِّرُه هنا هو ما أعتقدُ الحقّ بهداية من الله) [7].

فنسخَ بقولِه هذا تأويلاتِه للصفات وسنوردُ كلامَه الجديد للآية التي في سُورة الأعراف ليتّضح

1- سورة طه، الآية 5.

2- سورة الفرقان، الآية 59.

3- ينظر: الظلال، مج5، ص 2574.

4- ينظر: الظلال، مج6، ص 3480.

5- المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

6- ينظر: أبو القاسم اللالِكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السّنة والجماعة، تحقيق: د.أحمد سعد حمدان الغامدي، (ط1، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، د.ت)، ج3، ص398.

7- الظلال، مج6، ص 3731، هامش الصفحة.

الفرقُ بين ما كان عليه وما صارَ إليه، لكن المتَّهِمين لأغراضٍ في أنفُسِهم لا يلتفتونَ إلى هذه الأقوال الجديدة ويتعمَّدون تجاوُزَها وتجاهُلَها ليُحاكِموا الرجلَ ويُشنِّعوا عليه في عقيدتِه بعد أن أفضى إلى ربِّه فيا له من عُدوان سافِر !!.

وهاهو سيدٌ في تفسيره لقولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[1]من الطبعة المنقَّحة من "الظلال" يقول: (إن عقيدةَ التوحيد الإسلامية لا تدَعُ مجالا لأيّ تصوّر بشريّ عن ذاتِ الله سبحانه، ولا عن كيفيات أفعالِه، فاللهُ سبحانه ليس كمثلِه شيءٌ، ومن ثم لا مجالَ للتصوّر البشريّ لينشئَ صورةً عن ذات الله، فكلّ التصوّرات البشرية إنما تنشأُ في حدود المُحيط الذي يستخلصُه العقلُ البشريُّ مما حولَه من أشياءَ، فإذا كان اللهُ سبحانه ليس كمثلِه شيء توقّفَ التصورُّ البشري إطلاقا عن إنشاء صورَة مُعيّنة لذات الله تعالى.

ومتى توقّفَ عن إنشاء صورَة مُعيّنة لذاتِه العَلِيَّة، فإنه يتوقفُ تبَعًا لذلك عن تصوّر كيفيات أفعالِه جميعًا، ولم يبقَ أمامَه إلا مجال تدبُّر آثار هذه الأفعال في الوُجود مِن حولِه، وهذا هو مجالُه، ومن ثم تصبحُ أسئلةٌ كهذه: كيف خلقَ السموات والأرض؟ كيف استوَى على العرْش؟ كيف هذا العرْش الذي استوى عليه اللهُ سبحانه؟ تصبحُ هذه الأسئلةُ وأمثالُها لغْوًا يخالِف توجيهُها قاعدةَ الاعتقادِ الإسلامي، أمّا الإجابةُ عليها فهي اللغْوُ الأشدُّ الذي لا يُزاولِـــه مَن يُدركُ تلك القاعدةَ ابتداءً)[2]، فكيف يَستقيمُ مع وُجود هذا النصّ إصرارُ أولئكَ على التمسُّك بتأويلاتِه السالِفة التي رجَعَ عنها؟ ! وقد أكَّدَ موقفَه الجديد بنصوصٍ أُخرى تقطَعُ كل شكّ في عقيدة الرجُل الصافية ومنهجِه السلفي في أخْذ العقيدة، وقد تراجعَ عن آراء كثيرة تبيَّن له خطؤُهُ فيها ـ ولا يفعلُ هذا إلا الباحثونَ الكبار إذا تبيَّن لهم الحقُّ لم يبالوا بما عَدَاه ـ.

وسيدٌ في هذه المسألة تبيّن له بعد طُول تعامُل مع القرآن الكريم ومع الغيبيات في القرآن الكريم أن هذه التأويلات التي خاضَ فيها المتكلمون والفلاسفةُ ما هي إلا تصوّراتٌ بشريةٌ يُعوِزُها التأصيلُ

1- سورة الأعراف، الآية 54.

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن: مج3، ص 1296.

والسّنَد الحقيقي ؛ فالعقولُ تبقى محدودةً دائما أمام هذه العوالِمِ التي ذكرَها القرآنُ بإجمالٍ وعاجزةً أمام تصوّر الذّات الإلهية وكيفيات أفعالِه سبحانه، أمّا طريقةُ القرآن في عرْض هذه المسائل الكبيرة فيعدُّها سيد من الإعجازات التعبيرية في تقريب المعاني الكبرى إلى الأذهان البشرية، فواجبُ المؤمن تجاهَها أن يُؤمنَ بما جاءَ فيها وألّا يخوضَ في التفصيلات التي لا مجالَ لإعْمال العقل فيها ؛ وهذا احترامٌ للعقل ووُقوفٌ به عند حدودِه التي وضعَها اللهُ له، إذ إن تصوّر الكيفية فرْعٌ عن تصوّر الماهِيّة ؛ والله ليس كمثلِه شيءٌ فلا سبيلَ إلى إدراك ذاتِه ولا إلى إدراكِ كيفياتِ أفعالِه.

المطلب الثالث: الإرادةُ الإنسانيةُ أمامَ إرادةِ الله تعالى:

الإرادةُ الإلهيةُ هي إحدى الصفات الأساسية للذات العَلِيّة، فهو تعالى مُريدٌ للكائنات، مُدبِّر للحادِثات، فلا يجري في المُلك والمَلكوت، قليلٌ ولا كثيرٌ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ، خيرٌ أو شرٌّ، نفْعٌ أو ضرٌّ، إيمانٌ أو كُفرٌ، عِرْفان أو نُكْر، فوزٌ أو خُسْر، زيادة أو نُقصان، طاعةٌ أو عِصيانٌ، إلا بقضائِه وقَدَره وحِكمته ومشيئتِه، فما شاء كانَ وما لم يشأْ لم يكُن [1].

ولم يُجبِر أحدًا من خلقِه على الكُفر ولا على الإيمان، ولا خلَقَهم مؤمِنا ولا كافرا، ولكن خلَقَهم أشخاصا، والإيمانُ والكفرُ أفعالُ العباد، فهم مَخلوقون سليمين من الكفرِ والإيمانِ، ثم خاطبَهم اللهُ تعالى وأمَرَهم ونهاهُم، فكفرَ مَن كفرَ بفعلِه وإنكارِه وجحودِه الحقَّ بخِذلان الله تعالى إيّاه، وآمنَ مَن آمنَ بفعلِه وإقرارِه وتصديقِه بتوفيق الله تعالى إيّاه ونُصرتِه له [2]، فإذا علِمْنا هذا فكيف نتصوّر أن تكونَ للإنسان المخلوق الضعيف إرادةٌ إلى جانب إرادةِ الله تعالى؟ وقد خبرنا بالتجربة والمشاهَدة أن الإنسان مريدٌ مختارٌ في التصرّف والسلوك والفِكر والتصوّر، فما حقيقةُ هذه الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله تعالى المُطلقَة الكاملة؟

يخصّص سيدٌ لهذه الأسئلة التي شغلت الفكرَ الإسلامي طويلا وتضاربتْ فيها أقوالُ الفِرَق الإسلامية وتولّدت عنها أسئلةٌ أخرى كثيرةٌ من قَبيل: إذا كانت إرادةُ الله مطلقةً فهل يريدُ المعاصي والشرور؟ وكذا نظرية الصّلَاح والأصْلح وغيرِها، قلنا يخصصُ سيدٌ لهذه المسألة الكبيرة فصْلا كاملا في أحد كُتبه [3] ووَقفات كثيرة في "الظلال" عند آيات الإرادة والمَشيئة [4]، ولا يخوضُ كعادتِه في أقوال الفِرَق الإسلامية وتولُّداتها الفلسفية إذ يراها نِتاج الترَف العقلي، وإنما يُركّز على الأثر الإيماني العملي الحَرَكي الذي يبعثُه الاعتقادُ بالمشيئة المُطلقة لله تعالى في حياة المسلِم فلا يقعُ في مُلكه تعالى إلا ما يشاءُ وذلك لا يُناقض سرَّ الإرادة المُودَع فينا هِبةً منه وتفضُّلا.

---

1 – ينظر: أبو حامد الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 9.

2 – ينظر: أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص 620، 621 . ضمن مجموعة "العقيدة وعلم الكلام" لمحمد زاهد الكوثري.

3 – فصل "التوازُن" من كتاب "خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته" القسم الأول من ص136 إلى 172.

4 – ينظر: الظلال، مج3، ص 1186– 1188 و1204 و1383، مج6، ص 3787.

يبدأُ سيد في بيان هذه العلاقة بين المشيئة الإلهية المُطلقة والمشيئة الإنسانية المحدودة ؛ متدرِّجا من السُّنن الكونية الثابتة التي أبدعها سبحانه وتعالى وله وحدهُ أن يَخرِقَها ؛ فهو لا يُسأَلُ عما يَفعلُ من مثلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[3] وقولِه عز شأنه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[4] وغيرها كثير.

ثم يُثنِّي بالنواميس الثابتة التي أبدعتْها الإرادةُ الإلهية الطليقة وجعلتْها مطَّرِدة وفق سُنن مقرَّرة ليتعامَل الناسُ معها ويستفيدوا منها بقدْر ما يملكُ إدراكُهُم البشري: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[6] وقوله عز وجل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[7] وغيرها.

وبيْن ثباتِ هذه السُّنن وطَلَاقة المشيئة الإلهية يأخذُ المسلمُ بالأسباب ويعملُ وِفق السُّنن وفي

1- سورة النحل، الآية 40.
2- سورة آل عِمران، الآية 40.
3- سورة آل عِمران، الآية 47.
4- سورة هود، الآيات 71، 72.
5- سورة يس، الآية 40.
6- سورة الأحزاب، الآية 62.
7- سورة آل عِمران، الآية 137.

الوقتِ نفسِه يردُّ الأمرَ كلَّه إلى خالِقِ الأسباب فيكون مُؤدّيا لواجبِه مَوْصولا بخالِقه [1].

وبعد هذا التمهيد يخلُصُ سيد إلى أصْل المسألة وهي علاقة المشيئة الإلهية المُطلقة مع المشيئة الإنسانية المَحدودة والتي ثارَ الجدلُ حولَها كثيرا، فالإنسانُ جعل له اللهُ الدورَ الأوَّل في الأرض وخلافتها وهو دورٌ ضخمٌ ومَركزٌ ممتازٌ في نِظام الكون كلِّه ؛ ووهبَ له مجالا هائلا للعمَل والفاعِلية والتأثير؛ وهذا المجالُ الإنساني الواسع داخلٌ في نطاق المشيئة المُطلقة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [3]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [4]، فشأنُ الناس إذن شأن شأن هذا الوجود كلّه، كل شيء مخلوقٌ بقدَر، وقَدَرُ الله يتحققُ من خلال إرادة الناس وعمَلِهم، فالأمْران إذن مُجتمعان ولا تناقُضَ هناك.

والتصوّر الذي تُنشئُه هذه النصوصُ حين تَجمعُ في سياق واحد بين المشيئة الإلهية المُطلقة والمشيئة الإنسانية المَحدودة؛ أن مجال الاتجاه والعمَل والتغيير عند الإنسان هو الذي يقومُ عليه التكليفُ والجزاءُ دون أن يتعارَضَ هذا الحَراكُ الإنساني مع مجال المشيئة الإلهية المُطلقة المُحيطة بالناس والأشياء والأحْداث [5].

فهناك إذن مستويان من الإرادة الإنسانية، أحدُهما يستوي فيه مع المَخلوقات الأخرى من حيوان وجَماد لا كسْبَ له فيها كالوِلادة والموْت والضّعف والقوّة واللوْن والجِنس وغيرِها، وثانيهما هو المقصودُ من هذه الإرادة إذ يتصرّفُ باختيار وحُرية هما بإرادة الله، فلا يُمكن أن يقعَ أي تعارُض بين ما تختارُه بمحض إرادتِك وبين إرادةِ الله الطليقة التي منحتْكَ بدْءًا هذه الإرادةَ التي تختارُ بها، أمّا ما يحدُث

1- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، 140- 143.

2- سورة النساء، الآية 78.

3- سورة الرعد، الآية 11.

4- سورة الإنسان، الآيات 29، 30.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص 144- 147.

للإنسانِ قسْرًا وإكْراها فهو من النوْع الأوَّل الذي يستوي فيه مع المخلوقات الأُخرى فلا ثوابَ ولا عقابَ فيها، إذن فالثوابُ والعقابُ يكونُ على هذا الاختيار والحُرّية اللتان وُهِبتَهُما مِن الله تعالى فتأتي ما تشاءُ وتدَعُ ما تشاءُ دون أي قسْر أو إكْراه.

وفي تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1] يفصّل سيدٌ القولَ في تعلُّق الهُدى والضّلال بمشيئةِ الله ابتداءً، فحُرّية التوَجُّه والاختيار المغْرُوزَة في البشَر إن استخدَموها في التطلُّع إلى الهُدى فقد اقتضت مشيئة الله أن يُعينَهم ويَهدِيَهم إلى سبيلِه ؛ وإن استخدَموها في الصُّدود عن الهُدى ودلائِله ومُوحِياتِه فقد اقتضت مشيئةُ الله أن يُضلَّهم ويدَعَهم يتخبّطون في الظُّلُمات (بلا تعارُض ـ في التصوّر الإسلامي ـ بين طَلَاقة المشيئة الإلهية وهذا المجال الذي تُرِك للبشر لابتلائِهم فيه بهذا القدْر من الاختيار)[2].

ثم يمضي سيدٌ في بيان ثمرة هذا التصوّر إذا استقرّ في كيان المؤمن، فهو يبعثُ السلامَ والطمأنينةَ في النفْس بذلك الخضوع الاختياري المُلتزم بناء على المعرِفة والهُدى والاختيار، فيستوي الجانبُ القهْري والاختياري في اتِّباع ناموس واحِد وسُلطان واحِد، أمّا الناشِزونَ فهم خاضِعونَ في الجانب القهْري لناموس الله الفِطري الذي يقهرُهُم ولا يَملكون أن يَخرُجوا منه في تكوينِهم الجِسمي وحاجاتِهم الفِطرية، وفي الجانب الاختياري هم عاصُون مُتنكِّبون، فهم أشقياءُ بهذا الفِصام في شخصيتِهم وهم في كِلا الحالَيْن في قبضة الله لا يُعجِزونَه ولا ينطلقونَ إلا بمشيئتِه[3].

ويختمُ سيدٌ وقفتَه بخُلاصة كبيرة الأهمية في صميم العقيدة ؛ وهي أن القضيةَ قضيةَ الألوهية وسلطانها في حياة البشَر وشريعتِهم التي يعيشونَ بها، فهؤلاء العُصاةُ الناشِزونَ لا يَملكون في حقيقة الأمر لأنفُسهم نفْعا ولا ضَرًّا ؛ وهم أعجزُ من أن يكونَ لهُم في ذواتِهم سلطانٌ فالسلطانُ لله وحدَه

1- سورة الأنعام، الآية 111.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1187 .

3- ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

فكيف يكونُ لهم على المؤمنين سلطانٌ أو كيف لهم أن يُؤذوا أولياءَ الله إلا بما شاءَ اللهُ ، فمشيئتُه تعالى في الطائعينَ والعاصينَ سواءٌ [1]، وهي لفتةٌ مهمّةٌ من سيد في تثبيت المؤمنينَ أمام مُدَّعي القوة والسلطان والمُلك والجبروت، فلا سلطانَ إلا لله وحدَه وما شاء كانَ وما لم يشأْ لم يكُن، فلِمَ الخوفُ والذُّلُّ والخضوعُ والخنوع!!.

وفي تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [2] شرحها سيدٌ شرْحا موجَزا ثم عاد إليها من جديد مُعلِّلا ذلك بأنه بقي في نفسِه شيءٌ لم يقُلْه عنها فكان استطرادُه مستدرِكا على كل من سلَفه في تفسيرِ الآية من مختلف الطوائف والفِرَق الإسلامية (إن تصوّر الحقيقة التي يقرّرها هذا النصُّ وأمثالُه في القرآن الكريم من النصوص التي تتعلقُ بالتعامُل والارتباط بين مشيئة الله سبحانه واتجاهات البشَر، وما يصيبُهم من الهُدى والضّلال، وما ينالُهم بعدَ ذلك من جزاء وثواب وعقاب، إن هذا كلّه يحتاجُ إلى استخدام منطقةٍ أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقةِ المنطق الذهني ! وكل ما ثارَ من الجدَل بش أنِ هذه القضية سواء في تاريخ الفِكر الإسلامي، وبخاصّة بين المعتزلة وأهل السُّنة والمُرجِئة – أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة – وكل القضايا والتعبيرات عنها مَوْسومة بطابع المنطق الذهني) [3].

فالمنطق الذهني يفيدُ – حسب سيد – في كثير من القضايا لكنه في هذه القضية بالذات لا يُغني شيئا، فهذا الانشراحُ الذي يَنسكِبُ في قلبِ المُهتدي لا تفسيرَ له ذهنيًّا وإنما يتمّ بقدَر من الله يخلُقه ويُبرِزه، وذاك الضيقُ والتقبُّض والعُسرُ الذي يجتاحُ الضالَّ المعرِض من صُنع الله كذلك، وكِلاهُما من إرادة الله بالعبد ولكنها ليست إرادةَ القهْر والقسْر والجبْر بل هي وِفق السُّنَّة الجارِية في أن ابتُلِيَ هذا الإنسانُ بقدْر من هذه الإرادة التي يستخدِمُها في الهُدى والضلال [4].

1- ينظر: المصدر السابق، الصفحة نفسُها.

2- سورة الأنعام، الآية 125.

3- المصدر نفسه ، مج3، ص 1204.

4- ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أمّا الجدَل الكبيرُ الذي ثارَ حول هذه المسألة عند جُلّ الفِرَق الإسلامية فلم يشأْ سيدٌ إقحامَ ظلالِه فيها، فهي لا تعْدُو تقريراتٍ ذهنيةً وفُروضا وتوَلُّدات فلسفية عنها ، فلا يخلص المسلِم منها بشيءٍ ذي بال، لأن الأمرَ أكبر من ذلك، أكبر من مُخاطبة العقل وحدَه ، والعقل جزءٌ من المَدارِك الإنسانية، فهذا الانشراحُ والضِّيقُ اللذان يَحدُثان فِعلا في الواقع بدون مقدِّمات ونُذُر تتلقّاها الكينونة الإنسانية بجُملتها، بالشعور والوِجدان والعقل والوعي كلّه فيسْرِيان فيها سرَيَان الدّم في العُروق وحينذاك يتراءَى ذلك التشابُك بين مشيئة الله وقدَرِه و بين إرادةِ الإنسان وعمَلِه.

المطلب الرابع: القضاءُ والقدَر:

وتنجرُّ عن مسألةِ الإرادة الإنسانية وحُرّيتها مسألةُ القضاء والقدَر التي شغلت الفكرَ البشري وتضاربت فيها الآراءُ وتصاوَلت فيها الحُجَج ولا تزالُ إلى اليوم، وهي مسألةٌ قديمةٌ في الفِكر الإنساني ذكرَها القرآنُ الكريم بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [1] إذ يتعلَّلُ هؤلاء بنسبةِ الشرْك والمَعاصي إلى الإرادة الإلهية ويُشيرون إلى مسألة القضاء والقدَر ويحتجُّون بها على النبي ﷺ [2] بناءً على أن المشيئةَ والإرادةَ تساوي الأمرَ وتستلزمُ الرِّضا !

وقد نهى النبيُّ ﷺ عن الخوْض فيه مع وُجوب الإيمانِ به، ففي الحديث المَشهور أنه ﷺ خرجَ على أصحابِه وهم يتناظَرُون في القدَر ورجُلٌ يقولُ: ألمْ يقُل اللهُ كذا؟ ورجُلٌ يقول ألم يقُل اللهُ كذا؟ فكأنما فُقِيءَ في وجهِه حَبُّ الرُّمَّان، فقالَ: (أبهذا أُمِرْتُم؟ إنما هَلكَ مَن كان قبلَكم بهذا، ضَربوا كتابَ الله بعضَه ببعْض، وإنما نزلَ كتابُ الله يصدِّقُ بعضُه بعْضا، لا ليكذِّبَ بعضُه بعضًا، انظُروا ما أُمِرتُم به فافعلُوه، وما نُهيتُم عنهُ فاجتنِبُوه) [3]، لأن الخوضَ في القدَر مَضلّة للأفْهام ومَزلّة للأقْدام وحيْرة للعُقول وهذا يؤدِّي إلى الفُرْقة و الانقسام، ولمّا الْتحقَ النبيُّ ﷺ بالرفيق الأعْلى خاضَ الناسُ في هذ ه المسألة التي نُهُوا عنها وذلك لما أن اختلَطوا بالأُمَم الأُخرى من فُرس ويونان ورُوم وغيرِها واضطربت فيها الآراءُ والمذاهبُ ونشأتْ عنها الجهْمية التي تقولُ بالجبْر وأن الإنسانَ لا إرادةَ له ولا فِعل، وفي المقابِل القدَرية التي جعلت للإنسان إرادةً مستقلّةً عن إرادةِ الله تعالى وأخرجت فِعل الإنسان عن نِطاق القُدْرة

1- سورة الأنعام، الآية 148.

2- ينظر: محمد أبو زهرة، تاريخُ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهِب الفقهية، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ص99.

3- أخرجه إبن ماجه في كتاب "المقدمة" باب "في القدر"، ج1، ص69، تحت رقم 85، وأحمد في مُسنده، ج2، ص178 و195 تحت رقميْ 6668 و 6845، واللالِكائي في "اعتقاد أهل السّنة والجماعة"، ج1، ص80 تحت رقم 180، وقال الألباني في إسنادِه حَسَن.

الإلهية [1] .

أمّا مذهبُ أهل السُّنة فمُجمِع على أنه ما كان شيءٌ ولا يكونُ في السماوات والأرض إلا بقضاء الله وقدَره وإرادتِه ومشيئتِه، والخلْقُ كلُّهم أضعفُ وأعجزُ من أن يُحدِثوا في سُلطان الله شيئا يُخالفونَ فيه مُرادَه ويَردُّونَ قضاءَه ويغلبون مشيئتَه، والإيمانُ بهذا واجِب، إنما يُحاسَب الناسُ على أكْسَابِهم التي كَسَبوها بإرادتِهم الحُرّة التي منحَهم اللهُ إيّاها وعليها مَناطُ الثواب والعِقاب ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ ﴾ [3] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [4] .

أمّا علمُه تعالى السابِق بما سيقعُ في مُلكه فهو صفةٌ من صفات الكَمال الواجبةِ له وإلّا لكانَ ذلك نقْصا في صفاتِه، وقد فهِم منه بعضُهم أنه قهْرٌ للعبد على إتيانِ ما يَأتي وترْك ما يترُك من الأفعال وليس الأمرُ كذلك، فاللهُ تعالى بمحْض جُودِه وكَرَمه شاءَ لنا أ ن نكونَ مُريدين مُختارين دونَ قسْرٍ أو إكراه فيما نأتي وندَعُ، فإنما نتحرّكُ في دائرة الإرادة الإلهية لا نتخطّاها، مِصداقا لقولِه تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [5] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [6] وقوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [7] فلا إشكال في هذا، فعِلْم الله تعالى صفةٌ تتكشَّف بها الأمورُ على ما هي عليهِ أو على ما ستكونُ عليه ولا علاقةَ لها بجبْر الفاعِل على فعلِه؛ إذ لو كان كذلك لَلَزِم أن يكونَ اللهُ سبحانه مُجبَرا على فعلِه وهو مُحالٌ في حقّه تعالى [8]

1- ينظر: المرجع السابق، ص107 و 111 .

2- سورة البقرة، الآية 286.

3- سورة غافر، الآية 17.

4- سورة الأنعام، 120.

5- سورة الشمس، الآيات 7، 8.

6- سورة الإنسان، الآية 3.

7- سورة البلد، الآيات 8 – 10 .

8 – ينظر: عمر وفيق الداعوق، المرشد المفيد إلى علم التوحيد، (ط1، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2007م)، ص 217.

أمّا سيدٌ في تناوُلِه لهذه المسألة التي ثارَ عليها كثيرٌ من الجدَل -مسألة القضاء والقدَر أو الجبْر والاختيار - فيقسِّمها إلى قسْميْن عند تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [1] .

فالآيةُ الأُولى تقرّرُ أن الله هو الفاعِل الواحد لكلّ ما يقعُ في الكون ومن الناس ؛ فلا يقعُ شيءٌ إلا بإرادتِه وقدرتِه وقدَرِه، أمّا الإنسانُ فيتّجه ويتّخذ الوسائلَ ويبذُل الجُهد لتحقيقِ الخيْر ولكن تحقُّقَ الخير فِعلا يتمّ بإرادةِ الله وقدَرِه ، وقد يتّجه إلى تحقيق السّوء أو إيقاعِه، ولكن وُقوع السّوء فِعلا ووُجوده أصْلا لا يتمّ إلا بقدرة الله وقدَر الله، لأنه ليس هناك قدرةٌ مُنشئةٌ للأشياء والأحْداث في هذا الكون غير قوة الله، ففي الحالتيْن وُجود الحدَث وتحقّقه من عندِ الله [2].

أمّا الآية الثانية ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ فمجالُها مجالٌ آخر غير داخِل ولا متداخِل مع الأوَّل، فالله تعالى سنَّ منهجًا دلَّ فيه على الخيْر وحذَّر من الشرّ فحين يتَّبع الإنسانُ هذا المنهجَ يُعينُه اللهُ ويهديهِ ويظفر الإنسان بالحسَنة - وليست الحسنةُ ما يعدُّه الناسُ في الظاهر كسْبا وإنما هي الحسنة فِعلا في ميزان الله —وتكون هذه الحسنةُ من عند الله لأنه هو الذي سنَّ المنهجَ وأمرَ باتِّباعه، أمّا إذا أعرَض الإنسانُ عن هذا المنهج ولم يحاولْ الخيرَ الذي دلَّه عليه ولم يحْذَر الشرّ الذي حذَّره منه فستصيبهُ السيئةُ - السيئة الحقيقية - سواء في الدنيا وفي الآخِرة أو فيهما معًا ؛ ويكون هذا من عند نفسِه لأنه لم يتَّبع منهجَ الله [3] .

وفي مسألة نِسبةِ مجالِ الإرادة الإنسانية مع مجالِ الإرادة الرّبانية والقدَر الإلهي يتوقفُ سيدٌ أمام سؤال محيِّر وهو قولُه: (إلى أي حدٍّ تعملُ إرادةُ الإنسان فيما يحدُث منه أو يحدُث له؟ وكيف تكونُ له إرادةٌ يقومُ عليها الحسابُ والجزاء، بينما إرادةُ الله هي المُنشِئة لكلّ ما يحدُث، ومنه إرادةُ الإنسان نفسِه

---

1 - سورة النساء، الآيات 78، 79.

2 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 718.

3 - ينظر: المصدر نفسه، مج2، ص 718، 719 .

واتجاهُه وعملُه إلى آخر هذه القضية، فالنصوصُ القرآنيةُ تقولُ: إن كلّ ما يحدُث بإرادة الله وقدَره، وتقول في الوقت ذاتِه: إن الإنسانَ يريدُ ويعملُ ويُحاسَب على إرادتِه وعملِه، والقرآن كلُّه كلامُ الله ولن يعارِض بعضُه بعضًا، فلابدّ إذن أن تكونَ هناك نسبةٌ معينةٌ بين هذا القوْل وذاكَ، ولابدّ أن يكونَ هناك مجالٌ لإرادة الإنسان وعملِه يكفي لحسابِه عليه وجزائِه، دون أن يتعارَض هذا مع مجالِ الإرادة الرّبانية والقدَر الإلهي، كيف؟ هذا ما لا سبيلَ لبيانِه ، لأن العقلَ البشريَّ غير كُفْءٍ لإدراكِ كيفياتِ عمل الله ! [1]،

وهكذا سيرًا على منهجِه الذي اختطَّه لنفسِه لا يخوضُ سيدٌ في الكيفيات التي لا مجالَ للعقل في إدراكِها، فكيفيات فِعل الله غيبٌ كذاتِه وكلّ محاولة لتصوّرها تبوءُ بالفشل ؛ إذ ينشئ العقلُ تصوّراتِه من الحدود المُحيطةِ به ؛ والتي يستخلصُها مما حولَه من أشياءَ والله ُتعالى ليس كمثلِه شيءٌ لا في ذاتِه ولا في أفعالِه.

أمّا جوابُ سيد على السؤال المحيِّر القديم والذي لا يزالُ الناس يُبدِئون ويُعيدونَ فيه، وهو: إذا كان الله قد قدَّرَ عليَّ أفعالي فلماذا يُحاسِبُني؟ فهو جوابٌ سَلِس لا تعقيدَ فيه ولا غُموض ولا لَفَّ ولا دَوَران ولا فلسفةَ تعجزُ عنها الأفهامُ كما نجدُ ذلك كلَّه في كُتب الفلاسفة والمتكلّمين التي تُوغل في التقصِّي في هذه المسألة بالذات حتى يعْتَاصَ إدراكُها على المتخصِّصين بَلْهَ عوامّ الناس وسَوَادِهم.

وقبلَ أن يجيبَ سيدٌ على السؤال يصفُه بالسؤال الخادِع في صورتِه هذه، أمّا ما يقرّرُه القرآنُ فواضحٌ صريحٌ في أن اللهَ تعالى خلَقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويم وَوَهبَه الاستعدادَ للترجيح والاختيار وابتلاهُ بالخير والشرّ وأنه تعالى يُعينُ مَن يُجاهدُ لرِضاهُ، وساقَ سيد جملةً من الآيات في الموضوع أورِدْناها آنِفا، ثم ركَّز على المهمَّة الأساسية للمسلِم وهي أداءُ التكاليف واجتناب النواهي والاشتغال بها؛ والكفّ عن البحث في شيء وراءَهما من أمر الغيب المَحجُوب عن إدراكِه المَحدود، فأمرُ الغيب والقدَر أمورٌ لم يكلِّف اللهُ المسلمَ بالبحثِ فيها ولم يأمرْهُ بشيءٍ يتعلقُ بها غير الاعتقاد بقدَر الله خيرِه

1 - المصدر السابق ، مج2، ص 719 – هامش الصفحة -.

وشرِّه [1].

أمّا الذين أثارُوا هذه القضايا الخطيرة – القضاء والقدَر والجبْر والاختيار وإرادة العبد وكسْبه وجعلوا منها مباحثَ لاهوتيةً وأخضعُوها لما تتصوّره عقولُهم من فُروض وتقديرات فيعدُّهم سيد مُجانِبين لمنهج القرآن الواقعي التقريري البسيط الذي يقرِّرُ أن كلَّ شيء إنما يكونُ بقدَر الله، وأن اتجاه الإنسان على هذا النحْو أو ذاك داخلٌ في حُدود فطرتِه التي خلقَه اللهُ عليها، والنتائج التي يُنشئُها يجري بها قدَرُ الله أيضا؛ فالأمرُ كلُّه راجعٌ إلى قدَر الله ولكنْ على النحْو الذي يُرتِّب على إرادةِ الإنسان المَوْهوبة له ما يُوقعُه قدَر الله به، وما عَدَا هذا فهو جدلٌ لا ينتهي إلّا إلى مِرَاء [2].

وأخيرًا يلخص سيدٌ نظرتَه لهذه القضية بقولِه: (ومِن مُراجعة مجموعة النصُوص التي تذكُر الهُدى والضلال والتنسيق بين مدلولاتِها جميعا يخلُص لنا طريقٌ واحدٌ بعيدٌ عن ذلك الجدَل الذي أثارَه المتكلمونَ من الفِرَق الإسلامية والذي أثارَه اللاهوتُ المسيحي والفلسفاتُ المتعدّدة حولَ القضاء والقدَر عموما.

إن مشيئةَ الله سبحانه التي يَجري بها قدَرُه في الكائن الإنساني، هي أن يخلُقَ هذا الكائن باستعداد مزدوج للهُدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرتِه إدراكَ حقيقة الرّبوبية الواحِدة والاتجاه إليها ؛ ومع إعطائِه العقلَ المميِّز للهُدى والضلال، ومع إرسال الرسُل بالبيِّنات لإيقاظ الفِطرة إذا تعطَّلت وهداية العقل إذا ضلّ، ولكن يبقى بعد ذلك كلِّه ذلك الاستعدادُ المزدوجُ للهُدى والضلال الذي خُلقَ الإنسانُ به وفقَ مشيئةِ الله التي جرى بها قدَرُه) [3] وهذا التقريرُ في غاية الدِّقة والوُضوح بناهُ سيدٌ في هذه الخُلاصة على أربع ركائزَ أساسيةٍ تهدِي الحائرَ لفهْم هذه القضية العويصة وهي:

1 – فطرة الإنسان أوْدَعها اللهُ تعالى إدراكَ حقيقة الرّبوبية الواحِدة والاتجاه إليها.

2 – زوَّد هذا الإنسانَ باستعدادٍ مزدوج للهُدى والضلال؛ أيْ له حريةُ الاختيار.

---

1 - ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص 152، 153 بتصرف.

2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1066.

3- المصدر السابق، مج3، ص 1400.

3 – أعطاهُ اللهُ تعالى العقلَ المميِّز للهُدى والضلال، وهو مَناطُ التكليف.

4 – أرسلَ له الرسُل بالبيِّنات لإيقاظِ الفطرة إذا تعطَّلت وهداية العقل إذا ضلَّ.

وهو تلخيصٌ تُدَنْدِنُ حولَه كلُّ المدارِس والمذاهِب الكلامية والفلسفية جمَعَهُ سيدٌ في نقاط هادِية بسيطة؛ وله مواضعُ كثيرةٌ في الظلال [1] شرحَ فيها هذه القضيةَ أمَّا هذا الموضِع فهو عُصارة البحث.

1- ينظر: المصدر السابق: مج2، ص 717، 718، 1065، 1082 ومج3، ص 1168، 1187، 1204، 1270، 1400 ومج4، ص 2414، 2525 ومج6، ص 3759.

المبحث الثاني: النُّبُوَّات:

المطلب الأول: ظاهِرَة الوَحْي:

لغةً: الوحيُ هو الإعلام في خفاء أو بإشارة سريعة أو بكلام على سبيل الرَّمْز والتعريض [1]، يقال: وَحَيْتُ إليه وأوْحَيْتُ إذا كلَّمتَهُ بما تُخْفيهِ عن غيرِه، والوحيُ مصدرٌ من ذلك ، والمكتوبُ والرسالةُ وكل ما ألقيتَه إلى غيرِك ليعلَمَه، ثم غلب فيما يُلْقَى إلى الأنبياءِ من قِبَلِ الله [2].

شرْعًا: هو إعلامُ الله تعالى لنبيٍّ من أنبيائِه بحُكم شرْعي أو من كلماتِه الصادِقة في أخبارِها، العادِلة في أحكامِها، بطريقةٍ من طُرُق الوحْي [3]، وطُرُق الوحي ثلاثةٌ كما عبَّرت عنها الآيةُ الكريمةُ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [4].

ويعرّفُه الشيخُ محمد عبده بقولِه: (أمّا نحنُ فنعرّفُه على شرْطِنا بأنه عِرفانٌ يجدُه الشخصُ من نفسِه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطةٍ أو بغيرِ واسطة، والأوَّل بصوت يتمثَّل لسمعِه أو بغيرِ صوت، ويفرّق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهامَ وِجدانٌ تستيقِنُهُ النفسُ وتنساقُ إلى ما يَطلبُ على غير شُعور منها من أينَ أتَى، وهو أشبهُ بوِجدان الجُوع والعَطش والحُزن والسُّرور) [5]، فالوحيُ يتلقاهُ النبيُّ بيقين كامِل واثقًا بأن المعرفةَ المُوحَى بها إليه غير شخصية وطارئة وخارِجة عن ذاتِه [6]، وهي ظاهرةٌ متماثلةٌ عند جميع الأنبياء لأن مصدَرَها واحدٌ وغايتَها واحدةٌ كما عبَّرت الآيةُ الكريمة: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ

1- ينظر: محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مُهمَّات التعاريف، تحقيق: د.محمد رضوان الداية، (ط 1، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1990م) ص 72.

2- ينظر: محمد عبده، رسالة التوحيد، ص 100.

3- ينظر: محمد بن أحمد السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسْرار الأثرية، (ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1985م)، ج2، ص 266، 267.

4- سورة الشورى، الآية 51.

5- محمد عبده، رسالة التوحيد، ص 100.

6- ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 140.

إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]، فهو الأساسُ الذي تقومُ عليه النبوّةُ والرّسالةُ وهو مصدرُ الأحكام والشرائع والعقيدةِ وأخبارِ الغيب ؛ فالنبيُّ يتلقَّى عن ربِّه ويبلِّغُ ما تلقَّاه كامِلا بأمانةٍ.

وقد أبدأَ المستشرقونَ وأعادُوا في الخلْط بين ظاهِرة الوحي وبين الإلْهام وحديث النفْس بل وحتى الصَّرْع ليُلَبِّسوا على الحقيقة التي هي مصدَرُ إيمان المسلمين ومَنبع عقيدتِهم وشريعتِهم وأخلاقِهم وآدابِهم ولكن أنَّى لهم بلوغُ غايتِهم في ذلك وكلّ ما حَشَدُوه من أدلّة لا يعْدُو فروضًا وتخمينات سبقَهُم في ذلك مُشرِكُو قريش حين صوَّر اللهُ تعالى حيْرتَهم واضطرابَهم وتبَلْبُلَهم بقولِه: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ ﴾[2] وفي تَوالي حرْفِ الإضْرَاب (بَلْ) ثلاث مرّات تهكُّم لاذِع باضطرابِهم ألَا ساءَ ما يحكُمون [3].

فظاهرةُ الوحي أجلُّ مما يصِفونَ فلو كانت صناعةً وتكلُّفًا لكانت طوْع يمينِه فكان لا يشاءُ يوما أن يأتِيَ بقُرآن جديد إلَّا جاءَ به مِن هذا الطريق الذي اعتادَه في تحضيرِه، وهو ﷺ كثيرًا ما يلتمسُه في أوقات الحاجَة إليه فلا يظفَرُ به إلا حينَ يشاءُ اللهُ كما حصلَ في حادِثة الإفْك ! ثم إنَّها تَعرُوهُ قائِما أو قاعِدا وسائِرا أو راكبا وبُكرة أو عشِيا وفي أثناءِ حديثِه مع أصحابِه أو أعدائِه، وكانت تَعرُوه فجأَةً وتزولُ عنه فجأَةً، وكان أصحابُه يسمعونَ عند وجهِه أصواتًا مختلطةً تشبهُ دويَّ النَّحْل، فهي إذن قوةٌ خارجيةٌ عالِمَةٌ قويةٌ خيِّرةٌ معصومةٌ لا تُوحي إلا بالحقّ فماذا عساها تكونُ إن لم تكنْ قوةَ مَلَك كريم؟ [4].

أمّا سيدٌ فيقف أمامَ ظاهرةِ الوحي مَشدوهًا ويستوقفُ القرَّاءَ معهُ في تحليلِه لها، ففي تفسيرِه

1- سورة النساء، الآيات: 163، 164.

2- سورة الأنبياء، الآية 21.

3- ينظر: صبحي الصالح، مَباحِث في علوم القرآن، ص38.

4- ينظر: عبد الله درَّاز، النبأُ العظيمُ، ص 71 - 73 بتصرّف.

لقولِه تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [1]، يستشهدُ بأحاديثَ نبويةٍ كثيرة لا مجالَ لعرْضِها هنا وبكلامٍ لابنِ قيِّم الجوزية [2] ثم يعرِضُ موقفَه الشخصي أمامَ هذه الظاهِرة العجيبة ويتساءلُ في دهْشة ويذكرُ أنه ما مِن مرّة وقفَ أمام آيةٍ أو حديثٍ يذكرُ الوحيَ إلا وأحسَّ بعدَ التأمُّل برجْفة في أوْصالِه متسائلًا: كيف يكونُ هذا الاتصال بين الذاتِ الأزليّة التي ليسَ لها حيِّزٌ في المكان ولا حيِّزٌ في الزمان المُحيطةِ بكلِّ شيء، كيف يكونُ الاتصالُ بينها وبين هذا الإنسان المتحيِّز في المكان والزمان المَحدود بحُدود المخلوقات من أبْناء الفَنَاء !! ثم كيف يتمثَّل هذا الاتصالُ معانيَ وكلماتٍ وعبارات؟ وكيف تُطيقُ ذاتُ هذا الإنسان المَحدود الفاني تلقِّيَ كلام الله الأزَلي الأبدي؟ وكيف؟ وكيف؟

أسئلةٌ كثيرةٌ يُلْقيها سيدٌ ثم يسجِّل أن أمرَ هذه النبوّة عظيمٌ حقًّا ؛ ولحظة التلقِّي للوحْي عظيمةٌ حقًّا، وهنا يستوقِف القارئَ بقولِه: (أخِي الذي تقرأُ هذه الكلمات، أأنتَ معي في هذا التصوُّر !! أأنتَ معي تُحاولُ أن تتصوَّرَ !! هذا الوحيُ الصادِرُ من هناكَ. أأقول: هناك ؟! كلَّا. إنهُ ليسَ هناكَ "هناك"! الصادِر مِن غير زمان ولا مكان، ولا حيِّز ولا حدٍّ ولا جِهة ولا ظرف.

الصادِر من المُطلق اللانهائي الأزَلي الأبدي، الصادِر من الله ذي الجلال إلى إنسانٍ مهْما يكُن نبيًّا رسُولا، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود، هذا الوحي، هذا الاتصال العجيب المُعجِز، الذي لا يَملكُ إلا اللهُ أن يجعلَه واقعةً تتحقَّقُ، ولا يعرِفُ إلا اللهُ كيف يقعُ ويتحقق، أخِي الذي تقرأُ هذه الكلمات هل تُحسُّ ما أُحِسُّ من وراء هذه العبارات المتقطِّعة التي أحاولُ أن أنقُـلَ بها ما يُخالِـجُ كياني كلَّه) [3].

فسيدٌ في دراستِه للقرآنِ الكريم لا يكتفي بالقراءةِ التفسيريةِ السطحيةِ ولا بالاستشهاداتِ النقليةِ - وإنْ كان يذكُر الكثيرَ منها - بل له وقفاتٍ تأمليةً خاصةً يُشرِكُ معهُ فيها القارئَ مستصحِبًا جوَّ النصّ

1- سورة الشورى، الآية 51.
2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 3169- 3171.
3- المصدر نفسه ، مج5، ص 3170.

القرآني وحركته وحياته فيبعث بكل ذلك رُوح التأمُّل والتفكُّر والأَنَاة في قارئِه كما عاشَها هو بروحِه وكيانِه كلِّه، وله من هذا القَبيل وقفاتٍ كثيرةً مماثِلة في تفسيره [1]، وفي سورة الشورى بالذات أبرزَ الوحدة الموضوعيةَ التي للسورة كلّها وهو الحديث عن الوحي إذ بدأتْ به وختمتْ به وكان محورَها الرئيسي إذ عالجتْ قصةَ الوحي منذ النبوّات الأُولى لتقرّرَ وحدة الدِّين ووحدة المَنهج ووحدة الطريق ولتُعلنَ القيادةَ الجديدةَ للبشرية ممَّثَّلَةً في رسالةِ محمَّد ﷺ وفي العُصبة المؤمِنة بهذه الرسالة [2].

وفي موضع آخرَ ينكرُ سيدٌ على أولئك المفسِّرين المُحدَثين الذين يحاولونَ إثباتَ الوحي عن طريق العِلم للتقريبِ؛ لأن إعْمال العقل وتوظيفَ العلوم التي توصَّلَ إليها هذا العقلُ الإنساني المَحدود لا يُوصِل إلى شيء لأنه ميدانٌ غير ميدانِه، فالإنسانُ له طاقات مجهولة لا يعلمُها إلا الله، واللهُ أعلم حيث يجعلُ رسالتَه؛ فهو وحدَه القادرُ على أن يطوِّعَ لإنسانٍ هذا الاتصالَ الخاصَّ بكيفيةٍ لا يدركُها إلا من ذاقَها وأُوتيَها، أمّا البحثُ وراء هذه الظاهِرة بالوسائل العِلمية فلا يُجدي نفعا، فالعلمُ لم يدَّع أنه يعرفُ شيئًا حقيقيا عن الرُّوح فهي ليست داخلةً في نطاق عملِه ؛ لأنها ليست شيئًا قابِلا للاختبار المادِّي الذي يملكُ العلمُ وسائلَه، أمّا المصدرُ المأمونُ الذي نستقي منه ما وردَ عن هذه الظاهرةِ فهو القرآنُ والحديثُ وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادةٍ ولا تصرُّف ولا قياس، إذ إن الزيادةَ والتصرُّفَ والقياسَ عمليات عقليةٌ والعقلُ هنا في غير ميدانِه وليس معه أدواتُه [3].

وبعدُ؛ أليس موقفُ سيدٍ هذا موقف السلف أمَامَ النصوص !! فهو لا يأخذُ إلا بما وردَ في قرآن أو حديث في هذه الأمور التي تضطربُ فيها الآراءُ وتَحارُ العقولُ ، ويَنعَى على أولئكَ المفسِّرينَ المُحدَثين الذين يلهثونَ وراء النظرياتِ والفُروض العِلمية ويُخضِعون مثل هذه الآيات لها، فإذا ظهرَ فيها بعدُ خطؤُها تململُوا واضطرَبُوا وأعْوَزَهم الجوابُ.

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 1، ص 11- 18 من المقدمة، 223، ومج2، ص 758، 1105- 1107، 1016، 1017، ومج3، ص 1484، ومج4، ص 1864، 2038، 2121، 2122، ومج5، ص 2924، ومج6، ص 3325، 3326، 3333، 3351، 3353، 3419، 3421، 3553، 3554.

2- ينظر: المصدر نفسه، مج5، ص 3172.

3- ينظر: المصدر نفسه ، مج3، ص 1760 بتصرف.

ويعُدُّ سيدٌ الوحيَ هِبةً من الله للإنسانِ ورحمةً منهُ له، تلقَّاه الرسُل جميعُهم تلَقِّيا ليهتدُوا به ويَهدُوا، وحتى هذه الهداية عطِيَّة من الله كذلك يشرَح لها الصدور، أمّا وظيفةُ الرسُل فهي مجرّد النقْل الدّقيق والتبليغ الأَمين [1]﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) ﴾[2]، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[3].

ويرسُم سيدٌ في موضع آخرَ ضخامةَ هذا الحادِث الجَلَل، حادِث الاتصال بين الله جلّ جلاله العظيم الجبَّار القهَّار المتكبِّر وبين الإنسان المخلوق القابع في رُكن من أركان الكون لا يكادُ يُرى اسمُه الأرض، أيُّ تكريم هذا حينَ جعلَه م تلقِّيَ نورِه الإلهي ومستودَع حِكمته ومَهبِط كلماتِه وممثِّل قدَره الذي يريدُه ـ سبحانه ـ بهذه الخليقة، فدلالة هذا الحادِث العظيم والعظيم جدًّا أنه تعالى ذو الفضل الواسِع والرحمة السابِغة الكريم الوَدُود المنَّان، يُفيضُ من عطائِه ورحمتِه بلا سبب ولا عِلّة، سوى أن الفيضَ والعطاءَ بعضُ صفاتِه الذاتية الكريمة.

أمّا فترةُ الثلاثةِ والعشرين عامًا التي استمرَّت فيها هذه الصِّلةُ بين الله تعالى ونبيِّه فلا يتصوّر حقيقتَها إلا الذين عاشوها وذاقوا حلاوتَها وأحسُّوا يَدَ الله تنقُل خُطاهُم في الطريق ورأوْا من أين بدَأُوا وإلى أين انتهَوْا وعايَنُوا الفرْقَ بين التلقِّي من الأرض والتلقِّي من السماء، بين الاستمداد من الهَوَى والاستمداد من الوحْي، بين الجاهِلية والإسلام، بين البشرية والرَّبانية، وهو أبعد ممّا بين الأرض والسماء في عالَم الأجْرَام[4].

فانظُر كيفَ تعامَلَ سيدٌ مع هذه الظاهِرة الضخمة، ظاهرة الوحي وكيف استخلَصَ الدلائلَ والإيحاءاتِ وكيف عاشَ النصَّ القرآني بمشاعرِه وكيانِه كلِّه وليس بعقلِه وذهنِه فحسْب، وانظُر كيف

1- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص52.

2- سورة الحاقَّة، الآيات: 44- 47.

3- سورة المائدة، الآية 67.

4- ينظر: المصدر نفسه ، مج6، ص 3936، 3937.

يركِّز دائما على تخليص الفِطرة من الرُّكام الذي رَانَ عليها بحُكم الإلْف وتبلُّد المشاعِر عند قارئِ القرآن ؛ فلا يستحضرُ وهو يقرأُ مثل هذه الآيات التي تتحدَّثُ عن الوحي هذه النِّعمةَ الكبرى، نعمةَ تكريم هذا الإنسان واصطفاء أنبياءَ من جنسِه وإعطائِه تلك القيمةَ الكبرى من دُون جميع المخلوقات ويتصلَ بالسماء وبالملأ الأعْلى وبالملائكة ، بلْ وبالله تعالى مباشرةً دون استحقاق سابِق وإنما مِنَّةً مِنْهُ سبحانَه وتفضُّلا.

فقارئُ تفسيرِ الظلال تتخلَّص أجهزةُ استقبالِه من الرَّيْنِ الذي غشَّاها وعطَّل وظائفَها ، وتتفتَّح منافذُ فطرتِه لتلقِّي هذه المُوحِيات المؤثِّرة وتستجيب لها، نَعَمْ ؛ إن منَ البيان لسِحْرا وإن في النفوس لَنفوسا صافيةً تتلقَّى ما لا تتلقَّاه الأُخرى ونحسَبُ سيدًا ـ ولا نُزكِّي على الله أحَدًا ـ من الذينَ أُوتوا النصيبَ الوافِر من هذا الصَّفاء.

المطلب الثاني: الأنبياءُ:

النبيُّ في اللغة: من النَّبَاوة والنَّبْوة وهي الارتفاع عن الأرض، أو هو من نَبَأَ وأَنبَأَ بمعنى أخبَرَ كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [1] وهي معاني تجتمعُ في المقام الرفيع للنبيّ والإِخْبار عن الله تعالى [2].

والرسولُ في اللغة : من الإِرْسَال وهو البعْثُ والتوْجِيه، يقال: أرْسَلْتُ فلانًا في رِسَالةٍ: أي بعثْتُهُ فهو مُرْسَلٌ ورَسُولٌ، وسُمِّي الرسُلُ بذلكَ لأنهم مَبعوثونَ من الله تعالى لتبليغ وَحْيِه لخلْقِه [3].

والفرْقُ بينهما اصطلاحًا : أن النبيَّ هو مَن أُوحِيَ إليه بشَرْع ولم يُؤمَرْ بتبليغِه والرسُول هو مَن أُوحيَ إليه بشَرْع وأُمِرَ بتبليغِه [4]، فالرسولُ أخصُّ من النبيِّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولًا، ولكن الرسالةَ أعمُّ من جهةِ نفسِها، فالنبوَّةُ جزءٌ من الرسالةِ، إذ الرسالةُ تتناولُ النبوَّةَ وغيرَها، بخلاف الرسُل، فإنهم لا يتناولونَ الأنبياءَ وغيرَهم، بل الأمرُ بالعكس. فالرسالةُ أعمُّ من جهة نفسِها، وأخصُّ من جهة أهلِها [5].

وقد اصطفى اللهُ تعالى للنبوَّة والرسالَة أكملَ خلقِه نفْسًا وطبيعةً وفِطرةً وأخلاقًا وبعثَهم إلى خلْقِه وأنزلَ لهم الكتُب وبيَّن الثوابَ والعقابَ وأيَّدَهم بالمعجِزات الدالَّة على صِدْقهم، وأوْجبَ على لسانِهم معرفةَ التوحيد والشريعة، وكلّ ما قالُوه فهو صدْقٌ وكلّ ما فعلوه فهو حقٌّ، والعلمُ الدالُّ على وصفِهم ذلك قيامُ المعجزات الظاهِرة الدالَّة على صدْقِهم وصحَّة قولِهم [6]، أرسلَهم اللهُ تعالى مُرشِدين للعقل إلى معرفةِ الله وما يجبُ أن يُعرَف من صفاتِه ويبينونَ الحدَّ الذي يجبُ أن يقفَ عنده في طلب ذلك العِرفان، يجمعونَ كلمةَ الخَلْق على إله واحِد لا فرقة معه، يذكِّرونهم بعظمتِه بفرْض ضُروب من

1- سورة النبأ، الآيات: 1، 2.

2- ينظر: لسان العرب، مادة (نبأ)، ج15، ص 162، 163 وينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (نبو)، ج5، ص 384، 385.

3- ينظر: لسان العرب، مادة (رسل)، ج11، ص 283، 284 وينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 195.

4- ينظر: لوامع الأنوار البهية، ج1، ص 49.

5- ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص 101.

6- ينظر: الإسفراييني، التبصير في الدين، ص 398.

العبادات فيما اختلف من الأوقات، تذكِرَةً لمن ينسى وتزكيةً مستمرَّةً لمن يَخشى، يُبينونَ للناس ما اختلفت عليه عقولُهم وشهواتُهم وتنازعتْه مصالِحُهم ولذَّاتُهم فيفْصِلون في تلك المُخاصَمات بأمْر الله الصادِع، يضعونَ لهُم بأمْر الله حُدودًا عامَّةً يسهُل عليهم أن يرُدُّوا إليها أعمالَهم، يحْمِلونهم على تحويل أهوائِهم عن اللذائذِ الفانِية إلى طلب الرغائِب السامِية ، بالترغيبِ والترهيبِ والإنذارِ والتبشيرِ حسبما أمَرَهم اللهُ عز وجل، يُحيطونَ بيانَهم بنبأ الدارِ الآخِرة وما أعدَّ اللهُ فيها للمتَّقين وللعاصِين، يعلِّمونَهم من أنباء الغيبِ ما أَذِنَ اللهُ لعبادِه في العلم به، كلّ هذا وغيره لتطمئنَّ النفوسُ وتثلجَ الصدورُ وبه ينحلُّ أعظمُ مشكل في الاجتماع الإنساني لا يزالُ العُقلاءُ يُجهِدون أنفُسَهم في حلِّه إلى اليوم [1].

والإيمانُ بهم وبجميع ما أُنزلَ عليهم رُكنٌ من أركان العقيدةِ الإسلامية لقولِه تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾[2] وقوله تعالى آمِرًا نبيَّه ﷺ وآمِرًا لنا معه: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ ﴾[3].

أمّا عِدَّتُهم فقد ذكرَ القرآنُ أسماءَ خمسةٍ وعشرينَ منهم وهُم: آدمُ، إدريس، نوح، هود، صالِح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحق، يعقوب، يوسُف، شُعَيْب، أيُّوب، ذُوالكِفْل، موسى، هارون، سليمان، داوُود، إلياس، إلْيَسَع، يونُس، زكريا، يَحيى، عِيسى، محمَّد عليهِ وعليهِم الصلاةُ والسلامُ.

وهناك أنبياءُ لم يذكُرْهم القرآنُ بأسمائِهم واكتفَى بالإشارةِ إليهم بقولِه تعالى: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ ﴾[4] وقولِه

1- ينظر: محمد عبده، رسالة التوحيد، ص 108- 110 بتصرف.

2- سورة البقرة، الآية 285.

3- سورة آل عمران، الآية 84.

4- سورة النساء، الآية 164.

تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1]، وقد حدَّدَ بعضُ العلماء عِدَّتهم بمائةٍ وأربعةٍ وعشرينَ ألفَ نبيٍّ، منهم مائةٌ وثلاثةَ عشَرَ رسولا [2]، وأجْمعت الأمةُ على أن الرسُل أفضل من الأنبياء، وعلى أن أفضلَ المُرسَلين أُولُوا العزْم من الرسُل الذين جمعتْهم الآيةُ الكريمة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [3]، واختصَّ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ عن غيره من الأنبياء والرسُل بخصائصَ جمَّةٍ ومراتبَ عاليةٍ ومكارِمَ عِدَّةٍ نالَ بذلك التفضيلَ المطلَقَ على العالَمين من الجِنَّة والناس أجمعين بل والملائكةِ المُقرَّبين [4] إذ وردَ من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قوله ﷺ: (فُضِّلتُ على الأنبياءِ بسِتٍّ، أُعطيتُ جوامِعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُحِلَّت لِيَ الغَنَائِم، وجُعِلَت لِيَ الأرضُ طَهُورًا ومَسجِدا، وأُرسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وخُتِمَ بِيَ النبيُّون) [5].

نعودُ إلى سيد وكيف عرَض مبحثَ الأنبياء والرسُل ومهمَّتهم في التبليغ والهِداية والبَيان، فهو - رحمه الله - يرى أن إرسالَ الرسُل مبشِّرين ومنذِرين ضرورةٌ للإنسان ورحمةٌ وفضلٌ من الله تعالى لأن العقلَ البشريَّ الذي وَهبهُ اللهُ تعالى للإنسان قاصِرٌ بذاتِه عن الوُصول إلى الهُدى بغير توجيهٍ وإعانَة وضبطٍ من الرسالات التي جاء بها الرسُل.

ولو علِمَ اللهُ تعالى – وهو أعْلَم بالإنسانِ وطاقاتِه كلِّها – أن العقلَ البشريَّ حسب هذا الإنسان في بلوغ الهُدى والمصلحة في دنياهُ وأُخراه لوَكَلَه إليهِ وحدَه ليرسُم المنهجَ الذي تقومُ عليه حياتُه ولَمَا أرسلَ إليه الرسُل تَتْرَى على مدى التاريخ، ولما جعلَ حُجَّتَه على عبادِه هي رسالة الرسُل إليهم، فلما علِم سبحانَه وتعالى ذلك شاءتْ حِكمتُه ورحمتُه أن يبعثَ للناس بالرسُل وألّا يؤاخذَهم إلا بعدَ الرسالة والتبليغ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [6]، أمّا دَورُ العقلِ فهو التلقِّي عن الرسالة وفهْم ما

1- سورة فاطر، الآية 24.

2- ينظر: محمود شكري الآلوسي، روح المعاني، (ط4، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1405هـ)، ج17، ص 156.

3- سورة الأحزاب، الآية 7.

4- ينظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ج2، ص 294، 295.

5- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب "المساجد"، ج1، ص 371، والترمذي في سُنَنِه، كتاب "السير"، باب 5، رقم 1553، ج4، ص 123، وأحمد في مُسندِه، ج2، ص 411، 412.

6- سورة الإسراء، الآية 15.

يتلقَّاه عن الرسول [1].

أمّا بشرية الرسول فهي حِكمة إلهيةٌ وتكريمٌ لهذا الإنسان أنْ بعثَ إليه برسُل من بني جنسِه يحسّ إحساسَهم ويتذوَّق مَوَاجِدَهم ويُعاني تجاربَهم ويُدرك آلامَهم و آمالَهم ويعرف نوازِعَهم وأشواقَهم ويعلم ضروراتِهم وأثقالَهم؛ ومن ثم يعطف على ضعفِهم ونقصِهم، وهم من جانبِهم يجدُون فيه القُدوةَ الممكنةَ التقليدِ لأنهُ بشَرٌ منهم، فيكون هو بشخصِه ترجمةً حيَّةً للعقيدةِ التي يحمِلُها إليهم، وتكون حركاتُه وأعمالُه وحياتُه كلُّها صفحةً مَعروضَةً لهم ينقلُونَها سطرًا سطرًا ويحقِّقونَها معنىً معنىً وهم يروْنَها بينَهم فتهْفُو نفوسُهم إلى تقليدِها لأنها ممثلةٌ في إنسان، ولو كان ملَكًا لما فكَّروا في عملِه ولا حاولوا أن يقلِّدوه لأنهم منذُ البدء يشعُرون أن طبيعتَه غير طبيعتِهم [2].

لقد كان الرسُل من البشَر ليكون سلوكُهم العملي نموذَجا حيًّا لما يدْعونَ إليه الناس، فالكلمةُ الحيَّةُ الواقعيةُ هي التي تؤثِّر وتَهدي، ولو كانوا من غيرِ البشَر لا يأكلون الطعامَ ولا يمشونَ في الأسواق ولا تعتلجُ في صدورِهم عواطفُ البشَر وانفعالاتُهم لما كانت هناك وشيجةٌ بينهم وبينَ الناس [3].

ويشبِّه سيدٌ أولئك الذين اقترَحوا أن يكونَ الرسولُ من الملائكة بهؤلاء الذين يقترِحونَ اليومَ أن يكونَ الرسول منزَّهًا عن انفعالات البشَر ويصفُهم كِليْهما بالمتعنِّتِين الغافِلين عن الحقيقة، لأن الملائكةَ لا يحيَوْن حياةَ البشَر بحُكم تكوينِهم ولا يمكنُ أن يحيَوْها، أمّا الرسول البشَري فيكونُ نموذَجا حيًّا أمامَ الناس يقْتدونَ به ودُستورا عمليًّا لهم، وفوق ذلك كلِّه غفلَ أولئك عن قضيةٍ أساسية في المس ألةِ وهي تكريمُ الله سبحانه وتعالى للجِنس البشَري كلِّه باختيار الرسُل منه ليتَّصلوا بالملإ الأعْلى ويتلقَّوْا منه [4].

وفي خلال شرْحِه - رحمه الله - لهذه القضية يربطُها بما يجبُ أن يكونَ عليه الداعيةُ تأسِّيًا بهذه الكوْكبة من الأنبياء البشَر عليهم الصلاةُ والسلامُ، وهي عادتُه دائما في الاستطراد لأدْنى مُناسبة لبيان

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 806. بتصرّف.

2- ينظر: المصدر نفسه، مج5، ص 2552،2553.

3- ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2368، 2369. بتصرّف.

4- ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2369.

الآثار العملية للنصوص القرآنية والإيحاءات الاعتقادية والدلالات الحَرَكية التي تتضمَّنها، مُبتعِدا دائما عن البحوث التفصيلية التي يفيض فيها بعض المفسِّرين على حساب هذه الدلالات العملية للنصوص ، وذلك حسب سيد ليس من الطابع الجِدِّي لهذه العقيدة وإنما هي بحوثٌ معرِفية صِرْفة اختصّ بها علمُ الكلام في العصور المتأخِّرة عندما فرغَ الناسُ من الاهتمامات الايجابية لهذا الدِّين [1].

فمهمَّة الرسول عند سيد هي الإنذارُ والتبشيرُ وهنا تنتهي وظيفتُه وتبدأُ استجابةُ البشَر، ويمضي قدَر الله ومشيئتُه من خلال هذه الاستجابة ، وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وِفق هذه الاستجابة، فهو تصوّر واضحٌ بسيطٌ لا تعقيدَ فيه ولا غموض، تصوُّر يُفرِد اللهَ سبحانه بالألوهية وخصائصِها ويردُّ إلى مشيئة الله وقدَره الأمرَ كلَّه، ويجعل للإنسان حُرِّية اتجاهه وتبِعةَ هذا الاتجاه، وبهذا ينت في كل ما علق بصورة النبوّة وصورة النبيّ من أوْهام وأضاليل، فالرسول بشَر (لا يملكُ خزائنَ الله ولا يعلمُ الغيب ولا يقول لهم: إني مَلَك، وهو لا يتلقّى إلا من ربِّه، ولا يتَّبعُ إلا ما يُوحَى إليه منه.

والذين يقبلون دعوتَه هم أكرمُ البشَر عند الله وعليه أن يلزمهم ويهشّ لهم، وأن يُبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسِه من الرحمة والمغفِرة.كما أن عليه إنذارَ الذين تتحرّك ضمائرُهم من خشية الآخِرة لِيصِلوا إلى مرتبة التقوى، وفي هذا وذلك تنحصرُ وظيفتُه، كما أنه في "البشرية" و "تلقِّي الوحي " تنحصرُ حقيقتُه، فصح في التصوّرات حقيقتُه ووظيفتُه جميعًا) [2]، وهكذا يَفصِل سيد بين الحقيقةِ والوظيفةِ عند الأنبياء، فوظيفتُهم هي الإنذارُ والتبشيرُ ثم مَن شاء فليؤمِن ومن شاء فليكْفُر وليسوا بمسيطِرينَ على قلوب البشَر.

وحقيقتُهم أيضا هي البشرية بكلّ ما تحملُه من معاني وتلقِّي الوحي الذي يربطُهم بالسماء والملأ الأعلى وبه فُضِّلوا على البشَر، وهذا التصوُّر يصحِّح تلك التصوّرات الجاهلية التي خلَطت النبوَّة بالسِّحر والكَهانة والأساطير والخرافات التي ما أنزل اللهُ بها مِن سُلطان.

1- ينظر: المصدر السابق، مج3، ص 1486.

2- المصدر نفسُه، مج2، ص 1095.

*مناقشةُ ما قيل عن سيد بشأنِ المُعجِزات:

تحدَّثْنا بإ فاضةٍ عن موقف سيد ورأيِه في المُعجزات فيما سبق "الفصل الثاني، المبحث الثالث، المطلب الأول: تحت عنوان: مُعجزاتُ الأنبياء " في تدليلِه على العقيدة وأصولِها وبيان قُدرة الله المُطلقة من التقيُّد بالقوانين والنواميس التي نحسبُها بحسابِنا البشري مطَّرِدةً لازِمةً لازِبةً، وأوْرَدنا نُقُولا كثيرةً عنه لا تحتمِل التأويلَ، ولكنْ للأسف هناك من يُوجِّه التُّهَم جُزافا له – رحمه الله – بأنه يُقلِّل من شرأن المعجزات ويرى أن معجزةَ الرسول الوحيدة هي القرآنُ فقط [1]، فأرج أْنا الردَّ إلى هذا الفصل الذي يُعنى بعرْضه لمباحث العقيدة و أمسكْنا عن الكلام في الفصل السابق الذي خصَّصناه لأدلة العقيدة، فهذه القضية بالمباحث العَقَدية ألْصق.

يبدأُ المدخلي بإصدار حُكمه على سيد بأنه يقلِّل من شأن المعجزات ويرى أن معجزةَ القرآن الوحيدة هي القرآنُ الكريم فقط، ويسوقُ كلامًا لسيد يقولُ فيه: (على أننا لا نرى محلًّا لذلك الجدَل [ينقله ربيع (الجِد ال) كذا !] الطويل الذي ثارَ قديما والذي [يحذف ربيع كلمة (والذي) كذا !] يثورُ حديثا حول طبيعة هذه الواقِعة المؤكدة في حياة الرسول [ينقلها ربيع (رسول الله) كذا !] ﷺ، والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم، وبين أن تكون رؤيا [ينقلها ربيع (رؤية) كذا !] في المنام أو رؤية في اليقظة.. المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تُغيِّر من طبيعةِ هذه الواقِعة شيئا، وكونها كشْفا وتجْليةً للرسول ﷺ عن أمكِنة بعيدة في لحظة خاطِفة قصيرة.

والذين يدركونَ شيئا من طبيعة القُدرة الإلهية ومن طبيعة النبوَّة لا يستغربونَ من الواقِعة شيئا. فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميعُ الأعمال التي تبدو في نظَر الإنسان وبالقياس إلى قدرتِه وإلى تصوُّرِه متفاوتةَ السهولة والصعوبة حسب ما اعتادَه وما رآهُ. والمعتادُ المَرئيُّ في عالَم البشَر ليس هو الحَكَم في تقدير الأمور بالقياس إلى قُدرة الله، أمّا طبيعةُ النبوَّة فهي اتصالٌ بالملأ الأعلى – على غيرِ قياس أو عادَة لبقية البشَر – وهذه التجْلية لمكان بعيد والوصول إليه بوسيلة مَعلومة أو مَجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقِّي عنه. وقد صدقَ أبو بكر – رضي الله عنه – وهو يردُّ المسألةَ المستغربة

1- ينظر: ربيع المدخلي، أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكرِه، ص 181.

المستهْوَلَةَ عند القوْم إلى بساطتِها وطبيعتِها فيقول: إني لأصدِّقُه بأبعدَ من ذلك ؛ أصدِّقُه بخبر السماء ![1].

هذا هو نصُّ سيد قطب نقلتُه من الظلال، ولكن للأسف نصٌّ مجتزَئٌ من سياقِه ! يَستخلصُ منه المدخلي أن سيدا قلَّلَ من شأن هذه المعجزة وسوَّى بين الرؤية في النوم وبين أن يُسرَى برسول الله ﷺ بروحِه وجسدِه إلى السماوات العُلَى في اليقظة ويقول: (إن هذه التسويةَ والتقصير في البحث وترجيح ما دلَّت عليه الأحاديثُ المتواتِرة من الإسراء والعُرُوج برسول الله ﷺ بروحِه وجسمِه إلى ربِّه في اليقظة ناشئٌ عن تصوُّر سيد قطب لعدَم الجدْوى لهذه المعجزة العظيمة بل لجميع المعجِزات، وإنّ هذا التفريط كبيرٌ وتهاونٌ جسيم عافانا اللهُ منه)[2].

وقد تعمَّد المدخلي اجتزاءَ الفقرة التي نقلَها من السياق ليوهِم القارئَ أن سيدًا ينكرُ الإسراءَ والمعراجَ يقَظةً، وإلا فسيد في الصفحة نفسِها التي نقلَ منها المدخليُّ يذكرُ الروايات الوارِدة في هذه الحادِثة ويعرِض للخلاف الذي وقع حول اليقَظة والمنام ؛ ويرجِّحُ صراحةً بأنه ﷺ أُسرِيَ وعُرِجَ به في حال اليقَظة بالروح والجسد، وهاكَ ما يقولُه سيد مباشرة قبل الفقرة التي نقلَها المدخلي والتي تبدأُ (على أننا لا نرى محلًّا ....) ، يقول سيد: (واختُلِف في أن الإسراء كان في اليقَظة أم في المنام ، فعن عائشةَ - رضي الله عنها - أنها قالت: واللهِ ما فُقِدَ جسدُ رسول الله ﷺ ولكن عُرِجَ بروحِه، وعن الحسن كان في المنام رؤيَا رآها وفي أخبارٍ أخرى أنه كان بروحِه وجسمِه، وأن فراشَه عليه - الصلاة والسلام - لم يبرُد حتى عادَ إليه.

والراجحُ من مجموع الروايات أن رسولَ الله ﷺ تركَ فراشَه في بيتِ أمِّ هانِئ إلى المسجِد فلمَّا كان في الحِجْر عند البيت بين النائِم واليقْظان أُسرِيَ به وعُرِج، ثم عادَ إلى فراشِه قبل أن يبرد)[3] ومباشرةً بعد هذا يبدأُ قولُه: (على أننا لا نرى محلًّا....) الذي نقلَه المدخلي، فلِمَ التجنِّي على سيد دون وجْهِ حقّ وقد أخذَ بالراجِح من مجموع الروايات وخطَّهُ بقلمِه وفي الصفحةِ نفسِها!!.

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2210، 2211.

2- ربيع المدخلي، أضواء على عقيدة سيد قطب وفكره، ص 184.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2210 وهي الصفحة نفسُها التي تَعَامَى عنها المدخلي !

ننتقل إلى اتهام آخرَ يُوجِّهُهُ هذا المدخلي نفسُه إلى سيد عند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [1] يقول سيد: (إن معجزةَ الإسلام هي القرآنُ وهو كتابٌ يرسُم منهجًا كامِلا للحياة ويخاطِب الفكرَ والقلبَ ويلبِّي [نقله المدخلي (ويلين)، كذا!] الفطرةَ القويمة، ويبقَى مفتوحا للأجيال المتتابِعة تقرؤُه ويؤمنُ به إلى يوم القيامة، أمّا الخارِقة المادّية فهي تخاطِب جيلا واحِدا من الناس، وتقتِصر على من يشاهِدُها من هذا الجيل.

على أن كثرةَ مَن كانوا يشاهِدون الآياتِ لم يؤمِنوا بها. وقد ضربَ السياقُ المثَل بثمود الذين جاءتهم الناقةُ وِفق ما طلبُوا واقترَحوا آيةً واضحة. فظلموا بها [حذف المدخلي (بها)، كذا !] أنفسَهم وأوْردُوها موارِد مُهلكةً تصديقا لوعْد الله بإهلاك المكذّبين بالآية الخارِقة وما كانت الآياتُ إلا إنذارا وتخويفا بحتميةِ الهلاك بعد مجيء الآيات [نقلها المدخلي (الآية) كذا!].

هذه التجاربُ البشريةُ اقتضت أن تجيءَ الرسالةُ الأخيرة غيرَ مصحوبةٍ بالخوارِق لأنها رسالة الأجيال المقبِلة جميعِها لا رسالةَ جيل واحِد يراها ، ولأنها رسالة الرشْد البشَري تخاطِب مداركَ الإنسان جيلًا بعد جيل وتحترم إدراكَه الذي تتميَّز به بشريتُه والذي من أجْله كرَّمه اللهُ على كثير من خلْقِه. أمّا الخوارِق التي وقعت للرسول ﷺ وأوَّلها خارقةُ الإسراء والمعراج فلم تتّخذ معجزة مصدّقة للرسالة إنما جعلت فتنةً للناس وابتلاءً) [2].

ويَعجَبُ المدخلي ـ على زعمِه ـ لقولِ سيد (أمّا الخوارقُ التي وقعت للرسول ﷺ وأوَّلها خارقة الإسراء والمعراج ، فلم تتّخذ معجزة مصدّقة للرسالة وإنما جُعلت فتنةً للناس و ابتلاء) فيقول : (واعَجَباه لسيد ! مَن سبقكَ إلى هذا من أئمةِ الإسلام فقال: إن هذه الخارقةَ ليست معجزةً مصدّقة لرسول الله ؟ !ومَن جعلَها دليلًا على كذبِه؟ ! إن الخوارقَ مِن أقوى الأدلة على كذب الدجَاجِلة

1- سورة الإسراء، الآية 59.

2- المصدر السابق، مج4، ص 2237.

والسَّحَرة والمشعوِذين، أمّا للرسُل فهي من أعظم براهين صِدْقِهم) [1] ونسيَ المدخلي أو تناسَى أن الآيةَ القرآنيةَ التي جاءت بعد الآية التي فسَّرها سيد مباشرة هي قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [2] وهي مباشرةً بعد الآية السالفة " 59"!، فها هو القرآنُ نفسُه يصرِّح أنها فتنة للناس، ويقول سيد في تفسيرِها: (ولقد ارتدَّ بعضُ من كان آمنَ بالرسول ﷺ بعد حادِثة الإسراء، كما ثبت بعضُهُم وازدادَ يقينا، ومن ثم كانت الرؤيا التي أراها اللهُ لعبدِه في تلك الليلةِ "فتنةً للناس" وابتلاءً لإيمانهم، أمّا إحاطة الله بالناس فقد كانت وعْدًا من الله لرسولِه بالنصْر، وعصمةً له من أن تمتدَّ أيديهم إليه.

ولقد أخبرهم بوعْد الله له وبما أطْلَعه اللهُ عليه في رؤياه الكاشِفة الصادِقة ومنه شجرة الزقُّوم التي يخوِّف اللهُ بها المكذبينَ، فكذَّبوا بذلكَ حتى قال أبو جهل متهكِّما: هاتوا لنا تمْرا وزبدا، وجعلَ يأكلُ من هذا بِهذا ويقول: تزَقَّمُوا فلا نعلمُ الزقُّومَ غيرَ هذا !.

فماذا كانت الخوارقُ صانعةً مع القوم لو كانت هي آية رسالتِه كما كانت علامة الرسالات قبلَه ومعجزة المرسلين؟ وما زادتْهم خارقةُ الإسراء ولا زادَهم التخويفُ بشجرة الزقُّوم إلا طغيانا كبيرا؟

إن الله لم يقدِّر إهلاكَهم بعذاب من عندِه ومن ثم لم يُرسِل إليهم بخارِقة ؛ فقد اقتضت إرادتُه أن يُهلك المكذِّبين بالخوارِق، أمّا قريش فقد أُمهلَت ولم تُؤخَذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالِح ولوط وشُعيب) [3].

تركتُ سيدا يُجيبُ بنفسِه على الاتهام وهل بعدَ هذا الجوابِ جوابٌ؟ فالقرآنُ ذكرَ أن هذه الخارقةَ خارقة الإسراء والمعراج فتنةٌ، وأردفَ بعدَها أن الخوارقَ لا تزيدُ هؤلاء المشركينَ إلا طغيانا كبيرا، وساق سيدٌ قصةَ أبي جهل وكيف كان يستهزئُ بهذه الحادِثة ويتندَّرُ بشجرة الزقوم التي أَراها اللهُ تعالى

1- ربيع المدخلي، أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، ص188.

2- سورة الإسراء، الآية 60.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2237، 2238.

لنبيِّه في تلكَ الرؤيا، وكيف اقتضت حكمتُه تعالى ألا يُهلك قريشًا بخارِقة كما أهلكَ الأقوام التي قبلَها بها، فأيُّ شذوذ أتاهُ سيد في تفسيرِه لهذه الآية؟ ولمَ عجِبَ المدخليُّ من تفسير سيد؟ أَلَا فلْيعجَبْ المدخلي من قُصُور فهمِه فإنْ لَمْ فلِتجنِّيهِ على العلماء بدون وجْهِ حقّ.

وأخيرا يُناقضُ المدخلي نفسَه ويُقِرُّ بأن سيدا أثبتَ معجزةَ انشقاقِ القمَر لأنه ثبَتَ بالقرآن والروايات المتواترة [1] بعدما حكَمَ على سيد بنفْيِه لجميع المعجزات، أَنَسِيَ أنهُ أثبتَ هذا قبلَ خمسِ صفحات [2] ! أم إنه الاضطرابُ والتخبُّطُ و ضريبةُ الوُلوغ في لُحوم العلماء ؟

1- ينظر: ربيع المدخلي: أضواء إسلامية على عقيدة سيد وفكره، ص189.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 184.

المبحث الثالث: الكَوْنيات:

المطلب الأوَّل: الإنسانُ:

هو هذا المخلوقُ في أحسن تقويم، الذي فضَّله اللهُ تعالى على كثير ممَّن خلقَ تفضيلا وأسْجَدَ له ملائكتَه وكرَّمَه تكريما عظيما: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[2] .

واستخلَفَه في الأرض ليعْمُرَها وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منهُ، وركَّب فيه صفاتٍ من فُيوضات صفاتِ الربوبية كالعِلم والقُدرة والتكبُّر والنزوع إلى السيطرة والمُلك وغيرِها ليزدادَ تعظيما وإجْلالا لخالِقِه إذا أعْملَها، فيتصوّر علمَ الله الواسع اللامحدود بعلمِه الجزئي المحدود، ويتصوّر قدرةَ الله المسيطِرة على كل شيء بقدرتِه الجزئية المَحدودة، ويتصوّر ملكَ الله العريض الواسِع بمِلكيتِه الصغيرة المحدودة، وهكذا يتهيأُ بمدارِكِه أن يُدركَ عظمةَ الله وجليلَ سلطانِه[3].

فهو مخلوقٌ خاصٌّ ذو كيان متميِّز مزوّد بخصائص الخِلافة باستعداداتِه وأجهزتِه التي وُهِبَها لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابةِ لها، ومِن مجموع انفعالاتِه واستجاباتِه يتألف النشاطُ الحَرَكي للتعمير والتطوير في مادّة هذا الكون وطاقاتِه للنهوض بوظيفة الخِلافة[4].

وسيدٌ في عَرْضه لهذه الحقيقةِ الكبرى – حقيقة الإنسان –، يخصِّص فصْلا كامِلا لها في كتابيْن من كُتبه[5] ويفيضُ في الشرْح والبيان لها في تفسيره لأدْنى مناسبة[6]، فهو يستخلصُ طبيعةَ المنهج القرآني في

1- سورة الإسراء، الآية 70.

2- سورة البقرة، الآية 34.

3- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص248 بتصرف.

4- ينظر: سيد قطب، مقوّمات التصور الإسلامي، ص362.

5- ينظر: فصْل "حقيقة الإنسان" من كتاب "المقوّمات" وفصْل "الإنسان ذلك المجهول" من كتابه "الإسلام ومُشكلات الحضارة".

6- ينظر: الظلال: مج1، ص 12، 543 ، ومج4، ص 2180،2410، ومج5، ص 2809 ، 2931، 3226 ، ومج6، ص 3654، 3803، 3845 وغيرها.

عرْض حقيقة الإنسان لا على أنها مذهبٌ كباقي المذاهب في عَرْض الحقائق وإنما على أساس أنها حقيقةٌ قائمةٌ بذاتِها، يعرِض الحقائقَ الكُلِّية من خلال النماذِج الفرْدية، كما أنه يعرِض السُّنة الثابِتة من خلال الحدَث العارض، فيعرِض النفسَ الإنسانيةَ كما هي في حقيقتِها على النطاق الواسِع الشامِل، لأن العمودَ الأساسي في العرْض هو حقيقة النفْس الإنسانية في شتَّى حالاتِها لا مذهب معين في النظَر إليها [1] ولا يكتفي سيد بهذه النظرةِ الشمولية الوارِدة في القرآن عن الإنسان ووظيفتِه ودورِه في الحياة وحُدود طاقاتِه، بل ينقلُ كثيرا عن علماء الغرْب المتخصِّصين في هذا المجال [2] .

ويثمِّن إيجابياتِهم في البحث ولا يُغفِل في الآن نفسه التعليقَ على العيوب المنهجية التي يقعونَ فيها جرَّاء التجزِئة التي يتعاملونَ بها مع حقيقةِ الإنسان وكأنه مُزَقٌ متفرِّقة لا تناسُقَ بينَها.

والجوابُ الذي ساقَه سيد عن الأسئلة القديمة الجديدة: ما الإنسانُ؟ ما وظيفتُه؟ ما دورُه في الحياة؟ ما طاقاتُه وما حدودُ هذه الطاقات؟ هو تعليقُه على قصَّة الإنسان كما وردَت في القرآن الكريم في قولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [3]،

1- ينظر: سيد قطب، مقوّمات التصوُّر الإسلامي، ص 361 .

2- ينظر: سيد قطب، الإسلام ومُشكلات الحضارة، ص 9 – 34.

3- سورة البقرة، الآيات 30 – 39.

فالآياتُ الكريماتُ تتضمَّن الإجابات الوافِيات عن تلك الأسئلة التي لا يزالُ العلماءُ على اختلاف مَشارِبِهم وتخصُّصاتِهِم يستفرِغونَ الوُسْعَ ويبذلون الجُهود تلْوَ الجهود للوُصول إلى شيءٍ ذي بال، وهنا تبرُز مَلَكَة سيد في الإحاطة بالمواضيع وردِّ الفروع إلى الأصول متقيِّدا بالمنهج القرآني في عرْضه لهذه القضية الكبرى ـ قضية الإنسان وخلافتِه للأرض ومقوِّمات هذه الخِلافة ـ.

فأبرز إيحاءات هذه الآيات عندَه هي القيمة الكُبرى التي يُعطيها التصوُّر الإسلامي للإنسان ولدورِه في الأرض ولمكانِه في نظام الوُجود وللقِيَم التي يوزنُ بها، ثم لحقيقة ارتباطِه بعهدِ الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافةُ الإنسانِ على أساسِه، فهو مخلوقٌ ليكونَ خليفةً في الأرض وذلك يتبدَّى في أمْرِ الملائكة بالسجود له، وفي طرْدِ إبليسَ الذي استكبرَ وأبَى [1] ثم يشرَعُ في التفصيل بعد هذا الإجْمال ويرتِّب على هذا التصوُّر الإسلامي للإنسان جملةَ اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالَم التصوُّر وفي عالَم الواقِع على السواء.

الأوَّل: أن الإنسانَ هو سيِّدُ هذه الأرض ، ومن أجلِه خُلقَ كلُّ شيء فيها ، فهو إذن أعزُّ وأكرَم وأغْلى مِن كلِّ قيمةٍ مادية ، فلا يجوزُ أن يُستَذَل أو يُستعْبَد لقاءَ تحقيق كسْب مادّي، فالمادّياتُ مخلوقةٌ لتحقيقِ إنسانيتِه.

الثاني: دورُ الإنسان في الأرض هو الدورُ الأوَّل ؛ فهو الذي يقودُ لا كما تُصوِّرُه المذاهبُ الماديةُ تابِعا مَقُودًا لوسائل الإنتاج، فما إهدارُ حريات الإنسان ومقوِّماته في العالَم المادي إلا أثرٌ مِن آثار تحقير دورِه في هذه الأرض.

الثالث: إعلاء القِيَم الأدبية والفضائل الأخلاقية باتِّباع الهُدى فيتوجَّه القلبُ البشري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة، خلاف ما تُوحِيه المذاهبُ المادية من استهزاء واستهتار بكل القيَم في سبيل الاهتمام بالإنتاج ومَطالب البُطون.

الرابع: الإعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مَناطُ العهد مع الله وهي مَناط التكليف والجزاء

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص60.

وهو مظهرٌ من مظاهرِ التكريم في بيان الفرْق بين الإنسان المُريد والحيوان المَسُوق.

الخامس: فكرةُ الإسلام عن الخطيئة والتوبة وبساطتُها ؛ فالخطيئةُ فرديةٌ والتوبة فرديةٌ لا كما تزعُم الكنيسةُ في صلب عيسى عليه السلام تخليصًا لبني آدمَ من خطيئةِ آدم [1].

أمّا في كتابِه "مقوِّمات التصوُّر الإسلامي " فخصَّص فصْلا كامِلا لحقيقة الإنسان [2] على شكل فقرات تبلُغ أربعينَ فقرةً مركزةً ضمَّنَها خلاصةَ رأيِه واستنتاجاتِه من المنهج القرآني عن الإنسان ودورِه ووظيفتِه؛ وخصائصه ومميِّزاته وعلاقته بالله والكون والحياة، نجتزئُ بعضَها باختصار لبيان دقَّة نظَر الرجُل وسَعة فكرِه وشمول دراستِه.

يبدأُ ببيان الصورَة الدقيقة والعميقة التي يعرضُها القرآنُ الكريم لهذه النماذِج الكثيرة المتنوِّعة للنفوس البشرية في أصالتِها الفِطرية وفي حالاتِها المنحرِفة في حيِّز من التعبير يستحيلُ على البشَر أن يُعبِّروا عنهُ في أضْعاف أضْعاف هذا الحيِّز.

ثم ينتقلُ إلى بيان خصائص هذا الإنسانِ، فهو كائنٌ كريمٌ على الله ؛ ذو مَركز عظيم في تَصميم هذا الوُجود، اختصَّه اللهُ تعالى بمَقام الخِلافة في الأرض، وبعثَ من جنسِه الرسُل وتلكَ عنايةٌ إلهيةٌ كبرى به.

وهو كائنٌ يتعاملُ مع الكون ومع ربِّه ، كما يتعاملُ مع الملأ الأعلى من الملائكة ، ومع الجِن والشياطين، ومع نفسِه واستعداداتِه المتنوِّعة ، وهو مستعدٌّ لأن يرتفعَ إلى أرْقى من آفاق الملائكة المقرَّبين كما هو مستعدٌّ لأن ينحطَّ إلى أدنى من دَرَكات الحيوان البَهيم ، حسبَ ما يبذُل هو من جُهد ، وحسبما

1- ينظر: المصدر السابق، مج1، ص 60، 61 بتصرّف.

2- ينصُّ محمد قطب ـ أخو سيد ـ في مقدِّمة كتاب " مقوِّمات التصوُّر الإسلامي " أن سيدًا أنْهى كتابتَه في الأيام الأخيرة في السجن قبل تنفيذِ الحُكم، وكتبَ القسمَ الأخيرَ منهُ على أوراق الادِّعاءِ التي أُعطيتْ له قبل المُحاكمة، وقد حصلَ على المقدّمة والفصول الأربعة الأُولى منهُ، أمّا فصْلَيْ " حقيقة الحياة " و " حقيقة الإنسان " فمفقودان إلا فقراتٍ مركزةً متسلسلةً منها هي هيكل هذه الفصول ؛ أثبتَها كما هيَ، وكانت طبيعةُ سيد في التأليف أن يثبتَ هذه الأفكار الأساسية على شكل فقرات ، ثم يشرَع في توسيعِها ـ وقد نصحَ الكثيرُ محمدًا أن يفعلَ بطريقةِ سيد في توسيعِها فأَبَى ؛ مُقِرًّا بأنه لا يبلغُ مستوى شقيقِه خاصةً في هذا الكتاب، ونرجحُ نحنُ أن هذيْن الفصليْن هما الذيْن كتبَهما على أوراق الادِّعاء لذلك ضاعا وإلا فإخوانُه كانوا حريصينَ على كلِّ ما يخطُّه قلمُ سيد داخلَ السجن وخارِجَه.

يتلقَّى من عوْن الله وهدايتِه.

وهو مُصَمَّم على قاعدة الزوْجية المَبثوثة في الكون ، كما امتازَ بذلك العُنصر الفريد ؛ وهو النفخةُ من رُوح الله، وآصرة التجمُّع الكبرى بين أفراد هذا الكائن هي "العقيدة" والتي تنْبَنِي على تلك النفخةِ الإلهية التي صارَ بها إنسانا.

وخِلافة هذا الكائن في الأرض مَشروطة ومُقيدة بعهد الله وميثاقِه وهو أن يستقيمَ على المنهج والهُدى ويُخلصَ العبوديةَ ولا يدَّعي شيئا من خصائصِ الألوهية وإلا تعرَّضت حياتُه للفساد وتعرَّض لعذابِ الله في الدنيا والآخِرة [1].

ويلخِّص سيد النظريةَ النفسيةَ في الإسلام في ثلاثِ آيات من القرآن الكريم في قولِه تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [2] و قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [3] و قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [4] فمن خلالها تبرُزُ لنا نظرةُ الإسلام إلى الإنسان بكل مَعالِمِها، فهو كائنٌ مخلوقٌ مزدوِجُ الطبيعة، مزدوجُ الاستعداد، فيه من نفخةِ الله ومن طينِ الأرض، مزوَّدٌ باستعدادات متساوية للخيْرِ والشرّ والهُدى والضلال، قادِرٌ على توجيهِ نفسِه إلى كِليْهما سواء، والرسالات والتوجيهات الخارجيةُ إنما توقِظ هذه الاستعدادات وتشحَذُها و لكن لا تخلُقُها فهي مخلوقةٌ فطرةً وكائنةٌ طبعًا وكامنةٌ إلْهامًا.

وفوق هذه الاستعدادات الفطريةِ الكامِنَةِ هناك القوةُ الواعِيةُ المُدرِكةُ الموجِّهةُ للإنسان بها تُناطُ التبِعةُ، فمن استخدمَها في تزكيةِ نفسِه وتطهيرِها فقد أفلحَ ؛ ومن أظْلَمها وأضْعفَها وخبَّأها فقد خاب، ومِن رحمةِ الله بهذا الإنسانِ أنه لم يكِلْه إلى هذا الاستعداد ولا القوة الواعِية فأعانَه بالرسالاتِ التي تضعُ

1- ينظر: سيد قطب، مقوِّمات التصور الإسلامي، ص 361- 363 بتصرف.

2- سورة الإنسان، الآية 3.

3- سورة البلد، الآية 10.

4- سورة الشمس، الآيات، 7 - 10.

له الموازينَ و تدُلُّه على الهُدى وتكشِف له الطريق [1].

هكذا يلخصُ سيدٌ نظرةَ الإسلام إلى الإنسان في تحديدٍ ووُضوح مركِّزا دائما على البُعد العَقَدي في صِلة هذا المخلوق المكرَّم المستخلف في الأرض بالله الخالِق ؛ غير مستنكِف وهو يعرِض المنهج القرآني من التعرُّض للمناهج الغرْبية وبيان عُوَارِها في نظرتِها المادّية الدُّونيَّة لهذا الإنسان السيِّد في هذه الأرض ، كما ثمَّنَ من باب الإنصاف جهودَ أولئك العلماء المتخصِّصين الذين أثْبتوا بعدَ الدراسة الدقيقةِ المستفيضةِ عجْزَهم عن التوصُّل إلى كُنْهِ وحقيقة النفْس التي يحملُها الإنسان بين جنبَيْه، ثم يستدرك عليهم ببيان تلك الشمولية والإحاطة التي وردَتْ في المنهج القرآني عن الإنسان والتي أخَذَها أولئك أجزاء ومُزَقًا حتى وصَلوا إلى نتائجَ لا تفسيرَ لها ولا رابطَ بينَها.

1- ينظر: الظلال، مج6، ص 3918 بتصرّف.

المطلب الثاني: الملائكةُ: [1].

الإيمانُ بالملائكةِ من أركان العقيدة الإسلامية، مَن جحدَها وأنكرَها كَفَر، يقولُ تعالى في صِفة عقيدةِ المؤمنين: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [2] و يصف الكافرين بهم بالضلال البعيد ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ ﴾ [3].

وقد تكرَّرَ الحديثُ عن الملائكة في القرآن الكريم في ثلاثٍ وثلاثينَ سورة ؛ في خمسٍ وسبعين آيةً منها [4]، ونصَّت أحاديثُ نبويةٌ كثيرةٌ على أن الإيمانَ بالملائكة رُكن أساسي من أركان العقيدة كما في حديث جبريل (قال [جبريل] فأخبِرْني عن الإيمان، قال [رسولُ الله ﷺ]: أن تؤمنَ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه و اليوم الآخِر وتؤمنَ بالقدَر خيرِه وشرِّه) [5] فالإيمانُ بهم واجبٌ وهو مِن المعلوم من الدين بالضرورَة ومُنكِر وجودِهم منكرٌ لكلام الله ورسولِه إذ النصوصُ واضحةٌ صريحةٌ قاطعةٌ كما أسلفنا.

وقد اقتضت حِكمةُ الله تعالى أن يجعلَ من هذا النوع من المخلوقات النورانية رسُلا إلى من اصطفاهُم من خلْقِه يبلِّغونَهم رسالاتِ ربِّهم ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ

1- إدْراجُنا الملائكةَ والجِنَّ في مبحث "الكوْنيَّات" لا في مبحث "الغيبيات" باعتبارِ أنهم مَخلوقون يتَّصفون بالكينونة والوُجود الثابِت ، وقد رأى بعضَهم الأنبياءُ وزُوِيتْ رؤيتُهم عن عامَّة الناس، أمّا الغيبياتُ فهي ما أخبرَ اللهُ عن وقوعِه مما لم يقعْ بعدُ . ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 273.

2- سورة البقرة، الآية 285.

3- سورة النساء، الآية 136.

4- ينظر: عبد الرحمان حبنَّكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسُسها، ص 233.

5- أخرجه مسلم في صحيحِه، كتاب "الإيمان"، رقم 1 ، "ج1، ص 36" ، وأبو داود في سُنَنِه، كتاب "السنة"، باب 17، رقم 4695 "ج5، ص 69-73"، والنسائي في سُنَنِه، كتاب الإيمان، باب 5، رقم 4990، "ج8، ص 97-101"، والترمذي في سُننه، كتاب "الإيمان"، باب 4، رقم 2610، "ج5، 6-7".

أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾[1] ومنحهم قُدرات على التشكُّل ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾[2] ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[3] ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[4] ووصفَ خلْقَهم أنهم أُولي أجنحة مثنى وثلاث ورُباع ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[5].

لكل منهم وظيفةٌ فحَمَلَةٌ للعرْش ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾[6]، وحافِّين من حوْل العرْش ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[7]، وملائكة الجنَّة ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[8] وملائكة النار ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾[9] ومُوكَّلون بأعمال الناس وحفظِها وتسجيلِها ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[10] ومُوكلون بقبض الرُّوح ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾[11]، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

1- سورة النحل، الآية 2.
2- سورة مريم، الآية 17.
3- سورة الذاريات، الآيات 24، 25.
4- سورة هود، الآية 77.
5- سورة فاطر، الآية 1.
6- سورة الحاقة، الآية 17.
7- سورة الزمر، الآية 75.
8- سورة الرعد، الآية 24.
9- سورة المدثر، الآية 27-31.
10- سورة ق، الآيات 17، 18.
11- سورة السجدة، الآية 11.

﴿ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1] إلى غيرِها من الوظائف المَذكورة في الكتاب والسُّنة، طائعون لله فيها لا يَعصونه ويفعلون ما يُؤمَرون، فمتى استشعرَ المؤمنُ هذا استحَى من ارتكابِ المعاصي ومخالَفة أوامِر ربِّه ونشطَ للعبادة التي خُلقَ من أجلِها.

ولسيد منحىً خاصٌّ في استخلاص المعاني العَقَدية من النصوص لأدْنى مناسبة ، إذ المقصدُ الأساسي للرسالات تثبيت العقيدة في النفوس ؛ العقيدة الصحيحة الخالِصة من الأوْهام والأضاليل والتصوُّرات الباطِلة في حق الله تعالى وفي عالَمَ الغيب الذي ليس لنا عنه إلا الخبَرُ الصادِقُ الذي أتتْ به النصوصُ السماوية، ففي هذا المبحث بالذات وعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾[2] لا يذكرُ شيئا عن طبيعة الملائكة وصفاتِهم وتفاصيل نزولِهم التي تعجُّ بها كُتبُ العقائد والكلام - لو شاء ذلك - ولكنه يكتفي برُوح النصّ يستفِيُّ دفائنَه ليُلقي بظلالِه العَقَدية على المشهَدِ كلِّه.

فاللهُ سبحانه لا يُنزِل من السماء ماءً يُحيي الأرضَ والأجسامَ وحدَها ؛ إنما يُنزل الملائكةَ بالرُّوح من أمرِه لإحياءِ النفوس والضمائرِ والعقولِ والمشاعِر، فهي أوَّل النِّعَم التي يمُنُّ اللهُ تعالى بها على العباد بإنزال الملائكة أطْهَر خلْق الله على أطْهَر البشَر - الأنبياء - أن ينذِروا الناسَ ألَّا إلهَ إلا الله فيتَّقوه (إنها الوحدانية في الأُلوهية، رُوح العقيدة، وحياة النفس، ومفرَق الطريق بين الاتجاه المُحيي والاتجاه المُدمِّر، فالنفس التي لا تُوحِّد المعبودَ نفسٌ حائرةٌ هالكةٌ تتجاذبُها السبُل وتخايِل لها الأوهامُ وتمزِّقُها التصوُّراتُ المتناقضةُ، وتناوِشُها الوساوسُ، فلا تنطلقُ مجتمعةً لهدف من الأهداف !.

والتعبيرُ بالرُّوح يشمَل هذه المعاني كلَّها ويشير إليها في مَطْلع السورة المشتمِلة على شتَّى النِّعَم، فيصدر بها نِعَمَه جميعا، وهي النعمة الكبرى التي لا قيمةَ لغيرِها بدونِها، ولا تحسِنُ النفسُ البشرية الانتفاعَ بنِعَم الأرض كلِّها إن لم توهَب نعمةَ العقيدة التي تُحييها)[3] فلاحِظْ هذا الإسقاطَ العَقَدي

1- سورة الأنعام، الآية 61.

2- سورة النحل، الآية 2.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2160.

العميق من هذه الآية التي تتحدَّث عن الملائكة موظِّفا لها في خِدمة القضية الأساسية التي جاءَ بها هذا الدين، ولا يصدُرُ إلا عن ضليع متمرِّس مُزاوِل لهذه العقيدة فِكرا وعمَلا.

أمّا في وصف الملائكة وطبيعتِهم وخِلْقتهم فلم يعرِض لها حين وصلَ إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[1]فيقول: (ولأوَّل مرة – فيما مرَّ بنا من القرآن في هذه الظلال – نجدُ وصْفا للملائكة يختصُّ بهيئتِهم)[2] فيقف عند الوصْف القرآني ولا يزيدُ، فلا يستعينُ بما وردَ في الكُتب السالِفة عن أشكالِهم وهيئاتِهم، فما وردَ في القرآن عنهم فيه الاكتفاء والمَقْنَع، أمّا ذِكر الأجنحة مثنى وثلاث ورُباع حيث لا يعرِف الإنسانُ إلا شكلَ الجناحيْن للطائر فتفسِّره طلاقةُ المشيئة في قولِه تعالى : ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ وبمدلول أوسعَ في قولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيشملُ كل صوَر الخلْق والإنشاء والتغيير والتبديل[3].

وهكذا يمرُّ سيد مرًّا سريعا على مثل هذه المواضِع التي تُعنَى بالصوَر والأشكال والهيئات، يذكر ما وصفَه النصُّ ولا يزيد ؛ أمّا إذا تعلّقَ الأمرُ بالمفاهيم والتصوُّرات والأفكار والعقائد فيستطرِد ويُحلِّل ويَغوص على المعاني ويستخلص منها المقاصِد التي يجب أن تتمثَّل في حياة المسلِم فِكرا وشُعورا وعَملا.

أمّا وقفةُ سيد المطوَّلة مع مبحث الملائكة فعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾[4] فيعدّدُ وظائفَهم ويبيِّنُ التصوُّر الإسلامي لهذه العوالِم المغيَّبة عن مدارِك الإنسان، ويُنْحِي باللائِمة على أدْعِياء العقلية العِلمية المُنكرين لوجودِهم ويردُّ عليهم بأدلتِهم التي يزعُمونَها علميةً وما هي من العِلميةِ في شيء.

يمهِّد لكل ذلك بأن الإيمانَ بالغيب نُقلةٌ في حياة الإنسان ضخمةٌ من دائرة المحسوس الضيقةِ

1- سورة فاطر، الآية 1.

2- المصدر السابق، مج5، ص 2921.

3- ينظر: المصدر نفسه، مج2، ص 1042.

4- سورة الأنعام، الآية 8.

التي يشاركُه في ها الحيوانُ إلى دائرة أوْسعَ وأرْحَب ؛ إلى إدراك أن هناكَ غيبًا مجهولا يمكنُ وُجوده ويمكن تصوُّره، فهناك خلْقٌ من عباد الله اسمُهم الملائكةُ، أخبرَنا القرآنُ الكريم عن قَدْر من صفاتِهم يكفي لهذا التصوُّر ويكفي للتعامُل معهم في حُدودِه [1]، ثم يشرَع سيدٌ في بيان وظائفِهم: (فهم خلْقٌ من خلْق الله، يدينُ لله بالعبودية، وبالطاعة المُطلقة، وهم قريبونَ من الله – لا ندري كيفَ ولا ندري نوعَ القُرب على وجْه التحديد - ...وهم يحمِلونَ عرْش الرحمن، ويَحُفُّون به يوم القيامة كذلك – لا ندري كيف فليس لنا مِن علم إلا بقَدْر ما كَشفَ اللهُ لنا مِن الغيب - ...وهم خَزَنَة الجنَّة وخَزَنَة النار، يستقبِلون أهلَ الجنَّة بالسلام والدُّعاء، ويستقبلونَ أهل النار بالتأنيب والوعيد) [2] .

ولاحظْ أن سيدًا يقف دائما في الكيفيات ولا يُدلي بتخميناتِه ولا بآراء غيرِه فيها ، فالأمرُ جَلَل ولا مجال للخَرْص فيه والتخمين إلا ما وردَ من طريق النصِّ القطعي الثابِت فيها، وهذا دأبُه و دي دنُه في كل ما يتعلَّقُ بالغيبيات.

ثم يعدِّدُ وظائفَهم مع أهل الأرض: (فهم يقومون عليهم حَفَظَة بأمْر الله يتابعونَهم ويسجِّلون عليهم كل ما يصدُرُ عنهم، ويتوفَّوْنَهم إذا جاء أجَلُهم...وهم يبلِّغُون الوحيَ إلى الرسُل صلوات الله وسلامه عليهم، وقد أعْلَمَنا اللهُ سبحانه أن جبريلَ عليه السلام هو الذي يقومُ منهم بهذه الوظيفةِ ...وهم يتنزَّلونَ على المؤمنينَ بالتثبيتِ والمَدَد والتأييد في معركتِهم الكبرى مع الباطل والطاغوت...وهم مشغُولون بأمْر المؤمنين يسبِّحون ربَّهم ويستغفِرون للذين آمنوا من ذنوبِهم، ويدْعُون ربَّهم لهم دعاءَ المُحِبِّ المُشفِق المشغول بشأنِ مَن يُحِبّ...وهم كذلك يبشِّرون المؤمنينَ بالجنَّة عند قبْض أرواحِهم، ويستقبِلونَهم بالبُشْرى في الآخرة ويسلِّمونَ عليهم في الجنَّة...وهم يستقبِلونَ الكافرينَ في جهنم بالتأنيب والوعيد) [3]

كل هذا وسيدٌ يحشُد الآيات التي ترِدُ في كل وظيفة من وظائفِهم، تجاوَزْناها كي لا يَطولَ بنا الحيِّز المخصَّص لمبحثِنا هذا، ثم يعلِّق عليها جميعًا واصِفا لها بالمجال الفسيح الذي تتَّصل فيه حياةُ البشَر بهذا

1- ينظر: المصدر السابق، مج2، ص 1042، 1043.

2- المصدر نفسه، مج2، ص 1042، 1043.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1044، 1045.

الملأ الأعلى، والذي يتَّصل فيه عالَمَ الشهادَة بعالَمَ الغيب وآثار ذلك كلّه على حياة المسلِم في التصوُّر والشعور وهو يتجاوزُ عالَمَه الأرضي إلى تلك الآفاق الرَّحْبة الفسيحة.

ويستنكرُ أخيرًا على أولئك المُدَّعين للعِلمية الذين يُنكرون العوالِمِ الغيبية عادًّا العربَ في جاهليتِهم – على كلِّ ما في تلكَ الجاهليةِ مِن خطأ في التصوُّر – أرْقى في هذا الجانبِ من أهلِ الجاهليةِ العلميةِ الحديثةِ، متسائلًا عن سبب إنكارِهم وجحودِهم لهذه العوالِمِ وإبعادِهم هذا الخلْق المسمَّى بالملائكة عن دائرة التصوُّر والتصديق؟ وما دليلُهم العلمي على ذلكَ؟، والجوابُ: لا شيءَ، فإذا كان علمُهم لا يستطيعُ نفيَ وُجود حياةٍ أُخرى على الأجْرام الأُخرى غير الأرض، فلِمَ الجزْمُ بنفْيِ هذه العوالِمِ وهم لا يملكونَ دليلًا واحِدا على نفْيِ وُجودِها [1].

ولسيدٍ وقفاتٌ كثيرةٌ في الظلال [2] عند الملائكة لا يسعُنا المجالُ لتَعْدادِها كلها، وهو في كل ما يوردُه منها لا يَحيد عن المنهج الذي رسَمَه لنفسِه وهو يعالجُ القضايا الغيبية، ألَّا يخوضَ في التفاصيل والكيفيات إلا إذا وردَ ما يُثبتُها ويَسندُها من القرآن والسُّنة، وهو الْتزام عُرف به السلفُ الكِرام في تفاسيرِهم من وُقوف عند النصوص واحترام لحُدود العقل البشري ورفْض للتأويلات الكلامية، وهي القواعد التي سارَ عليها سيد وطبَّقها بحذافيرِ|ها في كل ما دبَّجه قلمُه من بُحوث تتعلَّق بالغيبيات.

وذلك ما نلْحَظُه واضحًا جليًّا فيما أسلفنا مِن نُقُولِه وتحليلاتِه، فهو يكتفي بالنصوص ودلالاتِها الظاهرة ولا يُقحم عقلَه في البحث عن التفاصيل ويعترف بالعجْز والقُصور عن الخوض في عالَمَ الغيب وقضاياه لأنه لم يُخْلَق لذلك ولم يُزوَّد بالوسائل التي تُعينُه على إدراكِها، وفي الجانب المقابِل يَنْعَى على أولئك المدَّعينَ للعِلميةِ والبحث العلميّ أن يُنكِروا أمورًا وردَ بها الشرْعُ وأقرَّتْها النصوصُ دون دليل وحُجَّة قائمة ناهِضة؛ وإنما هو التبجُّحُ في الإنكارِ والدَّعَاوى العريضة الخاوِية الخالِية من إسناد العقل الذي ألَّهُوهُ.

1- ينظر: المصدر السابق، مج2، ص 1044، 1045.

2- ينظر: الظلال: مج3، 1485، 1486، ومج4، 2147، ومج5، 2982، 3070 ومج6، 3406 وغيرها.

المطلب الثالث: الجآنُّ:

لغةً: مِن الجَنِّ ـ بفتح الجيم ـ وهو سَتْرُ الشيءِ عن الحاسَّة، وسُمِّيَ الجِنُّ جِنًّا لاسْتِجْنَانِهِم أي لاسْتِتَارِهم، وسُمِّيت الجَنَّة جَنَّةً لأنها تستَتِرُ بالأشجارِ العالية، وسُمي الجنينُ جنينًا لأنه يستَتِرُ في بطنِ أُمِّه.

اصطلاحًا: هي أجسامٌ من مارِج من نَار، والمارِج هو اللهب الذي لا دُخانَ فيه، يرونَ الإنسَ والإنسُ لا تراهُم لرِقَّةِ أجسامِهم ولطافتِها، ولو زادَ اللهُ في قوّة أبصارِ الإنس لرأوْهُم كما يرَى بعضُهُم بعضًا [1].

وقد ثبتَ وُجودُهم بالدليل القطعي من نصوص القرآن الكريم من مثل قولِه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [3]، وقوله عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [4] فإنكارُ وُجودِهم إنكارٌ للمعلوم من الدِّين بالضرورة وتكذيبٌ للخبرِ المتواترِ اليقيني الوارِد إلينا عن الله جلَّ جلالُه ؛ وهو يُناقضُ الإيمانَ بالله جلَّ جلاله ويناقضُ الإيمانَ بكتابِه المعجِز [5] الذي فيه سورةٌ كاملةٌ سُميت باسمِهم وهي سورةُ "الجِنّ" كما تعرَّض لذكرِهم في نحوِ أربعين آيةً من عشْرِ سُور من القرآن الكريم [6].

أمّا طبيعتُهم وخِلْقَتُهم فهم صنفٌ غيرُ صنف الملائكة، مَخلوقون من مارِج من نار، وأنهم مخلوقونَ قبْلِ الإنس: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ

1- ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 4، ص 210، وينظر: المناوي، التوقيف على مُهمّات التعاريف، ص 256، وينظر: التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج1، ص359.

2- سورة الذاريات، الآية 56.

3- سورة الأحقاف، الآية 29.

4- سورة الرحمن، الآيات 14، 15.

5- ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 280.

6- ينظر: عبد الرحمن حبنَّكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسُسها، ص 249.

ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وأنهم يتناسلونَ ولهم ذُرِّية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾[2] وهم يروننا ولا نراهم: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

وهم مُكلَّفون بالإيمان والعبادة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[4] مَنهيُّون عن الكُفر والعِصيان: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[5]، ومنهم المؤمنون والكافرون: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾[6].

وأنهم يُحشَرون يوم القيامة ويُحاسَبون على أعمالِهم: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[7]، وأن لهم قُدُراتٍ كبيرةً: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ﴾[8]، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[9]، وأنهم كانوا يَستَرِقونَ السمْع من السماء فلمّا

1- سورة الحجر، الآيات 26، 27.
2- سورة الكهف، الآية 50.
3- سورة الأعراف، الآية 27.
4- سورة الذاريات، الآية 56.
5- سورة الأنعام، الآية 130.
6- سورة الجن، الآيات 14، 15.
7- سورة الأنعام، الآية 128.
8- سورة سبأ، الآية 13.
9- سورة النمل، الآية 39.

بُعثَ محمَّدٌ ﷺ حِيلَ بينَهُم وبيْن خبرِ السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾[1].

وسيدٌ في حديثِه عن الجِنّ يلتزمُ بالمنهج الذي قرّرَه في الغيبيات فيذكُر ما ذكرَه القرآنُ الكريم عنهم ويُمسكُ عمّا وراءَ ذلك، ويستغربُ كرَّةً أخرى من أولئك المُنكِرين لوُجود هذه المخلوقات كيف يُنكرونَها؟ فإن كان إنكارُهم لهم بالعِلم، فهل أحاطَ علمُهُم بكل أجْناس الأحْياء على هذا الكوكب الأرضي ! بَلْهَ ما على الأجْرام الأُخرى، فمِن التبجُّح أن يُنكِروا باسْمِ العِلم وُجود عوالِمِ حيّة أُخرى ![2].

.[2]

أمّا طبيعتُهم ووظائفُهم وتأثيرُهم فيلخِّصه سيدٌ عند تفسيره لقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾[3] أنهم مَخلوقون من مارِج من نار، مُزوَّدون بالقُدرة على الحياة في الأرض وفي باطِن الأرض وفي خارِج الأرض، وأنهم يَملكون الحركةَ في هذه المجالات بأسْرع مما يملكُه البشَر، وأن منهم الصالِحين المؤمنين ومنهم الشياطين المتمرِّدين، وأنهم يرَوْن بني آدم وبنو آدم لا يروْنَهم ـ في هيأتهم الأصليّة ـ ، وأن شياطينَهم مسلَّطون على بني الإنسان يُغْوُونَهم ويُضِلُّونهم.

وهم قادرونَ على الوَسْوَسَة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمُها، وأن هؤلاء الشياطين لا سُلطانَ لهم على المؤمنين الذاكِرين، وأنهم يَخْنَسُون ويتوارَوْن إذا ذَكرَ المؤمنُ ربَّه، وإذ غفلَ برزَ الشيطانُ فوسوسَ له، وأن المؤمنَ أقوى بالذِّكر من كيدِ الشيطانِ الضعيف، وأنهم يُحشَرون مع الإنس ويُحاسَبون ويُجازَوْن بالجَنَّة والنار كالجِنس الإنساني[4].

وإذا كان الجنُّ مُكلفين مَحشورين يوم القيامة مُحاسَبين على ما قدَّموا، فهل أُرسِلَت إليهم الرسُل

1- سورة الجن، الآيات: 8، 9.

2 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص1189.

3 - سورة الأنعام، الآية 112.

4 - ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

كما أرسِلَت إلى الإنس؟ وقد وُجِّه الخطابُ إليهم كما وُجِّهَ إلى الإنس في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ [1]، يتوقفُ سيدٌ عن الجواب في هذا لأنه لم يَرِدْ ما يفصِّله في القرآن الكريم ولا في السُّنة النبوية الشريفة، ويذهبُ إلى أن النصَّ يمكن تأويلُه بأن الجِنَّ كانوا يسمعون ما أُنزل على الرسُل وينطلقونَ إلى قومِهم مُنذِرين به، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ ﴾ [2] ويكِلُ سيدٌ علْمَ هذا إلى الله ويرى أن البحثَ فيما وراءَ هذا لا طائلَ وراءَه [3].

وفي قضية إخراج إبليسَ من الجَنَّة بعد أن امتنعَ عن السجُود لآدم ؛ يفيض سيد في دراستِه نموذج العِصيان المُطلق والاستكبار المَقيت الذي يمثِّله إبليسُ ومَن تبِعه من الجِن والإنس، فإبليس جعلَ له رأيًا مع النصِّ القاطِع والأمْرِ الجازِم حيث يبطُلُ التفكيرُ وتتعيَّنُ الطاعةُ ويتحتَّمُ التنفيذُ، ولم يكن ينقصُه العلمُ بأن اللهَ هو الخالِقُ المالِكُ الرازِق المدبِّر، فلم ينفعْهُ علمُه بالله ولا اعتقادُه بوُجودِه وصفاتِه، ويستخلصُ سيد مِن هذا معنًى عَقَديا جليلا وهو أن (كل مَن يتلقَّى أمرَ الله ثم يجعلُ لنفسِه نظرًا في هذا الأمر يترتبُ عليه قبولُه أو رفضُه، وحاكميةً في قضيةٍ قضَى اللهُ فيها من قبلُ، يردُّ بها قضاءَ الله في هذه القضية، إنه الكُفر إذن مع العِلْم ومع الاعتقاد) [4].

فإبليسُ يمثِّل الإصرارَ المطلقَ على الشرِّ والتصميمَ المطلق على الغِواية، فطبيعتُه شرٌّ ليس عارِضا ولا وقْتِيا، إنما هو الشرُّ الأصيلُ العامِدُ القاصِدُ العنيدُ [5]، أمّا مَن يتَّبعونَه من البشَر فقد يتَّبعونَه في معرفتِهم بالله واعتقادِهم بألوهيتِه، ثم في رفضِ حاكِميةِ الله وقضائِه، وادِّعاء أن لهم الحقَّ في إعادَة النظَر في أوامِر الله، وفي تَحكيم منطقِهم هُم في تنفيذِها أو عدم تنفيذِها، كما أنهم قد يتَّبعونَه فيضلّهم عن

---

1 – سورة الأنعام، الآية 130.

2 – سورة الأحقاف، الآية 29.

3 – ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1208، 1209.

4 – المصدر نفسه، مج3، ص 1266.

5 – ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

الاهتداء إلى الله أصْلا، وهؤلاء أتْباع الشيطان وجزاؤُهم جهنمُ مع الشيطان [1].

وسيدٌ في مثلِ هذه المواضِع يركّزُ دائما على القضايا العَقَدية الكامِنة في طوايا هذه النصوص، فلا يكتفي بسرْد القصَّة بتفاصيلِها، بل التفاصيلُ آخر ما يلتفتُ إليهِ منها، وإنما يرْمي إلى أبعدَ من ذلك بكثير، إلى دراسةِ النماذِج المعروضَة والطبائع الأصيلة والمَغازِي والدلالات التي يسوقُها النصُّ من وراء تلك الأحداث والوَقائع، فنجدُه في هذه القصّة بالذات يربطُ هذا العِصيان والادّعاء بعد الإيمان والعِلم بالله بقضية الحاكِمية التي يجبُ أن يُرجعَ المسلمُ كلَّ أمورِه فيها إلى الله الحاكِم المطلَق ؛ الذي لهُ ولهُ وحدَه سَنُّ الشرائع وتشريع الأحْكام ؛ وما على المؤمِن إلا التطبيقُ والتنفيذُ وإلا سُلكَ مع أتْباع المستكبِر العاصي الأوَّل الذي حكَّمَ منطِقَه في رفْض وقَبول الأوامرِ الإلهية.

تبقى قضيةُ العَرَافة والكَهَانة واستِرَاق الجِنّ للسمْع من السماء ومِن الملأ الأعلى، وهي قضيةٌ عَقَديةٌ خطيرةٌ لها تداعياتُها على قلوب ضعيفِي الإيمان، يُفيضُ فيها سيدٌ عند تفسيرِه لسورة "الجِنّ" ويقف وقفةً مُطوَّلة عند قولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [2]، فإذا كان المصدرُ الذي يستقي الجِنّ معلوماتِه منه عن الغيب لا يعلمُ هو نفسُه عنه شيئا، فقد انقطعَ كل قوْل وبطلَ كل زعْم وانتهى أمرُ الكَهَانة والعَرَافة وتمحَّضَ الغيبُ لله، وهذا إعلانٌ من القرآن الكريم عن تحريرِ العقل البشري من الأوْهام والخُرافات والأساطير.

أمّا طبيعةُ الحرَس التي تحرُسُ السماءَ ومَن هُم؟ وكيف تَرجُمُ الشياطينَ بالشهُب؟ فلا يخوض سيد فيها سيْرًا على منهجِه وهو منهج القرآن الكريم الذي لم يذكُرْ شيئا من تفاصيلِ ذلك، ولو كان في ذكْرِ التفاصيلِ خيرٌ وعائدَةٌ لفعلَ، فكلّ محاولةٍ لاستكْنَاهِ ذلك عبثٌ [3].

1 - ينظر: المصدر نفسُه، مج3، ص 1267.

2 - سورة الجن، الآيات 9، 10 .

3 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج6، ص 3730.

وفي مواضعَ أُخرى عديدةٍ من الظلال [1] يعرِض سيدٌ لهذه القضية وحيثياتِها العَقَدية واقفًا عند حدودِ العقل فيها ملتزِما ما وردَتْ به النصوصُ، مُبدِعا في إسقاطاتِه لها على حياة المسلِم في تصوُّرِه وفكرِه وسلوكِه، مخلصا لهذه التصوُّرات مما شابَها من الأوْهام التي تلْهَجُ بها العامَّة خاصةً في مثل هذه القضايا التي أصبحتْ مَرْتعًا خصيبا للدَّجَّالين والمشعوِذين ومُحترِفي التمائم والتعَاويذ.

1 - ينظر: المصدر نفسه: مج3، ص 1189، 1190، 1191 1209، ومج6، ص 3269، 3450.

المبحث الرابع: الغيبيَّاتُ:

المطلب الأول: الموْت: (مناقشةُ ما قيل عنه في مسألة الرُّوح):

الموتُ هو عدَم الحياة عمَّا مِن شأنِه أن يكون حيًّا، وهو كيفيةٌ وُجوديةٌ يخلقُها اللهُ تعالى في الحيِّ وهو ضدّ الحياة لقولِه تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [1] ، وقيل هو تعطُّل القوى عن أفعالِها لبطلان آلَتِها أو تركُ النفْس استعمالَ الجسَد [2]، فالموت فِعلٌ فيه قضاءٌ على كلِّ فِعلٍ وهو حادِث كليٌّ فالكلُّ فانُونَ، وجزئيٌّ لأن كلًّا منا يموتُ وحدَه [3] وهو الحقيقةُ الكبرى التي لا يملكُ أحدٌ التملُّصَ منها فهو مُلاقيها طالَ به العُمر أم قصُرَ، يستوي فيها الضعفاءُ والأقوياءُ والعُصاةُ والطائعونَ والأغنياءُ والفقراءُ، فلا بقاءَ إلا لله الحيِّ الذي لا يموتُ، والموْت أمرٌ مُشاهَدٌ محسوسٌ لكن حقيقتَه لا ندركُها وإنما يدركُها الميتُ نفسُه، ومدى ما ندركُه منها حالة المُحتضر ، أمّا حقيقة الموت فمغيَّبةٌ عنَّا ليس لنا من سبيلٍ إلى إدراكِها إلا بالخبر اليقيني الوارِد في شأنِها.

يتولَّى أمر الإماتة مَلَك الموْت الذي كلَّفه اللهُ تعالى بذلك ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [4] وأعوانُه من الملائكة لقولِه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [5] فاللهُ تعالى خلَقَ مَلَك الموت وجعلَ على يديْه ق بضَ الأرْواح وانتزاعَها من الأجسام وإخراجَها منها، وخَلَق تعالى جُندا يكونونَ معه يعملونَ عملَه بأمرِه، فمَلَك الموت يقبضُ والأعوانُ يعالجونَ واللهُ تعالى يُزهق الرُّوح [6].

أمّا أمرُ الرُّوح فشيءٌ غيبيٌّ لا يدركُ حقيقتَه إلا اللهُ تعالى، فهو مما استأثَرَ اللهُ بعلمِه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ

---

1 – سورة الملك، الآية 2.

2 – ينظر: التهناوي، كشّاف اصطلاحات الفنون، ج4، ص 106، 107.

3 – ينظر: عبد الرحمن بدوي، الموت والعبقرية، (الكويت: وكالة المطبوعات، د.ت) ص5، 6.

4 – سورة السجدة، الآية 11.

5 – سورة الأنعام، الآية 61.

6 – أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985م)، ج14، ص 94.

عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾[1] وعليه فليس للعقلِ البشريِّ أن يخوضَ في البحث عن ماهيَّتِها وكُنْهِهَا فقد قطعَ النصُّ القرآنيُّ في القضية.

ومِن الموت تبدأُ الحياةُ البرزخية، وهي ما بين انتهاءِ الحياةِ الأُولى وابتداءِ البعْث والنشور إلى الحياة الثانية الخالِدة، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[2]، وفي هذا البرزَخ يتنعَّمُ فريقٌ بما قدَّم من أعمال صالِحات، ويُعذَّب آخرُ بما اجترَحَ من السيئات ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3] والآية دليلٌ على نفْيِ التسويةِ بين الفريقيْن في المَمات وهو نعيمُ القبر وعذابُه، يعضِّد هذا قولُه تعالى في شأن فرعون وآلِه ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾[4] فالعرْض على النار يكونُ قبلَ يوم القيامة وهو في نفسِه عذابٌ[5].

وسيدٌ في سوْقِه لمسألةِ الموتِ لا يقفُ عند أحداثِه وأهوالِه ومصيبتِه، وإنما يَهدي ويُرشد المؤمنَ إلى التعامُل مع هذا الحادِث الذي يُلاقيه كل حيٍّ، وهو ناموس يحكُم الحياةَ وسُنَّة ليس لها استثناء، وهو عاقبةُ المَطاف للمرحلةِ القصيرةِ على الأرض وإلى الله يرجِع الجميعُ[6] .

ولن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ أجَلَها المرسوم لها، فإذا استقرَّ كل ذلك في حِسِّ المؤمِن وشعورِه هبَّ إلى الوفاء بالالتزامات الإيمانية والتكاليف الشرْعية وانطلقَ من عِقال الشحِّ والحِرْص وارتفعَ على وهلَة الخوف والفزع، وبذلك تستقيمُ نفسُه على الطريق بكلِّ تكاليفِه وبكل التزاماتِه، في صبرٍ وطُمأنينةٍ وتوكُّل على الله الذي يملكُ الآجالَ وحدَه (وشتانَ بين حياةٍ وحياة ! وشتان بين اهتمامٍ واهتمام ! ـ مع

1- سورة الإسراء، الآية 85.
2- سورة المؤمنون، الآيات 99، 100.
3- سورة الجاثية، الآية 21.
4- سورة غافر، الآية 46.
5- ينظر: عبد الرحمن حبنّكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسُسها، ص550.
6- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2377.

اتحاد النتيجة بالقياس إلى العُمر والأجَل ـ والذي يعيشُ لهذه الأرض وحدَها ويريدُ ثوابَ الدنيا وحدَها، إنما يحيا حياةَ الدِّيدان والدوابِّ والأنعام ! ثم يموتُ في موعِدِه المضروب بأجلِه المكتوب، والذي يتطلَّع إلى الأفق إنما يحيا حياةَ "الإنسان" الذي كرَّمه اللهُ واستخلَفهُ وأفرَدَه بهذا المكان ثم يموت في موعِدِه المضروب بأجَلِه المكتوب)[1]، فسيدٌ يحاولُ دائما وهو يعالِج مثل هذه القضايا الغيبية أن يستخلصَ منها ما يمكنُ أن ينفعَ المؤمنَ في حياتِه ، ويعود عليه بالفائدة في دينِه وإيمانِه، ولا يشغل نفسَه بالبحث في حيثياتِها وتفاصيلِها لأجْل الدراسة وحسب ، فالأمرُ أكبر من ذلك ، والازدياد في العلم والمعرِفة إذا لم يثمرْ عملا لا غنَاء فيه.

وعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾[2] لا يذهبُ في تِيهِ التأويلاتِ عن هؤلاء القوم مَن هُم؟ وكيفَ خرجوا؟ وفي أيِّ أرض؟ وفي أيِّ زمان؟ فلو كان اللهُ يريد بيانا عنهم لبيَّنَ وإنما القرآن يهتمّ بالعِبْرة والعِظَة والمَغزى (إنما يراد هنا تصحيحُ التصوُّر عن الموت والحياة وأسبابِها الظاهِرة وحقيقتِها المضمُورَة، وردُّ الأمر فيهما إلى القدرة المدبِّرَة والاطمئنان إلى قدَر الله فيهما، والمضيّ في حمْل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع فالمُقدَّر كائنٌ، والموتُ والحياةُ بيدِ الله في نهاية المَطاف)[3] .

إلى هذا ينزع سيد في مثل هذه القضايا ولو جاءت في معرِض القصص القرآني ، فاهتمامُه دائما ينصبُّ على الحِكمة الإلهية الكامِنة خلف المسائل، وعلى المطلوب من المؤمِن تجاهَها في التصوُّر والفِكر والسلوك، فالهلعُ لا يحفظ حياةً، والفزع لا يردُّ القضاء، والحياةُ والموتُ بيد الله فليس للمؤمِن إلا الثباتُ والصبرُ والتجمُّل، وهي معاني عميقةٌ إذا استشعرَها المؤمِنُ نشرتْ ظلالَ الطُّمأنينة عليه وغمرَت قلبَه باليقين.

---

1 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص487.

2 – سورة البقرة، الآية 243 .

3 – المصدر نفسُه، مج1، ص 264.

ولسيد وقفاتٌ كثيرةٌ من هذا القَبيل في "الظلال" [1] عند الآيات التي تتحدَّث عن الموت والأجَل واستحالة دفْعِه ، وانتهاء عمل الإنسان بوُقوعه ، وجهل الإنسان بزَمانه ، والحذَر منه وسَكَراته وغشْيته وغَمْرته، كلها ولا يحيدُ عن منهجِه الذي اختطَّه لنفسِه ؛ ألاَّ يقفَ على الظواهِر ولا يعيد ما قالَه المفسِّرون فيه، بل يبحث عن المعاني العَقَدية الكبرى المستكِنَّة في طوايا هذه الآيات ويحاول جُهدَه الكشفَ عنها وإبرازها، وقد وُفِّق كثيرا في ذلك بشهادةِ كثيرٍ من المنْصفين [2].

1 - ينظر: الظلال: مج3، ص 1534، ومج4، 2377، ومج5، 2945، 3232، ومج6، 3454، مج6، 3893، وغيرها.

2- ينظر: عدنان زرزور، "علوم القرآن"، ص 416 فما بعدها، وينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، "في ظلال القرآن في الميزان"، ص48 فما بعدها، وينظر: علي جريشة، "سيد قطب عملاقٌ في زمن الأقزام" (مقال في جريدة "زهرة الإسلام"، عدد 39، بتاريخ 18 نوفمبر 2006م)، وغيرها.

* مناقشةُ ما قيل عن سيد في مسألة الرُّوح:

المتهِمُ دائما ربيع المدخلي الذي لم يأْلُ جُهدا في محاولة نسْف تُراث سيد قطب ! ولكن أنَّى له ذلك ودعاواه كلها يردُّها عَرْضُ نصوص سيد وحدَها في سياقاتِها ، دون أن نحتاجَ إلى الاستدلال من هنا أو هناك، فلو كانت قائمةً على أسُس ناهضةٍ من المنطقِ والبحثِ العلمي لأجْهَدْنا أنفُسَنا في الردِّ عليها بالمقارَنة بين نصوص سيد والتراث العَقَدي لعلماء المسلمين ، ولحاكَمْناها إلى القواعد والضوابط التي وضعها العلماءُ الأعْلامُ، أمَا والأمرُ لا يعْدُو اقتطاع نصوص لسيد من سياقاتِها وتحميلَها ما لا تحتمِل من المعاني والدلالات، فقد كفانا المدخلي مؤونةَ البحث والتنقيب ، فليس علينا إلا عرْض النصوص لتدفعَ عن نفسِها بنفسِها.

يقول ربيع المدخلي عن النصِّ الذي سنوردُه بعد قليل أن سيدا يعتقدُ بأزلية الرُّوح ؛ وأنها غير مَخلوقة؛ وأنها جُزءٌ من ذاتِ الله تعالى [1]، ويخْتِم بقولِه: (فيا عجبًا لسيد قطب ! يثبتُ أن الروحَ أزلي !مع إجماع أهل السُّنة أنه مَخلوق، استنادا إلى كتاب الله وسُنة رسولِه ! ويقولُ عن القرآن: إنه مَخلوق ! مع أن القرآنَ والسُّنةَ وإجماعَ أهل السُّنة والجماعة أنه كلام الله وصفةٌ من صفاتِه المقدَّسة اللائقة بجلالِه) [2]، وقد أسلفْنا في الردِّ على تُهمة القول بخلْق القرآن، أمَّا الروح فهل يعتقد سيدٌ حقيقةً بأزليتِها كما يعتقدُ الزنادقة؟ وهل يعتقد أنه غير مَخلوق؟ وأنه جزءٌ من الله تعالى؟

نعرِض نصَّ سيد في هذا ليحدِّثَنا بنفسِه عن اعتقادِه في الروح، يقول سيد عند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [3]، (وقد كان ما قالَه اللهُ، فقولُه تعالى إرادةٌ وتوجُّه الإرادة يُنشئُ الخَلْقَ المُراد، ولا نملكُ أن نسألَ كيف تلبَّست نفخةُ الله الأزلي الباقي بالصلصال المَخلوقِ الفاني، فالجدَل على هذا النحو عبثٌ عقليٌّ بل عبثٌ بالعقل ذاتِه، وخروجٌ به عن الدائرة التي يملكُ فيها أسباب التصوُّر والإدراك والحُكم، وكل ما ثارَ من الجدَل حول هذا الموضوع وكل ما يثورُ إنْ هو إلا جهلٌ بطبيعةِ العقل

1- ينظر: ربيع المدخلي، أضواء على عقيدة سيد قطب وفكره، ص 178.

2- المرجع نفسُه، ص 179.

3- سورة الحِجْر، الآيات 28، 29.

البشريِّ وخصائصِه وحدودِه، وإقحامٌ له في غيرِ ميدانِه، ليقيسَ عملَ الخالِق إلى مُدركات الإنسان، وهو سفهٌ في إنفاق الطاقة العقلية، وخطأٌ في المنهج من الأساس، إنه يقول: كيف يتلبَّس الخالدُ بالفاني وكيف يتلبَّس الأزلي بالحادِث؟ ثم ينكرُ أو يثبت أو يعلل ! بينما العقلُ الإنساني ليس مَدعُوًّا أصْلا للفصْل في الموضوع، لأن اللهَ يقول: إن هذا قد كان. ولا يقول: كيف كان. . فالأمر إذن ثابتٌ ولا يملكُ العقلُ البشريُّ أن ينفيَه، وكذلك هو لا يملكُ أن يثبتَه بتفسير من عندِه ـ غير التسليم بالنصّ ـ لأنه لا يملكُ وسائلَ الحُكم. فهو حادِث. والحادِث لا يملكُ وسائلَ الحُكم على الأزلي في ذاتِه، ولا على الأزلي في خلقِه [لفظة (خلقه) أبدلها ربيع بـ (تلبسه)!! وبنَى عليها أحكامَه الجائرة فأي افتراء هذا؟ !] للحادِث، وتسليم العقل ابتداءً بهذه البديهية أو القضية ـ وهي أن الحادِث لا يملكُ وسائلَ الحُكم على الأزلي في أي صُورة من صوَرِه. يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقتِه سَفَها في غير مجالِه المأمون)[1] .

فأين هو القولُ بأن الروح أزلية؟ وأنها غيرُ مخلوقة؟ وأنها جزءٌ من الله تعالى؟، وسيد يصفُ الله تعالى وحدَه بالأزلي الباقي أمَّا الروح فحادِث والأزلي هو خالِق الحادِث، إذن فالروح مخلوقٌ وليس أزليا وليس جزءًا من الله تعالى، ويعضِّد هذا قوله: (والروح غيبٌ من غيبِ الله لا يدركُه سواه، وسرٌّ من أسْراره القدسية أوْدَعَه هذا المخلوقَ البشري وبعضَ الخلائق التي لا نعلم حقيقتَها)[2]، وقد حملنا أن نردَّ الأمور إلى نصابِها اغترارُ كثير بما يكتبُه هؤلاء دون وجْهِ حقّ، وليس أقمعَ لما يروِّجونه كالبحوث العِلمية المعتمَدة.

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2140.

2- المصدر نفسُه، مج4، ص 2249.

المطلب الثاني: أشْراطُ الساعة:

الساعةُ اسمٌ من أسماء يوم القيامة وهو الحادِثُ الكونيُّ العظيمُ الذي تُطوَى عنده السمواتُ والأرضُ وينتثِرُ النظامُ الكونيُّ كلُّه، أمَّا موعدُها فقد استأثرَ اللهُ تعالى بعلمِه ولم يُطْلِع عليه نبيًّا مُرسَلا ولا مَلَكا مُقرَّبا وقد صرَّحَ بذلك القرآنُ الكريم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[1]، أمّا ما يُشاعُ هنا وهناك عن تحديد موعدها من المنجّمين والعرَّافين فمحْضُ تخرُّصاتٍ وأكاذيب، للنصوص الصريحة الواضحة الوارِدة في شأن موعدِها.

وأَبَانَ اللهُ تعالى في آياتٍ أخرى من القرآن قُرْبَ حُدوثها ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾[2]﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[3].

أمّا أشراطُها وأَمَاراتُها فقسمان صغرى وكبرى، نكتفي بذكر الكبرى لوُرُود الخبر القطعي بها فكان الإيمانُ بها واجبًا، أما الصغرى وإنْ ورَدَ بعضُها بطُرق صحيحة إلا أنها لا تتجاوزُ حدودَ الظَّنِّيات [4]، وكذا لا يسعُنا المجالُ للإتيان بجميعِها لكثرتها في هذا الحيِّز المحدود من بحثنا هذا.

1ـ ظُهورُ الدجال:

وهو لقبٌ له لشدة تدْجيلِه وكذبه وإتيانه بالخوارق وتعْمِيَتِه على الحق بباطله، أنذرَتْ به الأنبياءُ أقوامَها وحذَّرت منه أُممها، ونعتتْه بالنُّعوت الظاهرة ووصفتْه بالأوصاف الباهِرة ، وحذَّر منه المصطفى وأنذر ونعتَه لأُمَّته نُعوتا لا تَخفى على ذي بَصَر [5]، وقد صحَّ في حديث النبي ﷺ: (ما بُعث نبيٌّ إلا أنذرَ

1- سورة الأعراف، الآية 187.

2- سورة القمر، الآيات 1، 2.

3- سورة الأحزاب، الآية 63.

4- ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 318.

5- ينظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ج2، ص 86.

أمتَه الأعورَ الكذاب، أَلَا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوبٌ كافر) [1].

2ـ نُزولُ عيسى بن مريم عليهما السلام:

يهبطُ إلى الأرض ويُقيمُ الشريعةَ الإسلامية الناسخة لجميع الشرائع السابقة، وهذا لا يُناقضُ كونَ سيدِنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات، وقد أشار القرآنُ الكريم إلى نزول عيسى في آيتين منه وهما قولُه تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [2]، وقوله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [3] فالآيةُ الأولى تدُلُّ على نزول عيسى عليه السلام قُبيْل قيام الساعة، فلا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب إلا ويؤمنُ به قبل موتِه فهو لم يمُت بعْدُ وإنما رفعه الله.

والآية الثانية أن عيسى عليه السلام دليلٌ على قيام الساعة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [4] أي عَلَامةٌ على قُرْب وُقوعها ولا يكونُ ذلك إلا بنُزوله كما وَرَد في الآية الأولى.

3 ـ ظهور يأجوج ومأجوج:

وَهُم أُمَّةٌ كبيرة من الناس تَفجَ أُ العالَمَ بظهورِها، تنشرُ الفسادَ والدمار في الأرض، ولا يعلم أحدٌ

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب "الفتن"، باب 26، رقم 7131، ومسلم في صحيحه، كتاب "الفتن وأشراط الساعة"، رقم 101، ج4، ص 2248.

2- سورة النساء، الآيات: 157- 159.

3- سورة الزخرف، الآيات: 57 -61.

4- وقد ظن الشيخُ البوطي خطأً أن قراءةَ (**وإنه لَعَلَم للساعة**) ـ بفتح العين واللام الثانية ـ ظنَّها سَبْعية ـ أي من القراءات السبع ـ والحقُّ أنها ليست حتى من العَشْر، بل هي قراءةٌ شاذَّة عن الأعمش، ينظر: محمد فهد خاروف، الميسَّر في القراءات الأربع عشرة، مراجعة: محمد كريم راجح، (ط1، بيروت، دار الكلم الطيب، 2000م)، ص 494.

موعِدَ ظُهورهم، نصَّ القرآنُ على أن ظُهورَهم إيذانٌ باقتراب موعد الساعة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ۝٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ ﴾[2].

4 ـ ظهور دابّة الأرض:

في التعبير القرآني لم يَرِدْ شيءٌ عن هيئتها وشكلِها تظهرُ للناس قبيل قيام الساعة وتُكلِّمُهم وحينئذ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها إن لم تكُن آمنتْ من قبلُ، يقول عز وجل: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢ ﴾[3].

5 ـ طلوعُ الشمس من مَغربها:

وهي من الآيات التي ذكرت في السنة ولم يَرِد ذِكرُها في القرآن الكريم، فقد صحَّ في حديث النبي ﷺ من حديث طويل: (لا تقومُ الساعةُ حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعَتْ وَرَآها الناسُ آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانِها خيرا)[4].

يذكر سيد من هذه العلامات والأَمَارات ثلاثا ولم أَجِدْ له ـ في حدود بحثي ـ تعريجا على الدَّجال أو طلوع الشمس من مغربها لعدم وُرُودها في القرآن، ففي مسألة نزول عيسى بن مريم عليهما السلام توقف طويلا ولم يَجزِم برأي في قضية رفْع عيسى أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح

1- سورة الأنبياء، الآيات 96، 97.

2- سورة الكهف، الآيات 94- 99.

3- سورة النمل، الآية 82.

4- أخرجه البخاري (4635) ومسلم (157).

بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاةُ وأين؟ لأن القرآنَ لم يفصل في ذلك ولم يذكر إلا أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه إنما وقع القتل والصلب على من شُبِّه لهم، فلا دليلَ إذن يستند عليه فأمسك، ثم جاء إلى قضية موت عيسى عليه السلام وأوردَ قولَيْن أَحَدُهما يرجع الضمير في قوله عز وجل ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ إلى عيسى أي قبل موت عيسى، والآخر يرجع الضمير إلى الكتابي أي لا يموت أحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يتبين له الحق ويؤمن بعيسى، وقد مال سيد إلى هذا القول الثاني وعضَّد مذهبَه بقراءة أُبيّ: ﴿ إلا ليؤمننَّ به قبل موتهم ﴾[1] فالقراءة تُعيدُ الضميرَ إلى أهل الكتاب[2] وفي شأن إيذان نزول عيسى عليه السلام بقُرب الساعة يُورد سيد أحاديثَ كثيرة، يقول قبل إيرادها: (وقد وردتْ أحاديثُ شتى عن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض قُبيْل الساعة وهو ما تشير إليه الآية ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى أنه يُعلِم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية (وإنه لَعَلَم للساعة) بمعنى أَمَارة وعلامة، وكلاهما قريبٌ مِن قريب)[3].

وفي أَمَارة يأجوج ومأجوج يتوقفُ سيد أيضا، مَن هم؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرِهم وماذا سيكونُ؟ لا يذكُرُ القرآنُ شيئًا عن جواب هذه الأسئلة، ويُرجِّح سيدٌ أن هذه الأَمَارة قد مضت وربما هي غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرقَ ودمَّرت مُلْك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يَدِ هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين ، فاقتراب الساعة قد وقع مُنذُ زمن النبي ﷺ فجاء في القرآن ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾[4] والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر، فقد تمرُّ بين اقتراب الساعة وَوُقوعها ملايين السنين أو القرون يراها البشَرُ طويلةً مديدة وهي عند الله ومضة قصيرة)[5].

وفي أَمَارة خُروج الدابة يَضرب سيد صفْحا عن ذِكر أوصافها التي ذكر المفسرونَ كثيرا منها

1- لم أجِدْ هذه القراءةَ لا في السبْع ولا في العَشْر ولا في الأربعةَ عشر، ينظر: محمد فهد خاروف، الميسَّر في القراءات الأربع عشرة، ص 103.

2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 802، 803.

3- المصدر نفسه ، مج5، ص 3198.

4- سورة القمر، الآية 1.

5- ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2294.

ويقول: (وحسْبُنا أن نقفَ عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يُفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، وأنه إذا انتهى الأجلُ الذي تنفعُ فيه التوبة، وحقَّ القولُ على الباقينَ فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك، وإنما يقضى عليهم بما هم عليه، عندئذ يُخرج اللهُ لهم دابةً تُكلمهم، والدواب لا تتكلم أو لا يفهم الناسُ عنها ولكنهم اليوم يفهمون، ويعلمون أنها الخارقة المنْبِئة باقتراب الساعة، وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ولا يُصدِّقون باليوم الموعود) [1].

وسيد في عرْضِه لهذه الأَمَارات التي تسبِق قيام الساعة يركز دائما على الفكرة الأساسية والمغزى الرئيسي من سوْقها في القرآن الكريم وهو أن يستشعِر المؤمنُ هوْل الموقف ويحاسِب نفسَه قبل أن لا ينفعَه إيمانُه إن لم يكُن آمن من قبلُ إيمانا صحيحا قويا يُنجيه مِن هوْلِها فلا يموت إلا مسلِما ولا يفْجَؤُه شيءٌ فله رصيدٌ يَحميه منها.

1- المصدر السابق، مج5، ص 2667.

المطلب الثالث: اليوم الآخِر وأحداثُه:

بعد تكامُل أشراط الساعة يجيءُ ميقات اليوم الآخِر الذي لا يعلم موعدَه إلا ربُّ العالمين، فينتثِرُ نِظامُ الكوْن وتتبدّل مَعالِمـُه وتموتُ الخلائق جميعا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1]، وقد أكثرَ القرآنُ من الحديث عن هذا اليوم العظيم لخطورتِه، فهو مِن أعظم الغيوب المَحجُوبة عن الإنسان فإذا كُشف الحجابُ أصبح نَظَرُه حدِيدًا كما قال عز وجل: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[2].

ولا يكتفي القرآنُ بالإخبار عن هذا اليوم فقط ؛ وإنما يسوقُ الحُجَج والدلائلَ ويلفتُ العقلَ إلى التدبُّر والتفكُّر في ضرورة وُقوعِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[3].

ويجيب بمنطق تُقِرُّه عقولُ أولئك المُرتابين الشاكِّين في وُقوعه ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾[4].

ونجد سيدا يُولي اهتماما بالِغا لهذا اليوم ويُخصِّص له كتابًا قائمًا بنفسِه عن مَشَاهِده أسْماه "مشاهد

1- سورة الزمر، الآية 68.

2- سورة ق، الآية 22.

3- سورة الحج، الآيات: 5- 7.

4- سورة مريم، الآيات: 66 - 68.

القيامة في القرآن "، وإنْ كان اهتمامُه في البداية بالأسلوب التصويري لهذه المَشاهِد ؛ إلا أن مقدِّمات الفصول واستطراداتِه الكثيرة التي تتخلَّل التطبيقاتِ البيانية نُلفيها حُجَجا وأدلّة مُقنعة، بَلْهَ ما أوْردَه في "الظلال" عند كل مناسبة، ولا تكادُ تخلُو صفحةٌ من كتاب الله عز وجل من إيرادِ شيءٍ يتعلّقُ باليوم الآخِر وأحداثِه [1].

فعن ضرورةِ وُجود هذا اليوم العظيم يذكرُ سيدٌ ثلاثةَ أدلة عقلية منطقية، **الأول**: عُمْر الفرْد على هذا الكوكب الأرضي قصيرٌ وحاجاتُه لا تنقضي وآمالُه غيرُ محدودة ؛ ثم يموتُ ويتركُ آمالَه ويُفارق أعِزّاءَه، أفلا يكونُ لقاءٌ؟، **الثاني**: ينظرُ الإنسانُ فيرى الخيرَ والشرَّ يصطرِعان وكثيرًا ما ينتصرُ الشرُّ على الخيرِ والرذيلةُ على الفضيلة، فيعِزُّ عليه أن لا تكونَ للخير كَرَّةٌ وأن لا يَلقى الشرُّ جزاءَه . والاعتقادُ بوجود إله عادِل يستتبعُ حتمًا جزاءً على الخير والشرِّ إن لم يكُن على الأرض فعَلَى عالَمٍ آخَر.

الثالث: أيكونُ مصيرُ هذا الجنس الإنساني الذي عَمَرَ الأرضَ وصنعَ ما صنعَ كمصير أيَّةِ حَشَرة أو دابَّة، حياةٌ قصيرةٌ ثم ينتهي كلُّ شيء؟ إنها إذن حياةٌ مَهينة ومصيرٌ بائس ![2].

إذن فعقلُ الإنسان وفِطرتُه وشعورُه وأخبارُ السماء كلُّها متضافرةٌ على ضرورةِ وُجودِ هذا اليوم الذي تتمُّ فيه العدالةُ لحياةِ هذا الإنسان ؛ التي تبقى مبتورةً ناقصةً إذا انتهتْ بالموتِ فكم من مُبتلًى مصابٍ طوَالَ حياتِه بينما يتنعَّمُ الآخَرونَ من حولِه دون جريرةٍ أَتَاها، وكم مِن فقير مُتْرَب لا يكادُ يجدُ قوتَ يومِه حياتَه كلَّها؛ بينما يُولَد بعضُهم في الترَف والنعيم ويعيشُهُما حياتَه كلَّها، وكم وكم، فأيُّ عدالة هذه إن لم تتِمَّ بحياة أُخرى يُوَفَّى كلٌّ فيها نصيبَه ولا يُظلمونَ نقيرا .

فالبعثُ حقٌّ والساعةُ حقٌّ ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾[3]، فلا يُستغرَب ولا يُستبعدُ ممَّن خلقَ السمواتِ والأرضَ وخلقَ الإنسانَ على غير مِثال سابق أن يُعيدَ الإنشاءَ مِن جديد ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[4].

1- ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 340.
2- ينظر: سيد قطب، مَشاهِد القيامة في القرآن، ص 13، 14، بتصرف.
3- سورة الحج، الآية 7.
4- سورة الروم، الآية 27.

الحشْـــر:

تظاهَرَت النصوصُ القرآنيةُ على إثبات حقيقةِ الحشْر عقبَ النفخةِ الثانية حشرًا يعمُّ الإنسَ والجِنَّ والملائكةَ والدوابَّ والطيورَ ، يقومُ فيه الناسُ حُفاةً عُراةً غُرْلًا [غير مَختُونِين] على أرضٍ مُستوِية لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا، ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

وقد اختلفَ العلماءُ في كيفيةِ حشْر الأجسادِ أبالإيجادِ بعد الإعْدام أم بالجمْع بعد التفريق، وجمهورُهم يرجِّح القولَ الثاني إذ هو ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾[3] وأنه لو عُدِمت الأجسادُ لما كان الجزاءُ واصِلًا إلى مستحِقِّهِ ؛ واللهُ تعالى لا يُضيعُ أجْرَ مَن أحسنَ عمَلا [4]، فيجمعُ اللهُ تعالى جُسُومَهم التي ذابتْ في طوَايا الأرض أو غيرِها كما تُجمَع برَّادةُ حديدٍ امتزجت بين حفنة من التراب بواسطةِ قطعةٍ من المغناطيس الجاذِب ؛ ويدُل على هذا قولُه تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾[5] فالذي يعود من الإنسان إلى التجمع و الحياة إنما هو عين أجزائه التي عاش بها في الدنيا [6].

وسيد يقف في "الظلال" طويلا أمامَ آياتِ البعْث والنشُور، أمامَ هذا الحدَث الهائل ؛ ويُرجعُ الأمرَ في ريب المُرتابين وشكِّ الشاكِّين إلى الغفلة وتبلُّد الطِّباع أمامَ المَشاهِد المَألوفة ؛ وإلا فالدلائلُ واضحةٌ يمرُّون عليها ؛ فلينظُروا في أنفُسِهم وفي الأرض مِن حولِهم، فالبعثُ إعادةٌ لحياةٍ كانت وهو أيسَرُ من إنشاءِ الحياة في تقدير البشَر أنفسِهم ؛ أمَّا بالقياس إلى قُدرة الله فلا شيءَ أيسرَ ولا شيءَ أصعَب

1- سورة الكهف، الآية 47.

2- سورة الأنعام، الآية 38.

3- سورة القَصص، الآية 88.

4- ينظر: سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصِد، ج5، ص 105.

5- سورة القيامة، الآيات: 3، 4.

6- ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 346، 347.

ولكن القرآنَ يأخذُ البشرَ بمقاييسِهم ومنطقِهم وإدراكِهم، ففي الإنسانِ نفسِه وتركيبِه، أينَ الترابُ مِن الإنسان ؟ أينَ تلك الذّرّات الساذَجة الأوّلِية مِن ذلك الخَلْق السوِيّ المركَّب ؛ الذي يضعُ قدميْه على الأرض ويرفُّ بقلبِه إلى السماء، ويُحلِّق بفكرِه فيما وراءَ المادّة كلّها ومنها ذلك الترابُ ؟ إنها نُقلةٌ ضخمةٌ بعيدةُ الأغْوار والآماد تشهَدُ بالقُدرة التي لا يُعجزُها البعثُ وهي أنشأَت ذلكَ الخلْقَ من تُراب [1]، هكذا يُذكِّر سيدٌ أولئكَ المُنكِرين المستعظِمين للحشْر بعد الموت باستدعاء هذه المَشاهِد المألوفة وبيان العلاقة الدقيقة بين مكوّناتها؛ فتكون ردًّا منطقيا عليهِم كما خاطَبهم المنهجُ القرآنيُّ بمقاييسِهم.

الحِساب:

وهو أهمُّ فصل من فصول الحشْر وأهوَلُ موْقف فيه، حتى أن القرآنَ سمَّى يومَ القيامة به ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ﴾ [3] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [4]، ففي ساحة العرْض الهائلة تتجمَّع الأجيالُ الحاشِدةُ التي عَمَرَت هذا الكوكبَ في عُمرِه الطويل القصير ! وقد جَثَوْا على الرُّكَب يرتقبونَ الحسابَ المرْهوب.

يُرجعُ سيدٌ هذه الرهبةَ إلى أمورٍ كثيرة، فهو مَشهد مرهوبٌ بهيئتِه والكلُّ جَاثُونَ على الرُّكَب ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [5]، ومرهوبٌ بما وراءَه من حساب، ومرهوبٌ قبلَ كلِّ شيءٍ بالوقْفة أمامَ الجبار القاهِر، ويعلمُ هؤلاء الواقِفونَ أن كلَّ شيء مكتوبٌ لا يُنسى ولا يَضيع، ثم تنقسمُ الحشودُ إلى فريقيْن، الذين آمنوا والذين كفروا، فريقٌ في الجنَّة

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2409.

2- سورة ص، الآية 26.

3- سورة ص، الآية 53.

4- سورة غافر، الآية 27.

5- سورة الجاثية، الآيات: 27- 29.

وفريقٌ في السعير [1] وعن هَوْل الموقِف وتفاصيلِه مِن دُنُوِّ الشمس فوقَ الرؤوس والعَرَق الذي يغْشَى الناسَ والكرْبَ الذي يلحَقُهم حتى يتمنَّوْا الانصرافَ ولَوْ إلى النار !!؛ وتوزيع الصحائف ورؤية الأعْمال، حديثٌ طويلٌ لا يسَعُنا الإلمامُ في هذا الحيِّز؛ ولسيدٍ في كلٍّ منها وقفاتٌ تَطولُ في "الظلال" [2].

المـيزان: " مناقشة ما قيل عنه في إنكاره للميزان !":

ولإقامةِ العدْل يومَ القيامةِ في الحِساب تُنصَبُ المَوازين القِسط ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [3] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ [4]، وقوله عز وجل: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [5]، فمنهم فمنهم مَن يُحاسَب حسابا عسيرا ويُسأَل عن كلِّ صغيرةٍ وكبيرة وتُستنطَق جوارِحُه فتنطِقُ ويلومُها صاحبُها على شهادتِها فتُجيبُ: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [6] وبحسب نتيجةِ الوزْن تكونُ السعادةُ أو يكونُ الشقاء [7].

أمَّا حقيقةُ الميزان وتعيين نوعِه وجوْهرِه وكيفيتِه فم مَّاأمسكَ عنه العلماءُ، وهل هوَ ميزانٌ واحِدٌ للخلائق كلِّهم أم موازينُ كثيرةٌ فالعِلم عند الله [8] وتابَعَهم في هذا سيدٌ بقولِه: (ولا ندخلُ هنا في طبيعةِ الوزن وحقيقةِ الميزان - كما دخلَ فيه المتجادِلون بعقليةٍ غيرِ إسلاميةٍ في تاريخ الفِكر الإسلامي - فكيفياتُ أفعال الله كلّها خارِجةٌ عن الشبِيه والمَثِيل، مُذ كان اللهُ سبحانَه ليس كمثلِه شيءٌ، وحسبُنا تقريرُ الحقيقةِ التي يقصِد إليها السياقُ من أنَّ الحسابَ يومئذٍ بالحقِّ وأنه لا يُظلم أحدٌ مثقالَ ذرَّة وأن عملًا لا

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ، مج5، ص 3233.

2- ينظر: المصدر نفسُه، مج3، ص 1290، 1778 و مج4، ص 2241، 2231، 2294، 2381، ومج5، ص 2559، 2892، 2911، 2961 ومج6، ص 3456، 3461، 3812، 3961.

3- سورة الأنبياء، الآية 47.

4- سورة الأعراف، الآية 8.

5- سورة المؤمنون، الآيات: 102- 103.

6- سورة فصلت: الآية 21.

7- ينظر: أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، (المغرب: الدار البيضاء، دار الطباعة الحديثة، د.ت)، ص346.

8- ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 351.

يبخس ولا يغفل ولا يضيع) [1].

وقد أوْردَ ربيع المدخلي هذا النصَّ نفسَه في كتابِه [2] وعلَّق عليه بقولِه: (وفي هذا الكلام انحيازٌ إلى أهل البِدَع من المعتزلة وغيرِهم في إنكارِ الميزان، واتهامٌ لأهل السُّنَّة الذين يُثبِتون الميزانَ احتجاجًا بنُصوص الكتاب والسُّنة، بأنهم يُجادِلون بعقليةٍ غيرِ إسلامية، فلا فرْق بينَهم وبينَ أهل البِدَع وال ضرلال في نظر سيد، بل أهل الضرلال أرجَح عندَه وأوْلى بالحقِّ والعياذُ بالله) [3]، فأينَ هو الموضِعُ الذي أنكرَ فيه الميزانَ من الفقرة التي أورَدْناها من كلام سيد؟ ! فربيع المدخلي عنْوَنَ فصلَه ب ـ " إنكار سيد قطب للميزان على طريقة المعتزلة والجهْمية " فيا لَهُ مِن تجَنٍّ !

فسيد على منهجه في الظلال نأَى بنفسِه وبظلالِه عن الخوض في المسائل الغيبيةِ خاصّةً ما تعلّقَ بأفعالِ الله سبحانه (فكيفياتُ أفعالِ الله كلّها خارِجةٌ عن الشبيه والمَثيل مُذ كان اللهُ سبحانه ليسَ كمثلِه شيءٌ)، فالرجلُ كان صريحًا بعدَما اعترف أن ثمَّةَ ميزانًا لله لا يَظلِم أحدًا ولا يَخدعُه أحدٌ، لم يُرِد أن يدخُلَ في كيفيةِ الميزان، ونأى بنفسِه عن البحث عن طبيعةِ الوزن أهي حِسِّية أم معنوية لا سيما في غياب نصٍّ مُبيِّن وحاسِم وه ذا دأبُه في سائر شؤونِه - رحمه الله - أمَّا زعْم المدخلي أن سيدًا منكِرٌ للميزان فزعمٌ باطل وافتراءٌ عليه؛ إمّا لقُصور عن فهْم بيانِه العالي، وإمّا لسوء ظنٍّ مُبيَّت نحوَه [4].

وعلى فرْض أن هذا النصَّ الذي أورَدْناه مُوهِم بما ذهبَ إليه المدخلي، فالحُكْم على الرجُل في أمر عَقَدي خطير وإلحاقُه بالمعتزلة والجهْمية لا يكونُ باجتزاء أربعة أسطُر من صفحةٍ ضمنَ أربعة آلاف صفحة من الظلال، فالأوْلى جمعُ كل المواضِع التي تحدَّث فيها عن الميزان فإن تظاهَرَت على هذا الإنكار جازَ الحُكْم، كيف وسيدٌ ينصُّ صراحةً على إثبات الميزانِ حقيقةً عند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1261.

2- ربيع المدخلي، أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، ص 174.

3- المرجع نفسُه، الصفحة نفسُها.

4- ينظر: عبد القادر منير المزدغي العزابي، الكشْف الجليُّ عن ظُلُمات ربيع المدخلي "نقدٌ لكتاب: أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره لربيع المدخلي"، (ط1، مصر: مطابع الأهرام التجارية، مكتبة التراث الإسلامي، 2003م)، ص 248.

حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1] يقولُ سيد: (والحَبَّة من خردل تصوّرُ أصغرَ ما تراه العُيونُ وأخفّه في الميزان، وهي لا تُترَك يوم الحساب ولا تَضيعُ، والميزانُ الدقيقُ يَشيلُ بها أو يَميلُ)[2]، فما الذي يَشيلُ وما الذي يميلُ غيرَ الميزانِ الحقيقيِّ؟ ! ويُبيّنُ بعدَها أن موازينَ الآخِرة الدقيقةِ ترتبطُ بنواميسِ الكون الدقيقة[3]، أفلَيسَ هذا تصريحًا منهُ أغفلَه المدخليُّ قاصِدًا عامِدًا ! وإلّا فالمواضِع التي ذُكِرَ فيها الميزانُ في القرآن يُراجَع فيها الظلالُ بسهولة دون عَناء في البحْث والتنقيب !! .

الصِّراطُ:

وهو جسرٌ على جهنّم، إذا انتهى الناسُ بعدَ مفارقتِهم مكانَ الموقِف إلى الظُّلمة التي دونَ الصراط، وفي هذا الموضِع يفترقُ المنافقونَ عن المؤمنين ويتخلّفونَ عنهم ويسبقُهُم المؤمنونَ، ويُحالُ بينهم بسورٍ يمنعُهُم من الوُصول إليهم ([4]) كما وصفَ القرآنُ ذلك المَشهَد: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾[5] .

وأشارَ إلى الصراط في قولِه تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾[6] وفي قولِه عز وجل: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[7]، وفي الحديثِ الصحيح: (والصراطُ كحدِّ السيف، دحضٌ، مزَلَّةٌ، فيُقالُ لهم: امضُوا على قدْر نورِكم، فمنهم مَن يمرُّ كانقضاضِ الكوكب، ومنهم مَن يمرُّ

1- سورة الأنبياء، الآية 47.
2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2381.
3- ينظر: المصدر نفسه، مج4، ص 2382.
4- ينظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 349.
5- سورة الحديد، الآيات 12، 13.
6- سورة مريم، الآيات 71، 72.
7- سورة يس، الآية 66.

كالريح، ومنهم مَن يمرُّ كالطَّرْف، ومنهم مَن يمرُّ كشدِّ الرجُل يرمُل رملا، فيمرُّون على قدْرِ أعمالِهم...) [1]، فينجُو المؤمنونَ على حِساب أحوالِهم ويسقُط الآخَرون ويذَرُهم اللهُ تعالى فيها جُثِيًّا، والوُرود الوارِد في الآية اختلف المفسِّرونَ في المُرادِ به، والأظْهَر والأقوى أنه المُرورُ على الصراطِ ؛ فوُرودُ النارِ لا يَستلزِم دخولَها والنجاة من الشرِّ لا يستلزِم حصولَه ؛ بل تستلزِم انعقادَ أسبابِه وكذلك حالُ الوارِد في النار، يمرُّونَ فوقَها على الصراط ثم يُنجِّي اللهُ الذين اتقَوْا ويذَرُ الظالمينَ فيها جُثِيًّا [2] .

أمَّا سيد فلم يقِف عندَ هذا المشهَد بتفاصيلِه التي ذكرَتْها كتبُ السُّنة، وإنما مرَّ مرًّا سريعا عليه في الآيات التي أوْرَدَته، وهذا يَرجعُ فيما نراهُ إلى أنه لم يهدِف من ظلالِه بيانَ كلّ التفاصيل الوارِدة في كُتب العقيدة بل كان يهتمُّ بالكُلّيات ومعاقِد الأمور في العقيدة ويفيض فيها ببيانِ أثرِها على إيمانِ المسلِم، وقد أسلفْنَا بنقْل ما أوْرَد عن اليوم الآخِر وأحَلْنا على المواضِع الكثيرة التي تناوَل فيها المسائلَ الأُخْرَوية بإطناب، أمّا قضية الصراط فلم نجِد له إلا تعليقًا لطيفا على آية ﴿ فاستبِقُوا الصراطَ ﴾ إذ يقولُ: (ثم مع هذا العَمَى يستبِقونَ الصراطَ ويتزاحَمونَ على العُبور ويتخبَّطونَ تخبُّطَ العُميان حينَ يَتسابَقون، ويتساقَطُون تساقُطَ العُميان حين يُسارِعون مُتنافِسين) [3].

ونحنُ في بحثِنا هذا نحاوِل ما أمكننا استخلاص كل آرائِه العَقَدية من كلّ كُتبِه، فإذا لم نجِد له في المسألةِ قوْلا نصَصْنا على ذلك، وهو طريقٌ غيرُ ممهَّد من قبلُ لذا عانيْنَا كثيرًا في البحث والتنقيب كي لا يفوتَنا شيءٌ فنحكُمَ بالتخرُّص على الرجُل، ونرجو أن نكونَ قد مهَّدنا الطريقَ للدراسات في فِكر الرجُل وعقيدتِه وسدَدْنا البابَ على من يتهِمونَه في دينِه وعقيدتِه بغير علم ولا هدًى ولا كتابٍ مُنير.

الجَنَّة والنار:

وهما مصيرُ الفريقيْن من المؤمنينَ والكفار والعاقبة الأخيرة التي لا عاقبةَ بعدَها، فقد جعلَ اللهُ دارَ النعيم ثوابًا للطائعين ودارَ العَذاب دارًا للعاصِين، يسعَدُ المؤمِنُ في الأُولى ويَشقى غيرُهم في الثانية، خالِدين فيهما أبدًا بعدَ أن يخرُج المَوحِّدون من النار برحمةِ الله، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ

1- رواه الحاكِم في المستدرَك، ج2، ص 408 و ج4، ص 633، وصحَّحه الألباني في تخريج الطحاوية، ص 469.
2- ينظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 350.
3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 2973.

وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]،

واتفقَ أهلُ السُّنة على أن الجنَّةَ والنارَ مخلوقتان موجودَتان الآن، إلا ما كان مِن المعتزلة والقدَرية الذين نفَوْا وُجودهما الآن بل يُنشئُهما اللهُ يوم القيامة بحُجَّة أن خلْقَه ماقبل الجزاء عبثٌ ! وهذا ردٌّ صريح لنصوص قرآنيةٍ كثيرةٍ كقولِه تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[2] عن الجنَّة، وقولِه عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾[3].

وقد وصفَ اللهُ تعالى لعبادِه الجنةَ والنارَ وفصَّل في جُزئيات النعيم في الأُولى والعَذاب في الثانية بما لا يدَعُ مجالًا للشكّ أنهما شيئان مادِّيان وليستا مجرَّد وَهْم يَطُوف بالنفْس أو بالروح [4]، كقوله تعالى في وصف الجنة: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾[5] وقوله عز وجل: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[6] وآيات كثيرة في وصْف الجنَّة ونعيمِها، وفي وصْف النار يقول تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[7] وقوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[8] وغيرِها من الآيات التي يحفَل بها القرآنُ الكريم.

1- سورة هود، الآيات 106 – 108.

2- سورة آل عمران، الآية 133.

3- سورة آل عمران، الآية 131.

4- ينظر: البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص358.

5- سورة محمد، الآية 15.

6- سورة الزخرف، الآيات: 70 - 73.

7- سورة الحِجر، الآية 44.

8- سورة التحريم، الآية 6.

والجنةُ والنارُ خالِدتان لا تفنيَان أبدًا ولا تبيدان وهو قولُ جمهور الأمَّة من السلَف والخلَف [1] بدليل قولِه تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ ﴾ [2] وقولِه عز وجل: ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ [3] وقولِه وقولِه سبحانه: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ [4]، وقد اعترَض بعضُهم على هذا بقولِه تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ [5] بمعنى أنهما ستفنيَان وتهلَكَان ويبقَى اللهُ تعالى وحدَه الحيَّ الذي لا يَموت، وأجابَ على هذا الاعتراضِ شارِح الطحاوية بقولِه: (كلُّ شيء ممَّا كتبَ اللهُ عليه الفَنَاء والهلاكَ هالِكٌ والجنَّة والنار خُلِقَتا للبقاء لا للفَناء وكذلك العرشُ فإنه سقْفُ الجنَّة) [6].

أمّا سيِّد فحديثُه عن الجنَّة والنار فذو طابع خاص، يتمَلَّى المَشاهِد المعرُوضة في القرآن ويسترسِل في التعليقِ عليها واستخلاصِ الفوائد الإيمانية منها التي تزيدُ المؤمنَ إيمانا ؛ وتخلِّص التصوّر الإسلامي مما عَلِقَ به من الشوائب والذيُول، مُبتعِدا في ذلك كلِّه عن رواية الإسرائيليات التي حفلَت بها بعضُ التفاسير في وصْف الجنَّة والنار، فمهمَّته هوَ في هذا العرْض عمليةٌ حَرَكيةٌ تحافِظ على جوِّ النصِّ القرآني ولا تحجُب النصَّ عن القارِئ بتلك الروايات والمطوَّلات التي لا غَناء مِن ورائها، فنجدُه واقِفا عند حُدود النصِّ القرآني باذِلا جهدَه في استخراج مَكْنُوناتِه العَقَدية الإيمانية التي تَعودُ بالنفْع العَميم على عقلِ وفكرِ وسلوكِ المسلِم المعاصِر.

فعند قولِه تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [7] يتساءلُ سيد عن سبب الجمْع بين الناس والحِجارة؟ والنارُ أعِدَّت للكافرين ! يجيبُ بجوابٍ لطيف وهو أن اللهَ تعالى وصفَهُم من قبلُ بأنهم ختم على قلوبِهم وعلى سمعِهم وعلى أبصارِهم غشاوة ؛ فهُم إذن حِجارةٌ من الحِجارة وإن كانوا من الوِجْهة الشكلية في صورَة آدَمية، فالجمْع بين الحِجارة من الحَجَر والحِجارة

1- ينظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 357. وقال ببقاء الجنَّة وفناء النار جماعةٌ من السلَف والخلَف، وقال بفناء الجنَّة والنار الجهْم بن صفوان وأنكرَه عليه أهلُ السُّنة وكفَّروه به، ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2- سورة الرعد، الآية 35.

3- سورة الحجر، الآية 48.

4- سورة الدخان، الآية 56.

5- سورة القصص، الآية 88.

6- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 357.

7- سورة البقرة، الآية 24.

من الناس ليس غريبًا بل هو الأمرُ المُنتظَر [1].

وفي مشهَد مُناداة أهلِ النار لخازِنها مالِك أن يتوسَّط لهم عند ربِّهم ليقضيَ عليهِم ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧ ﴾ [2] يعلِّق سيدٌ واصِفا المشهدَ جاعِلَه ناطِقا: (إنها صيحةٌ مُتَنَاوِحةٌ من بُعْد سحيق من هناكَ من وراء الأبواب المُوصَدة في الجحيم، إنها صيحةُ أولئك المجرِمين الظالِمين، إنهم لا يَصيحونَ في طلب النجاة ولا في طلب الغوْث، فهم مبلِسون يائسونَ، إنما يَصيحونَ في طلب الهَلاك، الهلاك السريع الذي يُريحُ، وحسبُ المَنايا أن يكُنَّ أمَانِيا !.

وإن هذا النداءَ لَيُلقي ظلًّا كثيفًا للكرْب والضِّيق، وإننا لنكادُ نرى مِن وراء صرْخة الاستغاثة نفوسًا أطارَ صوابَها العذابُ وأجسامًا تجاوزَ بها الألَمُ حدَّ الطاقةِ، فانبعثت منها تلك الصيحةُ المَريرة) [3] [3] ألا يُغني الوصفُ البارِع للمشهَد عن عشَرات العِظات؟ ألا يَحملُ القارئَ على التفكُّر واستحضار المشهَد حيًّا؟ هذه هي طريقةُ سيد في عرْض هذه المَشاهِد من الجنَّة والنار، ولا يهمُّه حشْوُ ذِهن القارِئ بالكمِّ الهائل من المَرْويات والإكثار من الاستدلالات والحُجَج، فمهمَّة القرآن الأساسية عنده ليست تكوينَ رصيد ثقافي يُضافُ إلى المكتبة الإسلامية وإنما هي بعْثُ الأمَّة مِن جديد للحَرَكة بهذا الدِّين.

أمَّا مَنَاعِم أهل الجنَّة فيرى سيدٌ أن ظاهِرَها حِسِّي لتقريبِها للتصوُّر البشري أمَّا حقيقتُها فلا يدركُها أهلُ الأرض وهم مُقيَّدون بمدارِك الأرض وتصوُّراتِها [4]، ويرى أنه من اللغْو الدخولُ في مُوازَنات أو تحقيقات حوْل طبيعة النعيم أو طبيعة العَذاب في الجنة أو في النار وأهلُ الأرض يدرِكونَ بحِسٍّ مقيَّد بظروف هذه الأرض، فإذا كانوا هناكَ رُفِعت الحُجُب وأُزيلت الحواجِز وانطلقت الأرْواح والمدارِك، أمَّا هنا في الدنيا فإنما نُفيدُ من هذه الأوْصاف أن يستحضِرَ تصوُّرُنا أقصى ما يطيقُه من صُوَر اللذَاذَة والحَلاوة والمَتاع أو أقصى ما يملكُ تصوُّرَه من الألَمَ الذي يتجمَّع من الذُّل والوَهَن والخيبَة ومن لسْع النار الحامِية [5].

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص49.
2- سورة الزخرف، الآية 77.
3- المصدر نفسه ، مج5، ص 3202.
4- ينظر: المصدر نفسه، مج6، 3808.
5- ينظر:المصدر نفسه، مج6، ص 3896، 3897.

ولسيدٍ وقفاتٌ كثيرةٌ في "الظلال" وفي "مَشاهِد القيامة في القرآن" يطولُ بنا المَقامُ لو عرضْنا أكثر من هذا، له خاصّية في عرْض تلك النصوص على القارئ وكأنه يرسُمُها بريشةِ فنَّان لا بقلم كاتِب، والذي يجمَع ما وَرَد في "الظلال" منها سيأتِلِفُ له منها كتابٌ ضخمٌ بأسلوبٍ يفوقُ أسلوبَ "مشاهد القيامة" بكثير لأن "الظلالَ" كتبَه متأخِّرا بعدَ أن استكملَ العُدَّة وتمرَّسَ بالأسلوبِ القرآني طويلًا فهو عُصارَة فكرِه.

الفصل الرابع: وظيفةُ الإنسانِ تنفيذُ حاكِميَّةِ الله في الأرض:

المبحث الأول: تحديدُ بعض المُصطلَحات:

المطلب الأول: الحاكِميَّة:

لا يُذكرُ مصطلحُ "الحاكِمية" إلا ويُذكرُ معه سيد قطب، فقد عُرِفَ سيدٌ بالقول به والإكثار من ه والتفصيل فيه كما لم يفعل أحدٌ قبلَه ؛ إلا ما كان مِن أبي الأعلى المودودي الذي يُعَد أوَّل مَن ابتدع مصطلح "الحاكِمية" وأسَّس عليه نظريتَه السياسية مِن منظور إسلامي [1]، وقد تأثَّر سيدٌ كثيرا بأفكار المودودي من خلال كُتبه وإن لم يتمَّ بينهما لقاءٌ وتبنَّى بعضَ أفكارِه وطوَّرَها ومنها فكرة "الحاكِمية"، فقد كان يطلقُ عليه لقبَ "المسلِم العظيم" ([2])، ويؤكد هذا أبو الحسن الندْوي [3] بقولِه: (وقد أُعجِب الكاتبُ الإسلامي الكبيرُ الأستاذُ سيد قطب الشهيد –وهو صديقُ المؤلِّف العزيز –إعجابًا شديدا بكتاب المودودي "المُصطلحات الأربعة في القرآن " ووافَقَه كل المُوافقة في الآراء والأفكار التي يتضمَّنها، وقد جعلَ "الحاكِميةَ" أخصَّ خصائص الأُلوهية) [4]، فما مدلولُ هذا المصطلَح عند كلٍّ من المودودي وسيد قطب؟

يرى المودودي أن الأساسَ الذي ترتكزُ عليه النظريةُ السياسيةُ في الإسلام أن تُنزَع جميعُ سلطات الأمْر والتشريع من أيدي البشَر منفرِدين ومجتمِعين، وتكونَ الحاكميةُ لله وحدَه وبيدِه التشريعُ وليس لأحدٍ – وإن كان نبيًّا – أن يأمُرَ وينْهَى مِن غير أن يكونَ له سلطانٌ من الله، فالخصائص الأوَّلية للدولة الإسلامية ثلاثٌ:

1- ينظر: حسن لحساسنة، الحاكِمية في الفكر الإسلامي، (ط 1، قطر، الدوحة: دار الكتب القطرية، 2007 م)، ص 137، 138.

2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 295، 321 و مج4، ص 1902.

3- مفكر إسلامي هندي معاصر، ولد بالهند سنة 1914م، ينتهي نسَبُه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، تعمَّق في العلوم العربية والإسلامية، وألَّف فيها، جابَ العواصمَ الإسلامية، ومنها مصر، أشهر مؤلفاته، "ماذا خسِرَ العالَمُ بانحطاط المسلمين " عام 1945م، وترك هذا الكتابُ تأثيرا على سيد قطب وقدَّم له.

ينظر: أخي أبو الحسن، أحمد الشرباصي. وينظر: الشيخ أبو الحسن الندْوي كما عرفتُه، يوسف القرضاوي.

4- أبو الحسن الندْوي، التفسير السياسي للإسلام في مِرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، (ط 2، القاهرة: دار آفاق الغد، 1980م) ص 68.

1 – ليس لفرْد أو أسْرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطِنين في الدولة نصيبٌ من الحاكِمية فإن الحاكِم الحقيقي هو اللهُ؛ والسلطةُ الحقيقيةُ مختصَّةٌ به وحدَه.

2 – ليس لأحدٍ مِن دون الله شيءٌ من أمْر التشريع ؛ والمسلمونَ جميعًا لا يستطيعونَ أن يشرِّعوا قانونا أو أن يُغيِّروا شيئا ممَّا شرَع الله.

3 – إن الدولةَ الإسلاميةَ لا يُؤسَّس بنيانُها إلا على ذلك القانون المشرّع الذي جاء به النبيُّ من عندِ ربِّه مهما تغيَّرت الظروفُ والأحوال [1]، وقد فهم الغُلاةُ مِن أهل الجُمود والتقليد خطأً من هذا النصِّ نفيَ الحاكِمية بإطلاق عن الإنسان ممثَّلةً في الخلافة والاستخلاف إنْ في التقنين أو في التنفيذ، وتجاهَلوا النصوصَ الأخرى للمودودي التي ينصُّ فيها صراحةً أن الإنسانَ هو حاكِم الأرض بالاستخلاف عن الله كقولِه: (إن في الخِلافةِ معنى الحاكِمية والسلطان، والإنسانُ في نِظام العالَم هو حاكِم الأرض، لكن حُكمَه لها ليس في ذاتِه وأصلِه، وإنما هو حكمٌ مفوَّضٌ إليه) [2] .

فمفهومُ "الحاكِمية" عند المودودي هي السلطةُ العُليا المُطلقة المُشرِّعة للأحْكام، أمَّا البشَر فمنفِّذون لهذه الأوامِر العُلوية ومُزاوِلون للسلطة المَمنوحة لهم ، ويقول في موضِع آخَر: (القرآنُ الكريم ليس هو بكتاب الجُزئيات ، بل هو كتابُ المَبادئ والقواعِد الكُلِّية ومهمَّته الحقيقية أن يعرِض الأسُس الفكرية والخُلُقية للنظام الإسلامي بوُضوح، ثم يُثبِّتها تثبيتًا قويا بكِلا الطريقتيْن: التدليل العقلي والتحريض العاطفي، أمَّا ما يتعلّق بالصورة العمَلية للحياة الإسلامية فإنه لا يُرشد الإنسانَ إليها بوضْع قوانين وأنظمة تفصيلية، بل إنه حدَّد الحُدود الأساسية) [3].

وما الثروةُ الفقهية التشريعية التراثية كلُّها إلا مِن حُكم وإنتاج البشَر في ضوء مَرجعية الكتاب والسُّنة، فالإشكالية الحقيقية لمسألة "الحاكمية" هو التعسُّف في توظيف مفاهيمِها، فهي قِيَمٌ ومرجِعياتٌ ومبادئُ كُلِّية جاء بها الوحيُ وليست أنظمةً وبرامجَ مفصَّلةً كما أساءَ فهمَها كثيرٌ من الفِرَق والجماعات المتشددة !

1- ينظر: أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسية، ترجمة: جليل حسن الإصلاحي (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م)، ص 30 ، 33 بتصرّف.

2- أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية، ترجمة: أحمد إدريس، (القاهرة، 1977م)، ص 65.

3- أبو الأعلى المودودي، المبادئ الأساسية لفهم القرآن، ترجمة: أحمد خليل الحامدي، (الكويت، 1971)، ص 62.

أُعجِب إذن سيد قطب بطرْح المودودي لهذا المفهوم وأكثَرَ من إيرادِه في حديثِه عن العقيدة وعن التشريع؛ وجعلَه من أخصِّ خصائص الألُوهية ليس لأحد الحقُّ في أن يدَّعيه ؛ سواء ادَّعى هذا الحقَّ فردٌ أو طبقةٌ أو حزبٌ أو هيئةٌ أو أُمَّةٌ أو الناسُ جميعا بأن يُنَحُّوا شريعةَ الله عن الحاكِمية ويجعلوا مصدرَ السلطات جهةً غير الله سبحانه وتعالى [1].

ويتحسَّر سيد على أن أصبحت قضيةُ الحاكِمية في نفوس المسلمين قضيةً منفصِلة عن قضية العقيدة، لا تَجِيشُ لها نفوسُهم كما تجيشُ للعقيدة، وبهتَت صورتُها في حِسِّهم، بينما الدِّين كلّه متوقفٌ عن الوُجود أصْلا ما دام لا يتمثَّل في نظام وأوْضاع (فلقد كانت المعركةُ الأُولى التي خاضَها الإسلامُ ليقرِّر وجودَه هي معركة الحاكِمية وتقرير لِمـ ـَن تكونُ، لذلك خاضَها وَهُوَ في مكة، خاضَها وهوَ يُنشيءُ العقيدةَ ولا يتعرَّض للنظام والشريعة، خاضَها ليثبتَ في الضمير أن الحاكِمية لله وحدَه، لا يدَّعيها لنفسِه مسلمٌ، ولا يقرُّ مدَّعيها على دعواهُ مسلِم، فلمَّا أن رسخت هذه العق يدةُ في نفوس العُصبة المُسلِمة في مكة، يسَّر اللهُ لهم مزاوَلَتها الواقعية في المدينة ؛ فلينظُر المتحمِّسون لهذا الدين ما هُم فيه وما يجبُ أن يكونَ بعدَ أن يُدرِكوا المفهومَ الحقيقيَّ لهذا الدين) [2].

والنقطة المِفصلية التي أساءَ الكثيرُ فهمَها من عرْض سيد لمفهوم الحاكِمية أنهم خلَطوا بين التشريع الإسلامي الذي هو مِن عندِ الله بصريحِ القرآنِ الكريم: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [3] وبين السُّلطةِ السياسيةِ التي يتولَّاها الحُكَّام، ففرْقٌ كبيرٌ بين التشريع وبين مُزاوَلة السُّلطة، فالإقرارُ بالحاكِمية لله معناهُ إفرادُه سبحانَه وتعالى بالحُكم والتشريع واستمدادُ كلِّ التشريعات مِن الله وتطبيقُها على مختلف مناحي الحياة.

أمَّا إذا استمدَّ مزاوِلو الحُكم تشريعاتِهم من مصدَرٍ غير الله سبحانه وأرادُوه وَرَضُوا به فهنا الكُفْرُ والظلمُ والفسوقُ الذي أشارت إليه الآياتُ الكريماتُ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [4]، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [1]، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [2].

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 1990.

2- المصدر نفسُه، مج3، ص 1217.

3- سورة الأعراف، الآية 54.

4- سورة المائدة، الآية 44.

يُفصِّل سيدٌ هذا بوُضوح عند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [3] أن مَن اتجهَت إرادتُه إلى التحاكُم لغيرِ شريعةِ الله أو حتى إذا تحاكَمَ إلى شريعةِ الله وسُنَّة نبيِّه ولكن لم ترْضَ نفسُه ولم يُسلِم قلبُه فلا يكتسب صفةَ الإيمان، فشهادةُ اللسان تُؤخَذ وتُعتبَر إذا لم تصْحَبْها إرادةُ التحاكُم إلى غير شريعةِ الله وإذا لم يُصاحِبْها عدمُ الرِّضى والاستسلام لحُكم الله ورسولِه في أيِّ شأن مِن شؤون الحياة [4].

ويعلّقُ أخوه محمد قطب بقولِه: (يتبينُ بوُضوح أنه [سيد قطب] يشترِط لإطلاقِ حُكم الكُفر فيما يتعلّقُ بقضيةِ الحاكِمية إرادة التحاكُم إلى الطاغوت، و الرِّضى بغير حُكم الله، وهذا هو الذي اتفقَ عليه علماءُ المُسلمينَ في جميع الأمْصار وجميع الأعْصار وبخاصَّة علماءُ السلَف مِن هذه الأُمَّة رضيَ الله عنهم وأرْضاهم) [5] ويكتبُ لفظتَيْ " **إرادة** " و " **الرضى**" بخطٍّ غليظ للتنبيهِ عليهِما إذْ تترتَّبُ الأحكامُ عليهِما بالتحديد.

وقد اتُّهِم سيدٌ بأنه وهوَ يركِّزُ في كتاباتِه على الحاكِمية ويجعلُها أساسًا لهذا الدينِ والمبدأ الإسلامي الأوّل له، ولا يتحقَّق تحقُّقا واقعيا عمليًّا في حياةِ الناس إلا إذا كانت الحاكِمية لله في كلِّ شؤون الحياة، اتُّهِم بأنه ينفي أن تكونَ للإنسان على هذه الأرض تشريعاتٌ وقوانينُ تنظِّم حياتَه في مختلف تفاصيلِها، ومِن هؤلاء الذين أساؤوا فهْمَ أقوال سيد نجدُ محمد عِمارة إذ يقول: (يزعُم أصحابُ شِعار الحاكِمية لله أن السلطانَ السياسيَّ في المُجتمع الإسلامي ليس حقًّا مِن حقوق الأمَّة، فالبشَر ليسُوا هم الحُكَّام في مجتمعاتِهم، وإنما الحاكِم في هذه المجتمعات هو اللهُ - سبحانه وتعالى - أي أن الأمَّةَ ليست هي مصدَر السلُطات كما تعارَفت على ذلك الدساتيرُ والأنظِمةُ والنظرياتُ التي تسودُ أغلبَ أنحاء الدنيا في العصْر الذي نعيش فيه) [6]، ولا يزعُم سيدٌ هذا وهو من كِبار رافِعي شِعار الحاكِمية، فهو نفسُه يصرِّح بقولِه:

1- سورة المائدة، الآية 45.

2- سورة المائدة، الآية 47.

3- سورة النساء، الآية 65.

4- ينظر: سيد قطب، مقوِّمات التصوُّر الإسلامي، ص 170.

5- ينظر: المصدر نفسُه، ص 12 "من مقدِّمة أخيه محمد قطب".

6- سالم البهنساوي، الحُكم وقضية تكفير المسلم، ص 128.

(إن مهمَّةَ التفكير البشَري أن يستنبطَ من كتابِ الله ومنهجِه أحكامًا تفصيليةً تطبيقيةً لأحْداث الحياة المتجدِّدة وأقْضِيَتِها المتطوِّرة) [1]، وأشارَ أيضا إلى ذلك الفهْم الخاطِئ حسن الهُضيبي وهو يردُّ على المودودي في معرِض حديثِه عن سنِّ القوانين والنُّظُم والتشريعات بقولِه: (ولا يجوزُ لأحدٍ أن يزعُمَ أن تشريعاتِ تنظيم المُرور في هذه الحالَة من تشريع الله تعالى عز وجل، إنما هي من تشريعِنا واجتهادِنا تنفيذًا لمقصد عامّ، أمرَنا اللهُ تعالى به، وهي تشريعاتٌ وقوانينُ تتبدَّل وتتغيَّر حسبما تقتضيهِ الحاجَة) [2].

وسيدٌ كما أسلفْنا على خُطى المودودي في مفهوم "الحاكِمية" بل صرَّح هو نفسُه ألَّا فرْق بين فهميْهما للحاكِمية في مقابلتِه مع صلاح نصَّار إذ سألَه: (ما مدلولُ الحاكِمية في رأيِكَ ؟ فأجابَ سيدٌ: أن تكونَ شريعةُ الله هي قاعدة التشريع...وبما أن اللهَ سبحانَه وتعالى لا ينزِل بذاتِه للتحكيم، وإنما أنزَل شريعتَه ليُحكَم بها، فحاكِميتُه سبحانه وتعالى تتحقَّق عن طريق تحكيمِ شريعتِه كما تقولُ النصوصُ القرآنيةُ بألفاظِها، فسألَه: ألم تنقُل هذه الأفكارَ مِن مؤلفاتِ أبي الأعلى المودودي؟ فقالَ: أنا انتفعْتُ بكُتبه وغيرِها من الكُتب أثناء دِراستي للإسلام، فسألَه: وما الفرْق بين ما تُنادي به ويُنادي به أبو الأعلى المودودي؟ أجابَ: لا فرْق ! [3].

فالحاكِميةُ عند سيد قطب وعند المودودي لا تعني أن اللهَ تعالى هو الذي يُسندُ السلطةَ إلى الخُلفاء والأُمَراء والحُكَّام ؛ وإنما الأمرُ مَسنُود إلى الأمَّة تختارُ ممثِّليها ليطبِّقوا شريعةَ الله في حُكمِهم بحيث لا يستمدُّون من شريعة بشَرية أُخرى ؛ فشريعةُ الله تكفيهم في كُلِّياتِها ومقاصِدِها ؛ أمَّا الجزئياتُ التي يستخلِصونَها هم منها فبفِكرِهم وعقولِهم البشرية التي تصيبُ وتُخطِيء.

ولابدَّ من الإشارَة أيضا إلى الظروف التي عاشَها سيد قطب وهو يُنظِّر لمفهوم الحاكِمية ؛ فالنظامُ كان يَرأسُه ما يُسمِّيهم بالطُّغاة الذين استبدُّوا بالحُكم وكانت لهم السلطةُ المُطلقةُ فيشرِّعونَ ما يشاؤونَ ويُحلِّلون ويحرِّمونَ مِن عندِ أنفسِهم غير ملتزِمين بشريعةِ الله في شيءٍ، فكانت هذه المُلابَساتُ كلُّها مؤثِّرةً على سيد قطب فيبْدُو خطابُه مَوْسوما بتلك الحِدَّة والاندفاع والحَماسة في الأسلوب مما دفعَ بعضَ قارِئيه من الشباب أن يستخلِصوا أحْكامًا لا تمتُّ لما كتبَ بصِلة ؛ وهذا ما أوْضحَه بجلاء أقرَبُ الناسِ إليهِ ؛

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 705.

2- حسن الهضيبي، دُعاةٌ لا قُضاة، (الجزائر، دار الصديقية للنشر، 1989م)، ص 97.

3- سامي جوهر، الموْتى يتكلمون، ص 135.

أخوهُ "محمد قطب" في مقدِّمتِه الرائعة لـ"مقوِّمات التصوُّر الإسلامي" لسيد قطب وهو آخِر ما كَتبه في حياتِه.

ويرى محمد إبراهيم شقرة أن سيدًا لم يُخطئ في نظرية الحاكِمية من حيث القصدُ والغايةُ ولا من حيث الفحْوى والمَعنى بل أخطأ من حيث اختيارُ الحال والوقت ؛ فقد أظهرَها سيدٌ في وقتٍ خفِيَ أمرُها على الأمَّة فتوجَّس الأُمَراءُ خيفةً ورُعِبُوا منها، واستطارت قلوبُ الجماهير بها فرَحًا، فالنظريةُ حتى ولو لم يكتُب فيها أحدٌ قطُّ فإن في صريح قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] ما يزيدُ عن الحاجَة، لكن الجديدَ عند سيد إنما هو في طريقةِ العرْض المُثيرة الجذَّابة، وهي إحدى الخصائص الإبداعية التي تميَّزَ بها أسلوبُه مِن سائر الأساليبِ المُعاصِرة وكان به صاحبَ مدرسةٍ تجديديَّة[2]، وأمرٌ آخَرُ أن إعدامَ سيد قطب المبكِّر وضَعَ مفاهيمَه وأفكارَه في متناوَل الجميع فنجدُ من يُحمِّلها ما لا تحتمِل ويُرتِّب عليها أحكامًا خاطِئة.

أمَّا مفهوم الحاكِمية التطبيقي عند سيد فيوضِّحه قائلا: (ومملكَة الله في الأرض لا تقومُ بأن يتولَّى الحاكِميةَ في الأرض رجالٌ بأعْيانِهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الأمرُ في سلطانِ الكنيسة، ولا رجالٌ ينطقونَ باسم الآلِهة كما كان الحالُ فيما يُعرَف باسم الثيوقراطية أو الحُكم الإلهي المُقدَّس، ولكنها تقومُ بأن تكونَ شريعةُ الله هي الحاكِمة وأن يكونَ مَرَدُّ الأمْر إلى الله وِفق ما قرَّره من شريعة مبيّنة... وسيادة الشريعة الإلهية وحدَها وإلغاء القوانين البشَرية)[3].

فالحاكِمية هي سيادةُ الشريعة الإسلاميةِ على غيرِها من القوانينِ، وأيُّ قانون يُعارِضها ويضادّ مبادئَها فهو مُلغًى باطِل، ويُعطي سيدٌ هذه السيادةَ مدلولًا أوسعَ لتشمَلَ كلَّ أنظِمة الحياة ومقوِّماتها ، فهي تشمَل أصولَ الاعتقاد وأصولَ الحُكم وأصولَ الأخلاق والسلوك وأصولَ المعرِفة[4]، وهكذا فالفكرةُ المَركزية للحاكِمية بهذا الأفق الواسِع مثَّلَت صِبغة لمؤلفات سيد قطب الفِكرية الإسلامية

1- سورة يوسف، الآية 40.

2- محمد إبراهيم شقرة، سيد قطب بين الغَالين فيه والجَافِين عليه، تقديم: زهير الشاويش، (ط1، بيروت: المكتب الإسلامي، 1996م)، ص 50، 51.

3- سيد قطب، معالِم في الطريق، ص 60. وقد كتبت هذه الفقرة بخط غليظ تنبيهًا إلى أهميتِها.

4- ينظر: المصدر السابق، ص 124.

وأضافَ على ما أصَّله المودودي منها إضافات كثيرة من حيث التنظيرُ والتطبيقُ وبلْوَرَها نظريةً متكاملةً شغلَت المفكرينَ والكُتَّاب إلى يومِنا هذا ما بين منافِح عنها ومهاجِم لها، ومهما يكُن الأمر فإبداعُ سيد في رسْم معالِمها والتفصيلِ في حيثيَّاتِها ينمُّ عن عقل كبيرٍ وعاطِفة صادِقة جيَّاشة لِخدمة هذا الدينِ والعودَة به حيًّا من جديد في نفوس أتْباعِه.

المطلب الثاني: الجاهِلية:

وردَ هذا المصطلحُ في القرآن الكريم في أربعةِ مواضِعَ هي على الترتيب: قوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ

1- سورة آل عمران، الآية 154.

2- سورة المائدة، الآية 50.

﴿ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ [1]، وقوله جل وعلا: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [2]، ونلاحظُ أن مدلولاتِ المصطلَح في الآياتِ الكريمات تختلفُ، ففي الأوَّل تتعلّق بالتصوُّر الاعتقادي وفي الثانية بالسلوك وفي الأخيرة بالاجتماع حسب سياق الآيات في كلٍّ منها.

وقد يستغرِبُ البعضُ إيرادَ سيد قطب لهذا المصطلَح والإكثار منه في كُتبه ونحنُ في عصْر العِلم والحضارَة والتقدُّم المادِّي ! ولكن الجاهليةَ عند سيد ليست فترةً زمنيةً تاريخيةً مضتْ إلى غيرِ رُجوع، بل هي حالةٌ تتخذُ صُوَرًا شتَّى وليستْ هي المُقابِل للعِلم والمعرِفة والحضارَة، حدَّد سيدٌ مدلولَها عند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ بقوله: (إن معنَى الجاهِلية يتحدَّدُ بهذا النصّ، فالجاهِلية ـ كما يصفُها اللهُ ويحدِّدُها قرآنُه ـ هي حُكم البشَر للبشَر، لأنها هي عبوديةُ البشَر للبشَر والخروجُ من عبودية الله ورفْض أُلوهية الله والاعتراف في مقابِل هذا الرفْض بأُلوهية بعض البشَر وبالعبودية لهم مِن دون الله. إن الجاهليةَ في ضوء هذا النصِّ ـ ليست فترةً من الزمان ولكنها وضعٌ من الأوْضاع، هذا الوضعُ يوجدُ بالأمسِ ويوجدُ اليومَ ويوجدُ غدًا فيأخذ صفةَ الجاهِلية المُقابِلة للإسلام) [3].

مصطلحُ الجاهِلية وثيقُ الارتباطِ بالحاكِمية، فالمجتمعاتُ التي تُعطي أخصَّ خصائص الأُلوهية لغيرِ الله فتتلقَّى نُظُمَها وشرائعَها وقوانينَها من حاكِمية غيرِ حاكِمية الله تعالى هي مجتمعاتٌ جاهِليةٌ ولو اعتقدت بأُلوهية الله [4].

وقد سبقَ "المودودي" سيدًا إلى هذا المصطلَح وفرَّعَه إلى ثلاثِ جاهليات:

1ـ الجاهلية المحْضة: وهم الدَّهرِيُّون المادِّيون المنكِرون وجودَ الله.

2ـ جاهلية الشِّرْك: وهم المُشركون بالله غيرَه من المخلوقات وتابِعوهم من المؤمنينَ بالله المُستعينينَ بغيرِه من الأمْوات.

1- سورة الأحزاب، الآية 33.

2- سورة الفتح، الآية 26.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 904.

4- ينظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ص 91، 92.

3ـ جاهلية الرَّهْبانية: وهم الإشراقِيون والبوذِيون ورُهبان المسيحية المُنزَوُون السِّلبيون [1].

بعدها جاءت كتاباتُ سيد قطب عنه، ثم جاء "محمد قطب" بكتاب كامل عنْوَنَه بـ "جاهِلية القرْن العِشرين" [2].

ولكن تركيزَ سيد في كتاباتِه على ضرورةِ قيام المُجتمع الإسلامي الذي تُستعادُ فيه كرامةُ الإنسان وحريتُه، المجتمع الذي يحكُم الإسلامُ في كل شؤونِه، المجتمع الذي يُعيدُ الاعتبارَ لمرْكَز الإنسان في الكوْن وغاية وُجودِه الإنساني، المجتمع الذي تُصانُ فيه إنسانيةُ الإنسان، كلُّ هذا جعلَه يصفُ الواقعَ السائدَ الذي لا يُراعي هذه القِيَمَ الكبرى والمَعاقِد الأساسية للتصوُّر والسلوك، يصِفُه بالجاهلية والرجْعِية والتخلُّف بعد أن استنقَذَها الإسلامُ منها بقِيَمِه ومَوازينِه الربانية.

والجاهِليةُ في تعريفِه (حالةٌ ووضعٌ وليستْ فترةً تاريخيةً زمنيةً) [3] وهي اليومَ ضاربةٌ في كل أرجاء الأرض تقومُ على حاكِمية العباد للعِباد وعلى تأليهِ هوَى الإنسان وتحكيمِه في كل شؤونِ الحياة وإن اختلفت أسماؤُها وشَارَاتُها ومذاهبُها، وبهذا المقياس فالحياة البشريةُ اليومَ تحكُمُها الجاهليةُ، والإسلام متوقفٌ عن الوُجود [4].

حين يقرِّرُ البشَر لأنفسِهم دون الرجوع إلى ما قرَّرهُ اللهُ تعالى لهم من القِيَم والمَوازين والتصوُّرات والأخلاق والأنظِمَة والأوْضاع (وهذا هو التقسيمُ الوحيدُ الذي يعرفُه الإسلامُ للمجتمعات وللقِيَم وللأخلاق، إسلامي وغيرُ إسلامي، إسلامي وجاهلي، بغضِّ النظَر عن الصوَر والأشْكال) [5]، وهكذا يتضحُ التقسيمُ عند سيد قطب فإمَّا جاهليةٌ وإمَّا إسلامٌ ولا ثالثَ لهما ولا إمساكَ للعصا من الوَسَط، فالمجتمعُ الإسلامي هو المجتمعُ الذي يسودُ فيه الإسلامُ عقيدةً وعبادةً وشريعةً ونظامًا وخلقًا وسلوكًا، والمجتمعُ الجاهلي هو الذي لا يحكُمه الإسلامُ لا في عقيدتِه وتصورِه ولا في قيَمِه وموازينِه ولا في نظامِه

1- ينظر: أبو الأعلى المودودي، موجَز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ؛ "واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم"، (ط5، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982م)، ص 13 - 32.

2- كتاب في 352 صفحة، (طبع دار الشروق، بيروت، 1974م).

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1256.

4- ينظر: المصدرُ نفسُه، مج3، ص 1256، 1257.

5- المصدر نفسُه، مج3، ص 1196.

وشرائعِه ولا في خلقِه وسلوكِه [1].

فهل سمَّى سيدٌ هذه المجتمعاتِ اليومَ بأسمائِها؟ وهل صنَّفها إلى إسلاميةٍ أو جاهلية؟ والجوابُ: نَعَم سمَّاها بأسمائِها وصنَّفها كلَّها في خانة الجاهلية، وقد يتساءلُ المرْءُ وكيف تدخُلُ المجتمعاتُ الإسلاميةُ ضمن الجاهليةِ وهي تُؤدي الشعائرَ الإسلاميةَ وتطبقُ بعضَ الشرائعِ؟ نتركُ سيدًا يجيبُنا بنفسِه.

تبَعا للقاعدةِ التي وضعَها سيدٌ للتمييزِ بين المجتمعاتِ الجاهليةِ والإسلاميةِ الذي أسلفْنا فيه ؛ نجدُ سيدًا يصنِّف كلَّ مجتمع لا يُخلِص عبوديتَه لله وحدَه، متمثِّلةً هذه العبودية في التصوُّر الاعتقادي وفي الشعائر التعبُّدية وفي الشرائع القانونية ، فيُدخِل ضمنَ هذا في إطارِ المجتمع الجاهلي جميعَ المجتمعاتِ القائمة اليومَ في الأرض، تدخُل المجتمعاتُ الشيوعيةُ بإلحادِها، والمجتمعاتُ الوثنيةُ بتأليهِهَا غيرَ الله، والمجتمعاتُ اليهوديةُ والنصرانيةُ بتصوُّراتِها الاعتقادية المُنحرفة الضالَّة، وتدخلُ المجتمعاتُ التي تزعُم لنفسِها أنها "مُسلِمة" ! [2] .

فلماذا أدخلَ سيدٌ هذه المجتمعاتِ المسلِمةَ في إطارِ الجاهِلية وهيَ لا تعتقدُ بألوهيةِ أحدٍ غيرَ الله ولا تُقدِّمُ الشعائرَ التعبُّديةَ لغيرِ الله ؟ الجوابُ عندَه أنها لا تَدين بالعبودية لله وحدَه في نِظام حياتِها فهيَ وإن لم تعتقدْ بألوهية أحدٍ إلا الله ؛ فهيَ تُعطي أخصَّ خصائص الأُلوهية لغيرِ الله فتتلقَّى شرائعَها وقِيَمَها ونُظُمَها وعاداتِها وتقاليدَها من مصدرٍ غير الله، وبعضُها يعلنُ صراحةً علمانيتَه وعدمَ علاقتِه بالدينِ أصْلًا، وبعضُهم يحترِم الدينَ ولكنَّه يُخرِجُه من نظامِه الاجتماعي، وبعضُهم يُنكِر الغيبيةَ ويتبنَّى العِلْمِية وكأنها تُضادّ الغيبية، وبعضُها يُشرِّع مِن عندِه ما يشاءُ ويقولُ عنها أنها شريعة الله، وبكلِّ هذا فهيَ تلتقي مع الجاهليات الأُخرى أن حياتَها لا تقومُ على العبودية الكامِلة لله وحدَه [3] وكان لهذا التصنيفِ تداعياتُه؛ وفهِمَ منه البعضُ فهمًا خاطِئا وخرَجوا بنتائجَ مبتورةٍ وأحْكام ظالمِة بعدَ كلِّ ما جَلَّاه وأوْضحَه سيدٌ بدِقة من قصدِه في هذا التصنيفِ .

بدأ هذا التأويلُ الخاطئُ لأقوال سيد قطب عند الجماعة الإسلامية التي نشأتْ في مصرَ والتي

1- ينظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ص 105.

2- ينظر: المصدر السابق، ص 88-91.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص91- 93.

تسمَّتْ بجماعة "الهِجرة والتكفير" حيث استخلصَت من قراءتِها ل "المعالِم" و"الظلال" أحْكامًا جائرةً منها أن أفرادَ المجتمع الإسلامي ارتدُّوا كفارًا حُكَّاما ومَحكومين . فالحُكام بتنكُّرِهم للحُكم بما أنزلَ الله والمَحكومونَ بِرضاهُم عن ذلك [1] وكاد هذا الفِكرُ أن ينتشرَ لولا تصدِّي جُملةٍ من الدُّعاة له وتفنيد هذه الدعاوَى العريضة بكُتبِهم ومحاضراتِهم .

وسيدٌ بعيدٌ في تصوُّرِه عما فهمَه هؤلاء مِن كلمة " الجاهلية " فهوَ لم يعْنِ جاهليةَ الكُفر والاعتقاد وإنما عَنَى جاهليةَ المعصِية [2].بدليلِ قولِه عن المجتمعات المسلِمة أنها لا تع تقدُ بألوهيةِ أحدٍ غير الله ولا تُقدِّم الشعائرَ لغير الله [3] وبدليلِ تفسيرِه لجاهليةِ التبرُّج في قولِه تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [4] فيقول : (ويشيرُ النصُّ القرآني إلى تبرُّج الجاهلية فيوحِي بأن هذا التبرُّج من مُخلَّفات الجاهلية التي يرتفعُ عنها مَن تجاوزَ عصرَ الجاهلية وارتفعت تصوُّراتُه ومُثُله ومُشاعرُه عن تصوُّرات الجاهلية ومُثُلِها ومشاعرِها، والجاهليةُ ليست فترةً معيَّنةً من الزمان، وإنما هي حالةٌ اجتماعيةٌ معيَّنة) [5].

فهوَ يشيرُ إلى جاهلية السلوكِ والتقاليدِ بمعنَى الجاهلية الاجتماعية ولا يشيرُ بأدنى إشارَة إلى جاهليةِ الكُفر والخُروج عن المِلَّة، وما لنا نورِدُ النصوصَ التي تحتملُ التأويلَ وعندنا نصٌّ بصريح العبارةِ لسيد ينفِي هذه المزاعِمَ جملةً وتفصيلا ولا يحتملُ أيَّ تأويل غير ذلك ؛ وهو ردُّه على سؤال وُجِّه إليه عن هذا الموضوع بالذات - جاهِلية المجتمعات - وماذا يقصِد ويَرمي إليه بهذا الوصْف فأجابَ: (إننا لم نُكفِّر الناسَ وهذا نقْلٌ مُشوَّه، إنما نحنُ نقولُ أنهم صارُوا مِن ناحيةِ الجهْل بحقيقةِ العقيدةِ وعدَم تصوُّر مدلولِها الصحيح، والبُعْد عن الحياة الإسلامية إلى حالٍ يُشبهُ حالَ المجتمعاتِ الجاهلية، وأنه مِن أجل هذا لا تكونُ نقطةُ البدْء في الحرَكة هي قضية إقامَة النِّظام الإسلامي ولكن

1- ينظر: جريدة "العقيدة"(الجزائر) ، بتاريخ 26 فيفري 1992م. من الكُتب البارِزة في دحْض هذه الادِّعاءات كتاب "الحُكم وقضية تكفير المسلم " للمستشار سالم البهنساوي، وكتاب "دُعاة لا قُضاة" لمرشد الإخوان حسن الهُضيبي.

2- ينظر: سالم البهنساوي، الحُكم وقضية تكفير المسلِم، ص61.

3- ينظر: سيد قطب، معالِم في الطريق، ص91.

4- ينظر: سورة الأحزاب، الآية 33.

5- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 2861.

تكون زرْع العقيدة والتربية الأخْلاقية الإسلامية... فالمسألةُ تتعلّقُ بمنهج الحرَكة الإسلامية أكثر مما تتعلّق بالحُكم على الناس) [1].

وكلُّ كلام بعد هذا لا يُلتفَت إليه، كيف وهوَ نفسُه يصرِّح بأنه لا يقصِد مِن الجاهِليةِ جاهليةَ الكُفر والخُروج عن المِلة، ونعضِّدُ هذا أيضا بأقوالِ أقرَب المقرَّبين إليه، أخيه "محمد قطب" الذي نشرَ رسالةً [2] أثبتَ فيها أنه طالَمَا سمِع شقيقَه سيدًا يُردِّدُ (نحنُ دُعاةٌ ولسنا قُضاةً، إن مهمَّتَنا ليست إصدارَ الأحْكام على الناس ولكن مهمَّتَنا تعريفهم بحقيقةِ لا إله إلا الله، لأن الناسَ لا يعرِفونَ مُقتضاها الحقيقي وهو التحاكُم إلى شريعةِ الله) [3].

فكلامُ سيد ليسَ حُكما على الناس ولا على الأفراد بالكُفر والارْتِداد إلى كُفر الجاهِليات القديمة وإنما هو وصفٌ للمجتمعات الشارِدة عن تحكيم شرْع الله في حيَوَاتِها ونُظُمِها وقوانينِها.

ونختِمُ بشهادةِ أحدِ كِبار مُرشِدِي الإخوانِ المسلمينَ (المُرشد العامّ للإخوان المسلمينَ بعدَ حسن الهُضيبي الأستاذُ عُمَر التلِمساني) في سيد وقولِه "بالمجتمع الجاهلي"، يقولُ عن كثرة تَرداد سيد لكلمة "المجتمع الجاهلي" أنه لم يقصِد بها تكفيرَ المجتمع ولكن تشديدَ النكير على الظَّلَمة والطُّغاة والمستغِلين والمشكِّكين (والذين يعرفونَ الشهيدَ سيد قطب ودماثَةَ خُلُقِه وجَمَّ أدبِه وتواضعِه، ورِقّةَ مشاعرِه يعرفونَ أنه لا يُكفِّرُ أحدًا، إنه داعيةٌ إسلاميٌّ مِن عُيون دُعاةِ المسلمينَ، ظلَمهُ مَن أخذَ كلامَه على غيرِ مقاصِدِه ومَن هاجَموه مُتجنِّينَ لِما رأوْهُ مِن عميقِ تأثيرِ كِتاباتِه على الشبابِ الطاهِر النظيفِ) [4].

وأخيرًا فوصْف سيدٍ للمجتمعاتِ بالجاهلية لم يقصِد فيه جميعَ الأفراد لأن فيهم المؤمنونَ القانتونَ غير الراضِينَ بإبعادِ الحُكم بما أنز لَ اللهُ عن النُّظُم والدساتير التي تحكُمهم، فلو استثنَى سيدٌ هؤلاء بصريح العبارة لما ثارَ هذا اللغطُ الكبيرُ على أقوالِه وما أوردَه في "المعالِم" و"الظلال"، والأوْفق هو حمْل هذه العبارات الأخيرة التي أورَدْناها على كلِّ ما وردَ موهِما جاهليةَ الكُفر والاعتقاد، فلا يُتَصوّر من سيد المُفسِّر للقرآن بذلك الأسلوب الشاعِري التصويري والذي شهِدَ له المُقرَّبون منه بدماثة الخُلُق

1- عادل حمودة، سيد قطب من القرية إلى المشنقة، (ط3، مصر: سيناء للنشر، 1990م)، ص 156.

2- مجلة المجتمع الكويتية، عدد 271، ص 27، بتاريخ: 21/ 10/ 1975م.

3- المجلة نفسُها، الصفحة نفسُها.

4- عمر التلمساني، ذكريات لا مذكرات، (القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1985م)، ص 295.

والأدبِ الجَمّ ؛ لا يُتَصوّر منهُ بعدَ هذه القرَائن أن تصدُرَ منه تلك الأحكامُ القاسيةُ التي تُخرِجُ هذه الملايين من المسلِمين مِن دائرةِ الإسلامِ إلى الكُفر !.

أمَّا الشبابُ المتحمِّسونَ المُندفِعونَ دونَ زادٍ مِن علم يُنيرُ لهم الطريقَ ؛ والذين استخلَصوا من عباراتِ سيد أحكامًا جائرةً بَنَوْا عليها فكرَهم المتطرِّف فقد تصدَّى لهم العلماءُ والدُّعاة وأنكَروا عليهم فُهومَهم، فمنهم من ارْعَوَى ورَشَد بعدَ البيان، ومنهم مَن رَكِبَ رأسَه، وهي ظاهرةٌ شهدَتْها كلُّ الدعوات، فما مِن دعوةٍ وحركةٍ إلا وتنبتُ منها نابِتةٌ تكونُ أكثرَ مَلَكِية من المَلِك فتغلُو وتتطرَّفُ ولكن مآلَها أن تَخبُو وتَخمُد ؛ لأن ما بُنِيَ على عِلم وهدَف بعيدٍ يبقَى ويستمرّ ، وما كان وليدَ اللحظَةِ مرتجَلا يتلاشَى ويضمحِلّ وهي سُنَّة الله التي فَطرَ عليها الكونَ.

سيد ومالك بن نبي:

تبقى مسألةٌ أثارَها سيد في "المعالِم" اختلفَ فيها مع المفكِّر الجزائري الكبير مالك بن نبي [(1)]، فقد أعلنَ سيد عن صدُور كتابٍ له تحتَ عنوان "نحْوَ مُجتمع إسلامي مُتحضِّر " ثم عادَ وعدَّلَ العنوانَ بحذْف كلمة "مُتحضِّر" ولفتَ هذا نظرَ مالك بن نبي وفسَّرَها على أنها ناشئة مِن عمليةٍ نفسيةٍ داخليةٍ للدفاع عن الإسلام ؛ وبهذه العمليةِ غيرِ الواعِيةِ لا يمكنُ لسيد أن يواجِهَ المشكلةَ [(2)]، ويضيفُ أحدُ الباحثِينَ أن مالكا زارَ دمشقَ وبقيَ فيها فترةً طويلةً وانتهزَ فُرَصا مُتعدِّدةً انتقدَ فيها سيد قطب وفكرَه بنوع من السُّخرية حينًا وبنوع مِن إظهار الشفقة على بساطتِه حينًا آخَر [(3)].

فباعتبارِ مالك بن نبي متخصِّصا في قضيةِ الحضارَة إذ يعتبرُ تعريفَها أرضِيةً لكل المشكِلات وحلولِها "الإنسان + التراب + الوقت "؛ والعقيدةُ الدينيةُ هي شَرَارةُ التفاعُل لهذا المَزيج من الإنسان والتراب والوقت ولا يهمُّ إن كانت العقيدة أرْضية أم سَماوِية إذا كان أصحابُها متمسِّكينَ بها مُتفانِين في

1- مفكر إسلامي جزائري، وُلد في مدينة "قسنطينة" سنة 1905، أصدرَ معظم كُتبه باللغة الفرنسية، وجُلُّها مُترجَم إلى اللغة العربية، تولّى إدارةَ التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري، توفي سنة1964م.
ينظر: الأعلام: ج 5، ص 266.

2- ينظر: سيد قطب، معالِم في الطريق، ص 106، 107.

3- ينظر: محمد توفيق بركات، سيد قطب؛ "حياتُه، منهجُه في التغيير والنقدُ الموَجَّه إليه"، ص 246.

سبيلِها وقد عدَّ الشيوعيةَ مَثلًا دِينًا [1]، أمَّا سيد قطب فيطلِق لفظَ "الحضارَة" على المجتمع الإسلامي وحدَه الذي تُمثِّل فيه العقيدةُ رابطةَ التجمُّع الأساسية ؛ فتكون إنسانيةُ الإنسان هي القيمةُ العُليا فيه، أمَّا إذا كانت القيمة العُليا للمادَّة حيث تُهدَر في سبيلِها القِيَم والخصائصُ الإنسانيةُ فإن هذا المجتمعَ متخلفٌ أو بالمصطلَح الإسلامي جاهليٌّ ؛ كما هو الحالُ في التفسير الماركسي للتاريخ بصورتِه النظريةِ وفي أمريكا وأوروبا بالصورَة العملية [2].

وفي معرِض ردِّه على مالك بن نبي وتخطئةِ نظريتِه التي أسلفْنا فيها يُردِف قائلًا: (وحينَ تكون آصِرة التجمُّع الأساسية في مجتمعٍ هي العقيدةُ والتصوُّرُ والفكرةُ ومنهجُ الحياة... يكونُ ذلك التجمُّعُ ممثِّلا لأعْلى ما في الإنسان مِن خصائص، خصائص الرُّوح والفِكر، فأمَّا حين تكونُ آصِرة التجمُّع في مجتمع هي الجنسُ واللونُ والقومُ والأرضُ وما إلى ذلك مِن الروابطِ فظاهرٌ أن الجنسَ واللونَ والقومَ والأرضَ لا تمثِّل الخصائصَ العُليا للإنسان، فالإنسانُ يبقى إنسانًا بعدَ الجنسِ واللونِ والقومِ والأرضِ، ولكنهُ لا يبقى إنسانًا بعدَ الروح والفِكر) [3].

فسيدٌ دائما يقيسُ المجتمعَ بمقياس تَحكيمِه للشريعةِ الإلهيةِ في نُظُمِه وقوانينِه وقيَمِه وموازينِه ولا يُولي اهتمامًا للمقياس المادِّي إذا امتُهِنت الروحُ التي هي أغْلى ما يملكُ الإنسانُ وأسْمى ما وهبَه اللهُ في هذه الدنيا، وليس معنى هذا أنه يدْعُو لإهمالِ الجانِب المادِّي في حياةِ الإنسان، فالمجتمعُ المتحضِّر الإسلامي ـ عندَه ـ لا يحتقِرُ المادةَ، لا في الصورَة النظرية ـ باعتبارِها هي التي تؤلفُ هذا الكونَ ـ ولا في صورَة الإنتاج المادِّي إذْ هو من مُقوِّمات الخِلافة في الأرض عنِ الله [4]، أمَّا إذا طغَى الاهتمامُ بالمادَّةِ على حساب الإنسانِ وكرامتِه فالمجتمعُ وإنْ بلغَ أرقَى درجاتِ سلَّم الرُّقي المادِّي فهو متخلِّفٌ جاهليٌّ ومآلُه إلى زوالٍ ؛ لأن عامِلَ الرُّقي وهو الإنسانُ إذا امتُهِن وتحطَّمَ داخِليا فكيفَ يُرجَى منه التقدُّمُ والرقيُّ والإبداعُ؟ !.

1- أوْردَ هذا "محمد توفيق بركات" أنه سمِعَ مِن "مالك بن نبي" هذا المعنَى في محاضرة له على مُدرَّج جامعة دمشق. ينظر: المرجع نفسُه، ص 247، هامش رقم 2.

2- ينظر: سيد قطب، معالِم في الطريق، فصل: "الإسلامُ هو الحضارَة"، ص109، 110.

3- المصدر السابق، ص 109.

4- ينظر: المصدر السابق، ص 110.

المطلب الثالث: التكفيــر:

أخطرُ تُهمة وُجِّهت إلى سيد قطب هي تُهمةُ تكفير المُسلِمين، فما علاقةُ سيد بالفِكر التكفيري وهل أصَّل له فِعْلًا كما يدَّعي بعضُهم [1]، أم أنه كتبَ ما كتبَ ولم يقصِد هذا الذي استخلَصه أولئكَ من

1- وهم كثيرٌ، ينظر على سبيل المثال: ياسر فرحات، القتل باسم الله، (ط 1، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، 2004م)، وينظر: محمد عمارة، مقالات الغلوّ الديني واللاديني، (ط1، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2004م)، وينظر: عبد الرحيم بوهاها، الإسلام الحرَكي، (ط1، بيروت، دار الطليعة، 2006م)..وينظر: هشام مبارك، الإرهابيون قادِمون، (ط1، القاهرة، مركز المحروسة، 1995)..

فكرِه وبَنَوْا عليه طُروحاتِهم التكفيرية كما دافعَ عنه البعضُ الآخَر [1] .

تعودُ نشأةُ جماعة "التكفير والهجرة" إلى عام 1969م وتسمَّت بجماعة المسلِمين بقيادةِ "شكري أحمد مصطفى" في سجونِ مصرَ بعد أن وجَّهَ "عبد الناصر" ضربتَه الثانية للإخوان المسلمينَ في منتصف الستينيات، ووجدَ الشبابُ هناك كثيرًا من الوسائل الوحشيةِ التي اتبعتْها السلطاتُ المصريةُ آنذاك تِجاه أصحابِ الفِكر الإسلامي على عكْس ما رأوْهُ في السجون والمُعتقلات بالنسبةِ للفئاتِ الأُخرى [2].

وتحت هذا التعذيبِ والتنكيلِ الوحشيِّ الذي يرزحُ فيه هؤلاء المشايخُ والقادَة، وجدَ الدارسونَ منهم لكُتب سيد قطب مُتنفَّسًا ومَلجأً بما تحمِلُه من أفكارٍ ومصطلحات كالجاهلية المعاصِرة والمُفاصَلة الشعُورية وجاهِلية المجتمع المعاصِر مما وردَ في كتابه "معالِمِ في الطريق" الذي أصبحَ مصدرَ إلْهام لهؤلاء الرجال الذين يئِنُّونَ تحت سياطِ القهْر والتعذيب وتحت الإذْلال والمَهانَة في السجون المصرية.

وفي هذه الأجْواءِ أعلنت فئةٌ من هؤلاء كُفرَ عبد الناصر وكُفرَ المجتمع الذي يَرضَى بهذا الحاكِم الكافِر وكُفرَ مَن يُسانِدُه من جنود وشُرطة وأعْوان، وإلى هذه الجماعة انتمَى "شكري مصطفى" وأصبحَ أحدَ مُنظِّريها ولم يكُن من قبلُ لا معَ الإخوانِ المسلمينَ ولا مُتبنِّيًا لأفكارِ الإسلاميين، وإنما الذي جاءَ به إلى هذه الجماعةِ هو اعتقالُه وتعذيبُه مع مَن اعتُقِلوا [3]، ثم تطوَّرَ فكرُهم إلى أن انخلَعوا عن الالْتزام بما جاءَ في كُتب سيد قطب ـ حسبَ فُهومِهم طبعًا ـ ورفَضوا التراثَ الفقهيَّ الإسلامي جُملةً وحرَّموا قراءتَه بدعْوَى تقليد الأئمة؛ واعتزَلوا المَساجدَ وامتنَعوا عن الصلاةِ فيها، كما رفضُوا كل إفرازاتِ الفِكر الإسلامي المُعاصِر وحكَمُوا على كلِّ التاريخ الإسلامي بالكُفر والرِّدَّة عدَا القرونَ الأربعةَ الأُولى، واعتبرُوا أنفسَهم هم وحدَهم جماعة المسلمين والطائفةَ المَنصورة التي ستُحيِي هذا الدينَ بعد

وينظر: عبد العظيم رمضان، جماعاتُ التكفير في مصر، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1995م) وغيرها.

1- وهم كثيرٌ أيضا ، ينظر: سالم البهنساوي، فكر سيد قطب في ميزان الشرْع، (ط 1، المنصورة: دار الوفاء، 2000م)، وينظر له أيضا : الحُكم وقضية تكفير المسلِم، وينظر: محمد توفيق بركات، سيد قطب، "حياتُه، منهجُه في التغيير، النقدُ الموجَّه إليه"، المستشار علي جريشة، موقع "إخوان أون لاين" حوار مع عمرو محمود، وينظر : صلاح عبد الفتاح الخالدي، في ظلال القرآن في الميزان. وغيرها كثير.

2- ينظر: محمد عبد اللطيف محمود، الاختلافات الفقهية لدى المجتمعات الإسلامية، (ط1،مصر، دار الوفاء،2000م)، ص94.

3- ينظر: محمد عبد اللطيف محمود، الاختلافات الفقهية لدى الجماعات الإسلامية، ص 94، 95.

اندِراسِه [1].

ولْنعُد إلى سيد ونعرِض أقوالَه المُوهِمة التي بنَى عليها هؤلاء فكرَهم في بداياتِهم، يقولُ سيد: (شهادةُ أن لا إله إلا الله تتمثَّل في الاعتقادِ أن اللهَ وحدَه هو خالِق هذا الكون المتصرِّف فيه، وأن الله وحدَه هو الذي يتقدَّمُ إليه العبادُ بالشعائِر التعبُّدية ونشاط الحياة كلّه، وأن الله وحدَه هو الذي يتلقَّى منه العبادُ الشرائعَ ويخضعون لحُكمِه في شأنِ حياتِهم كلِّه... وفي الأرض اليومَ أقوامٌ مِن الناس أسماؤُهم أسماءُ المسلِمين، وهم من سُلالات المسلِمين وفيها أوطانٌ كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام، ولكن لا الأقوامُ اليومَ تشهدُ أن لا إله إلا الله بذلكَ المدلولِ ولا الأوطانُ اليومَ تدينُ لله بمقتضَى هذا المدلولِ) [2].

فإذا كان هذا النصُّ مُوهِما فِعْلًا في أن سيدًا يُكفِّر هؤلاء المُتَسمِّينَ بأسْماء المسلِمين العائشينَ في ديار الإسلام، فلِمَ لا نجْمعُ أقوالَه كلَّها في مثلِ هذه المسائلِ الخطيرةِ التي تُخرِجُ الإنسانَ من المِلَّة والدِّين، يكفينا أن نُقارِنَ مع نصٍّ واحدٍ له يُعلِنُ فيه صراحةً أنه لا يُكفِّر أحدًا نطقَ بالشهادتيْن ؛ فعند تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [3] يقول: (يأمرُ اللهُ المسلمينَ إذا خرَجوا غُزاةً ألَّا يَبدَؤوا بقتالِ أحدٍ أو قتلِه حتى يتبيَّنُوا، وأن يَكتفُوا بظاهِر الإسلام في كلمةِ اللسانِ إذْ لا دليلَ يُناقِضُ كلمةَ اللسان) [4]، فمَن أعلنَ الإسلامَ ولم يُظهِر ما يُوجبُ كُفرَه لا يُحكَم عليه بالكُفر، ولسنا مُكلَّفين بالتنقيبِ عن القلوب وشقِّ الصدُور ؛ فاللهُ تعالى وحدَه هو الذي يتولَّى السَّرائِر ويعلَم ما تُخفي الأنفُس، فكيف يُقالُ بعدَ هذا الكلام الصريح أن سيدًا يُكفِّر الأفرادَ والمُجتمعات؟!.

أمَّا وصفُه للمجتمعاتِ بالجاهلية لعدَم تحكيمِها شريعةَ الله فهو وصْفٌ قاصِرٌ على المجتمع ومناهجِه وقوانينِه كشخصيةٍ معنويةٍ مستقلّةٍ عن شخصياتِ أفرادِه، لأن الدولةَ يمكنُ أن تكونَ كافرةً وأكثرُ مواطنِيها مسلمون كما يمكنُ أن تكونَ مسلمةً وأكثرُ أهلِها كُفار، كما حدَث في الهند في فترةٍ من الزمان حكَمت فيها بالشريعةِ الإسلامية ودخلَت في مُسمَّى دار الإسلام وذلك لا يَعني إسلامَ الوثنيين

1- ينظر: رجب مدكور، الهجرة والتكفير، (ط1، القاهرة: مكتبة الدين القيم، 1985م)، ص 193 فما بعدَها.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1106.

3- سورة النساء، الآية 94.

4- المصدر نفسه، مج2، ص 737.

والبوذيين وعُبَّاد البقر وهُم الأكثرية، كما لا يمكنُ إنكار إسلام مسلِمي أمريكا بدعْوَى جاهليةِ المجتمع الذي يعيشونَ فيه أو رِضاهُم بهذهِ الجاهلية [1].

ومن النصوص التي يستندُ إليها أولئك في التكفيرِ تفسيرُ سيدٍ لقولِه تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [2] إذ يقولُ: (بهذا الحسْم الصارِم الجازِم، وبهذا التعميم الذي تحمِلُه (مَنْ) الشَّرْطية وجُملة الجواب بحيث يخرج من حدود المُلابَسة والزمان والمكان، ويَنطلقُ حُكمًا عامًّا على كل مَن لم يَحكُم بما أنزلَ الله، في أيِّ جيل ومِن أيِّ قَبيل. والعِلة هي التي أسلفْنا، هي أن الذي لا يحكُم بما أنزلَ اللهُ إنما يرفُض ألوهيةَ الله، فالألوهيةُ من خصائصِها ومن مُقتضَاها الحاكِمية التشريعية، ومن يَحكم بغيرِ ما أنزلَ الله يرفضُ ألوهيةَ الله وخصائصَها في جانب، ويدَّعي لنفسِه هوَ حقَّ الأُلوهية وخصائصَها في جانبٍ آخَرَ، وماذا يكونُ الكُفرُ إن لم يكُن هو هذا وذاك؟ وما قيمةُ دعْوَى الإيمان أو الإسلام، والعملُ ـ وهو أقْوى تعبيرًا من الكلام ـ ينطقُ بالكُفر أفصحَ مِن اللسان) [3]، وهذا النصُّ لا يخالِف المُجمَع عليهِ عندَ العلماء في كُفر الحاكِم بغير ما أنزلَ اللهُ كفرًا مطلقًا إمّا كُفر عمل وإما كُفر اعتقاد[4].

وكُفرُ الاعتقاد الناقِل عن المِلَّة أنواعٌ:

1 ـ أن يجحدَ الحاكِم بغير ما أنزلَ اللهُ أحقِّيةَ حُكم الله ورسولِه.

2 ـ أن لا يجحدَ الحاكِم بغير ما أنزلَ الله كونَ حُكم الله ورسولِه حقًّا، لكن اعتقدَ أن حُكم غير الرسول ﷺ أحسنَ من حُكمِه.

3 ـ أن لا يعتقدَ كونَه أحسنَ من حُكم الله ورسولِه، لكن اعتقدَ أنه مثلَه.

4 ـ أن لا يعتقدَ كونَ حُكم الحاكِم بغير ما أنزلَ الله مُماثِلا لحُكم الله ورسولِه، فضلًا عن أن يعتقدَ كونَه أحسنَ منه، لكن اعتقدَ جوازَ الحُكم بما يخالِف حُكم الله ورسولِه.

1- ينظر: سالم البهنساوي، الحكم وقضية تكفير المسلم، ص 161، 162 بتصرف.

2- سورة المائدة، الآية 44.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 898.

4- ينظر: أحمد محمد شاكر، حُكم الجاهلية، (طبعة 2009، القاهرة: المكتبة التوفيقية)، ص11. من مقالةٍ لمفتي الديار السعودية "محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ".

5 ـ الاستمدادُ في الأصول والتفاريع مِن القوانين الوضْعية معانَدةً للشرْع ومُكابَرةً لأحْكامِه ومُشاقَّةً لله ورسولِه.

6 ـ ما يحكُم به كثيرٌ من رؤساء العشائر والقبائل من حكاياتِ آبائهم وأجدادِهم وعاداتِهم بقاءً على أحْكام الجاهِلية [1].

هذه الأنواعُ كلُّها كفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّة، أمَّا القِسمُ الثاني وهو كُفرُ العمَل فهوَ أن تحمِلَه شهوتُه وهواهُ على الحُكم في القضية بغير ما أنزلَ اللهُ مع اعتقادِه أن حُكمَ الله ورسولِه هو الحقُّ واعترافه على نفسِه بالخطأ ومُجانَبةِ الهُدى، فهذا لا يُخرجُه من المِلة ولكنه مَعصية عُظمى أكبرُ من الكبائر [2].

وسيدٌ في كل نصوصِه التي أوردَها ـ ولا مجالَ لعرْضِها كلّها هنا ـ لا يكفِّر أيَّ شخص بعينِه لأن سلطةَ الحُكم على الأشخاص ليست للأفراد بل للحاكِم المسلِم أو القاضي الذي يُصدِر الحُكمَ على مَن صدرَ منه كُفرٌ بَوَاح، أمَّا وصفُ الأعمال بالكُفر فهو المَعمولُ به عند الأئمة ولا خِلاف فيه إذا كانت البيِّنةُ واضحةً صريحةً فيقولون : مَن اتصفَ بكذا فهو كافِر ومَن فعلَ كذا فهو كافِر؛ أمَّا إطلاقُ الكُفر على الأشخاص المُعيَّنِين بأسْمائِهم فلم يثبُت عن أيٍّ منهم ولم يرِدْ في أيِّ نصٍّ من نُصوص سيد قطب على كثرتِها.

على العكس من ذلكَ وردَ في إجاباتِه هو نفسِه عن أسئلةٍ سُئِلَها وفي تصريحاتٍ لأقرَب المقرَّبين إليه ومُعايِشيه عن كَثب في السجون وخارجَها ؛ أنه بعيدٌ عن هذا الفِكر التكفيري الذي تبنَّتْه تلك الجماعاتُ تحت زعْم أنه خرَج من مِعطف سيد قطب، نوردُ بعضَها وليس فوق تصريح سيد قولٌ، لأن التأويلَ والتفسيرَ والذهاب بالمعنى كلَّ مَذهب في قولٍ من الأقوال يكونُ من الشُّرَّاح، أمَّا إذا فصَّل القائلُ نفسُه المعنى وبيّنَه، فكلّ ما يُضافُ إليه فضولٌ وافتئاتٌ على صاحبِه أو كلامٌ مُغرِض ذو خلفية فِكرية يَرومُ صاحبُها التنقُّصَ والإعابة!!.

فقد وردَ في كلام سيد نفسِه قولُه: (نحنُ دعاةٌ ولسنا قضاةً، إن مهمَّتنا ليست إصدارَ الأحْكام

1- ينظر: عمر سليمان الأشقر، الشريعةُ الإلهية لا القوانينُ الجاهلية، (ط1، الكويت: دار الدعوة، 1983م)، ص 175 - 179 بتصرّف.

2- ينظر: أحمد محمد شاكر، حُكم الجاهلية، ص 14.

على الناس ولكن مهمَّتنا تعريفَهم بحقيقة لا إله إلا الله، لأن الناس لا يعرِفون مقتضَاها الحقيقي وهو التحاكُم إلى شريعة الله)، وقولُه: (إن الحُكمَ على الناس يستلزمُ وجودَ قرينةٍ قاطعةٍ لا تقبلُ الشكَّ، وهذا أمرٌ ليس في أيدِينا ، ولذلك فنحنُ لا نتعرَّض لقضية الحُكم على الناس فضْلا عن كونِنا دعوة ولسنا دولة، دعوةٌ مهمتُها بيانُ الحقائق للناس لا إصدارَ الأحْكام عليهم) [1]، وهذا الكلامُ وحدَه كافٍ لدحْض تلكَ الإشاعات والأرَاجيف.

وفي حوارٍ ل"زينب الغزالي الجُبيلي" مع مجلة "المجتمع" أجابتْ عن سؤال المَجلة: (وهل حقًّا أن الفكرَ الذي كان يتبنَّاه سيد ويُدرِّسه للإخوان، هو تكفيرُ أفراد المُجتمع؟) بقولِها: (هذا وَهْم توَهَّمَه بعضُ تلاميذ الشهيد سيد، لقد جلستُ مع سيد في منزلِي عندما سمعتُ بتلك الشائعة، وقلتُ له: إن منزِلَتي عند السيدات المُسلِمات تجعلُهم يحترمونني احترامًا عظيما، ولكنهم مستعدُّون أن يَنسِفوا كلَّ هذا الاحترام إذا علِموا أنني أقولُ عنهم أو عن أحدِ أقارِبِهم إنهم كفارٌ، واستغربَ هو نفسُه هذا القولَ ! وبيَّن أن هذا سوءُ فهْمٍ لما كَتبَه، وبيَّن أنه سيوضِّح هذا في الجزءِ الثاني من المعالِم، إن سيدًا لم يكُن يكفِّر الأفرادَ، بل كان يرى أن المُجتمعاتِ ابتعدَتْ عن الإسلام إلى درجةٍ جعلتْها تفقِدُ هذه الصفةَ) [2] .

فنشوءُ هذا الفِكر كان في حياتِه وقد بلغتْه أصداؤُه كما ترْوي لنا "زينب الغزالي"، وقد استنكرَ هذا لما سمِعَه ونوَى أن يُبيِّن البيانَ الشافي في الجزء الثاني من "المعالِم"؛ ولكن لم يمهِلْه سَدَنة الكراسي وعُبَّاد العُروش لاستكمالِ ما بدَأَه وعجَّلوا بقتلِه، إذ "المعالِم" مِن آخِر ما ألَّف، فهذا الفكرُ التكفيريُّ الناشئُ من غياهبِ السجون يكونُ في أواخِر حياةِ سيد قطب؛ لذلك لم نرَ له تفصيلًا في الردودِ عليه كما فصَّل في قضايا الدعوة والحَرَكة.

ونختمُ بشهادةِ "الأستاذ عمر الأشقر" - المتخصِّص في العقيدة الإسلامية - في حوارٍ أجرتْه معه مجلةُ "المجتمع" وهو يُجيب عن سؤال: (هل كفَّرَ سيد قطب المجتمعاتِ والأفراد ؟! فكان ممّا أجابَ به قولُه: (لم تحْوِ كتبُ الشهيد نصًّا واحِدا يصرِّح فيه بتكفيرِ المجتمعات أو الأفراد، ولم يتفق الإخوانُ على أن سيدا كان يصرِّح في لقاءاتِه وجلَسَاتِه وأحاديثِه بتكفير المجتمعات...كما أن سيدًا نفسَه نفَى هذا

1- مجلة المجتمع الكويتية، عدد 271، بتاريخ: 1975/10/21م ، ص 33. وهذه الأقوال جزءٌ من رسالة بعثَها "محمد قطب" لصهرِه "كمال الدين السنانيري"، نفى فيها أيَّ علاقة لأخيه سيد بهذا الفِكر التكفيري؛ وهو ألْصقُ الناس به قرابةً وفكرا.
2- المرجع نفسه، عدد 565، بتاريخ: 12 جمادى الآخرة 1402 هـ، ص 21 .

الرأيَ عن نفسِه أثناءَ التحقيقِ معه... وفي النهاية فإن كتاباتِ سيد وما وردَ فيها هي الفيْصَلُ في هذا الموضوع، وطالَما لم ينصَّ على هذا الرأيِ فمن الظُّلم أن نحمِّل الشهيدَ رأيًا لم يقُلْه خاصَّة إذا كان يُسيء إليه، واللهُ أعلم) [1].

ومن خلالِ هذه الشهاداتِ ـ وهي كثيرةٌ ـ ومن خلالِ أقوالِه نفسِه في نفيِ هذا الفكرِ عن منهجِه الذي اختطَّه لنفسِه؛ وهو شعارُ "دُعاةٌ لا قُضاة" لا يمكنُ أن نُلصقَ له التهمةَ بأي حالٍ من الأحْوال إذا وردتْ بعضُ العبارات المُوهِمَة في كُتبه وهو بصددِ شرْح فكرة الحاكِمية التي أفاضَ فيها كثيرًا وركَّز عليها وأصَّلَ لها بطريقة متفرِّدة لم يُسبَق إليها، فكان المُنظِّر الثاني بحقٍّ للإخوانِ المسلِمين بعدَ حسن البنا .

المطلب الرابع: العُزلة الشُّعورِية "المُفاصَلَة":

يُكثِر سيدٌ من استعمالِ هذا المصطلَح في حديثِه عن الدعوة الإسلامية ومنهجِها، وفي حديثِه عن العقيدةِ والمنهَج قاصِدا تميُّز العُصبة المؤمِنة في فكرِها وشعورِها وسلوكِها عمَّا يموجُ به المجتمعُ من أوضاع وأعْراف وتقاليد مُنبَتَّة عن أصولِ الإسلام الصحيحة، كي لا تذوبَ ولا تَنْماثَ ولا تتميَّعَ في هذه القُطعان البشَرية التي لا تُحكِّم شريعةَ الله في حياتِها؛ والتي تعيشُ هَمَلا بلا وازِع ولا رادِع.

يأكلُ القويُّ فيهم الضعيفَ، وتتصارَع رغباتُهم وشهواتُهم وأطماعُهم فيذوق بعضُهم بأسَ بعض، وبالتالي فعَلى العُصبة المؤمِنة أن تُسارع (بالتميُّز عن الجاهلية المُحيطةِ بها ـ والجاهليةُ كل وضْع

1- مجلة المجتمع الكويتية ، عدد 565، بتاريخ: 12 جمادى الآخرة 1402 هـ ، ص 42، 43 .

وكل حُكم وكل مُجتمع لا تحكُمُه شريعةُ الله وحدَها، ولا يُفرِد اللهَ سبحانه بالألوهية والحاكِمية ـ وضرورة مفاصَلتِها للجاهليةِ من حولِها، باعتبارِ نفسِها أمَّةً متميِّزةً من قومِها الذين يُؤثرون البقاءَ في الجاهلية والتقيُّد بأوضاعِها وشرائعِها وأحكامِها وموازينِها وقيَمِها) [1].

ولا يتركُ سيد هذا المصطلَحَ مائعا، بل يضبطُه ويبينُ كيفيةَ المُفاصَلة الشعورية ؛ وهو أن تكونَ في العقيدةِ والشعورِ ومنهجِ الحياة، بحيث تشعرُ هذه العُصبةُ شعورًا كامِلا بأنها هي المُسلِمة وأن ما حولَها ومَن حولَها في جاهلية، وأن تطلُبَ من الله بعدَ ذلك أن يفتحَ بينَها وبين قومِها بالحقِّ وهو خيرُ الفاتِحين، فإن لم تفعلْ فلْتحذَر من أن يَحِق عليها وعيدُ الله ويَلبِسَها شِيَعا ويُذيقَ بعضَها بأسَ بعض، وهذه المُفاصَلة تصحَبُها مشقاتٌ وتضحياتٌ بسبيل ما تجِدُه من الاستنكار والتربُّص ممَّن حوالَيْها (ومراجعةُ تاريخ الدعوةِ إلى الله على أيْدي جميع رسُل الله، يُعطينا اليقينَ الجازِمَ بأن فتْح الله ونصرَه وتحقيق وعدِه بغَلَبة رسُله والذين آمنوا معهم؛ لم يقعْ في مرَّة واحِدة قبلَ تميُّز العُصبة المُسلِمة ومفاصَلتِها لقومِها على العقيدةِ وعلى منهجِ الحياة) [2].

وقد ذهب بعضُ الشباب المتحمِّس بعيدًا فأوَّلَ كلامَ سيد وغالَى في التأويل وخرجَ به عن المعنَى المُراد، وانتهَى إلى أحْكامٍ مبتَسَرة حدَّدها أحدُ الأساتذة الذين عايَشوهم وعرَفوهم عن كَثب في سِتة أنواع من المُفاصَلة والانعِزال هي:

1 ـ عدمُ الترشيح للانتخابات وعدمُ الاشتراك فيها بصوْت أو بنُصح أو برَأْي، لأن المجالِسَ النيابيةَ تُشرِّع من دونِ الله والمساهمةُ في ذلك كفرٌ بَوَاح، لأنه اتِّباعٌ للكُفر أو رِضَاءٌ به.

2 ـ مقاطعةُ المساجِد لأن الصلاةَ فيها خلْف أئمتِها تتضمَّن الشهادةَ لهم بالإيمان وهُم كافرونَ.

3 ـ الهجرةُ إلى الصحراء أو الكُهوف والجِبال، لأن ذلكَ هو السبيلُ الذي سلكَه النبي لإقامةِ دولةِ الإسلام.

4 ـ التوقُّفُ في الأمْر بالمعروف والنهْي عن المُنكر لأن المجتمعاتِ كافرةٌ وليس بعد الكُفر ذنبٌ، بل عدمُ المساهَمة في أيِّ إنتاج لأن ذلكَ يؤدي إلى تماسُك المجتمع الجاهلي.

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1125.

2- المصدر نفسُه، مج2، ص 1125، 1126.

5 ـ مقاطعةُ المدارِس والجامِعات وإخراج أولادِنا منها.

6 ـ تركُ الوظائف في الحُكومة والشركات وممارسَة أعْمال التجارة والزراعة [1].

ولهذا الأستاذ ردودٌ مفحِمة لهذه الادِّعاءات في كتابِه القيِّم "الحُكم وقضيةُ تكفيرِ المسلم" بيَّن من خلالِها حقيقةَ أقوال سيد قطب وأنها لا تمتُّ بصِلة إلى ما استخلَصَه هؤلاءِ من غُضون كلامِه الذي اجتزَءُوه من "المعالِم" و"الظلال"، أمَّا أن يدعُوَ سيدٌ إلى هذه المفاصَلة المادِّية الحِسِّية مع المجتمع فهذا مناقِضٌ لمسْلَكِه في الدعوة والحَرَكة الذي الْتزمَه في كل ما كَتبه، فكيف يستقيمُ أن يدعُوَ ناسًا لا صلةَ له بهم؟ وهل من المنطِق أن يعتزِلَ مجتمَعًا ويدعُوَه؟

وهو في سيرتِه اجتماعيٌّ مخالِطٌ للناس مُكثِرٌ من المخالَطة، فهو يُلقي المحاضَرات ويخطُب في المساجِد ويكتُب في المجلَّات والجرائد ويجتمعُ عندهُ الشبابُ للتربية والتعليم ؛ ويشاركُ في الملتقيات والندَوات الإسلامية، وقد عُرفَ بالاعتدال في الفِكر والبُعد عن الغلُوّ، حتى أن التنظيمَ السِّرِّي الذي اتُّهِم به وذهبَ ضحيتَه، لم تدفَعْه فيه فوْرَة الحماسِ وروحُ الانتقام لما لقِيَه من تعذيبٍ رهيب للردِّ بالقوة والإطاحة بالنِّظام الطاغي، بل كان يربِّي الشبابَ التربيةَ الإسلاميةَ التي تمكِّنُهم فيما بعدُ أن تكونَ لهم قوةٌ منظَّمةٌ فاعِلة، ونصحَهُم بتجنُّب التسلُّح والمُجابَهة في ذلك الظرْف بدليل الوثيقةِ التي خطَّها بيدِه أثناءَ المحاكَمة والتي جاءَ فيها:

(لا بدَّ أن تبدأَ الحركاتُ الإسلاميةُ من القاعِدة: وهي إحياءُ مدلول العقيدةِ الإسلاميةِ في القلوب والعقول؛ وتربيةُ مَن يقبل هذه الدعوة وهذه المفهوماتِ الصحيحة، تربيةً إسلاميةً صحيحة، وعدم إضاعَة الوقت في الأحْداث السياسية الجارِية ؛ وعدم مُحاولات فرْض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحُكم قبل أن تكون القاعدة المسلِمة في المجتمعات هي التي تطلُبُ النظامَ الإسلامي لأنها عرفَتْه على حقيقتِه وتريد أن تحكُمَ به [2].

فكيف لمن يدعُو إلى تربيةِ القاعدة المسلِمة في المجتمعاتِ وتفهيمِها العقيدةَ الصحيحة أن يعتزِلَها؟ وإذا اعتزلَها هوَ وأمثالُه فمن يدْعُوها ومن يُبصِّرها بدينِها لتعرِفَه فتصيرَ هي التي تطلُب النظامَ

1- سالم البهنساوي، الحُكم وقضية تكفير المسلِم، ص 157.

2- سيد قطب، لماذا أعدموني، ص 28.

الإسلامي وتريدُ أن تحكُمَ به؟، ألَا إن تقويلَ سيد بالمفاصَلة المادِّية الحِسِّية للمجتمعات لافْتراءٌ عليه إذ إننا لا نجدُ نصًّا واحِدا مما كتبَ سيدٌ يثبتُ ما يقولونَ ! ولكن الحماسَ والفوْرةَ يُنسِيانِ أصحابَهما الحقيقةَ ويُفقِدانِهم الرزانةَ والتعقُّل؛ وهكذا تَجْني العواطفُ المَشبوبةُ على أصحابِها على مرِّ التاريخ.

بل على العكسِ من هذا فالنصوصُ الصريحةُ من كتبِه تنفِي هذه التهمةَ نفيًا قاطِعا، ففي كتاب "المعالِم" وهو من أواخِر ما كتبَ وفيه من الحِدَّة ما فيه ؛ حتى قيلَ عنهُ أنه سببُ إعدامِه، يقولُ فيه: (لا بد أن نُرِي الجاهليةَ حقيقةَ الدرَك الذي هي فيه بالقياس إلى الآفاق العُليا المُشرِقة للحياة الإسلامية التي نريدُها، ولن يكونَ هذا بأن نُجارِي الجاهليةَ في بعض الخُطوات ؛ كما أنه لن يكونَ بأن نُقاطِعَها الآن وننزَوِي عنها وننعزِل، كلَّا، إنما هي المُخالَطةُ مع التميُّز، والأخْذُ والعطاءُ مع الترفُّع، والصدْعُ بالحقِّ في مودَّة، والاستعلاءُ بالإيمان في تَواضُع)[1]، فهل من وُضوح بعدَ هذا؟.

إنه لا يَنفي الانعزالَ عن نفسِه فحسب ؛ بل يضَعُه منهجًا للجماعَة تسيرُ عليهِ ؛ فتبدُو وكأنها شَامَةٌ في الناس، تخالطُهم ولا تَنْماعُ فيهم، تأخذُ وتُعطي معهم فيما تقتضيه طبيعةُ الحياة ؛ محافِظةً في ذلك كلِّه على طُهرِها ونقائِها وإيمانِها وقيَمِها، تصدَعُ بالحق في مَواطنِه ولكن بالحِكمة والموعِظة الحسنة، فتغْدُو بسلوكِها هذا متميِّزةً مؤثِّرةً بالحالِ قبل المَقال، فهي إذن مُفاصَلةٌ من صميمِ هذا الدين، فالمسلِم عزيزٌ بإيمانِه مترفِّع عن سَفاسِف الأمُور، بعيدٌ عن اللغْو يمرُّ عليه مرور الكِرام، متجنِّبٌ لمجالِس اللهْو، جِدِّيٌّ في سلوكِه وتصرفاتِه، هذا كلُّه مع المخالَطة والأخْذ والعَطاء.

وتتصِل بهذه المسألةِ قضيةُ التقريب والتسامُح بين أهلِ الأديان السماوية ، إذ كثُر الكلامُ فيها كثيرا ولا يزالُ إلى يومِنا هذا ، ولسيد موقفٌ حاسِم واضحٌ فيها، فهل على المسلِم أن يسعَى لهذا التقريبِ وإزالةِ الفواصِل أم لا يقبلُ في ذلك ولو نُزوعًا طفيفا لهذا التقريب؟ وهل يتعلقُ هذا التقريبُ بالتصوُّر الاعتقادي والنظام الاجتماعي أم بالعلاقاتِ اليومية والمعاملاتِ الشخصية؟ .

يفرِّق سيدٌ بين الجانبيْن، فلا يرى حرَجًا في الجانب الثاني ويشدِّد النكيرَ على مَن يرضَوْن بالتقريبِ في الجانب الأوَّل المتعلِّق بالتصوُّر الاعتقادي والنظام الاجتماعي ، فيقول: (إن الذينَ يُحاولون تَمييعَ هذه المفاصَلة الحاسِمة باسم التسامُح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يُخطِئونَ فهْم معنى الأديان كما

1- سيد قطب، معالِم في الطريق، ص 161.

يُخطئون فهْم معنى التسامُح، فالدينُ هو الدينُ الأخيرُ وحدَه عند الله، والتسامُح يكون في المُعامَلات الشخصية لا في التصوُّر الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي، إنهم يُحاولونَ تمييعَ اليقينِ الجازِم في نفْس المسلِم بأن الله لا يقبلُ دينًا إلَّا الإسلام) [1].

فإذا كان سيدٌ يرى أن التسامُحَ يكونُ في العلاقاتِ والمعاملاتِ الشخصية مع غيرِ المسلِمين فكيف يستقيمُ أن لا يرى ذلك مع المسلمين؟ ! وهو الذي سخَّر قلمَه ولسانَه لدعوةِ المجتمع الإسلامي للعودةِ بهذا الدينِ إلى نبْعِه الصافي والاستمدادِ من مَعينِ القرآنِ في التصوُّر والسلوك !.

ويتضحُ مما أسلفْنا أن سيدًا يَعني بالمفاصَلة والعُزلة ناحيةَ الشعور وهي مفاصَلةٌ دعتْ إليها نصوصُ القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهَّرة وإن لم تُسمِّها بهذا الاسم، فالمصطلحُ لسيد والمعنى ثابتٌ في أدبيات الإسلام لا يسعُ أحدًا إنكارُه، أمَّا العُجاجَة التي أثارَها من نسبَ لسيد القولَ بالمفاصَلة المادِّية الحِسِّية للمجتمعاتِ واعتزال المساجِد والعيش في الكُهوف والمَغارات وهجْر المساجِد ؛ فكلُّها من وحْي عقولِهم المريضة ونفوسِهم العليلة، إذ النصوصُ حاضِرةٌ والكتبُ مطبوعةٌ متداوَلَةٌ وليس فيها ما يَشِي بما ذهبوا إليه ولوْ تأويلًا ! فكيف نسَبُوا له ذلك؟ هذا ما يُعيِينا الوصولُ إليه ومعرفة خلفياتِهم وأغراضِهم من تبنِّي هذه الآراء الشاذَّة التي لا يقولُ بها عاقِل.

المبحث الثاني: العقيدةُ والسياسة:

المطلب الأوَّل: أصولُ الحُكم الإسلامي:

ترجعُ اهتماماتُ سيد قطب بالسياسة إلى عهْد مبكِّر في حياتِه وهو طالبٌ في تجهيزية "دار العلوم" ـ أي في دراستِه الإعدادية ـ أين انضمَّ إلى "حزب الوفد" [2] وبقيَ فيه أكثرمن سبعةَ عشر عامًا ـ من 1924 إلى فبراير 1942م ـ أين فاصَلَهم بعد أن وضحتْ عمالَتُهم ورضوخُهم لأوامِر الإنكليز ؛

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 912.

2- حزبٌ أسَّسه "سعد زغلول"، وسُميَ بهذا الاسم نسبةً إلى وفد الزعماء المصريين الذين فاوَضوا الإنجليز بشأن الاستقلال لمصر بعد ثورة 1919م. ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص266.

والْتحقَ بحزب "السعديين" [1] ـ المنشقّ عن حزب الوفد ـ وبعد عاميْن نفضَ يديْه منهم أيضا واعتزلَ الأحزابَ نهائيا، وأنشأَ يكتبُ المقالاتِ القويةَ العنيفةَ يهاجِم بها الأوضاعَ القائمةَ والأحزابَ المائعةَ التي لا تخدُم إلا مصالِحها الضيقة.

ففي مقالٍ كتبَه حينَها يقول : (هذا القلمُ ليس لحزبٍ من الأحزاب ، فقد باتَ صاحبُه لا يرى في الأحزابِ إلا أقزامًا ، بعدَ أن خلَا الميدانُ من كل جبّار ، فهو يتوجَّه إلى مصرَ الخالِدة وهي أخْلَد وأسْمَى) [2] ، سخَّر قلمَه بعدَها للدعوةِ إلى الإصلاح وفضْح مخطَّطات الإقطاع والملَكية والرأسمالية الطاغية وأصْدَر كُتبا في هذا الشأن : "معركة الإسلام والرأسمالية " و "السلام العالَمي والإسلام" إلى مئاتٍ من المقالاتِ الحادَّة العنيفة في التنديدِ بتلك الأوضاع المُزرِية على صفحاتِ الجرائدِ والمجلّات .

بعدها انضمَّ إلى الإخوان المسلمينَ عام 1953م واتجهَ الاتجاهَ الإسلامي في الكتابةِ والتأليف والدعوة، ونضجت تجربتُه واتضحت معالِم السياسة في الإسلام عنده ؛ ورسَم لها خطوطَها العريضة في كتبِه ومقالاتِه بشمولٍ ووُضوح ودِقة ناسِفًا ما كان شائِعا يومَها أن الدينَ لا دخْلَ له بالسياسة ، وأن الإسلامَ حدُّه المسجدُ لا يعْدُوه إلى حياةِ الإنسانِ اليوميةِ وتفاعلاتِه ومعاملاتِه ونظُمِه وقوانينِه (لقد سمعْنا الأوروبيينَ يقولونَ: إن الدينَ علاقةٌ ما بين الفرْد وربِّه، وليس له أن يتدخَّل في الحياةِ المدنية فردّدنا كالببغاوَات الفارِغة الدِّماغ هذا الذي سمعْناه، نعَمْ ! الدينُ علاقةٌ ما بين الفرْد وربِّه في المسيحية ... فأمَّا الإسلام فقد أنشأ مجتمَعا محكوما بشرائعِه التي يُمكن الرجوعُ إليها هي ذاتِها لوقفِ كل طُغيان) [3]، وقد سبقَه الإمام "حسن البنا" في إرساءِ مفاهيمِ السياسة في الإسلام ؛ وهو أنه دينٌ ودولة وعبادةٌ وأنظِمةُ حياة وأن السياسةَ جزءٌ من الدين، وأن الحُكمَ بشريعةِ الإسلام هو مطلَبُ كل مسلِم، وأنه لا صلاحَ لما فسدَ من أمْر الناس إلا بالعودةِ إلى الإسلام [4].

فما هي أصولُ الحُكم الإسلامي عند سيد قطب؟ وما هي المبادئُ التي يقومُ عليها؟ وكيف هي معالِم الدولة الإسلامية؟ وما الفرْقُ بين الدولة الدينية الثيوقراطية التي يراها الكثيرُ بُعْبُعا يسودُ فيها

1- نسبةً إلى "سعد زغلول" مؤسِّس حزب الوفد. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2- مجلة الرسالة، السنة الثالثة عشر، ج02، عدد 648، تاريخ: 03 ديسمبر 1945م، ص 1309.

3- سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص 57، 58.

4- ينظر: حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد، (دار التوزيع والنشر الإسلامية، طبعة 1992م)، ص 158.

قطعُ الأيدي ورجْم الزُّناة وإعدامُ المجرمين ! وبين الدولةِ الإسلامية التي تُراعَى فيها الحقوقُ وتُقام الواجباتُ فيكونُ القِصاص فيها حياةً للسواد الأعْظم؟ هذه الأسئلةُ وغيرُها نجيب عليها من خلال هذا المبحث باستقراء ما وردَ في كُتب سيد ومقالاتِه.

فالأساسُ الركين الذي يشدُّ سيدٌ إليه أنْوَالَ السياسةِ في الإسلام هو طبيعةُ هذا الدين ومنهجُه الذي يحقق كرامةَ الإنسان ويمنحُه الحريةَ الحقيقيةَ ويطلقُه من العبوديةِ في حدودِ إنسانيتِه وعبوديتِه لله، وتفرّد هذا المنهج بإعطاءِ حقّ الحاكِمية لله وحدَه ليشرِّع للناس منهجَ حياتِهم ولا يكون بعضُهم أربابًا لبعض) [1]، فلا مجالَ لمقارنةِ نظُم الحُكم التي ابتدعَها البشرُ لأنفسِهم بنظامِ الحُكم في الإسلام ؛ وإن كانت بعضُ المَشَابِه والموافقات فلا تعْدُو الأمورَ الجزئيةَ السطحيةَ ؛ لا في التصوُّر العامّ والنظرة الأساسية، ويعتبرُ سيدٌ مجردَ تطلُّب التأييد لنظُم الإسلام من مَشابِهَ ومُوافقاتٍ مع النظُم الأخرى إحساسٌ بالهزيمةِ لا يُقْدِم عليه عارِفٌ لهذا الدين حقَّ معرفتِه [2].

أمَّا أصولُ الحُكم في الإسلام فتتلخَّص حسب سيد في ثلاثِ ركائزَ تتفرَّع منها سائرُ الخطوط التي ترسُم شكلَ الحُكم وصورتَه وهي:

1 ـ العدْلُ من الحُكَّام:

لقولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [3] وقولِه سبحانه: ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [4]، فالحاكِم باعتبارِه رأسَ السلطة مسؤولٌ بين يدَي الله وبين الناسِ على إقامةِ العدْل، وعلاقته مع المحكومين علاقةٌ تعاقُدية، فلا يدَّعي أنه مُفوَّض من قِبَل الله أو يستند إلى حقّ الوراثة إذ لا يعترفُ الإسلامُ بمثلِ هذه الادّعاءات الباطِلة [5] فيتمتع بهذا العدلِ أفرادُ الأمَّة جميعًا على السواء لا

1- ينظر: سيد قطب، هذا الدين، ص 16، 17.

2- خطّأ سيدٌ مَن سمَّى النظام الإسلامي بالإمبراطورية الإسلامية، ومَن تحدَّث عن اشتراكية الإسلام وديمقراطية الإسلام وغيرها من التسميات، فنظام الإسلام نسيجُ وحدِه. ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص94 - 97.

3- سورة النحل، الآية 90.

4- سورة النساء، الآية 58.

5- ينظر: سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص73، وقارِن: حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص 234.

يفرِّقُ بينهم حسبٌ ولا نسبٌ ولا مالٌ ولا جاه، كما تتمتَّع به الأقوامُ الأُخرى ولو كان بينَها وبين المسلمينَ شنآنٌ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [1] وتلك قمَّةٌ في العدلِ لا يبلُغُها أي قانونٍ دولي.

فليس للحاكِم ـ فيما عدا الطاعة لأمرِه والنصح له والمعونة على إقامةِ الشريعة ـ حقوقٌ أخرى ليست لأي فرْد من عامَّة المسلمين، وليس له حقٌّ زائدٌ في الحُدود ولا في الأموال، وليس له أن يعتديَ على أرواح الناس وأجسادِهم ولا حُرُماتِهم أو أموالِهم ، وسلطتُه تقفُ عند إقامة الحدودِ وإنفاذِ الفرائض، هذا فيما يختصُّ بشخصِه، أمّا رعاية المصالِح المرسَلة للجماعة فله فيها سلطاتٌ واسعةٌ تتناوَل جوانبَ الحياة كلِّها؛ بإزالة الضرَر وتحقيق النفْع على ألَّا يخالِف نصًّا من نصوصِ الدين [2].

2 ـ الطاعة من المحكومين:

لقولِه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [3] ولسيد في تفسيرِه استخراجٌ لطيفٌ من هذه الآيةِ حيث يقول: (والنصُّ يجعلُ طاعةَ الله أصْلًا وطاعةَ الرسول أصْلا كذلك ـ بما أنه مرسَل منه ـ ويجعلُ طاعةَ أولي الأمر منكم تبَعًا لطاعةِ الله وطاعةِ رسولِه، فلا يكرِّر لفظَ الطاعة عند ذكرِهم كما كرَّرَها عند ذكرِ الرسول ﷺ ليقرِّر أن طاعتَهم مستمَدَّة من طاعةِ الله وطاعةِ الرسول بعد أن قرَّر أنهم "منكم" بقيْد الإيمان وشرْطِه) [4].

فبما أن الحاكِمَ بمنزلةِ وليِّ الأمْر ـ حسب المصطلَح القرآني ـ إذن فلهُ حقُّ الطاعةِ من جانبِ الرعيَّة التي ولَّتْه أمرَها ولكن في حدودِ طاعةِ الله والرسولِ ؛ لأن وليَّ الأمْر لا يُطاعُ لذاتِه وإنما يُطاعُ لإذعانِه هو لسلطانِ الله وقيامِه بإنفاذِ شريعتِه ؛ فإذا انحرفَ سقطتْ طاعتُه ولم يجب لأمرِه النفاذُ [5] لقوله ﷺ: (على المرْءِ السمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ وكرِهَ إلا أن يُؤمَرَ بمعصيةٍ فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمْعَ ولا طاعةَ) [6].

1- سورة المائدة، الآية 8.

2- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 105 - 107 بتصرف.

3- سورة النساء، الآية 59.

4- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 691.

5- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 102.

6- رواه البخاري، فتح الباري، ج 13، ص 109، كتاب "الأحكام"، باب "السمع والطاعة للإمام ما لم تكُن معصية "، ومسلم، ج 3،

فالطاعةُ إذن ليست مطلقةً لأوامرِ الحاكِم وليست دائمةً إلا إذا الْتزمَ الحاكِم إنفاذَ شريعةِ الله وحُكمَه، فإذا قصَّرَ تعرَّض للمُساءَلة ولا كرَامَةَ، كما حدَث في الفترة الذهبيةِ للتاريخ الإسلامي، عصرِ الخُلفاء الراشدين ـ في حوادِثَ كثيرةٍ اعترضتْ فيها الرعيةُ على حكَّامِها وسوَّى القضاةُ في مجالِس قضائِهم بين الخُلفاء وخُصومِهم.

أمَّا الحكومةُ الدينيةُ أو الثيوقراطيةُ بأن يدَّعي الحاكِم أن سلطتَه يتلقَّاها من السماء ؛ وأنه ظِلُّ الله في أرضِه؛ فلا يعرفُها الإسلامُ بل عرفتْها المسيحيةُ ممثَّلةً في "هيئةِ الإكليروس"(4) والقاعدة الوحيدة في الحُكم الإسلامي هي أن يقومَ على إفراد الله بالحاكِمية وإنفاذِ الشريعة الإسلامية، والحاكِم يستمدُّ سُلطتَه من قيامِه بتنفيذِ شريعةِ الله دون أن يدَّعيَ لنفسِه حقَّ التشريع ، فإذا رضِيَه المسلمونَ قامت له الولايةُ والطاعةُ من المحكومين، وإذا لم يرضَوْه لم تقُم له الولايةُ ، وإذا رَضُوه ثم تركَ شريعةَ الله لم تكُن له طاعة [1]، ويرى سيدٌ أن الحِكمةَ من عدم استخلافِ النبي ﷺ أحدًا بعدَه هو ألَّا يُتخَذ ذلك مظنةً لاستمدادِ السلطةِ الدينيةِ من هذا الاستخلاف.

3 ـ المشورة بين الحُكَّام والمَحكومِين:

لقولِه تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [2] وقولِه سبحانه: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [3] فهي أصلٌ من

ص 1469، رقم 1839، كتاب "الإمارة"، باب "وجوب طاعة الأمراء في غير معصية "، والترمذي تحت رقم 1707، كتاب "الجهاد"، باب "ما جاء: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

4- طائفةٌ من الكَهَنة التي تقومُ بخدمة الدين المسيحي، كما تدلّ الكلمةُ على أحد أعضاء حزب سياسي يُطالب بزيادة سلطة الإكليروس في الدولة، ويقال (النزعة الإكليروسية) للرأي أو النشاط السياسي الذي يُدافع عن حقّ الكنيسة في الاشتراك في شُؤون الحُكم عن طريق الأحزاب أو الحرَكات السياسية. ينظر: برهان غليون وَ محمد سليم العوَّا، النظام السياسي في الإسلام، ص 298.

1- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 102، 103.

2- سورة آل عمران، الآية 159.

3 - سورة الشورى، الآية 38

أصول الحياة إذ تتعدَّى دائرةَ الحُكم إلى قاعدةِ حياةِ الأمَّة المسلِمة في شؤونها وقضاياها، أمَّا طريقتُها فلم يحدِّدْها الإسلامُ لأنها مسألةٌ نِظاميةٌ ترجعُ إلى حاجاتِ كل عصر ووسائلِه وإمكانياتِه في تحقيقِ المبدأ في كل مكانٍ وفي كل زمان [1].

فمن حق الأمَّة أن تراقبَ حُكَّامَها وتشيرَ عليهم أن يحترِموا إرادتَها ويَنزِلوا على الصالِح من آرائِها، فالإسلامُ قرَّر هذا المبدأَ بنصٍّ قاطِع من القرآن الكريم حتى والرسولُ ﷺ هو الذي يتولَّاهُ فما بالُكَ بالحُكام الآخَرين، وهذه النصوصُ قاطعةٌ لا تدَعُ للأمّةِ المسلِمة شكًّا في أن الشورى مبدأٌ أساسيٌّ لا يقومُ نظامُ الإسلام على أساسٍ سواه [2].

أمَّا ثناءُ القرآنِ على الأمّة المسلِمةِ في قولِه تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [3] وهو نصٌّ مكيُّ النزول أي قبل قيامِ الدولة الإسلامية ؛ فيرى سيدٌ أ ن مدلولَه (أوسع وأعمقُ من مُحيط الدولة وشؤونِ الحُكم فيها، إنه طابَع ذاتي للحياةِ الإسلامية وسِمةٌ مميّزة للجماعة المُختارَة لقيادةِ البشرية وهي من ألْزم صفات القيادة) [4]، ويمثِّل لهذا المبدأ بأحداثِ غزوة أُحُد وكيف جَنَت بعضُ الآراء على استقرارِ الصفِّ الإسلامي حينَها، وكيف أن الرسولَ ﷺ وهو في أحْرج الظروف وأمامَ النتائج المَريرة التي انتهتْ إليها المعركةُ أمْضى هذا المبدأ وأقرَّه وعمِل به ؛ لأنه كان يربي أمّةً ويُعِدّ قيادةً رشيدة، يربيها على الشورى وعلى تحمُّل التبِعات، فهي لا تتعلَّم الصوابَ إلا إذا زاوَلَت الخطأ، وهكذا فهذا المبدأُ يرفعُ الوصايةَ عن حياة الأمَّة الواقِعية العمَلية.

أمَّا كيف تتحقّقُ الشورى على الوجْه الأمْثل، فيقدِّم سيدٌ بعضَ الافتراضات مِن مِثل: هل تتمّ الشورى بالتصويتِ العامّ في كل الشؤون أم في بعضِها؟ أم تتمّ بتصويتِ أهلِ الحلِّ والعَقد مِن مُمثّلي الأمّة الذين لا يُختلَف عليهم؟ أم تتمّ بواسطة ممثّلين للنقابات والجامعات والطوائف المختلفة؟ وهل تتمّ بالتصويتِ الشفَهي أم الكِتابي؟ وهل تتمّ بمسؤوليةِ الوُزراء أمام الحاكِم الأعلى المنتخَب أم بمسؤوليته

---

1 – ينظر: سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص72.

2 – ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 501.

3 – سورة الشورى، الآية 38.

4 – المصدر نفسُه، مج5، ص 3165.

أمامَ الهيئة الممثّلة للشعب؟ وهل تتمّ بمجلِس واحِد أم بمجلسيْن؟ إلى آخرِ هذه الأسئلة، ويجيبُ عنها بقولِه: (كل ذلك متروكٌ لظروف كل أمَّة وزمانِها ومكانِها، وللتجاربِ البشريةِ التي تحقّقُ الشورى على الوجْه الأمْثل، وهكذا قضايا كثيرة ممّا لم يرِدْ فيه نصٌّ يحدِّد طريقةَ التنفيذ ووسيلةَ التطبيق، مما يحقِّق المُرونةَ الكاملةَ للنظامِ الإسلامي) [1].

أمّا المتعلِّلون بالظروفِ والأوضاع الحائِلة دون تطبيقِ ه ذا المبدأ الأصيل ؛ فيصفُهم سيد بالانهزامية أمامَ النظُم البشرية القاصِرة، فكيف يُسوِّي العاقلُ بين نظام أرْضي بشَري متهالِك وبين نظامٍ قائم على أساسِ الحاكِمية لله وحدَه ليس فيه إلا العدلُ واللطفُ والرفقُ بهذا الإنسان ! ؟

وأخيرًا فسياسةُ الحُكم في الإسلام تقومُ على أساس من الضمير فوق قيامِها على أساس التشريع، فالحاكِم والمَحكومُ مُطالَبان برعايةِ الله في كل تصرُّف ؛ وهي ميزةٌ على كل النظُم البشَرية الأُخرى التي تعتمدُ على التشريع وحدَه، وهذا الضميرُ الذي ربَّاه الإسلامُ وهذَّبَه هو الذي جاءَ بما يُشبِه المُعجزاتِ في التنفيذِ والتطبيق [2] وهكذا يُرسي سيدٌ في نفوس المؤمنينَ جِدِّيَة هذا المنهج بروح قويةٍ تنعَى تلك الانهزاميةَ مركِّزا دائما على المنهج لا على الأشخاص الذين يُصيبونَ ويُخطئونَ في التطبيق.

المطلب الثاني: الحُكومةُ الإسلامية:

إن المنطلَق الأساسي الداعِي إلى فهْم الإسلام كنظام شامِل ومنهج للحياة ألْزمَ سيدا بتقديم اجتهاداتٍ وجهودٍ كثيرةٍ ليثبتَ أن العقيدةَ لا يمكن أن تتحققَ بذاتِها في واقع الحياة ؛ ما لم تتمثَّل في نظام اجتماعي وتتحوَّل إلى تشريعات تحكُم الحياةَ ؛ وتُترجَم مبادئُ الإسلام ونظرياتُه وقوانينُه وتشريعاتُه واقعًا حيًّا؛ إلَّا بأن يحكُم الإسلام (ليحققَ وجودَه وليُحققَ ذلك المجتمعَ الكاملَ العادلَ الذي رسَمْنا الكثيرَ من خطوطِه؛ وما كان شيءٌ من ذلك ليتحققَ والإسلامُ بعيدٌ عن الحُكم في الحياة) [3].

ويحسُن بنا أن نرصُدَ أهمّ متغيّرات الواقع الذي عاصرَه سيد قطب باعتبارِ أن ذلك الواقع كان

1- سيد قطب، نحوَ مُجتمع إسلامي، (الجزائر: دار الكوثر، د، ت)، ص141.

2- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص108.

3- سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص 61.

مجالًا مباشِرا لإعْمال فكرِه، فالمجتمعاتُ الإسلاميةُ حينَها شهِدت التجزئةَ الاستعمارية لبلدانِهم وقيام دُوَل قومية على أنقاضِ دولة الخلافةِ التي سقطتْ على يدِ الكماليين في تُركيا سنة 1924 م، فصل فيها الإسلام عن الدولة ، ولو كانت دساتيرُها تنصُّ على أن "الإسلام دين الدولة " إلا أنه لا أثرَ لذلك في واقعِ التطبيق العمَلي [1].

وكان من الطبيعيِّ أن يتأثرَ سيدٌ بهذا الوضْع المُزري ويرفضَ دَعْوى الفصْل بين الدين والدولة ويؤكدَ مفهومَ الدولة الإسلامية بطرْح جِذري يتجاوزُ مجرّدَ دحْض دعوى الفصْل بين الإسلام والسياسة إلى بيان جوْهَر المفهوم الإسلامي وخصائصِه وأهدافِه.

فالإسلامُ نظامٌ اجتماعيٌّ متكامِل تترابطُ جوانبُه وتتسانَد، يختلفُ في ذلك عن النظُم الغرْبية في طبيعتِه وفكرتِه عن الحياةِ ووسائلِه في التصريف [2]، ولم يجِئْ لينزَوِيَ في الصوامِع والمعابِد أو يسكُنَ في القلوب والضمائر؛ بل جاءَ ليحكُم الحياةَ ويصرِّفَها بالتشريع والتنظيم (أن تحكُم الدولةُ حُكما إسلاميا، أن تستمدَّ القوانينَ التي تنظّم علاقاتِ الناس بعضِهم ببعض، وعلاقاتِهم بالحُكومة وعلاقاتِ الحكومة بهم من الشريعة الإسلامية وليس قانون الأحوال الشخصية وحدَه ؛ بل قانون العقوبات والقانون المدني والتجاري وسائر القوانين والتشريعات التي تكيف صورة المجتمع وتمنحه شكله ونظامه الخاص) [3]

فمن الخطأ الخلْطُ بين القولِ بأن الأمّةَ في الإسلام هي صاحبةُ السُّلطة وبين ما يعنيه القولُ بأن "الحاكمية لله "، فمفهومُ الحاكِمية لا يمكنُ التوسُّع في مضمونِه إلى الحدِّ الذي يُلغي سيادةَ الأمّة وسلطتَها في اختيار وعزْل الهيئةِ الحاكِمة، وإلا لَمَا اختلَف الحالُ عن معنى الثيوقراطية (2) وهو ما يرفضُه سيدٌ ويحرِص على نفيِ أيةِ صلةٍ للإسلام بمفهوم " الدولة الدينية " كما عرفتْها أوروبا ؛ فليس في الإسلام "رجالُ الدين " ولا "هيئةُ إكليروس" لا تُقام الطقوسُ الدينيةُ إلا بوساطتِها [4]، ف"رجال

1- ينظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، (ط8، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م)، ج2، ص31.

2- ينظر: سيد قطب، دراسات إسلامية، ص 86، 87.

3- سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص60.

4 - كلمة يونانية مركبة من " ثيو" بمعنى إلهي، و" **كرتيس** " بمعنى حُكم، وتعني الحُكم القائم على أساس التفويض الإلهي، فالحاكِم لا يختارُه الناس بل يختارُه الله وبالتالي يحكُم باسم الله لأنه مفوَّض عنه، ولهذا كان الحاكِم الديني في أوربا يملكُ صكوكَ الغفران

الدين" حسبَ سيد هُم أبعدُ خلْق الله عن أن يُمثِّلوا فكرةَ الإسلام ويرسُموا صورتَه لا بثقافتِهم ولا بسلوكِهم ولا حتى بزِيِّهم وهيئتِهم ؛ وإنما نشأت الشبهةُ حولَ حُكم الإسلام من الجهل الفاضِح لهذا الدين ومن الثقافةِ المدرَسية الباقيةِ من عهد الاحتلال ؛ والتي مازال يشرفُ عليها الرجالُ الذين صنعهُم الاحتلالُ والأدواتُ التنفيذيةُ التي صاغَها بيدهِ لتسُدَّ مَسَدَّه بعدَ رحيلِه [1].

فالالتباسُ عند هؤلاء الذين يروْنَ في حُكم الإسلام بُعْبُعا وغُولًا يتهدَّدُهم ؛ ناشئٌ من الخلْط بين النشأةِ التاريخيةِ للإسلام ممثَّلةً في بعض الشخصياتِ التاريخية التي ادَّعت أنها تحكُم باسم الإسلام وهي أبعَدُ ما تكونُ عن روح الإسلام وقانونِه، وبين الإسلام ذاتِه كعقيدةٍ إيجابية ونِظام اجتماعي متوازِن متناسِق ونظام للحُكم لا استبدادَ فيه ولا طُغيانَ ، وشريعةٍ فيها من المُرونةِ والشمولِ ما يُلبِّي حاجاتِ الأمَّة المتجدِّدَة.

لكل هذا يعتبرُ سيدٌ وجودَ حُكومة إسلامية ضرورة ؛ ممثلةً في هيئةٍ سياسية تضمَن مصالحَ الأفراد بتوزيعِ الثرْوة طبقًا لحاجاتِ المجتمع وتحقيق العدالةِ بين الجُهد والجزاء ؛ ومنْح الجميع فُرَصا متكافئةً في الحياة وتجنيد القوى المعطَّلة للعمل والإنتاج ؛ وتجنيد الجيوش وإعداد القوى وغيرِها من المَهامّ، ولا يمكن تحقيقُ كل هذا والإسلامُ مستكنٌّ في الضمائر مستسِرٌّ في القلوب، ويخلُص إلى القول بأنه (لابد للإسلام أن يحكُم) [2].

والوظيفةُ الأساسيةُ للحكومة الإسلاميةِ عند سيد هي تحقيق العدالة باعتبارِها القيمةَ العُليا في النظام السياسي الإسلامي، ويتسعُ مفهومُ العدالة عندَه ليشملَ الفردَ والأسرةَ والمجتمعَ والعلاقاتِ الدولية؛ فبِها تتحدَّدُ حدودُ الحاكِم والمَحكوم ويُؤخَذ من الظالِم للمَظلوم ، والْتزام الحُكومة بإقامةِ العدل لا يقتصرُ فقط على المسلمينَ وبينَهم وإنما يشملُ كل مواطنِيها من غيرِ المسلمين (فالأمةُ المسلمةُ قيِّمةٌ على الحُكم بين الناس بالعدل ـ متى حكَمت في أمرِهم ـ هذا العدلُ الذي لم تعرِفْه البشريةُ قطُّ ـ في هذه

والحِرمان بتفويضٍ من الله في زعمِهم.

2- المصدر السابق، ص 70.

1 - ينظر: سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص 63.

2 - سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص 55، والجملةُ عنوانُ فصْل من هذا الكتاب.

الصورة ـ إلا على يدِ الإسلام وإلا في حُكم المسلِمين، وإلا في عهدِ القيادةِ الإسلاميةِ للبشرية، والذي افتقدَتْه من قبلُ ومن بعدُ هذه القيادة فلم تذُق له طَعْما قطُّ في مثل هذه الصورَة الكريمةِ التي تُتاح للناس جميعا لأنهم ناسٌ ؛ لا لأيةِ صفةٍ أُخرى زائدةٍ عن هذا الأصل الذي يشترِكُ فيه الناسُ، وذلك هو أساسُ الحُكم في الإسلام)[1].

فالجميعُ أمام القانونِ سواءٌ وبهذا تنتفي كل صوَرِ الاستغلالِ والظُّلم والطبقية والتفاضُل في الدَّم والجِنس، كما أن الحُكومةَ الإسلاميةَ مُلزَمةٌ بتحقيقِ العدالة الاقتصاديةِ لكافّة رعاياها بأن تُوفِّر لهم حدَّ الكفاف دون تمييز ولا مُحاباة.

ويُلاحَظ أن سيدا في تحديدِه لوظيفةِ الحكومةِ الإسلاميةِ قد اعتمدَ على فُهوم استخلصَها من النصوصِ القرآنية، والسؤالُ المتبادَر هو ألمْ يكُن للواقع الذي عاشَه سيد أثرٌ في صياغةِ كتاباتِه في هذا المجال؛ خاصةً وأن الدولةَ الإسلاميةَ قد غابَ وجودُها وحلَّ محلَّها المستعمِرُ الغربي؟ والجوابُ: نعَم، فهذه الظروفُ المُزرِية التي غُيِّب فيها الإسلامُ عن الحُكم قد أثَّرت كثيرًا في صياغتِه لرأيِه وتحديده لموقفِه، يظهرُ ذلك بوُضوح في تركيزِه على إعادةِ إحياءِ الإسلام الصحيح الذي جاءت به الآياتُ القرآنية والأحاديثُ النبويةُ الشريفة وتثبيته في الأذهان بكل ما أُتيحَ له من وسائلِ الإقناع وأساليبِ التعبير، ودحْض ما يختلقُه أتباعُ السياسات الاستعماريةِ الغربيةِ المنبهرِين بحضارتِهم العَادِّينَها معصومةً عن الخطأ تحت تأثيرِ سطوةِ تقدُّمِه المادِّي الظاهِر، ونحسب أن الجهدَ الذي بذلَه سيدٌ في تجلِيةِ هذه المفاهيم وحدَها كافٍ لعدِّه جُهدا جبّارا أمامَ التحديات التي تُحيطُ به من كل جانب ؛ وإظْلام الأفق حينَها من كل محاولَة مُضيئة في هذا المجال، بل دعا إلى ما هو أكبرُ مِن هذا، إلى تكتُّل إسلامي يجمَع الشعوبَ الإسلاميةَ بأسْرِها تحتَ رايةِ الإسلام ولا تنضمّ الكُتل الإسلامية متفرِّقة إلى المُعسكر الشيوعي ولا إلى المُعسكر الرأسمالي.

فالكتلةُ الإسلاميةُ إذا اتحدتْ تملكُ أن يكون لها وزنٌ، حتى ولو كانت مجرَّدةً من السلاح، وتملك أن تجعلَ كل كتلةٍ من الكتلتيْن المتنازِعتيْن تفكِّر مرتيْن قبل الإقْدام على حرْب تجتاح فيها هذه المناطقَ

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص689.

الشاسعة، ويقرّر سيدٌ أن دعوتَه هذه ليست مستحيلةً، إنما يراها مستحيلةً (الذين يختانونَ أنفُسَهم ويحتقرونَ ذوَاتِهم، وييأسونَ من الشعوب التي تملكُ كل شيءٍ حين تريدُ، إنني يائسٌ من الزعماء، يائسٌ من الحُكومات، يائسٌ من مئات أو ألوفٍ خدعَتْهُم الدعايةُ الرأسماليةُ أو الدعايةُ الشيوعية، ولكنني لستُ يائسًا من الشعوب ـ على ما يجثُم عليها من جهْل ومن ضغط اقتصادي ومن قُنوط في بعض الأحيان ـ إنْ هذا كلُّه إلا غاشية سطحية تزولُ، وستقفُ هذه الشعوبُ على قدميْها يومًا، وستحطِّم كل مَن يعترِض طريقَها من المستعمِرين والمستغِلِّين، ونحنُ في الطريق) [1].

ألم يكُن سيدٌ في مقالِه هذا صادقَ النبُوءة وكأنما كُشفت له حُجُب الغيب ليرى الشعوبَ تُحطِّم الأغلالَ والأصفادَ والقيودَ منطلقةً تنشدُ الحريةَ وتبتغِي الإسلامَ الذي يحققُ لها العدالةَ ويريحُها من جشَع المستغِلين ! أليست كلماتُه هذه إرهاصًا بالربيع العربي الذي عمَّ الشرقَ والغربَ في العالَم الإسلامي واكتسحَ الاستبدادَ والدكتاتوريةَ والقمع؟ وليست هذه النظراتُ البعيدةُ الكاشِفةُ بمستعظَمةٍ على سيد وهو الذي فسَّر القرآنَ تفسيرًا عدَّه بعضُهم نُقلةً بعيدةً في التفسير بل لا يُغني عنه أيُّ تفسير [2] وذلك للموهبة التي أوتِيَها من وُضوح الفِكر وشمول العرْض ودقّة التحليل ونفاذِ البصيرة وعُمق النظَر، ويُرجعُ أحدُ الباحثين ذلك كلَّه إلى إخلاصِه الذي أوْرَثه الفِراسةَ الصادقةَ (وهذا يدركُه كل مَن قرأ "المستقبل لهذا الدين " الذي صدرَ في الوقت الذي خيَّم فيه الظلامُ على المنطِقة ولم تعُد ترى فيها بصيصًا من نور في هذا الليل البَهيم؛ وكثيرا ما كان يُردِّد (ستهبُّ في المرحلةِ القادِمةِ على المنطقةِ رياحٌ من الإسلام الأمريكي !؟) وقد كانَ !) [3].

والخلاصةُ أن الحكومةَ الإسلاميةَ عند سيد من حيث أصل تصوّرها منبثقةٌ من الإسلام، وأنها لهذا السبب تكتسبُ خصائصَها منه، وتتحدَّد وظائفُها طبقا لتعاليمِه ومبادئِه وقيَمِه، فطبيعةُ علاقة الوَلاء بينَها وبين رَعاياها وحدود الإطار الذي تتحرَّك فيه أو يشكل مجالَها الحَيَوي هي قضايا تشكلُ

---

1 – سيد قطب، أيها العربُ استيقِظوا واحذَروا، ص 99، 100. في مقال له تحت عنوان "الكتلة الإسلامية في الميزان الدولي" نشره عام 1951م في مجلة "الرسالة" عدد 949، ص 1021. وقارِن بـ: عبد الباقي محمد حسين، سيد قطب حياتُه وأدبُه، ص436.

2 – ينظر: د.عدنان زرزور، علوم القرآن، ص 426.

3 – عبد الله عزام، عِملاقُ الفِكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، ص 76.

جزءًا لا يتجزّأ من النظام الإسلامي الشامِل للحياة.

المطلب الثالث: سُلُطات الحاكِم:

نظرَ سيد قطب إلى الحاكِم باعتبارِه رأسَ السلطة ؛ فمسؤوليتُه قائمةٌ على العلاقة التعاقُدية بينَه وبين المَحكومين، فهو وليُّ الأمْر بالمصطلَح القرآني ما أَقامَ شريعةَ الله، أمَّا إذا زاغَ وانحرفَ فلا طاعةَ له مِن المَحكومين، إذ الإسلامُ لا يقرُّ للحاكِم أن يستندَ في سلطتِه إلى مصدرٍ آخَر كأن يدَّعي أنه مُفوَّض من قِبَلِ الله أو يستندَ إلى حق الوِراثة؛ فهذه كلُّها لا يقيمُ الإسلامُ لها اعتبارا.

وإنما يتلقّى الحُكمَ من مصدَر واحِد هو إرادةُ المَحكومين (فالبيعةُ الاختياريةُ هي الطريقُ الوحيدُ لتلقّي الحُكم ؛ والواقعُ التاريخيُّ قامَ على هذا المبدأ، فخلافةُ أبي بكر وعُمَر وعثمان وعليّ قامتْ على أساس الاختيار المُطلق، ولا يتعارَض هذا مع وصيةِ عُمَر أن تكونَ في واحِد من سِتّة فقد كانت نصيحةً للمسلمين ولم تكُن أمرًا واجبَ الطاعة، ولو اختارَ المسلمون واحِدا من غير السِّتة لاختارُوا) [1] .

1- سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص 73، وقارِن: حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص 234، ويكادُ يتفقُ مُفكرو الإسلام

ولعلّ أهمَّ ما يستوقِفُنا في نظْرة سيد قطب إلى سُلطات الحاكِم أن تصوُّره للحاكِم أبْعَد ما يكون عن نموذَج الحاكِم المُطلق أو المقدَّس أو غيرِها من صفات التعظيم والقداسة وأوصاف الطُّغيان والقهْر التي عرفتْها أنظِمة الحُكم الديني في أوربا في عصورها الوسطى ؛ أو حتى ما عرفَه التاريخُ الإسلامي بعدَ الخلافة الراشِدة حين تحوَّلت الخلافةُ إلى مُلْك عَضُوض، ومن ثم فهو أبعَدُ ما يكونُ عن تصوُّر الدولة الدينية الثيوقراطية التي يُبدِئُ البعضُ ويُعيدُ في مُحاولة إلصاقِ هذا التصوُّر بِفِكر الإخوان المسلمين عامَّةً وسيد قطب خاصّةً ؛ في حين أنه كان من أكبَر مَن عارَض فكرةَ الدولة الدينية التي يُسيِّر دواليبَها رجالُ الدين [1].

أمّا المفهومُ الذي دعا إليه سيد قطب واختلَط على بعضِهم ؛ فهو مفهومُ الحاكِمية الإلهية وهي العبودية لله وحدَه والتحرُّر من حاكِمية البشَر أو سُلطة الطواغيت ؛ والتي تشمَل عندَه كافّة الأنظِمة الديمقراطية أو الاشتراكية العِلمانية [2]، فتكون شريعةُ الله هي الحاكِمة في كل شأنٍ من شُؤون الحياة [3] دون أن تُكسِب هذا الحاكِم تلك القداسةَ الدينية.

فلا قداسةَ ولا عِصمةَ إلا لهذا الدينِ ؛ أمّا الأفرادُ فمهْما بلغت سُلطاتُهم فبشَرٌ يُخطئونَ ويُصيبون ؛ وليس لأحَدٍ منهم عصمةٌ إلا مَن عصَمه اللهُ كالأنبياءِ والمُرسَلين، والإسلامُ (لا يعرفُ هيئةً دينيةً مثل هيئة الإكليروس في الكنيسةِ المسيحية، والحُكم الإسلامي ليس هو الذي تقومُ به هيئةٌ مُعيَّنة، ولكنه كل حُكم تُنفّذ فيه الشريعةُ الإسلامية إقرارًا من الحاكِم بأن الحاكِميةَ لله وحدَه، وأن مهمَّتَه هو لا تتعدَّى تنفيذَ الشريعة. فإذا كان معنى الحُكومة الدينية في أيّةِ ديانة أن طائفةً معيّنةً هي التي تتولَّى الحُكم فإن هذا المعنى ينتفِي في الإسلام انتفاءً كامِلا) [4].

هكذا يُحدِّد سيدٌ سُلطات الحاكِم وهي تنفيذ الشريعة، والشريعة لا تتمثَّل في التشريعات القانونية

حول هذه القضية، إذ تشهَد لها مقاصِد النصوص ويشهَد لها الواقعُ التاريخي لصدْر الإسلام.

1- ينظر: المصدر نفسُه، ص 74.

2- ينظر: محمد حافظ دياب، سيد قطب الخِطاب والإيديولوجيا، ص117 .

3- ينظر: سيد قطب، معالِم في الطريق، ص 46.

4- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص103.

فحسب؛ وإنما تعني كل ما شرَعه الله لتنظيم الحياة البشرية [1]، فسُلطتُه إذن تتسع لتشمَل كل جوانب الحياة على أن تحقّقَ أهدافَ هذا الدين ولا تخرُجَ عن الأُطُر العامّة التي حدّدَها، فالإسلامُ يوسِّع له إلى أقصى الحدود في رعايةِ المَصالِح المُرسَلة للجماعة؛ تلك المصالحُ التي لم يرِدْ فيها نصٌّ والتي تتجدَّد بتجدُّد الزمان والأحْوال، فللحاكِم مثلًا أن يتجاوزَ في الناحية المالية فريضةَ الزكاة إلى ضرائبَ أُخْرى يتحقّقُ بها التعادُل والتوازُن وترتفعُ بها مضارُّ احتباسِ الأموالِ في أيْدي قِلَّة من الناس ؛ لكن دونَ أن يُخِلَّ بنصٍّ أو بقاعدةٍ أساسيةٍ من قواعدِ الحياةِ الإسلامية [2].

ويضربُ سيدٌ لذلك أمثلةً كثيرةً من الواقـع التاريخي في حياةِ الأمّة الإسلامية لسياسةِ المـــال – عَصَب الحياة ـ وكيف جعلَ للحاكِم الحقَّ في أن يأْخُذ بعدَ الزكاة ما يمنعُ به الضرَر، ويرفع به الحرَج ويَصونَ به المصلحةَ لجماعةِ المسلمينَ ؛ وهو حقٌّ كحقِّ الزكاة عند الحاجةِ إليه مَوْكولٌ إلى مصلحةِ الأمّة وعدالةِ الحاكِم وقواعدِ الشريعة، وفي هذا نزلَ قولُه تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [3]، ذلك أن تضخُّم المالِ في جانبٍ وانحِسارَه في جانب مَثارُ مفسدَة عظيمةٍ وأحقادٍ وضغائنَ ؛ كما يحدُث الآنَ في الرأسمالية العالَمِية القائمة على الاستغلالِ والرِّبا والثراءِ الفاحِش لفئةٍ قليلةٍ والحرمان والشظَف للأكثرية، وهذا ما يأباهُ الإسلامُ وينوطُ بالحاكِم العملَ على تعديلِ الأوضاعِ كي لا يكونَ المالُ دُولَةً بينَ الأغنياء [4].

ويخلُص سيد إلى أن مهامَّ الحاكِم تتلخَّص في إزالةِ كل ما يوقِع بالأمَّة ضرَرا من أيِّ نوع ؛ وتحقيق أهدافِ الدينِ العامّة في إصلاح الفرْد والجماعة في حدودِ المبادئِ المقرَّرة في الإسلام ؛ بشرْط العدْل الذي يجبُ أن يتوفَّر في الحاكِم، فالعدْلُ أصلٌ في نظام الحُكم الإسلامي ؛ والحكَّام مُكلَّفون تكليفًا إلهيًّا بإقامة

1- ينظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ص 124.

2- ينظر، سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 107.

3- سورة الحشر، الآية 7.

4- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 117، 118 بتصرف.

العدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [1]، ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [2] وقد جاءَ النصُّ عليه في القرآنِ مطلقًا شامِلا للناسِ جميعا.

فعدلُ الحاكِم في حُكمِه يستغرقُ كافّةَ مَن هُم تحت حُكمِه ؛ لا فرقَ بينَهم في الديانةِ ولا اللونِ ولا الجنسِ ولا القرابةِ ولا الصهرِ ولا غيرِها، وهو عدلٌ (لم تعرِفْه البشريةُ قطُّ في هذه الصورةِ إلا على يدِ الإسلام وإلا في حُكم المسلمينَ وإلا في عهْد القيادةِ الإسلاميةِ للبشرية... وذلك هو أساسُ الحُكم في الإسلام) [3]، ويُرجع سيدٌ الخوفَ من حُكم الإسلام عند أولئكَ المُرجِفين إلى الفكرةِ التي ترسَّخت في أذهانِهم عن محاكِم التفتيش في عصور الظُّلُمات وإلى هؤلاء الحُكّام الذين يستبدُّون باسم الدين وهم لا يُحكِّمونَه في شيءٍ من شؤونِهم.

فأين العدلُ في هذه الحُكومات الديمقراطية الدستورية البرلَمانية وجهازُ الدولةِ كلُّه يعملُ لحسابِ الرأسمالية وهذه الملايينُ جائعةٌ مريضةٌ عاريةٌ مستغَلةٌ ولا حامِيَ لها ولا نَصير؟ وأين العدلُ ونفرُ البوليس يُمكنُ أن يتهِمَ أي فردٍ في عرض الطريق ويُجرجِرَه ويعذبَه دون مُحاكَمة وقبل أن يقدَّم إلى القضاء وقبل أن يتقرَّر إذا كان مُجرِما أو بريئا؟ [4].

مِن هنا تأتي الصورةُ البائسةُ النكِدَة لحُكم الإسلام وحُكومة الإسلام والتي يجزَع منها أولئكَ المُرجِفون، وإلا فالحاكِم المسلمُ الملْتزِم لا سُلطةَ له على أحَد إلا في حُدود الشريعة، والعدلُ منه واجبٌ وليس نافلةً أو تفضُّلا.

ويُضيف سيدٌ مسألةً مهمّةً يمتازُ بها النظامُ الإسلامي عن غيرِه من الأنظمة البشرية الوضْعية الأخرى؛ وهي رعايةُ الله في كل تصرُّف وخشية الله فيما يأتيهِ الحاكِم والمَحكوم من أعْمال ؛ فهي ضمانةٌ أخرى لتحقيقِ العدالةِ فوق النصوصِ والقوانينِ والتشريعات، فإذا لم يكُن حاكِمٌ من الضمير فلا ضمانَ

1- سورة النحل، الآية 90.

2- سورة النساء، الآية 58.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 689.

4- ينظر: سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، ص 76.

لأن التشريعَ يمكنُ الاحتيالُ عليه والتسترُّ دونَه [1]، وهذا هو دورُ العقيدةِ إذا استحكَمتْ في النفوسِ وتشرَّبتْها القلوبُ.

وهكذا نُلفي سيدًا يمزِج العقيدةَ بكل أصولِ وجزئياتِ النظام الإسلامي فلا انفصالَ ولا انفصامَ لها عن كلِّ شؤونِ الحياة، بل هي الركيزةُ الأُولى التي تقومُ عليها الحياةُ بكل أبْعادِها ؛ فتتمثَّل في نفوس حيَّةٍ تدبُّ على الأرض، وهذا ما حقّقَه الذينَ تمثَّلوها على مرِّ التاريخ الإسلامي فجا ءُوا بما يُشبِه الخوارِق والمعجزات في تصرُّفاتِهم وسلوكِهم وأعمالِهم لأن (الإسلامَ يربطُ بين العقيدةِ والنظُم والتشريعاتِ التي يُطلَب إلى كل فردٍ في المجتمع الإسلامي صيانتَها ومراعاتَها وردّ الحاكِم والمَحكوم إليها) [2]، فالعقيدةُ تتجِه إلى أُفق أعْلى من مصالح الناس وإلى أبعادٍ فسيحة لا تنحصرُ في هذه الحياة الدنيا ؛ وإنما ترُومُ الدنيا والآخِرة، والآخِرة خيرٌ وأبقَى فلا مجالَ للتكالُب المَسعُور على حُطام الدنيا ولا نفْعَ في الغِش والخِداع والاحتيالِ ولا قيمةَ للتسلُّط والبغْي والعُدوان.

1- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 108.

2- سيد قطب، نحوَ مجتمع إسلامي، ص 148.

المطلب الرابع: حقوقُ الإنسان:

الدارِسُ لكُتب سيد يلحَظ تركيزًا كبيرا واهتمامًا بالِغا بقضية حقوق الإنسان بل ولدورِه ومركزِه في هذا الكون، إذ هو الحَجَر الأساسيُّ في بناءِ المجتمع، والإسلامُ باعتبارِه الرسالةَ الخاتِمة فقد ضمَّنَه الله تعالى من التعاليمِ ما يكفلُ لهذا الإنسان حياةً مستقرّةً وما يوضّح الحقوقَ المقرَّرَة لكلّ فرد مفصَّلةً تفصيلا يمنعُ أيَّ مزايَدة عليها.

فالإنسان سيدُ هذهِ الأرض بل هذا الكونِ ؛ ومكانتُه في هذا الدين رفيعةٌ لأنه يحمِل بين جنبَيْه نفخةً من رُوح الله ؛ فهو أكرَم بكثيرٍ من كلّ تقدير عرفَتْه البشريةُ من قبلُ للإنسان ومن بعدُ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1] وهو بهذه النفخةِ مستخلَفٌ في الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] ومسخَّرٌ له كلّ ما في الأرض ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾[3]، (ولأن الإنسانَ بهذا القدْر من الكرامَة والسموِّ جعلَ اللهُ الآصِرةَ التي يتجمَّع عليها البشَر هي الآ صِرة المستمَدَّة من النفخةِ الإلهية الكريمة، جعلها آ صِرة العقيدة في الله، فعقيدةُ المؤمِن هي وطنُه وهي قومُه وهي أهلُه، ومن ثم يتجمَّع البشَر عليها وحدَها، لا على أمثالِ ما تتجمَّع عليه البهائمُ من كلإٍ ومرعًى وقطيعٍ وسِياج)[4].

ولاحظْ كيف يجعلُ سيد العقيدةَ المركزَ الأساسَ في الحياة ؛ فبِها تقومُ ومنها تستمدُّ وإلا فهي البهيميّةُ والبوهيميةُ ما لم يكُن للعقيدةِ هذا البُعد الشامِل المؤثِّر الواقِعي الحَرَكي في الحياة، فهي وطنُه وهي قومُه وهي أهلُه، فلا اعتبارَ للرُّقعة الجُغرافية ولا للجِنس ما لم يتجمَّع الناسُ على العقيدة.

وقد مرَّت البشريةُ في تاريخِها بعُهود استعبَدَ فيها بعضُهم بعضًا ؛ ودِيسَت كرامةُ الإنسان واستأثَر ما يُسمَّى بالأحْرار بكل الحقوقِ دونَ العبيدِ، وكانت الرسالاتُ السماويةُ تَتْرَى تُذكِّر الناسَ بأصْلِهم

1- سورة ص، الآية 72.

2- سورة البقرة، جزءٌ من الآية 30.

3- سورة البقرة، الآية 29.

4- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 12. من المقدِّمة.

الواحِد وبالتكريمِ الإلهي لهذا الإنسانِ إلى أن جاءَ الإسلامُ وألْغى نظامَ الرِّقِّ بالتدريج وفتحَ كافَّة السُّبل والمنافِذ للقضاءِ عليه، كما أن النظُم السياسيةَ كان يسودُها الاستبدادُ والطغيانُ والبطْش والقهْر والظُّلم فلا تقيمُ للفردِ اعتبارًا كما حصلَ في اليونانِ وغيرها[1].

ومطالعةُ هذه الجاهِليات يُعرِّفنا على النُّقلة الهائلةِ التي استخلصت الإنسانَ من تلك الوِهَاد إلى الآفاق العُليا التي تحفَظ للإنسانِ حقوقَه كاملةً ممثَّلةً في خاتِمة الشرائع [2] التي جاءت لتُحقّقَ العدالةَ الاجتماعيةَ وإقامة القسْط بينَ الناس.

فالإنسانُ في الإسلام مكرَّمٌ تكريما إلهيا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[3]، فهو ذو مركزٍ عظيم في تَصميم الوجود ـ على الرّغم من كلّ ما في طبيعتِه من استعدادٍ للضعف والخطأ والقُصور والتَردِّي ـ إلا أن حمْلَه لأمانةِ الاهتداءِ وللتبِعة يجعلُه كائنًا فريدا يستحقُّ هذا التكريمَ والاستخلافَ في الأرض وإرسالَ الرسُل، فهو أكرَم من كلّ ما هو مادِّي لأن كلّ ما هو مادِّي مخلوقٌ له[4].

وأفرادُ هذا الجِنس الإنساني مُتساوُون ابتداءً في عبوديتِهم لله ؛ وأعْلاهُم مكانًا عندَه أتقاهُم، فالتقوى هي القيمةُ العُليا التي بها يتفاضَلون، والإنسانُ مستعدٌّ حسبَ تكوينِه الذاتي لأن يرتفعَ إلى أرْقى من آفاقِ الملائكة المُقرَّبين كما هو مستعدٌّ لأن ينحطَّ إلى أدنى من درَكات الحيوانِ البهيم، وذلك حسبَ ما يبذُل هو من جُهد في تزكيةِ نفسِه أو تدسِيَتِها وحسبما يتلقَّى مِن عوْنِ الله وهدايتِه على ما يبذُل من جُهد ورغبةٍ وتوجُّهٍ للهداية [5].

وقد تحدَّث سيدٌ بإسهاب عن الحقوقِ التي يكفلُها الإسلامُ للفردِ في كتابٍ كاملٍ بعنوان "السلام

1- ينظر: claude albert colliard. Libertés publiques. Dalloz. Paris. 6eme édition. 1982. P 32. Et marcel prelot. Histoire des idees politiques. Dalloz. Paris. 9eme édition. 1986. P76 – 77 et 106 – 107.

2- للتوسع في هذه القضية يُطالع كتاب: أبو الحسن الندْوي، ماذا خسِرَ العالَم بانحطاط المسلمين، وقد أُعجبَ به كثيرا سيد قطب وقدَّم له تقديما ضافيا.

3- سورة الإسراء، الآية 70.

4- ينظر: سيد قطب، مقوّمات التصور الإسلامي، ص362.

5- المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

العالمي والإسلام" ووقفَ طويلا عند العقيدةِ الإسلامية التي تضمَنُ هذه الحقوق فهي (لا تتولَّى روحَ الفردِ وتهمل عقلَه وجسدَه، أو تتولَّى شعائرَه وتهملَ شرائعَه، أو تتولَّى ضميرَه وتهملَ سلوكَه، وإنها لا تتولَّاه فردا وتهملَه جماعةً، ولا تتولَّاه في حياتِه الشخصية وتهملَ نظامَ حُكمِه أو علاقات دولتِه ومجتمعِه بسائرِ الدوَل والمجتمَعات) [1]، وفي معرِض ترتيبِ هذه الحقوق التي يكفلُها الإسلامُ للإنسان يجعلُ سيدٌ الأولويةَ لمسائلَ مركزيةٍ نلخصُها فيما يلي:

1 ـ **حريةُ الاعتقاد:** ففيها يتجلَّى تكريمُ الله للإنسان إذ تركَ له الحريةَ في الهُدى والضلال وحمَّلَه تبِعةَ عملِه، وهذا ما لا نجدُه في المذاهبِ البشرية المُعتَسَفة والنظُم المُذِلة التي لا تسمحُ بهذه الحرية الاعتقادية وتُسخِّر أجهزتَها الإعلامية التوجيهية لتُمْلي قوانينَها وأوضاعَها وتلجأ في بعضِها إلى القوّة والإرهاب ، أمّا الإسلامُ فيكفَل هذا الحقَّ في النصِّ القرآني ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [2] فتكون حريةُ الاعتقاد (هي أوَّل حقوقِ الإنسان التي يثبتُ له بها وصْف "إنسان"، فالذي يسلُب إنسانًا حريةَ الاعتقاد إنما يسلُبه إنسانيتَه ابتداءً، ومع حريةِ الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمْن من الأذى والفِتنة، وإلا فهي حريةٌ بالاسم لا مدلولَ لها في واقِع الحياة) [3]

وهذه الحريةُ التي يحمِل تبعتَها ترتفعُ به إلى الذّروة من الكَمال المَقْدور له بما استعدَّ له من التكليف، كما له أن ينحطَّ إلى الدرَك الأسفل بهذا الاستعداد، فهو استعدادٌ متفرِّد بين خلائق السماء والأرض [4].

أمّا ما يروِّج له المستشرقونَ من أن الإسلامَ قامَ بالسيْف وناقضَ في تطبيقاتِه هذه الآيةَ، فيردُّه سيدٌ إلى التحريفِ المُتعمَّد منهم لمنهَج هذا الدينِ ؛ ومحاولتِهم تخديرَ المسلمين وتكبيلَهم بشتّى الوسائل وهم يَكيلونَ لهم الضربات الساحِقة الوحش ية ثم يزعُمون أنها ليست حربَ عقيدة تقتضي الجهادَ !

فالإسلامُ حقيقةٌ لا يُكرِه أحدًا على الإسلام وإنما جاهدَ لأمور حدَّدَها سيدٌ في ثلاثة:

أ ـ ليدفَعَ عن المؤمنينَ الأذَى والفتنةَ التي كانوا يُسَامونَها، وليكفلَ لهم الأمْنَ على أنفُسِهم

1- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص 11.

2- سورة البقرة، الآية 256 .

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 291.

4- ينظر: عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن الكريم، (مصر: دار الهلال، 1971م)، ص14.

وأموالِهم وعقيدتِهم.

ب ـ لتقريرِ حريةِ الدعوةِ ـ بعد تقريرِ حريةِ العقيدة ـ بإزالةِ العَقباتِ من طريقِ إبلاغِ هذا الخيرِ للناسِ كافّة، ثم مَن شاءَ بعد البلاغ والبيان فلْيؤمنْ ومن شاء فلْيكفُر.

جـ ـ ليُقيمَ في الأرضِ النظامَ الذي يحقّقُ حريةَ الإنسان تِجاهَ أخيهِ الإنسان وتكونَ العبوديةُ لله وحدَه ويُلغي عبوديةَ البشَر للبشَر [1].

والمُلاحَظ أن سيدا يُولي حريةَ الاعتقاد عنايةً كبرى باعتبارِها أوّل حقوق الإنسان في نظرِه ولا قيمةَ للحقوقِ الأخرى إذا أُهدِر هذا الحقُّ الأوّل الذي به قِوامُ الحياةِ الإنسانيةِ بكل أبْعادِها ومَجالِيها.

2 ـ حقُّ الحياة:

وقد يتساءلُ البعضُ: أتكونُ الحريةُ مقدَّمةً على الحياةِ عند سيد قطب ؟ والجوابُ: نعَم، فسيدٌ يرى أن الحياةَ دونَ حريةٍ لا تُساوي شيئا، فالإنسانُ الذي تُملَى عليه عقائدُه وتصرُّفاتُه ويُفصَل في قضاياهُ وهو حاضِرٌ، هذا لا حياةَ له تسحقُّ ذلكَ التكريمَ الإلهي، أمَّا مجرّدُ الحياة فلِلأنعامِ كذلك حياةٌ وللدوابِّ والهوامِّ حياةٌ ! فالحياةُ بالمعنَى الحقيقيِّ حياةُ الرُّوح التي صارَ الإنسانُ بها إنسانًا بتلكَ النفخةِ العُلوية الجليلة، وهذه الحياةُ مقدَّسةٌ في الإسلام لا يحقُّ لأحدٍ أن يعتديَ عليها ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [2].

فقتلُ نفسٍ واحدةٍ ـ في غيرِ قِصاص لقتلٍ وفي غيرِ دفْع فسادٍ في الأرض ـ يعدِلُ قتلَ الناسِ جميعًا لأن حقَّ الحياةِ واحدٌ ثابتٌ لكل نفس، فالاعتداءُ على هذه النفسِ بالقتل هو اعتداءٌ على حقِّ الحياة ذاتِه الذي تشتركُ فيه كلُّ النفوس، وكما أن استحياءَ نفسٍ بالدفاع عنها حالةَ الاعتداء عليها أو القِصاص لها في حالةِ الاعتداء عليها لمَنْع وُقوع القتل على نُفوسٍ أُخرى هو استحياءٌ للنفوس جميعًا لأنه صيانةٌ لحَقِّ الحياة الذي تشتركُ فيه هذه النفوسُ [3].

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 294، 295 بتصرف.

2- سورة المائدة، الآية 32.

3- ينظر: المصدر نفسُه، مج2، ص 877، 878.

وفي القِصاص الذي شرَعه الإسلامُ حياةٌ للنفوس الأُخرى على المعنَى الأشْمل الأعمّ ؛ فكفُّ الجاني عن إزهاقِ حياةٍ واحِدة هو كفٌّ له عن الاعتداءِ على الحياةِ كلِّها، ويُوردُ سيدٌ مثالًا تطبيقيًّا بعهد النبي ﷺ والخُلفاء الراشِدين بنُدرَة عددِ الجرائم التي أُقيمَت فيها الحدودُ إبَّانَها، وما وقعَ منها كان مصحوبًا باعترافِ الجاني نفسِه طائعًا مُختارًا، ويُرجعُ سيدٌ ذلك كلَّه إلى التقوى ؛ الحارِس اليقِظ في داخلِ الضمائر، إلى جانبِ الشريعةِ البصيرةِ بخفايَا الفِطر ومَكنونات القُلوب، وهذا التكامُل في التنظيمات والشرائع تعاونٌ على إنشاء مُجتمع سليم التصوُّر نظيفِ السلوك [1].

3 ـ حقُّ المساواة:

يرى سيدٌ أن الإسلامَ هو الوحيدُ الذي قرَّرَ وحدَةَ الجنس البشري في المَنشأ والمَصير، في المَحْيَى والمَمات، في الحقوقِ والواجبات أمامَ القانون وأمامَ الله في الدنيا والآخِرة ؛ لا فضلَ إلا للعملِ الصالِح ولا كرامةَ إلا للأتْقى [2] إذا استشعرَ الضميرُ التحرُّرَ الوِجداني وتخلَّص من كل عبوديةٍ لغيرِ الله فسيطلُب حقَّه في المساواة ولن يرضَى بالطبقية والفوارِق الاجتماعية ؛ فمبدأُ المساواةِ مُقرّرٌ باللفظ والنصّ، في الأصْل والنشأة ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ ﴾ [3]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [4]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ [5].

وبهذا ينتفِي أن يكونَ فردٌ أفضلَ بطبيعتِه من فردٍ ؛ أو جنسٌ أفضلَ بطبيعتِه من جنس ؛ فالكلُّ من تراب والأفرادُ من النُّطَف، وليسَ التفاضُل إلا بالتقوى، وأوَّل التقوى الإسلامُ لله وحدَه [6]، فلو استقرّت هذه المعاني في النفوس لكانت كفيلةً (باستبعادِ الاستعبادِ الطبَقي السائدِ في وثنيةِ الهند

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 165، 166.

2- ينظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص52.

3- سورة فاطر، الآية 11.

4- سورة الحجرات، الآية 13.

5- سورة النساء، الآية 01.

6- ينظر: المصدر نفسُه، ص53، 54.

والصراع الطبقي الذي تسيلُ فيه الدماءُ أنهارًا في الدوَل الشيوعية ؛ والذي ما تزالُ الجاهليةُ الحديثةُ تعتبرُه قاعدةَ فلسفتِها المذهبية، ونقطةَ انطلاقِها إلى تحطيمِ الطبقاتِ كلِّها لتسويدِ طبقةٍ واحِدة، ناسيةً النفسَ الواحدةَ التي انبثقَ منها الجميعُ والربوبيةَ الواحدةَ التي يرجِعُ إليها الجميعُ) [1].

أمّا المساواةُ بين الجنسيْن والتي اتخذَها بعضُ المُغرِضين تُكَأَةً لاتّهام هذا الدّين فقد أبْعَدُوا النّجْعَةَ ورمَوْا في غيرِ مَرْمَى، فالإسلامُ خيرُ مَن أعطَى المرأةَ حقوقَها كاملةً ولبَّى رغباتِها وأشواقَها الفِطرية، ولم يقرِّر التفاضُل إلا في بعض المُلابَسات المتعلّقة بالاستعدادِ أو التبِعة مما لا يؤثِّر على حقيقةِ الوضْع الإنساني للجنسيْن، فالنصوصُ صريحةٌ في ذلكَ ولا مجالَ لتأوُّل أو مُزايدة ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ [2] ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ ﴾ [3].

وحتى في الناحية الرُّوحية والجزاء الأُخْروي مساواةٌ كاملةٌ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [4]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [5]، ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [6].

وفي مسألة الميراث ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ [7] فالتفاضُل يُرجعُه سيدٌ إلى الاستعدادِ والتبِعة والأعْباء المُلقاة على كلٍّ منهما وليس الأمرُ (محاباةً لجنسٍ على حسابِ جنس، إنما الأمرُ أمر توازُن وعدْل بين أعباء الذكَر وأعباء الأنثى في التكوينِ العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي ؛ فالرجُل يتزوّج امرأةً ويتكلّف إعالتَها وإعالةَ أبنائِها منه في كل حالةٍ وهيَ معه، وهي مطلقةٌ منه، أمّا هيَ فإمّا أن

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص574.

2- سورة النساء، الآية7.

3- سورة النساء، الآية 32.

4- سورة النساء، الآية 124.

5- سورة النحل، الآية 97.

6- سورة آل عمران، الآية 195.

7- سورة النساء، الآية 11.

تقومَ بنفسِها فقط ؛ وإمّا أن يقومَ بها رجُل قبلَ الزواج وبعدَه سواء، وليست مكلّفةً نفقةً للزوج ولا للأبناءِ في أيِّ حال، فالرجلُ مكلَّفٌ ـ على الأقل ـ ضعفَ أعْباء المرأة في التكوين العائلي) [1] .

ويفيضُ سيدٌ في المسائل الأُخرى كالشهادَة التي تعدِل فيها الواحدةُ للرجُل شهادتيْن للمرأة، وفي القِوامة وغيرِها بأدلة من النقل والعقل والواقع لا تتركُ زيادةً لمستزِيد، نكتفي نحنُ منها بما أورَدْنا لِضيقِ المجال، ونشيرُ إلى أن هذه الحقوقَ الثلاثةَ الكبرى هي التي احتلّت الصدارةَ عندَه فيما كتبَ والباقي عدَّها كفروع منها - حسب استقرائِنا-.

المطلب الخامس: العلاقاتُ الدولية:

ينطلقُ سيدٌ في بيان علاقةِ الدولة الإسلاميةِ بالدوَل الأخرى والمجتمع الإسلامي بالمجتمعاتِ الأخرى من طبيعةِ هذا الدينِ ونظامِه الذي يتناولُ الحياةَ كلَّها ويتولَّى شؤونَ البشريةِ كبيرِها وصغيرِها، وينظّم حياةَ الإنسان، لا في الحياةِ الدنيا وحدَها ولكن كذلك في الدارِ الآخِرة، ولا في عالَم الشهادة وحدَه ولكن كذلك في عالَم الغيب، ولا في المعامَلات المادِّية الظاهِرة وحدَها ولكن كذلك في عالَم الضمائر والسّرائر، وفيه وحدَه تتلقّى النفوسُ تشريعاتِه بالرِّضى والقَبول ولا تعترضُ على شيءٍ منها ولا تتلكَّأُ في التنفيذ (وهكذا أُبطلت الخمرُ وأُبطلَ الرِّبا وأُبطلَ المَيسِر وأُبطلت العاداتُ الجاهليةُ كلُّها، أُبطلت بآياتٍ من القرآن أو كلماتٍ من الرسول ﷺ بينما الحكوماتُ الأرضيةُ تجهدُ في شيءٍ من هذا كلِّه بقوانينِها وتشريعاتِها ونُظُمِها وأوضاعِها وجندِها وسلطانِها ودعايتِها وإعلامِها فلا تبلغُ إلا أن تضبطَ الظاهرَ من المُخالفات) [2].

والإسلامُ ثورةٌ على الظلْم بكل صُنوفه وألوانِه وفي كل ميادينِه ومجالاتِه، ثورةٌ على الظلْم الذي تعرفُه النظُم والحكوماتُ ؛ وثورةٌ على الأوضاعِ التي تؤازِرُ هذا الظلمَ وتسْتَبقيهِ لحسابِ فردٍ على جماعةٍ أو لحسابِ طبقةٍ على طبقةٍ أو لحسابِ دولةٍ على دولةٍ في صورةِ مُحتلِّين ومُستعمِرين [3] وهكذا فالإسلامُ يستنقذُ البشريةَ من اضطهاد هذه الأقلياتِ إلى المُساواةِ والحريةِ والعدلِ الذي يريدُه اللهُ لهم.

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 591.

2- سيد قطب، معالم في الطريق، ص32، 33.

3- ينظر: سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص171.

ومن هنا تتحدَّد طبيعةُ العلاقاتِ بين المجتمع المسلِم والمجتمعات الأخرى، فهي لا تقومُ على علاقةِ الدم ولا علاقةِ الأرض ولا علاقةِ الجنس ولا علاقةِ التاريخ ولا علاقةِ اللغة ولا علاقةِ الاقتصاد، إنما تقومُ على علاقةِ العقيدة [1] فالعقيدةُ وحدَها هي التي يمكنُ أن تجمعَ الأجناسَ البشريةَ وتصهرَها في بوْتَقة واحِدة وتحقّقَ التقارُبَ المنشودَ والسلامَ العالَمي للمجتمَعات.

وقد شهدَ المجتمعُ الإسلاميُّ تلك النتائجَ الواقعيةَ الباهرةَ في فترةٍ من فتراتِه فكان مجتمَعا مفتوحًا لجميع الأجناسِ والأقوامِ والألوانِ واللغاتِ ؛ ونشأ منها جميعًا كتلةٌ متجانِسةٌ في حضارةٍ رائعةٍ ضخمة تَحوي خلاصةَ الطاقةِ البشرية، فلقد اجتمعَ (العربيُّ والفارسيُّ والشاميُّ والمِصريُّ والمغربيُّ والتركيُّ والصينيُّ والهنديُّ والرومانيُّ والإغريقيُّ والأندونيسيُّ والأفريقيُّ إلى آخِر الأقوام والأجناسِ وتجمَّعت خصائصُهم كلُّها تعمَل متمازِجَةً متعاوِنةً متناسِقةً في بناءِ المجتمع الإسلاميِّ والحضارةِ الإسلامية ولم تكُن هذه الحضارةُ الضخمةُ يومًا ما قوميةً إنما كانت دائما عقيدية) [2].

وبهذا تنتفِي عن المجتمع الإسلاميِّ فكرةُ التمييز العُنصريّ ؛ ويفتح أبوابَه للبشَر عامّة على قدَم المُساواة، ففي العالَمِ الإسلامي وحدَه على مدى التاريخ سُمِح للمخالِفين له في العقيدة أن يَعيشوا في ظِلّه متمتِّعين بكافّة الحقوقِ والضمانات، لأن الإسلامَ هو الدينُ الوحيدُ الذي يكلِّف أتباعَه حمايةَ حريةِ العبادةِ للمخالِفين له قبلَ حمايةِ حريةِ العبادةِ لأنصارِه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [3]، فلا يجيءُ ذِكرُ المساجِد إلا بعدَ الصوامِع والبِيَع والصلواتِ لليهودِ والنصارى [4].

والإسلامُ يجعلُ قانونَه في العالَمِ الدولي هو الوفاءُ بالعهد فلا نقضَ للعهود رعايةً للمصالح ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، 1554.
2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1562.
3- سورة الحج، الآية40.
4- ينظر: سيد قطب، دراسات إسلامية، ص211.

﴿ نَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾[1] فنقضُ العهود يُزعزِع العقيدةَ في الضمير ويشوِّه صورتَها في ضمائرِ الآخَرين ؛ فالمسلمُ نظيفٌ في معاملاتِه والدولة المسلِمة نظيفةٌ في تعاملاتِها مع الدوَل الأخرى.

وقد تشدَّد الإسلامُ في مسألةِ الوفاءِ بالعهود فلم يتسامَح فيها أبدًا لأنها قاعدة الثقة بين الأفراد وبينَ المجتمعات وبينَ الدول، إذا زالتْ انفرَط عِقْد الجماعة وتهدَّم ؛ وانتكَثَت العلاقةُ بين الدوَل فلا مبرِّر لنقض العهود أيًّا كانت هذه المبرِّرات فلا يكون (نقضُ العهدِ تحقيقًا لما يُسمَّى الآن "مصلحة الدولة" فتعقِدُ دولةٌ معاهدةً مع دولة أو مجموعةِ دوَل ثم تنقضُها بسبب أن هناكَ دولةً أرْبى أو مَجموعة دوَل أرْبى في الصفّ الآخَر تحقيقًا لمصلحةِ الدولة ! فالإسلامُ لا يقرُّ مثل هذا المبرِّر ويَجزِم بالوفاء بالعهد ...وعلى هذا الأساسِ قام بناءُ الجماعة الإسلامية وبناءُ الدولة الإسلامية فنَعِمَ العالَمُ بالطمأنينةِ والثقةِ والنظافةِ في المعاملاتِ الفرديةِ والدوليةِ يوم كانت قيادةُ البشريةِ إلى الإسلام)[2].

فالعهدُ مقدسٌ في الإسلام ولو فوَّت المصالحَ القريبة، والشرَف مَرْعيٌّ ولو سبَّب للمسلمين خسائرَ ومتاعب، ففي ذلك كلِّه كسبٌ للأرْواح والقلوب وتوطيدٌ للمبادئ العُليا التي جاء الإسلام لإقرارِها في الأرض، وقد عظَّم الله الوفاءَ بالعهد والمُوفِين به بقدر ما حقَّر الذين ينقضُون عهودَهم ويَخفِرون ذمَّتَهم حتى لعنَهم وزجَّهم في حظيرةِ الحيوانية ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[3] وفي قوله تعالى أيضا ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[4].

فالدولةُ الإسلاميةُ تعاهِد وتصونُ عهدَها، لا تخونُ ولا تغدِر ولا تغشّ ولا تخدَع، فهي لا تُبيِّت للآخرينَ هجوما غادِرا وهم آمِنون مُطمئنون إلى عهودٍ ومواثيقَ بينهم وبينَها، فإذا خافت من غيرِها

1- سورة النحل، الآيات: 91، 92.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج4، ص 2191، 2192.

3- سورة الرعد، الآية 25.

4- سورة الأنفال، الآية 55، 56.

خيانةً نبذت وألْغت العهدَ القائمَ جهْرةً وعلانِيةً ثم تكونُ الحربُ خدعةً لأن كلّ خصم قد أخذَ حِذرَه ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [1]، فليس للمسلمينَ ولا للدولةِ الإسلامية أن تستحلَّ لنفسِها وسيلةً خسيسَةً مهما تكُن الغايةُ شريفةً، فهذا المبدأُ غريبٌ على الحِسّ الإسلامي، وتجدُر الإشارةُ إلى أن أوربا حتى القرنِ الثامن عشر الميلادي (لم تكُن تعرفُ شيئا عن المعامَلات الدولية إلا ما تقتبسُه في أثناءِ تعامُلها مع العالَمِ الإسلامي، ثم هي لم ترتفعْ قطُّ حتى اللحظة إلى هذا الأُفق في عالَمِ الواقع، حتى بعدَما عرفت نظريًّا شيئا اسمُه القانونُ الدولي ؛ وعلى الذين يبهرُهم التقدُّم الفني في صناعة القانون أن يُدركوا حقيقةَ الواقع بين الإسلام والنظُم المعاصِرة جميعا) [2].

ومراعاةُ العهود تتمُّ حتى مع الذين ناهَضوا الإسلامَ والمسلمينَ وآذَوْهم، هؤلاء الذين يقولُ الله تعالى فيهم ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [3]، حتى هؤلاء يحتِّم اللهُ على المسلمينَ أن يَفُوا لهم بعُهودهم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [4]، وليست هذه الأمثلةُ نظرياتٍ ومبادئَ مثاليةً، إنما كانت سلوكًا واقعيا شهدَه التاريخُ في حياةِ المسلمينَ وفي علاقاتِهم الدولية، يسوقُ سيدٌ عدّةً منها في كتابة " السلام العالمي والإسلام" [5].

والآن قد سرَدْنا نُتَفا من كتابات سيد عن العلاقاتِ الدولية في الإسلام والإيفاءِ بالعهود والدعوةِ إلى السلام العالمي إذ الإسلامُ يقوم على السِّلم، والركيزةُ الأساسيةُ لعلاقاتِ الدولةِ المسلمةِ مع غيرِها هي السِّلم إلا إذا اضطرَّتْها الظروفُ إلى الحربِ بفعلِ عُدوان غيرِها عليها، فكيف التوفيقُ بين هذا الذي ذكَرْنا وآراءِ سيد في قولِه بالمرحليةِ في أحْكام الجهاد ؟ والتي لا يوافقُه عليها كثيرٌ من العلماء القُدَامى والمعاصِرين !

1- سورة الأنفال، الآية 58.
2- المصدر نفسه، مج3، ص 1543.
3- سورة التوبة، الآية 08.
4- سورة التوبة، الآية 4.
5- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص191 - 199.

مَرحليةُ الأحْكام في الجهاد:

لسيدٍ فهمٌ خاصٌّ لموضوع الجهادِ في سبيل الله بَناه على استقرائِه للنصوص القرآنية ومُعايَشتِه لها طويلًا؛ وعلى واقع الأمَّة الإسلامية المُتغيّر ؛ فالخلافةُ أُلغيَت والإسلام غُيِّب عن الحُكم ودارُ الإسلام مُزِّقت كلَّ مُمَزَّق إلى دُوَيلات وإمارات وسَلطنات، والصليبيةُ العالَمِية والصهيونيةُ والشيوعيةُ تتربَّص بالمسلمينَ والإسلام مِن كل جانب، وعلى ضوء هذه المعطَيات وغيرِها كوَّنَ له رأيًا في الجهاد نأتي عليه باختصارٍ لضيقِ المجال ونُحيل على مظانِّه لمن أراد الاستقصاء.

أُمرَ المسلمونَ في مكةَ بكفِّ أيديهم عن القتالِ وإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [1] وأُذِن لهم بالقتالِ - بعد الهجرةِ إلى المدينةِ لمّا قامت لهم دولةٌ- بصيَغ مختلفة سمّاها سيدٌ بالمَرحلية - أي لكلِّ مرحلةٍ ما يلزَمُها - ففي البدايةِ أُمِروا أن يُقاتلوا مَن قاتَلهم ويكفُّوا عمَّن اعتزلَ مقاتلتَهم ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ [2].

ثم أن يقاتِلوا غيرَ المعاهَدين، فالذين لهم معهم عهدٌ لا سبيلَ لنقضِ العهدِ معهم كما أسلفنا، ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ ﴾ [3] ثم أن يقاتِلوا المشركينَ كافّة ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ ﴾ [4]، فلِمَ هذا التدرُّجُ في القتال ؟ أليس لحِكمة بالِغة ؟ أليسَ مرورُ الجهاد بهذه المراحِل مواكِبا للمراحِل التي كانت عليها الجماعةُ المسلِمةُ من القوّة والضعف ؟ ففي مكةَ كانت الجماعةُ المسلمةُ مستضعَفةً فأُمِرت بكفِّ أيديها عن القتال، وفي

1- سورة النساء، الآية 77.

2- سورة النساء، الآيات 90، 91.

3- سورة التوبة، الآية05.

4- سورة التوبة، الآية 36.

المدينة بدأت تتقوَّى فأُمِرت بقتال مَن قاتَلها وترْكِ مَن اعتزلَها، ثم بعدَها بمرحلةٍ أُمِرت بقتالِ غير المعاهَدين وأخيرًا حين استوْت على سُوقِها بقتالِ المشركينَ كافَّة.

يُرجع سيدٌ سبب الأمرِ بالكفِّ عن القتال في المرحلةِ المكيةِ إلى جُملة أمور عدَّ منها سبعًا [1] تعودُ في جُملتِها إلى أن للدعوة وجودَها الكامل ممثّلةً في شخص رسولِ الله ﷺ - محروسًا بسُيوف بني هاشم - فلم تكُن هناك ضرورةٌ لاستعجال المعركة حتى تتمَّ التربيةُ والإعدادُ وينتفعَ المسلمون بكل إمكانيات الخطّة في هذه البِيئة ؛ وليقفوا في انتظار أمرِ القيادة في الوقت المناسِب وليُخرِجوا أنفسَهم من المسألة ولا تكون لذواتِهم فيها حظٌّ؛ لتكون خالصةً لله وفي سبيلِ الله [2].

أمَّا بعد الهجرة إلى المدينة فإن الرسولَ ﷺ شرَع في عَقد المعاهداتِ مع مَن بقيَ على دينِه ولم يُسلم ومع اليهودِ؛ ولم يبدَأْهُم بقتالٍ وذلك ما تقتضيه المرحلةُ ومُلابساتُها ؛ لأن هناك مجالًا للتبليغ والبيان لا تحولُ دونَه سلطةٌ؛ فالاعترافُ قائمٌ بالدولة المسلِمةِ وبقيادة الرسول ﷺ لها، ولأنه ﷺ كان يريدُ التفرّغ في هذه المرحلة لقريش فبادرَ بإرسالِ السَّرَايا [3] ، ثم حين تقوَّت شوكةُ المسلمين أُمِروا بنبذِ عهود الناقِضين لعهودِهم وإمهالِ ذوي العهود المؤقوتة إلى مُدَّتِهم ؛ وذوي العهود غير الموقوتة إلى أربعةِ أشهر ، وبقتالِ أهل الكتابِ المنحرفينَ عن دين الله الصحيح حتى يُعطوا الجِزيةَ وهُم صاغِرون ، وبجهادِ المنافقين مع الكافرين بالغِلْظة عليهم ، وكلُّها أحكامٌ تُعدِّل الأحكامَ المرحليةَ السابقة [4] .

ويستخلصُ سيدٌ بعد استعراضِه الدقيق لتلك المراحل أن الجهادَ في الإسلام فُرِضَ لتحريرِ البشَر من العبودية للعباد وتركِهم أحرارًا في اختيارِ العقيدة التي يختارونَها في ظِل الديْنُونة لله وحدَه ، ولهُم في الأحكام المَرحلية سَعَة يتدرَّجون معها حتى ينتهُوا إلى إنقاذِ البشرية كلِّها من عبادة غير الله وإدخالِ البشريةِ في السِّلم كافَّة، لا كما يروِّج المستشرقونَ من أن الإسلامَ لا علاقةَ له بسائرِ البشَر في أنحاء الأرض ولا عليهِ أن يعبُدوا ما يعبُدون مِن دونِ الله، ما دام هو آمِنًا داخلَ حدودِه الإقليمية !.

وكذا ما يردِّدُه أتْباعُهم فيلْوُون أعناقَ النصوص ويستشهدونَ بمِثل ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 714، 715.
2- ينظر: المصدر نفسه، مج2، ص 715.
3- ينظر: المصدر نفسه، مج3، ص 1439 بتصرف.
4- ينظر : المصدر نفسه، مج3، ص1580.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [1] وقوله عز وجل ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ ﴾ [3]، وعن أهلِ الكتاب ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤ ﴾ [4] وأن الإسلامَ لا يقاتلُ إلا داخلَ حدودِه وأنه عقدَ صُلح الحُدَيبية مع المشركين ومعاهدةً مع يهودِ المدينة ومُشركِيها [5] .

يرى سيد أن هذه الاستشهادات تُمليها الهزيمةُ الداخليةُ أمام الواقعِ البائس النَّكِد الذي يواجِهُهم؛ وأمام القِوى المُعادِية التي لا طاقةَ لهم بها في اللحظةِ الحاضرة [6] فلا ينبغي أن يَحمِلوا ضعفَهم الحاضِر على دينِ الله القويِّ المَتين، فدينُ الله (دينُ السِّلم والسَّلام فِعْلا، ولكن على أساسِ إنقاذِ البشريةِ كلِّها من عبادةِ غيرِ الله، وإدخالِ البشريةِ كافةً في السِّلم كافة، إنه منهجُ الله ؛ هذا الذي يُرادُ البشَر على الارتفاع إليه والاستمتاعِ بخيرِه، وليس منهج عبدٍ من العبيد ولا مذهبَ مفكِّر من البشَر حتى يَخجلَ الداعونَ إليه من إعلان أن هدفَهم الأخير هو تحطيمُ كل القِوى التي تقفُ في سبيلِه، لإطلاقِ الحريةِ للناس أفرادا في اختيارِه) [7] .

وهكذا يجتهدُ سيدٌ في هذه القضيةِ الحساسةِ الخطيرةِ ويُخالف كثيرًا من العلماء القُدامى والمعاصِرين في فهْم وبيانِ طبيعةِ وبواعثِ ومراحلِ وأهدافِ الجهادِ في الإسلام، ويرى أنهم لم يُحسِنوا ترتيبَ هذه المراحل التي شُرِع فيها الجهادُ لحِكمة بالِغة، ويعيبُ على أولئك التابعينَ للفكر الاستشراقي لَيَّهُم للنصوصِ الواضحة عن غاياتِها تحت وقْع الهزيمة؛ فيجعلون الجهادَ للدفاع فقطْ عن حدودِ الوطن

1- سورة الأنفال، الآية 61.

2- سورة الممتحنة، الآية 08.

3- سورة البقرة، الآية 190.

4- سورة آل عمران، الآية 64.

5- ينظر: المصدر نفسه، مج3، ص 1581.

6- ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

7- سيد قطب، المصدر نفسه، مج 3، ص 1582، وقارِن: مقدمة سورة الأنفال عن مبررات الجهاد في الإسلام ، مج3 ، ص 1431 – 1452.

الإسلامي وكأن هذا الإسلامَ لم ينزِل للناس كافةً ولا عليه أن يتخذَ بعضُ الناس بعضًا أربابًا من دون الله !! مشخِّصا الخطأ الأساسَ أنهم جعلوا النصوصَ المرحليةَ نصوصا نِهائيةً وبَنَوْا عليها تلك الأحكام المُبتسَرة المُشوَّهة التي خرَجوا بها، البعيدة كل البُعد عن رُوح هذا الدين وعالَميتِه.

المبحث الثالث: الحاكِمية والْتزامات الحاكِم والَمحكوم:

المطلب الأول: الحُكم بغير ما أنزلَ اللهُ " بين الكُفر والظُّلم والفُسوق ":

عمِلت الدّوَل الاستعمارِيةُ جاهِدةً على تفتيتِ الرُّقعة الإسلامية الُموَحّدة وإحلالِ تشريعاتِها ونُظمِها وقوانينِها بدلَ الشريعةِ الإسلامية ؛ ونجحت إلى حدٍّ كبيرٍ في ذلك بفِعل القوّة والغ طرسة وتطاوُل الزمن، ولا زال المسلمونَ إلى يومِنا هذا يُعانون من آثار ذلك في ازدواجيةِ التشريع، فالأحوال الشخصيةُ لا تزالُ أكثرالبلدان الإسلامية تُجريها على وِفق الشريعة الإسلامية في حين تستمدُّ تنظيمها في الأحوال العَيْنِية من مصادرَ أجنبية.

وبتنوّع هذه المصادِر الأجنبية تنوّعت النظُم القانونية في الدوَل الإسلامية ؛ صنّفَها أحدُ الباحثين إلى ثلاثِ مجموعات:

الأولى: تأثّرت بالقوانينِ الفرنسية اللاتينية النزْعة وهي: مصر، ليبيا، مراكش [المغرب]، الجزائر، لبنان.

الثانية: تأثّرت بالقوانين الإنجليزية ذات النزْعة الأنجْلوسَكسُونية وهي: السودان، العراق، الأردن.

الثالثة: لم تتأثّر بتلك القوانين وحافظَت على التراث الإسلامي وهي: المملكة العربية السعودية [1].

وهكذا عمّ البلاءُ بلادَ المسلمين كما لم يعُمَّهم قطُّ في أي فترةٍ من فترات تاريخِهم الطويل ؛ بتحكيم الشرائع الوضعية المستمَدَّة من القوانين الأوروبية على اختلاف نزَعاتِها التي يجمعُها الهوى والرأيُ والظنُّ والخرْصُ، وتخلَّى الناسُ بالتدريج عن أحكام الشريعة وعن الحُكم بما أنزلَ الله، واللهُ تعالى يقول :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [2]، فالله وحدَه هو

1- ينظر: د.شفيق شحاتة، الاتجاهات التشريعية في البلاد العربية، (القاهرة: المطبعة العالمية، د.ت)، ص9.

2- سورة الأنعام، الآيات 114 – 117.

الذي يملكُ حقَّ سنِّ التشريعات والقوانين التي تحكُم المجتمعَ الإنساني، وهو الأعْلم بما يُصلِح هذا الإنسانَ في دينِه ودُنياه، فلا تشريعَ أحْكم ولا تشريع أكْمل ولا تشريع أوْفى من تشريع الخالِق الحكيم العليم الخبير، فالحُكم له أوّلا وآخِرا ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [1]،﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [2]،﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [3]،﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [4]،﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [5].

وفي هذه الآيةِ الأخيرة يقولُ ابن كثير: (يُنكِر تعالى على مَن خرج عن حُكم الله المُحكم المشتمِل على كلّ خير الناهِي عن كل شرّ، وعدَلَ إلى ما سواه من الأهْواء والآراء والاصطلاحات التي وضعَها الرجالُ بلا مُستنَد من شريعةِ الله كما كان أهلُ الجاهلية يحكُمون به من الضلالات والجَهالات مما يضعونَها بأهوائِهم وآرائِهم ...فمَن فعلَ ذلك فهو كافرٌ يجب قتالُه حتى يرجعَ إلى حُكم الله ورسولِه فلا يحكِّم سواه في قليلٍ ولا كثير، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ أي يتَّبعون ويُريدون، وعن حُكم الله يعدِلون:﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ومَن أعدلُ من الله في حُكمه لمن عقَلَ عن الله شرْعَه وآمن به وأيقَنَ وعلِمَ أن اللهَ أحْكم الحاكِمين وأرْحم بخلْقِه من الوالِدة بولدِها، فإنه تعالى هو العالِم بكل شيء القادِر على كل شيء) [6].

فمن الذي يجرُؤ بعدَ هذا أن يدَّعي أنه يشرِّع للناس خيرًا مما يشرِّع اللهُ لهم؟ ومَن يستطيعُ أن يقولَ: إنه أعلمُ بالناس مِن خالِق الناس؟ أو أرحم بالناس من ربِّ الناس؟ أو أعرف بمصالِح الناس مِن إلهِ الناس؟ أيستطيعُ أن يقول: إن اللهَ تعالى وهو يشرِّع شريعتَه الأخيرة ويُرسِل رسولَه الأخير ويجعل شريعتَه شريعةَ الأبد، كان - سبحانَه - يجهلُ أن أحوالًا ستطْرَأُ وأن حاجاتٍ ستستجِدُّ وأن

1- سورة يوسف، الآية 40.

2- سورة القصص، الآية 70.

3- سورة يوسف، الآية67.

4- سورة القصص، الآية 88.

5- سورة المائدة، الآية 50.

6- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (دار المعرفة، 1980م)، ج2، ص68.

مُلابساتٍ ستقعُ فلم يحسَبْ حسابَها في شريعتِه لأنها كانت خافيةً عليه حتى انكشفَتْ للناسِ في آخِرِ الزمان؟! فما عُذرُ مَن يُنحِّي شريعةَ الله عن حُكم الحياة؟ [1].

وصفَ اللهُ تعالى هؤلاء المُنحِّين شريعتَه عن الحُكم بالكُفر والظُّلم والفِسق في قولِه تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [2]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [3]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [4]، فمتى يكونُ فِعلُهم ذاكَ كُفرا ومتى يكون ظُلما ومتى يكون فِسقا؟

نعودُ إلى تفسيرِ سيد لهذه الآيات لنستخلِص حُكمَه فيها ؛ وهل وافقَ فيها علماءَ المسلمين أم خالَفَهم وكوَّنَ له رأيًا خاصًّا . ففي الآيةِ الأولى يقرّر سيدٌ أن الحُكم فيها عامٌّ مطلَق على كل مَن لم يحكُم بما أنزلَ الله بدليلِ التعميم الذي تحمِلُه (مَنْ) الشرْطِية وجُملة الجواب بحيث يَخرُج من حُدود المُلابَسة والزمان والمكان ويَسْري الحُكم على كل جيل وكل قَبيل، والعِلّة في ذلك أن الذي لا يحكُم بما أنزلَ الله إنما يرفُض ألوهيةَ الله، إذ الحاكِمية التشريعيةُ من خصائصِ الألوهية - كما أسلفْنا من قبلُ في مبحث الحاكِمية عند سيد قطب - فمن يحكُم بغير ما أنزلَ الله فقد رفضَ ألوهيةَ الله وخصائصَها في جانب وادَّعى لنفسِه حقَّ الألوهية وخصائصَها في جانب آخَر، وماذا يكون الكفرُ إن لم يكُن هذا؟ ! ويرى سيدٌ أن هذا العملَ ينطِق بالكُفر ويُفصِح به أكثرَ من نُطق وإفصاح اللسان ؛ فلا قيمةَ لدَعْوى الإيمان أو الإسلام باللسان مع هذا الفِعل.

أمَّا وصفُهم بالظُّلم في الآيةِ الثانية فليس وصْفًا آخرَ غير وصفِ الكُفر ؛ وإنما هي إضافةُ صفةٍ أُخرى لمن لم يحكُم بما أنزلَ الله، فهو كافرٌ باعتبارِه الأوّل وظالمٌ لأنه يحمِل الناسَ على شريعةٍ غير شريعةِ ربِّهم الصالحِة المُصلِحة لأحوالِهم فوق ظُلمِه لنفسِه بإيرادِها مواردَ التهلُكة وتعريضِها لعقابِ الله على كُفرِها وكذا تعريض حياةِ الناس للفساد ، ويعلِّل سيدٌ ذلك باقتضاءِ اتحادِ المُسند إليه وفعلِ الشرْط ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فجوابُ الشرْط الثاني يُضافُ إلى جوابِ الشرْط الأوَّل ويعودُ كِلاهما

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 905.

2- سورة المائدة، الآية 44.

3- سورة المائدة، الآية 45.

4- سورة المائدة، الآية 47.

على المسنَد إليه في فِعل الشرْط وهو (مَنْ) المُطلَق العامّ [1].

وكذلك الحال في الصفة الثالثة ؛ صفة الفِسق، يُضيفُها سيدٌ إلى صفتَيْ الكُفر والظُّلم وليست حالةً جديدةً منفصلةً؛ وإنما هي صفةٌ زائدةٌ عليها لاصِقةٌ بمن لم يحكُم بما أنزلَ اللهُ من أي جيل ومن أي قَبِيل، وهي الخروجُ عن منهجِ الله واتِّباع غيرِ طريقِه [2]، وهكذا يَقرِنُ سيدٌ صفةَ الكُفر والظُّلم والفُسوق في سِمْطٍ واحِد، فهل انفرَدَ بهذا أم تابَعَ ما عليه علماءُ المسلمين من تشديدِ النكيرِ على من لم يحكُم بما أنزل الله، هذه القضيةُ الخطيرةُ التي انْماعَ فهْمُها في العصورِ الأخيرةِ وكأن تَحكيمَ الشرائعِ الوضعيةِ وتنحيةَ الشريعةِ الإسلاميةِ من مقتضياتِ العصرِ ومن ملابساتِ الوضعِ الراهن!!

وقد الْتمسَ بعضُهم المعذرةَ لأهلِ السلطان في ترْك الحُكم بما أنزلَ اللهُ بروايةِ بعضِ الآثار وإعمالِها في غير محلِّها كالذي وردَ في تفسيرِ الطبري: (أتى أبا مِجْلَز ناسٌ مِن بني عمرو بن سَدوس، فقالوا: يا أبا مجلَز، أرأيتَ قولَ الله ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ أحقٌّ هذا؟ قال: نعَم، قالوا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ أحقٌّ هو؟ قال: نعَم، فقالوا : يا أبا مجلز فيحكُم هؤلاء بما أنزلَ الله؟ قال:هو دينُهم الذي يَدينون به، وبه يَقولون، وإليه يَدْعون، فإن هم ترَكوا شيئا منه عَرفوا أنهم قد أصَابوا ذنْبا، فقالوا: لا والله ولكنكَ تَفْرَقُ ! قال: أنتم أوْلى بهذا منِّي ! لا أرى، وإنكُم ترَوْن هذا ولا تَحرَّجون ! ولكنها أُنزِلت في اليهودِ والنصارى وأهلِ الشرك) [3] وروى الطبري روايةً أخرى بنحوِ معناه وإسناداه صحيحان [4].

وقد علّق الشيخُ "محمود شاكر" على هذين الأثرَيْن بإسهاب نجتزئُ أهمّ ما جاء فيه ولمن أرادَ الاستقصاءَ واستيفاءَ النصّ كامِلا فعليه بالكتاب الذي أشرْنا إليه آنِفا [5]، يقول الشيخُ: (اللهم إني أبرَأُ إليكَ من الضلالة، وبعدُ، فإن أهل الرِّيَب والفِتَن ممن تصدَّروا للكلام في زمانِنا هذا، قد تلمَّس المعذرةَ

1- ينظر: المصدر السابق، مج2، ص 900.

2- ينظر المصدر نفسه، مج2، ص 901.

3- ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد ومحمود محمد شاكر، (مصر: دار المعارف، د.ت)، ج10، ص 348.

4- ينظر: أحمد محمد شاكر، حُكم الجاهلية، ص31.

5- المرجع نفسه، ص31 – 33 .وقارِن: د.عمر سليمان الأشقر، الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، ص 187 – 190.

لأهلِ السلطان في ترْك الحُكم بما أنزلَ اللهُ ؛ وفي القضاء في الدِّماء والأعْراض والأموال بغيرِ شريعةِ الله التي أنزلَها في كتابِه، وفي اتخاذِهم قانون أهل الكُفر شريعةً في بلاد الإسلام، فلما توقَّف على هذيْن الخبريْن اتخذَهما رأيا يرى به صوابَ القضاء في الأمْوال والدماء بغيرِ ما أنزل الله...ومن البيِّن أن الذين سألوا أبا مجلَز من الإباضية إنما كانوا يُريدون أن يُلزِموه في تكفير الأُمَراء لأنهم في مُعسكر السلطان...فمن احتجَّ بهذيْن الأثريْن وغيرِهما في غير بابِها وصرَفَها إلى غير معناها رغبةً في نُصرة سلطانٍ أو احتيالًا على تسويغِ الحُكم بغير ما أنزلَ الله وفرَضَ على عبادِه، فحُكمُه في الشريعة حُكم الجاحِد لحُكم الله: أن يُستتَابَ فإن أصرَّ وكابَرَ وجحدَ حُكمَ الله ورَضِيَ بتبديلِ الأحْكام فحُكمُ الكافِر المُصِرِّ على كُفرِه معروفٌ لأهلِ هذا الدين) [1] [2] .

وهذا رأيُ شارِح العقيدة الطحاوية فيمَن لم يحكُم بما أنزلَ اللهُ إذ يقول: (إن الحُكم بغيرِ ما أنزلَ الله قد يكون كُفرا ينقُلُ عن المِلَّة، وقد يكون معصيةً كبيرةً أو صغيرة، وهذا الكُفر إما مجازِيا أو كُفرا أصغرَ على القوليْن المذكوريْن، ذلك بحسب حالِ الحُكم، فإنه إن اعتقدَ أن الحُكم بما أنزلَ الله غير واجبٍ وأنه مخيَّر فيه أو استهانَ به مع تيقُّنِه أنه حُكم الله فهذا كُفرٌ أكبر) [3].

لم يُخالف سيدٌ منهم أحدًا فيما أثبتَه في "الظلال" ولا أظنُّ سيدا الذي عاشَ في كَنف القرآنِ طويلا قراءةً وتدبُّرًا وتفسيرًا سيُقْدِم على قضيةٍ خطيرةٍ كهذه دون أن يتخِذ لها العُدّة ؛ ودون أن يُراجِع أقوالَ الأئمة الأعْلام في المسألة ! خاصّةً وأنه ركَّز في كُتبِه كثيرًا على مسألةِ الحاكِمية وإفرادِ الله تعالى بالتشريع للناس؛ فكيف يَغيبُ عنه مثلُ هذا الحُكم الخطير الذي يُخرِج صاحبَه من المِلّة ! .

ونحن على طُولِ ما استقرَأْنا آراءَ سيد في مختلف القضايا لم نصطَدِم لحدِّ الآ ن برأيٍ له شاذٍّ مخالِف

1- أحمد محمد شاكر، حكم الجاهلية، ص31 – 33.

2- وقد ألَّف أحدُهم كتابًا كاملا في هذه القضية ، خالد بن علي بن محمد العنبري، الحُكم بغير ما أنزل الله وأصول التكفير في ضوء الكتاب والسُّنَّة وأقوال سلف الأمة، (ط 5، الإمارات: مكتبة الصحابة، 2004م). انتصرَ لهذا الأثر كثيرًا في ص 124 وما بعدَها، وحملَ على سيد قطب واجتهادِه ولكن في أدَب، لا كالمدخلي الذي لا يُراعِي في رُدوده أيَّ أدَب !

3- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 363، 364. ولو شئنا الاستقصاءَ لأتيْنا بكتابٍ كامل نعدِّد فيه أقوالَ العلماء الأعْلام في هذه القضية ، ينظر: د.عمر سليمان الأشقر، الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، ص 164، 190 ،فهو ينقُل عن الطبري والقرطبي وابن تيمية وأحمد شاكر ومحمود شاكر وابن أبي العز الحنفي ومحمد إبراهيم مفتي السعودية وغيرِهم، وكل هؤلاء الأعْلام لا يخالفُ سيدٌ منهم أحدًا فيما ذهبَ إليه!

للجمهور، وإن كان بعضُ أتباعِ مذهبٍ معيّنٍ ولغايةٍ مرسومةٍ لهم أرادوا جاهِدين أن يطمِسوا فِكرَ سيد ويُلصِقوه بالتيارات الهدَّامة بأن يلتمِسوا مِن كُتبه فقراتٍ مُوهِمةً ويَجتزِئوها عن سياقِها وينفُخوا فيها بأنفاسِهم البَخْرَاء، ولكن هيهاتَ، فمحاولاتُهم عبثٌ والذي بذَلوه انتكَث.

المطلب الثاني: التشريعُ مع الله والكُفر :

قضيةُ التشريع مع الله دعوةٌ قديمةٌ رفعَ لواءَها المنافقون لإضلالِ المسلمينَ والصدِّ عن دين الله ، فهم يزعُمون الإيمانَ بشريعةِ الله المنزلَّة ويناقِضون زعمَهم هذا بإرادةِ التحاكُم إلى القوانين البشَرية التي سمَّاها القرآنُ الكريم طاغوتا ، بحُجَّة أنهم يريدون التوفيقَ بين الشريعةِ الإلهية والقوانينِ البشرية وأنهم يريدونَ الإصلاح ! وقد وصفَ اللهُ تعالى سلوكَهم هذا مفصَّلا في آياتٍ بيِّنات : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾[1] .

فالآياتُ واضحةُ الدلالة صريحةُ اللفظ في نِفاق هؤلاء اللذين يزعُمون الإيمانَ بما أُنزِل من عندِ الله؛ ثم يريدونَ التحاكُم إلى غيرِ ما أنزلَ الله ؛ إلى الطاغوت، وإذا دُعُوا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ تولَّوْا وصدُّوا صُدُودا .

وحُكم هؤلاءِ يُجلِّيه اللهُ تعالى بعدَ هذه الآيات بآية فاصِلة يُقسِم فيها بذاتِه العَليَّة أنهم لا يؤمنون حتى يتحاكَموا في شؤونِهم كلِّها إلى رسولِه ﷺ ويرْضَوْا بحُكمِه طائعين طيِّبةً بها نفوسُهم ويُسلِّموا تسليما كامِلا لا نِفاقَ فيه ، وإلَّا فالإيمانُ مَنفِيٌّ عنهم بنصِّ الآيةِ الكريمة ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2] وكيف يستقيمُ عقلا الرِّضَى بحُكم بشَر مثلِنا ممّن يجوزُ عليهم الخطأ والزلَل والهَوى وحظوظُ النفْس

1- سورة النساء، الآيات:60-62.

2- سورة النساء، الآية 65.

وقصورُ الاستنباط والنتائج ، ونَدَعهم يحكُمون في أنفُسِنا ودمائِنا وأعْراضِنا وأموالِنا ، وندَعَ حُكم الله ورسولَه الذي لا يأتيهِ الباطلُ من يديهِ ولا مِن خلفِه !!

ويكفي التشريعَ الإلهي أن واضِعَه هو خالِق هذا الكائن الإنساني العليم بما يُصلِحه ويَصلُح له ، المُطَّلع على خفايا تركيبِه وتكوينِه وعلى المُلابَسات الأرضية والكونية كلّها في مدى الحياةِ البشريةِ كلّها ، وذلك ما يستحيلُ على البشَر أفرادًا ومجتمِعين وفي جميعِ الأجيال أن يطَّلِعوا عليه ؛ لأنهم سيكونونَ في حاجةٍ إلى استحضارِ جميع التجاربِ والظواهرِ للحياةِ البشريةِ في جميعِ أجيالِها السابِقة والحاضِرة والمستقبلة وذلك مستحيلٌ ، أضِف إلى ذلك قصورَ الإدراكِ البشريِّ عن الحُكم الصحيح المُطلَق ، ومن ثم لا يكون لهم إلا الهَوى وإلا الجهْل حين يتصدَّوْن لما ليس من اختصاصِهم [1] .

ولأن التشريعَ الإسلامي يقومُ على أساسِ التفسيرِ الشاملِ للوجودِ ؛ ولمكانِ الإنسانِ في هذا الوجودِ ولغايةِ الوجودِ الإنساني ، وإذا حاولَ الإنسانُ أن يشرِّع لنفسِه فتشريعُه قاصِرٌ لأن الوجودَ أكبر من الإنسان ؛ ولأن تحديدَ غايةِ الوجودِ الإنسانيِّ تحتاجُ إلى علم خالِق هذا الإنسان وما أرادَه من خلقِه [2] ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [4] .

والنكوصُ عن هذا التشريعِ الربانيِّ يُفضي في نظرِ سيد إلى خسارةِ البشريةِ جمعاءَ - لا نحن المسلمينَ وحدَنا - لأنه سيحرّف المصدرَ الوحيدَ الباقي مِن هدايةِ الله ، ويكدِّر ويُسمِّم المَوْرِد الوحيد الذي يُمكن أن تَستَقِي منه الهُدى الرباني الخالِص، والذين يُحاولون ذلكَ تحت أيِّ شِعار هم أعداء الجِنس البشريِّ الذين ينبغي أن نطارِدَهم ونأخُذَ على أيديهم [5] .

والآن؛ وبعدَ هذا العرْض السريع لكامِلية التشريع الإلهي وقصورِ التشريع البشَري ، فما حُكم هذه القوانينِ السائدَة في البلادِ الإسلامية وما حُكم واضِعيها؟ وما رأيُ سيد قطب فيها وفيهم ؟ وهل

1- ينظر: سيد قطب، هذا الدين، ص20 ،21 بتصرّف.

2- ينظر: المصدر نفسُه، ص22.

3- سورة الجاثية، الآية 18.

4- سورة الأنعام، الآية 153.

5- ينظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص107.

كان له رأيٌ خاصٌّ أم أنه سايَرَ جمهورَ علماءِ المسلمين ؟

أمَّا القوانينُ السائدةُ فجلُّها مأخوذٌ على عِلَّاتِه من القوانينِ الأوروبية ، أكثر من 85٪ من نصوصِها، ولذلك نراها تُبيح أحكامًا حرَّمَتْها الشريعةُ الإسلاميةُ تحريمًا قطعيًّا كالرِّبا والقِمار [1]، والنصوص القليلة التي اعتمَدوا فيها على الشريعةِ الإسلامية رُوعِيَ فيها أن تكونَ متفقةً مع القانون الوضْعي الأوروبي ، فهو المهيمِنُ على الشريعةِ الإسلامية ، يأخُذ منها ما يوافقُه ، فهذا أحدُ أعْمدة واضِعي القانون يصرِّحُ قائلا : (يُراعَى في الأخْذ بأحْكام الفقهِ الإسلامي التنسيق بين هذه الأحكام والمبادئ العامَّة التي يقومُ عليها التشريعُ المدنيُّ في جملتِه ، فلا يجوزُ الأخذُ بحُكم في الفقه الإسلامي يتعارَض مع مبدإٍ من هذه المبادِئ ، حتى لا يفقِد التقنينُ المدَني تجانُسَه وانسجامَه) [2]، وهكذا يُقدِّم القانونيونَ الفُهومَ القاصِرة التي وضعَها البشرُ ويجعلونَها مهيمِنةً على الشريعةِ الإسلاميةِ التي أُنزلت حاكِمة على جميعِ الشرائعِ السماويةِ والوضعيةِ !

فهذه القوانينُ التي فرضَها على المسلمينَ أعداءُ الإسلام هي في حقيقتِها دينٌ آخَرُ جعلُوه للمسلمين بدلًا من دينِهم النقيِّ السامِي ؛ وأوْجَبوا عليهم طاعتَها وتقديسَها فجَرَت بهذا كلماتٌ من قَبِيل "تقديسِ القانون"، " قُدسية القضاء "، "حُرْمة المَحكمة " ، وأطلَقوا على دراسةِ هذه القوانين كلماتٍ كانت للشريعةِ من قَبِيل " الفقه " ، "الفقيه" ، "التشريع" ،"المُشرِّع"، وصرَّح كثيرٌ منهم بعدَم مناسبةِ أحكامِ الشريعةِ لهذا العصرِ خصوصًا في الحدودِ المَنصُوصةِ في الكتاب والعقوباتِ الثابِتة في السُّنة ! [3]

ويُرجِع أحدُ الباحثينَ السببَ الذي غزَت به هذه القوانينُ البلادَ الإسلاميةَ واستقرارها فيها وعدم مكافحتِها والذِّياد عن الشريعة الإسلامية ؛ هو فسادُ العلماء والأُمَراء والموْت الأدبي ؛ فكانَ ما أصابَ المسلمينَ من شتات وخِزي ليس بلاءً يُؤجَرون عليه ولكنه عقابٌ يستحقونَه ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

1- ينظر: د.عمر سليمان الأشقر، الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، ص130.

2- عبد الرزاق السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني، (ط2، القاهرة: دار النهضة العربية، 1964م)، ج1، ص61 . وقارِن: عمر سليمان الأشقر، الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، ص130.

3- ينظر : أحمد محمد شاكر، حُكم الجاهلية، ص26 ،27.

لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ [1] [2] لأنهم رَضُوا أن يجعلوا تلك القوانينَ الأوروبية بدلًا عن الشريعةِ الإسلامية، وأن يُحكِّموها بدلا عن الحاكِمية الإلهية التي لها وحدَها حقُّ التشريع للناس في شؤونهم (المتعلقة بدنياهم وآخِرتِهم، وهو "أي الله تعالى " المرجِع في حلّ كلّ مشكلة من مشكلاتِهم وإقامةِ كل تنظيم ودستور لحياتِهم، ومن جحدَ ذلك فهو كافرٌ بالله ورسولِه وإن ادَّعى بلسانِه الإيمانَ بالله ورسولِه وحجَّ وصامَ . قامت على ذلك أدلةُ العقلِ والنقلِ من الكتابِ والسُّنة و تمَّ على ذلك إجماعُ المسلمين كلِّهم) [3] .

ولاحِظْ أن الدكتور البوطي يحكُم بكُفر مَن جحدَ حقَّ التشريع لله وحدَه في كلِّ شؤون الحياة الدنيا والآخرة وإن ادَّعى الإيمانَ بلسانِه، وعلى ذلك تمَّ إجماعُ المسلمين كلِّهم بعدما اتضحت الدلائلُ من الكتاب والسُّنة، وسيدٌ في إصرارِه على كُفر هؤلاء ليس بِدْعا ولم يأتِ بجديدٍ وإنما أجمعت الأمَّةُ كلُّها على ذلك إلا علماءَ السلاطين الذين علِموا حقيقةَ دينِ الله ثم زاغوا عنها وأعلنوا غيرَها واستخدَموا علْمَهم في التحريفاتِ المقصودة والفتاوَى المطلوبة لسُلطان الأرضِ الزائل! يُحاولون أن يُثبِّتوا بها هذا السلطانَ المُعتدِي على سُلطانِ الله وحُرُماتِه في الأرض [4].

ويقرِّر سيدٌ أنه رأى بنفسِه مِن هؤلاء مَن يقولُ بأن التشريعَ حقٌّ مِن حقوق الله سبحانَه، مَن ادَّعاه فقد ادَّعى الألوهيةَ، ومَن ادَّعى الألوهيةَ فقد كَفر، ومَن أقرَّ له بهذا الحقِّ وتابَعه عليهِ فقد كَفرَ أيضا ! (ومع ذلك مع عِلمِه بهذه الحقيقةِ التي يعلمُها من الدينِ بالضرورة، فإنه يدْعُو للطواغيتِ الذين يدَّعون حقَّ التشريع ويدَّعون الألوهية بادِّعاء هذا الحق ممّن حكَمَ عليهم هوَ بالكُفر ! ويسمِّيهم "المسلِمين" ويُسمِّي ما يزاوِلونَه إسلامًا لا إسلامَ بعدَه) [5]

شبَّه سيدٌ هؤلاءِ بالكِلاب التي عنَتْهم الآيةُ الكريمة ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ

1- سورة هود، الآية 117.

2- ينظر: محمد الغزالي ، قذائفُ الحقّ، (ط5، الكويت: دار ذات السلاسل، 1984م)، ص159.

3- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية ،ص372.

4- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1398.

5- المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[1] فهم يلهثونَ وراءَ أعراضِ الدنيا وينسلِخون من العِلم الذي أُوتُوه ويُصبحونَ تابِعين ذَلِيلين كالكِلاب.

ومدارُ الأمرِ كلِّه عند سيد قطب في قضيةِ التشريع مِن دون الله، أن الحاكِميةَ التشريعيةَ هي من أخصِّ خصائصِ الألوهية فمَن جحَدَها وشرَّع لنفسِه فقد اعتدَى على سلطانِ الله في الأرض ؛ ومَن أقرَّ هؤلاءِ المشرِّعينَ مِن دون الله على تشريعاتِهم فقد كَفَر، فمُشرِكُو العرَب لم يكونوا يجحَدونَ اللهَ بل كانوا يعترِفونَ بوجودِه وقدرتِه وبتصريفِه للكونِ كلِّه؛ ولكنهم مع ذلك كانوا يُشرِّعون لأنفسِهم من عندِ أنفسِهم ثم يزعمونَ أن هذا شَرْع الله ! وهم بهذا كانوا كفارًا، ويعقِد سيدٌ مقارنةً لطيفةً بين ما كانَ عليه المشركونَ قديمًا وما عليه المسلمونَ اليومَ ؛ إذ يُصدِرون أحكامًا ويُنشِئون أوضاعًا ويَبتدِعون قِيَمًا مِن عند أنفسِهم يغتصبونَ فيها سلطانَ الله ويدَّعونَه لأنفسِهم ويزعمونَ أنها على دينِ الله، ويزعُم لهم بعضُ مَن باعوا دينَهم ليشتروا به مثوًى في درَكات الجحيم أنه هو دينُ الله، كما كان يزعُم المشركونَ أن ما يُزاوِلونه في جاهليتِهم هو مِن عندِ الله، حَذْوَكَ النعْلَ بالنعْلِ[2].

فقضيةُ التشريعِ من دونِ الله ترتَّب عليها الكُفرُ لأنها قضيةُ عقيدة قبل أن تكونَ عملا ومُزاوَلةً، فالعقيدةُ في الإسلام تقومُ على أساسِ شهادةِ أن لا إله إلا الله ؛ وبهذه الشهادةِ يخلعُ الإنسانُ من قلبِه ألوهيةَ كل أحدٍ من العبادِ ويجعلَ الألوهيةَ لله، ولمّا كانت الحاكِمية من أخصِّ خصائصِ الألوهية، فهو يخلَع الحاكِميةَ من كل أحدٍ ويجعل الحاكِمية كلَّها لله، والتشريعُ على هذا المُقتضَى هو مُزاوَلة الألوهية، والخضوعُ للتشريع هو الدينُونةُ لهذه الألوهية ؛ وهذا ما يأبَاه المسلمُ أن يكونَ إلا لله في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة[3].

والشريعةُ الإسلاميةُ المقرَّرَة في كتابِ الله وسنة النبي ﷺ واضحةٌ غير مُبهَمة ولا قابلةٍ لأن يفترِيَ عليها أحدٌ من عندِه ويزعم أنه استقَى أحكامَه منها كما كان يتصوَّرُ الجاهليون، فمفْرَق الطريقِ بين الجاهليةِ والإسلام والكُفرِ والإيمان (أن يُدعَى الناسُ إلى ما أَنزلَ اللهُ بنصِّه وإلى الرسول ببيانِه فيُلبُّوا

1- سورة الأعراف، الآيات: 175، 176.
2- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص 1062.
3- ينظر: المصدر نفسُه، مج 3، ص 1211.

فهم إذن مسلِمون، وإمّا أن يُدعَوْا إلى الله والرسولِ فيأبَوْا فهم إذن كفارٌ، ولا خيارَ) [1].

هكذا يحدِّد سيد قطب موقفَه من هذه القضيةِ الخطيرةِ صريحًا واضِحًا دون مُوَارَبة، وإنما يجعل الحقيقةَ تواجهُكَ، وهو في ذلك كلِّه لم يخالِفْ ما أجمعَ عليه المسلمونَ كما أشارَ الشيخ البوطي، ويحسُن أن نذكِّر أنه عنَى الجاحِدين لشريعةِ الله المُشرِّعين من عندِ أ نفسِهم، أمّا غير الجاحِدين فلم يذكُرْهم سيد في حدودِ استقرائنا لنصوصِه، لذلك لا يجبُ أن نحمِّلَه ما لم يقُلْه ولا أن نبنيَ أحكامًا على فُهُوم فضفاضةٍ لنصوصِه في هذه القضية.

1- المصدر السابق، مج 2، ص 991. وقارِن: سيد قطب، معالِم في الطريق، ص 91.

المطلب الثالث: سيد قطب وتكفير المجتمعات الإسلامية المعاصرة:

لفظةُ الجاهِلية التي انْبَنَى عليها التكفيرُ، والتي اشتهرَت نِسبتُها إلى سيد قطب في الفِكر الإسلامي المعاصِر، لم يعرفْها العربُ قبلَ نزولِ القرآن الكريم؛ وإنما عرَفوها من القرآنِ ثم جرَى استعمالُها في السُّنَّة النبوية كثيرا، لذلك فتحديدُ مدلولِها والتأصيل لمفهومِها يَشُوبُه كثيرٌ من الخلْط والغُموض ممّا أدَّى إلى استنتاجاتٍ فيه بعيدة عند الفِرَق والجماعات الإسلامية الغالِية ؛ التي تبنَّت آراءَ سيد قطب فيما بعدُ، فالناسُ (كثيرًا ما يُخطِئون في استعمالِ المفاهيمِ بمجرّدِ الربْط بين الجِذر اللغَوي الذي يُمثِّل عنوانَ المفهوم وبين بعضِ أنواعِ الاستعمال، فيَشيعُ بعضُ ما يُمكن أن نعتبِرَه وعيًا كاذِبا عندَ إمعانِ النظَر في تلكَ المفاهيم) [1]،

وقد استعملَ هذا اللفظَ قبلَ سيدٍ "أبو الأعلى المودودي " في كتاباتِه بمعنى منهج الحياة الذي يُضادّ ويُناقِض منهجَ الإسلام في نظرتِه إلى الله والكونِ والحياةِ والإنسان [2]، وكذا "أبو الحسن النَدْوي" كثيرًا في كتابِه "ماذا خسِرَ العالَمَ بانحطاطِ المُسلِمين " حتى أن سيدً ا علّقَ عليه قائلا: (ولعلَّه مما يُلفت النظَر تعبيرُ المؤلِّف [أي: أبو الحسن الندْوي] دائمًا عن النكْسة التي حاقَت بالبشَرية كلِّها منذُ أن عجزَ المسلمونَ عن القيادة بكلِمة "الجاهلية" وهذا تعبيرٌ دقيقُ الدلالة) [3]، وانتهَى عند سيد قطب إلى تحديدٍ واضحِ المعالِمِ مميَّز القَسَمات؛ وهي أنها ليست فترةً من الزمان ولكنها وضعٌ من الأوْضاع يوجَدُ بالأمس ويوجدُ اليومَ ويوجدُ غدًا؛ وهو حُكم البشَر للبشَر وعبودية البشَر للبشَر ورفضُ ألوهية الله والخُروج من عُبودية الله [4] وهذا ربطٌ مباشِر بمفهوم الحاكِمية، فإذا كانت الحاكِمية في أيِّ مجتمعٍ ليست لله فهذا المجتمعُ في جاهلية.

وقد فرَّق سيدٌ بين نوعيْن من الجاهلية، **جاهلية الاعتقاد** التي يترتَّبُ عليها الكُفر ـ وهذا بإجماع المسلِمين ـ و **جاهلية العمَل** أو السلوك التي لم يصرِّح سيدٌ بكُفر أصحابِها في أيٍّ من نصوصِه، ولكن

1- طه جابر العلواني، الخصوصية والعالَمية في الفكر الإسلامي،(ط 1، بيروت: دار الهادي، 2003م)، ص 244.

2- ينظر: أبو الأعلى المودودي، الإسلام والجاهلية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت)، ص 17.

3- سيد قطب، أيها العرب استيقظوا واحْذَروا، ص 95. في مقال حلَّلَ فيه كتاب "ماذا خسِرَ العالَم بانحطاط المسلمين"، نشرَهُ عام 1951 بمجلة "الرسالة"، عدد 947، ص 965.

4- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص 904.

الزاعمينَ اتِّباعَ منهج سيد قطب من تلك الجماعات الغالِية استخلَصوا أحكامًا من أقوالِه يفنِّدها صريحُ نصوصِه التي سنذكُرها بعدَ حين.

ومن هؤلاء جماعةُ "التكفير والهجرة" التي تقولُ بجاهليةِ المجتمعِ المعاصِر وتكفيرِ الحُكَّام وكل الأحزاب العقائدية الأخرى غير جماعتِهم وكل المناهِج والتنظيمات والتشريعات القائمة على غيرِ الكتاب والسُّنة [1] مُتكِئين في هذا كلِّه على نصوصِ سيد قطب ! مُجتزِئين من "الظلال" و "المعالِم" عباراتٍ مُوهِمةً؛ وحكَموا على المسلِمين بالكُفر لأنهم ينطِقون بشهادةٍ لا يعرفونَ مضمونَها ومعناها مهْما صلُّوا وصامُوا وحجُّوا وزعَموا أنهم مسلِمين، وضرَبوا مثالًا على ذلك بعُلبة السُّكَّر لو مُلِئت مِلْحًا وكُتبَ عليها سُكَّر ما غيَّر ذلك من حقيقةِ أنها مِلْح، وأن المسلمَ في زمنِ الرسول ﷺ هو مَن انتقلَ من المجتمع الجاهلي إلى المجتمعِ الإسلامي، أمّا مَن تلفّظَ بالشهادتيْن وظلَّ مع المشركين فليس بمسلِم، وعلى ذلك فالمجتمعُ اليومَ لا يسيرُ في شؤونِه كلِّها على الإسلام وبالتالي فهو مجتمعٌ جاهليٌّ كافِر [2].

وفي المقابِل راحتْ فئةٌ ثانيةٌ تتهِمُ سيدًا في عقيدتِه وفكرِه منكِرةً عليه تأصيلَه لهذا الفِكر التكفيري، فهذا أحدُ الباحثين يُرجع بداياتِ تكفيرِ المجتمعِ والحاكِم إلى سيد قطب! إذ يقول: (وإذا كان من المعروفِ تكفيرُ المجتمع والحاكِم ـ بل كلّ المجتمَعات والحكَّام والأنظِمة على وجْه الأرض ـ قد بدأَ في عالَمنا العربي المعاصِر في كتابات سيد قطب استِنادا إلى مفهومِ الحاكِمية... فقد كان فكرُ قطب في جانبٍ كبيرٍ منه بمثابَة ردٍّ على ما اعتبرَه الإخوانُ المسلمونَ آنذاكَ انفِرادًا بالسلطةِ والحاكِمية من جانبِ ضُباط الثورة) [3].

وآخرُ ينسبُ إلى سيد قطب القولَ بأن الناسَ في الأقطارِ الإسلاميةِ جاهليونَ كفارٌ خارِجونَ عن الإسلام وإن صلُّوا وصامُوا وحجُّوا البيتَ الحَرام باستثناءِ أعضاءِ التنظيم [4].

فأين سيد قطب بين هذيْن النقيضيْن؟ بين مَن تبنَّى فكرَه ونسبَ إليه ما لم يقُلْه، وبين مَن أنْحَى

1- ينظر: رفعت سيد أحمد، قرآنٌ وسَيف، (ط3، مصر: مكتبة مدبولي، 2003م)، ص 88، 89.

2- ينظر: سالِم البهنساوي، الحُكم وقضية تكفير المسلم، ص 41.

3- نصر حامد أبو زيد، نقدُ الخِطاب الديني "رؤيةٌ نَقدية"، (ط1، بيروت: دار المنتخب العربي، 1992م)، ص 17.

4- ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، في ظلال القرآن في الميزان، ص 206. وهذا القول للمهندس "أبو عزة" في مقالٍ له بمجلة "الشهاب" اللبنانية، عدد 21، ص 5.

عليه باللائِمة وجعلَه مِن أقطابِ مَن أصَّلَ لهذا الفِكر الخطيرِ الذي مازالت تبِعاتُه في الساحة الإسلامية فكرًا وسُلوكا؟!.

نعرِض نصوصَ سيد التي فَهِم منها أولئكَ المُكفِّرون ما فهِموا، وللقارئِ الحُكم على تلك النصوص بنفسِه وهل يمكنُ أن يستخلصَ منها ما يَصِمُهُ به أولئكَ ممّا ذكرْناه آنفا.

اعتمدَ الفريقُ الأوَّل على نصٍّ لسيد قطب في "معالِم في الطريق " وجعَلُوه المنبعَ الذي يرفُد أحكامَهم بتكفيرِ المجتمعاتِ والحكَّام، وهو قولُ سيد: (إن المجتمعَ الجاهلي هو كلُّ مجتمعٍ غيرِ المجتمع المسلِم،... كلُّ مجتمع لا يُخلِص عبوديتَه لله وحدَه متمثِّلةً هذه العبودية في التصوُّر الاعتقادي وفي الشعائر التعبُّدية وفي الشرائع القانونية) [1] وبهذا التعريف أدخلَ سيدٌ في قائمةِ هذه المجتمعات القائمة اليوم في الأرض:

1 ـ المجتمعات الشيوعية بإلْحادِها في الله سبحانَه وإنكارِ وجودِه.

2 ـ المجتمعات الوثنية في الهند واليابان والفلبين وإفريقية، بتصوُّرِها الاعتقادي القائِم على تألِيهِ غيرِ الله وتقديمِ الشعائرِ للمعبوداتِ مِن دونِ الله.

3 ـ المجتمعات اليهودية والنصرانية بتصوُّرها الاعتقادي المُحرَّف وطقوسِها وشرعائرها.

4 ـ المجتمعات التي تزعُم لنفسِها أنها مُسلِمة [2]، وقد فصَّل سيدٌ علَّة إدراجِها ضمنَ المجتمعاتِ الجاهلية، فهو لم يُدرِجها لأنها تعتقدُ بألوهيةِ أحدٍ غيرِ الله، ولا لأنها تُقدِّم الشعائرَ التعبُّدية لغيرِ الله أيضا، ولكنْ لأنها:

أ ـ تُعطِي خصائصَ الألوهية لغيرِ الله فتَدِين بحاكِميةِ غيرِ الله، فتتلقَّى من هذه الحاكِمية نظامَها وشرائعَها وقِيَمَها وموازينَها وعاداتِها وتقاليدَها.

ب ـ منها مَن يُعلنُ صراحةً علمانيتَه وعدم علاقتِه بالدينِ أصْلا.

جـ ـ منها مَن يُعلنُ أنه يَحترمُ الدينَ ولكنه يُخرج الدينَ من نظامِه الاجتماعي ويُنكِر الغيبيةَ ويُقيم نظامَه على العِلمية.

1- سيد قطب، معالِم في الطريق، ص 88، 89.

2- ينظر: المصدر السابق، ص 89 - 91، بتصرف.

د ـ بعضُها يجعلُ الحاكِمية الفِعليةَ لغيرِ الله ويشرِّع ما يشاءُ ثم يقولُ عمّا يشرِّعه من عندِ نفسِه: هذه شريعةُ الله! [1].

وبهذه النقطة الرابعة تمسَّك أولئك المُكفِّرون حينَ أدخلَ سيدٌ المجتمعاتِ التي تزعُم لنفسِها أنها مُسلِمة في عِداد المجتمعاتِ الجاهلية، ولكن سيدًا عنَى بهذه المجتمعاتِ ؛ التي ارتدَّت عن الإسلام ولم يُعمِّم! وإلّا لَمَا صنَّفها إلى هذه الأنواع الأربعة ولَكَفى أن يقول: المجتمعات المُسلِمة اليوم! أمَا وهوَ أوضحَ سببَ جاهليتِها فلا مُستَند لأولئك ليبْنُوا عليها أحكامَ التكفيرِ التي خرجُوا بها.

فقد أوضحَ سيدٌ أن مِن هذه المجتمعات التي تزعُم لنفسِها الإسلامَ مَن تُعلنُ العِلمانيةَ وعدمَ علاقتِها بالدين! فأيُّ إسلام هذا الذي يُدَّعَى بالانفصال الكُلِّي عن الدين! وبعضُها يتظاهَر باحترام الدين ولكنهُ يُخرجُ الدينَ عن حياتِه الاجتماعية ويُنكِر الغيبَ المُنزل مِن عندِ الله! فأيُّ إسلام هذا الذي يُنكِر الغيب؟ والإيمانُ كلُّه إيمانٌ بالغيب! وبعضُها يُعلِن صراحةً أن ما يشرِّعه هو من عندِ نفسِه هو شريعةُ الله! واللهُ تعالى يقول: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [2].

ويُجلِّي سيدٌ الأمرَ أكثر في قولِه: (إن هذه الأنظِمةَ والأوضاعَ ترفعُ رايةَ الإسلام ـ أو على الأقل تُعلن احترامَها للدين ـ بينما هي تحكُم بغير ما أنزلَ الله، وتُقصِي شريعةَ الله عن الحياة، وتُحِلُّ ما حرَّمَ الله، وتنشرُ تصوُّراتٍ وقِيَـمًا مادِّيةً عن الحياة والأخلاق وتُدمِّر التصوُّرات والقيَم الإسلامية، وتُسلِّط جميع أجهزةِ التوجيهِ والإعلامِ لتدميرِ القِيَم الأخلاقية الإسلامية وسَحْق التصوُّرات والاتجاهات الدينية، وتُنفِّذ ما نصَّت عليه مؤتمراتُ المُبشِّرين وبروتوكولات الصهيونيين) [3] فإذا كان ذلكَ كذلكَ فأيُّ إسلامٍ هذا؟! أيُّ إسلام هذا الذي يُحارِب الإسلامَ ويُقصي الشريعةَ ويُحِلُّ ما حرَّم الله ويُدمِّر الأخلاقَ والقيَم!

إن سيدًا لم يَعْنِ المجتمعات الإسلامية عامّةً ولا الأنظمةَ عامّةً وإنما حدَّدَها بدقةٍ وهي المجتمعات المُرتدَّة والأنظِمة المُشرِّعة من دونِ الله زاعمةً أن ما تشرِّعُه شرْعُ الله.

والدليل على أن سيدًا يُفرِّق بين جاهليةِ الاعتقاد وجاهليةِ العمل أو السلوكِ تفسيرُه لقولِه تعالى:

1- ينظر: المصدر نفسُه، ص 91 - 93، بتصرف.

2- سورة الشورى، الآية 21.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص 1033.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [1] فهذه الآياتُ نزلتْ في غزوةِ أُحُد والذين تناولَتْهم هم أصحابُ رسولِ الله ﷺ وظنُّهم بالله غيرَ الحق ظنّ الجاهلية لا يمكنُ أن يكونَ وصْفًا لهم بالكُفر! .

هنا يُعقِّب سيدٌ على هذه الآيات ويَصِف الجاهليةَ المذكورَة في النصِّ بالعِصيان في قولِه: (وهو تقريرٌ لحالِ الرُّماة وقد ضعُفَ فريقٌ منهم أمامَ إغراءِ الغنيمةِ ووقعَ النزاعُ بينَهم وبينَ مَن يرَوْن الطاعةَ المطلقةَ لأمرِ رسولِ الله ﷺ وانتهى الأمرُ إلى العِصيان، بعدما رَأَوْا بأعيُنِهم طلائعَ النصْر الذي يُحبُّونَه، فكانوا فريقيْن: فريقًا يريدُ غنيمةَ الدنيا وفريقًا يريدُ ثوابَ الآخِرة... وشابَت المطامعُ جلاءَ الإخلاصِ والتجرُّدِ الذي لا بدَّ منهُ في معركةِ العقيدة) [2].

وفي تفسيرِه أيضا لقولِه تعالى: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ [3] لا يفسرُ سيدٌ الجاهليةَ المذكورة في الآية بالكُفر والخروج عن المِلة وإنما يفسِّرُها بجاهليةِ السلوكِ والتقاليد الاجتماعية؛ ولابد مِن صلةٍ بالله يرتفعُ بها الفردُ على عُرفِ الناس وتقاليدِ المجتمع وضغطِ البيئة ؛ ويشعُرَ أنه أهدى وأعلى من الناسِ والمجتمعِ والبيئة ؛ وأنه حريٌّ أن يقودَ الآخَرين إلى النور لا أن يُقادَ إلى الظلمات والجاهلية التي تغرَق فيها الحياةُ كلما انحرفتْ عن طريقِ الله [4] وفي تفسيرِه أيضا لقولِه تعالى: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [5] لا يجعل سيدٌ من لفظةِ الجاهليةِ جاهليةَ الكُفر والاعتقاد ؛ وإنما يفسرُها على أنها جاهلية المعصية وارتكاب الكبيرة بانتهاك حُرمة البيت

1- سورة آل عمران، الآية 154.
2- المصدر نفسُه، مج1، ص 493.
3- سورة الأحزاب، الآية 33.
4- ينظر: المصدر السابق، مج5، ص 2861.
5- سورة الفتح، الآية 26.

الحَرام الذي يَعيشونَ على حسابِ قَداسَتِه [1].

أظن هذه الأمثلةَ كافية لحمْل أوصاف سيد قطب للمجتمعات بالجاهلية على جاهليةِ المعصية فيما لم يُحدِّدْه وفيما لم تكُن معه قرينةُ الكُفر الاعتقادي ؛ كإقصاء الدينِ كُلّيةً من الحياة ؛ أو إنكارِ الغيب ؛ أو التشريع من دون الله ونِسبةَ ذلك إلى الله، أمّا الإعلانُ بكُفر المجتمعات صراحةً فهذا ما لم يكتُبه سيد بقلمِه، وإنما أوَّلَ هؤلاء المُكفّرون أقوالَه في جاهليةِ المجتمعات بالكُفر، وقد بيَّنَّا بالأدلة القاطعة م ا ينفي ذلك وإن كان باختصار فهذا ما يقتضيه الحيِّز والمقام، أمّا كُفر الأفراد المُعيَّنِين فالأدلةُ فيها أوضحُ بكثير وهو ما سنتناولُه في المطلب التالي.

1- ينظر: المصدر السابق، مج6، ص 3329.

المطلب الرابع: سيد قطب وتكفير المسلِم المُعاصِر:

سالَ حِبرٌ كثيرٌ حولَ هذه القضية وأُلصِقت هذه التهمةُ بسيد قطب ونَسبَ إليه بعضُهُم أنه أَوَّلُ المكفِّرين في عالَمِنا العربي المعاصِر ! [1] وأنه ما تركَ على وجْه الأرض إنسانا مؤمنا أو مسلِما إلا وكفَّرَه من حيثُ مبدؤُه؛ كما كفَّر المجتمعاتِ كلَّها إسلاميةً وغيرَ إسلاميةٍ ! [2] وأنه يكفِّرُ الحكَّامَ والمَحكومين جميعا ولا يستثني إلا من ان ضمُّوا إلى الجماعةِ الإسلاميةِ والتنظيمِ الإسلامي [3]، وأنَّ أفكارَه كانت المحرِّك الذي دفعَ ببعضِ جماعاتِ الإخوان المسلمين إلى التخطيطِ لعملياتٍ انقلابية تبدأ باغتيالاتٍ وضرَباتٍ ضد قياداتِ الدولة ومؤسَّساتِها ومشروعاتِها [4] وأنه رسَمَ لذلك كلِّه منهاجًا سمَّاه "معالِمِ في الطريق"، لخَّصه أحدُ هؤلاء في خمسِ نقاط نذكُرُها باختصار:

1 – إن هناك تعارُضا شديدا بين تصوُّريْن ونظاميْن: الإسلام والجاهلية ؛ حاكِمية الله وحاكِمية البشَر ولا بقاءَ لأحدِهما إلا بالقضاءِ على الآخَر.

2 – الإسلام هو الخيرُ والعدلُ ؛ والنظامُ القائمُ ظلمٌ وشرٌّ ؛ ولمّا كان الإيمانُ قولًا وعملًا فالدولةُ الإسلامية مشروعٌ ممكِن حين تكونُ الشهادةُ مطلَبا وأُمنيةً.

3 – لا يحدُث التغييرُ إلا بالانقلابِ على نظام الكُفر والقضاءِ عليه وإحْلالِ أئمة الإيمان !.

4 – تقوم بهذه العمليةِ الصفوَةُ المؤمِنةُ اقتداءً بجيل الصحابة.

5 – عملية التخلُّص من الطاغوت مسؤوليةٌ فردية وجماعية لتصبحَ لا إله إلا الله منهج حياة [5].

والقارئُ "لمعالِمِ في الطريق "يَعجَب من هذه الاستنتاجات البَعيدة في بعضِها ؛ المَقطوعة عن سياقاتِها وفي بعضِها غيرِ الموجودة أصْلًا، فمسألةُ الانقلاب على نظام الحُكم والقضاء عليه لم يَرِدْ لها ذِكرٌ أبدا و"المعالِمِ" مطبوعٌ موجودٌ لمن أرادَ أن يتحقّقَ من ذلك !!.

وذكَرَ غيرُ هؤلاء قوائمَ أُخرى من القَبيل وألْصقوها بسيد قطب وبَنَوْا عليها أحكامًا توافقُ

1- ينظر: نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني "رؤية نقدية"، ص17.

2- ينظر: ضحى الخطيب، ضوابط التكفير بين الأمس واليوم، (ط1، فرنسا: دار البُراق، 2007م)، ص 162.

3- ينظر: مجلة الشهاب اللبنانية، عدد 21، تاريخ: 16 صفر 1393هـ، ص5.

4- ينظر: محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات ، (ط6، بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 1983م) ، ص290.

5- ينظر: المرجع السابق، ص288، 289.

خلفياتِهم الفكرية والمَذهبية وغيرها، نكتفي بهذه العيِّنة التي جعلتْ من سيدٍ إمامًا للتكفير والانقلاب والعُنف.

والأدلةُ من كُتب سيد نفسِه بَلْهَ ما كُتبَ عنه من المُحِبِّين والمُنصِفين تدحضُ هذا التجنِّي بأيْسرِ دليل، فالقارئُ لنصوص سيد على طولِها - وهي مطبوعةٌ متداوَلة - لا يجدُ له تصريحا واحِدا بتكفير الأفراد المُعيَّنين، أمّا المجتمعات فقد نصَصْنا على الأسباب التي كفَّرَها بها وهي العِلمانية التي تقطعُ علاقتَها بالدين أصْلا، والمُنكِرة للغيب، والمُشرِّعة لنفسِها زاعمةً أن ما تُشرِّعه هو شرْع الله، ولم يُعمِّم على كل المجتمعات وإلا لَمَاَ حدَّدَ هذه الأسباب ! أمّا الأفرادُ كأفرادٍ فالعكسُ هو الصحيح، وسنذكُر تصريحاتٍ له يَنفي فيها تمامًا ما نُسب له، ويُنْحِي باللائمةِ على أولئك الذين لم يَفهموا كلامَه ؛ مُبيِّنا منهجَه في ذلك أجْلى بيان، ثم نُورد بعض النصوص التي اتخذَها متَّهِمو سيد تُكَأة وحمَّلوها ما لا تحتمِل، وفي القواعدِ الأصولية أن النصّيْن إذا تعارَضا وجبَ التوفيقُ بينهما فإن لم يُمكن رُجِّح بينهما فإن لم يُمكن وعُلِم تاريخُ وُرُودِهما كان اللاحقُ ناسِخًا للسابِق [1]

فكيف وسيدٌ ينصُّ صراحةً أنه لا يكفِّر المسلمينَ في آخِر ما كَتب - وهي أوراقُ الادِّعاء التي سُلِّمت له من المحكمة قُبيْل إعدامِه - وفي كُتبه جميعًا لم ينصَّ ولا مرَّةً بتكفيرِ الأفراد ؛ بل فهِم منها ذلك بعضُ المُغرِضين حيث يتقمَّمُون له نصوصًا كان فيها مُستغرِقًا في كتاب الله عز وجل تفسيرًا وشرْحًا وتعليقًا واستِخراجًا، ويُلفِّقُون بينها ويَخرُجُون بأحكام لم تكُن تخطُرُ له على بال ! وهذا ما يؤكدُ ه أحَدُ الباحثين مُرجعا الأمرَ كلَّه إلى اعتماد مفهوم المخالَفة [2] في قراءةِ النصوص ؛ الذي يُفضي إلى أخطاءَ جسيمةٍ تُخالفُ ما يذهبُ إليه صاحبُه.

فالخطأ في (الفهْم والتأويلِ جزءٌ من خط إ أكبر في التعامُل مع الظلال والأخْذ عنه، وهو خطأ اعتمادِ مفهوم المُخالَفة لكلام سيد رحمه الله ؛ والتي لو طرَحَها القراءُ والدارِسون في فهْم كلامِه رحمه الله

1- ينظر: عبد الوهاب خلّاف، علم أصول الفقه، (ط12، الكويت: دار القلعة، 1978م)، ص229.

2- هو المفهوم المُخالِف للمنطوق لا يستدلّ به على الأحكام الشرْعية لأنه ليس من مدلولاتِها بطريق من طُرق الدلالة الأربعة (العبارة، الإشارة، الدلالة، الاقتضاء). ينظر: المرجع نفسُه، ص 154.

لانتهت أكثرُ المشاكِل من أذهانِ أصحابِها والله أعلم) [1]، وهكذا فعلَ أولئك بنُصوص سيد؛ فإن لم يقُل فقد أرادَ أن يقول؛ وهذا افتراءٌ واجْتراءٌ على رجُل أفضى إلى ربِّه.

ولْنَعرِض الآن النصوصَ المُوهِمة التي بَنَى عليها أولئك فُهُومَهم، ولْنَعرِض النصوص الصريحَة التي تجاهَلُوها عَمْدا – لأنها مكتوبةٌ مطبوعةٌ مُتدَاولة - أو عن غيرِ عمد - لأنهم لم يَقرؤوا كلّ ما كَتب ولم يتروَّوْا فيما قرؤوه من اجْتزاءاتِهم لتلك النصوص - ولا يخرجُ الأمرُ عن هذيْن الاحتماليْن.

ففي تفسيرِ سيد لقولِه تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [2] يمثل لهؤلاء الذين اتخذوا دينَهم لهْوا ولعِبا بالذين لا يجعلون للدين وقار ه واحترامَه؛ ولا يتخذونَه قاعدةً لحياتِهم في الاعتقاد والعبادة والخُلق والسلوك والشريعة والقانون، كالذين يتحدَّثون عن الغيب - وهو أصلٌ من أصول العقيدة - بالاستهزاء، والذين يتحدَّثون عن الزكاة - وهي ركنٌ من أركان الدين - بالاستصغار، وعن الحياء والخُلق والعِفّة - وهي من مبادئ هذا الدين - باستهجان، وعن قواعد الحياة الزوجية باستنكار وينكرونَ حاكِمية الله المُطلقة في حياة الناس (ويقولونَ إن للبشَر أن يزاوِلوا هذا الاختصاصَ دون التقيُّد بشريعةِ الله، أولئك جميعًا من المَع نِيّن في هذه الآيات بأنهم يتخذونَ دينَهم لعبًا ولَهْوا، وبأن المسلِم مأمورٌ بمفاصَلتِهم ومقاطعتِهم إلا للذكرى، وبأنهم الظالِمون - أي المشرِكون ـ والكافِرون الذين أُبسِلوا بما كَسبوا، فلهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفُرون) [3].

فهذا النصُّ لم يزِد فيه سيدٌ على ما قرَّره القرآنُ الكريم من كُفر هؤلاء، أمّا أن يُكفِّر المسلمينَ بغير ما كفَّرَهم به القرآنُ فذلك ما لم يفعلْه في كلّ كُتبه، والأمثلةُ التي ساقَها هنا كلُّها جحودٌ لمبادئَ معلومةٍ من الدين بالضرورة وهي تقريبا نفسُها التي ذكرَها في تكفيرِ المجتمعات ؛ كإنكارِ الغيب وإنكارِ حاكِمية الله المُطلقة؛ وزادَ هنا الاستهزاءَ بأركان الإسلام كالزكاة وهو نوعٌ من الجحود ؛ وبالأخلاق التي هي من

3- عدنان محمد زرزور، علوم القرآن، ص428.

4- سورة الأنعام، الآية 70.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 1128.

قواعد هذا الدين؛ وبالأُسْرة والحياة الزوجية في الإسلام التي هي مِن دعائم النظام الإسلامي ؛ ولم يُعَمِّم حكمَه، بمعنى أنه استثنى غيرَ هؤلاء، ونحن نحاكِم نصوصَه ونحاكمِه هوَ على ما كتبَ ولا نُقوِّله ما لم يقُل، فكيف خرجَ أولئك من مثلِ هذه النصوص بتكْفير أفرادِ المسلمين ؟ !

وهاهو الإمام الآلوسي يعلّق على قولِه تعالى:(﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ ﴾ الذي فُرِضَ عليهم ولكُلِّفوه وأُمروا بإقامة مَوَاجبِه وهو الإسلام ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ حيث سخِروا به واستهزَؤوا، وجوز أن يكون المعنى اتخذوا الدينَ الواجِب شيئا من جنسِ اللعبِ واللهوِ كعبادةِ الأصنام وتحريمِ البَحَائِر والسوائِب ونحوِ ذلك، أو اتخذوا ما يتد يَّنون به وينتحِلونَه بمنزلةِ الدينِ لأهلِ الأديانِ شيئا من اللعِب واللهو...وترتيب ما ذكر من العذابَيْن على كُفرِهم مع أنهم مُعذَّبون بسائر معاصِيهم أيضا حسبما ينطِق به قولُه سبحانه ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ لأنه العُمدة في أسباب العَذاب والأهمّ في باب التحذير أو أريد - كما قيل -: بكُفرِهم ما هو أعمّ منه ومن مستَتْبعاتِه من المَعاصي)[1] وقارِن بين تفسيرِ سيد قطب وتفسيرِ هذا الإمام الكبير في التفسير تجدْ أن سيدا فسَّرَ اللعبَ واللهوَ بالاستهزاءِ والاستصغارِ لأرْكان وقواعدِ هذا الدين؛ وأن الآلوسي فسَّرَه استهزاءً بالدينِ نفسِه فغَدَا شيئا من جنسِ عبادةِ الأصنام وتحريمِ البحائرِ والسوائبِ وهو كفرٌ أعمّ مما يتبعُه من المَعاصي !

وفي نصٍّ آخرَ ينْعَى سيدٌ على المسلمينَ أن يأخُذوا تصوّراتِهم وشرائعَهم وقوانينَهم عن المستشرقين والفلاسفة والمُفكرين الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكيين البعيدِينَ عن هذا الدين وروحِه في أسلوب ينضَح بالأسف والتوجُّع لِما آلَ إليه أمرُ المسلمينَ إذ يقول: (نحن الذين نزعُم أننا مسلمون، فأرانا نتلقَّى في صميم فهمِنا لقرآنِنا وحديثِ نبيِّنا ﷺ عن المستشرقين وتلامِذة المستشرقين ! وأرانا نتلقَّى فلسفتَنا وتصوّراتِنا للوُجود من هؤلاء وهؤلاء، ومن الفلاسفة والمفكرين الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان ! وأرانا نتلقَّى نظام حياتِنا وشرائعَنا وقوانينَنا من تلك المصادر المَدْخولَة ! وأرانا نتلقَّى قواعدَ سلوكِنا وآدابِنا وأخلاقِنا من ذلك المستنقَع الآسِن الذي انتهتْ إليه الحضارةُ المادّية المجرَّدَة من روح الدين، أيِّ دين، ثم نزعُم - واللهِ - أننا مسلِمون ! وهو زعمٌ إثمُه أثقلُ من الكُفر الصريح. فنحن بهذا نشهدُ على الإسلام بالفشَل والمَسْخ. حيث لا يشهدُ عليه هذه الشهادةَ

1- محمود شكري الآلوسي، روح المعاني، مجـ3، جـ7، ص 186 – 188.

الآثِمةَ مَن لا يزعمون - مثلَنا - أنهم مسلِمون !) [1].

هذا النصُّ من دعائم أولئك الناسِبينَ التكفيرَ لسيد، وما دَرَوْا أن مَن اعتقدَ أن حُكمَ غير الرسول ﷺ أحسن من حُكمِهِ وأتمّ وأشمَل لما يحتاجُه الناسُ بينَهم إما مطلَقا أو بالنسبة إلى ما استجدَّ من الحوادِث التي نشأتْ عن تطوُّر الزمان وتغيُّر الأحوال ؛ كفرٌ، لتفضيلِه أحكامَ المَخلوقين التي هي محْض زُبالة الأذهان وصِرْف حُثالة الأفكار على حُكم الحكِيم الحَميد [2]، فكيف باستمدادِ نظامِ الحياةِ كلِّه والشرائعِ والقوانينِ والسلوكِ والآدابِ والأخلاقِ من تلكَ المصادِر المَدْخولَة ونبْذ ما جاء مِن عندِ الله وما بيَّنَه الرسولُ ﷺ في سُنَّتِه ؟!

ومن معتَمَداتِهم أيضا قولُ سيد في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [3]: (إن النصَّ القرآني لقاطِع في أن طاعةَ المسلِم لأحدٍ من البشَر في جُزئية من جُزئياتِ التشريع التي لا تستمدّ من شريعة الله ولا تعتمِد على الاعتراف له وحدَه بالحاكِمية، أن طاعةَ المسلِم في هذه الجُزئية تُخرِجُه من الإسلام لله إلى الشرْك بالله) [4]، وهنا يعضِّد سيدٌ قولَه بقولٍ لابن كثير وآخرَ للسّدّي وكلاهما يقرِّر في صراحة وحَسْم ووُضوح أن مَن أطاعَ بشَرًا في شريعة مِن عندِ نفسه ولو في جُزئية صغيرةٍ فإنما هو مشرِكٌ، وإنْ كان في الأصل مسلِما ثم فعلَها فإنما خرَج بها من الإسلام إلى الشرْك أيضا [5].

هذه أهمّ النصوص التي اعتمَدُ وها لإلْصاق تُهمة التكفير بسيد قطب، ورأيْنا أنها [نصوص سيد] لا تُخالِف المُحكَم من أصول الدين ولم يكُن فيها شاذًّا أو نَشازًا فيما ذهبَ إليه، وهَبْ أنه كان مُغالِيا فيما ذهبَ إليه في هذه النصوص وأنها نصوصٌ مُوهِمة لنُزوعِه إلى التكفير، فكيف يفعلُ هؤلاء بتصريحاتِه هو نفسِه والتي لا تحمِل أكثرَ من وجْه إذ ينصُّ فيها صراحةً أنه لا يُكفِّر المسلمينَ وأنه انزعجَ

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 440.

2- ينظر: عمر سليمان الأشقر، الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، ص 176. وهي فتوى نقلَها في كتابِه عن العلاَّمة الشيخ "محمد بن إبراهيم" مفتي الديار السعودية.

3- سورة الأنعام، الآية 121.

4- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1197.

5- المصدر نفسه، مج3، ص 1198.

حين سمِعَ مَن ينسِبُ إليه تكفيرَ المسلِمين !

ففي أوراقِ الادِّعاء التي سُلِّمت له من المَحكمة - قُبيْل إعدامِه - ليُلَخِّصَ أفكارَه، ثم جُمِعت وطُبِعت فيها بعدُ تحت عنوان: "لماذا أعدموني" يشيرُ سيد إلى أن فكرَ التكفير بدأَ يتبلْوَر في السجون ويُنسَب إليه زورًا مِن سوءِ فهْم بعضِهم لكلامِه المنطوقِ والمَكتوب، فقد كان يحْضُرُ إليه مجموعةٌ من السجَناء ويسمعونَ منهُ وفيهِم الصغيرُ والكبيرُ وفيهِم المُثقَّف والعامِّيّ، كانوا يتلقَّوْن عنه (ما ينبغي أن يكونَ عليه منهجُ الحرَكة الإسلامية، وسمِعوا المفهومات العقيدية الصحيحة ومدى بُعْد المجتمعات الإنسانية اليوم عنها - بما فيها المجتمعات الإسلامية التقليدية ذاتُها -) [1] وبعض هؤلاء أوْصَلوا تلك المفهومات مضخَّمَة مشوَّهَة إلى السجون التي هُم فيها ؛ ممّا جعلَ المَسجُونين المُبَلَّغين ينزِعجونَ انزِعاجا شديدا مِن هذه الأفكار ومِن الخِلاف حولَها، وأُبلِغ سيدٌ مِن أحَدِهم بهذا الانزعاج فأجابَه قائلا: (وقد قلتُ له: أننا لم نُكفِّر الناسَ وهذا نقْلٌ مُشوَّه، إنما نحنُ نقول: أنهم صَاروا مِن ناحيةِ الجهلِ بحقيقةِ العقيدةِ وعدم تصوُّر مدلولِها الصحيح والبُعْد عن الحياةِ الإسلاميةِ إلى حالٍ تشبهُ حالَ المجتمعاتِ في الجاهلية.

وإنه مِن أجلِ هذا لا تكونُ نقطة البدْء في الحرَكة هي قضية إقامَة النظام الإسلامي، ولكن تكون إعادة زرْع العقيدة والتربية الأخْلاقية والإسلامية، فالمسألةُ تتعلَّق بمنهج الحرَكة الإسلامية أكثر مما تتعلَّق بالحُكم على الناس !، ولمَّا عادَ أبْلَغَهم الصورَة الصحيحةَ بقدْر ما فهِمَ منها، ولكنْ ظَلَّ الآخَرون في "القناطِر" [اسم سجن] يلِحُّون عليهِم بوُجوب وقْف ما أسمَوْه بالفتنة في صُفوف الجماعة، وظَلَّ الحالُ كذلك حتى نُقِل إلى مستشفى "طُرَة" الأستاذان عبد العزيز عطية وعُمَر التلمساني مِن أعضاء مكتب الإرشاد الباقِين في السجون، والْتقَيَا بي وأفهَمتُهُ ماحقيقةَ المَسألة فاستَرَاحَا لَها) [2].

وقد نقلْنا النصَّ على طولِه لبيانِ موقفِ سيدٍ من القضيةِ وهو أنه يَنفي هذه التُّهمةَ القديمةَ الجديدة عن نفسِه، وأن جُهدَه كان مُنصبًّا على تعريفِ الناسِ بالعقيدةِ والتربيةِ الأخلاقيةِ الإسلاميةِ لا بإقامة النظام الإسلامي، وهذا هو منهجُه في الحرَكة الإسلامية وليس منه الحُكم على الناس، فأفكارُه إذن

1- سيد قطب، لماذا أعدموني، ص35.

2- المصدر السابق، ص37.

نُقلت عنه مشوّهةً مضخّمةً وهو حيٌّ يُرزَق يَملكُ الدفاعَ عن نفسِه، فكيف نستعظِم التضخيمَ والتشويهَ لَها وقد مرَّ على استشهادِه ما يُشارِف نصفَ القرْن مِن الزمان !؟ .

وقد أشارَ في تصريحِه هذا أنه الْتَقى بعُمَر التلمساني وأفْهَمَه حقيقةَ المسألةِ واستراحَ لها، فلنسألْ التلمساني عن هذا الفهْم الذي استراحَ له ، يقول في مذكِّراتِه: (ليسَ في "معالِمِ في الطريق" جديدٌ في فِكر سيد قطب، ولكنْ بما أن "معالِمِ في الطريق " كَتبَه الشهيدُ في السجنِ بعد أن ذاقَ ألْوان العذابِ على مختلفِ قسوتِها ووَحشيّتِها، فقد بدَتْ نقمتُه على مخالَفةِ الشرْع أوْضَح وأظْهَر، وما أرادَ الشهيدُ الأستاذ سيد قطب في يومٍ من الأيام أن يُكفِّرَ مسلِما...وكثرة تَرْدَادِه لكلِمة "المجتمع الجاهلي" لم يَقصِد بها تكفيرَ المجتمع، ولكنْ تشديدَ النكيرِ على الظَّلَمة والطّغاة والمستغِلّين والمُشكِّكين... والذينَ يعرِفونَ الشهيدَ سيد قطب ودماثَةَ خُلُقه وجَمَّ أدبِه وتواضُعَه ورِقّةَ مَشاعِرِه يعرفونَ أنه لا يُكفِّر أحَدا، إنه داعيةٌ إسلامي من عُيُون الدُّعاة، ظلَمَه مَن أخذَ كلامَه على غيرِ مقاصِدِه) [1] ويذكرُ أنه كان له شرَف الاطِّلاع على "معالِمِ في الطريق" قبلَ طبْعِه بمعيَّة سيد قطب في مستشفى "ليمان طُرَة" [2]، وذلك ما أشارَ إليه سيد في النصّ السابِق.

أَلَا تكفي شهادةُ المرشِد العامّ للإخوان المسلِمين بعدَ شهادةِ سيد نفسِه لنفْيِ هذه التُّهمة !؟ أليسَ هذا التطابُق في الروايتيْن - زمانا ومكانا - شاهِدا على صِدْقِها ؟ أكانَ يُغضِي كِبارُ الإخوان على مثلِ هذه التهمَة لو كان سيدٌ يقولُ بها حقًّا ؟

ولْنعُدْ إلى النصوص من "الظلال" التي ينصُّ فيها صراحةً أنه لا يُكفِّر أحَدا من أهلِ القِبلة، ففي تفسيرِه لقولِه عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [3] يقول سيد: (واحتِراسًا من وُقوع القتل ولو كان خطأً، وتطْهيرا لقلوبِ المُجاهِدين حتى ما يكون فيها شيءٌ إلا لله وفي سبيل الله، يأمرُ اللهُ المسلمينَ إذا خرَجوا غُزاةً ألّا يبْدَأوا بقِتالِ أحد أو قتلِه حتى يتبيَّنُوا، وأن يكتَفُوا بظاهِر الإسلام في كلِمة اللسانِ إذْ لا دليلَ هنا يُناقِض

1- عمر التلمساني، ذكريات لا مذكّرات، ص294، 295.

2- ينظر: المرجع نفسُه، ص295.

3- سورة النساء، الآية 94.

كلمةَ اللسانِ) [1].

فمَن أعلنَ الإسلامَ باللسانِ ولم يَظهَر ما يُوجب كُفرَه فليس لنا أن نحاكِم قلبَه وما يُضمِر فيه ؛ فذلك حُكمُه إلى الله تعالى ولا نحكُم نحنُ عليه، وهذا ما أشارَ إليه سيد (**إذ لا دليلَ هنا يُناقِضُ كلِمةَ اللسانِ**) وما نصَّ عليه في النصوص السابِقة أنه يُعرِّف الناسَ بالعقيدة الصحيحة ولا يحكُم عليهم.

وفي تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ ﴾ [2] يقول سيد: (وهذا الحُكم منطقيٌّ ومَفهومٌ مع طبيعةِ هذا الدينِ ومع منهجِه الحرَكي الواقِعي، فهؤلاء الأفرادُ ليسوا أعضاءً في المجتمع المسلِم، ومن ثم لا تكون بينَهم وبينَه ولايةٌ ولكنْ هناكَ رابِطةُ العقيدة) [3]، فنفْيُ الوَلاء يُرادُ به نفْيُ النُّصْرة فقط عندَ سيد أمَّا رابطة العقيدة فقائمةٌ، وقد اتَّهَموه مِن قبلُ بالقوْل أن مَن لم ين ضَمَّ إلى التنظيم الإسلامي فهو كافِر ! فكيف يفعلونَ بقولِه هذا الصريحِ الذي أثبتَه في التفسيرِ والذي يدحَضُ مزاعِمَهم كلَّها ؟ ألم ينصَّ هنا على رابطةِ العقيدة ؟ ! فالانضمام إلى الجماعَة الإسلامية والتنظيم الإسلامي يكون الفردُ فيه مسؤولًا أكثرَ ممَّن هو خارجَ التنظيمِ ولا يعني أبدًا كُفرَه.

وقد سُئلَ عن هذه النقطةِ بالذاتِ في مَحضَر التحقيق الذي أجْراه معهُ صلاح نصّار : (هل ترَى أن هناك فرْقًا بين المسلِم المُنتمِي لجماعةِ الإخوانِ وغير المُنتَمي لتلكَ الجماعة ؟ [فأجاب سيد] : الذي يميِّزُ الإخوانَ أن لهُم برنامجًا محدَّدًا في تحقيقِ الإسلامِ فيكونونَ مُقدَّمِين في نظرِي على مَن ليس لهم برنامجٌ مُحدَّد) [4] ، ولو كان سيدٌ يرى كُفرَهم لما تردَّدَ في إعلانِه وهو الذي جَهَرَ بالحقِّ حتى قدَّم نفسَه فداءً لكلمةِ الحق !

ونختِم بشهادةِ أخيهِ "محمد قطب" الذي هو أقرَب المُقرَّبين إليه في رسالةٍ نشرَها يفنِّدُ فيها تلك الشائعاتِ والتهَم التي أُلْصِقت بأخيه مُستشهِدا بما سمِعَه منه إذ يقولُ : (ولقد سمِعتُه بنفسي أكثرَ من مرَّة يقول : (نحنُ دُعاةٌ ولسنا قضاةً، إن مهمَّتَنا ليست إصدارَ الأحكام على الناس ولكن مهمَّتَنا

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، ص 737.

2- سورة الأنفال، الآية 72.

3- المصدر نفسُه، مج3، ص 1559.

4- سامي جوهر، المؤتى يتكلمون، ص129.

تعريفهم بحقيقةِ لا إله إلا الله ، لأن الناسَ لا يعرِفون مقتضاها الحقيقي وهو التحاكُم إلى شريعةِ الله) كما سمِعتُه أكثرَ من مرّة يقول : (إن الحُكم على الناس يستلزِم وُجودَ قرينةٍ قاطعةٍ لا تقبلُ الشكَّ، وهذا أمرٌ ليس في أيدِينا ولذلك فنحن لا نتعرَّض لقضيةِ الحُكم على الناس فضْلا عن كونِنا دعوة ولسنا دوْلة دعوة مهمَّتنا بيان الحقائق للناس لا إصدارَ الأحْكام عليهم) [1] .

فكيف لا يلتفِتُ أولئك الذين يَكِيلون التهَم جُزافا إلى مثلِ هذهِ النصوصِ الصريحةِ الواضحةِ مِن أقوالِ سيد نفسِه بَلْهَ ما كُتبَ عنه مِن أخيه وكبارِ علماءِ الإخوان ومُحِبِّيه ، ولكنهُ الهوَى الذي يُعمِي ويُصِمّ، فيلجَئون إلى النصوص المُوهِمة التي كتبَها وهو مستغرِقٌ في التفسيرِ مستظِلّا بظِلالِ القرآن ويَجتزِئون منها ما يشاءونَ لِخدمةِ ما يَرْمُون إليه وما يَرُومونَه ، ولكنْ هيهاتَ فالحقُّ أَبْلَج والباطِل لَجْلَج ، وأظنُّنا بهذا قد جلَّيْنا الحقيقةَ ناصِعةً، فالنصوصُ موجودةٌ لمن أرادَ التثبُّتَ ، ولولا ضِيق الحيّز لحشَدْنا كمًّا هائلا منها ولكن فيما ذكرْنا كفاية في تفنيدِ هذه الفِرية ولم يحمِلْنا – عَلِمَ اللهُ – تعصُّبٌ للشهيدِ سيد قطب وإنما التعصّبُ للحقّ .

1- سالم البهنساوي، الحُكم وقضية تكفير المسلم، ص 173.

المبحث الرابع : العقيدةُ والشُّهُود الحَضَاري :

المطلب الأول : عالمَية الدعوة والحاكِمية :

أكثَرَ سيدٌ من إيرادِ مصطلَح "الحاكِمية" حتى عُرفَ به، أوْرَده وهوَ يتحدّثُ عن العقيدةِ الإسلامية، وهوَ يتحدّث عن الحُكم والسلطة والتشريع، وهوَ يتحدّث عن الأنظِمة والمناهِج، وهوَ يتحدّث عن عالمَية الدعوة، وقد أسلفنا الحديثَ عن كلّ ذلك وبقِيَت لنا القضية الأخيرة، فما مجالُها في عالمَية الدعوة ؟

ينطلقُ سيدٌ من نظرتِه الشمولية لمقاصِد القرآنِ الكريم الذي عايَشَه طويلًا تدبُّرًا وتفسيرًا إلى أنَّ (الإسلامَ يعُدّ البشريةَ كلَّها بشريةً واحِدة، ويعُدّ الدين كلَّه دينًا واحِدا ، ويعُدّ المؤمنين كلَّهم أمَّة واحِدة ، ويعُدّ الإسلام هو الصورَة الأخِيرة والنهائية لهذا الدين الواحِد ، فهو يصدِّق ما تقدَّمَه ، ويُهيمِن عليه لأن الصورَة النهائيةَ له : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [1] [2] ، وبحُكم وِصايةِ كتابِ المسلمينَ على الكُتب السابِقة فهُم مكلَّفون بنشْر مبادئ هذا الكتابِ في العالمَين ، من إفرادِ الله سبحانَه بالأُلوهية وبالرُّبوبية وبالحاكِمية وما يتبَعُها من العدل والمُساواة والحرِّية وإزالَة الظُّلم وأسباب الفُرْقة بين الأفراد والجماعات [3] .

وهذه هي الرسالةُ العُليا للدعوة إلى الله على مَدار التاريخ البشريّ التي تهدِف إلى إسلام العِبادِ لربِّ العباد ، وإخراجهم من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ الله وحدَه ، ومن سُلطان العبادِ في حاكِميتِهم وشرائعِهم وقيَمِهم وتقاليدِهم إلى سُلطان الله وحاكِميتِه وشريعتِه، و تلك كانت مهمَّة نبيِّنا ﷺ ومهمَّة الرسُل الكِرام من قبلِه [4] .

هكذا يلخِّص سيدٌ هدفَ الدعوة في أمريْن مهمّيْن ؛ أحدُهما مُنبَنٍ على الثاني ، الأوَّل: إفرادُ الله بالحاكِمية ، والثاني : إسلامُ العبادِ لربِّ العباد وإخراجهم من عبادةِ العبادِ إلى عبادة الله وحدَه .

وسيدٌ في تقريرِه هذا الذي يراهُ الكثيرونَ طُموحا زائِدا وجرْيا وراءَ الخيال والأوْهام! لا يترُك

1- سورة المائدة، الآية 48.

2- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص 168 .

3- ينظر: المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها؛ بتصرّف .

4- ينظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ص46 ،47.

القضيةَ دون تعليل - كعادتِه - ولا يرسِلُها كأشواق وتمنِّيات بعيدَة كما يفعلُ الشعراءُ والهائمون ، وإنما يربطُها بعُرًى وثيقةٍ من الأسبابِ المنطقيةِ والضرورية (فالناسُ محكومون بقوانينَ فطريةٍ من صُنع الله في نشأتِهم ونُموِّهم ، وصحّتِهم ومرضِهم ، وحياتِهم وموتِهم ، كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعِهم وعواقبِ ما يحُلُّ بهم نتيجةً لحركتِهم الاختيارية ذاتِها ، وهم لا يَملكون تغييرَ سنَّة الله في القوانين الكوْنية التي تحكُم هذا الكون وتصرّفه، ومن ثم ينبغي أن يَثُوبوا إلى الإسلام في الجانب الإرادي من حياتِهم فيجعلوا شريعةَ الله هي الحاكِمة في كل شأن من شؤونِ هذه الحياة ، تنسيقًا بين الجانب الإرادي في حياتِهم والجانب الفِطري)[1] .

فهو يؤسِّس لفكرة الحاكِمية بربْطها بالجانب الإرادي الاختياري لحياةِ الإنسان ، والتي بموجبها ينقاد إلى اتِّباع القوانين الإلهية في جميع مَناحي الحياة ، وهو مقتضى التوافُق بين نِظام الكون والحياة الإنسانية في جز ئيْها الإرادي وغير الإرادي ، وإن حدَث غير ذلك فهو التصادُم بين منهج الجانب الإرادي في حياةِ الإنسان والجانب الفطري ، والشذوذ عن الوجود الكوني ، وذلك له تبِعاتُه في التألُّه والهيمَنة والتسلُّط والإكراه وهدْر كرَامة الإنسان .

وقد اقتضت حِكمةُ الله تعالى أن تكونَ الإنسانيةُ منحدِرةً من أصلٍ واحِد ومن أُسرَة واحِدة ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[3] .

ولو تذكَّر الناسُ مصدرَهم ومَنشأَهم لثابُوا إلى الرُّشد، فقد جاءُوا إلى هذا العالَم من العدَم، فهذه الإرادةُ التي جاءتْ بِهِم هي وحدَها التي لها الحقُّ في أن ترسُم لهم مَنبع حياتِهم وأن تُشرِّع لهم أنظمتَهم وقوانينَهم وأن تضعَ لهم قيَمَهم وموازينَهم ، ولو تذكَّروا مصدرَهم لتضاءلتْ في حِسِّهم كل الفروق الطارِئة التي مزَّقت وشائجَ الرحِم الواحِدة ولكانَ كفيلًا باستبعادِ الصراع العُنصري والطبَقي الذي

1- المصدر السابق ، ص47 . وقارِن: أبو الأعلى المودودي، الحُكومة الإسلامية، ص151.

2- سورة الحُجُرات، الآية 13.

3- سورة النساء، الآية 01.

ذاقتْ منه البشريةُ الويلات [1]

فالإنسانُ مكرَّم بأصْل خلقِه بصرْف النظر عن مُعتقدِه ولونِه وجنسِه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [2] فكرامةُ الإنسان ذاتيةٌ أصليةٌ لا تتبعُ جنسَه ولا لونَه ولا بلدَه ولا قومَه ولا عشيرتَه ولا بيتَه ولا عرَضا من هذه الأعْراض الزائلة الرخيصة ؛ إنما تتبعُ كونَه إنسانا كرَّمه الله تعالى وجعلَ له حقوقا فلا يذلّ ولا يُضام ولا يُهان ؛ فلَه أن يُحاسِب حكَّامَه وأُمرَاءَه، وفرضَ على الأمراءِ ألّا يُهينوا أحدًا وألّا تكونَ لهم حقوقٌ زائدةٌ على حقوقِ الجماهيرِ من الناس ، وما الإنسانُ إذا لم تكُن له حقوقُ الإنسان وكرَامةُ الإنسان ؟ [3]

والإسلامُ دينٌ عالَمي يُخاطب الأمَم جميعًا فلا يُفرِّق بين أمّة وأمّة بفارِق الجنس أو اللون أو اللغة ، فكلّ إنسانٍ في الأرض له أن يأوِيَ إلى هذه الأُخُوّة الإنسانية ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [4] ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [5] وهي مَزية ينفرِد بها هذا الدينُ بينَ جميع الديانات، فلم تنقَضِ على الهجرةِ النبويةِ ثلاثةُ قرون حتى كان في عِدادِ المسلمينَ سامِيُّون وآرِيّون وحامِيّون وطورانِيّون، عربٌ وفُرسٌ وتُركٌ وهنديّون وصينيّون وإفريقيّون من السّود والإثيوبيون [6] لأن كتابَه يُخاطبُ الناسَ كافّة ؛ ورسوله محمد ﷺ لم يُبعَث إلى قريشٍ ولا إلى عربِ الجزيرة خاصّةً ، ولا إلى الجنسِ السامي كما جاءَ المسيحُ عليه السلام لهدايةِ خِرَافِ بني إسرائيل الضالَّة ، وإنما بُعثَ إلى البشَر كافّة لتنعَم بخيرِ الإسلام ورحمتِه وهدايتِه ولا يكون ذلك وقْفًا على قوْم أو جنس [7] .

والمِحور الأساسُ الذي تقومُ عليه هذه الرسالةُ الخاتِمة هو عقيدةُ التوحيد "لا إله إلا الله" الفِطرية البسيطة التي تُفيضُ على نفسِ قائلِها والمؤمنِ بها طمأنينةً وارتياحًا، والتي تمتلِك مَخزونا من الأبْعاد

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 573، 574 بتصرّف.

2- سورة الإسراء، الآية 70.

3- ينظر: سيد قطب، هذا الدين، ص80.

4- سورة سبأ، الآية 28.

5- سورة النساء، الآية 79.

6- ينظر: عباس محمود العقاد، الإسلام والحضارة الإنسانية، (بيروت: منشورات المكتبة العصرية ،1973م)، ص182.

7- ينظر: سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص98.

الحضارية والإنسانية القائمِ على احترامِ إنسانيةِ الإنسان وإشاعةِ القيَم الإسلامية العُليا بين البشَر، خاصّةً ونحنُ في ظِل هذه العوْلَمَة المعاصِرة التي انفتحَ العالَم فيها على كلِّ شيء، إذ يمكنُنَا تشكيل البديل الحضاري لمعالَجَة أزمة الإنسانِ المُعاصِر حين نصبحُ قادِرينَ على توْعيةِ العالَم بقيَم الإسلام في العدالة والمُساواة وحقوق الإنسان ؛ وتجاوُز الصورة المشوَّهة التي رسمْنَاها بأيدِينا قبل أن يرسُمَها خصومُنا ، وما الإقبالُ الكبيرُ منهم للتعرُّف على الإسلام والتثقُّف بثقافتِه رغم الواقع الإسلامي المُزرِي إلا شاهِدا على عَظَمة هذا الدين الذاتيَّة وصُلُوحه كبديلٍ حضاريٍّ بعد أن أفلستْ التجاربُ الحضاريةُ في تحقيق إنسانيةِ الإنسان وصَوْن حقوقِه [1] .

ويرى سيدٌ أن المستقبلَ لهذا الدينِ ؛ وقد ألَّف كتابا كامِلا بهذا العُنوان، أطالَ فيه الحديثَ عن الفِصام النكِدِ بين الدينِ والدنيا في العالَم الغربي ؛ وعن صَيْحات الخطَر التي أطلقَها العلماءُ والمُفكرون الغربيون أنفسُهم في إشاراتِهم إلى قُربِ اندثارِ الحضارةِ الماديةِ الغربيةِ ؛ بسبب الخُوَاء في عالَم الروح والإفلاس في عالَم القِيَم، وأبانَ بجَلاء كيف أن الإسلامَ منهاجُ حياة كامِل شامِل ؛ فهو الوحيدُ الذي يمكنُه أن يلبِّيَ حاجاتِ الإنسانيةِ كافّةً ؛ ولا يوجدُ هناك أيُّ دينٍ يقوم مقامَه ؛ وخلُصَ إلى أن المستقبلَ لهذا الدين [2] .

ومن جُملةِ ما استدلَّ به سيد على أن المستقبلَ لهذا الدين، أن عنصرَ القوّة كامنٌ في طبيعتِه وفي بساطتِه و وُضوحِه وشمولِه وملاءمتِه للفِطرةِ البشرية، وكامِنٌ في الاستعلاء عن العبوديةِ للعبادِ بالعبوديةِ لله ربِّ العباد، وفي أن المؤمنينَ به لا يخضعونَ لسُلطان المُتسلِّطين فلا ينهزمونَ نفسيا وروحيا ولو انهزموا مادِّيا، وضربَ لذلك مثلًا بالجزائر ؛ ففيها (قام الإسلامُ - وحدَه - في الضمير، يُكافحُ الغُزاةَ، ويَستعْلي عليهِم، ولا يَحني رأسَه لهم لأنهم أعداؤُه الصليبيون! وبهذا وحدَه بقيَت روحُ المقاوَمة في الجزائر، حتى أذكتْها من جديد الحركةُ الإسلاميةُ التي قام بها عبدُ الحميدِ بن باديس، فأضاءتْ شعلتَها من جديد، وهذه الحقيقةُ التي يُحاوِل أن يطمسَها المغفَّلون والمضلِّلون يعرِفُها الفرنسيون والصليبيون جيِّدا لأنهم صليبيون!، إنهم على يقينٍ أن الإسلامَ باستعلاءِ روحِه على أعدائِه هو الذي

1- ينظر: عمر عبيد حسنة، إشكالية الحاكِمية في العقل المسلم، (بيروت: ط1، المكتب الإسلامي، 2008م)، ص51.

2- ينظر: سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص109 فما بعدَها .

يقفُ في طريقِهم في الجزائر) [1] .

فمعظمُ الشرِّ في العالَمِ ناشئٌ من تسلُّط الإنسانِ على الإنسان ؛ وما جاءت الرسالاتُ إلا لإقرار الحرِّية والعدل والمساواة بين بني البشَر وكنْسِ هؤلاء المتأ لِّهين الذين يُشرِّعون من دون الله شرائعَ وقِيَمًا يتّخِذونَها جُسورا للتسلُّط والاستعباد ؛ وإقرارِ حاكِمية الله وحدَه ليكون البشرُ كلُّهم على قدَم المساواة أمام الله الخالِق الذي له صفات الكَمال المُنزَّه عن الظُّلم والطُّغيان، فالمُسلمون بحُكم رسالتِهم الخاتِمة مكلَّفون بإقرارِ سُلطانِ الله في الأرض ودفْع المُعتدِين على هذا السلطان، الذين يدَّعون أن لهم حقّ التشريع للناس مِن دون الله، فهم يدَّعون بهذا حقَّ الألوهية ويُقيمون من أنفسِهم أرْبابا مع الله أو من دونِ الله ، وذلك بالجهادِ في سبيلِ الله لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا ، لا بإكراهِ الناسِ ليكونوا مُسلِمين ، بل بإتاحَة الفُرصة لهم ليخلصوا من رُبوبية الطواغيتِ ويَملِكوا حريةَ الاختيار [2] .

فسيدٌ يرى أن النظرةَ الإسلاميةَ نظرةٌ ربَّانيةٌ مُحيطُها "العالم" وموضوعُها "الإنسان" فلا تسمحُ لأيِّ دولةٍ أيًّا كان دينُها أن تقيمَ لرعاياها أرْبابا من دونِ الله يدَّعون حقَّ الربوبيةِ فيها ، فأولئك الرعايا ناسٌ من البشَر والأمَّة الإسلامية مكلَّفة أن ترفعَ عنهم الظلمَ وتُمتِّعَهم بالعدْل ، فالجهادُ شرعَ لتحقيقِ فكرة الثورة العالمَية لا إلى الحُكم والسيطرةِ والغُنْم [3] .

وهكذا يُخالفُ سيدٌ الكثيرَ من علماءِ المسلمينَ الذين يرَوْن أن الجهادَ في الإسلام شرِعَ للدفاع عن الحوْزَة والإقليم والوطن ودارِ الإسلام ، ولكن ذلك عند سيد قطب ينافي مبدأً أساسيا من مبادئ هذا الدينِ وهو عالَمِيتُه ، فالرسالة الخاتِمة للبشرية جمعاءَ والرسولُ الخاتِم للناسِ كافَّة بشيرا ونذيرا ، نعَم ، لا إكراهَ في الدينِ ، ولكن أمَّةَ الدعوة مكلَّفةٌ بإبْلاغ هذا الدينِ في الآفاق ، وبإزالةِ كل قوّة طاغِية في الأرض تمنعُ أن تصلَ دعوةُ الإسلام إلى الناسِ كافة .

فهيَ مكلَّفةٌ أن تكونَ في جهادٍ دائم لا ينقطعُ لتحقيقِ كلمةِ الله في الأرضِ ودكِّ قواعدِ الظلمِ

1- المصدر السابق، ص 112

2- ينظر : سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص 170 .

3- ينظر : المصدر نفسه، ص 172.

والاسترقاقِ والاستغلالِ وإرساءِ السلامِ الحقيقيِّ لبَنِي الإنسان، وهذا لا يُنافي أبدًا روحَ السَماحة الإنسانيةِ؛ لأنه سيُنقِّي الأجواءَ من التحاسُد الفرْدي والتطاحُن الطبَقي والتناحُر العُنصري ؛ وسيكفُّ الحروبَ والمجازِر التي تقومُ على تلك الأسباب، وما فِرار الناسِ من الاضطهاداتِ الدينيةِ والعنصريةِ إلى الإسلامِ إلَّا لتلكَ السمَاحة التي تَشيعُ فيه .

المطلب الثاني : جِنسِيةُ المُسلِم عقيدتُه :

لو استعرضَ الدارِس المؤلِّفين ومؤلفاتِهم وذكرَ لكلِّ مؤلِّف القضيةَ الكبرى التي تتمحورُ مؤلفاتُه حولَها وسمَّاها وشخَّصَها ، فسيد قطب قضيتُه الكبرى التي دَنْدَن حولَها في كلِّ ما كتبَ هي العقيدةُ ، وما بحثُنا هذا كلُّه إلا بيانٌ لمنهجِه فيها ومعالجته لقضاياها ومباحِثِها ، وموضوعاتُ العقيدةِ الأساسيةِ في نظرِه هي قضية الأُلوهية والعُبودية وحقيقة الغيْب - ويشمَل الدارَ الآخِرة والقضاءَ والقدَر - وحقيقة الإنسان وحقيقة الكون وحقيقة الكون وحقيقة الحياة [1].

وأهمُّ قضية في حقيقةِ الإنسان عقيدتُه إذ يرى أن الآصِرةَ الحقيقيةَ التي يجب أن يتجمَّع عليها هذا الكائن الإنسانيُّ هي العقيدة، فهي أشرَف ما فيه وأعْلى ما يختصُّ به وأجْلى ما يُفرِده عن باقي الخلائق، فلا يجعل الآصِرة التي تجمَعه هي النسَب أو اللغة أو الأرض أو الجنس أو اللون أو المصالِح أو المصير الأرضي المشترَك، فهذه كلُّها يشترِك فيها الحيوانُ مع الإنسان، وهي أشبَه بأواصِر القطيع واهتماماتِ القطيع من حظيرةٍ ومرعًى وثُغاء يتفاهَم به القطيعُ، أمَّا العقيدةُ فهي المُفسِّرة للإنسانِ وُجودَه ومَنشأَه ومصيرَه، وعلاقتَه بهذا الكون من حولِه، وعلاقتَه بالكائن الأعْلى الخالِق له ولهذا الكون، وهذا كلُّه يتعلّق بروحِه وإدراكِه المميِّز له عن سائر الخلائق، وهو ما يقرِّر إنسانيتَه في أعْلى مراتبِها [2].

فالإسلامُ جاء ليرفَعَ هذا الكائنَ إلى أعْلى ويخلِّصه من وشائج الأرضِ والطينِ ومن روابطِ اللحْم والدَّم ويسمُوَ به إلى أعْلى من ذلك ؛ إلى رابطةِ العقيدةِ التي تجعلُه عضوًا في الأمَّة المسلِمة، فتتّصل

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1789.

2- ينظر: المصدر نفسه، مج3، ص 1561.

الوشيجةُ بينَه وبين إخوتِه في الله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [1] ولو لم يجمَعْهم نسبٌ ولا صِهر، وعلى هذا تجمَّع الرعيلُ الأوَّل من الصحابة الكِرام واجتمعَ أبو بكر العرَبي وبلال الحبَشي وصُهيب الرُّومي وسَلمان الفارِسي، جنسيتُهم جميعًا العقيدةُ لا الوطن.

وقد راعَى القرآنُ بناءَ هذه العقيدة في النفوس وهو يتنزَّل، فلم يقضِ ثلاثةَ عشر عامًا كاملةً في مكةَ ـ وهو يركِّز عليها ـ سُدًى، فلو أرادَ الله تعالى لأنزلَه جُملةً واحِدةً ثم تركَ أصحابَه يدرُسونَه ثلاثةَ عشر عامًا أو أكثر أو أقلّ حتى يستوعِبوا ما فيه ؛ ولكنه تعالى كان يريدُ بناءَ هذه النفوس بالعقيدةِ وبناءَ العقيدةِ بالنفوس، فتكون العقيدة هي واقع الجماعة الفِعلي ويكونَ واقع الجماعة الحرَكي الفِعلي هو صورَة العقيدة، فلم يكُن بدٌّ أن يستغرقَ هذا البناءُ المدى الذي يستغرقُه بناءُ النفوس والجماعة حتى إذا نضجَ التكوينُ العقيديُّ كانت الجماعة هي المَظهر الواقِعي لهذا النضوج [2].

وينطلقُ سيدٌ في إبراز دوْر العقيدةِ المَركزي في حياةِ الإنسانِ من تكريمِ الله له وإنعامِه عليه وتفضيلِه على مَن خلقَ تفضيلا، ومِن أوْضحِ مظاهِر التكريمِ الإلهيِّ له وأبلَغِها وأظهَرِها دلالةً على حقوقِه وحريتِه (احترام إرادتِه وفكرِه ومشاعرِه، وترك أمرِه لنفسِه فيما يختصّ بالهُدى والضَّلال في الاعتقاد وتحميلِه تبِعةَ عملِه وحسابَ نفسِه، وهذه أخصّ خصائص التحرُّر الإنساني) [3] .

فالأمرُ أمرُ قناعةٍ بعد بَيان وإدراك وليس إكراهًا وغصْبا وإجبارا، كما فعلت الدولةُ الرومانية المسيحيةُ التي فرضتْ بالحديدِ والنارِ وبالتعذيبِ والقمْع الدخولَ في المسيحية، بل حتى المسيحيون أنفسُهم الذين خالَفوا مذهبَ الدولة في بعضِ الاعتقادِ بطبيعةِ المسيح اضطهدَتْهم وسامَتْهم القمعَ والقهرَ والعذاب، أمّا دينُنا فحُريَّة الاعتقاد فيه (أوَّل حقوق الإنسان التي يثبُت له بها وصْفُ "إنسان"، فالذي يسلُب إنسانًا حريةَ الاعتقاد، إنما يسلبُه حريتَه ابتداءً، ومع حريةِ الاعتقادِ حرية الدعوة للعقيدة، والأمْن من الأذى والفِتنة، وإلا فهي حريةٌ بالاسم لا مدلولَ لها في واقِع الحياة) [4].

وهذه الحرية التي أكَّد عليها سيد قطب وجعلَها أوَّل الحقوق التي يكونُ بها الإنسانُ إنسانا هي

1- سورة الحجرات، الآية 10.

2- ينظر: المصدر السابق، مج2، ص 1013 .

3- المصدر نفسه، مج1، ص 291.

4- المصدر نفسُه، الصفحة نفسُها.

التي أطلقتْ إرادتَه من القيود وافتكَّت عزيمتَه من أَسْرِ الوَسائِط والشُّفعاء والمُتكهِّنة والعُرَفاء والزاعِمين أنهم وُسَطاء بينَه وبين الله، وبها صارَ عبدًا لله خاصّة، حُرًّا من العُبودية لكلِّ ما سِواه وارتفع بذلك التفاوُتُ العنصري والطبقي فلا تفاضُل إلا بالأعمالِ الصالحِة والتقوى [1].

وإذا كان التفاضُل بالتقوى والعملِ الصالح، والرابطة الجامِعة بين الناس هي العقيدة، فلا قيمةَ للروابط الأخرى إن لم تنبَنِ على هذه العقيدة، بل لا قيمةَ للأبُوَّة ولا البنُوَّة ولا الزوجية ولا الأهْل ولا العشِيرَة ولا الوطن، وفيها كلُّها نماذِج مقصوصة في القرآن الكريم، فهذا إبراهيمُ الخليل عليه السلام يعتزِل أباه وأهلَه حين يرى منهم الإصرارَ على الضلال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [2].

وهذا نوحٌ عليه السلام يفاصِل ابنَه غير الصالِح: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [3]، وفي الزوجيةِ نموذجُ امرأةِ نوح وامرأة لوط ؛ يُفرَّق بينهما وبين زوجَيْهما حين تفترِق العقيدة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [4].

وفي الأهلِ والعشِيرةِ والوطن نموذج الفِتية أصحاب الكهف حين اعتزَلوا قومَهم وتركوا وطنَهم وفرُّوا بعقيدتِهم: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

1- ينظر: محمد عبده، رسالة التوحيد، ص 138، 139.

2- سورة مريم، الآية 48.

3- سورة هود، الآيات: 45 - 47.

4- سورة التحريم، الآية 10.

ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [1].

وهكذا يفترِق الأبُ والابنُ ويفترِق الابنُ والأبُ ويفترِق الأزواجُ ويفترِق الأهلُ والعشيرةُ ويُترَك الوطنُ حين تفترِقُ العقيدةُ وتنبَتُّ تلك الوشيجةُ الأولى والآصِرة التي رفعَ الله من شأنِها فكانت فوقَ الأهلِ والأولادِ والأوطانِ، (فوطنُ المسلِم الذي يحِنُّ إليه ويدفَع عنه ليس قِطعةَ أرض، وجنسية المسلِم التي يُعرَف بها ليست جنسيةَ حُكم، وجنسية المسلِم التي يأوي إليها ويدفَع عنها ليست قَرَابة دَم، وراية المسلِم التي يعتزُّ بها ويستشهد تحتَها ليست رايةَ قوم، وانتصار المسلِم الذي يهْفُو إليه ويشكُر الله عليه ليس غلَبَة جيش، إنما هو كما قالَ اللهُ عنه ﴿ إذا جاءَ نصرُ الله والفتحُ ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ الله أفواجًا فسبِّح بحمْدِ ربكَ واستغفِرْهُ إنهُ كانَ توَّابا ﴾ ، إنه النصرُ تحت رايةِ العقيدةِ دون سائرِ الرايات) [2]، وإذا تغلْغَلَت في القلوبِ واتخذَها المسلمُ له جنسيةً فإنها تأتي بالأعاجيبِ.

يتساءلُ سيد عن مصدَر القوّة التي يتزوّدُ بها المكافِحونَ في كفاحِهم، أَمِنْ تقديرِ وتكريمِ الشعب ؟ ويجيبُ: إنه سنَدٌ غيرُ مَضمون، فالشعوبُ أحيانا تكونُ في درجة من الوَعْي لا تسمحُ لها بالتقديرِ بل أحيانا تُحطِّم مَن يريدونَ لها الخيْر وتصفِّق للمهرِّجين ، أَمِنَ الثقةِ بالنفسِ والاعتِداد بالذات ؟ هو أيضا سندٌ غيرُ مضمون، فالنفس تنهارُ أحيانا أمامَ الإغراءِ وأمامَ التهديد. فلابدَّ إذن من سنَدٍ ثابِتٍ ومِن الارتكانِ إلى قوّة أكبر من قِوى الأرض ليقفَ المكافح ون أمامَ التهديد، ولابدَّ من جزاءٍ أكبرَ من مطامِع الأرضِ كلِّها ليقفَ المكافحون أمامَ الإغراء، إنها العقيدةُ في الله وليس هناك غيرُها [3].

فمِن وشيجةِ العقيدة تتفرَّع كل الوشائج الأُخرى للإنسان، فالأُسْرة ابتداءً تقومُ عليها، وعلاقة النسَب من ثم تستمدّ منها وكذلك وشيجة الأمَّة (فالأمَّة في الإص طلاح الإسلامي هي جماعةُ المؤمنين بهذه العقيدة في كلِّ أرضٍ وفي كلِّ زمانٍ كذلك، وأجيالُ المؤمنين في جميع الأرَضين هي التي تؤلفُ سُلالةَ الأمَّة المسلِمة، حيث لا تقوم وشيجة النسَب والقُرب، ولا وشيجة القوم والجِنس، ولا وشيجة

1- سورة الكهف، الآيات: 13 - 16.

2- سيد قطب، معالِم في الطريق، ص .144

3- ينظر: سيد قطب، دراسات إسلامية، ص146.

الأرض والوطن بذاتِها رابطةً تقوم عليها الأمَّةُ إذا انعدمتْ وشيجةُ العقيدة) [1].

وقد فرَّق سيد بين الوَلاء المَقصور على الأمَّة المسلمة فيما بينَها وبين البرِّ والعدلِ مع الآخَرين وأكَّد على ذلك كي لا تلتبِسَ المَفاهيمُ، فالوَلاء يقومُ على العقيدةِ وحدَها ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [2] وهو مقصورٌ على الأمَّة المسلِمة فقط.

وحتى داخلَ الأمَّة المسلِمة ينقطعُ هذا الولاءُ إذا بقيَ جماعةٌ من المسلمينَ في دارِ الحرب وهُم قادِرونَ على الَّلحاقِ بالأمَّة المسلِمة في دارِ الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ﴾ [3].

أمَّا توجيهاتُ الإسلام للرَّحمة العامَّة للناس والبِرِّ بهم جميعا والعدل حتى مع الشنَآن فليس بالوَلاء الذي يخصُّ العقيدةَ، وإنما الأمَّة الإسلاميةُ مكلَّفةٌ بالرحمةِ بالناسِ كافةً والبرِّ بهم ما لم يحارِبوا الله ورسولَه؛ والعدل لهم حتى مع الشنَآن وإقامة القِسط بين الناس في كلِّ الأحوال ومُحاولة هدايتِهم إلى صراطِ الله العزيزِ الحَميد [4].

فالمسلِم لا يُوالي الكافرَ والمشرِكَ ولا يتزوَّج من كافرةٍ أو مشركةٍ ؛ ولا يعني هذا قطع المُعاملات التجارية والتعامُل اليومي والروابط الحياتية والإنسانية، لأن الولاءَ هو النُّصْرَة، والمسلِم لا ينصُر كافرًا ولا مشرِكا، بل ولا ينصرُ مَن رضِيَ بالإقامَة في دارِ الحربِ والكفرِ من المسلِمين - كما أسلَفنا -.

ولقد كان غريبا على البشرية كلِّها في زمان النبي ﷺ أن يتجمَّع الناسُ على عقيدةٍ —أيْ على مذهبٍ وفِكرةٍ - وألَّا يتجمَّعوا على أرضٍ أو جنس أو لون أو تِجارة، وكانت تلك "المَذهبية" بتعبيرِ

1- سيد قطب، مقوّمات التصوّر الإسلامي، ص374.

2- سورة المجادلة، الآية 22.

3- سورة الأنفال، الآية 72.

4- ينظر: سيد قطب، مقوّمات التصور الإسلامي، ص374 بتصرف.

العصرِ الحاضِر مسألةً غريبةً جِدا يومَ جاءَ بها الإسلامُ، وهاهيَ البشريةُ الآن تستسِيغُها، فتتجمَّع أوطانٌ وأقوامٌ ولغاتٌ وأجناسٌ وألوانٌ شتّى على مذهبٍ في الاقتصادِ أو الاجتماع، وتدرِك أن رابطةَ التجمُّع يمكن أن تكونَ عقيدةً ويمكن أن تكون فكرةً ويمكن أن تكون رابطةً معنوية [1].

وهكذا يقرِّر سيد في وُضوح وتحديد وحزْم دورَ العقيدة في حياةِ المسلِم رافِعًا اللبْس الذي يَغْشى بعضَ المَفاهيم الإسلامية، متجاوِزًا الشروحَ التقليديةَ لِمثلِ هذه القضايا الكُبرى، رابِطًا بين القرآن والواقعِ والتاريخِ الإسلامي ليستخلِصَ هذا الدورَ الكبيرَ للعقيدةِ ويجعلَه جنسيةً للمسلِم يُعرَف بها وتكون هذه العقيدة مجسَّدَةً حيَّة في حياتِه.

1- ينظر: سيد قطب، هذا الدين، ص86، 87.

المطلب الثالث: المجتمع الإسلامي:

اعتنَى سيد قطب كثيرا بتكوينِ الفردِ المسلِم كخلية حيَّة من خلايا جِسم المُجتمع ؛ إذا صلحَت صلَح وإذا فسَدتْ فسدَ، فالمجتمع كالكائن الحيِّ: يحتلُّ أفرادُه في تكوينِه الأهميةَ التي تحتلُّها أجزاءُ أيِّ كائنٍ حيٍّ في كيانِه، ويقوم أفرادُه بنفسِ الوظائفِ التي تقومُ بها أجزاءُ الكائنِ الحيِّ على اختلافِها لتضمَن له مقوِّمات الحياة ووسائلَ الوُجود والرُّقيّ نحو حياةٍ أفضلَ على أسُس العقيدة الحقَّة والمبادئ العادِلة والعدالة الاجتماعية.

وقد ألَّف سيد في هذا كُتبا قائمةً بذاتها كـ "نحو مجتمع إسلامي " و "العدالة الاجتماعية في الإسلام" و "والسلَام العالَمي والإسلام " كما أسهبَ في الحديثِ عن المجتمع الإسلامي في "الظلال" وهو يفسرُ الآياتِ التي بشأنِه، وإذا كان يجعلُ من العقيدةِ جنسيةً للفردِ المسلِم فبالضرورةِ يجعلُها أيضا أُسًّا لهذا المجتمع المُكوَّن من هؤلاء الأفراد، فالعقيدةُ هي المنهجُ الذي يتخذُه المجتمعُ في حياتِه كلِّها، والشريعة الإسلامية هي المُحكَّمة في حياتِه كل ها متطلِّبا عندها حُلولا لمشكلاته، مستسلِما ابتداءً لأحكامِها، ليست له الخِيَرَة بعدَ قضاءِ الله [1].

ويقابل هذا ما يُسمِّيه "بالمجتمع الجاهلي " وهو (كل مُجتمع غير المُجتمَع الإسلامي وإذا أردنا التحديدَ المَوضوعي قُلنا: إنه هو كل مُجتمع لا يُخلِص عبوديتَه لله وحدَه، هذه العبودية متمثّلةً في التصوُّر الاعتقادي، وفي الشعائر التعبُّدية وفي الشرائع القانونية) [2] وأدرجَ تحتَه المجتمعات الشيوعيةَ بإلْحادِها، والوثنيةَ باعتقادِها في غيرِ الله، واليهوديةَ والنصرانيةَ باعتقادِها المُحرَّف، والتي تزعُم أنها مسلِمة وهي تدينُ بحاكِميةِ غيرِ الله أو تفْصِل علاقتَها بالدين أصْلا كالعِلمانية، أو تُنكِر الغيب، أو تشرِّع لنفسِها وتزعُم أنه شرْع الله [3].

فأين هو المجتمعُ الإسلامي الذي ينشُدُه سيد قطب؟ وأين هوَ مِن هذه المجتمعاتِ الإسلامية القائمةِ اليوم؛ وبعضُها عِلماني والآخَر يحكُم بالشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية فقط وبالقوانين الغربيةِ فيما عداها ؟ والجوابُ عندَه أن هذا المجتمعَ المنشود لم يقُم بعدُ كامِلا كما أرادَ اللهُ عز وجل ؛ وإنما

1- ينظر: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ص195.

2- سيد قطب، معالِم في الطريق، ص88، 89.

3- ينظر: المصدر نفسُه، ص 89 – 93.

هناك "طلائع بعث إسلامي" كما يسمِّيها سيد بعد أن كانَ مجتمَعا إسلاميا تنبثقُ نُظُمه وأخلاقُه وسياستُه واقتصادُه من التصوُّر الاعتقادي الإسلامي.

ولكن بُذلت جهودٌ جبارة منذ قرون من الصليبية العالَمِية والصهيونية العالَمِية لحصْر كل ذلك في دائرة الاعتقادِ الوِجداني والشعائر التعبُّدية ؛ ونالت انتصارَها أخيرًا على يدِ "أتاتورك" في إلْغاءِ الخِلافة الإسلامية وفصْل الدين عن الدولة وإعلانِ الدولة العِلمانية، ثم تحوَّلت هذه الجهودُ بعدَها إلى كفِّ هذا الدين عن الوُجود أصْلا بكَيْل الضرَبَات الوحشية لطلائِع البعْثِ الإسلامي في كلِّ مكان.

*** ضرورةُ المجتمَع الإسلامي وحتمِيةُ قِيامِه:**

يرى سيدٌ أن إعادةَ بعثِ هذا المجتمع الإسلامي القائمةِ نُظمُه وأخلاقُه وسياستُه واقتصادُه على التصوُّر الاعتقادي الإسلامي ضرورةٌ إنسانيةٌ وحتميةٌ فطريةٌ ؛ ولا تملِكُ الصهيونيةُ الماكِرة والصليبيةُ المُستعمِرة ولا الأجهزة المُسلَّطة في كل زاوية من زوايا الأرض ولا جهلُ أهلِ الإسلامِ بالإسلام وبَلَادَتُهم وانغِمارُهم في التيار الجارِف، مِن إعاقةِ هذا الانبعاث، فهو ضرورةٌ إنسانية لإنقاذِ الإنسانية المهدَّدَة بالدمَار والبوار، وحتميةٌ لأنه الترجمةُ العمَليةُ للمنهجِ الإلهي الذي لا بد أن يغلِب، وإن كان الطريق إلى إقامتِه طويلا وشاقًّا ولكن لا بد من ميلادٍ ولا بد للميلادِ من مَخاضٍ ولا بد للمخاضِ من آلام [1].

ويستعرِض سيد الأسبابَ والأَمَارات التي تدْعو إلى ضرورةِ قيام هذا المُجتمع الإسلامي بعرْض مُسهب للروحانية المسيحية الخيالية ومقابلِها المادّية الشيوعية الجامِدة ؛ اللتان تكتسِحان الأرض وكلاهما لا يستجيبُ لنداءِ الفِطرة الإنسانية، ولا بدّ للبشريةِ أن تعودَ إلى نوع من الاعتدالِ والتوازُن في فكرةٍ تحتضنُ الروحية الصافيةَ الصادقةَ وتحتضن الواقعيةَ الماديةَ المعتدِلة، وتصوغ منها عقيدةً للضمير ونظامًا للحياة [1] ولا يشكُّ سيدٌ في أن قيادةَ البشرية صائرةٌ إلى الإسلام (لأنه لو لم يكُن موجودا لبحثَتْ عنه الإنسانيةُ ولابتدَعَتْ نظامًا يشبِهُهُ... وتفتشُ البشريةُ بطبْعِها عن زادٍ جديدٍ ينقِذُها من

1- ينظر: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ص 188، 189. 1- ينظر: سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص 32.

الخَوَاء الرُّوحي الذي لا تطيقُه فِطرتُها إلّا إلى أمَدٍ مَحدود [1].

فقيامُ مثلِ هذا المجتمع لا مفرَّ منه عن د سيد، أمَّا أوانُ قيامِه فع لمُه عند الله، فإن لم يقُم اليوم فسيقوم غدًا، وإن لم يقُم هنا فسيقومُ هناك، كما قام فِعلًا في عهدِ النبي ﷺ وامتدَّ إلى الصدْر الأوَّل، وكان قمَّة سامِقةً في روحِه ووِجْهتِه وحقيقتِه الإيمانية وتصوُّرِه للحياة، ولغايةِ وجودِه الإنساني، ولمركزِ الإنسانِ في هذا الكون، ولخصائصِه وحقوقِه وواجباتِه، وقمَّةً سامِقةً في تناسُقِه وتماسُكِه [2].

أمَّا الشكلُ والصورةُ والأوضاعُ التي يكونُ عليها هذا المجتمعُ، فسيدٌ له رأيٌ خاصٌّ ربّما خالف به كثيرًا من علماءِ المسلمين؛ وهو نظرَتُه إلى الفقهِ الإسلامي؛ إلى هذه الثروةِ الضخمةِ من التراث الفقهي وتفصيلاتِها واستفتاءِ الإسلام في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في هذه المجتمعاتِ القائمةِ اليوم والتي لا تتخِذُ الشريعةَ الإسلاميةَ دستورًا في كل شؤونِها مقتصرةً على الأحوالِ الشخصيةِ منها فقط، فما موقفُ سيد من هؤلاء الذين يطلُبون الحلولَ من الشريعةِ الإسلامية لكلِّ المشكِلات التي تعُجُّ بها هذه المجتمعاتُ ؟

الفقهُ الإسلامي:

يرى سيدٌ أن الفقهَ الإسلامي وليد الحرَكة الإسلامية، فقد وُجد الدينُ أوَّلًا ثم وُجدَ الفقهُ، وليس العكسُ هو الصحيح، فحين كان المجتمعُ يدين لله وحدَه ورفضَ أن تكونَ شرائعُ البشَر هي التي تحكُم أي جانب من جوانبِ الحياة فيه؛ وزاوَلَ الحياةَ فِعلا وفقَ المبادئ الكُلِّية للشريعة، جدَّتْ له أقضِيةٌ فرعية بتجدُّد الحالات الواقعية في حياتِه، وهنا بدأ استنباطُ الأحكامِ الفقهيةِ وبدأ نمُوُّ الفقهِ الإسلامي، فالحرَكة بهذا الدين هي التي أنشأتْ الفقهَ وحقّقتْ نموَّه، فلم يكُن أوراقا بارِدةً بعيدا عن حرارةِ الحياة الواقعية، ويخلُص سيد إلى أن مثلَ هذا المجتمع اليومَ غيرُ قائمٍ وغيرُ موجودٍ فكيف يزعُم المسلِم الذي لا يعترِف ابتداءً بأن هذا الفقه هو شريعته التي يعيشُ بها؛ تنميةَ الفقه أو تجديدَه أو تطويرَه، يعتبرُ سيدٌ تلك المحاوَلة هزلا لا يليقُ بجِدِّية هذا الدينِ في مجتمعٍ لا يُقِيم حياتَه على حاكِمية الله وشريعةِ الله !.

أمَّا حين يوجَد هذا المجتمعُ الذي يتحاكَم إلى شريعةِ الله في كلِّ شؤونِه ؛ فسينشَأ فقهٌ إسلاميٌّ

1- المصدر السابق، ص 33.

2- ينظر: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ص192.

مفصَّل على قدِّ هذا المجتمع وليس جاهِزا من قبلُ، وما الأحكام الجاهزةُ في بُطون الكُتب إلا انعكاسٌ لحالاتٍ معيَّنة في أثناء جَرَيان الحياة الإسلامية على أساسِ تحكيم شريعةِ الله فِعلًا، ولكنها لا تصلُح لهذه المجتمعاتِ القائمةِ اليوم إلا إذا قرَّرَت التحاكُم إلى شريعة الله [1].

فالفقهُ عند سيد ليس بمجموعةِ نظريات تتعامَل مع الفُروض وإنما هو منهجٌ يتعامَل مع الواقع الفِعلي، فلابدّ من قيام مجتمعٍ مسلِم تملأ قلوبَ أفرادِه العقيدةُ الصحيحةُ الباعِثة على العمَل، يُخلصون عبوديتَهم لله ويتحرَّرون من كل سلطان سواه ويقبَلون شرْع الله، حينها فقط يبدأُ عرْض أسُس النظام الإسلامي وسنّ التشريعات التي تقتضيه حياتُه الواقعية، هكذا يُرتِّب سيد خطواتِ المنهجِ الإسلامي من القاعدة إلى القمَّة.

وقد اتهمَ سيدًا بعضُ الفقهاء [2] بأنه يسعَى إلى القضاءِ على الفقهِ وإلى إهدارِ الجهود الكبرى التي بذلَها الفقهاءُ على مَدار القرون [3]، وما دَرَوْا أن تفريقَ سيد بين فقهِ الحركة الذي ينشأُ من واقعِ حياة المجتمع المسلِم وفقهِ الأوراق المستمَدِّ من بُطون الكُتب والذي كُتبَ لواقعٍ خاصٍّ مضَى ولحالاتٍ معيَّنةٍ يوافقُها، هذا كلُّه لا يمَسُّ الشعائرَ التعبُّدية وإنما عنَى المَباحثَ المتعلِّقةَ بالأنظِمة والمناهِج والتشريعات المُعامَلاتية التي يجب أن تنبثقَ من واقعٍ مُعاش يستمدُّ من الأصول الكُبرى للشريعة الإسلامية ولا يرضَى غيرَها !

وسيدٌ نفسُه ينفِي تلك التهمَةَ عن نفسِه بقولِه: (إن هذه ليست دعوةً لإهمالِ الفقهِ الإسلامي، وإهدارِ الجهودِ الضخمةِ العظيمةِ التي بذلَها الأئمةُ الكبار، والتي تحوِي من أصولِ الصناعةِ التشريعيةِ ومن نتاجِ الأحكامِ الأصلية، ما يفوقُ - في نواحٍ كثيرة - كل ما أنتجَه المُشرِّعون في أنحاءِ العالَم ؛ ولكنَّها فقط بيانٌ للمنهج الذي قد يأخُذ به المجتمعُ الإسلامي الذي ينشَأ - عندَما ينشَأ - وبيانٌ لطبيعة المنهج الإسلامي في إنشاءِ الأحكام الفقهية، إنشائِها في مواجهةِ الواقع الفِعلي للمجتمع الذي يعترِفُ ابتداءً

1- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج3، ص 1735، 1736؛ بتصرف.

2- كالأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي فيما نشرَه بمجلة "الوعي الإسلامي" الكويتية . ينظر: محمد توفيق بركات، سيد قطب "حياتُه منهجُه في التغيير، النقدُ الموجَّه إليه"، ص166.

3- المرجع نفسُه، الصفحة نفسُها.

بحاكِمية الإسلام) [1].

فهو إذن لا يُلغي الأحكامَ الشرعية ولا يطرَح التراثَ الفقهي الإسلامي جُملةً، وإنما يدْعو الفقهاءَ إلى العملِ على استعادَة التحاكُم إلى شريعةِ الله لإقامَة المجتمع المسلِم ؛ ثم بعدَها تكونُ لهذه الأحكام الفقهيةِ متعلّقاتٌ بالواقع، أمَّا إذا كان الواقعُ بعيدًا عن شرْع الله فما جدْوَى الاستفتاءِ عن أحْكام شريعة الله في أرضٍ لا تُقامُ فيها شريعةُ الله (فما استفتاءُ المُستفتي؟ وما فَتوى المُفتي؟ إنهما كِليْهما يرخِصان شريعة الله ويستهترِان بها شاعِرَيْن أو غيرَ شاعِرَيْن سواء، ومثله تلك الدراساتُ النظريةُ المجرَّدة لفقه الفروع وأحكامِه في الجوانب غيرِ المطبَّقة، إنها دراسةٌ للتلْهية) [2] لأن فقهَ هذا الدين ـ حسب سيد ـ لا ينشأُ في فراغ ولا يعمَل في فراغ، والمجتمعُ المسلِم هو الذي صنعَ هذا الفقهَ وليس الفقهُ هو الذي صنع المجتمع، فالمجتمع المسلم وُجِد قبل أن توجَد الشعائرُ وقبل أن توجَد المَساجِد، إنما كانت عبادتُهم لله ممثّلةً في الدينونة له وحدَه، بعدها تنزَّلت الشرائع، وحين واجَهوا الحاجات الحقيقية لحياتِهم استنبطوا بقيةَ أحكام الفقه إلى جانب ما ورَد بنصِّه في الكتاب والسُّنة [3].

فالشريعةُ الإسلامية هي المنهاجُ الإلهي التي يتمُّ في ظلِّها تحقيق المجتمع الإسلامي، والفقه الإسلامي هي الحاجاتُ المتجدِّدة في هذا المجتمع داخلَ إطار هذه الشريعةِ ومبادئِها [4]، عدَّد سيدٌ خصائصَ هذه الشريعة التي تكفَل إنشاءَ هذا المجتمع القابِل للنموّ والتجدُّد والقادِر على تحقيق المَطالِب البشرية المتعدِّدة، ولخَّصها في أربع نقاطٍ أساسية:

1 ـ إنها ـ وهيَ من صُنع الله ـ فقد جاءتْ موافِقَة للمقوِّمات البشرية المشترَكة العامَّة وموافِقةً لأصول الفِطرة البشرية.

2 ـ جاءت في صُورة مبادئَ كلِّية عامَّة تقبلُ التفريعَ والتطبيقَ في الجزئياتِ المتجدِّدة والأحوال المتغيِّرة.

3 ـ شاملة لكل أصولِ الحياة الإنسانية، فردا وجماعةً ودولةً وعلاقات دولية.

1- سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ص193، 194.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج2، 988.

3- ينظر: المصدر نفسه، مج4، 2013.

4- ينظر: سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص 64، 65.

4 ـ تقدُّمية في مبادئِها الاجتماعية فاندفعتْ بالبشريةِ إلى الأمام وما تزالُ قادِرةً على إعادَة هذا الدوْر [1].

وقد جاهدَ سيد طويلا في إعادَة هذا الدوْر للمجتمع الإسلامي وهو يعمَل ضمنَ الإخوان المسلمين بكتاباتِه وتوعيتِه ؛ وبذلَ حُشَاشَةَ نفسِه أخيرًا فداءً لهذا الدين، مؤمِنا بحتميةِ قيام هذا المجتمع الإسلامي مِن جديد وإن لم يُكتَب له أن يشهَد ميلادَه، فيكفيهِ أنه حاوَل وبذَر البُذور وليس عليه قطْف الثمار، فالطريقُ طويلٌ شاقٌّ شائكٌ واستعجالُ النتائج ليس مِن طبيعةِ الدعَوَات، فالنتائجُ مضمونةٌ لأن كل شيء يؤيدُها، التاريخُ والسُّنَن الكونية والفِطرة الإنسانية ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [2].

1- ينظر: المصدر السابق، ص 68، 69، بتصرف.

2- سورة يوسف، الآية 21.

المطلب الرابع: الأثرُ الحضاريُّ للعقيدةِ الإسلامية:

أعلن سيدٌ مرّةً عن كتابٍ له تحت الطبْع بعنوان "نحوَ مجتمَع إسلامي مُتحضِّر " ثم عادَ وأعلنَ عنه مرةً أُخرى بحذْف كلِمة "مُتحضِّر" مكتفِيًا بجعْل العنوان "نحوَ مجتمع إسلامي " معتبِرا أن كلمةَ "متحضِّر" لغْوٌ لا يضيفُ شيئا جديدا ؛ فالمجتمع المسلِم هو المجتمعُ المتحضِّر، لأنه حين تكونُ الحاكِميةُ العُليا في مجتمع لله وحدَه والشريعة الإسلامية هي المهيمِنةُ عليهِ، يتحرَّر البشَر حينئذ تحرُّرا كاملا وحقيقيا من العُبودية للبشَر، وتكون تلك الحضارَة الإنسانية التي تحفَظ كرَامة الإنسان وحريةَ الإنسان اللتان هما أخصُّ خصائصِ الإنسان [1].

فسيد يرى أن الإسلامَ هو الحضارةُ وهو رأيٌ انفردَ به وحشَد له من الأدلةِ ما يؤيدُ ما ذهبَ إليه، فالذين كَتبوا في الحضارةِ والتحضُّر ؛ جميعُهم يجعلُ الدينَ عامِلا من عوامِل الحضارةِ ولَبِنة من لَبِنات صرْح الحضارة، أمّا سيدٌ فيُولي اهتمامَه للخصائصِ العُليا للإنسان وهي الروح والفِكر والتي لا يكون الإنسانُ إنسانًا إلا بِها، وبالتالي (فالمجتمعُ الذي يتجمَّع فيه الناسُ على أمرٍ يتعلَّق بإرادتِهم الحرَّة واختيارِهم الذاتي هو المجتمعُ المتحضِّر، أمَّا المجتمعُ الذي يتجمَّع فيه الناسُ على أمرٍ خارج إرادتِهم الإنسانية فهو المجتمَع المتخلِّف، أو بالمصطلَح الإسلامي هو المجتمعُ الجاهِلي) [2] .

وهكذا فمصطلَح الجاهِلية يصبغُ المجتمعاتِ ولو بلغتْ الذروةَ في الحضارة المادّية إذا لم تستنِدْ في نُظُمِها وتشريعاتِها إلى القانون الإلَهي الذي يضمَن إنسانيةَ الإنسان، وحديثُه عنها بهاتِه الصيغةِ لم يأتِ من فراغ فقد خَبَرَ هذه الجاهلِيةَ وعاشَ في مَعْمَعَانِها رحلةَ ضياعٍ فكريٍّ حائرًا تائهًا قلِقًا شارِدًا لا يعرفُ سرَّ وُجودِه ولا وظيفةَ الكونِ من حولِه ولا الحِكمةَ من خلْقِ الكونِ والإنسانِ ولا من الحياةِ، ظهرَ ذلكَ كلُّه في ديوانِه "الشاطئ المجهول" واعتبَرَه أثرًا من آثارِ جاهليتِه ووَدَّ في أُخرَياتِ أيامِه لو جمعَ نُسَخَه من كل بِقاع الأرض وأتلَفَها [3].

ثم رحلَ إلى أمريكا حيث تمورُ هذه الحضارةُ المادّيةُ مَوْرًا وكتبَ عمَّا رآهُ فيها ؛ كاشِفًا زيفَها في

1- ينظر: سيد قطب، معالِم في الطريق، ص106، 108.

2- المصدر نفسه، ص109.

3- ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص220، 221.

نُظُمها ومناهجِها وتصوُّراتِها في مقالاتٍ نشرَها [1] يسنَدُه في ذلك اطِّلاعُه الواسِع وثقافتُه العرِيضة التي كوَّنها (أربعينَ سَنةً كاملةً كان عملُه الأوَّل فيها هو القراءةُ والاطِّلاع في مُعظَم حقولِ المعرِفة الإنسانية، ما هوَ مِن تخصُّصِه وما هوَ مِن هواياتِه، ثم عادَ إلى مصادِر عقيدتِه وتصوُّرِه، فإذا هو يجدُ كلَّ ما قرَأَه ضئيلًا ضئيلًا إلى جانبِ ذلك الرصيدِ الضخْم – وما كان يمكنُ أن يكونَ إلّا كذلك – وما هو بنادِم على ما قضَى فيه أربعينَ سنةً من عُمرِه ؛ فإنما عرَفَ الجاهليةَ على حقيقتِها وعلى انحرافِها وعلى ضآلتِها وعلى قزامتِها وعلى جَعْجَعَتِها وانتفاشِها وعلى غرورِها وادِّعائِها) [2].

فلا جَرَم بعد معايَشةِ سيد لهذه الحضارَة الجاهلية فكريًّا وهو في وطنِه وميدانيًّا وهو في أمريكا، وتعرَّف على مبادئِها وتصوُّراتِها وأفكارِها عن كَثب، ثم غرْبَل كل ذلك بميزانِ الإسلام ؛ أن يخرُج بنتائج تشفُّ عن هذه المعايَشة والاختبار، فإذا كان الإسلام يجعلُ لإنسانيةِ الإنسان القيمةَ العُليا في المجتمع، ويجعلُ الخصائصَ الإنسانيةَ فيه موْضع التكريم والاعتبار، فهذا هو وحدَه المجتمع المتحضِّر من المنظور الإسلامي (أمَّا حين تكونُ المادَّة في أي صورَة هي القيمة العُليا سواء في صورَة النظرية كما في التفسير الماركسي للتاريخ، أو في صورَة الإنتاج المادِّي كما في أمريكا وأوربا وسائر المجتمعات التي تعتبرُ الإنتاجَ المادِّي قيمةً عُليا تُهدَرُ في سبيلِها القِيَمُ والخصائصُ الإنسانيةُ ؛ فإن هذا المجتمعَ يكونُ مجتمعًا متخلِّفًا أو بالمصطلَح الإسلامي مجتمعًا جاهِليًّا) [3].

وليس معنى هذا عند سيد قطب أن المجتمع المتحضِّر الإسلامي يحتقِرُ المادَّة، فالإنتاج المادِّي من مقوِّمات الخِلافة في الأرض ؛ ولكن الإسلامَ لا يُهدِر من أجلِها حريةَ الفردِ وكرامتَه ولا قاعدةَ الأُسْرة ومقوِّماتها ولا أخلاقَ المجتمع وحُرُماتِه، وإنما لها اعتبارُها في مجالِها الذي لا تتعدَّاه، ويرسُم سيدٌ خطًّا بيانيا فاصِلا للحضارَة بمعناها الحقيقي ؛ فإن ارتقَى صُعُدا بالخصائصِ الإنسانية وحرَسَها من النكْسة إلى الحيوانيةِ وانطلقَ في القِيَم والاعتباراتِ من الدرَك الحيواني إلى المرتفَع الإنساني فهوَ الحضارَةُ، وإن

1- جمعَها فيما بعدُ صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتاب بعنوان: "أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب"، ينظر: المرجع نفسه، ص191.

2- سيد قطب، معالِم في الطريق، ص131.

3- المصدر نفسه، ص109، 110.

انتكسَ هذا الخطُّ مع حضارةِ المادّةِ فلن يكون ذلك حضارَة، إنما هو التخلُّف أو هوَ الجاهلية [1].

وإذا كان ذلك كذلك؛ فالأثرُ الحضاريُّ للعقيدة الإسلامية يتمحْوَر على استنقاذِ الإنسان وتقريرِ إنسانيةِ الإنسان وكرامتِه وحقوقِه، وفكِّ أسْرِه من هذه الأربابِ التي اتخذَها من دونِ الله، والعودةِ بالأسرةِ الإنسانيةِ إلى خالِقِها الواحِد وإلى منهجِ الله وشرْعِه الذي تنمحِي فيه الفوارقُ العنصرية والطبقيةُ وتسودُ العبودية لله وحدَه، فهذا الإنسان - سيِّد هذه الأرض - هو الذي يُنشئُ الحضارةَ وليست الحضارةُ هي التي تُنشِئُه، لذا كان التركيز عليه والعناية به بالِغَيْن في نصوصِ الكتابِ الكريم والسُّنّة المطهَّرة، وهو ما حاولَ سيدٌ ترجمتَه فيما كتبَ في تفسيرِه للقرآن الكريم وفي كتبِه الأخرى.

ففي حديثِه عن الحضاراتِ المادِّية الكبرى في التاريخ التي مُكِّن لها في الأرض وكان لها من الرخاء والمَتاع والسلطان ما لا يقِلّ عمّا تتمتَّع به حضاراتُ اليوم - إن لم يزِد عليه في بعضِ نواحيه - كالفراعِنة والإغريق والرومان وغيرِهم، التي تمرَّدت على سُلطان الله وادَّعت لأنفسِها خصائص الألوهية وعاثتْ في الأرض فسادًا وظلمَت الناس بعد اعتدائِها على سُلطانِ الله فأخذَها اللهُ أخْذ عزيز مُقتدِر بعد استدراجِها وإمهالِها.

ويُهيبُ سيدٌ بأُمَم اليوم والتي تدورُ في فلَكِها ويبهرُها اللألاءُ الخاطِف ويتعاظَمُها الرخاءُ والسلطانُ أن تتّعِظ بسابقاتِها وألّا تنسَى سُننَ الله في الاستدْراج، ويضربُ لهذا مثَلا ممّا شاهدَه أثناءَ وجودِه في الولايات المتحدة الأمريكية من غُرور القوم بذلك الرَّخاء الذي هُم فيه وفي عجْرفتِهم ووحشيتِهم في التعامُل مع المُلَوَّنين خاصّةً إذا كانوا مسلِمين، ويتوقَّع حُلول سُنَّة الله بهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [2]، ذلك إلى جانبِ العذابِ النفسيِّ والشقاءِ الروحيِّ والشذوذِ الجنسيِّ والانحلالِ الخُلقي الذي يغطِّي على الإنتاجِ والرخاءِ والمَتاعِ ويصبغ الحياةَ كلَّها بالنكَد والقلَق والشقَاء [3].

فهذا الوجْه الكالِح الطالِح الشائِه القبيح لهذه الحضارَة المادّية والذي صوَّرَه لنا سيد قطب ما هو

1- ينظر: المصدر السابق، ص110 – 112.

2- سورة الأنعام، الآيات: 44، 45.

3- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 2، ص 1090، 1091، وقارِن: سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، فصل "تخبُّطٌ واضطِراب".

إلا انعكاسٌ للشرُود عن منهجِ الله وعن العقيدةِ التي تُحرِّر البشرَ من تألُّه الإنسان على الإنسان وتجعله كريمًا له حقوقُه لا يذِلُّ إلا لله ولا يخضَع إلا لشرْع الله.

والعقيدةُ الإسلامية شعارُها ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1] و﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾[2] و﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾[3] وفيها يتجلَّى تكريم الله للإنسانِ واحترام إرادتِه وفكرِه ومشاعرِه، وبهذه الحرية في الاعتقادِ يثبتُ له وصفُ الإنسانِ ؛ إذ هي من أخصِّ خصائص التحرُّر الإنساني، فالذي يسلُب إنسانًا حريةَ الاعتقاد إنما يسلُبه حريتَه ابتداءً.

فهذه العقيدةُ التي تمنعُ أصحابَها قبل سواهُم إكراهَ الناس على هذا الدين ؛ هي ولاشكَّ أرْقى تصوُّر للوجود والحياة وأقْوم منهجٍ للمجتمع الإنساني [4] ؛ لأن عملياتِ القسْر والإكْراه على عقيدةٍ مَا لا تصنعُ قناعةً، وإنما تضعُ غطاءً يعيشُ تحتَه الإنسانُ معذَّبًا مفصُومَ الشخصيةِ بين قناعاتِه وما أكرِهَ عليه، وعندَها إمَّا أن يسُودَ النفاقُ أو يثورَ المُكرَهون تحت هذا الضغط النفسيِّ الرهيب، فالعقائد والأفكارُ لم تنجَحْ كلُّ المحاولاتِ على مرِّ التاريخ البشريِّ في قمْعِها واحتوائِها ، فكلَّما زادَ القمعُ والتنكيلُ بأصحابِها، كلما زادتْ الاستماتَة عليها والإخلاصُ لها.

وهكذا فمناخُ الحرِّية والمُساواة الذي تحرِص العقيدةُ الإسلامية على إيجادِه وتوفيرِه هو الكفيلُ بانتشارِها وانتصارِها، فالعقيدةُ اختيارٌ ولا اختيارَ مع الظلْم والإكْراه، فلا بديلَ لدُعاة الإسلام من الانتصارِ لقضايا الإنسانِ من الحريةِ والكرامةِ والمساواةِ، ومحارَبةِ الاستبدادِ السياسي والظلمِ الاجتماعي والتمييز العُنصري أو اللوْني أو القوْمي.

ولنا أن نتساءلَ عن موقع الخِطاب الإسلامي اليومَ في استحْياءِ حقائقِ هذه العقيدةِ مما يُطرَح في العالَم من مسائلِ حقوقِ الإنسانِ ومقوِّمات الحضارة والعوْلَمَة ؟ وكيف يمكنُ أن نُعيدَ للخطابِ الإسلامي بُعدَه العالَمي والإنساني ؟ وكيف يمكنُ أن نعيدَ الإسلامَ إلى مرحلةِ الشهود الحضاري؟ وكلُّ الوسائل متوفرةٌ متاحَةٌ من تقدُّم وسائلِ الاتصال وإلْغاء المَسافات والسماوات المَفتوحة، لتقديمِ هذا

1- سورة البقرة، الآية 256.

2- سورة الغاشية، الآية 22.

3- سورة يونس، الآية 99.

4- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج1، ص 291.

الخطابِ الإسلاميِّ الحضاري إلى العالَمَ كبديلٍ بعدَما أفلستْ النظُمُ والمناهِج والتشريعاتُ والفلسفاتُ المادِّية المُعاصِرة، وما كتاباتُ سيد قطب إلا نموذَج عمليٌّ يمكِن أن يرفُدَ هذا الخطابَ الإسلامي الحضاري بالمفاهيمِ الإسلامية الشامِلة التي فصَّلها والصورةِ التي رسَمَها لعالَمِية الخِطاب القرآني.

خاتمة:

بعد حمْد الله الذي به تتمُّ الصالحاتُ وتُنالُ الدرجاتُ، فلولا توفيقُه ما استطاعَ القلمُ أن يَخُطَّ حَرْفا، نُلقي عَصَا التَّسْيارِ بعد هذه الجولةِ الطويلةِ المُضنِيةِ المُمتِعة في آنٍ، مضنية بالبحث والتنقيب في مئات المصادر والمراجع مما كتبَ سيد قطب ومما كتب علماءُ العقيدة، وحَبْس النفْسِ على قراءتِها وفحْصِها برَوِيَّة وأَنَاة، وكَم مِن كتاب يُوحِي عنوانُه بمضمونٍ وثيقِ الصِّلة بالبحث حتى إذا أمضيتُ شوْطا في طواياه لم أعثُر على بُغيتي فيه مما يتصلُ ببحثي، أما أنها ممتعة فالرحلةُ مع سيد قطب وفكرِه لا يَحمد سُراها إلا من عايَنَها، فإنكَ واجِدٌ معه وُضوحَ الفكر وعُمقَ التحليل والجِدِّيَةَ في البحث ونَصَاعةَ الأسلوب وسُمُوقَ الأدب، فكيف لا يكونُ كل ذلك ممتعا وأنت مُصْبِحُهُ ومُمسيه !؟

انطلقتُ في بحثي هذا بدراسة مصادر العقيدة عنده وكيف استقاها من القرآن والسنة النبوية الشريفة، وثنَّيتُ باستخلاص الأدلة التي اعتمدَها، وثلَّثْتُ بعَرْضِه لمباحثِها بالتفصيل، وختمتُ بالجانب العملي لهذه العقيدة عند سيد قطب ممَثَّلةً في تنفيذ حاكمية الله في الأرض قولا وفِعلا، وكانت النتائجُ التي توصلتُ إليها من خلال عملي هذا كثيرةً، أَعرِضُ أبرزَها وأهمَّها في هذه النقاط المركزة:

1 – أن سيد قطب نشأ نشأةً سويَّةً في أُسرة لها مكانتُها في بلدٍ كان مَهْدًا للحضارات مما كوَّنَ روافِد شخصيتِه القوية، من طُموح واعتِدادٍ بالنفْس وشغَف بالعِلم الباعِثِ على العمل.

2 – رصَدْنا مسيرتَه العلمية والثقافية والدَّعَوية خاصة بعد اتجاهِه الإسلامي وانضمامِه إلى الإخوان المسلمين، وكيف قدَّم المفهومَ الأصيلَ للإسلام بوصفِه منهجَ حياة ونِظامَ مجتمع يستحقُّ التطبيقَ، ويعْلُو على كلِّ ما قدمتْه البشريةُ من نُظُم وأوضاع ومناهج.

3 – عرَّفنا بتراثِه الفكريِّ الإسلاميِّ وغزارة مادَّتِه وتنوُّعِها ، في قضايا الدعوة والحَرَكة ومسائل التربية والعمل ، ومعاني العقيدة والحركة، وكان أنْ أُعْدِم بسبب أَحَدِ هذه الكُتُب وهو "معالم في الطريق" بعد أن صنَّفَه كمنهج للدعوة والحَرَكة لجماعة الإخوان المسلمين.

4 – بيَّنَّا اعتمادَه في أخْذِهِ للعقيدة من مصدرَيْ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مُستلهِما منهما مباشرةً في عَرْضِه لمسائل العقيدة خالصةً من شوائب الفلسفات والآراء المتضاربة، مُتجاوِزًا الخلافاتِ الكلاميةَ والمذهبية التي تحْجُب نورَها وإيحاءَها عن النفوس، هادِفًا إلى رَبْطِ المسلم بالمَعِين القرآني

والنبوي مباشرةً ليتفاعلَ بهذه العقيدة ويعيشَ في جوِّها كما كان يعيشُ الرَّعِيلُ الأوَّلُ بها.

5 – ردَدْنا على بعض الشبُهات والاتهامات بل والتَّجَنِّيات التي أُثيرت حول عقيدة الرَّجُل ، كالقول بخَلْق القرآن، وبيَّنَّا بالأدلة العِلمية الدامغة بُعْدَه عن الخوض في مثل هذه المسائل ، وهو قد أَلْزم نفسَه ابتداءً بتجاوُز الخِلاف المذهبي والكلامي واختلافات الفِرَق الإسلامية ، لئلا يَشغَلَ المسلمَ بالبحوث النظرية التي لا تزيدُه إلا تشويشا وبَلْبَالا ، واستدلَلْنا حتى بأقوال خُصوم سيد في نفْي هذه التهمة عنه.

6 – بيَّنَّا موقفَه في خبر الآحاد وأنه لا يُؤخذ به في أمور العقيدة وأصول الدين، وعرَضْنا مواقف الأئمة وكثيرٍ من العلماء الكبار القدامى والمُحْدَثين ، وكلُّهُم يذهبُ مَذهبَ سيد في هذه المسألة، وسُقنا الشواهد والأدلة من كُتُبهم.

7 – أن سيد قطب أعْملَ أدلةَ القرآن الكريم في إثبات وُجود الله تعالى وهي (دليل الفِطرة ، ودليل العقل ، وأدلة الأنفُس والآفاق) ولم يلتفتْ إلى أدلة المتكلمين (دليل حُدوث العالَم ، ودليل الممكن والواجب) ولا إلى أدلة الفلاسفة (دليل الإمكان ، ودليل التجربة ، ودليل التَّناهي ودليل الحَرَكة)، واقتصرَ على أدلة القرآن الكريم البسيطة الواضحة ؛ التي تخاطبُ كلَّ المدارِك الإنسانية في إثبات الوجود الأزلي الأبدي لله تعالى.

8 – أنه يقفُ عند بعض النصوص القرآنية المتعلقة بالذات الإلهية (كالإشهاد والاستواء، ومَطْوِيَّات بيمينه، والصفّ، والنجْوى، ويَمْحُو اللهُ ما يشاءُ) ولا يبحث في الكيفيات إذ تصوُّرُ الكيفية فرعٌ عن تصوُّرِ الماهية، ولا سبيلَ إلى ذلكَ بالعقل إذْ ليس كمثله شيءٌ.

9 – أنه لم يَخُضْ في كيفيات أفعالِه سبحانه ، لأنها لا تُشابِه أفعالَ المخلوقين ولا تُشابِهُهَا أفعالُ المخلوقين، وأثبتَ ما أثبتَه اللهُ تعالى لنفسِه، وجَنَحَ إلى التأويل على مذهب فريقٍ كبيرٍ من العُلماء الذين لَاذُوا بالتأويل لسدِّ حاجةٍ حقيقيةٍ لدى العقلِ المسلِم ، وكان فيهم الأئمةُ والعمالقةُ المبَرزون في العلوم الإسلامية، أكثرُهم أشاعِرةٌ وبعضهم ماتُريدية، ثم عادَ واستدرَكَ في الطبعة المنقَّحة من "الظلال" وأعلنَ عن خطئِه ورجّحَ مذهبَ السلف في إمْرارِها كما جاءتْ.

10 – ردَدْنا على شُبهة القول بوحدة الوجود التي أثارَها بعضُهُم حول سيد، حيث عرَضْنا المسألةَ

وعرَّفنا بها وبالقائلين بها ، ثم عرَضْنا نصوص سيد وبيَّنَّا بجَلاء موقِفَه منها من عدة نصوص يَنفيها صراحةً عن الفكر الإسلامي، ويعُدُّها من شَطَحات الصوفية فأيُّ دليلٍ أكبرُ مِن هذا !

11 – أنه يتوقفُ في مسألةِ المشيئة والإرادة الإلهية ، ولا يخوضُ فيما خاضتْ فيه الفِرَق الإسلاميةُ من تولُّدات هذه المسألةِ في نظرية الصَّلاح والأَصْلح ، وهل يريدُ اللهُ تعالى المعاصيَ والشرُور ؟ ويركز على الأثر الإيماني العملي الحَرَكي الذي يبعثُه الاعتقادُ بالمشيئةِ المطلقةِ لله تعالى في حياةِ المسلِم.

12 – أنه لا يخوضُ في الجدَل الذي خاضَ فيه الفلاسفةُ والمتكلمونَ في مسألةِ القضاء والقدَر ، وإنما يُسايِر المنهجَ القرآني التقريري البسيط، في إرْجاع الأمرِ كلِّه إلى قَدَرِ الله على النحْو الذي يُرتِّبُ على إرادة الإنسان المْوهوبةِ له ، النتائجَ التي يُنشِئُها بحُكم فطرتِه واستعدادِه المزدوِج للهُدَى والضَّلال ، والعقل المميِّز، وإرسالِ الرُّسُل.

13 – أن له نظراتٍ بانوراميةً شموليةً للحقائقِ الكبرى في المنهج القرآني، كحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، مستخلصًا من طبيعة المنهج القرآني مذهبا خاصًّا في عَرْض الحقائقِ الكُلِّية من خلال النماذج الفرْدية، وعَرْض السُّنَن الثابتة مِن خلالِ الحَدَثِ العارِض.

14 – أنه يقفُ عند حدودِ القرآنِ في معرفة الغيْب وكيفياتِه ولا يُحاكِمُه للعقل ، كالأيام السِّتَّة ، والسماوات السبْع ، وكيفية النداء المُوَجَّه من الله إلى آدمَ عليه السلام وتأنيبِه على المعصية، وطبيعة الجنَّة التي كان فيها، وكيفية كلام الله لموسى عليه السلام، وماهيَّة الألواح، وإمداد المسلمين بالملائكة يوم بَدْر وقتالهم معهم، وهل بُعثَ للجِنِّ رُسُلٌ منهُم، وماهية الوَسْوسة من الشيطان للإنسان، كلها لا يتعرَّضُ لها سيد قطب ما لم يَرِدْ نصٌّ قرآني مُفسِّر أو حديثٌ صحيح متواتِر.

15 – أنه أَبَانَ ضحالةَ التصوُّرات اللاهوتية للفلسفات والعقائد الوثنية والسماوية المحرَّفة، ورَدَّ على الماديِّين والملحِدين والقائلين بتطوُّر الأدْيان، وأظْهَرَ مَثَالِبَ النُّظُم الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، مُقدِّما في كلِّ ذلكَ البديلَ الإسلامي في التصوُّر والاعتقاد ، وفي النُّظُم والأوضاع والمناهِج.

16 – أنه فضحَ مكائدَ ودَسَائسَ الصليبيةِ العالمية والصهيونية وتوَحُّدهم في مواجهة الإسلام، كما فضحَ جهودَ المبشِّرين ، وجعلهم القَدَمَ الأولى للاستعمار الحديث، وحاربَ شِعاراتِ القومية والوطنية

والطبَقية، وجعل جِنسيةَ المسلمِ عقيدته ولا جنسيةَ لهُ غيرها.

17 – أنه جعل عقيدة "لا إله إلا الله" بمدلولها الحقيقي هو رَدُّ الحاكِمية إلى الله وحدَه والتحاكُمُ إلى شريعة الله، فمن ادَّعى الحاكِميةَ فقد ادَّعى الألوهيةَ إذِ الحاكميةُ من أَخَصِّ خصائص الألوهية.

18 – بيَّنَّا النقطةَ المِفْصَلية التي أساءَ الكثيرُ فهْمَها من عَرْض سيد لمفهوم الحاكِمية، إذ خَلَطوا بين التشريع الإسلامي الذي هو مِن عندِ الله، وبين السلطة السياسية التي يتولاها الحُكَّام، ففرق بين التشريع ومزاولة السلطة، فالإقرار بالحاكمية لله هو إفْرادُه تعالى بالحُكم والتشريع، ومزاولةُ السلطة هو تطبيق هذه الشريعة، أما إذا استمدَّ مُزاوِلو السلطة من غير شريعة الله وأرادوا ذلكَ ورَضُوهُ فهو الكُفرُ والظلمُ والفسوقُ المذكورُ في سورة المائدة.

19 – أنه يكفِّر المجتمعات الشيوعية بإلحادها، والوثنية بتأليهِهِم غير الله، واليهودية والنصرانية بتصوُّراتها الاعتقادية المحرَّفة الضالة، وحدَّدَ من المجتمعات الإسلامية أربعةً ولم يُعَمِّمْ وهي: 1 – التي تُعلن صراحةً علمانيتَها وتَفْصِل علاقتَها بالدِّينِ أَصْلا، 2 – التي تحترمُ الدينَ ولكنْ تُخرِجُه من نِظامِها الاجتماعي، 3 – التي تُنكر الغيبيَّة وتتبنَّى العِلْمية، 4 – التي تُشَرِّع مِن عندِها ما تشاءُ وتدَّعي أنه شرْعُ الله. وبهذه الخصائص تلتقي مع غيرِها، أمَّا مَا عدا هذ ِه فلمْ يكفِّرْه ا وقد سُقْنا الشواهِدَ والأدلةَ على ذلك.

20 – أنه لا يُكفِّرُ الأفْرادَ المُعَيَّنِين مُطلقا ، وأوْرَدْنا نصوصًا مِن "المعالم" و"الظلال" وهما أشدُّ ما يَعتمِدُ عليه الناسِبُون إليه تكفيرَ الأفراد والمجتمعات، وأنه يرى مُعلِنَ الإسلامِ بفمِه لا دليلَ لنا يُناقِضُ كلمةَ اللسانِ، وك ان يُردِّدُ أننا "دُعاةٌ ولَسْنا قضاةً " فلي س لنا الحُكْمُ على ما يُضمِرُ الأشخاصُ في صُدورهِم، وسُقْنا أقوالَ المقرَّبين منهُ العارِفين به وبفكرِه؛ وكلُّهُم يَستغربُ ذلكَ من سيد قطب.

21 – أنهُ يرى أن الدينَ الإسلامي هو الحضارةُ وما عَدَاهُ هو التخلُّفُ والجاهليةُ ، لأنه ينطلقُ صُعُدا بالخصائص الإنسانية العُليا وهي الروح والفِكر – التي يُفارِقُ بها الإنسانُ الحيوانَ – فيحفظ حريةَ الفرْدِ وكرامتَه، ويحافظُ على قاعدة الأُسْرة ومقوِّماتها ، وعلى أخلاق المجتمع وحُرُماته، ولا يحتقر المادةَ والإنتاج المادي الذي هو من مقومات الخِلافةِ في الأرض، على عكس النُّظُم التي تدَّعي الحضارةَ وتُهْدِر هذه القِيَم وتُعْلي مِن شأن المادة على حسابِها.

هذه باختصارٍ خُلاصةُ النتائج التي خَرجتُ بها مِن هذا البحثِ الذي يشُقُّ الطريقَ في الإحاطةِ بعقيدةِ سيد قطب، إذْ لم تتوفرْ إلى الآن –في حُدود عِلمي –دراسةٌ متكاملةٌ مستوعبةٌ لعقيدةِ هذا المفكِّر الكبير الذي عَدَّه الباحثونَ المُنظِّر الثاني للإخوان المسلمين بعد حسن البنا. أرجو أنْ أكونَ وُفِّقتُ في تقديمِ هذه الصورةِ المتكاملة، ولا يَفوتُني أن أشيرَ إلى أنَّ كتاباتِ سيد قطب ما تزالُ حقلا بِكْرا للرُّوَّاد والمستكشِفينَ، فكَم من جانبٍ يستحقُّ أنْ تُخصَّصَ له أطروحاتُ الدكتوراه بَلْهَ رسائل الماجستير ، كالجانب الفِكري ، والجانب الدَّعَوي ، والجانب السياسي، هذا عَدَا الجوانب التي في غير تخصُّصِنا ، كالجانب الأدبي، والجانب الجَمالي، والجانب الإبداعي في الصُّوَر والظِّلال.

واللهَ تعالى أسألُ أن يجعلَ عملي هذا خالصًا لِوَجْهِهِ الكريم ، فلولا توفيقُه وتيسيرُه ما خطَطْتُ حَرْفًا، ولا كانت الكلمةُ لأُختِها إِلْفًا، وأُصلي وأُسلِّمُ على خاتم الأنبياء والمرسَلين ، وعلى آله الطيِّبين الطاهِرين وعلى أصحابِه الأخيار المُنْتَجَبِين، وعلى مَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

حُرِّرَ بتاريخ: 04/ 01/ 2012 ببَنِي كُوفِي، خليل قاضي .

فهرس الآيات:

طرف الآية السورة ورقم الآية الصفحة

فهرس الأحاديث:

طرف الحديث: **الصفحة:**

فهرس الأعلام

الاسم: الصفحة:

المصطلحات

المصطلح الصفحة:

الأماكن والبلدان

البلد: الصفحة:

فهرس الأشعار:

صدر البيت: **الصفحة:**

فهرس المصادر والمراجع:

- أ -

1. الاتجاهاتُ التشريعية في البلاد العربية، د.شفيق شحاتة، (القاهرة: المطبعة العالمية، د.ت).
2. الاتجاهاتُ الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، (ط 8، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م).
3. الإتقانُ في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: أحمد بن علي، (ط 1، القاهرة: دار الحديث، 2004م).
4. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي ، تحقيق:الشيخ أحمد شاكر، (مصر، مطبعة الإمام، د.ت) .
5. الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين الآمِدي، تحقيق، جماعة من العلماء، (لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ).
6. إحياءُ علوم الدين ، أبوحامد الغزالي ، (لبنان ، بيروت : دار المعرفة ، د.ت).
7. إخبارُ العُلماء بأخبار الحُكَماء، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف القفطي، (القاهرة: مكتبة المتنبي، د.ت).
8. أخي أبو الحسن، أحمد الشرباصي، (الطبعة الثامنة، الكويت، دار القلم، 1970م).
9. الأربعين في أصول الدين، فخر الدين الرازي، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، (ط1،بيروت: دار الجيل،2004م).
10. إرشادُ الأريب، ياقوت الحموي، (القاهرة: مطبعة هندية، 1923م).
11. إرشادُ الفُحول إلى تحقيق الحقِّ مِن علم الأصول ، الشوكاني ، (ط 1، مصر : مكتبة المحَجَّة البيضاء ، 2004م).
12. الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، (ط8 ، بيروت: دار الشروق،1975م).
13. الإسلامُ ومُشكِلاتُ الحضارة، سيد قطب (ط13، بيروت: دار الشروق،2005م).

14. الإسلام والحضارة الإنسانية، عباس محمود العقاد، (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1973م).
15. الإسلامُ يتحدَّى، وحيد الدين خان ، تعريب: ظَفَر الإسلام خان، (الكويت: دار البحوث العلمية، د.ت).
16. إشكالية الحاكِمية في العقل المسلم، عمر عبيد حسنة، (ط 1، بيروت: المكتب الإسلامي، 2008م).
17. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، (ط1، القاهرة، مصر : مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت).
18. أصول الدين ، عبد القاهر البغدادي ، (ط 1، القسطنطينية : مطبعة الدولة ، 1928م).
19. أضواء على عقيدة سيد قطب وفِكرِه ، ربيع بن هادي المدخلي ، (ط 1، مكتبة الغرباء الأثرية ، د.ت).
20. أضواءٌ على مَعَالم في الطريق ، سالم البهنساوي ، (ط 01 ، مصر: المنصورة ، دار الوفاء، 1999م).
21. الأطْيافُ الأربعة ، سيد قطب وإخوتُه ، (ط 2، بيروت : دون اسم الناشر ، 1967 م) .
22. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، (مصر:دار المعارف،1963م).
23. الأعلام "قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين "، خير الدين الزِّرِكْلي، (ط15، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، 2002م).
24. الحُكم وقضيةُ تكفير المسلِم ، سالم البهنساوي، (ط 4 ، المنصورة ، دار الوفاء ، 1994).
25. أمريكا من الداخِل بمنظار سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، (الجزائر ، باتنة : دار الشهاب، دون رقم الطبعة ، 1987م).
26. إنباهُ الرُّواة على أنبا ء النُّحَاة، القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط1، بيروت، دار الفكر العربي، 1406هـ).
27. الإنسانُ في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، (مصر: دار الهلال، 1971م).

28. أيامٌ من حياتي ، زينب الغزالي ، (بيروت : دار الشروق ، 1980 م).
29. إيثارُ الحقِّ على الخَلْق، ابن الوزير اليماني، (ط2، بيروت: دار الكتب العلمية،1987م).
30. الإيمانُ والحياة، يوسف القرضاوي (ط09، بيروت: مؤسسة الرسالة،1983م).
31. أيها العرَبُ استيقِظوا واحذَرُوا "مجموع مقالات سيد قطب السياسية"، سيد قطب، جَمْع: جمال مدغمش ، (ط 2، الأردن: دار الإسراء، 2004م).

-ب-

32. الباعِث الحثيثُ شرح اختصار علوم الحديث، تعليق:أحمد محمد شاكر ، (ط3، القاهرة: مكتبة دار التراث،1979م).
33. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القُرَشي، (ط1، بيروت، مكتبة النصر، 1966م).
34. البَدْر الطالِع بمَحاسِن مَن بعدَ القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، (بيروت: دار المعرفة ، د.ت).
35. بُغية الوُعَاة في طبقات اللُّغويين والنُّحاة، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت).
36. البيان في إعجاز القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، (دار عمار،د.ت).

-ت-

37. تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، محمد رشيد رضا، (مطبعة المنار، 1344هـ).
38. تاريخ الفلسفة في الإسلام ، دي بور، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة ، (الدار التونسية للنشر،د.ت).
39. تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، محمد أبو زهرة، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت).
40. تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، (د.ت.ط، بيروت، لبنان : دار الكتب العلمية).

41. تبيين كذِب المُفترِي، ابن عساكِر الدمشقي، (ط2، دمشق: دار الفكر، 1399هـ).
42. تُحفة المُريد شرح جوهرة التوحيد، إبراهيم اللقاني، تحقيق: إبراهيم بن محمد البيجوري، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية،1983م).
43. تخريج أحاديث وآثار كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب، علوي السقاف، (ط1، السعودية، دار الهجرة، 1991م).
44. التراث المُعجَمي في خمسين عاما، إبراهيم الترزي، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1404هـ).
45. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (ط8، بيروت، دار الشروق، 1983م).
46. التفسير السياسي للإسلام في مِرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، أبو الحسن الندْوي، (ط2، القاهرة: دار آفاق الغد، 1980م).
47. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (دار المعرفة، 1980م).
48. تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد، للإمام إبراهيم اللقاني، تحقيق: الحبيب بن الطاهر، (ط01، بيروت: مؤسسة المعارف، 2008م).
49. تهذيب الأسماء واللغات، النووي، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت).

- ج -

50. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد ومحمود محمد شاكر، (مصر: دار المعارف، د.ت).
51. جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق ومراجعة : إبراهيم عطوة عوض، (بيروت، لبنان: المكتبة الثقافية، 1991 م).
52. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي ، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985م).
53. جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، (بيروت: دار الشروق،1974م) .
54. جماعات التكفير في مصر، عبد العظيم رمضان، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995م).

55. الجوابُ الصحيح لمن بدَّل دينَ المسيح، ابن تيمية ، أشرف على طبْعه: علي الصبح المدني، (القاهرة: مطبعة المدني، د.ت).

56. الجواهر المُضِيَّة في طبقات الحنفية، القرشي، (القاهرة، 1993م).

-ح-

57. الحاكِمية في الفكر الإسلامي ، حسن لحساسنة ، (ط 1 ، قطر ، الدوحة : دار الكتب القطرية ، 2007م).

58. الحدُّ الفاصِل بين الحق والباطل "حوار مع بكر أبي زيد "، ربيع بن هادي المدخلي، (ط1، الجزائر ـ باب الوادي ـ: مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع، 2002م).

59. حُكم الجاهلية، أحمد محمد شاكر، (طبعة 2009م، القاهرة: المكتبة التوفيقية).

60. الحُكم بغير ما أنزل الله وأصول التكفير في ضوء الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، خالد بن علي بن محمد العنبري، (ط 5، الإمارات: مكتبة الصحابة، 2004م).

61. الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: أحمد إدريس، (القاهرة،1977م) .

-خ-

62. خريفُ الغضب "قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات "، محمد حسنين هيكل، (ط 6، بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 1983م).

63. خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، (بيروت ، دار الشروق ، د.ت).

64. الخصوصية والعالَمية في الفكر الإسلامي، طه جابر العلواني، (ط 1، بيروت: دار الهادي، 2003م).

65. الخطابُ الذهبي ، بكر أبو زيد ، (مكتبة السنة، د.ت).

-د-

66. دَرْءُ تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم ، (مكتبة ابن تيمية، د.ت).

67. دراسات إسلامية ، سيد قطب ، (بيروت : دار الشروق ، 1978م).

68. دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية ، صالح حسين الرقب ومحمود الشوبكي، (ط 2 ،

فلسطين : مكتبة بيت المقدس ،2009م).

69. دُعاةٌ لا قُضاة ، حسن الهضيبي ، (الجزائر ، دار الصديقية للنشر ، 1989م).

70. دعوة التوحيد ، محمد خليل هراس ، (ط 01 ، مصر : القاهرة ، دار الشريعة ، 2004م).

71. الدين "بحوثٌ ممهِّدة لدراسة تاريخ الأديان" ، عبد الله دراز ، (الكويت : دار القلم ط1980م).

72. ديوان سيد قطب ، عبد الباقي محمد حسين ، (ط 3 ، المنصورة: دار الوفاء،1997م).

- ذ -

73. ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد ، محمد المبارك ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت).

74. ذِكريات لا مُذكرات ، عمر التلمساني، (القاهرة : دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1985م).

- ر -

75. رسالة التوحيد ، محمد عبده، تعليق: محمود أبو رية، (ط3 ، مصر : دار المعارف ، د.ت).

76. الرسالة القشيرية ، أبو القاسم القشيري ، تحقيق: د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، (طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة : مطبعة حسان ، 1972م).

77. روحُ المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبْع المَثَاني ، محمود شكري الآلوسي ، (ط 4 ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، 1405هـ).

- ز -

78. زعماءُ الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، (مصر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968م).

- س -

79. سراديبُ الشيطان "صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين "، أحمد رائف، (ط 1، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، 1989م).

80. سَرْح العُيون في شرح رسالة ابن زَيْدون ، جمال الدين بن نُباتة المصري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط1 ، بيروت : المكتبة العصرية ،1998م).

81. السلام العالمي والإسلام ، سيد قطب ، (ط07 ، بيروت : دار الشروق ، 1983).
82. سيد قطب "الخِطاب والإيديولوجيا" ، محمد حافظ دياب ، (الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، 1991م).
83. سيد قطب"المجتمع المصري جذورُه وآفاقُه"، ألان روسيون، (ط1، القاهرة: دار سينا للنشر، 1994م).
84. سيد قطب "حياتُه وأدبُه" ، عبد الباقي محمد حسين ، (ط2 ، المنصورة : دار الوفاء ،1993م).
85. سيد قطب الأديبُ الناقِد ، عبد الله عوض الخباص ، (الجزائر : شركة الشهاب للنشر والتوزيع، د.ت).
86. سيد قطب الشهيدُ الحَيُّ ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، (ط 1 ، عمان ، الأردن : مكتبة الأقصى، 1981م).
87. سيد قطب بين الغَالِين فيه والجَافِين عليهِ، محمد إبراهيم شقرة ، تقديم : زهير الشاويش ، (ط1، بيروت : المكتب الإسلامي 1996م).
88. سيد قطب "حياتُه، منهجُه في التغيير والنقدُ المُوَجَّهُ إليه"، محمد توفيق بركات ، (ط 1 ، الأردن: دار البيارق ، 1998م).
89. سيد قطب من القرية إلى المشنقة ، عادل حمودة ، (ط3 ، مصر: سيناء للنشر، 1990م).
90. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، (ط 3 ، دمشق: دار القلم ، 1999م).
91. سِيَر أعلام النُّبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ط7، مؤسسة الرسالة، 1410هـ).

- ش -

92. الشاطئُ المجهول ، سيد قطب ، (دون مكان وتاريخ النشر).
93. شخصياتٌ استوقفتْنِي، محمد سعيد رمضان البوطي، (الطبعة الثانية، دمشق : دار الفكر، 1999م).

94. شخصياتٌ وكُتُبٌ أثَّرَتْ في حياتي ، أبو الحسن الندْوي ، (ط 01 ، القاهرة : دار الصحوة ، 1985م).
95. شذرات الذَّهب في أخبار مَن ذَهَب، ابن العماد الحنبلي، (القاهرة 1350هـ).
96. شرح العقيدة الطحاوية ، محمد بن أبي العِز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، (ط6 ، بيروت: المكتب الإسلامي ،1400هـ).
97. شرح المقاصد ، سعد الدين التفتازاني ، تحقيق : عبد الرحمن عميرة، (ط 2، عالم الكتب، 1998م).
98. شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، القاضي عبد الوهاب البغدادي، دراسة وتحقيق : أحمد محمد نور سيف ، (ط1 ، دبي : دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ،2004م).
99. شرح لُمَع الأدلة للجُوَيني، شرف الدين التلمساني ، تحقيق : السيد محمد سيد عبد الوهاب ، (القاهرة: دار الحديث ، 2009م).
100. الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، عمر سليمان الأشقر ، (ط 1، الكويت: دار الدعوة، 1983م).
101. الشهيد سيد قطب ، نشر جماعة أصدقاء الشهيد سيد قطب ، طائفة من الكُتاب ، (بدون تاريخ نشر).

-ص-

102. صفة الصفوة، ابن الجوزي، صنع فهرسه : عبد السلام هارون، (الطبعة الثالثة، بيروت ، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ/ 1998م).

-ض-

103. ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، (ط10، بيروت: دار الكتاب العربي ، د.ت).
104. الضوءُ اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، (نشر مكتبة القدسي، 1353هـ).
105. ضوابط التكفير بين الأمس واليوم، ضحى الخطيب، (ط 1، فرنسا: دار البُراق، 2007).

-ط-

106. طبقات الشافعية، أبو بكر أحمد بن محمد بن قاضي شهبة، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه: د. الحافظ عبد العليم خان، كتب فهارسه: د. عبد الله الطباع، (ط1، عالم الكتب، 1407هـ).
107. طبقات الشافعية، السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، (دار إحياء الكتب العربية، د.ت).
108. الطبقات الكبرى، ابن سعد، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1380هـ).
109. طِفلٌ مِن القَرْيَة ، سيد قطب ، (ط4 ، بدون دار نشر، 1967م).

- ظ -

110. الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين ، (دمشق : دار الفكر ، 1981).

- ع -

111. العدالة الاجتماعية في الإسلام ، سيد قطب ، (بيروت : دار الشروق ، 1974م).
112. العقيدة الإسلامية وأُسُسها، عبد الرحمن حبنَّكة الميداني، (ط13، دمشق، دارالقلم، 2007م).
113. عقيدة المؤمِن، أبو بكر جابر الجزائري، (المغرب، الدار البيضاء: دار الطباعة الحديثة ، د.ت).
114. العقيدة النِّظامية في الأركان الإسلامية، أبو المعالي الجُوَيْني ، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، (مصر: المكتبة الأزهرية للتراث ، 1992م).
115. العقيدة والفِرَق الإسلامية ، صبري خدمتلي، (ط 1، بيروت: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م).
116. العقيدة وعلم الكلام، الشيخ زاهد الكوثري، (ط1،بيروت: دار الكتب العلمية ، 2004م).
117. علماءُ العرب في شبه القارة الهندية، يونس السامرائي، (طبعة بغداد 1986م).
118. علماءُ ومفكرون عرفتُهُم، محمد المجذوب، (القاهرة: دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع ، د.ت).
119. علوم القر آن "مدخل إلى تفسير القر آن وبيان إعجازه"، عدنان زرزور، (ط1، بيروت: المكتب الإسلامي ،1981م).

120. عِملاق الفِكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، عبد الرحمن عزام، (ط1، الجزائر: دار الوحدة، 1990م).
121. عنوانُ الدِّراية فيمن عُرِف من العُلماء في المائة السابعة ببجاية، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، تحقيق: الأستاذ رابح بونار، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1970م).
122. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، (مطبعة مصر، 1300هـ).

- ف -

123. الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، ابن حزم الظاهري ، تحقيق: د.يوسف البِقاعي، (ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002م).
124. فصولٌ في العقيدة بين السلف والخَلَف، يوسف القرضاوي، (ط2، القاهرة : مكتبة وهبة، 2006م).
125. فِكْر سيد قطب في ميزان الشرْع ، سالم البهنساوي، (ط1، المنصورة: دار الوفاء ، 2000م).
126. فِكَر ومَباحث، علي الطنطاوي، (ط1، جدة: دار المنارة وَ دار ابن حزم، 2005م).
127. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، نُعَيْم الحِمصي، (ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م).
128. الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، (ط4، مصر: دار نهضة مصر، 2007م).
129. في الدين المقارن، محمد كمال إبراهيم جعفر، (القاهرة : دار الكتب الجامعية ، د.ت).
130. في ظِلاَلِ القُرْآن ، سيد قطب، (الطبعة الشرعية الثالثة ، بيروت : دار الشروق ،1977م).

- ق -

131. قادَة الفِكر الإسلامي عبْر القرون، عبد الله بن سعد الرويشد، (الطبعة الثانية، القاهرة: رابطة الأدب الحديث، د.ت).
132. القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، (ط2 ، مصر: المطبعة الحسينية ،د.ت).
133. القتلُ باسم الله ، ياسر فرحات ، (ط1، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ،2004م).
134. قذائف الحق، محمد الغزالي، (ط 5، الكويت: دار ذات السلاسل، 1984م).

135. قرآنٌ وسَيْف، رفعت سيد أحمد، (ط 3، مصر: مكتبة مدبولي، 2003م).

136. قِصَّة الإيمان بين الفلسفة والعِلم والقرآن، نديم الجسر، (لبنان، د.ت).

137. القول السديد في علم التوحيد، محمود أبو دقيقة، (د.ت).

138. القول المفيد على الرسالة المسماة وسيلة العبيد في علم التوحيد، محمد بخيت، (ط 1، مصر: المطبعة الخيرية، 1326هـ).

- ك -

139. كبرى اليقينيات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي، (ط8، دمشق: دار الفكر، 1402 هـ).

140. كُتُب وشخصيات، سيد قطب، (ط3، بيروت: دار الشروق، 1983م).

141. كشَّاف اصطلاحات الفنون، محمد علي التهانوي، تحقيق: أحمد حسن بسج، (ط2، لبنان: دار الكتب العلمية، 2006 م).

الكشْفُ الجليّ عن ظُلُمات رَبيع المدخلي "نقْد لكتاب أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره" عبد القادر منير المزدغي العزابي، (ط1، مصر: مطابع الأهرام التجارية، مكتبة التراث الإسلامي، 2003م).

142. كشفُ الظنُون عن أَسَامي الكُتُب والفنون، حاجي خليفة، (بغداد: منشورات مكتبة المثنى، د.ت).

143. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، (ط2، بيروت: دار الشروق، 2000م).

- ل -

144. لسان العرب المحيط، ابن منظور، إعداد وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعشلي، (بيروت: دار لسان العرب، 1390هـ).

145. لسان الميزان، ابن حجر، (ط2، بيروت، لبنان: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ).

146. لماذا أعدموني، سيد قطب، (الشركة السعودية للأبحاث و التسويق، دون تاريخ نشر ولا رقم الطبعة).

147. اللُّمَع في الردِّ على أهل الزيغ والبدع، أبو الحسن الأشعري، (ط1، لبنان: دار لبنان للطباعة والنشر،1987م).
148. الله "كتاب في نشأة العقدة الإلهية "، عباس محمود العقاد، (ط6، مصر: دار المعارف، 1969م).
149. لوامِع الأنوار البهية وسواطع الأسْرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني، (ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1985م).

-م-

150. ماذا خسِر العالَمُ بانحطاط المسلمين، أبو الحسن النَدْوي ، (ط 13، الكويت: دار القلم، 1982م).
151. مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح ، (ط13، بيروت: دار العلم للملايين،1981م) .
152. المبادئ الأساسية لفهم القر آن، أ بو الاعلى المودودي ، ترجمة: أحمد خليل الحامدي ، (الكويت: 1971م).
153. مجموعة الرسائل الكبرى ، ابن تيمية ، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا ، (لجنة التراث العربي ، د.ت).
154. مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، (دار التوزيع والنشر الإسلامي، طبعة 1992م).
155. محاورة ثيانيتوس، أفلاطون ، ترجمة: د.أميرة حِلمي مطر، (القاهرة، الهيئة العالمية للكتاب، 1973م).
156. مَدخل إلى ظلال القرآن ، صلاح عبد الفتاح الخالدي، (الجزائر، باتنة: دار الشهاب، د.ت) .
157. مذابح الإخوان في سجون ناصر، جابر رزق، (دار اللواء، 1977م، دون رقم الطبعة).
158. مذكرات سائح في الشرق العربي، أبو الحسن النَدْوي ، (ط 1، دمشق، بيروت: دار ابن كثير،2001م) .
159. المُرشد المفيد إلى عِلم التوحيد، عمر وفيق الداعوق، (ط1، بيروت: دار البشائر الإسلامية،2007م).

160. مسألة خَلْق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدِّثين وكتب الجَرْح والتعديل، عبد الفتاح أبو غدة، (بيروت:مكتب المطبوعات الإسلامية، د.ت).

161. المستشرقون، نجيب العقيقي، (القاهرة: دار المعارف بمصر، 1964م).

162. المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، (ط 1، مصر،القاهرة:المطبعة الأميرية، 1322هـ).

163. المستقبل لهذا الدين، سيد قطب، (بيروت: دار الشروق، 1974م).

164. مَشاهِد القيامة في القرآن، سيد قطب، (ط8، بيروت ، دار الشروق،1967م).

165. مصادر المعرفة في الفِكر الدِّيني والفَلْسفي، عبد الرحمن الزنيدي، (ط 1، الرياض: مكتبة المؤيد "من مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي"، 1992م).

166. مَطالع الأنظار على طوالع الأنوار، الأصفهاني ، (ط1، المطبعة الخيرية ،1323هـ).

167. مَعَالم الفلسفة الإسلامية، محمد جواد مغنية (ط5، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2000م).

168. مَعَالم في الطريق، سيد قطب، (ط6، بيروت: دار الشروق، 1979م).

169. المعجزة الكبرى"القرآن"، محمد أبو زهرة، (دار الفكر العربي ، د.ت).

170. المعجم الفلسفي، عبد المنعم الحفني ، (ط1، مصر: دار الشرقية ، 1990م).

171. معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف إلياس سركيس، (طبعة مصر، 1926م).

172. معجم المؤلفين العراقيين، كوركيس عواد، (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1389م).

173. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

174. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، (ط2، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي،1389هـ).

175. معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب، (بيروت: دار الشروق، د.ت).

176. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبرى زاده، (ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1405هـ).

177. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق : نديم مرعشلي، (بيروت: دار الفكر،

د.ت).
178. مقالات الغلُوّ الديني واللاديني، محمد عمارة، (ط1، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية ، 2004م).
179. مقالات الكَوْثري، محمد زاهد الكوثري، (ط1، مطبعة الأنوار بالقاهرة، د.ت).
180. المقدمة (لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعَجَم والبَرْبَر ومَن عاصرَهم من ذوي السلطان الأكبر)، ابن خلدون، (ط3، دار الكتاب اللبناني ،1967م).
181. مقومات التصور الإسلامي ، سيد قطب، (ط04، بيروت: دار الشروق، 1988م).
182. مِن أعلام الحركة الإسلامية، عبد الله العقيل، (طبعة 2000م، دار التوزيع والنشر الإسلامية).
183. مِنهاج الانقلاب الإسلامي، أبو الأعلى المودودي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).
184. مَنهج الفن الإسلامي، محمد قطب، (ط6، بيروت: دار الشروق ،1983م).
185. مُهِمَّة الشاعِر في الحياة وشِعر الجيل الحاضر، سيد قطب، (دار الشروق، بدون تاريخ).
186. المواعِظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، (الناشر: مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ، د.ت).
187. الموت والعبقرية ، عبد الرحمن بدوي ، (الكويت : وكالة المطبوعات ، د.ت) .
188. المَوْتى يتكلمون، سامي جوهر، (ط2، القاهرة: المكتب المصري الحديث،1977م).
189. موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، أبو الأعلى المودودي، (ط5 ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1982م) .
190. المورِد الزُّلال في التنبيه على أخطاء الظِّلال، عبد الله الدويش، (ط1، مصر: مكتبة المحجة البيضاء، 2004م).
191. موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي، (ط4، مكتبة النهضة المصرية، 1989م).
192. الموسوعة الصوفية، عبد المنعم الحفني، (ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 2003م).
193. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، (ط2، الرياض،

1999م).
194. موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، (ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،1984م).
195. الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة، وزارة الإعلام، (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، 1409هـ).
196. موقف العقل والعِلْم والعالَمَ من ربِّ العالَمين وعبادِهِ المرسَلين، مصطفى صبري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، د.ت).
197. الميسَّر في القراءات الأربع عشرة، محمد فهد خاروف ، مراجعة: محمد كريم راجح، (ط1 بيروت: دار الكَلِم الطيِّب ، 2000م).

- ن -

198. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، (ط2، الكويت: دار القلم ، 1970م).
199. النُّجوم الزاهِرة في مُلوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن بن تغري الأتابكي، تحقيق: د. إبراهيم طرخان، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي: المؤسسة المصرية العامة للتأليف، د.ت).
200. نحْوَ مجتمعٍ إسلامي، سيد قطب، (الجزائر: دار الكوثر، د.ت).
201. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، (ط1، القاهرة: دار السلام، 2008م).
202. نظام الإسلام " العقيدة والعبادة "، محمد المبارك، (ط4 ، بيروت : دار الفكر ، 1975م).
203. نَظَرات في كتاب "التصوير الفني في القر آن الكريم" لسيد قطب، ربيع بن هادي المدخلي، (ط1، القاهرة : دار المنهاج، 2003م).
204. نظرية الإسلام السياسية، أبو الأعلى المودودي ، ترجمة : جليل حسن الإصلاحي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م).
205. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي، (باتنة : دار الشهاب، 1988م).
206. نظرية المعرفة بين القر آن والفلسفة، راجح عبد الحميد الكردي، (ط1، الرياض : مكتبة المؤيد، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992م).

207. نقد الخِطاب الديني "رؤية نقدية"، نصر حامد أبو زيد ، (ط1 ، بيروت: دار المنتخب العربي، 1992م).

208. نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر ، سيد قطب ، (ط2 ، جدة: الدار السعودية ، 1969م).

- هـ -

209. الهِجرة والتكفير، رجب مدكور، (ط1، القاهرة : مكتبة الدين القيِّم ، 1985م).

210. ه ذا الدين ، سيد قطب ، (بيروت : دار الشروق، 1974م).

- و -

211. الوافي بالوفيات، الصفدي، بعناية مجموعة من المحققين، (الطبعة الثانية، بيروت، لبنان : دار الكتب العلمية، 1402هـ/ 1982م).

212. الوسيط في شرح القانون المدني، عبد الرزاق السنهوري، (ط 2، القاهرة: دار النهضة العربية، 1964م).

213. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دون رقم الطبعة، القاهرة: مطبعة النهضة المصرية، د.ت).

214. الوفيات، أبو العباس أحمد الخطيب، تحقيق: عادل نويهض، (بيروت: دار الآفاق الجديدة ، د.ت).

الجرائد والمجلات والدوريات:

1. جريدة "زهرة الإسلام" عدد 39، بتاريخ: 18 نوفمبر 2006م.
2. جريدة "الشعب"، نوفمبر 1986م.
3. جريدة "العقيدة" الجزائر، تاريخ: 26 فيفري 1992م.
4. جريدة "الفجر"، الأعداد 15، 19، 20، 21، 22 أكتوبر 2000م.
5. الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، (مركز دراسات الوحدة العربية : الطبعة الأولى، 1987م).
6. قناة الحوار الفضائية، حصة "مراجعات"، بتاريخ جانفي 2010م.
7. مجلة "الأصالة"، الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي (ملتقى القرآن الكريم، من 01 إلى 07 سبتمبر 1981) طبعة 1983م، قسنطينة.
8. مجلة "المجتمع" الكويتية، عدد 271، تاريخ: 21ـ 10ـ 1975م.
9. مجلة "الرسالة" ، السنة الثالثة عشر، ج02، عدد 648، تاريخ: 03 ديسمبر 1945م .
10. موقع "إخوان أون لاين" حوار عمرو محمود مع المستشار علي جريشة، بتاريخ: 29 ـ 08 ـ 2006م.

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Claude albert colliard, libertés publiques, dalloz, paris, 6eme édition, 1982.
2. Marcel perlot, histoire des idées politiques, dalloz, paris, 9eme édition 1986.
3. Dominique sourdel , « L'slam » presse universitaire de France, series « que sais je » 13 éme édition, 1984.
4. Fadlallah, m, la pensée politique et religieuse de sayyid kotb, these , sorbonne, paris, 1974.
5. Hobbes, (thomas), le citoyen ou les fondements de la politique, édition G.F flamarion, 1982 paris, traduit par Samuel sorbier.
6. Kapel, G, le prophete et le pharaon – les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporaine, édition la découverte, paris, 1984.
7. Lahbabi, m, le personnalisme musulman, paris, 1967.
8. Laoust, H, les schisms de l'islam – introduction a une étude de la religion musulmane, paris, 1965.
9. Maurice bucaille, la bible, le coran et la science, sned-alger, édition seghers, paris, 1976.
10. Carre, o et g Michaud (présentation), les frères musulmans- égypte et syrie (1928 – 1982) édition gallimard, paris, 1983.

فهرس الموضوعات:

العنوان: العقيدة عند سيد قطب "المنهجُ والمَضمون"
"دراسةٌ تحليلية نقدية"

المقدمة: تتناول مَدخلا للموضوع وأهميته ، والإشكالية، والمنهج المُتَّبع ، والدراسات السابقة، ومجال الإضافة، والصعوبات التي واجهتْني، وعَمَلي في الهوامش والحَوَاشي.

خُلاصَة البَحْث

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ خلْق الله محمد بن عبدِ الله وعلى آلِه وصحْبِه ومَن والاهُ.

وبعدُ: فالعقيدةُ الإسلاميةُ هي القاعدةُ الإيمانيةُ الأساسُ في الدينِ الإسلامي؛ التي تنبثقُ عنها التصوُّراتُ والمَفاهيمُ الصحيحةُ حول وُجودِ الله تعالى وصفاتِ كمالِه وجلالِه وجمالِه، وحولَ اليوم الآخِر وأحوالِه وسائرِ الأمورِ الغيبيةِ، وحولَ الأنبياءِ ونُعوتِهم ومَهامِّهم، وحولَ الكونِ كلِّه ومهمَّة الإنسانِ فيه؛ خليفةً في الأرضِ مِن دونِ الخَلائِق.

ولَمَّا كانت الحاجةُ لا تزالُ قائمةً إلى عرْضٍ كاملٍ لهذه العقيدةِ وتقديمِها في ثوب جديد لتقفَ موقفَ التحدِّي والغَلَبة أمامَ المذاهِبِ العقائدية المستحدَثة؛ إنْ في أسلوبِ العرْضِ أو في مناهج البحثِ والاستدلالِ، ولِطُولِ تمرُّسِنا بتراثِ سيد قطب في الفِكر الإسلامي والتفسير؛ ألفيْنَا محاولتَه في عرْض العقيدةِ الإسلاميةِ متكاملةً جديرةً بالبحْث؛ إذ ابتعدَ بها عن الجدَل الذهني الذي سادَ في العُصور المتأخِّرَة، واستهدفَ بيانَ مقتضياتِها في حياةِ البشرِ من حيث تغييرُ واقعِهم وتصحيح مفاهيمِهم وتصوُّراتِهم وبالتالي أنظمتِهم وأوضاعِهم وعاداتِهم وتقاليدِهم ويُقيموا حَيَوَاتِهم على هذا المنهج المبارَك الذي فصَّلنا حيثياتِه في ثنايا هذا البحْث.

فبدأْنَا بدراسَة مصادِر العقيدةِ عندَه بعد أنْ وطَّأنا لذلكَ باستقصاءِ تعاريفِ العقيدةِ عندَ القُدماء والمحدَثين، وبنبذةٍ عن سيد قطب؛ مُركِّزينَ على اتجاهِهِ الإسلامي؛ وكيف اعتمدَ

على طريقةٍ خاصَّة في استِلْهام النصوصِ مباشرةً من الكتاب والسُّنة متجاوِزًا الخلافَ المذهبي والكلامي، مع مُناقشةِ ما أُثيرَ حولَه من القوْل بخلْقِ القرآنِ وموقفه من خَبَر الآحادِ في العقيدة.

وثنَّيْنا بدراسةِ أدلةِ العقيدةِ التي اعتمدَها مُستقرِئينَ المَباحثَ العَقَدية في كُتبه، وخَلَصنا إلى أنه اقتصرَ على أدلةِ القرآنِ الكريم البسيطةِ الواضحةِ التي تخاطبُ المداركَ الإنسانيةَ كلَّها؛ وهي دليل الفِطرة ودليل العقل ودلالة الأنبياء ومعجزاتهم ودليل الأنفُس والآفاق.

وثلَّثْنا بدراسةِ عرْضه لمباحثِ العقيدةِ بأقسامِها الأربعةِ الرئيسَة (الإلهيات، النبوَّات، الكوْنيات، الغيبيَّات) واستخلصْنا مسلكَه في إثباتِ وُجودِ الله عزوجلّ مخالِفا في ذلكَ الفلاسفةَ والمتكلمينَ مُكتفِيًا بأدلةِ القرآنِ الكريم، وكذا مسلكه في صفاتِ الله عزوجلّ بإثباتِ ما أثْبتَه لنفسِه العَلِيَّة من غيرِ تكييفٍ ولا تعطيل، ثم استجليْنَا موقفَه من الغيبياتِ عامَّةً بالتوقُّف فيما لم يَرِد فيه نصٌّ صحيح، والتركيز على بيان الأثَر الإيماني العمَلي الحَرَكي الذي يبعثُه الاعتقادُ بالمسائلِ الغيبية.

وختمْنَا بدراسةِ الوظيفةِ الأساسيةِ للإنسانِ في نظرِه؛ وهي تنفيذُ حاكِميَّة الله في الأرض، فمهَّدْنا لذلك بالتعريفِ ببعضِ المصطلحاتِ التي اختصَّ بها سيد قطب كالحاكِمية والمُفاصَلة الشُّعورية والجاهِلية، ثم في ربْطِه العقيدةَ بالسياسة وتفصيله لأُصول الحُكم الإسلامي وسُلطات الحاكِم وحُقوق الإنسان، وتوسَّعْنا في مبحث الحاكِمية التي انْبَنَت عليها كثيرٌ من الأحْكام؛ والتي أُسيءَ فهْمُها عن سيد فأفَضْنا في البيانِ ودلَّلْنا على أنه لا يُكفِّرُ المجتمعاتِ الإسلاميةَ ولا الأفرادَ المُعيَّنين بما يَقطع دابِرَ كل تُهمة، وجعلْنَا خِتام هذه

المباحث: العقيدة والشهود الحضاري؛ ببيانِ الأثَر الحضاري للعقيدةِ الإسلامية وعالَميتِها إذ جعلَ سيدٌ جنسيةَ المسلِم عقيدتَه.

وفي الخاتِمة سرَدْنا أهمَّ وأبرزَ النتائج التي خلَصنا إليها على شكل نِقاط مركَّزة بلغَتْ إحدى وعشرين، ونصَصْنا على الجوانِب والقضايا البِكْر التي لا تزالُ مخبوءةً في تُراثِ سيد قطب الفِكري والأدَبي عسىَ أن يستجْلِيَها الباحثونَ والأساتذة، وأبرزُها هي:

1 - اعتمادُه في أخْذِه للعقيدةِ على مصدرَيْ القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة، مستلْهِما منهما مباشرةً في عرْضه لمسائلِ العقيدةِ خالصةً من شوائبِ الفلسفاتِ والآراءِ المتضارِبة، متجاوِزًا الخلافاتِ المذهبيةَ والكلاميةَ التي تحجُب نورَها وإيحاءَها عن النفوس، هادِفًا إلى ربْط المسلِم بالمَعِين القرآني والنبوي مباشرةً ليتفاعَل بهذه العقيدةِ ويعيشَ في جوِّها كما كان يعيشُ الرَّعِيلُ الأوَّلُ بها.

2 - إعمالُه أدلةَ القرآنِ الكريم في إثباتِ وُجودِ الله تعالى وهي (دليل الفِطرة ودليل العقل ودلالة الأنبياء ومعجزاتهم وأدلة الأنفُس والآفاق) البسيطة الواضحة التي تخاطِبُ كلَّ المدارِك الإنسانية، ووقوفُه عند النصوص القرآنية المتعلقة بالذات الإلهية إذ ليس كمثلِه شيءٌ، فلا سبيلَ للعقلِ أن يبحثَ في الكيفياتِ لأنها متوقفةٌ على تصوُّر الماهيَّة.

3 -إثباتُه ما أثبتَ اللهُ تعالى لنفسِه من صفاتِ الكمالِ والجلالِ والجمالِ وبُعْدُه عن التكييف والتعطيل، ورجوعُه إلى الحقِّ في مسائلَ أخطأَ فيها، وتوقُّفُه في سائرِ الغيبياتِ التي لم يرِدْ فيها نصٌّ صحيحٌ متواترٌ مفسِّر، وتركيزُه على بيانِ الأثَر الإيماني العمَلي الحَرَكي الذي يبعثُه الاعتقادُ بالمسائل الغيبية.

4 -تركيزُه على مفهوم الحاكِمية وجعلها أخصّ خصائص الأُلوهية، وقد أُسيءَ فهْمُه فيها كثيرًا، وبيَّنَّا بجَلاء الفرْق بين التشريع الذي هو ردُّ الحاكِمية إلى الله وبين مزاوَلة السلطة

الذي هو تطبيقٌ لهذه الشريعة، فمن ادَّعى التشريعَ فقد ادَّعى الحاكِميةَ، أمَّا المزاوِل فليس في حُكم المشرِّع من عند نفسِه، وقد فصَّلنا حُكم كلٍّ منهما في البحث.

5-أنه لا يُكفِّر المجتمعاتِ الإسلاميةَ ولا الأفرادَ المُعيَّنين، ودلَّلْنا على ذلك بنصوص من "الظلال" و "المعالِم" وهما من أواخِر ما كتبَ ومِن أنضَج كُتبه التي عرَضت منهجَه العَقَدي.

وأخيرًا ؛ فبحثُنا كلُّه محاولةٌ لرَسْم صُورة كُلِّية جامِعة لمذهبِه في العقيدة، وجمْعٌ لما تناثرَ في كُتبِه من التصوُّرات والمَفاهيم العَقَدية التي بسَطها لا ليُضيفَ فصْلًا جديدًا في المكتبة الإسلامية – كما يُعبِّر هو نفسُه – فتلك المعرفة البارِدة التي لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر ليست من اهتماماتِ سيد قطب، وإنما كان هدفُه ووُكْدُه الحَرَكةَ مِن وراءِ المعرِفة؛ أنْ تستحيلَ هذه المعرفةُ قوةً دافِعةً لتحقيقِ مدلولِها في الواقع؛ أنْ يستجيشَ ضميرَ الإنسانِ لتحقيقِ غايةِ وُجودِه الإنساني؛ أنْ ترجعَ البشريةُ إلى ربِّها.

Résumé de la thèse

Au nom de dieu le très miséricordieux, le tout miséricordieux.
Que le salut et la bénédiction d'allah soient sur notre prophète mohammad, sur ses proches et compagnons.

La croyance islamique est la base de la foi dans la religion islamique, qui d'elle jaillissent les véritables notions et concepts sur l'existence de dieu et ses caractéristiques et qualités vénérables, et sur le jour dernier et ses circonstances et conjonctures, et tout les mondes invisibles, occultes et inconnaissables, et sur tout cet univers, et le rôle de l'homme sur terre comme successeur parmi toute les créatures

Et comme la nécessité est toujours présente pour un exposé ouvragé de cette croyance, et la présenter dans une nouvelle allure pour qu'elle fera face aux idéologies et doctrines moderne ; dans le style d'exposition et aussi dans les méthodes de recherche et argumentation, et via que j'ai accompli une thèse sur la pensée islamique et interprétation du coran chez sayyid kotb et j'ai trouvé – en étudiant sa pensée – une belle exposition de la croyance musulmane qui mérite une exploration, car il est éloigné des controverses abstraites qui ont régné sur les études islamique ces dernies temps, en visant l'éclaircissement de leur exigences dans la vie humaine sous le rapport de changer leur actuel ;de corriger leur notions et concepts ; par conséquent leur régimes ; attitudes ; situations ; coutumes ; et tracer leur vies sur ce chemin béni.

J'ai commencé par l'étude des sources et provenances de la croyance chez sayyid kotb, après un avant-propos sur les définitions de la croyance chez les anciens et les contemporains, et une esquisse

sur sa vie ; en se concentrant sur sa tendance islamique et comment il a agrée une façon différente d'invocation coranique et sunnite en surpassant les litiges et querelles doctrinaux en débattant aussi ce qui se dit sur sa position du problème (créature du coran) et aussi de (l'attribut d'unités) dans la croyance.

Et puis par l'étude des arguments de la croyance chez lui en inductant les dissertations de la croyance de ses livres, et parvenir au résultat ; que sayyid se cantonne dans les arguments coraniques simples et claires qui visent toute le perceptibilités humaines sont : l'argument de nature, argument de la raison, argument des prophètes et leur miracles, argument des âmes et horizons.

Et puis par l'étude de son exposition des dissertations de la croyance en ses quatre parties essentielles (théologies, prophétie, univers, mondes invisibles), en inductant sa façon de prouver l'existence de dieu qui se diffère de la méthode philosophique et de la théologie scolastique, se cantonnant dans les arguments coranique, et aussi sa façon d'étudier ses caractéristique et qualités vénérables, il les affirme sans qualification et sans cessation, et en a éclairci sa position de la métaphasique en général ; il s'arrête aux choses qui n'ont pas soutenu par un texte coranique et se concentre sur l'éclaircissement des vestiges pratiques de la croyance dans la vie humaine.

Et en a terminé sur l'étude de la fonction essentielle de l'homme sur terre ; qui est l'application de la loi divine, et j'ai aplani pour cela avec une terminologie intime de sayyid comme (la souveraineté divine – hakimiyya-, excommunication – moufassala-, antéislam – djahiliyya-), et la liaison qu'il a fait entre la croyance et la politique ; son développement des piliers du gouvernement islamique, les pouvoirs du gouverneur, les droits de l'homme, et j'ai étendu le chapitre de la souveraineté divine qui a fait beaucoup de

controverses, et j'ai prouvé que sayyid kotb n'excommunie pas les sociétés musulmanes ; ni les individus musulmans, et en a terminé par la croyance et la civilisation.

Et en fin j'ai cité en vingt et un points concentres les résultats les plus importants de la thèse.

Et louange a dieu seigneur des mondes

Khalil kadi

Université d'Alger – 1 –

Faculté des sciences islamiques

Département des doctrines et religions comparées

La croyance chez sayyid kotb

– La méthode et le contenu –

Thèse de doctorat

Par : kadi khalil

Commission de la soutenance :

Prof dr : ………………………….. président
Prof dr : amar djidel ………… encadreur
Prof dr :………………………... membre
Prof dr : ……………………….. membre
Prof dr : ……………………….. membre

Université d'Alger – 1 –

Faculté des sciences islamiques

Département des doctrines et religions comparées

La croyance chez sayyid kotb

- La méthode et le contenu-

Thèse de doctorat

Par : kadi khalil

Commission de la soutenance :

Prof dr : chafia saddiq…………………….. président
Prof dr : amar djidel …………………..…… encadreur
Prof dr : mohammad yaiche ………..……. membre
Prof dr : said rahmani…………………… membre
Prof dr : salah naamane (constantine)… membre